

البيان والبيان

في

تفسير القرآن صحيح السنين

تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن (الفرلوي)

المجلد الثاني

البقرة (٧٥ - ١٧٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْسَ كَذِبًا وَلَا بَيِّنَاتٍ

فِي

تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ صَحِيحِ الشَّيْخِ

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي
Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman
Al-Maghrawi.
Pages (40 Volumes) 22072 عدد الصفحات (40 مجلداً)
Size 17 x 24 cm قياس الصفحات
Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة
Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنان
Edition : 1st الطبعة : الأولى

الكتاب : التذير والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن
Title : AT-TADABBUR WAL-BAYÂN
FI TAFSÎR AL-QUR'ÂN BI ŞAHÎH AS-SUNAN
Classification: Exegesis التصنيف : تفسير

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع الثانوي : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

مردمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿فَأَنْظِمُوهُمْ أَنْ يُولُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ
كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)

★ غريب الآية:

أفنتظمعون: الطمع: نزوع الشيء إلى الشيء شهوة له. وطمع في كذا طمعا
وطماعية فهو طامع وطمع. ولما كان أكثر الطمع من جهة الهوى قيل: الطمع طبع
ثان.

يحرّفونه: التحريف إمالة الشيء عن جهته وصرفه، ومنه تحريف الكلم كقوله
تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾^(١)، وقوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾، فقيل: تحريفهم
له تبديل لفظ بلفظ آخر يغير معناه. وقيل: بل هو تحريف المعنى دون اللفظ.
عقلوه: عرفوه وعلموه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذين عنى الله بقوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ
مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فقال بعضهم:
ثم ذكر بسنده عن السدي وعن ابن زيد قالا: هي التوراة حرفوها.
ثم ذكر بسنده عن الربيع في قوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ
يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، فكانوا يسمعون من ذلك كما يسمع أهل
النبوة، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون».

(١) النساء: الآية (٤٦).

ثم قال : «وأولى التأويلين اللذين ذكرت بالآية، وأشبههما بما دل عليه ظاهر التلاوة، ما قاله الربيع بن أنس، والذي حكاه ابن إسحاق عن بعض أهل العلم : من أن الله - تعالى ذكره - إنما عنى بذلك من سمع كلامه من بني إسرائيل، سماع موسى إياه منه، ثم حرف ذلك وبدل، من بعد سماعه وعلمه به وفهمه إياه . وذلك أن الله - جل ثناؤه - إنما أخبر أن التحريف كان من فريق منهم كانوا يسمعون كلام الله ﷻ، استعظامًا من الله لما كانوا يأتون من البهتان، بعد توكيد الحجة عليهم والبرهان، وإذنا منه - تعالى ذكره - عباده المؤمنين، قطع أطماعهم من إيمان بقايا نسلهم بما أتاهم به محمد من الحق والنور والهدى، فقال لهم : كيف تطمعون في تصديق هؤلاء اليهود إياكم، وإنما تخبرونهم - بالذي تخبرونهم من الأنباء عن الله ﷻ - عن غيب لم يشاهدوه ولم يعاينوه، وقد كان بعضهم يسمع من الله كلامه وأمره ونهيه، ثم يبدله ويحرفه ويجحدّه؟ فهؤلاء الذين بين أظهركم من بقايا نسلهم، أخرى أن يجحدوا ما أتيتموهم به من الحق، وهم لا يسمعون من الله، وإنما يسمعون منكم - وأقرب إلى أن يحرفوا ما في كتبهم من صفة نبيكم محمد ﷺ ونعته ويبدلوه، وهم به عالمون، فيجحدوه ويكذبوا - من أوائلهم الذين باشروا كلام الله من الله - جل ثناؤه -، ثم حرفوه من بعد ما عقلوه وعلموه، متعمدين التحريف .

ولو كان تأويل الآية على ما قاله الذين زعموا أنه عنى بقوله : ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾، يسمعون التوراة، لم يكن لذكر قوله : ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ معنى مفهوم؛ لأن ذلك قد سمعه المحرف منهم وغير المحرف، فخصوص المحرف منهم بأنه كان يسمع كلام الله - إن كان التأويل على ما قاله الذين ذكرنا قولهم - دون غيرهم، ممن كان يسمع ذلك سماعهم، لا معنى له .

فإن ظن ظان أنه إنما صلح أن يقال ذلك لقوله : ﴿يُحَرِّفُونَهُ﴾، فقد أغفل وجه الصواب في ذلك . وذلك أن ذلك لو كان كذلك لقل : أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . ولكنه - جل ثناؤه - أخبر عن خاص من اليهود، كانوا أعطوا - من مباشرتهم سماع كلام الله - ما لم يعطه أحد غير الأنبياء والرسل، ثم بدلوا وحرفوا ما سمعوا من ذلك . فلذلك وصفهم بما وصفهم به، للخصوص الذي كان خص به هؤلاء الفريق الذي ذكرهم في كتابه - تعالى ذكره - .

ويعني بقوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾، ثم يبدلون معناه وتأويله ويغيرونه. وأصله من انحراف الشيء عن جهته، وهو ميله عنها إلى غيرها. فكذلك قوله: ﴿يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي يميلونه عن وجهه ومعناه الذي هو معناه، إلى غيره. فأخبر الله -جل ثناؤه- أنهم فعلوا ما فعلوا من ذلك، على علم منهم بتأويل ما حرفوا، وأنه بخلاف ما حرفوه إليه. فقال: ﴿يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَدِّ مَا عَقَلُوهُ﴾؛ يعني: من بعد ما عقلوا وتأويله، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: يعلمون أنهم في تحريفهم ما حرفوا من ذلك مبطلون كاذبون.

وذلك إخبار من الله -جل ثناؤه- عن إقدامهم على البهت، ومناصبتهم العداوة له ولرسوله موسى ﷺ، وأن بقاياهم من مناصبتهم العداوة لله ولرسوله محمد ﷺ بغيا وحسدا على مثل الذي كان عليه أوائلهم من ذلك في عصر موسى -عليه الصلاة والسلام-^(١).

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ هذا استفهام فيه معنى الإنكار، كأنه أيأسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود؛ أي: إن كفروا فلهم سابقة في ذلك. والخطاب لأصحاب النبي ﷺ. وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجوار الذي كان بينهم. وقيل: الخطاب للنبي ﷺ خاصة؛ عن ابن عباس: أي: لا تحزن على تكذيبهم إياك، وأخبره أنهم من أهل السوء الذين مضوا»^(٢).

وقال: ﴿مِنْ بَدِّ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: عرفوه وعلموه. وهذا توبيخ لهم؛ أي: إن هؤلاء اليهود قد سلفت لأبائهم أفاعيل سوء وعناد؛ فهؤلاء على ذلك السنن، فكيف تطمعون في إيمانهم!

ودل هذا الكلام أيضا على أن العالم بالحق المعاند فيه بعيد من الرشد؛ لأنه علم الوعد والوعيد ولم ينهه ذلك عن عناده»^(٣).

وقال الشوكاني: «والمراد من التحريف أنهم عمدوا إلى ما سمعوه من التوراة، فجعلوا حلاله حراما أو نحو ذلك مما فيه موافقة لأهوائهم كتحريفهم صفة رسول الله ﷺ وإسقاط الحدود عن أشرفهم، أو سمعوا كلام الله لموسى فزادوا فيه ونقصوا،

(١) جامع البيان (٢/ ٢٤٥-٢٤٩ تحقيق شاكر).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢).

وهذا إخبار عن إصرارهم على الكفر وإنكار على من طمع في إيمانهم وحالهم هذه الحال : أي : ولهم سلف حرفوا كلام الله وغيروا شرائعه وهم مقتدون بهم متبعون سبيلهم . ومعنى قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أي : من بعد ما فهموه بعقولهم مع كونهم يعلمون أن ذلك الذي فعلوه تحريف مخالف لما أمرهم الله به من تبليغ شرائعه كما هي ، فهم وقعوا في المعصية عالمين بها ، وذلك أشد لعقوبتهم وأبين لضلالهم^(١) .

وقال محمد رشيد رضا : « كان النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يرون أن أولى الناس بالإيمان وأقربهم منه اليهود لأنهم موحدون ومصدقون بالوحي والبعث في الجملة ، ولذلك كانوا يطمعون بدخولهم في الإسلام أفواجاً ؛ لأنه مصدق لما معهم في الجملة ، ومجل لجميع شبهات الدين ، وحال لجميع إشكالاته بالتفصيل ، وواضع له على قواعد لا ترهق الناس عسراً ﴿ وَيُحْدِ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾^(٢) . كان هذا الطمع في إيمانهم مبنياً على وجه نظري معقول لولا أنهم اكتفوا بجعل الدين رابطة جنسية ، ولم يجعلوه هداية روحية ، ولذلك كانوا يتصرفون فيه باختلاف المذاهب والآراء ، ويحرفون كلمه عن مواضعها بحسب الأهواء ، وما أعذر الله المؤمنين في طمعهم هذا إلا بعدما قص عليهم من نبأ بني إسرائيل الذين كانوا على عهد التشريع وشاهدوا الآيات ما علم به أنهم في المجاهدة والمعاندة على عرق راسخ ونحيزة^(٣) موروثة لا يكفي في زلزالها كون القرآن مبيناً في نفسه لا يتطرق إليه ريب ، ولا يتسرب إليه شك ، ولذلك بدأ السورة بوصف الكتاب بهذا وكونه هدى للمتقين من أهل الكتاب وغيرهم . وثنى ببيان أن من الناس من يعانده ويباhtه ، ومنهم المذبذب الذي يميل مع الريحين ، فلا يثبت مع أحد الفريقين ، ثم أفاض في شرح حال بني إسرائيل الذين لم يؤمن منهم إلا قليل من أهل العلم والتقوى ، وكان الأكثرون أشد الناس استكباراً عن الإيمان وإيذاء للرسول ولمن اتبعه من المؤمنين . وبعد هذا كله أنكر على المؤمنين ذلك الطمع بدخول اليهود في دين الله أفواجاً ، ووصل الإنكار بحجة واقعة ناهضة ، تجعل تلك الحجة النظرية داحضة فعلم بهذا أن الكلام لا يزال متصلاً في موضوع الكتاب وأصناف الناس بالنسبة إلى الإيمان به وعدم الإيمان .

(٢) الأعراف : الآية (١٥٧) .

(١) فتح القدير (١/ ١٥١) .

(٣) النحيزة : الطيبة .

كلما بعد العهد جاء ما يذكر به تذكيراً قال تعالى: ﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ كان الظاهر أن يكون الخطاب للنبي ﷺ خاصة ولكن خاطب المؤمنين معه لأنهم كانوا يشاركونه في الألم من إيذائهم والطمع بهدايتهم فأشركهم بالتسلية كما سبق، ولأن طمع بعض المؤمنين بإيمانهم كان يحملهم على الانبساط معهم في المعاشرة إلى حد الإفشاء إليهم ببعض الشؤون المالية المحضة واتخاذهم بطانة، وكان يعقب ذلك من الضرر ما يعقب حتى نهاهم الله تعالى عن اتخاذ البطانة من دون المؤمنين إذا كانوا موصوفين بأوصاف هؤلاء، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾^(١) والآية الآتية تدل على هذا الإفشاء أيضاً.

أما الحجة التي وصلها بإنكار الطمع بإيمانهم للدلالة على أنه طمع في غير مطعم فهي تعمد تحريف كلام الله ممن سمعه منهم. وذلك أن موسى اختار بأمر الله سبعين رجلاً من قومه لسماع الوحي ومشاهدة الحال التي يكلمه الله تعالى بها وقد سمعوا كلام الله تعالى على الوجه الذي لا نعرفه، وإنما نعرف أنهم صحبوه إلى حيث كان يناجي الله تعالى، وكان من شأن الله تعالى معهم أن صدقوا بأن ما جاء به موسى ﷺ هو وحي من الله تعالى. والتصديق بذلك لا يتوقف على معرفة كيفيته وكنهه فإن أكثر ما نصدق به تصديق يقين لا نعرف حقيقته وكنهه ولا كيفية تكوينه وإيجاده. وقد كان من أولئك المختارين أنهم لما رجعوا إلى قومهم حرفوا كلام الله الذي حضروا وحيه وأذعنوا له بأن صرفوه عن وجهه بالتأويل كما حققه ابن جرير الطبري وغيره وهذا التحريف ثابت عندهم منصوص في التوراة والتاريخ الديني الذي يسمى التاريخ المقدس.

فدل هذا وما سبقه على أن القسوة المانعة من التأثر والتدبر، ومكابرة الحق والتفصي من عقال الشريعة، كان شنشنة قديمة فيهم، ثم تأصل فصار غريزة مطبوعة، فإعراضهم عن القرآن لا يستلزم الطعن عليه، ولا القول بجواز تسليق شيء من الريب إليه، فإنهم قد حرفوا وبدلوا، وعاندوا وجاحدوا، وهم يشاهدون الآيات الحسية، ويؤخذون بالعقوبات المعاشية، فكيف يستنكرون بعد هذا أن

(١) آل عمران: الآية (١١٨).

يعرضوا عن دين دلائله عقلية، وآيته الكبرى معنوية، وهي القرآن المعجز بما فيه من علوم الهداية، ودقائق البلاغة، وأنباء الغيب على أنه من أُمِّي عاش أربعين سنة لم يؤثر عنه فيها شيء من العلم، ولم يزاحم فحول البلاغة في نثر ولا نظم، وفهم تلك الدلائل إنما يكون من ذوي العقول الحرة والقلوب السليمة، الذين لطف شعورهم، ورق وجدانهم وصحت أذواقهم»^(١).

وقال ابن القيم: «فدُمَّ المحرفين لكتابه، والأُمِّيِّين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة، وهي الأُمِّيِّ، والذين يكتبون فيكتبون الباطل، ويقولون هذا حق وهو من عند الله، وذم في عدة مواضع الذين يكتُمون ما أنزله من الكتاب والبيانات والهدى، وهذه الأنواع الأربعة المذمومة موجودة في هؤلاء المعارضين عن نصوص الوحي، المعارضين لها بآرائهم وعقولهم وأهوائهم، فإنهم تارة يكتُمون الأحاديث والآيات المخالفة لأقوالهم، ومنهم طوائف تضع أحاديث على وفق مذاهبهم وأهوائهم في الأصول والفروع، ويقولون هذا من عند الله، وتارة يضعون كتبًا بآرائهم وعقولهم وأهوائهم، وتارة يضعون كتبًا بآرائهم وعقولهم، وأذواقهم، وخيالاتهم ويدَّعون أنها الدين الذي يجب اتباعه، ويقدمونها على نصوص الوحي»^(٢).

* * *

(١) تفسير المنار (١/ ٣٥٤-٣٥٦).

(٢) الصواعق المرسله (٣/ ١٠٤٩-١٠٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُفُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾

★ غريب الآية:

فتح: حكم. والفتح عند العرب: القضاء والحكم، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾^(١) أي: الحاكمين. والفتاح: القاضي بلغة اليمن، يقال: بيني وبينك الفتاح؛ قيل ذلك لأنه ينصر المظلوم على الظالم. والفتح: النصر، ومنه قوله: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢)، وقوله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَ كُفُّكُمْ أَلْفَتْحٌ﴾^(٣)، ويكون بمعنى الفرق بين الشيتين.

ليحاجوكم: ليعيروكم ويقولون نحن أكرم على الله منكم. وقيل المعنى: ليحتجوا عليكم بقولكم، يقولون: كفرتم به بعد أن وقفتم على صدقه. والحجة الكلام المستقيم على الإطلاق، ومن ذلك محجة الطريق. وحاجبت فلاناً فحججته أي: غلبته بالحجة، ومنه الحديث: «فحج آدم موسى»^(٤).

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «أما قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾، فإنه خبر من الله -جل ذكره- عن الذين أيأس أصحاب محمد ﷺ من إيمانهم من يهود بني إسرائيل، الذين كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، وهم الذين إذا لقوا الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ قالوا: آمنا، يعني بذلك أنهم إذا لقوا الذين صدقوا بالله وبمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله، قالوا: آمنا أي:

(٢) البقرة: الآية (٨٩).

(١) الأعراف: الآية (٨٩).

(٣) الأنفال: الآية (١٩).

(٤) تقدم تخريجه عند قوله تعالى: ﴿فَآزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ الآية.

صدقنا بمحمد وبما صدقتم به، وأقررنا بذلك. أخبر الله ﷻ عنهم أنهم تخلقوا بأخلاق المنافقين، وسلكوا منهاجهم...».

وقال: «يعني بقوله: ﴿وَإِذَا خَلَا بِعَصُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: إذا خلا بعض هؤلاء اليهود الذين وصف الله صفتهم إلى بعض منهم، فصاروا في خلاء من الناس غيرهم، وذلك هو الموضع الذي ليس فيه غيرهم قالوا: يعني قال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾»^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «ثم بعد هذا الاحتجاج انتقل إلى بيان بعض أحوال الذين كانوا في زمن التنزيل وقد غير الأسلوب هنا فإنه كان يحكي سيئاتهم مبتدئاً بكلمة (وإذا) لأنه تذكير بما كان في الزمان الماضي. والابتداء بكلمة (إذا) هنا هو المناسب في الحكاية عن حال واقعة في الحال، مستمرة في الاستقبال، والمراد من حكاية أحوال الحاضرين، بيان أنها مساوية لأحوال سلفهم الغابرين، وأنه لا يرجى من هؤلاء أفضل مما كان من أولئك. قال: ﴿وَإِذَا لَفَؤُا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَصُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾».

ترشد هذه الآية إلى طور من أطوار البشر في زمن الإصلاح وهي أن جماهير الناس يقعون في الحيرة بين الهداية الجديدة والتقاليد القديمة. لا ينظرون إلى الحق فيتحروا اتباعه أين كان، ولكنهم يفكرون في منفعتهم الخاصة، يقولون: نخشى أن نجهر بالجديد فيخذل حزبه، ويتفرق شمله، فتكون من الخاسرين. ولا نأمن إن بقينا على القديم أن يتقلص ظله، ويذل أهله، فنكون مع الضالين. فالحزم أن نوافق كل حزب نخلو به ونعتذر إلى الآخر إذا هو علم بما كان منا إلى أن نتبين الفوز في أحد الفريقين: فيكونون هكذا مذبذبين كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَفَؤُا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَصُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ إلخ الضمير في قالوا الثانية غير الضمير في قالوا الأولى كما هو ظاهر من السياق، ولا لبس فيه ولا اشتباه، ومثله مستفيض في كلام البلغاء وفي التنزيل أيضاً كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْصُلُوهُنَّ﴾^(٢) فإن المنهي عن العصل الأولياء لا المطلقون. والكلام في القرآن للمكلفين كافة فيوجه كل كلام إلى صاحبه

(٢) البقرة: الآية (٢٣٢).

(١) جامع البيان (٢/٢٤٩-٢٥٠ تحقيق شاكر).

الذي يتعين أن يكون له بقرينة الحال أو المقال . فإذا وجه الخطاب بالطلاق إلى الأزواج لأنه لا يكون إلا منهم فكذلك يوجه الخطاب بالنهي عن العضل وهو منع المرأة من التزوج إلى الأولياء ؛ لأنه لا يكون إلا منهم . وعلى هذه الطريقة يتخرج قوله ﴿قَالُوا ءَمَنَّا﴾ وقوله : ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ﴾ فالكلام في مجموع اليهود ، ويوجه الأول إلى الذين يلاقون المؤمنين . والثاني : إلى الذين يلاقيهم هؤلاء من قومهم ويعذلونهم على الإفضاء إلى المؤمنين بما فتح الله عليهم .

المراد بالفتح هنا الإنعام بالشرعية والأحكام ، والبشارة بالنبي - عليه الصلاة والسلام - ، شبه الذي يعطى الشرية بالمحصور يفتح عليه فيخرج من الضيق . أو معنى ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما تحكم به وأخذ به الميثاق عليكم من الإيمان بالنبي الذي يجيئكم مصدقا لما معكم ونصره . وقوله : ﴿لِيَحْجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ معناه يقيمون به عليكم الحجة من كتاب ربكم وهو التوراة من حيث إن ما تحدثونهم به موافق لما في القرآن فلهم أن يقولوا : لولا أن محمداً نبي لما علم بهذا الذي حكاه عنكم وقد كان مثلنا لا يعرف من أمر الكتاب شيئاً : هذا ما جرى عليه المحققون في تفسير ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ وهو أنه بمعنى في كتابه فهو كقوله في أهل الإفك : ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾^(١) أي في حكمه المبين في كتابه^(٢) .

وقال ابن جرير : «وقوله : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ، خبر من الله - تعالى ذكره - عن اليهود اللائمين إخوانهم على ما أخبروا أصحاب رسول الله ﷺ بما فتح الله لهم عليهم أنهم قالوا لهم : أفلا تفقهون أيها القوم وتعقلون ، أن إخباركم أصحاب النبي ﷺ بما في كتبكم أنه نبي مبعوث ، حجة لهم عليكم عند ربكم ، يحتجون بها عليكم ؟ أي : فلا تفعلوا ذلك ، ولا تقولوا لهم مثل ما قلتم ، ولا تخبروهم بمثل ما أخبرتموهم به من ذلك . فقال - جل ثناؤه - : ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾»^(٣) .

* * *

(١) النور : الآية (١٣) .

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٥٦-٣٥٨) .

(٣) جامع البيان (٢/ ٢٥٥-٢٥٦ تحقيق شاذلي) .

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله - جل ثناؤه - : ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ، ألا يعلم هؤلاء اللائمون من اليهود إخوانهم من أهل ملتهم ، على كونهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وعلى إخبارهم المؤمنين بما في كتبهم من نعت رسول الله ﷺ ومبعثه ، القائلون لهم : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أن الله عالم بما يسرون ، فيخفونه عن المؤمنين في خلائهم من كفرهم ، وتلاومهم بينهم على إظهارهم ما أظهروا لرسول الله وللمؤمنين به من الإقرار بمحمد ﷺ ، وعلى قيلهم لهم : آمنا ، ونهي بعضهم بعضاً أن يخبروا المؤمنين بما فتح الله للمؤمنين عليهم ، وقضى لهم عليهم في كتبهم ، من حقيقة نبوة محمد ﷺ ونعته ومبعثه وما يعلنون ، فيظهرونه لمحمد ﷺ ولأصحابه المؤمنين به إذا لقوهم ، من قيلهم لهم : آمنا بمحمد ﷺ وبما جاء به ، نفاقاً وخداعاً لله ولرسوله وللمؤمنين» (١).

وقال محمد رشيد رضا : «مثل هذه الذبذبة تكون من الأمم في طور الضعف ولا سيما ضعف الإرادة والعلم ، ولو كان لأولئك القوم إرادة قوية لثبتوا ظاهراً على ما يعتقدونه باطلاً ولم يصانعوا مخالفينهم من أهل الملة الأولى أو الملة الآخرة ، وقد وبخهم الله تعالى وأنكر عليهم هذا التلون والدهان في الدين ولقاء كل فريق بوجه يظهر له ما يسرون من أمر الآخر فقال : ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يعني : أيقول اللائمون أو المنافقون كلهم ما قالوا ، ويكتمون من صفات النبي ﷺ ما كتموا ، ويحرفون من كتابهم ما حرفوا ، ولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون من كفر وكيد ، وما يعلنون من إظهار إيمان وود ، فإن كانوا مؤمنين بإحاطة علمه تعالى فلم لا يحفلون باطلاعه على ظواهرهم ، وإحاطته بما يجول في أطواء ضمائرهم ، وبما يترتب على علمه من خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة» (٢).

(١) جامع البيان (٢/ ٢٥٦) تحقيق شاکر.

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

★ غريب الآية:

أُمِّيُونَ: أي: ما لا يقرأ ولا يكتب، واحدهم: أمي، منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادة أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا القراءة.
أماني: جمع أمنية وهي التلاوة، من تمنى الكتاب؛ أي: قرأ وتلا.
قال كعب بن مالك:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَبْلَةٍ وَآخِرُهُ لَأَقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ
والأماني: الأحاديث المختلقة المكذوبة ومنه قول عثمان رضي الله عنه: «ما تمنيت منذ أسلمت»؛ أي: ما كذبت. والأماني أيضًا: ما يتمناه الإنسان ويشتهيهِ وليس له.
يظنون: يكذبون ويحدثون؛ لأنهم لا علم لهم بصحة ما يتلون وإنما هم مقلدون. ويأتي الظن بمعنى اليقين أو الشك أو الكذب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فمعنى الآية: ومنهم من لا يكتب ولا يخط ولا يعلم كتاب الله ولا يدري ما فيه، إلا تخرصًا وتقولًا على الله الباطل، ظنًا منه أنه محق في تخرصه وتقوله الباطل.

وإنما وصفهم الله - تعالى ذكره - بأنهم في تخرصهم على ظن أنهم محقون وهم مبطلون؛ لأنهم كانوا قد سمعوا من رؤسائهم وأخبارهم أمورًا حسبوها من كتاب الله، ولم تكن من كتاب الله، فوصفهم - جل ثناؤه - بأنهم يتركون التصديق بالذي يوقنون به أنه من عند الله مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ويتبعون ما هم فيه شاكون، وفي حقيقته مرتابون، مما أخبرهم به كبارهم ورؤساؤهم وأخبارهم، عنادًا منهم لله

ولرسوله، ومخالفة منهم لأمر الله، واغتراراً منهم بإمهال الله إياهم»^(١).

قال محمد رشيد رضا: «ذلك الذي تقدم هو شأن علمائهم: يحرفون كتاب الله ويخرجون من حكمه بالتأويل، وهذا هو شأن عامتهم: لا علم لهم بشيء من الكتاب، ولا معرفة لهم بالأحكام، وما عندهم من الدين فهو أمانى يتمنونها وتجول صورها في خيالاتهم، وهذه الصور هي كل ما عندهم من العلم بدينهم، وما هم على بينة منها، وإنما هي ظنون يلهون بها، وهذا هو محل الذم لا مجرد كونهم أميين، فإن الأمي قد يتلقى العلم عن العلماء الثقات ويعقله عنهم بدليله فيكون علمه صحيحاً وهؤلاء لم يكونوا كذلك. فإن قيل: لم سمي ما كانوا عليه من الأمانى ظناً مع أنهم أخذوه عن رؤساء دينهم الموثوق بهم عندهم وسلموه تسليماً فلم يكن في نفوسهم ما يخالفه ومثل هذا يسمى اعتقاداً وعلماً؟ نقول إنما العلم بالدليل ولا يسمى مثل ذلك علماً إلا من لا يعرف معنى العلم. على أنه لم يكن راجحاً ومسلماً إلا لأن مقابله لم يخطر ببالهم ولو أورد عليهم لتزلزل ما عندهم ثم زال، أو ظهر فيه الشك وتطرق إليه الاحتمال، ويصح أن يقال في مثل هؤلاء أن الظن أو التردد كان نائماً في نفوسهم وهو عرضة لأن يوقظه نقيضه ويذهب به متى طرأ. ونوم الظن لا يصح أن يسمى اعتقاداً»^(٢).

وقال: «ثم إن الآية تدل على بطلان التقليد وعدم الاعتداد بإيمان صاحبه وقد مضى على هذا إجماع الصدر الأول وأهل القرون الثلاثة وإنما كان الجاهل يأخذ عن العالم العقيدة ببرهانها، والأحكام بروايتها، ولا يتقلد رأيه كيفما كان، من غير بينة ولا برهان»^(٣).

قلت: ما أشار إليه الشيخ محمد رشيد في قوله في ذم التقليد وأن الصدر الأول كانوا يأخذون العقيدة والشرعية بأحكامها وأدلتها هذا أمر لا إشكال فيه، والذي ينبغي أن يعلم أن المتكلمين ومن صار على دربهم اعتمدوا الأدلة العقلية - على حد تعبيرهم - وهي خيالات وظنيات لا أساس لها من الصحة، والأدلة التي ينبغي أن تعتمد هي أدلة القرآن والسنة، والبراهين العقلية تابعة لها وموضحة لفحواها

(١) جامع البيان (٢/٢٦٦ تحقيق شاكر).

(٢) تفسير المنار (١/٣٥٩).

(٣) تفسير المنار (١/٣٥٨-٣٥٩).

ومعناها، وما سوى ذلك خيال وبطلان وسراب في سراب كما قال تعالى: ﴿كَرَّهِيَ بَقِيعَةَ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾^(١)، فالمتكلمون اعتمدوا فكرة الجوهر والعرض في الإثبات والنفي، وبعد اكتشاف علم الذرة أصبحت ضحكة وسخرية، وهذه القاعدة عند المتكلمين هي دينهم في المعتقد، والحمد لله الذي حفظ القرآن وحفظ السنة على مر الأيام والليالي، فأدلتها ثابتة وواضحة، لا تدفعها النظريات ولا يشك فيها إلا من به خبل في عقله، كالمتكلمين والفلاسفة ومن كان على شاكلتهم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الأمية

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين»^(٢).

* فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله «إنا» أي العرب، وقيل: أراد نفسه. وقوله: «أمية» بلفظ النسب إلى الأم فتقيل: أراد أمة العرب لأنها لا تكتب، أو منسوب إلى الأمهات، أي أنهم على أصل ولادة أمهم، أو منسوب إلى الأم؛ لأن المرأة هذه صفتها غالبًا، وقيل: منسوبون إلى أم القرى، وقوله: «لا نكتب ولا نحسب» تفسير لكونهم كذلك، وقيل للعرب أميون؛ لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ﴾^(٣) ولا يرد على ذلك أنه كان فيهم من يكتب ويحسب لأن الكتابة كانت فيهم قليلة نادرة، والمراد بالحساب هنا حساب النجوم وتسييرها، ولم يكونوا يعرفون من ذلك أيضًا إلا النزر اليسير»^(٤).

وقال شيخ الإسلام وهو يعرف الأمي، قال بعد كلام: «والصواب: أنه نسبة إلى الأمة، كما يقال عامي نسبة إلى العامة التي لم تتميز عن العامة بما يمتاز به الخاصة، وكذلك هذا لم يتميز عن الأمة بما يمتاز به الخاصة من الكتابة والقراءة، ويقال:

(١) النور: الآية (٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤٣/٢) والبخاري (١٩١٣/١٥٩/٤) ومسلم (٧٦١/٢) وأبو داود (٧٣٩/٢).

(٣) ٢٣١٩/٧٤٠ والنسائي (٤٤٦/٤) من طريق سعيد بن عمرو عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) الفتح (١٥٩/٤).

(٣) الجمعة: الآية (٢).

الأمي لمن لا يقرأ ولا يكتب كتابًا، ثم يقال لمن ليس لهم كتاب منزل من الله يقرأونه وإن كان قد يكتب ويقرأ ما لم ينزل؛ وبهذا المعنى كان العرب كلهم أميين، فإنه لم يكن عندهم كتاب منزل من الله، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلِّمُوا فَإِنْ أَتَيْتُمْ قَعْدَةً فَهِيَ كَالَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾^(٢) وقد كان في العرب كثير ممن يكتب ويقرأ المكتوب، وكلهم أميون، فلما نزل القرآن عليهم لم يبقوا أميين باعتبار أنهم لا يقرأون كتابًا من حفظهم، بل هم يقرأون القرآن من حفظهم، وأناجيلهم في صدورهم، لكن بقوا أميين باعتبار أنهم لا يحتاجون إلى كتابة دينهم، بل قرأنهم محفوظ في قلوبهم، كما في الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ أنه قال: «خلقت عبادي يوم خلقتهم حفاء - وقال فيه - إني مبتليكم ومبتل بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظانًا»^(٣). فَأَمَّا لَيْسَتْ مِثْلُ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ لَا يَحْفَظُونَ كِتَابَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ، بَلْ لَوْ عُدِمَتِ الْمَصَاحِفُ كُلُّهَا كَانَ الْقُرْآنُ مُحْفُوظًا فِي قُلُوبِ الْأُمَّةِ، وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ فَالْمُسْلِمُونَ أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ بَعْدَ نَزُولِ الْقُرْآنِ وَحَفْظِهِ. كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَحْسِبُ وَلَا نَكْتُبُ الشَّهْرَ هَكَذَا وَهَكَذَا». فَلَمْ يَقُلْ: إِنَّا لَا نَقْرَأُ كِتَابًا، وَلَا نَحْفَظُ، بَلْ قَالَ: لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ، فَدِينُنَا لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَكْتُبَ وَيَحْسَبَ، كَمَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَوَاقِيتَ صَوْمِهِمْ وَفَطْرَهُمْ بِكِتَابٍ وَحِسَابٍ، وَدِينُهُمْ مَعْلُوقٌ بِالْكِتَابِ، لَوْ عَدِمَتْ لَمْ يَعْرِفُوا دِينَهُمْ، وَلِهَذَا يَوْجَدُ أَكْثَرُ أَهْلِ السَّنَةِ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ أَكْثَرَ مِنْ أَهْلِ الْبَدْعِ، وَأَهْلِ الْبَدْعِ فِيهِمْ شَبَهٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ»^(٤).

* * *

(١) آل عمران: الآية (٢٠).

(٢) الجمعة: الآية (٢).

(٣) رواه أحمد (٤/١٦٢) ومسلم (٤/٢١٩٧-٢١٩٨/٢٨٦٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١٧/٤٣٥-٤٣٦).

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٧٩)

★ غريب الآية:

وَيْلٌ: الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة، واختلف السلف في المقصود منها، فقال ابن عباس: «ويل: صديد في أصل جهنم». وروي مرفوعاً ولا يصح: (أنه واد في جهنم)، وقال الخليل في معنى ويل: (ويح) و (ويش) و (ويه) و (ويك) و (ويب)، ومنهم من فرق بينهما.

يَكْسِبُونَ: أصل الكسب ما يتحراه الإنسان مما فيه جلب نفع أو دفع ضرر، وغلب استعماله في تحصيل الأموال وتوابعها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي رحمه الله: «توعد تعالى المحرفين للكتاب، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكتّم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل.

فجعلوا باطلهم شركاً يصطادون به ما في أيدي الناس، فظلموهم من وجهين: من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق، بل بأبطال الباطل، وذلك أعظم ممن يأخذها غصباً وسرقة ونحوهما.

ولهذا توعدهم بهذين الأمرين فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: من التحريف والباطل ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الأموال.

والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد.

قال شيخ الإسلام^(١) لما ذكر هذه الآيات من قوله: ﴿أَنْظِمُونَ﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾: فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة، على ما أصَّلَهُ من البدع الباطلة.

وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، وهو متناول لمن ترك سر تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه.

ومتناول لمن كتب كتابا بيده، مخالفاً لكتاب الله، لينال به دنيا وقال: إنه من عند الله، مثل أن يقول: هذا هو الشرع والدين، وهذا معنى الكتاب والسنة، وهذا معقول السلف والأئمة، وهذا هو أصول الدين، الذي يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية. ومتناول لمن كتم ما عنده من الكتاب والسنة، لئلا يحتج به مخالفه في الحق الذي يقوله.

وهذه الأمور كثيرة جداً في أهل الأهواء جملة، كالرافضة، وتفصيلاً مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء^(٢).

وقال القرطبي: «وفي هذه الآية والتي قبلها التحذير من التبديل والتغيير والزيادة في الشرع؛ فكل من بدَّلَ وَغَيَّرَ أو ابتدع في دين الله ما ليس منه ولا يجوز فيه، فهو داخل تحت هذا الوعيد الشديد، والعذاب الأليم؛ وقد حذر رسول الله ﷺ أمته لِمَا قد عَلِمَ ما يكون في آخر الزمان فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»^(٣) الحديث... فحذرهم أن يحدثوا من تلقاء أنفسهم في الدين خلاف كتاب الله أو سنته أو سنة أصحابه فَيُضِلُّوا به الناس؛ وقد وقع ما حذره وشاع، وكثُرَ وذاع، فإننا لله وإنا إليه راجعون»^(٤).

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿يَأْيُذِبْهُمْ﴾ بيان لجرمهم وإثبات لمجاهرتهم الله، وفرق بين من كتب وبين من أمر، إذ المتولي للفعل أشد موقعة ممن لم يتوله،

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/١٠١-١٠٢).

(١) درء التعارض (١/٧٧-٧٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢/٢٤٨) والبخاري (١١/٦١٨/٦٦١٤) ومسلم (٤/٢٠٤٢-٢٠٤٣/٢٦٥٢) وأبو داود (٥/

٧٦-٧٨/٤٧٠٨) والترمذي (٤/٣٨٦-٣٨٧/٢١٣٤) والنسائي في الكبرى (٦/٣٤٦/١١١٨٧) وابن ماجه

(١/٣٤/٨٠) من حديث أبي هريرة.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢/٩).

وإن كان رأيا له ، وقال ابن السراج : هو كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم ، وإن لم تكن حقيقة في كتب أيديهم ، والذي بدلوا هو صفة النبي ﷺ ليستديموا رياستهم ومكاسبهم ، وقال ابن إسحاق : كانت صفته في التوراة أسمر ربعة ، فردوه آدم طويلاً ، وذكر السدي أنهم كانوا يكتبون كتباً يبدلون فيها صفة النبي ﷺ ويبيعونها من الأعراب ويثونها في أتباعهم ويقولون هي من عند الله ، وتناسق هذه الآية على التي قبلها يعطي أن هذا الكتُب والتبديل إنما هو للأتباع الأُميين الذين لا يعلمون إلا ما قرئ لهم^(١).

قلت : هذه الآية ستبقى حجة قائمة منذ نزولها إلى أن تقوم الساعة ، على من يكتبون الكتاب بأيديهم ، فيزينون للناس الباطل ويتقفرون الحجج من ههنا وههنا ، ولو كانت من المكذوب على رسول الله ﷺ ، فلو تتبع القارئ كتب الرافضة التي بلغت مئات المجلدات ، وكتب الصوفية التي فيها من الافتراء والكذب على الله وعلى رسوله ما هو واضح للعيان ، وكتب المعتزلة والجهمية والأشاعرة والخوارج والمرجئة والمدافعين عن البدع والمحدثات ، لوجد هذه الآية حقيقة ماثلة في هؤلاء ، والله المستعان .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عدم الثقة في الأعداء

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم و﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ » الآية^(٢).

* عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرأونه لم يُشَبَّ؟ وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْشَتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أفلا ينهاكم بما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ، ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم^(٣).

(١) المحرر الوجيز (١/ ١٧٠).

(٢) البقرة : الآية (١٣٦).

(٣) البخاري (٨/ ٢١٥-٢١٦/ ٤٤٨٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٦/ ١١٣٨٧).

(٤) البخاري (٥/ ٣٦٥/ ٢٦٨٥).

★ غريب الحديث:

لم يُشَبَّ: بضم أوله وفتح المعجمة بعدها موحدة؛ أي: لم يخلط.

★ فوائد الحديثين:

قوله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»:

قال الحافظ: «أي: إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً لثلا يكون في نفس الأمر صدقاً فتكذبوه، أو كذباً فتصدقوه فتقعوا في الحرج. ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه، نبه على ذلك الشافعي رحمه الله. ويؤخذ من هذا الحديث التوقف عن الخوض في المشكلات والجزم فيها بما يقع في الظن، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف من ذلك». اهـ^(١)

وقال ابن بطال: «وقوله: «ولا تكذبوهم» يعني: فيما ادعوا من الكتاب ومن أخبارهم؛ مما يمكن أن يكون صدقاً أو كذباً؛ لإخبار الله تعالى عنهم أنهم بدلوا الكتاب ليشتروا به ثمناً قليلاً، ومن كَذَبَ على الله فهو أحرى بالكذب في سائر حديثه.

وسأل بعض علماء النصارى محمد بنَ وضاح فقال: ما بال كتابكم معشر المسلمين لا زيادة فيه ولا نقصان، وكتابنا بخلاف ذلك؟ فقال له: لأن الله وكل حفظ كتابكم إليكم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي اتَّبَعُوا بِهَا يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾^(٢) فما وكله إلى المخلوقين دخله الحرْمُ والنَّقْصَانُ، وقال في القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣) فتولى الله حِفْظَهُ فلا سبيل إلى الزيادة فيه ولا إلى النقصان»^(٤).

(١) الفتح (٢١٦/٨).

(٢) الحجر: الآية (٩).

(٣) المائدة: الآية (٤٤).

(٤) شرح البخاري (٧٣/٨-٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَنْتِكُمْ مَعْدُودَةٌ قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي بذلك، فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده، ولكن هذا ما جرى ولا كان، ولهذا أتى بأم التي بمعنى بل؛ أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه»^(١).

وقال ابن القيم: «فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم، وترديد لهذه المطالبة بين أمرين لا بد من واحد منهما، وقد تعين بطلان أحدهما فلزم ثبوت الآخر، فإن قولهم: ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَنْتِكُمْ مَعْدُودَةٌ﴾ خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي، فإما أن يكون قولاً على الله بلا علم فيكون كاذباً، وإما أن يكون مستنداً إلى وحي من الله وعهد عهده إلى المخبر وهذا منتف قطعاً، فتعين أن يكون خبراً كاذباً، قائله كاذب على الله تعالى»^(٢).

قال القاسمي: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَنْتِكُمْ مَعْدُودَةٌ﴾ بيان لبعض آخر من جنایاتهم فيما ادعوا لأنفسهم من أنهم لا تمسهم النار في الآخرة إلا مدة يسيرة، ومرادهم بذلك أنهم لا يخلدون فيها؛ لأن كل معدود منقضى»^(٣).

وقال السعدي: «ذكر أفعالهم القبيحة، ثم ذكر مع هذا أنهم يزكون أنفسهم، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله، والفوز بثوابه، وأنهم لم تمسهم النار إلا أياماً معدودة؛ أي: قليلة تعد بالأصابع، فجمعوا بين الإساءة والأمن.

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٠٦).

(٢) بدائع الفوائد (٤/١٤٣).

(٣) محاسن التأويل (٢/١٧٦).

ولما كان هذا مجرد دعوى، رد الله تعالى عليهم فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم، يا أيها الرسول ﴿أَتَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: بالإيمان به وبرسله وبطاعته، فهذا الوعد الموجب للنجاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبدل.

﴿أَمْ نَقُولُ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ فأخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقف على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما.

إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهداً، فتكون دعواهم صحيحة.

وإما أن يكونوا متقولين عليه، فتكون كاذبة، فيكون أبلغ بخزيهم وعذابهم. وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهداً، لتكذيبهم كثيراً من الأنبياء، حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم، ولنكولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق.

فتعين بذلك، أنهم متقولون مختلفون، قائلون عليه ما لا يعلمون.

والقول عليه بلا علم، من أعظم المحرمات، وأشنع القبيحات^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرد على المخالف

وبيان كذبه وافترائه

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ شاةٌ فيها سم، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا إليّ من كان ها هنا من يهود» فَجُمِعُوا لَهُ فَقَالَ: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقون عنه؟» فقالوا نعم، قال لهم النبي ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: فلان، فقال: «كذبتُم، بل أبوكم فلان»، قالوا: صدقت، قال: «فهل أنتم صادقون عن شيء إن سألت عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: «من أهل النار؟» قالوا: نكون فيها سيرةً ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: «اخشثوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبداً»، ثم قال: «هل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً؟» قالوا: نعم، قال: «ما حملكم على ذلك؟»

(١) تفسير السعدي (١/١٠٢-١٠٣).

قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح، وإن كنت نبيًا لم يضرْك^(١).

★ غريب الحديث:

اخسئوا فيها: «زجر لهم بالطرد والإبعاد، أو دعاء عليهم بذلك».

★ فوائد الحديث:

قوله ﷺ: «والله لا نخلفكم فيها أبدًا»:

قال الحافظ: «أي لا تخرجون منها ولا نقيم بعدكم فيها؛ لأن من يدخل النار من عصاة المسلمين يخرج منها فلا يتصور أنه يخلف غيره أصلًا»^(٢).

* * *

(١) أخرجه أحمد (٢/٤٥١) والبخاري (٦/٣٣٤/٣١٦٩) والنسائي في الكبرى (٦/٤١٣/١١٣٥٥).

(٢) الفتح (١٠/٣٠٢).

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٨١﴾

★ غريب الآية:

أحاطت: اجتمعت عليه فمات عليها قبل الإنابة والتوبة منها، وأصل الإحاطة بالشيء: الإحداق به. بمنزلة الحائط الذي تحاط به الدار، فتُحَدَّق به. ومنه قوله تعالى: ﴿ثَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُورَادُهَا﴾^(١). وتستعمل في المنع نحو: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾^(٢).

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وإنما قلنا إن السيئة التي ذكر الله -جل ثناؤه- أن من كسبها وأحاطت به خطيئته، فهو من أهل النار المخلدين فيها في هذا الموضع، إنما عني الله بها بعض السيئات دون بعض، وإن كان ظاهرها في التلاوة عامًّا؛ لأن الله قضى على أهلها بالخلود في النار. والخلود في النار لأهل الكفر بالله دون أهل الإيمان به، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ بأن أهل الإيمان لا يخلدون فيها، وأن الخلود في النار لأهل الكفر بالله دون أهل الإيمان. فإن الله -جل ثناؤه- قد قرن بقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. فكان معلومًا بذلك أن الذين لهم الخلود في النار من أهل السيئات، غير الذين لهم الخلود في الجنة من أهل الإيمان.

فإن ظن ظان أن الذين لهم الخلود في الجنة من الذين آمنوا، هم الذين عملوا الصالحات، دون الذين عملوا السيئات، فإن في إخبار الله أنه مكفر باجتنابنا كبائر ما نهى عنه سيئاتنا، ومدخلنا المدخل الكريم ما ينبي عن صحة ما قلنا في تأويل

(١) الكهف: الآية (٢٩).

(٢) يوسف: الآية (٦٦).

قوله: ﴿بَكْلَىٰ مِّنْ كَسْبٍ سَيِّئَةٍ﴾، بأن ذلك على خاص من السيئات دون عامها .
 فإن قال لنا قائل: فإن الله -جل ثناؤه- إنما ضمن لنا تكفير سيئاتنا باجتنا بنا
 كبائر ما نهى عنه، فما الدلالة على أن الكبائر غير داخلة في قوله: ﴿بَكْلَىٰ مِّنْ كَسْبٍ
 سَيِّئَةٍ﴾؟

قيل: لما صح أن الصغائر غير داخلة فيه، وأن المعنى بالآية خاص دون عام،
 ثبت وصح أن القضاء والحكم بها غير جائز لأحد على أحد، إلا على من وقفه الله
 عليه بدلالة من خبر قاطع عذر من بلغه. وقد ثبت وصح أن الله -تعالى ذكره- قد
 عني بذلك أهل الشرك والكفر به، بشهادة جميع الأمة. فوجب بذلك القضاء على
 أن أهل الشرك والکفر ممن عناه الله بالآية. فأما أهل الكبائر، فإن الأخبار القاطعة
 عذر من بلغته، قد تظاهرت عندنا بأنهم غير معنيين بها. فمن أنكر ذلك ممن دافع
 حجة الأخبار المستفيضة والأبناء المتظاهرة فاللزام له ترك قطع الشهادة على أهل
 الكبائر بالخلود في النار، بهذه الآية ونظائرها التي جاءت بعمومهم في الوعيد. إذ
 كان تأويل القرآن غير مدرك إلا ببيان من جعل الله إليه بيان القرآن، وكانت الآية
 يأتي عاماً في صنف ظاهرها، وهي خاص في ذلك الصنف باطنها^(١).

قال السعدي رحمه الله: «﴿بَكْلَىٰ﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، فإنه قول لا حقيقة
 له. ولكن ﴿مِّنْ كَسْبٍ سَيِّئَةٍ﴾ وهو نكرة في سياق الشرط، فيعم الشرك فما دونه .
 والمراد به: هنا - الشرك، بدليل قوله ﴿وَأَحْطَطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أي: أحاطت
 بعاملها، فلم تدع له منفذاً، وهذا لا يكون إلا الشرك، فإن من معه الإيمان لا تحيط
 به خطيئته .

﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وقد احتج بها الخوارج على كفر
 صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما ترى، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل
 مبطل يحتج بآية، أو حديث صحيح على قوله الباطل فلا بد أن يكون فيما احتج به
 حجة عليه^(٢).

(١) جامع البيان (٢/ ٢٨٢-٢٨٣ تحقيق شاكر).

(٢) تفسير السعدي (١/ ١٠٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من محقرات الذنوب

* عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، وإنما مثل محقرات الذنوب كقوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه»^(١).

★ غريب الحديث:

المحقرات: هي الذنوب التي يستخف بها صاحبها ويحتقرها ويحسبها هينة.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «والمحقرات إذا كثرت صارت كبائر بالإصرار عليها والتمادي فيها»^(٢).

وقال: «وقال أبو عبد الرحمن الحُبْلِيُّ: مثل الذي يجتنب الكبائر ويقع في المحقرات، كرجل لقيه سبع فاتقاه حتى نجا منه، ثم لقيه فحلَّ إبِل فاتقاه فنجا منه، فلدغته نملة فأوجعته، ثم أخرى، ثم أخرى حتى اجتمعن عليه فصرعنه، وكذلك الذي يجتنب الكبائر ويقع في المحقرات. وقال أبو بكر الصديق: إن الله يغفر الكبائر فلا تيأسوا، ويعذب على الصغائر فلا تغتروا»^(٣).

(١) أخرجه أحمد (٣٣١/٥) والطبراني في الكبير (١٦٥-١٦٦/١٦٦) وفي الأوسط (٧٣١٩/١٥٩/٨) وفي الصغير (٨٨٧) والرويانى في مسنده (١٠٦٥/٢١٦/٢) والبيهقي في الشعب (٧٢٦٧/٤٥٦/٥) والبخاري في شرح السنة (٤٢٠٣/٣٩٩/١٤). كلهم من طريق أنس بن عياض عن أبي حازم عن سهل بن سعد مرفوعاً. قال الهيثمي في المجمع (١٩٠/١٠): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة» اهـ. وحسن إسناده الحافظ في الفتح (٤٠٠/١١).

(٢) شرح البخاري (٢٠٢/١٠).

(٣) شرح البخاري (٢٠٣/١٠).

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨٢)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «وإنما هذه الآية والتي قبلها إخبار من الله عباده عن بقاء النار وبقاء أهلها فيها ، وبقاء الجنة وبقاء أهلها فيها ، ودوام ما أعد في كل واحدة منهما لأهلها ، تكديبا من الله - جل ثناؤه - القائلين من يهود بني إسرائيل : إن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة ، وأنهم صائرون بعد ذلك إلى الجنة . فأخبرهم بخلود كفارهم في النار ، وخلود مؤمنهم في الجنة»^(١).

قال القاسمي : «من عادة التنزيل العزيز أنه لا يذكر فيه آية في الوعيد إلا ويتلوها آية في الوعد . وذلك لفوائد : منها : ليظهر بذلك عدله سبحانه ؛ لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر ، وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان . ومنها : أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه . وذلك الاعتدال لا يحصل إلا بهذا الطريق . ومنها : أنه يظهر بوعده كمال رحمته ، وبوعيده كمال حكمته ، فيصير ذلك سببا للعرفان»^(٢).

* * *

(٢) محاسن التأويل (٢/ ١٧٧).

(١) جامع البيان (٢/ ٢٨٧ تحقيق شاکر).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾^(١)

★ غريب الآية:

ذي القربى: ذي رحم قريبة منك.

اليتامى: جمع يتيم، واليتم في بني آدم بفقد الأب، وفي البهائم بفقد الأم.
وأصله الانفراد، يقال: صبي يتيم أي: منفرد من أبيه. وبيت يتيم: أي ليس قبله
ولا بعده شيء من الشعر. ودرة يتيمة: ليس لها نظير.

المساكين: واحدها مسكين، وهو المتخشع المتذل من وطء الحاجة: مأخوذ
من السكون كأنه قد أسكنه الفقر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «والإحسان نهاية البر، فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية
والعناية، وقد أكد الله الأمر بإكرام الوالدين. حتى قرن تعالى الأمر بالإحسان
إليهما بعبادته التي هي توحيده، والبراءة عن الشرك، اهتماماً به وتعظيماً له»^(٢).

وقال السعدي: «﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا بالوالدين إحساناً. وهذا يعم
كل إحسان، قولي، وفعلي، مما هو إحسان إليهم. وفيه النهي عن الإساءة إلى
الوالدين، أو عدم الإحسان والإساءة؛ لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشيء نهى
عن ضده. وللإحسان ضدان: الإساءة، وهي أعظم جرماً. وترك الإحسان بدون
إساءة، وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق بالأول»^(٣).

وقال القرطبي: «وقرن الله ﷻ في هذه الآية حقَّ الوالدين بالتوحيد؛ لأن النشأة
الأولى من عند الله، والنشء الثاني - وهو التربية - من جهة الوالدين، ولهذا قرن

(٢) محاسن التأويل (٢/ ١٧٨-١٧٩).

(١) البقرة: الآية (٨٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٠٥).

تعالى الشكر لهما بشكره فقال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾^(١). والإحسان إلى الوالدين: معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، وامتنال أمرهما، والدعاء بالمغفرة بعد مماتهما، وصلة أهل ودهما^(٢).

قال محمد رشيد رضا: «والعلة الصحيحة في وجوب هذا الإحسان على الولد هي العناية الصادقة التي بذلها في تربيته والقيام بشؤونه أيام كان ضعيفاً عاجزاً جاهلاً لا يملك لنفسه نفعا، ولا يقدر أن يدفع عنها ضرراً، إذ كانا يحوطانه بالعناية والرعاية، ويكفلانه حتى يقدر على الاستقلال والقيام بشأن نفسه، فهذا هو الإحسان الذي يكون منهما عن علم واختيار، بل مع الشغف الصحيح والحنان العظيم ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، وإذا وجب على الإنسان أن يشكر لكل من يساعده على أمر عسير فضله، ويكافئه بما يليق به على حسب الحال في المساعد وما كانت به المساعدة، فكيف لا يجب أن يكون الشكر للوالدين بعد الشكر لله تعالى وهما اللذان كانا يسعدانه على كل شيء، أيام كان يتعذر عليه كل شيء»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب بر الوالدين

* عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على ميقاتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، فسكت عن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزدني^(٤).

* فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قال بعضهم: هذا الحديث موافق لقوله تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾^(٥) وكأنه أخذه من تفسير ابن عيينة حيث قال: من صلى الصلوات الخمس

(١) لقمان: الآية (١٤).

(٢) تفسير المنار (٣/١).

(٣) أخرجه أحمد (٤٠٩/١-٤٣٩)، والبخاري (٢٧٨٢/٤/٦) ومسلم (٨٥/٨٩/١) والترمذي (٣٢٥-٣٢٦).

(٤) والنسائي (١٧٣/٣٢٦) والترمذي (٦٠٩/٣١٩-٣١٨/١).

(٥) لقمان: الآية (١٤).

فقد شكر لله ، ومن دعا لوالديه عقبها فقد شكر لهما . .
وفي الحديث فضل تعظيم الوالدين ، وأن أعمال البر يفضل بعضها على
بعض . . اهـ .^(١)

* عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول الله ، من أبر؟ قال :
«أَمَّكَ ثُمَّ أَمَّكَ ثُمَّ أَمَّكَ ثُمَّ أَبَاكَ ثُمَّ الْأَقْرَبَ فَالْأَقْرَبَ»^(٢).

* فوائد الحديث:

قال ابن بطال : «في هذا الحديث دليل أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن
تكون ثلاثة أمثال محبة الأب ؛ لأنه ﷺ كرر ذكر الأم ثلاث مرات ، وذكر الأب في
المررة الرابعة فقط ، وإذا تؤمل هذا المعنى شهد له العيان ، وذلك أن صعوبة الحمل
وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم ، وتشقى بها دون الأب
فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب»^(٣).

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : «يجب أن نعلم أن الإحسان يتفاوت ؛ فكل من كان
أقرب فهو أولى بالإحسان ؛ لأن الحكم إذا علق بوصف قَوِيٍّ بحسب قوة ذلك
الوصف ؛ فمثلاً يجب عليك من صلة العم أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد
العم ؛ ويجب عليك من صلة الخال أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد الخال»^(٤).

قال محمد رشيد رضا : «والإحسان هو الذي يقوي غرائز الفطرة ويوثق الروابط
الطبيعية بين الأقربين حتى تبلغ البيوت في وحدة المصلحة درجة الكمال . والأمة
تتألف من البيوت (العائلات) فصلاحها صلاحها . . . وذلك أن عاطفة التراحم
وداعية التعاون إنما تكونان على أشدهما وأكملهما في الفطرة بين الوالدين
والأولاد ، ثم بين سائر الأقربين ، فمن فسدت فطرته حتى لا خير فيه لأهله فأى خير
يرجى منه للبعء والأبعدين؟ ومن لا خير فيه للناس لا يصلح أن يكون جزءاً من بنية
أمة ؛ لأنه لم تنفع فيه اللحمة النسبية التي هي أقوى لحمة طبيعية تصل بين الناس ،

(١) الفتح (١٣/٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥-٣/٥) وأبو داود (٥١٣٩/٣٥١/٥) والترمذي (١٨٩٧/٢٧٣/٤) وقال : «هذا حديث
حسن». والحاكم (٦٤٢-٦٤٣/٣) والبخاري في الأدب المفرد (٣).

(٣) شرح البخاري (١٨٩/٩). (٤) تفسير القرآن الكريم (٢٧٠/١).

فأي لحمة بعدها تصله بغير الأهل فتجعله جزءا منهم يسره ما يسرهم ، ويؤلمه ما يؤلمهم ، ويرى منفعتهم عين منفعته ، ومضرته عين مضرتهم ، وهو ما يجب على كل شخص لأتمته . قضى نظام الفطرة بأن تكون نعمة القرابة أقوى من كل نعمة وصلتها أمتن من كل صلة ، فجاء الدين يقدم حقوق الأقربين على سائر الحقوق وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص»^(١).

* * *

(١) تفسير المنار (١/٣٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب. ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن ذلك، النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾»^(٢).

ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده، أن يكون الإنسان نزيهاً في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء، ولا شاتم، ولا مخاصم»^(٣).

وقال القرطبي: «وهذا كله حض على مكارم الأخلاق؛ فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليناً ووجهه منبسّطاً طلقاً مع البر والفاجر، والسني والمبتدع، من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه؛ لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا﴾»^(٤). فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون؛ والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه. وقال طلحة بن عمر: قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل في حدة فأقول لهم بعض القول الغليظ؛ فقال: لا تفعل، يقول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾. فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفي»^(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مدح مكارم الأخلاق

* عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة غرفة يرى

(١) البقرة: الآية (٨٣).

(٢) العنكبوت: الآية (٤٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٠٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٣).

(٥) طه: الآية (٤٤).

ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال النووي في كتابه رياض الصالحين: باب استحباب طيب الكلام وطلاقة الوجه.

قال الشيخ العثيمين: «يعني: إذا لاقى الإنسان أخاه، فإنه ينبغي له أن يلاقيه بالبشر وطلاقة الوجه وحسن المنطق؛ لأن هذا من خلق النبي ﷺ، ولا يعد هذا تنزلاً من الإنسان، ولكنه رفعة وأجر له عند الله ﷻ، واتباع لسنة النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ كان دائم البشر، كثير التبسم - صلوات الله وسلامه عليه -.

فالإنسان ينبغي له أن يلقي أخاه بوجه طلق، وبكلمة طيبة، لينال بذلك الأجر والمحبة والألفة، والبعد عن التكبر والترفع على عباد الله»^(٢).

✽ عن أبي ذر قال: قال لي النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»^(٣).

★ غريب الحديث:

طلق: وهو المنبسط السهل.

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «فيه الحض على فعل الخير، قلّ أو كثر، وألا تحقر منه شيئاً، وهذا كما قال تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾»^(٤).

وقال كذلك: «وفيه أن طلاقة الوجه للمسلمين والانبساط إليهم محمود مشروع

(١) رواه أحمد (٣٤٣/٥) والطبراني في الكبير (٣٤٢/٣) وصححه ابن خزيمة (٣٠٦/٣-٣٠٧/٣) وابن حبان (٢٠٩/٢٢٢) وله شاهد من حديث علي: رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١/١٥٥-١٥٦) والترمذي (٣١١/٤) ومن حديث ابن عمرو: رواه أحمد (١٧٣/٢) والحاكم (١/٣٢١) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. (٢) شرح رياض الصالحين (٦٦/٧). (٣) أخرجه أحمد (١٧٣/٥) ومسلم (٢٠٢٦/٤) والترمذي (٢٤٢/٤). (٤) الزلزلة: الآية (٧).

مثاب عليه، وبخلافه التجهم لهم والازوراء عنهم إلا لغرض، وكفى بخلق نبينا ﷺ في ذلك، وبما وصفه الله به ونزهه عنه من قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(١) «(٢)».

وقال الشيخ العثيمين: «ثم إن طلاقة الوجه توجب سرور صاحبك؛ لأنه يفرق بين شخص يلقاك بوجه معبس وشخص يلقاك بوجه منطلق، لهذا قال النبي -عليه الصلاة والسلام- لأبي ذر: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»، فهذا من المعروف؛ لأنه يدخل السرور على أخيك، ويشرح صدره.

ثم إذا قرن ذلك بالكلمة الطيبة حصل بذلك مصلحتان: طلاقة الوجه والكلمة الطيبة التي قال عنها النبي ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»^(٣)، يعني اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ولو بشق تمرة؛ يعني ولو أن تصدقوا بنصف تمرة، فإن ذلك يقيكم من النار إذا قبلها الله ﷻ.

(فإن لم يجد فبكلمة طيبة)؛ كلمة طيبة مثل أن تقول له: كيف أنت؟ كيف حالك؟ كيف إخوانك؟ كيف أهلك؟ وما أشبه ذلك؛ لأن هذه من الكلمات الطيبة التي تدخل السرور على صاحبك، كل كلمة طيبة فهي صدقة لك عند الله وأجر وثواب»^(٤).

* * *

(١) آل عمران: الآية (١٥٩).

(٢) الإكمال (١٠٦/٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٦/٤) والبخاري (٦٠٢٣/٥٥٠/١٠) ومسلم (١٠١٦/٧٠٤/٢) [٦٨] والنسائي (٧٨/٥) - (٧٩/٧٩). وأخرجه بمعناه الترمذي (٢٤٢٥/٥٢٨/٤) وابن ماجه (١٨٥/٦٦/١) كلهم من حديث عدي

(٤) شرح رياض الصالحين (٦٨-٦٧/٧).

ابن حاتم رحمه الله.

قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا : «إنما إقامة الصلاة بالإخلاص لله والصدق في التوجه إليه والخشوع لعظمته وجلاله والاستكانة لعز سلطانه ، ولا تكون بمجرد الإتيان بصورة الصلاة ورسومها الظاهرة ، ولو كان هذا هو المراد لما وصفهم بالتولي والإعراض عنه ، فإنهم ما أعرضوا عن صورة الصلاة إلى ذلك اليوم الذي ذكرهم فيه بهذه الآيات وإلى هذا اليوم أيضًا . وأما الزكاة فقد كان بعض أحبارهم يزعم أنها تلك المحرقات والقرايين المفروضة لتكفير الخطايا أو شكر الله تعالى على إخراجهم من مصر وغير ذلك من النعم . وليس الأمر كذلك فإن لهم زكوات مالية منها مال مخصوص يؤدي لآل هارون وهو إلى الآن في اللاويين . ومنها مال للمساكين . ومنها ما يؤخذ من ثمرات الأرض ، ومنها سبت الأرض وهو تركها في كل سبع سنين مرة بلا حرث ولا زرع ، وكل ما يخرج منها في تلك السنة فهو صدقة»^(٢).

وقد تقدم الكلام على إقامة الصلاة والإنفاق . سورة البقرة آية (٣) .

* * *

(١) البقرة : الآية (٨٣) .

(٢) تفسير المنار (١/٣٦٩) .

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٨٣﴾

★ غريب الآية:

معرضون: الإعراض والتولي بمعنى واحد، مخالف بينهما في اللفظ، وقيل: التولي فيه بالجسم، والإعراض بالقلب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من الله - جل ثناؤه - عن يهود بني إسرائيل، أنهم نكثوا عهده ونقضوا ميثاقه، بعد ما أخذ الله ميثاقهم على الوفاء له، بأن لا يعبدوا غيره، وأن يحسنوا إلى الآباء والأمهات، ويصلوا الأرحام، ويتعطفوا على الأيتام، ويؤدوا حقوق أهل المسكنة إليهم، ويأمرؤا عباد الله بما أمرهم الله به ويحثوهم على طاعته، وقيموا الصلاة بحدودها وفرائضها، ويؤتوا زكاة أموالهم - فخالفوا أمره في ذلك كله، وتولوا عنه معرضين، إلا من عصمه الله منهم، فوفى الله بعهده وميثاقه»^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «أي: ثم كان من أمركم بعد هذا الميثاق الذي فيه سعادتكم، أن توليتم عن العمل به، وأنتم في حالة الإعراض عنه وعدم الاكتراث له. وقد يتولى الإنسان منصرفاً عن شيء وهو عازم على أن يعود إليه ويؤفقه حقه، فليس كل متول عن شيء معرضاً عنه ومهملاً له على الدوام، لذلك كان ذكر هذا القيد ﴿وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ لازماً لا بد منه، وليس تكراراً كما يُتَوَهَّمُ، وإنما هو متمم للمعنى ومؤكد للمبالغة في الترك المستفاد من التولي... وقد كان سبب ذلك التولي مع الإعراض أن الله أمرهم أن لا يأخذوا الدين إلا من كتابه، فاتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله يحلون برأيهم ويحرمون، ويبيحون باجتهادهم ويحظرون، ويزيدون في الأحكام والشرائع، ويضعون ما شاءوا من الاحتفالات

(١) جامع البيان (٢/ ٢٩٨) تحقيق شاكر.

والشعائر، فصدق عليهم أنهم اتخذوا من دونه شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله. فإن الله هو الذي يضع الدين وحده، وإنما العلماء أدلاء يستعان بهم على فهم كتابه وما شرع على ألسنة رسله. وقد اتبع سنن اليهود في هذا التشريع جميع من بعدهم من أهل الملل، وحكم الجميع عند الله تعالى واحد لا يختلف، فهو لا يحابي أحدا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا﴾^(١) وكذلك كانوا قد قطعوا صلات القرابة، وبخلوا بالنفقة الواجبة، وتركوا النهي عن المنكر، وفقدوا روح الصلاة، ومنعوا الزكاة، ولكنهم الآن عادوا إلى بعض ما تركوا، ولم يعد الذين تشبهوا بهم، أو اتبعوا بغير شعور سننهم، والأمر لله العلي الكبير.

وأما قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ فهو استثناء لبعض من كانوا في زمن سيدنا موسى ﷺ أو في كل زمن، فإنه لا تخلو أمة من الأمم من المخلصين الذين يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم. والحكمة في ذكر هذا الاستثناء عدم بخس المحسنين حقهم، وبيان أن وجود قليل من الصالحين في الأمة لا يمنع عنها العقاب الإلهي إذا فشا فيها المنكر وقل المعروف»^(٢).

ثم قال: «لو تدبر جهالنا هذه الآية لعلموا أنهم مغرورون بالاعتماد على الأقطاب والأوتاد والأبدال في تحمل البلاء عنهم، ومنع العذاب أن ينزل بالأمة ببركتهم، فلو فرض أن هؤلاء الأقطاب موجودون حقيقة؛ فإن وجودهم لا يغني عن الأمة شيئاً، وقد عصى الله جماهيرها ونقضوا ميثاقه الذي واثقهم به. فقد جرت سنته تعالى في خلقه بأن بقاء الأمم عزيزة إنما يكون بمحافظته الجماهير فيها على الأخلاق والأعمال؛ التي تكون بها العزة ويحفظ بها المجد والشرف. ومن لم يعتبر بآيات الله في كتابه، لا يعتبر بآياته وسننه في خلقه، فقد فتن المسلمون في دينهم ودنياهم وحل بجميع بلادهم ما حل من البلاء وهم لا يعتبرون، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٣) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ بُفِتِنُوا فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ»^(٤)»^(٥).

قلت: ما ذكره ﷺ من الإشارة إلى خرافة الأقطاب والأبدال والأوتاد؛ أمر

(١) الكهف: الآية (٤٩).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٦٩-٣٧٠).

(٣) محمد: الآية (٢٤).

(٥) تفسير المنار (١/ ٣٧٠).

(٤) التوبة: الآية (١٢٦).

يتناقض مع المعلوم من الدين بالضرورة، والصريح من القرآن والسنة، وأن الله -تبارك وتعالى- يدبر الملك بيديه، وقائم عليه بنفسه، فهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو القائل -تبارك وتعالى-: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾^(١)، لكن المخرفين أبوا إلا أن يدخلوا على الأمة مصطلحات شيطانية، من صدق بها وقع في الشرك الأكبر، كما هو مسطر في كتاب (الإبريز).

وما أشار إليه من استقامة الأمة على الأخلاق الحسنة، أمر طيب، والأولى أن يقال: إن الأمة ضيعت التوحيد، وفرطت فيه، واستبدلته بالشركيات، واللجوء إلى الأموات ومراقدهم وقبورهم وأضرحتهم، وإلى الأحجار والمغارات، وإلى عقد مواسم شركية في كل زمان ومكان، وضياع السنة الغراء، واستبدالها بالبدع والمحدثات، والإعراض عما صح عنه ﷺ من السنن والبيئات.

فكل هذا سبب في زوال ملك الأمة الإسلامية وانقضاض أعدائها عليها، وتمكين الله للأعداء من كل قوة وعدة وعتاد. اللهم أرجع الأمة إلى التوحيد ومحاربة الشرك ومظاهره، وإلى السنة ودفع المحدثات والبدع. والله المستعان.

* * *

(١) سبأ: الآية (٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾

★ غريب الآية:

تسفكون: السفك الصب، سفكت الدم أسفكه سفكاً، صببته، وكذلك الدمع.
والسفاك: السفاح، وهو القادر على الكلام. ولا يستعمل السفك إلا في الدم، وقد
يستعمل في نثر الكلام. يقال سفك الكلام: إذا نثره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول -تبارك وتعالى- منكراً على اليهود الذين كانوا في زمان
رسول الله ﷺ بالمدينة وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن
الأوس والخزرج وهم الأنصار كانوا في الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم
حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير: حلفاء
الخزرج، وبنو قريظة: حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كل
فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق
الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم
وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها
استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى:
﴿أَفْتُونُونَ بَبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ أي لا يقتل بعضهم بعضاً
ولا يخرجهم من منزله ولا يظاھر عليه، كما قال تعالى: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْلُبُوا
أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾^(١) وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة
كما قال -عليه الصلاة والسلام-: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم
بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى

والسهر»^(١)»^(٢).

وقال ابن جرير: «وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب عندي: أن يكون قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ خبراً عن أسلافهم، وداخلاً فيه المخاطبون منهم، الذين أدركوا رسول الله ﷺ، كما كان قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ خبراً عن أسلافهم، وإن كان خطاباً للذين أدركوا رسول الله ﷺ؛ لأن الله تعالى أخذ ميثاق الذين كانوا على عهد رسول الله موسى ﷺ من بني إسرائيل على سبيل ما قد بينه لنا في كتابه فالزم جميع من بعدهم من ذريتهم من حكم التوراة، مثل الذي ألزم منه من كان على عهد موسى منهم، ثم أنب الذين خاطبهم بهذه الآيات على نقضهم ونقض سلفهم ذلك الميثاق، وتكذيبهم ما وكدوا على أنفسهم له بالوفاء من العهود، بقوله: ﴿ثُمَّ أَفْرَزْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾. فإذا كان خارجاً على وجه الخطاب للذين كانوا على عهد نبينا ﷺ فإنه معني به كل من وافق بالميثاق منهم على عهد موسى ومن بعده، وكل من شهد منهم بالتصديق ما في التوراة؛ لأن الله -جل ثناؤه- لم يخصص بقوله: ﴿ثُمَّ أَفْرَزْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ وما أشبه ذلك من الآية بعضهم دون بعض. والآية محتملة أن يكون أريد بها جميعهم. فإذا كان ذلك كذلك فليس لأحد أن يدعي أنه أريد بها بعض منهم دون بعض، وكذلك حكم الآية التي بعدها أعني قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسُكُمْ﴾ الآية؛ لأنه قد ذكر لنا أن أوائلهم قد كانوا يفعلون من ذلك ما كان يفعله أو آخرهم الذين أدركوا عصر نبينا محمد ﷺ»^(٣).

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ معناه: ولا ينفي بعضكم بعضاً بالفتنة والبغي، ولما كانت ملتهم واحدة وأمرهم واحداً وكانوا في الأمم كالشخص الواحد، جعل قتل بعضهم لبعض ونفي بعضهم بعضاً قتلاً لأنفسهم ونفياً لها، وكذلك حكم كل جماعة تخاطب بهذا اللف في القول، وقيل ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي: لا يقتل أحد فيقتل قصاصاً، فكأنه سفك دم نفسه لما سبب ذلك ولا يفسد في الأرض فينفي فيكون قد أخرج نفسه من دياره، وهذا تأويل فيه تكلف، وإنما كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقاً أن لا يقتل بعضهم بعضاً ولا ينفيه ولا يسترقه ولا يدعه يسترق إلى غير ذلك

(١) أخرجه أحمد (٤/٢٧٠) والبخاري (١٠/٥٣٧/٦٠١١) ومسلم (٤/١٩٩٩-٢٠٠٠/٢٥٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٢١٠-٢١١).

(٣) جامع البيان (٢/٣٠٢-٣٠٣ تحقيق شاكراً).

من الطاعات»^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «وقد أورد النهي عن سفك بعضهم دم بعض وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وأوطانهم بعبارة، تؤكد معنى وحدة الأمة، وتحدث في النفس أثراً شريفاً يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر، ووجدان يتأثر، فقال: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة؛ كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه، كان كأنه بخع نفسه وانتحر بيده. وقال: ﴿وَلَا تَخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ على هذا النسق. وهذا التعبير المعجز ببلاغته خاص بالقرآن. فهذه الأحكام لا تزال محفوظة عند الإسرائيليين في الكتاب، وإن لم يجروا عليها في العمل، ولكن العبارة عنها عندهم لا تطاول هذه العبارة التي تدهش صاحب الذوق السليم، والوجدان الرقيق، فهذا إرشاد حكيم طلع من ثنايا الأحكام يهدي إلى أسرارها، ويومئ إلى مشرق أنوارها، من تدبره علم أنه لا قوام للأمم، إلا بالتحقق بما تضمنته هذه الحكم، وشعور كل فرد من أفرادها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم، لا فرق في الاحترام بين الروح التي تجول في بدنه والدم الذي يجري في عروقه، وبين الأرواح والدماء التي يحيا بها إخوانه الذين وحدت بينه وبينهم الشريعة العادلة، والمصالح العامة. هذا هو الوجه الوجه في الآية، وقيل معناها لا ترتكبوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل والإخراج من الديار. ويقال في قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ كما قيل قبله في قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ من تضمن صيغة الخبر للتأكيد.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه يخاطبهم بما كان من اعتراف سلفهم بالميثاق وقبوله وشهودهم الوحي الذي نزل به على موسى - عليه الصلاة والسلام -.

وثانيهما: أن المراد الحاضرون أنفسهم؛ أي: أنكم أيها المخاطبون بالقرآن قد أقررتم بهذا الميثاق، وتعتقدونه في قلوبكم، ولا تنكرونها بالستكم، بل تشهدون به وتعلنونه، فالحجة ناهضة عليكم به»^(٢).

(١) المحرر الوجيز (١/ ١٧٣).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٧٢).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنفُسُكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُواكُم أَكْسَرَىٰ تُفْذَوْنَهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾

★ غريب الآية:

أنفسكم: مفردها: نفس. أصلها من النفاسة، وهي الجلالة، فنفس الإنسان أنفس ما فيه. وهي هنا بمعنى: ذات الشيء وجملته. أنفسكم؛ أي: ذواتكم. ديارهم: واحدها: دار، وهي المنزل المقام فيه، بخلاف منزل الترحال. قال الخليل: كل موضع حله قوم فهو دار لهم وإن لم تكن فيه أبنية. وقيل: سميت داراً لدورها على سكانها.

أقررتم: أي: اعترفتم.

تظاهرون: تتعاونون. مشتق من الظهر؛ لأن بعضهم يقوي بعضاً فيكون له كالظهر، ومنه قول الشاعر:

تظاهرتم أستاها بيت تجمعت على واحد لازلتهم قِرْن واحد

والظهير: المعين. ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾^(١)

الإثم: الفعل القبيح الذي يستحق فاعله اللوم والذم. نظيره: الوزر والذنب.

العدوان: الإفراط في الظلم والتجاوز فيه.

أسارى: واحدها: أسير. والأسير: مشتق من الإسار، وهو القيد التي يشد به

(١) التحريم: الآية (٤).

المحمل . فسمي أسيرًا لأنه يشد وثاقه ، والعرب تقول : قد أثر قثبه ؛ أي : شده ، ثم سمي كل أخيد أسيرًا وإن لم يؤسر .

تفادوهم : من الفداء ، والفداء طلب الفدية في الأسير الذي في أيديهم ؛ أي : بذل شيء في مقابلة نفس الإنسان من مال أو أسير آخر .
خزي : الهوان ، وخزي بالكسر : يخزي إذا ذل وهان .

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير : «والذي أرشدت إليه الآية الكريمة ، وهذا السياق ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة ، فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها ، ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول الله ﷺ ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره وغير ذلك من شؤونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله - عليهم الصلاة والسلام - ، واليهود عليهم لعائن الله يتكاثرون بينهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيديهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾» (١) .

وقال ابن جرير : «يعني بقوله - جل ثناؤه - : ﴿وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَىٰ فَذُوهُمْ﴾ ، اليهود ، يوبخهم بذلك ، ويعرفهم به قبيح أفعالهم التي كانوا يفعلونها ، فقال لهم : ثم أنتم بعد إقراركم بالميثاق الذي أخذته عليكم : أن لا تسفكوا دماءكم ، ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم تقتلون أنفسكم يعني به : يقتل بعضكم بعضًا وأنتم ، مع قتلكم من تقتلون منكم ، إذا وجدتم الأسير منكم في أيدي غيركم من أعدائكم ، تفدونهم ، ويخرج بعضكم بعضًا من دياره ، وقتلكم إياهم وإخراجكموهم من ديارهم ، حرام عليكم ، وتركهم أسرى في أيدي عدوكم حرام عليكم ، فكيف تستجيزون قتلهم ، ولا تستجيزون ترك فدائهم من عدوهم ؟ أم كيف لا تستجيزون ترك فدائهم ، وتستجيزون قتلهم ؟ وهما جميعًا في اللازم لكم من الحكم فيهم

(١) تفسير ابن كثير (١/٢١٢-٢١٣) .

سواء؛ لأن الذي حرمت عليكم من قتلهم وإخراجهم من دورهم، نظير الذي حرمت عليكم من تركهم أسرى في أيدي عدوهم، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ الذي فرضت عليكم فيه فرائضي، وبينت لكم فيه حدودي، وأخذت عليكم بالعمل بما فيه ميثاقي فتصدقون به، فتفادون أسراكم من أيدي عدوكم وتكفرون ببعضه، فتجحدونه، فتقتلون من حرمت عليكم قتله من أهل دينكم ومن قومكم، وتخرجونهم من ديارهم، وقد علمتم أن الكفر منكم ببعضه نقض منكم عهدي وميثاقي»^(١).

وقال ابن القيم: «فأخبر سبحانه أنهم أقروا بميثاقه الذي أمرهم به، والتزموه. وهذا يدل على تصديقهم به أنهم لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، فهذا كفرهم بما أخذ عليهم في الكتاب، ثم أخبر أنهم يفدون من أسر من ذلك الفريق، وهذا إيمان منهم بما أخذ عليهم في الكتاب، فكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق، كافرين بما تركوه منه، فالإيمان العملي يضاده الكفر العملي، والإيمان الاعتقادي يضاده الكفر الاعتقادي»^(٢).

وقال محمد رشيد رضا: «سمى الله الذنب ههنا كفراً، لما تقدم وتوعد عليه بوعيد الكفر فقال: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الخ، أو عدهم الله تعالى كما أوعد من قبلهم ومن بعدهم بأنهم يعاقبون على نقض ميثاق الدين الذي يجمعهم، والشريعة التي هي مناط وحدتهم، ورباط جنسيتهم، بالخزي العاجل، والعذاب الآجل، وقد دل المعقول، وشهد الوجود، بأنه ما من أمة فسقت عن أمر ربها، واعتدت حدود شريعته، إلا وانتكت فتلها، وتفرق شملها، ونزل بها الذل والهوان، وهو الخزي المراد في القرآن، وهذه هي سنة الخليقة، ذكرها ليعتبر بها من صرفته الغفلة عنها.

وأما العذاب الآجل الذي عبر عنه بقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَٰهَ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ فهو على كونه من عالم الغيب معقول المعنى، وهاد إلى حكمة عليا، ذلك أن النفوس البشرية إذا سحل مريرها، واختلت بفساد الأخلاق أمورها، وكثرت في هذا العالم شروها، حتى سلبت ما أعده الله تعالى لمن حافظوا على الحقيقة،

(٢) كتاب الصلاة (ص: ٥٦).

(١) جامع البيان (٢/ ٣٠٨-٣٠٩ تحقيق شاكر).

واستقاموا على الطريقة، تكون جديرة بأن تسلب في الآخرة ما أعده الله تعالى للأرواح العالية، وما وعد به أصحاب النفوس الزاكية، فإن سعادة الدار الدنيا لم تكن أجرا على أعمال بدنية، لا تتعلق بصلاح النفس في خلق ولا نية، وإنما هي ثمرة تزكية النفس، التي يتوسل إليه بعمل الحس، فإذا كان هذا شأن سعادة الدنيا فكيف يكون نعيم الآخرة جزاء حركات جسدية، وهي الدار التي تغلب فيها الروحانية ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلَمَّهَا جُوزَهَا وَنَقَّوْنَهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(١)»^(٢).

* * *

(١) الشمس: الآيات (٧-١٠).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٧٤).

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿٨٦﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه- أولئك الذين أخبر عنهم أنهم يؤمنون ببعض الكتاب، فيفادون أسراهم من اليهود، ويكفرون ببعض، فيقتلون من حرم الله عليهم قتله من أهل ملتهم، ويخرجون من داره من حرم الله عليهم إخراجهم من داره، نقضاً لعهد الله وميثاقه في التوراة إليهم. فأخبر -جل ثناؤه- أن هؤلاء هم الذين اشتروا رياسة الحياة الدنيا على الضعفاء وأهل الجهل والغباء من أهل ملتهم، وابتاعوا المآكل الخسيسة الرديئة فيها بالإيمان، الذي كان يكون لهم به في الآخرة لو كانوا أتوا به مكان الكفر الخلود في الجنان. وإنما وصفهم الله -جل ثناؤه- بأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة؛ لأنهم رضوا بالدنيا بكفرهم بالله فيها، عوضاً من نعيم الآخرة الذي أعده الله للمؤمنين. فجعل حظوظهم من نعيم الآخرة بكفرهم بالله، ثمناً لما ابتاعوه به من خسيس الدنيا»^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «ثم أكد الله تعالى ذلك الوعيد الشديد وبيّن سببه بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: جعلوا حظوظهم من الحياة الدنيا بدلاً من الآخرة، بما فرطوا في جنب الله، وأهملوا من شريعته، حتى لم يتبعوا منها إلا ما يوافق أهواءهم، ولا يعارض شهواتهم؛ كالحميّة التي حملت كلّ حليف على الانتصار لمحالفه المشرك، ومظاهرتة إياه على قومه الذين تجمعه بهم رابطة الدين والنسب ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ لأن علته ذاتية فيهم، وهي ظلمة أرواحهم وفساد أخلاقهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بشفاعه شافع أو ولاية ولي من دون الله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٢) وأنى يأذن بالشفاعة لمن سجلت عليهم الشقاء

(١) جامع البيان (٢/ ٣١٦-٣١٧ تحقيق شاكر). (٢) البقرة: الآية (٢٥٥).

أعمالهم بإحاطة الخطايا بهم من كل جانب، حتى أخذت عليهم طريق الرحمة، وقطعت عليهم باختيارهم سبيل الرضوان الإلهي؟ فمن الجهل إهمالهم الأمر والنهي، ونقضهم ميثاق الله تعالى في أهم ما واثقهم به، واعتمادهم مع هذا كله على الشفعاء ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشِيِّهِ مُشْفِقُونَ﴾^(١) ^(٢).

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٢٨).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ
وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾^(١)

★ غريب الآية:

قفينا: أردفنا وأتبعنا، أصله من اتباع القفا، يقال: قَفَوْتُ فلانًا إذا صِرْتُ خلف قفاه. والتقفيه: الاتباع. ومنه سميت قافية الشعر لأنها تتلو سائر الكلام. **أَيَّدْنَاهُ**: قويناه، مأخوذ من الأيد، وهو القوة. **روح القدس**: أي جبريل عليه السلام، والقدس بضم الدال وإسكانه الطهارة.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «ينعت -تبارك وتعالى- بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب وهو التوراة، فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها، وأرسل الرسل والنبیین من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولُ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٢) الآية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ قال السدي عن أبي مالك: أتبعنا؛ وقال غيره: أردفنا، والكل قريب كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾^(٣) حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى بن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات وهي المعجزات قال ابن عباس من إحياء الموتى، وخلق من الطين كهية الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، وإبراء الأسقام، وإخبار بالغيوب،

(٢) المائدة: الآية (٤٤).

(١) البقرة: الآية (٨٧).

(٣) المؤمنون: الآية (٤٤).

وتأييده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له، وحسداهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض كما قال تعالى إخباراً عن عيسى عليه السلام ﴿وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١) الآية؛ فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة، وفريقاً يكذبونه، وفريقاً يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم، وربما قتلوا بعضهم^(٢).

وقال ابن جرير: «وإنما يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾؛ أي: أتبعنا بعضهم بعضاً على منهاج واحد وشريعة واحدة؛ لأن كل من بعثه الله نبياً بعد موسى عليه السلام إلى زمان عيسى بن مريم، فإنما بعثه بأمر بني إسرائيل بإقامة التوراة، والعمل بما فيها، والدعاء إلى ما فيها. فلذلك قيل: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾، يعني على منهاجه وشريعته، والعمل بما كان يعمل به»^(٣).

وقال: «ثم اختلف في تأويل قوله: ﴿يُرْجِ الْقُدُسُ﴾ فقال بعضهم: (روح القدس) الذي أخبر الله -تعالى ذكره- أنه أيد عيسى به هو جبريل عليه السلام... وقال آخرون: (الروح) الذي أيد الله به عيسى هو الإنجيل... وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال: (الروح) في هذا الموضع جبريل؛ لأن الله -جل ثناؤه- أخبر أنه أيد عيسى به، كما أخبر في قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُخَلِّدُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^(٤)، فلو كان الروح الذي أيدته الله به هو الإنجيل، لكان قوله: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، و﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، تكرير قول لا معنى له. وذلك أنه على تأويل قول من قال: معنى ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، إنما هو: إذ أيدتك بالإنجيل وإذ علمتك الإنجيل وهو لا يكون به مؤيداً إلا وهو معلمه، فذلك تكرير كلام واحد، من غير زيادة معنى في أحدهما على الآخر. وذلك خلف من الكلام، والله -تعالى ذكره-

(١) آل عمران: الآية (٥٠).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٢١٣-٢١٤).

(٣) جامع البيان (٢/٣١٨) تحقيق شاکر.

(٤) المائدة: الآية (١١٠).

يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة. وإذا كان ذلك كذلك، فبيّن فساد قول من زعم أن (الروح) في هذا الموضع، الإنجيل، وإن كان جميع كتب الله التي أوحاها إلى رسله روحاً منه؛ لأنها تحيا بها القلوب الميتة، وتنتعش بها النفوس المولية، وتهتدي بها الأحلام الضالة»^(١).

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتِ﴾ لم يبين هنا ما هذه البينات، ولكنه بينها في مواضع آخر كقوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنْخِ الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾^(٢) إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ هو جبريل على الأصح، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^(٣) الآية. وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾^(٤) الآية^(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الدفاع عن النبوة

وتفسير روح القدس

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله»^(٦).

* غريب الحديث:

نافحت: أي دافعت وخاصمت المشركين وهجوتهم مجازاة لهم.

* فوائد الحديث:

قال صاحب العون: «المراد بروح القدس جبريل عليه السلام بدليل حديث البراء عند البخاري^(٧) بلفظ: «وجبريل معك»^(٨).

وقال المباركفوري: «تأييده إمداده له بالجواب وإلهامه لما هو الحق والصواب

(١) جامع البيان (٢/ ٣٢٠-٣٢٢ تحقيق شاكر).

(٢) آل عمران: الآية (٤٩).

(٣) الشعراء: الآية (١٩٣).

(٤) مريم: الآية (١٧).

(٥) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٣٦ / ٢٤٩٠).

(٦) أعضاء البيان (١/ ٨٠).

(٧) عون المعبود (١٣/ ٣٥٨).

(٨) البخاري (٣٢١٣).

«ما يفاخر أو ينافح عن رسول الله ﷺ» أي: ما دام مشتغلاً بتأييد دين الله، وتقوية رسول الله ﷺ^(١).

قال المناوي: «أي الروح المقدسة وهو جبريل عليه السلام سمي به لأنه يأتي بما فيه حياة القلب فإنه المتولي لإنزال الكتب الإلهية التي بها تحيا الأرواح الربانية والقلوب الجسمانية فهو كالمبدأ لحياة القلب كما أن الروح مبدأ لحياة الجسد وأضيف إلى القدس لأنه مجبول على الطهارة والتزاهة من العيوب وخص بذلك وإن كانت جميع الملائكة كذلك لأن روحانيته أتم وأكمل»^(٢).

* * *

(١) تحفة الأحوذى (١١١/٨).

(٢) فيض القدير (٢/٤٥٠).

قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ أَتَكْبَرْتُمْ
فَفَرِّقُوا كَذِبْتُمْ وَفَرِّقُوا تَقْتُلُونَ﴾

★ غريب الآية:

تهوى: أصل الهوى: الميل إلى الشيء، ويجمع أهواء، وسمي الهوى لأنه يهوي بصاحبه إلى النار، ولذلك لا يستعمل في الغالب إلا في ما ليس بحق وفيما لا خير فيه. وقد يستعمل في الخير ومنه قول عمر رضي الله عنه في أسارى بدر: (فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت)^(١).

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فهذا هو الذي تسميه النظائر والفقهاء التشهبي والتحكم، فيقول أحدهم لصاحبه: لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهبي والتحكم الباطل، فإن جاءك ما لا تشتهيه دفعته ورددته. وإن كان القول موافقاً لما تهواه وتشتهيه، إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تريده قبلته وأجزته، فترد ما خالف هواك، وتقبل ما وافق هواك: وهذا الاحتجاج والذي قبله مفحمان للخصم لا جواب له وعليهما البتة، فإن الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ بجميعه، والتزام بعض شرائعه يوجب التزام جميعها، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات، إذ لو كان الشرع تابعاً للهوى والشهوة لكان في الطباع ما يغني عنه، وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعاً له ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾^(٢)»^(٣).

وقال محمد رشيد رضا: «ماذا كان حظ أولئك الرسل من بني إسرائيل؟ كان حظهم منهم ما أفاده الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ أَتَكْبَرْتُمْ﴾ فاتبعتم الهوى وأطعتم الشهوات، وعصيتم الرسل واحتميتم

(١) أخرجه أحمد (١/٣٠-٣١) ومسلم (٣/١٣٨٣-١٣٨٥/١٧٦٣).

(٢) بدائع الفوائد (٤/١٤٤).

(٣) المؤمنون: الآية (٧١).

عليهم أن أنذروكم ودعوكم إلى أحكام كتابكم ﴿فَقَرِيفًا كَذَبْتُمْ وَقَرِيفًا تَقْتُلُونَ﴾ كان المعهود في التخاطب وكلام الناس أن تذكر هذه المساوي ثم يوبخون عليها، ولكن طواها في الخطاب وأدمجها في الاستفهام لتفاجيء النفوس بقوة التشنيع والتقبيح، وتبرز لها في ثوب الإنكار والتوبيخ، وفي ذلك الإيماء إلى أن هذه المعاملة السوء مما لا يخفى خبرها، ولا تغيب عن الأفكار صورها، فلا ينبغي الإلماع إليها، إلا في سياق تقريب مجترحيها، وهذا من إيجاز القرآن، الذي لا يعرج إليه فكر الإنسان، وانظر كيف أورد خبر القتل بصيغة المضارع التي تدل على الحال لاستحضار تلك الصورة الفظيعة وتمثيلها للسامع حتى يمثلها في الخيال، وإن مرت عليها القرون والأحوال؛ لأنها أفاعيل لا تخلق جدتها، ودماء لا تطير رغوتها، وأن مثل هذا التعبير ليمثل تلك الصورة المشوهة؛ لأن الألفاظ إذا قرعت الذهن بمفهومها يتناول الخيال ذلك المفهوم ويصوره بالصورة اللائقة به، فيكون له من التأثير ما يناسبه.

قتلوا من الأنبياء المرسلين زكريا ويحيى عليهما السلام، ويروى أنهم قتلوا في يوم واحد مئة وخمسين نبياً، فإن صح هذا فالمراد بأولئك الأنبياء من كانت نبوتهم محصورة في الدعوة إلى إقامة التوراة، ودليلها محصوراً في الإنبياء ببعض المغيبات وكان هذا الفريق منتشراً في أسباط بني إسرائيل وكثيراً بكثرتهم.

وفي هذه الآية حجتان للنبي ﷺ حجة على بني إسرائيل وحجة على الذين يعجبون لعدم إيمانهم به وإجابتهم دعوته، وبيان أن المجاهدة والمعاندة من شأنهم ومما عرف من شئنتهم^(١).

* * *

(١) تفسير المنار (١/ ٣٧٧-٣٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٨٨﴾

★ غريب الآية:

غلف: بسكون اللام؛ أي: عليها أغطية، فقلب أغلف؛ أي: مستور عن الفهم والتمييز.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «وقد اختلف في معنى قولهم: قلوبنا غلف فقالت طائفة: المعنى قلوبنا أوعية للحكمة والعلم، فما بالها لا تفهم عنك ما أتيت به أو لا تحتاج إليك. وعلى هذا فيكون غلف جمع غلاف، والصحيح قول أكثر المفسرين أن المعنى: قلوبنا لا تفقه ولا تفهم ما تقول، وعلى هذا فهو جمع أغلف كأحمر وحُمر. قال أبو عبيدة: كل شيء في غلاف فهو أغلف كما يقال سيف أغلف، وقوس أغلف، ورجل أغلف غير مختون.

قال ابن عباس وقتادة ومجاهد: على قلوبنا غشاوة، فهي في أوعية فلا تعي ولا تفقه ما تقول. وهذا هو الصواب في معنى الآية لتكرر نظائره في القرآن كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِيْ غَطَاٍ عَنْ ذِكْرِيْ﴾^(٢) ونظائر ذلك.

وأما قول من قال: هي أوعية للحكمة فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة، وليس له في القرآن نظير يحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، وقلوب المؤمنين العالمين غلف، أي أوعية للعلم؟

والغلاف قد يكون وعاء للجيد والرديء، فلا يلزم من كون القلب غلافًا أن يكون داخله العلم والحكمة. وهذا ظاهر جدًا، فإن قيل: فالإضراب بـ(بل) على

(١) فصلت: الآية (٥).

(٢) الكهف: الآية (١٠١).

هذا القول الذي قويتموه ما معناه .

وأما على القول الآخر فظاهر ، أي ليست قلوبكم محللاً للعلم والحكمة بل مطبوع عليها؟ قيل : وجه الإضراب في غاية الظهور ، وهو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته ، بل جعل قلوبهم داخلية في غلف فلا تفقهه ، فكيف تقوم به عليهم الحجة؟ وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف فهم معذورون في عدم الإيمان فكذبهم الله وقال : ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾^(١) ، وفي الآية الأخرى ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ .

فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم وآثروه على الإيمان فعاقبهم عليه بالطبع واللعة ، والمعنى : لم نخلق قلوبهم غلفاً لا تعي ولا تفقه ثم نأمرهم بالإيمان وهم لا يفهمونه ولا يفقهونه ، بل اكتسبوا أعمالاً عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها^(٢) .

وقال محمد رشيد رضا : «والمراد أننا لا نعقل قولك ولا ينفذ إلى قلوبنا مفهوم دعوتك فهو بمعنى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْثَثٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾^(٣) .

وقد رد الله تعالى عليهم بما يشعر بكذبهم وعنادهم فقال : ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي : أن قلوبهم ليست غلفاً لا تفهم الحق بطبعها ، وإنما أبعدهم الله تعالى من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين وبالكتاب الذي تركوا العمل به وحرفوه اتباعاً لأهواءهم ، فهم قد أنسوا بالكفر وانطبعوا عليه ، فكان ذلك سبباً في حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى بإجابة دعوة خاتم النبيين . هذا هو معنى اللعن وقد ذكرت معه علته ليعلم أنه جرى على سنة الله تعالى في الأسباب والمسببات وأن الله لم يظلمهم بهذا ، وإنما ظلّموا أنفسهم بالكفر الذي يستتبع الكفر ، والعصيان الذي يجر إلى التمادي في العصيان ، كما هي السنة في أخلاق الإنسان ، ولما كان ذكر اللعن معللاً بالكفر الذي هو نتيجة تأثير أعمالهم السابقة في أنفسهم ،

(١) النساء : الآية (١٥٥) .

(٢) شفاء العليل (١/ ٢٤٤-٢٤٥) .

(٣) فصلت : الآية (٥) .

وكان مما يخطر بالبال أن أولئك القوم لم يكونوا كافرين، بل مؤمنين بالله وكتابه ورسله إليهم، استدرك فقال: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وإنما القلة في الإيمان باعتبار ما يؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعة، وبالنسبة إلى اليقين في الإيمان، وتحكيمه في الفكر والوجدان.

ولقد كان القوم يؤمنون بالشريعة في الجملة وكما تعطيه ظواهر الألفاظ، ولكنهم لم يلبسوها مفصلة تفصيلًا، ولم يفقهوا حكمها وأسرارها، فلم يكن لها سلطان على قلوبهم، ولم تكن هي المحركة لإرادتهم في أعمالهم، وإنما كان يحركها الهوى والشهوة، ويصرفها عامل اللذة، فالإيمان إنما كان عندهم قولًا باللسان، ورسمًا يلوح في الخيال، تكذبه الأعمال، وتطمسه السجايا الراسخة والخلال، وهذا هو الإيمان الذي لا قيمة له عند الله تعالى. ومن العجب أن نرى آيات القرآن تبطله بالحجج القيمة، والأساليب المؤثرة، وأهل القرآن عن ذلك غافلون، فقليلًا ما يعتبرون ويتذكرون»^(١).

* * *

(١) تفسير المنار (١/ ٣٧٨-٣٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

★ غريب الآية:

يستفتحون: أي: يستنصرون، والاستفتاح: الاستنصار.
 اللعن: الطرد والإبعاد. ويقال للذئب: لعين. وللرجل الطريد: لعين. ومنه قول الشماخ:
 دَعَرْتُ بِهِ الْقَطَا وَنَفَيْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذئب - كالرجل - اللعين
 ووجه الكلام: مقام الذئب اللعين كالرجل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فهذه حجة أخرى على اليهود في تكذيبهم بمحمد ﷺ، فإنهم كانوا يحاربون جيرانهم من العرب في الجاهلية، ويستنصرون عليهم بالنبي ﷺ قبل ظهوره، فَيُفْتَحُ لَهُمْ وَيُنْصَرُونَ، فلما ظهر النبي ﷺ كفروا به وجحدوا نبوته، فاستفتاحهم به وجحدوا نبوته مما لا يجتمعان، فإن كان استفتاحهم به لأنه نبي كان جحد نبوته محالاً، وإن كان جحد نبوته كما يزعمون حقاً كان استفتاحهم به باطلاً، فإن كان استفتاحهم به حقاً فنبوته حق، وإن كانت نبوته كما يقولون باطلاً فاستفتاحهم به باطل، وهذا مما لا جواب لأعدائه عنه ألبتة، ويمكن تقريرها على صور عديدة:

منها: أن يقال قد أقررتهم بنبوته قبل ظهوره باستفتاحهم به، فتعين عليكم الإقرار بها بعد ظهوره.

الثانية أن يقال: كنتم تستفتحون به وذلك إقرار منكم بنبوته قبل ظهوره استناداً إلى ما عندكم من العلم بظهوره، فلما شاهدتموه وصار المعلوم معيّناً بالرؤية

فالتصديق به حينئذ يكون أولى ، فكفرتم به عند كمال المعرفة ، وأمتنتم به حين كانت غيباً لم تكمل ، فأمتنتم به على تقدير وجوده ، وكفرتم به عند تحقق وجوده ، فأى تناقض وعناد أبلغ من هذا .

الثالثة أن يقال : إيمانكم به لازم لاستفتاحكم به ، ووجود الملزوم بدون لازمه محال .

الرابعة أن يقال : استفتاحكم به هل كان عن دليل أو لا عن دليل ، فلا بد أن يقولوا : كان عن دليل ، وحينئذ يجب طرد الدليل ، والقول بموجبه حيث وجد ، فإما أن يقال بموجبه في موضع ، ويجحد موجبه في موضع أقوى منه فمن أبطل الباطل .

الخامسة أن يقال : إن كان الاستفتاح به تصديقاً للنبي الذي أخبر بظهوره وقامت البراهين على صدقه فالإيمان به متعين تصديقاً للنبي الأول أيضاً ، وإن كان ترك الإيمان قبل ظهوره تكذيباً للنبي الأول فترك الإيمان به بعد ظهوره أشد تكذيباً ، فأنتم في كفركم به مكذبون للنبي الأول ، والثاني وهذا من أحسن الوجوه . . . »^(١) .

ثم قال : «ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ فأغنى عن هذه الوجوه والتقريرات كلها قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ والمادة الحق يمكن إبرازها في الصور المتعددة ، وفي أي قالب أفرغت ، وصورة أبرزت ، ظهرت صحيحة ، وهذا شأن مواد براهين القرآن ، في أي صورة أبرزتها ظهرت في غاية الصحة والبيان ، فالحمد لله المان بالهدى على عباده المؤمنين »^(٢) .

وقال السعدي : «أي : ولما جاءهم من عند الله على يد أفضل الخلق ، وخاتم الأنبياء ، الكتاب المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة ، وقد علموا به ، وتيقنوه على أنهم إذا كان وقع بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب ، استنصروا بهذا النبي ، وتوعدوهم بخروجه ، وأنهم يقاتلون المشركين معه .

فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا ، كفروا به ، بغياً وحسداً ، أن ينزل

(١) بدائع الفوائد (٤/١٤٤-١٤٥) .

(٢) بدائع الفوائد (٤/١٤٦-١٤٧) .

اللَّهُ من فضله على من يشاء من عباده .

فلعنهم الله ، وغضب عليهم غضبا بعد غضب ، لكثرة كفرهم ، وتوالى شكهم وشركهم^(١) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عناد اليهود

* عن سلمة بن سلامة بن وقش وكان من أصحاب بدر قال : (كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل ، قال : فخرج علينا يوما من بيته قبل مبعث النبي ﷺ بيسير ، فوقف على مجلس بني عبد الأشهل ، قال سلمة : وأنا يومئذ أحدث من فيه سئاً علي بردة مضطجعا فيها بفناء أهلي ، فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار ، فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أن بعثا كائن بعد الموت ، فقالوا له : ويحك يا فلان ، ترى هذا كائنا ، إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم؟ قال : نعم ، والذي يُحْلَفُ به لَوَدَّ أَنَّ له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا يُحْمَوْنَ ثم يُدْخَلُونَهُ إياه فَيُطَبَّقَ به عليه ، وأن ينجو من تلك النار غداً ، قالوا له : ويحك وما آية ذلك؟ قال : نبي يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده نحو مكة واليمن ، قالوا : ومتى تُراه؟ قال : فنظر إلي وأنا من أحدثهم سئاً ، فقال : إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه . قال سلمة : فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله تعالى رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا ، فأمانا به وكفر به بغياً وحسداً ، فقلنا : ويلك يا فلان ! أألسنت بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال : بلى وليس به^(٢) .

* غريب الحديث:

بردة : هي الشملة والجمع برود .

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١١٠) .

(٢) أخرجه أحمد (٤٦٧/٣) والطبراني (٦٣٢٧/٤٧/٧) والحاكم (٤١٧/٣-٤١٨) وقال : «صحيح على شرط

مسلم» ووافقه الذهبي ، وليس كما قالوا فإن مسلماً إنما أخرج لمحمد بن إسحاق متابعة .

والبيهقي في الدلائل (٧٩-٧٨/٢) وأبو نعيم في الدلائل (ص : ٣٨-٣٩) . وقال الهيثمي (٨/ ٢٣٠) : «رواه

أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع» .

تنور: القرن الذي يخبز فيه .

★ فوائد الحديث:

قوله : (قال بلى وليس به)

قال الساعاتي : «أي ليس هو الذي ذكرته لكم ، أنكر اليهودي معرفة النبي ﷺ والحال أنه يعرفه كما يعرف ابنه وإنما قال ذلك اليهودي بغياً وحسداً قال تعالى : ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١)»^(٢) .

* * *

(١) البقرة: الآية (١٤٦) .

(٢) الفتح الرباني (١٨/٢١) .

قوله تعالى: ﴿بِسْمَا أَشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَبَاءٌ وَبِعَظْمٍ عَلَى عَظْمٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٩٠)

★ غريب الآية:

بئس: نقيض نعم، وهي فعل ماض تقتضي جميع المذاق، كما أن نعم تقتضي جميع المحامد.

اشترؤا: ابتاعوا، من الشراء بمعنى: البيع.

بغياً: البغي طلب تجاوز الاقتصاد في ما يتحرى، تجاوزه أم لم يتجاوزه، والبغي على ضربين، أحدهما محمود وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوع. والثاني مذموم: وهو تجاوز الحق إلى الباطل. وأكثر استعمال البغي في الأشياء المذمومة لاسيما إذا أطلق، نحو زيد بغي.

مُهين: أي: مُذِلٌّ. مأخوذ من الهوان، والهوان على وجهين: أحدهما تذلل الإنسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضة، فيمدح به نحو قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾^(١). والثاني: أي يكون من جهة متسلط مستخف به فيذم به، ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾^(٢) وهو المراد هنا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فمعنى الآية: بئس الشيء باعوا به أنفسهم، الكفر بالذي أنزل الله في كتابه على موسى - من نبوة محمد ﷺ، والأمر بتصديقه واتباعه - من أجل أن أنزل الله من فضله؛ وفضله: حكمته وآياته ونبوته على من يشاء من عباده - يعني به: على محمد ﷺ - بغياً وحسداً لمحمد ﷺ، من أجل أنه كان من ولد إسماعيل، ولم

(١) الفرقان: الآية (٦٣).

(٢) الأحقاف: الآية (٢٠).

يكن من بني إسرائيل .

فإن قال قائل : وكيف باعت اليهود أنفسهم بالكفر ، فليل : بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ؟ وهل يشتري بالكفر شيء ؟

قيل : إن معنى : (الشراء) و(البيع) عند العرب ، هو إزالة مالك ملكه إلى غيره ، بعوض يعتاضه منه . ثم تستعمل العرب ذلك في كل معتاض من عمله عوضاً ، شراً أو خيراً . فتقول : (نعم ما باع به فلان نفسه) و (بئس ما باع به فلان نفسه) ، بمعنى : نعم الكسب أكسبها ، وبئس الكسب أكسبها ، إذا أورها بسعيه عليها خيراً أو شراً . فكذاك معنى قوله -جل ثناؤه- : ﴿يَسْكُمَ أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ لما أوبقوا أنفسهم بكفرهم بمحمد ﷺ فأهلكوها ، خاطبهم الله والعرب بالذي يعرفونه في كلامهم ، فقال : ﴿يَسْكُمَ أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ ، يعني بذلك : بئس ما أكسبوا أنفسهم بسعيهم ، وبئس العوض اعتاضوا ، من كفرهم بالله في تكذيبهم محمداً ، إذ كانوا قد رضوا عوضاً من ثواب الله وما أعد لهم لو كانوا آمنوا بالله وما أنزل على أنبيائه بالنار وما أعد لهم بكفرهم بذلك^(١) .

وقال : «يعني بقوله : ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ فرجعت اليهود من بني إسرائيل بعد الذي كانوا عليه من الاستنصار بمحمد ﷺ والاستفتاح به ، وبعد الذي كانوا يخبرون به الناس من قبل مبعثه أنه نبي مبعوث مرتدين على أعقابهم حين بعثه الله نبياً مرسلًا ، فباءوا بغضب من الله استحقوه منه بكفرهم بمحمد حين بعث ، وجحودهم نبوته ، وإنكارهم إياه أن يكون هو الذي يجدون صفته في كتابهم ، عناداً منهم له وبغيًا ، وحسدًا له وللعرب على غضب سالف ، كان من الله عليهم قبل ذلك ، سابق غضبه الثاني ، لكفرهم الذي كان قبل عيسى بن مريم ، أو لعبادتهم العجل ، أو لغير ذلك من ذنوب كانت لهم سلفت ، يستحقون بها الغضب من الله^(٢) .

وقال : «وهذه الآية وما أخبر الله فيها عن حسد اليهود محمداً ﷺ وقومه من العرب ، من أجل أن الله جعل النبوة والحكمة فيهم دون اليهود من بني إسرائيل ، حتى دعاهم ذلك إلى الكفر به ، مع علمهم بصدقه ، وأنه لله نبي مبعوث ورسول

(٢) جامع البيان (٢/ ٣٤٥) تحقيق شاكر .

(١) جامع البيان (٢/ ٣٤٢-٣٤٣) تحقيق شاكر .

مرسل نظيرة الآية الأخرى في سورة النساء، وذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَطِيعُوا وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُولَاءُ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۖ﴾ (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْمِزِ اللَّهُ فَلَن يَحْدِلَ لَهُ نَصِيرًا ۖ﴾ (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۖ﴾ (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا ۖ﴾ (١)﴾ (٢).

* * *

(١) النساء: الآيات (٥١-٥٤).

(٢) جامع البيان (٢/٣٤٣ تحقيق شاكر).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُوكَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيََاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

★ غريب الآية:

بما وراءه: بما بعده. قال الجوهرى: وراء بمعنى خَلْف، وقد تكون بمعنى قُدَّام. وهو من الأضداد. وإذا لم تضيفه قلت: لقيته من وراء، فترفعه على الغاية كقولك: مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ. قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَلِكٌ﴾^(١) أي: أمامهم. قال الشاعر:

تَمَنَّى الأمانى ليس شيء وراءها كم وعد عرقوب أخاه بيثرب

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «هذه حكاية مناظرة بين الرسول ﷺ وبين اليهود لما قيل لهم ﴿ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ﴾ فأجابوه بأن قالوا: ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ ومرادهم بهذا التخصيص أن نؤمن بالمنزل علينا دون غيره، فظهرت عليهم الحجة بقولهم هذا من وجهين دل عليهما قوله تعالى: ﴿وَنَكْفُرُوكَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ إلى آخر الآية، قال: إن كنتم قد آمنتم بما أنزل عليكم لأنه حق؛ فقد وجب عليكم أن تؤمنوا بما جاء به محمد لأنه حق مصدق لما معكم، وحكم الحق الإيمان به أين كان ومع من كان، فلزمكم الإيمان بالحقين جميعاً. أو الكفر الصراح. وفي قوله: ﴿وَنَكْفُرُوكَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ نكتة بديعة جدا، وهي أنهم لما كفروا به وهو حق لم يكن إيمانهم بما أنزل عليهم لأجل أنه حق، فإذا لم يتبعوا الحق فيما أنزل عليهم، ولا فيما جاء به محمد ﷺ؛ لأنهم لو آمنوا بالمنزل عليهم أنه حق لآمنوا بالحق الثاني وأعطوا الحق حقه من الإيمان، ففي ضمن هذه الشهادة عليهم بأنهم لم

(١) الكهف: الآية (٧٩).

يؤمنوا بالحق الأول ولا بالثاني، وهكذا الحكم في كل من فرق الحق فأمن ببعضه، وكفر ببعضه كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وكمن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض لم ينفعه إيمانه بما كفر به حتى يؤمن بالجميع.

ونظير هذا التفريق تفريق من يرُدُّ آيات الصفات وأخبارها، ويقبل آيات الأوامر والنواهي فإن ذلك لا ينفعه؛ لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض، فإن كانت الشبهة التي عرضت لمن كفر ببعض الأنبياء غير نافعة له، فالشبهة التي عرضت لمن ردَّ بعض ما جاء به النبي ﷺ أولى أن لا تكون نافعة وإن كانت هذه عذراً له فشبهة من كذب بعض الأنبياء مثلها، وكما أنه لا يكون مؤمناً حتى يؤمن بجميع الأنبياء، ومن كفر بنبي من الأنبياء فهو كمن كفر بجميعهم، فكذلك لا يكون مؤمناً حتى يؤمن بجميع ما جاء به الرسول، فإذا آمن ببعضه ورد بعضه فهو كمن كفر به كله. فتأمل هذا الموضوع واعتبر به الناس على اختلاف طوائفهم يتبين لك أن أكثر من يدعي الإيمان بريء من الإيمان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الوجه الثاني من النقض قوله: ﴿فَلَمْ تَقُولُوا أَنِّيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ووجه النقض أنكم إن زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم وبالأنبياء الذين بعثوا فيكم، فلم تقتلتموهم من قبل، وفيما أنزل إليكم الإيمان بهم وتصديقهم، فلا آمنتم بما أنزل إليكم، ولا بما أنزل على محمد ﷺ، ثم كأنه توقع منهم الجواب بأننا لم نقتل من ثبتت نبوته، ولم نكذب به، فأجيبوا على تقدير هذا الجواب الباطل منهم بأن موسى قد جاءكم بالبينات، وما لا ريب معه في صحة نبوته، ثم عبدتم بعد غيبته عنكم وأشركتم بالله وكفرتم به، وقد علمتم نبوة موسى وقيام البراهين على صدقه^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «ثم ذكر اعتذاراً آخر لهم مقروناً بالرد والإبطال، وإقامة الحجة عليهم به فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا﴾ صيغة الدعوة تشعر بوجوب الإيمان بما أنزل الله تعالى لأنه هو الذي أنزله لا لأن المنزل عليه فلان ولذلك لم يقل: آمنوا بما أنزل على محمد. فإن ما أنزل عليه لو أنزل على غيره لوجب الإيمان به فإن الوحي هو المقصود بالذات والأنبياء

(١) بدائع الفوائد (٤/١٤٨-١٤٩).

إنما هم مبلغون، فتقييد الخضوع لوحي الله بكونه لا بد أن يكون منزلاً على شخص من شعب كذا بعينه تحكم على الله تعالى وقضاء عليه بأن تكون رحمته مقيدة بأهواء فريق من خلقه. فإيراد الدعوة بما ذكر من الإطلاق مع إيراد الجواب مقيداً بقيد ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يشعر بقوة حجة الدعوة، ووهن ما بني عليه الجواب من الشبهة. ثم صرح بالحقيقة وهي أنهم إنما يدعون هذا الإيمان بالسنتهم ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ من مدلول ولازم لا ينفك عنه كالبشارة برسول من بني إخوانهم أي ولد إسماعيل، وكون ما ثبت به نبوة محمد بمساواته لما ثبت به نبوة موسى يستلزم وجوب اتباع محمد كما اتبع موسى لأن المدلول يتبع دليله في كل زمن وكل موضوع. قال: إنهم يكفرون بما وراء المنزل إليهم ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أي: والحال أنه الحق الثابت في نفسه بالدليل حال كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ فهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل وقد كان من مكابرتهم وعنادهم ما كان فلم يبق إلا إلزامهم الحجة بما اقترفوا من فحش المخالفة لما أنزل إليهم والفسوق عنه ليعلم أنهم إنما يتبعون أهواءهم ويحكمون شهواتهم بما أنزل إليهم وما أنزل على محمد ﷺ، ولذلك قال: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بما أنزل إليكم وليس فيه الأمر بقتل الأنبياء بل فيه النهي الشديد عن قتل أنفسكم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٩٢)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: جاءكم بالبينات الدالة على صدقه وصحة نبوته، كالعصا التي تحولت ثعباناً مبيناً، ويده التي أخرجها بيضاء للناظرين. وخلق البحر ومصير أرضه له طريقاً يبساً، والجراد والقمل والضفادع، وسائر الآيات التي بينت صدقه وصحة نبوته.

وإنما سماها الله (بينات)، لتبينها للناظرين إليها أنها معجزة لا يقدر على أن يأتي بها بشر، إلا بتسخير الله ذلك له. وإنما هي جمع (بينة)، مثل: (طيبة وطيبات).

قال أبو جعفر: ومعنى الكلام: ولقد جاءكم -يا معشر يهود بني إسرائيل- موسى بالآيات البينات على أمره وصدقه وصحة نبوته. . . فيكون تأويل الكلام حينئذ: ولقد جاءكم موسى بالبينات، ثم اتخذتم العجل من بعد مجيء البينات وأنتم ظالمون. كما تقول: (جئتني فكرهته)؛ يعني: كرهت مجيئك.

وأما قوله: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾، فإنه يعني بذلك: أنكم فعلتم من عبادة العجل وليس ذلك لكم، وعبدتم غير الذي كان ينبغي لكم أن تعبدوه؛ لأن العبادة لا تنبغي لغير الله. وهذا توبيخ من الله لليهود، وتعيير منه لهم، وإخبار منه لهم أنهم إذا كانوا فعلوا ما فعلوا -من اتخاذ العجل إلهاً وهو لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً، بعد الذي علموا أن ربهم هو الرب الذي يفعل من الأعاجيب وبدائع الأفعال ما أجراه على يدي موسى -صلوات الله عليه-، من الأمور التي لا يقدر عليها أحد من خلق الله، ولم يقدر عليها فرعون وجنده مع بطشه وكثرة أتباعه، وقرب عهدهم بما عاينوا من عجائب حكم الله -فهم إلى تكذيب محمد ﷺ وجحود ما في كتبهم التي زعموا أنهم بها مؤمنون من صفته ونعته، مع بعد ما بينهم وبين عهد موسى من المدة -

أسرع، وإلى التكذيب لما جاءهم به موسى من ذلك أقرب»^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «سبق التذكير باتخاذ العجل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾^(٢) ثم أعاده هنا بعبارة وأسلوب آخرين في سياق آخر، أما اختلاف العبارة والأسلوب فظاهر وأما السياق فقد كان أولاً في تعداد النعم على بني إسرائيل وبيان ما قابلوها به من الكفران وهو هنا في ذكر الآيات ورد شبهاتهم المانعة بزعمهم من الإيمان بالنبي ﷺ، فهناك يقول إن النعم التي أسبغها الله عليكم لم يكن لها من شكر عندكم إلا اتخاذ عجل تعبدونه من دونه. وههنا يقول إن الآيات البينات على النبوة والوحدانية، لم تزدكم إلا إيغالا في الشرك وانهماكاً في الوثنية، فكيف تعتذرون عن الإيمان بمحمد بأنكم لا تؤمنون إلا بما أنزل إليكم وهذا شأنكم فيه؟ ومجموع الآيتين ينبئ بفساد قلوب القوم وفساد عقولهم حتى لا مطمع في هداية أكثرهم من جهة الوجدان، ولا من ناحية العقل والجنان. وهذه البينات التي ذكرها ههنا قد كانت في مصر قبل الميعاد الذي نزلت فيه التوراة وأما النعم التي ذكرها هناك فقد كانت في أرض الميعاد كما تقدم. ووجه الاتصال بين هذه الآية وما قبلها قد علم مما قلناه في السياق وفيه المقابلة بين معاملتهم لموسى ﷺ ومعاملتهم للنبي ﷺ إذ قالوا: قلوبنا غلف: وادعوا أنهم مأمورون بأن لا يؤمنوا إلا بما أنزل عليهم خاصة. وقد علم من هذه الحجج كلها بطلان شبههم وكذبهم في دعواهم وأنه لا عذر لهم في ترك الإيمان»^(٣).

قال الشنقيطي: «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ» لم يبين هنا ما هذه البينات وبينها في مواضع آخر كقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَاءَ ابْنَ يُفْلَسَ﴾^(٤) وقوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾^(٥) ونَزَعَ يَدُهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ^(٦) الآية وقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾^(٧) الآية إلى غير ذلك من الآيات»^(٨).

* * *

- (١) جامع البيان (٢/ ٣٥٤-٣٥٦ تحقيق شاكر).
 (٢) البقرة: الآية (٥١).
 (٣) تفسير المنار (١/ ٣٨٥-٣٨٦).
 (٤) الأعراف: الآية (١٣٣).
 (٥) الشعراء: الآيتان (٣٢ و ٣٣).
 (٦) الشعراء: الآية (٦٣).
 (٧) أضواء البيان (١/ ٨٠-٨١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

★ غريب الآية:

اسمعوا: أجيئوا واقتبلوا. ومنه قول المصلي: «سمع الله لمن حمده» أي: أجابه وقبله. وإنما قيل ذلك لأن غرض الداعي قبول دعائه وإجابته، فأوقع السماع موقع الإجابة والقبول. قال الشاعر:

دَعَوْتُ اللَّهَ حَتَّى خِفْتُ أَلَّا يَكُونَ اللَّهُ يَسْمَعُ مَا أَقُولُ
أي: يقبل.

أشربوا: أي: تمكَّن حُبُّهُ من قلوبهم تمكُّناً، بمنزلة مَنْ شرب ماءً فدخل جوفهُ.
قال زهير:

فَصَحَّوْتُ عَنْهَا بَعْدَ حُبِّ دَاخِلٍ وَالْحُبُّ تُشْرِبُهُ فُوَادَكَ: دَاءٌ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يعدد ﷺ عليهم خطأهم، ومخالفتهم للميثاق وعتوهم وإعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه ولهذا قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾»^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «ثم ذكرهم هنا أيضاً بأخذ الميثاق ورفع الطور كما ذكرهم به في آية تقدمت، وقد قال هناك: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾»^(٢) وقال هنا: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا﴾ وأمرهم في تلك بالحفظ وأمرهم في هذه بالفهم والطاعة... وأما هنا الآن معنى الآية التي نفسرها وهو أن الله أخذ

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٠).

(٢) البقرة: الآية (٦٣).

العهد على بني إسرائيل بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وأن يعملوا بشريعته ووصاياهم وكان أخذ هذا العهد في موقف رهبة وخشوع يعين على أخذه بالجد والعزيمة إذ كان الجبل مرفوعاً فوقهم بصفة لم يعهدوها حتى ظنوا أنه يريد أن يقع بهم ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوا هذا الميثاق وتركوا العمل به وعبدوا العجل الذي صاغوه من حليهم بأيديهم عن حب متمكن من النفس، وغالب على العقل والحس، وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في كتابه غير مرة ولكن بعبارات مختلفة كآية التي تقدمت وذكر هناك أنهم تولوا عن الميثاق بعد الأمر بحفظه والعمل به رجاء التقوى، وكآية الأعراف ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا لِبَجَلٍ فَوْقَهُمْ كَانُمْ ظِلَّةٌ﴾^(١) وتقدمت الإشارة إليها هناك وكلاهما غاية في البلاغة.

وذكره هنا بنظم آخر تنتهي إليه البلاغة في سياق آخر فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ ثم التفت عن خطاب الحاضرين إلى الحكاية عن الغابرين فقال: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي أنهم قبلوا الميثاق وفهموه ولكنهم لم يعملوا به بل خالفوه تعتاً وتأولاً وليس المراد أنهم نطقوا بهاتين الكلمتين ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ بل المراد أنهم بمثابة من قال ذلك . . . ثم ذكر أقبح أمثلة هذا العصيان بعبارة مذهشة في بلاغتها فقال: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْوَجَلَ بَكْرِهِمْ﴾ هذه الاستعارة من فرائد الاستعارات يتمثل بها عند ذكر بلاغة القرآن. وإشراب الشيء مخالطته إياه وامتزاجه به، يقال بياض مشرب بحمرة، أو هو من الشرب كأن الشيء المحبوب شراب يساغ فهو يسري في قلب المحب ويمازجه كما يسري الشراب العذب البارد في لهاته . . .

ثم قال: «وأما السياق الذي وردت فيه هذه الآية بهذا النظم والأسلوب المخالفين لأسلوب تلك الآية مع الاتحاد في المعنى، فهو إقامة الحجة على اليهود الذين لم يؤمنوا بالنبى ﷺ، وردزعمهم أنهم مؤمنون بشريعته، لا يطالبهم الله بالإيمان بغيرها كما قلنا في التي قبلها، ولذلك ختم الآية بقوله تعالى مخاطباً للنبي ﷺ: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن صح زعمكم أنكم مؤمنون بشريعته والإيمان الحقيقي يقتضي العمل بما له من السلطان على الإرادة، فبئسما يأمركم به ذلك

(١) الأعراف: الآية (١٧١).

الإيمان من الأعمال التي منها عبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض الميثاق . لكن هذا الزعم مشكوك فيه ، بل يصح القطع بعدمه ، بدليل الأعمال التي يستحيل أن تكون أثرًا له . ولا ينسى القارئ ما تقدم من ربط الإيمان بالعمل الصالح في تفسير قوله تعالى : ﴿بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَظَّتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ ^(١) الآية ^(٢) .

قال الشنقيطي : «قوله : ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ . قال بعض العلماء : هو من السمع بمعنى الإجابة ، ومنه قولهم : سمعًا وطاعة ؛ أي : إجابة وطاعة . ومنه : سمع الله لمن حمده في الصلاة ؛ أي : أجاب دعاء من حمده ، ويشهد لهذا المعنى قوله : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ^(٣) وهذا قول الجمهور وقيل : إن المراد بقوله : (اسمعوا) أي : بأذانكم ولا تمتنعوا من أصل الاستماع .

ويدل لهذا الوجه : أن بعض الكفار ربما امتنع من أصل الاستماع خوف أن يسمع كلام الأنبياء ، كما في قوله تعالى عن نوح مع قومه : ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغِعُهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ ^(٤) .

وقوله عن قوم نبينا ﷺ : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ ^(٥) وقوله : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ ^(٦) وقوله : ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ ^(٧) ؛ لأن السمع الذي لا ينافي العصيان هو السمع بالأذان دون السمع بمعنى الإجابة ^(٨) .

* * *

(٣) النور : الآية (٥١) .

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٨٦-٣٨٨) .

(١) البقرة : الآية (٨١) .

(٥) فصلت : الآية (٢٦) .

(٤) نوح : الآية (٧) .

(٧) البقرة : الآية (٩٣) .

(٦) الحج : الآية (٧٢) .

(٨) أضواء البيان (١/ ٨١) .

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾

★ غريب الآية:

خالصة: أي صافية، مِنْ خُلِّصَ له الأمرُ إذا صفا . وصار له وحده دون الناس، والمعنى: مختصة بكم دون غيركم من الناس .
فتمنوا الموت: أي ادعوا على أنفسكم بالموت، أو اطلبوها .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «كانوا يقولون: نحن أحباء الله، ولنا الدار الآخرة خالصة من دون الناس، وإنما يعذب منا من عبد العجل مدة ثم يخرج من النار، وذلك مدة عبادتهم له، فأجابهم -تبارك وتعالى- عن قولهم: إن النار لن تَمَسَّهُمْ إلا أياماً معدودة؛ بالمطالبة وتقسيم الأمر بين أن يكون لهم عند الله عهد عهده إليهم، وبين أن يكونوا قد قالوا عليه ما لا يعلمون، ولا سبيل لهم إلى ادعاء العهد فتعين الثاني وقد تقدم. ثم أجابهم عن دعواهم خُلُوصَ الآخرة لهم بقوله: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ لأن الحبيب لا يكره لقاء حبيبه، والابن لا يكره لقاء أبيه، لا سيما إذا علم أن كرامته ومثوبته مختصة به، بل أحب شيء إليه لقاء حبيبه وأبيه، فحيث لم يحب ذلك ولم يتمنه فهو كاذب في قوله مبطل في دعواه، ونظير هذا قوله في سورة المائدة ردًا عليهم قولهم: ﴿وَحَنُّ أُنْتَوَى اللَّهُ وَاجْتَوَى قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾^(١) يعني: أن الأب لا يعذب ابنه، والحبيب لا يعذب حبيبه، وهنا نكتة لطيفة جدًا قل من ينتبه لها ونحن نقررها بسؤال وجواب:

فإن قيل: معلوم أن الأب قد يؤدب ولده إذا أذنب، والحبيب قد يهجر حبيبه إذا رأى منه بعض ما يكره.

(١) المائدة: الآية (١٨) .

قيل: لو تأملت أيها السائل قوله: ﴿قَدْ فَلَمَّ يَمْدُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ لعلمت الفرق بين هذا التعذيب وبين الهُجران والتأديب، فإن التعذيب بالذنب ثمرة الغضب المنافي للمحبة، فلو كانت المحبة قائمة كما زعموا؛ لم يكن هناك ذنوب يستوجبون عليها العذاب؛ من المسخ قردة وخنازير، وتسلط أعدائهم عليهم، يستبيحونهم ويستعبدونهم، ويُخْرِبُونَ مُتَعَبِدَاتِهِمْ وَيَسْبُونَ ذُرَارِيَهُمْ، فالمحب لا يفعل هذا بحبيبه ولا الأب بابنه. ومعلوم أن الرحمن الرحيم، لا يفعل هذا بأمة إلا بعد فرط إجرامها وعتوها على الله، واستكبارها عن طاعته وعبادته، وذلك ينافي كونهم أحبابه، فلو أحبوه لما ارتكبوا من غضبه وسخطه ما أوجب لهم ذلك، ولو أحبهم لأدبهم ولم يعذبهم، فالتأديب شيء، والتعذيب شيء؛ والتأديب يراد به التهذيب والرحمة والإصلاح، والتعذيب للعقوبة والجزاء على القبائح، فهذا لون وهذا لون، وفي ضمن هذه المناظرة معجزة باهرة للنبي ﷺ؛ وهي أن في مقام المناظرة مع الخصوم، الذين هم أحرص الناس على عداوته وتكذيبه، وهو يخبرهم خبراً جزماً أنهم لن يتمنوا الموت أبداً، ولو علموا من نفوسهم أنهم يتمنونه؛ لوجدوا طريقاً إلى الرد عليه، بل ذُلُّوا وَغُلِبُوا وَعَلِمُوا صحة قوله، وإنما منعهم من تمني الموت معرفتهم بما لهم عند الله من الخزي والعذاب الأليم؛ بكفرهم بالأنبياء، وقَتْلِهِمْ لهم، وعداوتهم لرسول الله ﷺ.

فإن قيل: فهلا أظهروا التمني، وإن كانوا كاذبين، فقالوا: فنحن نتمناه.

قيل: وهذا أيضاً معجزة أخرى؛ وهي أن الله تعالى حبس عن تمنيه قلوبهم وألستهم، فلم ترده قلوبهم، ولم تنطق به ألسنتهم تصديقاً لقوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾^(١).

وقال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾، فإنه يعني به: بما أسلفته أيديهم. وإنما ذلك مثل، على نحو ما تتمثل به العرب في كلامها. فتقول للرجل يؤخذ بجريرة جرها أو جناية جناها فيعاقب عليها: (نالك هذا بما جنت يداك، وبما كسبت يداك، وبما قدمت يداك)، فتضيف ذلك إلى (اليد). ولعل الجناية التي جناها فاستحق عليها العقوبة، كانت باللسان أو بالفرج أو بغير ذلك من أعضاء

(١) بدائع الفوائد (٤/١٤٩-١٥٠).

جسده سوى اليد.

قال ابن جرير: وإنما قيل ذلك بإضافته إلى (اليد)؛ لأن عظم جنایات الناس بأيديهم، فجرى الكلام باستعمال إضافة الجنایات التي يجنيها الناس إلى (أيديهم)، حتى أضيف كل ما عوقب عليه الإنسان مما جناه بسائر أعضاء جسده، إلى أنها عقوبة على ما جنته يده.

فلذلك قال -جل ثناؤه- للعرب: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، يعني به: ولن يتمنى اليهود الموت بما قدموا أمامهم في حياتهم من كفرهم بالله، في مخالفتهم أمره وطاعته في اتباع محمد ﷺ وما جاء به من عند الله، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة، ويعلمون أنه نبي مبعوث. فأضاف -جل ثناؤه- ما انطوت عليه قلوبهم، وأضمرته أنفسهم، ونطقت به ألسنتهم -من حسد محمد ﷺ والبغي عليه وتكذيبه وجود رسالته- إلى أيديهم، وأنه مما قدمته أيديهم، لعلم العرب معنى ذلك في منطقها وكلامها. إذ كان -جل ثناؤه- إنما أنزل القرآن بلسانها وبلغتها^(١).

وقال: «وهذه الآية مما احتج الله بها لنبيه محمد ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجرة، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم. وذلك أن الله -جل ثناؤه- أمر نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى قضية عادلة بينه وبينهم، فيما كان بينه وبينهم من الخلاف. كما أمره الله أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه في عيسى -صلوات الله عليه- وجادلوا فيه إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة. وقال لفريق اليهود: إن كنتم محقين فتمنوا الموت، فإن ذلك غير ضاركم، إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله. بل إن أعطيتكم أمانيكم من الموت إذا تمنيتم، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها، والفوز بجوار الله في جنانها، إن كان الأمر كما تزعمون: من أن الدار الآخرة لكم خالصة دوننا، وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم. فامتنعت اليهود من إجابة النبي ﷺ إلى ذلك، لعلمها أنها إن تمت الموت هلكت، فذهبت دنياها، وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها. كما امتنع فريق النصارى الذين جادلوا النبي ﷺ في عيسى، إذ دعوا إلى المباهلة من المباهلة.

(١) جامع البيان (٢/٣٦٨ تحقيق شاكر).

فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ، لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً»^(١)»^(٢).

قال القرطبي: «لما ادعت اليهود دعاوى باطلة حكاها الله ﷻ عنهم في كتابه؛ كقوله تعالى: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَنْبَاءًا مَقْدُودَةً﴾»^(٣)، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾»^(٤)، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾»^(٥) أكذبهم الله ﷻ وألزمهم الحجة فقال: قل لهم يا محمد: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يعني الجنة ﴿فَتَمْنُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أقوالكم؛ لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب إليه من الحياة في الدنيا، لما يصير إليه من نعيم الجنة، ويزول عنه من أذى الدنيا، فأحجموا عن تمني ذلك فرقاً من الله لقبح أعمالهم ومعرفتهم بكفرهم في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾»^(٦)، وحرصهم على الدنيا؛ ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم بقوله الحق: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾»^(٧) تحقيقاً لكذبهم، وأيضاً لو تمنوا الموت لماتوا؛ كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقامهم من النار»^(٨).

وقال ابن عطية: «وهذه آية بينة أعطاها الله رسوله محمداً ﷺ لأن اليهود قالت: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾» وشبه ذلك من القول، فأمر الله نبيه أن يدعوهم إلى تمني الموت، وأن يعلمهم أنه من تمناء منهم مات، ففعل النبي ﷺ ذلك، فعلم اليهود صدقه، فأحجموا عن تمنيه، فرقاً من الله لقبح أعمالهم ومعرفتهم بكذبهم في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾» وحرصاً منهم على الحياة.

وقيل: إن الله تعالى منعهم من التمني وقصرهم على الإمساك عنه لتظهر الآية لنبيه ﷺ. والمراد بقوله: (تمنوا) أريدوه بقلوبكم واسألوه، هذا قول جماعة من المفسرين، وقال ابن عباس: المراد فيه السؤال فقط وإن لم يكن بالقلب، وقال

(١) سيأتي تخريجه في الآية نفسها.

(٢) جامع البيان (٢/ ٣٦١-٣٦٢ تحقيق شاكر).

(٣) البقرة: الآية (٨٠).

(٤) البقرة: الآية (١١١).

(٥) المائدة: الآية (١٨).

(٦) المائدة: الآية (١٨).

(٧) البقرة: الآية (٩٥).

(٨) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٤).

أيضاً هو وغيره: إنما أمروا بالدعاء بالموت على أردإ الحزين من المؤمنين ومنهم، وذكر النهدي وغيره أن هذه الآية كانت مدة حياة النبي ﷺ وارتفعت بموته. والصحيح أن هذه النازلة من موت من تمنى الموت إنما كانت أياماً كثيرة عند نزول الآية، وهي بمنزلة دعائه النصاري من أهل نجران إلى المباهلة، وقالت فرقة: إن سبب هذا الدعاء إلى تمنى الموت أن النبي ﷺ أراد به هلاك الفريق المكذب أو قطع حجتهم، لا أن علته قولهم نحن أبناء الله.

ثم أخبر تعالى عنهم بعجزهم وأنهم لا يتمنون^(١).

باب: ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في أن الله تعالى يكذب أعداءه بحججه وأدلته

* عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لئن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مألأ ولا أهلاً»^(٢).

★ غريب الحديث:

عياناً: أي معاينة مواجهة.

يباهلون: يلتعنون.

* * *

(١) المحرر الوجيز (١/١٨١).

(٢) أخرجه أحمد (١/٢٤٨) والنسائي في الكبرى (٦/٣٠٨/١١٠٦١). وأخرجه: البخاري (٨/٩٣٨/٤٩٥٨) والترمذي (٥/٤١٣/٣٣٤٨) والنسائي في الكبرى (٦/٥١٨/١١٦٨٤-١١٦٨٥) مختصراً دون ذكر موضع الشاهد.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦)

★ غريب الآية:

لنجدنهم: يقال: وجد الشيء: ألفاه وأصابه. ويقال: وجدْتُ بمعنى: علمْتُ. أحرص: الحرص: شدة الطلب، وحرص على كذا: إذا أفرط في محبته وإمساكه وطلبه.

يودُّ: يحب. وهي هنا بمعنى التمتي.

مُزَحِّجِهِ: الزحزحة: الإبعاد والتنحية. يقال: زحزحته فتزحزح؛ أي: نحته فتنتحى. قال ذو الرمة:

يا قابض الروح عن جسم عصى زمنًا وغافر الذنب زحزحني عن النار
بصير: البصير العالم بالشيء الخبير به، ومنه قولهم: فلان بصير بالطب، وبصير بالفقه؛ أي: عالم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «إنما وصف الله -جل ثناؤه- اليهود بأنهم أحرص الناس على الحياة، لعلمهم بما قد أعد لهم في الآخرة على كفرهم بما لا يقر به أهل الشرك، فهم للموت أكره من أهل الشرك الذين لا يؤمنون بالبعث؛ لأنهم يؤمنون بالبعث، ويعلمون ما لهم هنالك من العذاب. والمشركون لا يصدقون بالبعث ولا العقاب، فاليهود أحرص منهم على الحياة وأكره للموت»^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «ثم بين حقيقة حالهم في الإخلاق إلى الأرض، والفناء في حب البقاء، وأنهم ليسوا على بينة مما يدعون، ولا ثقة لهم بأنفسهم فيما

(١) جامع البيان (٢/ ٣٧٠-٣٧١ تحقيق شاكر).

يزعمون، فقال: ﴿وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ﴾ كذلك كانوا وكذلك هم الآن والظاهر من سيرتهم ونظام معيشتهم أنهم كذلك يكونون إلى ما شاء الله وإن كان الظاهر أن الكلام خاص بمن كانوا في عصر التنزيل يحاجهم النبي ﷺ ويشاغبونه ويجاحدونهم معتزين بشغبهم، مغترين بكتابهم، بل ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد علماؤهم فقط. ونكر الحياة للتحقير كأنه يقول: إنهم شديداً الحرص على الحياة وإن كانت في بؤس وشقاء. ثم خص طائفة من الناس بالذكر عرفوا بشدة الحرص على الحياة وتمني طول البقاء في الدنيا لأنهم لا يؤمنون بحياة بعدها فقال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي: إنهم أحرص الناس من جميع الناس حتى من الذين أشركوا، ثم بين مثالا من هذا الحرص مستأنفاً فقال: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي يتمنى لو يعمره الله ويبقيه ألف سنة، أو أكثر فإن لفظ الألف عند العرب منتهى أسماء العدد فيعبر به عن المبالغة في الكثرة لأنه يعرف من نفسه أنه مخالف لكتابه ويتوقع سخط الله وعقابه فيرى أن الدنيا على ما فيها من المنغصات خير له من الآخرة وما يتوقعه فيها. قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَّجٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ أي: وما تعميره الطويل بمزحزحه أي منحيه ومبعده عن العذاب المعد له ولأمثاله فإنه ميت مهما طال عمره، وكل ما له حد فهو منتهى إليه ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لا تخفى عليه خافية من أمرهم، ولو عرفوه حق معرفته لعلموا أن طول العمر لا يخرجهم من قبضته، ولا ينجيهم من عقوبته، فإن المرجع إليه، والأمر كله بيديه^(١).

قلت: سبحان من خلق الخلق وفرقهم وقدر لهم ما شاء، والكل ينال حظه المكتوب له، واليهود عليهم لعائن الله كان حظهم من وجودهم هو المكر والخداع، والحق في التآمر على كل خير، والمهارة في ذلك، وأوتوا من كل خبث أسوأه، ولما هم فيه من هذا المنهاج الكبير الذي تولوا كبره في كل عصر ومصر، كتب الله عليهم الذل والمسكنة والخوف، فهم الجبناء الذين يخافون من أقل الحيوانات اعتداء، ويخافون من أقل الناس مكانة، فالخوف والجبن من الصفات اللازمة لهم كما وصفهم الله بقوله: ﴿لَا يُقْبِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ

(١) تفسير المنار (١/ ٣٩٠-٣٩١).

من وَرَاءِ جُدْرٍ^(١)، ولا يعلم في تاريخ البشرية من بعثة موسى ﷺ وإلى يومنا هذا أنهم كانت لهم موقعة أو غزوة، أو أي شيء يشم منه رائحة الشجاعة، فقد قالوا لنبي الله موسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(٢)، ولهذا فإن الموت هو أكبر شبح يخوفهم، فهم يترقبون كل وقت يباغتون فيه بقتل أو ضرب أو اكتساح، ولهذا يلجأون إلى أمور يتسترون من ورائها، يظنون أنها تدفع عنهم البلاء. وما ذكره الله تعالى في هذه الآيات من خوفهم من الموت وحرصهم على الحياة، فهو - تبارك وتعالى - الذي يعلم السر وأخفى، فهو واقعهم وتاريخهم، فأصبح يضرب بهم المثل في الجبن والخوف والحرص على البقاء، والله - تبارك وتعالى - أخذهم مهما ظنوا أن الحياة تستمر بهم، وأخذ كل ذيل من ذيولهم ممن يعتصمون بهم ويلجأون إليهم، ولا نعلم في تاريخ الإسلام منذ بعثة رسول الله ﷺ أنه كان لليهود وجود في أية مهمة لأهل الإسلام، لما يعلمه خلفاؤهم وعلماءهم من غدرهم وخيانتهم، والله - تبارك وتعالى - بين ذلك في كتابه، وما قدم للرسول - عليه الصلاة والسلام - من الشاة المسمومة فلا أرى أكبر من هذه المؤامرة ولا أقبح منها؛ فمن تعلق باليهود في أموره وأحواله أو كله الله إليهم، وجعله على ذلتهم ومسكنتهم وخورهم وجبنهم، نرجو الله أن يكفيناهم بما شاء وكيف شاء، ويكفيينا كل من تعلق بهم وجعلهم سادته وعمدته.

* * *

(١) الحشر: الآية (١٤).

(٢) المائدة: الآية (٢٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

★ غريب الآية:

بُشْرَى: ويقال أيضًا: البشارة، وهي أول خبر سار يرد، فتتغير له بشرة الوجه، وتستعمل في الشر على سبيل التهكم، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا على أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم. ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك. فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك، من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوته»^(٢).

وقال: «وهذا خبر من الله - جل ثناؤه - من كان عدوًّا لله، من عاداه وعادى جميع ملائكته ورسله؛ وإعلام منه أن من عادى جبريل فقد عاداه وعادى ميكائيل، وعادى جميع ملائكته ورسله؛ لأن الذين سماهم الله في هذه الآية هم أولياء الله وأهل طاعته، ومن عادى لله وليًّا فقد عادى الله وبارزه بالمحاربة، ومن عادى الله فقد عادى جميع أهل طاعته وولايته؛ لأن العدو لله عدو لأوليائه، والعدو لأوليائه الله عدو له. فكذلك قال لليهود الذين قالوا: إن جبريل عدونا من الملائكة، وميكائيل ولينا منهم: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾، من أجل أن عدو جبريل عدو كل ولي لله. فأخبرهم - جل ثناؤه - أن من كان عدوًّا لجبريل، فهو لكل من ذكره من ملائكته ورسله وميكايل عدو،

(١) آل عمران: الآية (٢١).

(٢) جامع البيان (٢/٣٧٧ تحقيق شاکر).

وكذلك عدو بعض رسل الله، عدو لله ولكل ولي^(١).

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ شرط، وجوابه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾. وهذا وعيد وذم لمعادي جبريل عليه السلام، وإعلان أن عداوة البعض تقتضي عداوة الله لهم.

فإن قيل: لم خص الله جبريل وميكائيل بالذكر وإن كان ذكر الملائكة قد عمهما؟ قيل له: خصهما بالذكر تشريفاً لهما؛ كما قال: ﴿فِيهَا فَكِهَةٌ وَغُلٌّ وَرُمَّانٌ﴾^(٢). وقيل: خُصَّ لأن اليهود ذكروهما، ونزلت الآية بسببهما؛ فذكرهما واجب لثلاث تقول اليهود، إنما لم نعاد الله وجميع ملائكته؛ فنص الله تعالى عليهما لإبطال ما يتأولونه من التخصيص^(٣).

قال السعدي: «أي: قل لهؤلاء اليهود، الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان بك، أن وليك جبريل عليه السلام، ولو كان غيره من ملائكة الله لآمنوا بك وصدقوا: إن هذا الزعم منكم، تناقض وتهافت، وتكبر على الله.

فإن جبريل عليه السلام هو الذي نزل القرآن من عند الله على قلبك، وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك، والله هو الذي أمره، وأرسله بذلك، فهو رسول محض.

مع أن هذا الكتاب الذي نزل به جبريل -مصدقاً لما تقدمهم من الكتب- غير مخالفٍ لها ولا مناقض، وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي، لمن آمن به.

فالعداوة لجبريل لا لذاته، بل لما ينزل به من عند الله من الحق، على رسل الله.

فيتضمن الكفر والعداوة، للذي أنزله وأرسله، والذي أرسل به، والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك^(٤).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية. ظاهر هذه الآية أن جبريل ألقى القرآن في قلب النبي صلى الله عليه وسلم من غير سماع

(١) جامع البيان (٢/ ٣٩٤) تحقيق شاكر.

(٢) الرحمن: الآية (٦٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٦-٢٧).

(٤) تفسير السعدي (١/ ١١٥-١١٦).

قراءة، ونظيرها في ذلك قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^(١) الآية. ولكنه بين في مواضع آخر أن معنى ذلك أن الملك يقرؤه عليه حتى يسمعه منه، فتصل معانيه إلى قلبه بعد سماعه وذلك هو معنى تنزيله على قلبه. وذلك ما في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(٢) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَغْ قُرْآنَهُ ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿٩﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٣) ﴿٤﴾.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن حب أولياء الله من الجن والإنس والملائكة من الإيمان

* عن ابن عباس، قال: (أقبلت يهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، نسألك عن أشياء، فإن أجبتنا فيها اتبعناك، وصدقناك، وآمنا بك، قال: فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيهِ، إذ قالوا: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾^(٥).)

قال: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: «تنام عيناه، ولا ينام قلبه». قالوا: وأخبرنا كيف تؤنث المرأة، وكيف يذكر الرجل، قال: «يلتقي الماءان، فإذا علا ماء المرأة ماء الرجل آنت، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت». قالوا: صدقت، قالوا: فأخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: «ملك من الملائكة، موكل بالسحاب، معه مخاريق من نار، يسوق بها السحاب، حيث شاء الله». قالوا: فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: «زجره بالسحاب، إذا زجره، حتى ينتهي إلى حيث أمر». قالوا: صدقت، قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: «كان يسكن البدو، فاشتكى عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلاومه إلا لحوم الإبل وألبانها، فلذلك حرمها». قالوا: صدقت، قالوا: أخبرنا من الذي يأتيك من الملائكة؟ فإنه ليس من نبي إلا يأتيه ملك من الملائكة، من عند ربه، بالرسالة، وبالوحي، فمن صاحبك؟ فإنه إنما بقيت هذه، حتى نتابعك؟ قال: «هو جبريل».

(١) الشعراء: الآية (١٩٣).

(٢) القيامة: الآيات (١٦-١٩).

(٣) طه: الآية (١١٤).

(٥) يوسف: الآية (٦٦).

(٤) أضواء البيان (١/٨٢-٨٣).

قالوا: ذلك الذي ينزل بالحرب وبالقتل، ذاك عدونا من الملائكة، لو قلت: ميكائيل، الذي ينزل بالقطر، والرحمة، تابعنك، فأنزل الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾^(١).

★ غريب الحديث:

أنثت المرأة: إذا ولدت أنثى. وأذكرت المرأة والرجل إذا ولدا ذكراً.
مخاريق: جمع مخراق وهو في الأصل ثوب يُلَفُّ وَيَضْرَبُ به الصبيان بعضهم بعضاً، أراد أنه آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه.
عِرْقُ النِّسَاءِ: بوزن العصا، عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ، ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الكعب.

* عن أنس قال: (سمع عبدالله بن سلام بقدم رسول الله ﷺ وهو في أرض يخترف فأتى النبي ﷺ، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، فما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهن جبريل أنفاً»، قال: جبريل؟ قال: «نعم»، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أما أول أشرط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعته، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود، فقال النبي ﷺ: «أي رجل عبدالله فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، قال: «أرأيتم إن أسلم عبدالله بن سلام»، فقالوا: أعاده الله من ذلك، فخرج عبدالله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا وانتقصوه، قال: فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله^(٢).

(١) رواه أحمد (٢٧٤/١) والترمذي (٣١١٧/٢٧٤/٥) مختصراً دون ذكر الشاهد، وقال: «حسن غريب» والنسائي في الكبرى (٣٣٦-٣٣٧/٥/٩٠٧٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٠٨/٣) والبخاري (٤٤٨٠/٢٠٩/٨) والنسائي في الكبرى (٢٨٦-٢٨٧/٦/١٠٩٩٢).

★ غريب الحديث:

يخترف: أي يجني الثمار.

زيادة كبد الحوت: هي القطعة المنفردة المعلقة من الكبد^(١).

نزع الولد: جذبه إليه.

بُهِت: بضم الموحدة والهاء، ويجوز إسكانها، جمع بهيت، وهو الذي يبهت السامع بما يفتره عليه من الكذب.

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «قيل سبب عداوة اليهود لجبريل أنه أُمِرَ باستمرار النبوة فيهم فنقلها لغيرهم، وقيل: لكونه يطلع على أسرارهم، قلت: وأصح منهما ما سيأتي بعد قليل لكونه الذي ينزل عليهم بالعذاب»^(٢).

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ إن الله قال: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»^(٣).

★ فوائد الحديث:

قوله: (من عادى لي ولياً):

قال الحافظ: «المراد بولي الله العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته. وقد استشكل وجود أحد يعاديه؛ لأن المعادة إنما تقع من الجانبين، ومن شأن الولي الحلم والصفح عمن يجهل عليه، وأجيب بأن المعادة لم تنحصر في الخصومة والمعاملة الدنيوية مثلاً، بل قد تقع عن بغض ينشأ عن التعصب كالرافضي في بغضه لأبي بكر، والمبتدع في بغضه للسني، فتقع المعادة من الجانبين، أما من

(٢) الفتح (٨/٢٠٩).

(١) هدي الساري (ص: ١٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (١١/٤١٤/٦٥٠٢).

جانب الولي فله تعالى وفي الله، وأما من جانب الآخر فلما تقدم. وكذا الفاسق المتجاهر ببغضه الولي في الله، وببغضه الآخر لإنكاره عليه وملازمته لنهي عن شهواته. وقد تطلق المعادة ويراد بها الوقوع من أحد الجانبين بالفعل ومن الآخر بالقوة، قال الكرمانى: قوله (لي) هو في الأصل صفة لقوله (وليًا) لكنه لما تقدم صار حالًا. وقال ابن هبيرة في الإفصاح: قوله: (عادى لي وليًا) أي: اتخذته عدوًا، ولا أرى المعنى إلا أنه عاداه من أجل ولايته، وهو وإن تضمن التحذير من إيذاء قلوب أولياء الله ليس على الإطلاق، بل يستثنى منه ما إذا كانت الحال تقتضي نزاعًا بين وليين في مخاصمة أو محاكمة ترجع إلى استخراج حق أو كشف غامض، فإنه جرى بين أبي بكر وعمر مشاجرة وبين العباس وعلي، إلى غير ذلك من الوقائع انتهى ملخصاً موضحاً^(١).

قال الحافظ: «قال الفاكهاني: في هذا تهديد شديد؛ لأن من حاربه الله أهلكه، وهو من المجاز البليغ؛ لأن من كره من أحب الله خالف الله ومن خالف الله عانده ومن عانده أهلكه، وإذا ثبت هذا في جانب المعادة ثبت في جانب الموالاتة، فمن والى أولياء الله أكرمه الله. وقال الطوفي: لما كان ولي الله من تولى بالطاعة والتقوى تولاه الله بالحفظ والنصرة، وقد أجرى الله العادة بأن عدو العدو صديق وصديق العدو عدو فعُدو ولي الله عدو الله فمن عاداه كان كمن حاربه ومن حاربه فكأنما حارب الله»^(٢).

* عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة أم المؤمنين بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل، قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(٣).

★ فوائد الحديث:

قوله ﷺ: (رب جبريل وميكائيل وإسرافيل)

(٢) الفتح (١١/٤١٦-٤١٧).

(١) الفتح (١١/٤١٦).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٦/٦) ومسلم (١/٥٣٤/٧٧٠) وأبو داود (١/٤٨٧/٧٦٧) والترمذي (٥/٤٥١-٤٥٢/٤٥٢).

(٣٤٢٠) والنسائي (٣/٢٣٤-٢٣٥/١٦٢٤) وابن ماجه (١/٤٣١-٤٣٢/١٣٥٧).

قال القاضي عياض : «وتخصيصهم بربوبيته وهو رب كل شيء ، وجاء مثل هذا كثير من إضافة كل عظيم الشأن له دون ما يستحق^(١) عند الثناء والدعاء ، مبالغة في التعظيم ، ودليلاً على القدرة والملك فيقال : رب السموات والأرض ، ورب النيين والمرسلين ورب المشرق والمغرب ورب العالمين ورب الجبال والرياح ورب البحار ورب الناس ، ومثله مما جاء في القرآن وفي الحديث خصوصاً ولم يأت ذلك خصوصاً فيما يستحق ويستصغر ويستقدر كالحشرات والكلاب والفردة إلا بسبيل العموم»^(٢).

وقال القرطبي : «خص هؤلاء الملائكة بالذكر تشريفاً لهم ، إذ بهم ينتظم هذا الوجود ، إذ قد أقامهم الله تعالى في ذلك»^(٣).

قال ابن القيم : «وذكر النبي ﷺ في الدعاء العظيم القدر من أوصاف الله وربوبيته ما يناسب المطلوب . . . وذكر ربوبيته تعالى لجبريل وميكائيل وإسرافيل وهذا - والله أعلم - لأن المطلوب هدى يحيا به القلب وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل الله تعالى على أيديهم أسباب حياة العباد أما جبريل فهو صاحب الوحي الذي يوحى الله إلى الأنبياء وهو سبب حياة الدنيا والآخرة . وأما ميكائيل فهو الموكل بالقطر الذي به سبب حياة كل شيء . وأما إسرافيل فهو الذي ينفخ في الصور فيحيي الله الموتى بنفخته فإذا هم قيام لرب العالمين»^(٤)»^(٥).

قلت : اليهود ابتلوا بالعناد والخبث في المراوغة والحيل ، فدفعهم لرسالة رسول الله ﷺ التي نزل بها جبريل - عليه الصلاة والسلام - هو من هذا ؛ فجبريل عليه السلام ، والرسول بريء من كل ما وصفه به هؤلاء الأخباث ، ولا سيما إذا كان الرسول من العباد المكرمين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فإحداث عداوة مع الملائكة هو نهاية العناد ، فالملائكة كلهم محبوبون للجن والإنس ويضرب بهم المثل في كل خير ، فاليهود أمرهم مييت على رد رسالة محمد ﷺ ، وردهم بتنوع أساليبه وهذا منها ، وإلا فما الفرق بين جبريل ومكائيل في حمل

(١) في الأصل : يستحضر ، ولعل الصواب ما أثبتنا . انظر شرح مسلم (٥٠/٦).

(٢) الإكمال (١٣٣/٣-١٣٤). (٣) المفهم (٤٠٠/٢).

(٤) ليس هناك من دليل على ارتباط هذا الاسم (إسرافيل) بالنفخ في الصور ، والأولى أن يسمى بما سماه رسول الله ﷺ بصاحب القرن ، وسيأتي بحث ذلك إن شاء الله في سورة الزمر عند قوله تعالى : ﴿ثُمَّ نُفِخُ فِيهِ

الْأُخْرَىٰ فَلَمَّا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ : الآية (٦٨). (٥) مفتاح دار السعادة (٣٠٦/١-٣٠٧).

الرسالة، واللّه -تبارك وتعالى- تعبد عباده برسالة الرسول، فالرسول مبلغ فقط، واللّه -تبارك وتعالى- هو الذي شرع، وهو الذي أنزل أحكامه وأرسل رسله، فلهذا كانت العداوة للرسول كلهم عداوة له، وهكذا إذا كانت العداوة للسنة وأهلها فهي عداوة لرسول الله ﷺ، فأهل السنة في كل زمان ومكان هدفهم هو إظهار السنن ونشرها ودراساتها وجمعها وتوضيحها والعمل بها والذب عنها، والسنة مضافة إلى الرسول ﷺ، فكل محارب للسنة وأهلها ومعاد لهم فهو محارب للرسول ﷺ ومعاد له، وكل معاد للتوحيد وأهله فهو معاد للرسول ﷺ، فليُنظر المبتدعة أينما كانوا وفي أي زمان حلّوا من يعادون، وهكذا تكون المعادة على النبوات والرسالات من هذه الأصناف الذين ذكروا في القرآن والسنن، وفي تاريخ العقيدة كما بينت ذلك في كتابي: (العقيدة السلفية في مسيرتها التاريخية وقدرتها على مواجهة التحديات) (القسم السابع: قسم مواقف السلف).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا
الْفَاسِقُونَ﴾ (٩٩)

★ غريب الآية:

بيّنات: أي: واضحات، ظاهرات لكل متدبر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ﴾؛ أي: أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك: وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله الذي أنزله إلى محمد ﷺ من خفايا علوم اليهود ومكنون سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أخبارهم وعلماءهم وما حرفة أوائلهم وأواخرهم، وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة. فأطلعها الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ. فكان في ذلك من أمره، الآيات البيّنات لمن أنصف نفسه، ولم يدعه إلى إهلاكها الحسد والبغي. إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة، تصديق من أتى بمثل الذي أتى به محمد ﷺ من الآيات البيّنات التي وصفت، من غير تعلّم تعلمه من بشر، ولا أخذ شيء منه عن آدمي»^(١).

وقال: «... وما يجحد تلك الآيات الدالات على صدقك ونبوتك، التي أنزلتها إليك في كتابي فيكذب بها منهم إلا الخارج منهم من دينه، التارك منهم فرائضي عليه في الكتاب الذي يدين بتصديقه. فأما المتمسك منهم بدينه، والمتبع منهم حكم كتابه، فإنه بالذي أنزلت إليك من آياتي مصدق. وهم الذين كانوا آمنوا بالله وصدقوا رسوله محمداً ﷺ من يهود بني إسرائيل»^(٢).

وقال محمد رشيد رضا: «ثم صرح بأن القرآن منزل من عند الله وحده، وأنه في

(١) جامع البيان (٢/ ٣٩٧) تحقيق شاكر.

(٢) جامع البيان (٢/ ٣٩٩) تحقيق شاكر.

نفسه آيات بينات لا يحتاج إلى آية أخرى تبينه وتشهد له ، فإن ما كان بينا في نفسه أولى بالقبول مما يحتاج في بيانه إلى غيره ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ وقد تقدم أن الوحي من الله للنبي يسمى تنزيلاً وإنزالاً ونزولاً لبيان علو مرتبة الربوبية ، لا أن هناك نزولاً حسيّاً من مكان مرتفع إلى مكان منخفض .

قال هذا شيخنا ، وعلو الله - تعالى - على خلقه حقيقة أثبتها لنفسه في كتابه ، لا حاجة إلى تأويلها بعلو مرتبة الربوبية على مرتبة المخلوقين هرباً من استلزامها الحصر والتحيّز في جهة واحدة ، فإن التنزيه القطعي يبطل اللزوم . ومسألة الجهات نسبية لا حقيقية ، وإذ كان الرب - تعالى - باثناً من خلقه وهو من ورائهم محيط ، فهم أينما كانوا يتوجهون إليه إلا أنه فوقهم وشيخنا على دعوته إلى مذهب السلف كان لا يزال متأثراً بمذهب الأشعرية .

وأما كون آيات القرآن بينات فهي أنها بإعجازها البشر ، وبقرن المسائل الاعتقادية فيها ببراهينها ، والأحكام الأدبية والعملية بوجوه منافعها ، لا تحتاج إلى دليل آخر يدل على أنها هداية من الله تعالى ، وأنها جديرة بالاتباع ، بل هي دليل على نفسها عند صاحب الفطرة السليمة ، كالنور يظهر الأشياء وهو ظاهر بنفسه لا يحتاج إلى شيء آخر يظهره ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ الذين خرجوا من نور الفطرة وانغمسوا في ظلمة التقليد ، فتركوا طلب الحق بذاته لا اعتقادهم أن فطرتهم ناقصة ، لا استعداد فيها لإدراكه بذاته على شدة ظهوره ، وإنما يطلبونه من كلام مقلديهم ، وكذا الذين ظهر لهم الحق فاستحبوا العمى على الهدى حسداً لمن ظهر الحق على يديه وعناداً له ^(١) .

قلت : والمنهاج السلفي كله قائم على الحجة والبرهان والدليل الصحيح الواضح ، ومع ذلك تجد المبتدعة يدفعونه ويردونه ، ويلمزونه ويغمزونه ، وإن تمكنوا سلطوا بالحكام على أهله فأوقعوهم في المآزق ، ووضعوا أمامهم كل العقبات ، من ضرب وقتل وسجن وإبعاد وتوقيف وعزل ، وغيرها من أنواع الحرب لسنة رسول الله ﷺ ، فلا يكفر بالسنة ويحاربها إلا الفاسقون ، كما قال الله تعالى في دعوة النبي ﷺ وسنته : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ ^(٢) ، فترجو الله أن يجعلنا ممن نصر السنة ، وأن لا يجعل لنا حظاً ممن حاربها وكفر بها ، إنه سميع قريب .

(١) تفسير المنار (١/ ٣٩٤-٣٩٥) .

(٢) البقرة : الآية (٩٩) .

قوله تعالى: ﴿أَوْكُلْمَا عَهْدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

★ غريب الآية:

نَبَذَهُ: النبذ: الطرح والإلقاء؛ أي: رَمَوْهُ بَقَلَّةٍ مِّبَالَاتِهِمْ بِهِ. ومنه سمي اللقيط منبذًا؛ لأنه يُطْرَحُ على جانب الطريق ويُتْرَك. قال أبو الأسود:

وخبّرني من كنت أرسلت إنما أخذت كتابي معرضا بشمالكا
نظرت إلى عنوانه فنَبَذْتُهُ كَنَبَذِكَ نَعْلًا أَخْلَقْتَ مِنْ نِعَالِكَا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وأما العهد، فإنه الميثاق الذي أعطته بنو إسرائيل ربهم ليعملن بما في التوراة مرة بعد أخرى، ثم نقض بعضهم ذلك مرة بعد أخرى. فوبخهم -جل ذكره- بما كان منهم من ذلك، وعير به أبناءهم، إذ سلخوا منهاجهم في بعض ما كان -جل ذكره- أخذ عليهم بالإيمان به من أمر محمد ﷺ من العهد والميثاق، فكفروا وجحدوا ما في التوراة من نعته وصفته، فقال -تعالى ذكره-: أو كلما عاهد اليهود من بني إسرائيل ربهم عهدًا، وأوثقوه ميثاقًا، نبذه فريق منهم، فتركه ونقضه»^(١).

قال القاسمي: «... فالمقصود من هذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه؛ لأن مثل ذلك، إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ في التنكير والتبكيث. ودل بقوله: ﴿أَوْكُلْمَا عَهْدُوا﴾ على عهد بعد عهد نقضوه ونبذوه. بل يدل على أن ذلك كالعادة فيهم. فكانه تعالى أراد تسلية الرسول عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات؛ لأن ذلك ليس ببدع منهم بل هو سجيتهم، وعاداتهم وعادة سلفهم. على ما بينه في الآيات المتقدمة من نقضهم العهود والمواثيق حالًا بعد حال؛ لأن من يعتاد منه هذه

(١) جامع البيان (٢/ ٤٠٠ تحقيق شاکر).

الطريقة لا يصعب على النفس مخالفته، كصعوبة من لم تجر عاداته بذلك»^(١).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَوْكَلَّمَا عَنْهُدَا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ ذكر في هذه الآية أن اليهود كلما عاهدوا عهداً نبذه فريقتان منهم، وصرح في موضع آخر أن رسول الله ﷺ هو المعاهد لهم وأنهم ينقضون عهدهم في كل مرة. وذلك في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُونَ»^(٣) وصرح في آية أخرى بأنهم أهل خيانة إلا القليل منهم، وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾^(٤)»^(٥).

وقال محمد رشيد رضا: «بعد هذا كله، بين الله تعالى شأنين من شئون أهل الكتاب، وهما: أنه لا ثقة بهم في شيء لما عرف عنهم من نقض العهود، وأنه لا رجاء في إيمان أكثرهم؛ لأن الضلالة قد ملكت عليهم أمرهم إلا قليلاً منهم، فإن كان ما تقدم من الأعمال والأقوال قد صدر عن بعضهم - وإن كان نقض العهود قد وقع في كل زمن من فريقتين منهم دون فريق - فلا يتوهم من أحد أن أولئك هم الأقلون، كلا بل هم الأكثرون، ولذلك قال: ﴿أَوْكَلَّمَا عَنْهُدَا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ همزة الاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف؛ أي: أكفروا بالآيات، وقالوا ما قالوا، وكلما عاهدوا عهداً نبذه فريقتان منهم؟. النبذ طرح الشيء وإلقاؤه، والمراد بالعهود هنا عهودهم للنبي ﷺ، ولما كان لفظ فريق وهم العدد القليل، وكان الواقع أن الذين يرون الوفاء له ﷺ قليلون، والناقضين هم الأكثرون، أضرب عنه وقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهم لا إيمان لهم لأنهم لا إيمان لهم؛ أي: لا عهود لهم. وفيه من خبر الغيب أن أكثر اليهود لا يؤمنون بالنبي ﷺ، وكذلك كان وصدق الله العظيم»^(٥).

* * *

(٢) الأنفال: الآيات (٥٥ و ٥٦).

(٤) أضواء البيان (١/ ٨٣).

(١) محاسن التأويل (٢/ ٢٠٥).

(٣) المائدة: الآية (١٣).

(٥) تفسير المنار (١/ ٣٩٥-٣٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ
نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣١﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «... فأخبر الله -جل ثناؤه- أن اليهود لما جاءهم رسول الله ﷺ من الله بتصديق ما في أيديهم من التوراة، أن محمداً ﷺ نبي الله، ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾، يعني بذلك: أنهم جحدوه ورفضوه بعد أن كانوا به مقرين، حسداً منهم له وبغياً عليه. وقوله: ﴿مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وهم علماء اليهود الذين أعطاهم الله العلم بالتوراة وما فيها»^(١).

وقال: «ومعنى قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كأن هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله من علماء اليهود فنقضوا عهد الله بتركهم العمل بما واثقوا الله على أنفسهم العمل بما فيه لا يعلمون ما في التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ وتصديقه، وهذا من الله -جل ثناؤه- إخبار عنهم أنهم جحدوا الحق على علم منهم به ومعرفة، وأنهم عاندوا أمر الله فخالفوا على علم منهم بوجوبه عليهم»^(٢).

وقال ابن القيم: «وتأمل قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ كيف تجد تحته برهاناً عظيماً على صدقه، وهو مجيء الرسول الثاني بما يطابق ما جاء به الرسول الأول، ويصدق مع تباعد زمانهما، وشهادة أعدائه وإقرارهم له بأنه لم يَتَلَفَّه من بشر ولهذا كانوا يمتحنونه بأشياء يعلمون أنه لا يُخْبِرُ بها إلا نبي، أو من أخذ عنه، وهم يعلمون أنه لم يأخذ عن أحد ألبتة، ولو كان ذلك لوجد أعداؤه السبيل إلى الطعن عليه، ولعارضوه بمثل ما جاء به، إذ من الممكن أن لو كان ما جاء به مأخوذاً عن بشر أن يأخذوا هم عن مَلَكٍ، أو عن نظيره

(١) جامع البيان (٢/٤٠٣ تحقيق شاکر).

(٢) جامع البيان (٢/٤٠٤ تحقيق شاکر).

فيما رَضُوا ما جاء به، والمقصود أن مطابقة ما جاء به لِمَا أَخْبَرَ به الرسولُ الأولُ من غير مواطأة ولا تشاعر، ولا تَلَقَّى منه، ولا ممن أخذ عنه، دليل قاطع على صدق الرسولين معاً. ونظير هذا أن يشهد رجل بشهادة، فيخبر فيها بما يُقْطَعُ به أنه صادق في شهادته صدقاً لا يتطرق إليه شبهة، فيجيء آخر من بلاد أخرى لم يجتمع بالأول ولم يتواطأ معه فيخبر بنظير تلك الشهادة سواء مع القطع بأنه لم يجتمع به، ولا تلقاها عن أحد اجتمع به، فهذا يكفي في صدقه إذا تَجَرَّدَ الإخبار، فكيف إذا اقْتَرَنَ بأدلة يُقْطَعُ بها بأنه صادق أعظم من الأدلة التي اقترنت بخبر الأول، فكيف في العلم بصدق الثاني مطابقة خبره لخبر الأول، فكيف إذا بشر به الأول، فكيف إذا اقترن بالثاني من البراهين الدالة على صدقه نظير ما اقترن بالأول وأقوى منها والله أعلم^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «وقوله: ﴿بَدَّ وَبَقِيَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ بيان لحال جديدة من أحوال أهل الكتاب، يصح أن تكون علة لجميع ما صدر عنهم من الشناعات في معاداة النبي ﷺ ومجاادثته، وهي أن فريقاً منهم قد نبذوا كتاب الله الذي يفاخرون به، ويحتجون بأنهم اكتفوا بالهداية به، وأنه لا حاجة لهم بسواه، نبذوه أن جاءهم رسول مصدق له بحاله وصفاته؛ لأن البشارات التي فيه بالنبي الذي يجيء من آل إسماعيل لا تنطبق إلا على هذا الرسول، ومصدق له بمقاله باعترافه بنبوة موسى ﷺ، وصدقه فيما جاء به من الهدى والشرعة، وتوبيخه اليهود على تحريف بعضها ونسيان بعض، وترك العمل بما بقي لهم منها.

قال الأستاذ الإمام: ليس المراد بنذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه برمته، وتركوا التصديق به في جملته وتفصيله، وإنما المراد أنهم طرحوا جزءاً منه، وهو ما يبشر بالنبي ﷺ، ويبين صفاته ويأمرهم بالإيمان به واتباعه؛ أي: فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره بمن يلقي الشيء وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره.

وترك الجزء منه كتركه كله؛ لأن ترك البعض يذهب بحرمة الوحي من النفس، ويجري على ترك الباقي ﴿مَنْ أَجَلْ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا

(١) بدائع الفوائد (٤/١٤٧-١٤٨).

يَغْيَرُ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا^(١). قال: ولا فرق في هذا الحكم بين اليهود والنصارى، فكل منهما مبشر بالنبي -عليه الصلاة والسلام- في كتابه، وكل منهما قد نبذ الكتاب فلم يعمل به. ولم يضر النبي ﷺ هذا الجحود من الفريق الجاحد؛ لأن دعوته قد قبلها الآخرون، واهتدى بها من لا يحصى من الأمتين ومن سائر الأمم، وإنما يضر الجاحدين لأنهم تركوا كتابهم الذي يزعمون أنه المنجي والمخلص لهم، وحرّموا من هداية خاتم النبيين، التي هي أكمل هداية أنعم الله بها على العالمين.

قال تعالى بعدما ذكر نبذهم الكتاب: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: نبذوه نبذ من لا يعلم أنه كتاب الله، يريد أنهم بالغوا في تركه وإهماله، ومن ترك شيئاً من أمر الله وهو يعلم أنه أمره -ولكن طاف به طائف من الشيطان فغلب على أمره- فإنه لا يلبث أن يعود، ولكن هذا الفريق النابذ لكتاب الله تعالى من حيث هو مبشر بالنبي، وأمر باتباعه يتمادى بهم الزمان، ولا يتوبون ولا يرجعون، وما أحسن التعبير عن ذلك بنفي الحال والاستقبال دون نفي الماضي^(٢).

* * *

(١) المائدة: الآية (٣٢).

(٢) تفسير المنار (١/٣٩٧-٣٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَكُمُ الْكَافِرُونَ﴾ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسُ السَّحَرُ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرْوَتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

★ غريب الآية:

تَتْلُوا: قيل: معناه: تقرأ من تَلَوْتُ الكتابَ: إذا قرأته. وقيل معناه: تتبع؛ لأن التالي تابع. تقول: جاء القوم يتلو بعضهم بعضًا.

السحر: أصله التمويه والتخايل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني فيخيل للمسحور أنها بخلاف ما هي به، كالذي يرى السراب من بعيد فيُخَيَّلُ إليه أنه ماء. وقيل: أصله الخفاء، وقيل: أصله الصرف، وقيل: الاستمالة. قال الجوهري: «السحر الأخذة»، وكل ما لطف مأخذه ودقَّ فهو سحر. والساحر: العالم، وسحره أيضًا بمعنى: خدعه.

فتنة: أي ابتلاء واختبارًا، وتقول: فتنت الذهب في النار، إذا اختبارته ليُعْلَمَ أخالصة هو أم مشوب.

بإذن: الإذن الإعلام والإباحة والأمر، ومعنى بإذن الله؛ أي: بأمره ومشيبته.

خَلَقَ: الخلاق: النصيب الوافر من الخير. قال أمية بن أبي الصلت:

يَدْعُونَ بِالْوَيْلِ فِيهَا لَا خَلَقَ لَهُمْ إِلَّا سَرَابِيلَ مِنْ قَطْرِ وَأَغْلَالِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي : «ولما كان من العوائد القدسية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه وأمكنه الانتفاع به ولم ينتفع ، ابتلي بالاشتغال بما يضره ، ومن ترك عبادة الرحمن ابتلي بعبادة الأوثان ، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجاءه ، ومن لم ينفق ماله في طاعة الله أنفق في طاعة الشيطان ، ومن ترك الذل لربه ، ابتلي بالذل للعبيد ، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل .

كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلو الشيطان وتخلق من السحر على ملك سليمان ، حيث أخرجت الشياطين للناس السحر وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله ، وبه حصل له الملك العظيم .

وهم كذبة في ذلك ، فلم يستعمله سليمان ، بل نزهه الصادق في قوله : ﴿وَمَا كَفَرُ سُلَيْمَنُ﴾ أي : بتعلم السحر فلم يتعلمه . ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ في ذلك . ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّ النَّاسَ لَسِحْرَ﴾ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم ، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق ، أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاءً من الله لعباده ، فيعلمانهم السحر .

﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَقًّا﴾ ينصحاه ، و﴿يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي : لا تتعلموا السحر فإنه كفر ، فينهيانه عن السحر ، ويخبرانه عن مرتبته ، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال ، ونسبته وترويه إلى من برأه الله منه وهو سليمان عليه السلام .

وتعليم الملكين امتحاناً مع نصحهما بأن لا يكون لهم حجة .

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين ، والسحر الذي يعلمه الملكان ، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين ، وكل يصبوا إلى ما يناسبه .

ثم ذكر مفسد السحر فقال : ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما ؛ لأن الله قال في حقهما : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(١) وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة ، وأنه يضر بإذن

(١) الروم : الآية (٢١) .

الله أي بإرادة الله ، والإذن نوعان : إذن قدري وهو المتعلق بمشيئة الله ، كما في هذه الآية . وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة .

﴿فَإِنَّهُ نَزَلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١) وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير ، ولم يخالف في هذا الأصل من فرق الأمة غير القدريّة في أفعال العباد ، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة ، فأخرجوها عن قدرة الله .

فخالفوا كتاب الله ، وسنة رسوله ، وإجماع الصحابة والتابعين .
ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة ، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية ، كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي .

كما قال تعالى في الخمر والميسر : ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْ تَبِعُ النَّاسَ وَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾^(٢) فهذا السحر مضرة محضة ، فليس له داع أصلاً ، فالمنهيات كلها إما مضرة محضة ، أو شرها أكبر من خيرها^(٣) .

* تنبيه : أورد عامة المفسرين تحت هذه الآية قصصاً طويلة وروايات غريبة مختلفة في قصة هاروت وماروت عن مجموعة من الصحابة والتابعين ، استوفاهما السيوطي في الدر المنثور وذكر ابن جرير معظمها في تفسيره وذكر بعضها ابن كثير ثم قال :

«وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم ؛ وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيه حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أَرَادَهُ اللهُ تعالى ، والله أعلم بحقيقة الحال»^(٤) .

(١) البقرة: الآية (٩٧) .

(٢) البقرة: الآية (٢١٩) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/١١٧-١٢٠) .

(٤) تفسير ابن كثير (١/٢٤٨) .

وقال القرطبي: «هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره، ولا يصح منه شيء؛ فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه، وسفراؤه إلى رسله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١)، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾^(٢) لَا يَسْقُونَهُمْ أَلْفَوْلًا وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُونَ﴾^(٣)، ﴿يُسْحِنُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَقْرَءُونَ﴾^(٤)».

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فيه مسائل:

الأولى: كون أناس من أهل الكتاب إذا وقعت المسألة وأرادوا إقامة الدليل عليها، تركوا كتاب الله كأنهم لا يعلمون، واحتجوا بما في الكتب الباطلة.

الثانية: أن من العجب احتجاجهم بذلك على رسول من الرسل.

الثالثة: أن الكلام يدل على أنهم يعلمون لقوله: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الرابعة: أن المسائل الباطلة قد تنسب إلى الأنبياء كذباً عليهم.

الخامسة: أن الكتب الباطلة قد تضاف إلى بعض الصديقين.

السادسة: أن ذلك مما تتلو الشياطين على زمان الأنبياء، كما وقع أشياء في زمن النبي ﷺ.

السابعة: أن الشياطين مَرَجَتْ به الحق في زمن سليمان.

الثامنة: بيان ضلال من ضل ممن يدعي العلم في شأن سليمان ممن نسب ذلك إليه واستحسنه، أو قدح في سليمان، كما ضل أناس كثير في علي لما قُتِلَ عثمان.

التاسعة: أن من فَعَلَ السحر كفر، ولو عرف أنه باطل.

العاشرة: أن الشياطين يعلمونه الناس.

الحادية عشرة: أن العبد لو بلغ ما بلغ في العلم فلا يأمن مكر الله.

(٢) الأنبياء: الآيتان (٢٦ و ٢٧).

(١) التحريم: الآية (٦).

(٣) الأنبياء: الآية (٢٠).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٣٦/٢).

- الثانية عشرة: لا ينبغي له التعرض للفتن وثوقاً بنفسه، بل يسأل الله العافية.
- الثالثة عشرة: سعة علم الله ومغفرته ورحمته.
- الرابعة عشرة: يجعل بعض نظره إلى القضاء والقدر.
- الخامسة عشرة: أن النساء من أكبر الفتن.
- السادسة عشرة: أن طاعة الهوى جماع الشر، كما أن مخالفته جماع الخير.
- السابعة عشرة: أن الشرك الأكبر مما يخطر بالبال.
- الثامنة عشرة: أن التلفظ بالشرك بكلمة واحدة، لا يشترط في كفر من تكلم بها عقيدة القلب، ولا عدم الكراهة للشرك.
- التاسعة عشرة: أن المتكلم لا يعذر، ولو أراد أن يقضي به غرضاً مهماً.
- العشرون: أن قتل النفس أعظم من الزنا.
- الحادية والعشرون: أن المعاصي بريد الكفر.
- الثانية والعشرون: أن بعضها يجر إلى بعض.
- الثالثة والعشرون: أن عقوبة المعصية قد تكون أكبر مما يظن العالم.
- الرابعة والعشرون: أن قبول التوبة بلا عذاب لا يحصل لكل أحد، بل هو فضل من الله.
- الخامسة والعشرون: أن من النعم تعذيب العبد بذنبه في الدنيا.
- السادسة والعشرون: حسن الظن بالله.
- السابعة والعشرون: القاعدة التي هي خاصية العقل، وهو ارتكاب أدنى الشرين لدفع أعلاهما، وتفويت أدنى الخيرين لتحصيل أعلاهما.
- الثامنة والعشرون: أن السحر نوعان.
- التاسعة والعشرون: أن له تأثيراً لقوله: ﴿يُقْرِفُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَوْحِهِ﴾.
- الثلاثون: الإرشاد إلى التوكل بكونه لا يضر أحداً إلا بإذن الله.
- الحادية والثلاثون: أن فيمن يدعي العلم من اختار كتب السحر على كتاب الله.

الثانية والثلاثون: أنهم يعارضون به كتاب الله .
 الثالثة والثلاثون: أن اتباع كتاب غير كتاب الله ضلال .
 الرابعة والثلاثون: لا تأمن الكتب ولا من ينتسب إلى العلم على دينك .
 الخامسة والثلاثون: أن فساد العلماء يفسد الرعية .
 السادسة والثلاثون: أن السحر وقع في زمن خلافة النبوة، حتى إن عمر وغيره
 أمر بقتل الساحر ولم يستببه كما استتاب المرتد .
 السابعة والثلاثون: أن الحسد سبب لرد كتاب الله .
 الثامنة والثلاثون: أن الحاسد قد يبغض الناصح ويسعى في قتله .
 التاسعة والثلاثون: أن الحسد يحمله على رد حظه من الله في الدنيا والآخرة .
 والأربعون: أنه من أخلاق اليهود .
 الحادية والأربعون: أن المحسود يرفعه الله على الحاسد .
 الثانية والأربعون: أن بالطاعة خير الدنيا والآخرة، وبالمعصية العكس .
 الثالثة والأربعون: أن فيمن ينتسب إلى العلم من يختار الكفر على الإيمان مع
 علمه أن من اختاره لا حظ له في الآخرة .
 الرابعة والأربعون: أن الإنسان يجتمع فيه الضدان يعلم ولا يعلم .
 الخامسة والأربعون: بيان غبنهم والتسجيل على فرط جهلهم في هذا الشراء .
 السادسة والأربعون: أن السبب في هذا الشرك اشتراء شيء خسيس تافه من
 الدنيا .
 السابعة والأربعون: أنهم لمحبتهم ما هم عليه من الجاهلية، وغرامهم به نبذوا
 كتاب الله الذي عندهم وراء ظهورهم كأنهم لا يعرفونه .
 الثامنة والأربعون: أن الذي حملهم على هذه العظام أنه أتاهم أمر من الله
 موافق لدينهم، لكن مخالف لعاداتهم الجاهلية .
 التاسعة والأربعون: الفرق بين المعجزات والكرامات، وبين ما يفعله
 الشياطين تشبهًا بذلك وتشبيها .

الخمسون: التنبيه على قول الصحابي: أو يأتي الخير بالشر^(١)؟ وجوابه ﷺ.

الحادية والخمسون: أنه لا ينبغي للإنسان أن ينكر ما لم يحط به علمه؛ فقد ضل بالكذب بهذه القصة فنام من الناس لظنهم أنها تخالف ما علموه من الحق، وتكلم بسببها ناس في نبي الله سليمان بن داود عليه السلام^(٢).

قلت: رحم الله الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب الذي أفاد وأجاد بهذه الاستنباطات المهمة التي لم تترك لقائل مقالاً، فجمعت بين علم الأولين والآخرين، وجعلت للعقيدة مكانها وحظها من الواقع؛ فإن الإمام محمداً ﷺ أظهر هذا الأصل الكبير، وفاق غيره فيه، ولا يعلم في تاريخ التأليف طيلة هذه العصور كتاب مثل (كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد) في بابه؛ فإنه كتاب فريد ركز فيه ﷺ على المخالفات العقدية في توحيد العبادة بما لم يوجد عند غيره، وإن كان شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم لهم بحوث مستفيضة في هذا الباب؛ فالشيخ ﷺ نظم هذا الكتاب على نمط عجيب في تبويبه، واستنتاجاته القيمة وأقوال السلف الصالح التي جعلها عمدة كتابه القيم، فهل لمن يقرأ لهذا الإمام أن ينفث بلسانه السيئ وبحقده الدفين فيصف دعوة الإمام المجدد بالوهابية يقصد بذلك التشويه والتحذير؟

فالحمد لله قد انبلج الصبح لذي عينين وأسفرت أنواره وأضاءت، وتبين لكل منصف تاريخ الخونة من علماء الأتراك، ومن كان على نهجهم وطريقتهم من مرتزقة وخونة في بقية أقاليم العالم الإسلامي، فاللهم عليك بمن يحارب التوحيد وأهله، ويحارب السنة وأهلها، فاجزهم بما يستحقون، وأذقهم بأسك الذي لا يرد، واهد جهالهم، ورددكم إلى الصراط المستقيم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن السحر من الكفر الأكبر

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيّل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا

(١) أخرجه: أحمد (٢١/٣) والبخاري (٦٤٢٧/٢٩٣/١١) ومسلم (١٠٥٢/٧٢٩-٧٢٧/٢) والنسائي (٩٤/٥-٩٥/٩٥)

(٢) وابن ماجه (٣٩٩٥/١٣٢٣/٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٣٥-٣٩).

كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي لكنه دعا ودعا ثم قال : «يا عائشة أشعرت أن الله أفناني فيما استفتيته فيه ، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي ، فقال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب ، قال : من طبه ؟ قال : لبيد ابن الأعصم ، قال : في أي شيء ؟ قال : في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر ، قال : وأين هو ؟ قال : في بئر ذروان » . فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه فجاء فقال : «يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء أو كأن رءوس نخلها رءوس الشياطين» . قلت : يا رسول الله أفلا استخرجته ؟ قال : «قد عافاني الله فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً» . فأمر بها فدفنت^(١) .

★ غريب الحديث:

مطبوب : أي مسحور والطب : بالفتح السحر وبالكسر العلاج .
مشط ومشاطة : قال الحافظ : ويروى مشاقة . فبالطاء ما يمشط من الشعر ويخرج المشط منه وبالقاف مثله ، وقيل ما يمشط من الكتاب . والمشط الآلة التي يمشط بها بكسر الميم وبضمها وسكون ثانيه ويجوز الضم والجمع أمشاط .
جف طلع : أي شاؤها .

نقاعة الحناء : بضم النون وتخفيف القاف . وهو الماء الذي ينقع فيه الحناء .

★ فوائد الحديث:

قال المازري : «أهل السنة وجمهور العلماء من الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقائق غيره من الأشياء الثابتة خلافاً لمن أنكره ونفى حقيقته وأضاف ما يتفق منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها ، وقد ذكره الله سبحانه في كتابه العزيز وذكر أنه مما يتعلم ، وذكر ما يشير إلى أنه مما يكفر به وأنه يفرق به بين المرء وزوجه وهذا كله مما لا يمكن أن يكون فيما لا حقيقة له وكيف يتعلم ما لا حقيقة له . وهذا الحديث أيضاً فيه إثباته ، وأنه أشياء دفنت وأخرجت ، وهذا كله يبطل ما قالوه .

(١) أخرجه أحمد (٥٧/٦) والبخاري (٥٧٦٣/٢٧٢/١٠) ومسلم (١٧١٩/٤-١٧٢٠/١٧٢٠/٢١٨٩) والنسائي في الكبرى (٧٦١٥/٣٨٠/٤) وابن ماجه (٣٥٤٥/١١٧٣/٢) .

والذي يعرف بالعقل من هذا أن إحالة كونه من الحقائق محال وغير مستنكر في العقل أن يكون الباري سبحانه يخرق العادات عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو المزج بين قوى على ترتيب ما لا يعرفه إلا الساحر ومن شاهد بعض الأجسام منها قتالة كالسموم، ومنها مسقمة كالأدوية الحادة، ومنها مصحة كالأدوية المضادة للمرض لم يبعد في عقله أن ينفرد الساحر بعلم قوى قتالة أو كلام مهلك أو مؤد إلى التفرقة .

وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث من طريق ثابتة وزعموا أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها، وكل ما أدى إلى ذلك فهو باطل، وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع، ولعله يتخيل إليه جبريل عليه السلام وليس ثم ما يراه، أو أنه أوحى إليه وما أوحى إليه، وهذا الذي قالوه باطل، وذلك أن الدليل قد قام على صدقه فيما يبلغه عن الله سبحانه وعلى عصمته فيه، والمعجزة شاهدة بصدقه . وتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل، وما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث بسببها، ولا كان رسولاً مفضلاً من أجلها هو في كثير منه عرضة لما يعترض البشر، فغير بعيد أن يخيل إليه في أمور الدنيا ما لا حقيقة له، وقد قال بعض الناس: إنما المراد بالحديث أنه كان يخيل إليه أنه وطئ زوجاته وليس بواطئ، وقد يتخيل في المنام للإنسان مثل هذا المعنى ولا حقيقة له، فلا يبعد أن يكون ﷺ يتخيله في اليقظة وإن لم يكن حقيقة، وقال بعض أصحابنا: يمكن أن يكون يخيل إليه الشيء أنه فعله وما فعله، ولكنه لا يعتقد ما تخيله أنه صحيح فتكون اعتقاداته كلها على السداد فلا يبقى لا اعتراض الملحدة طريق^(١) .

وقال القرطبي: «ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة، وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الاسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تمويه وتخيل وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة؛ كما قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾^(٢) ولم يقل تسعى على الحقيقة، ولكن قال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ . وقال أيضاً: ﴿سَكَّرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾^(٣) ،

(٢) طه: الآية (٦٦) .

(١) المعلم (٩٣/٣) .

(٣) الأعراف: الآية (١١٦) .

وهذا لا حجة فيه ؛ لأننا لا ننكر أن يكون التخيل وغيره من جملة السحر ، ولكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع ؛ فمن ذلك ما جاء في هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه ، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ، ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس ، فدل على أن له حقيقة . وقوله تعالى في قصة سحرة فرعون : ﴿ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴾ ^(١) وسورة (الفلق) ؛ مع اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لبيد بن الأعصم ^(٢) .

* عن جابر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن إبليس يضع عرشه على الماء . ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة . يجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا . فيقول : ما صنعت شيئا . قال ثم يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته . قال : فيدنيه منه ويقول : نعم أنت » ^(٣) .

★ فوائد الحديث:

قال المازري : « وإذا ثبت السحر فاختلف الناس في القدر الذي يقع عن السحر ولهم في ذلك اضطراب كثير ، وقد رأيت بعض الناس ذهب إلى أنه لا يبلغ الأمر فيه إلى غريبة تربى على التفرقة بين المرء وزوجه وذكر أن الله سبحانه إنما ذكر ذلك تعظيما لما يكون عنه وتهويلا له في حقنا فلو كان يقع عنه ما هو أعظم منه لذكره إذ لا يضرب المثل عند المبالغة إلا بأعلى أحوال المذكور » ^(٤) .

وقال ابن كثير : « وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيّل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك أو عقد أو بغضة أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة » ^(٥) .

* عن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعا : « ليس منا من تطير أو تطير له ، أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له ومن عقد عقدة - أو قال - عقد عقدة ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » ^(٦) .

(١) الأعراف : الآية (١١٦) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣٢/٢) .

(٣) أخرجه أحمد (٣١٤-٣١٥) ومسلم (٤/٢١٦٧/٢٨١٣) .

(٤) تفسير ابن كثير (١/٢٠٦) .

(٥) المعجم (٣/٩٣-٩٤) .

(٦) رواه الطبراني في الكبير (١٨/١٦٢/٣٥٥) والبخاري (٣/٣٩٩-٤٠٠/٣٠٤٤ كشف الاستار) . قال في المجمع

(٥/١١٧) : « رواه البخاري ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة » . وقال المنذري في =

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (من أتى كاهنًا أو ساحرًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد) ^(١).

★ فوائد الحديث:

قال سليمان آل الشيخ : «وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر والمصدق لهما ؛ لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر ، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضًا» ^(٢).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «اجتنبوا السبع الموبقات» ، قالوا : يا رسول الله ، وما هن؟ قال : «الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» ^(٣).

★ غريب الحديث:

اجتنبوا : أي ابتعدوا .

الموبقات : أي المهلكات : وسميت الكبائر موبقات لأنها تهلك فاعلمها في الدنيا . . وفي الآخرة .

المحصنات : بفتح الصاد المحفوظات من الزنا وبكسرهما الحافظات فزوجهن

منه .

= الترغيب (٣٣/٤) : «إسناده جيد» . ويشهد له حديث ابن عباس عند الطبراني في الأوسط (١٤٣/٥) (٤٢٧٤) والبخاري (٣٠٤٣/٣٩٩) وحديث علي عند الطبراني في الأوسط (٤٢٨-٤٢٩/٥) (٤٨٤١) وأبي نعيم في الحلية (١٩٥/٤).

(١) رواه البخاري (٤٤٣/٢) ٢٠٦٧ كشف الأستار) وأبو يعلى في مسنده (١١١١/٦٤/٣) المقصد العلي. وقال الهيثمي (١١٨/٥) : «رواه البخاري ورجاله رجال الصحيح خلا هبيرة بن يريم^(٥) ، وهو ثقة» . وقال المنذري في الترغيب (٣٦/٤) : «رواه البخاري وأبو يعلى بإسناد جيد موقوفًا» . وجود إسناده الحافظ في الفتح (١٠/٢٦٧).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص : ٤١٦).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٦٦/٤٩٤/٥) ومسلم (٨٩/٩٢/١) وأبو داود (٢٩٤/٣-٢٩٥/٣) (٢٨٧٤) والنسائي (٦/٣٦٧٣/٥٦٨).

(*) تنبيه : وقع في المجمع : مريم وهو تصحيف .

الغافلات : أي من الفواحش وما رمين به ، لا خبر عندهن من ذلك .

★ فوائد الحديث:

قال عبد الرحمن بن حسن : « قال أبو محمد المقدسي في الكافي : « السحر : عزائم ورقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان ، فيمرض ويقتل ، ويفرق بين المرء وزوجه ، قال الله تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾^(١) وقال سبحانه : ﴿ وَمِنْ شَرِّ أَلْفَنْتَ فِي الْعَقْدِ ﴾^(٢) يعني : السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن ، وينفنن في عقدهن . ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه^(٣) .

قال الطيبي : « قوله : (اجتنبوا) ابتعدوا ، افتعال من الجنب : وهو أبلغ من (لا تشركوا) نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾^(٤) ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾^(٥) لأن نهى القربان أبلغ من نهى المباشرة^(٦) .

وقال ابن عثيمين : « قوله : (والسحر) أي من الموبقات وظاهر كلام النبي ﷺ أنه لا فرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين أو بواسطة الأدوية والعقاقير ؛ لأنه إن كان بواسطة الشياطين ، فالذي لا يأتي إلا بالإشراك بهم ، فهو داخل في الشرك بالله .

وإن كان دون ذلك ، فهو أيضاً جرم عظيم ؛ لأن السحر من أعظم ما يكون في الجناية على بني آدم ، فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه يقلقه فيصبح كالبهائم ، بل أسوأ من ذلك ؛ لأن البهيمة خلقت هكذا على طبيعتها ، أما الآدمي ، فإنه إذا صرف عن طبيعته وفطرته لحقه من الضيق والقلق ما لا يعلمه إلا رب العباد ، ولهذا كان السحري يلي الشرك بالله ﷻ^(٧) .

✽ عن عمرو بن دينار ، سمع بجاله يحدث عمرو بن أوس وأبا الشعثاء ، قال : كنت كاتباً لجزء بن معاوية عم الأحنف بن قيس إذ جاءنا كتاب عمر قبل موته بسنة : اقتلوا كل ساحر ، وفرقوا بين كل ذي محرم من المجوس ، وانهوهم عن الزمزمة ،

(٢) الفلق : الآية (٤) .
(٤) الإسراء : الآية (٣٢) .
(٦) شرح الطيبي (٢/ ٥٠٥) .

(١) البقرة : الآية (١٠٢) .
(٣) فتح المجيد (٣٣٧) .
(٥) البقرة : الآية (٣٥) .
(٧) القول المفيد (٢/ ١٧) .

فقتلنا في يوم ثلاث سواحر، وفرقنا بين كل رجل من المجوس وحريمه في كتاب الله، وصنع طعامًا كثيرًا فدعاهم فعرض السيف على فخذة فأكلوا ولم يزمزموا، وألقوا وقر بغل، أو بغلين، من الورق، ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر^(١).

★ غريب الحديث:

الزمزمة: كلام تتكلم به المجوس عند أكلهم لا بد لهم منه ولا يحل في دينهم أكل دونه وهو كلام تعظيم لله تعالى يتكلمون به في أفواههم خلقة وشفاهم مطبقة لا يجوز عندهم خلاف ذلك وهذا حمق منهم وتكلف.

الوقر: الوقر يكسر الواو، الحمل وأكثر ما يستعمل في حمل البغل والحمار.
الورق: بكسر الراء، الفضة.

الجزية: مال مأخوذ من أهل الذمة لإسكاننا إياهم في دارنا أو لحقن دماءهم وذرائعهم وأموالهم أو لكفنا عن قتالهم.

★ فوائد الحديث:

قوله: (اقتلوا كل ساحر) وقوله: (فقتلنا في يوم ثلاث سواحر)

قال في تيسير العزيز الحميد: «صريح في قتل الساحر والساحرة وهو من حجج الجمهور القائلين بأنه يقتل، وظاهره أنه يقتل من غير استتابة، وهو كذلك على المشهور عن أحمد، وبه قال مالك: إن الصحابة لم يستتبوهم. ولأن علم السحر لا يزول بالتوبة، وعن أحمد: يستتاب فإن تاب قبلت توبته وخلي سبيله، وبه قال الشافعي؛ لأن ذنبه لا يزيد على الشرك، والمشرک يستتاب وتقيل توبته، فكذلك الساحر، وعلمه بالسحر لا يمنع توبته بدليل ساحر أهل الكتاب إذا أسلم، ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم.

قلت: الأول أصح لظاهر عمل الصحابة. فلو كانت الاستتابة واجبة لفعلوها أو بينوها، وأما قياسه على المشرک فلا يصح؛ لأنه أكثر فسادًا وتشويهاً من المشرک،

(١) أخرجه أحمد (١/١٩٠-١٩١) وأبو داود (٣/٤٣١-٣٠٤٣). وصححه ابن حزم في المحلى (١١/٣٩٦). وأصله عند البخاري (٦/٣١٦-٣١٥٧) والترمذي (٤/١٢٤-١٢٥/١٥٨٦) والنسائي في الكبرى (٥/٢٣٤-٢٣٥/٨٧٦٨) دون ذكر موضع الشاهد.

وكذلك لا يصح قياسه على ساحر أهل الكتاب؛ لأن الإسلام يجب ما قبله، وهذا الخلاف إنما هو في إسقاط الحد عنه بالتوبة، أما فيما بينه وبين الله، فإن كان صادقاً قبلت توبته^(١).

★ عن حفصة رضي الله عنها أنها قتلت جارية لها سحرتها، وقد كانت دبرتها. فأمرت بها فقتلت^(٢).

★ غريب الأثر:

دبرتها: أعتقتها عن دبرٍ منها.

★ فوائد الأثر:

قال القرطبي: «واختلف الفقهاء في حكم الساحر المسلم والذمي، فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفرًا يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته؛ لأنه أمر يستسر به كالزندق والزاني، ولأن الله تعالى سمى السحر كفرًا بقوله: ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وهو قول أحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحاق والشافعي وأبي حنيفة. وروي قتل الساحر عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى وقيس بن سعد وعن سبعة من التابعين. وروي عن النبي ﷺ: «حد الساحر ضربةً بالسيف»^(٣) أخرجه الترمذي وليس بالقوي؛ انفرد به إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف عندهم، رواه ابن المنذر: وقد روي عن عائشة أنها باعت ساحرة كانت سحرتها وجعلت ثمنها في الرقاب. قال ابن المنذر: وإذا أقر الرجل أنه سحر بكلام يكون كفرًا وجب قتله إن لم يتب،

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٣٩٤-٣٩٥).

(٢) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٨٧١) بلاغا ووصله عبد الرزاق (١٠/ ١٨٠) وابن أبي شيبة (٥/ ٥٦١/ ٢٨٩٨٠) والبيهقي (٨/ ١٣٦) وصححه شيخ الإسلام في الصارم المسلول (٢/ ٥٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٤/ ٤٩/ ١٤٦٠) وقال: «لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث، والصحيح عن جندب موقوف»، والدارقطني (٣/ ١١٤) والحاكم (٤/ ٣٦٠) وقال: صحيح الإسناد، وإن كان الشيخان تركا حديث إسماعيل بن مسلم فإنه غريب صحيح، وله شاهد صحيح على شرطهما جميعاً في ضد هذا. قال في التلخيص: «صحيح غريب، وإن كان قد ترك إسماعيل»، والطبراني في الكبير (٢/ ١٦١/ ١٦٦٦) وابن عدي في الكامل (١/ ٢٨٥) وعنه البيهقي (٨/ ١٣٦) من طريق إسماعيل بن مسلم المكي عن الحسن عن جندب قال: «قال رسول الله ﷺ فذكره. والحديث ضعفه الألباني رحمته الله في الضعيفة (٣/ ٦٤١).

وكذلك لو ثبتت به عليه بينة ووصفت البينة كلامًا يكون كفرًا. وإن كان الكلام الذي ذكر أنه سحر به ليس بكفر لم يجز قتله، فإن كان أحدث في المسحور جنابة توجب القصاص اقتصر منه إن كان عمد ذلك؛ وإن كان مما لا قصاص فيه ففيه دية ذلك. قال ابن المنذر: وإذا اختلف أصحاب رسول الله ﷺ في المسألة وجب اتباع أشبههم بالكتاب والسنة؛ وقد يجوز أن يكون السحر الذي أمر من أمر منهم بقتل الساحر سحرًا يكون كفرًا فيكون ذلك موافقًا لسنة رسول الله ﷺ، ويحتمل أن تكون عائشة رضي الله عنها أمرت ببيع ساحرة لم يكن سحرها كفرًا، فإن احتج محتج بحديث جندب عن النبي ﷺ: «حد الساحر ضربه بالسيف» فلو صح لاحتمل أن يكون أمر بقتل الساحر الذي يكون سحره كفرًا، فيكون ذلك موافقًا للأخبار التي جاءت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث»^(١)...

قلت: وهذا صحيح، ودماء المسلمين محظورة لا تستباح إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف. والله تعالى أعلم. وقال بعض العلماء: إن قال أهل الصناعة إن السحر لا يتم إلا مع الكفر والاستكبار؛ أو تعظيم الشيطان فالسحر إذا دال على الكفر على هذا التقدير؛ والله تعالى أعلم. وروي عن الشافعي: لا يقتل الساحر إلا أن يقتل بسحره ويقول: تعمدت القتل، وإن قال: لم أتعمده لم يقتل، وكانت فيه الدية كقتل الخطأ؛ وإن أضر به أدب على قدر الضرر»^(٢).

وتعقب ابن العربي قول الشافعي فقال: «وهذا باطل من وجهين: أحدهما: أنه لم يعلم السحر، وحقيقته أنه كلام مؤلف يعظم به غير الله تعالى، وتنسب إليه فيه المقادير والكائنات.

والثاني: أن الله سبحانه قد صرح في كتابه بأنه كفر؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلْطَانٍ﴾ من السحر، وما كفر سليمان بقول السحر، ولكن الشياطين كفروا به وبتعليمه، وهاروت وماروت يقولان: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وهذا تأكيد للبيان»^(٣).

(١) أخرجه أحمد (٣٨٢/١) والبخاري (١٢/٢٤٧/٦٨٧٨) ومسلم (٣/١٣٠٢-١٣٠٣/١٦٧٦) وأبو داود (٤/

٤٣٥٢/٥٢٢) والترمذي (٤/١٣-١٢/١٤٠٢) والنسائي (٧/١٠٤-١٠٥/٤٠٢٧) وابن ماجه (٢/٨٤٧/

٢٥٣٤) كلهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أحكام القرآن (١/٣١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/٣٣-٣٤).

وقال ابن عبد البر: «وقد قال جماعة من فقهاء الأمصار بقتل الساحر اتباعاً -والله أعلم- لمن ذكرنا من الصحابة وبنحو ما نزع به مالك رحمه الله، وأبت من ذلك طائفة منهم الشافعي وداود...»

قال أبو عمر: القول الأول أعلى من جهة الاتباع، وأنه لا مخالف له من الصحابة إلا عائشة، فإنها لم ترق قتل الساحر^(١).

* عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس علماً من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد»^(٢).

★ غريب الحديث:

اقتبس: قبست العلم واقتبسته إذا تعلمته.

شعبة: أي طائفة وقطعة من النجوم.

★ فوائد الحديث:

قال سليمان بن عبد الله: «قوله: (فقد اقتبس شعبة من السحر) أي: المعلوم تحريمه قال شيخ الإسلام: فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَلَ﴾^(٣) وهكذا الواقع فإن الاستقراء يدل على أن أهل النجوم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة»^(٤).

قوله: (زاد ما زاد) قال: «يعني: كلما زاد من علم النجوم زاد له من الإثم مثل إثم الساحر، أو زاد اقتباس شعب السحر ما زاد اقتباس علم النجوم. قلت: والقولان متلازمان لأن زيادة الإثم فرع عن زيادة السحر وذلك لأنه تحكم على الغيب الذي استأثر الله بعلمه. فعلم أن تأثير النجوم باطل محرم. وكذا العمل بمقتضاه كالتقرب إليها بتقريب القرابين إليها كفر. قاله ابن رجب»^(٥).

قال أبو سليمان الخطابي: «علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان كأخبارهم بأوقات

(١) بغية المستفيد (٤/٦٢٥-٦٢٦).

(٢) رواه أحمد (١/٢٢٧، ٣١١) وأبو داود (٤/٢٢٦) وابن ماجه (٢/١٢٢٨/٣٧٢٦).

(٣) طه: الآية (٦٩).

(٤) تيسير العزيز الحميد (ص: ٣٥٠).

(٥) تيسير العزيز الحميد (ص: ٣٥٠).

هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد وتغير الأسعار وما كان في معانيها من الأمور، يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها وباجتماعها واقترائها ويدعون لها تأثيرا في السفليات وأنها تتصرف على أحكامها وتجري على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاط لعلم استأثر الله سبحانه به لا يعلم الغيب أحد سواه.

فأما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحس الذي يعرف به الزوال ويعلم به جهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهى عنه. وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئا بأكثر من أن الظل ما دام متناقصا فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي، وهذا علم يصح دركه من جهة المشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه بما اتخذوا له من الآلة التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته.

وأما ما يستدل به من جهة النجوم على جهة القبلة فإنما هي كواكب أرصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة ويشاهدوها في حال الغيبة عنها فكان إدراكهم الدلالة عنها بالمعينة وإدراكنا لذلك بقبولنا لخبرهم إذ كانوا غير متهمين في دينهم ولا مقصرين في معرفتهم^(١).

قلت: النجوم جعلها الله زينة للسماء، وجعلت علامات للاهتداء بها، وجعلها الله رجوما للشياطين، وكل هذا ثابت في القرآن: ﴿وَعَلَّمَنَّا وَيَالْجَمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾^(٢)، ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾^(٣)، فالمسلم الحق هو الذي يقف حيثما أوقفه الله ولا يتعدى ذلك، فالكائنات كلها مدبرها وخالقها ربها، ومن استفاد منها شيئا لمصلحته فذلك من فضل الله تعالى، والعلم بالنجوم للاستفادة منه في أمور الدنيا أمر لا محذور فيه، فأرباب السفن وأرباب الطائرات وكل من له خبرة بسير النجوم والأفلاك والشمس والأقمار فعلمه معتبر، ويسلم له في تخصصه. وقد أصبح هذا علما مستقلا تدرس مادته في الجامعات والكليات.

(١) معالم السنن (٤/٢١٢).

(٢) النحل: الآية (١٦).

(٣) الملك: الآية (٥).

أما استعماله في الشعوذة والكهانة، وربط النجوم بالحياة والممات والسعادة والشقاء والحظوظ، وما إلى ذلك مما يفعله البطالون والمشركون، فيزعمون للناس مزاعم لا علاقة لها بالكواكب وسيرها؛ فهذا لا شك أمر محذور، وقائد أصحابه هو إبليس اللعين، فهو الذي يروج لكل فكر بذيء منحرف يفسد به العقائد. فيجب على أهل العلم والدعاة أن يحذروا من هؤلاء الذين يوقعون الناس في الشراكيات الكبرى، والله المستعان.

* عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة: القالة بين الناس»^(١).

★ غريب الحديث:

العضه: بفتح العين المهملة وسكون المعجمة. أصلها العضهه، فعلة من العضه وهو البهت فحذفت لامه^(٢).

القالة بين الناس: أي: كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس بما يحكى للبعض عن البعض^(٣).

★ فوائد الحديث:

قوله: «هي النميمة القالة بين الناس»

قال في فتح المجيد: «فأطلق عليها (العضه): لأنها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالبا. ذكره القرطبي.

وذكر ابن عبد البر، عن يحيى بن أبي كثير، قال: يفسد النمام والكذاب في ساعة، ما لا يفسد الساحر في سنة. وقال أبو الخطاب في عيون المسائل: ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس. قال في الفروع: ووجهه: أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله، على وجه المكر والحيلة، أشبه السحر، وهذا يعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر، وينتج ما يعمل السحر، أو أكثر فيعطى حكمه، تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين. لكن يقال: الساحر إنما يكفر لو وصف السحر، وهو أمر

(١) أخرجه أحمد (٤٣٧/١) ومسلم (٢٠١٢/٤/٢٦٠٦). (٢) النهاية (٣/٣٥٣).

(٣) النهاية (٤/٢٣).

خاص، وهذا ليس بساحر. وإنما يؤثر عمله ما يؤثره، فيعطى حكمه، إلا فيما اختص به من الكفر، وعدم قبول التوبة. انتهى ملخصاً^(١).

قلت: رحم الله الإمام ابن عبد البر ورحم الله يحيى بن أبي كثير، على هذه العبارة الطيبة، وأن النمام والكذاب يفسد في ساعة ما لا يفسده الساحر في سنة، وهو كذلك؛ فإن النميمة داء عضال، وأصحابها يظهرون للناس النصيح والمحبة، وهم في واقع أمرهم معاول هدم، فكم هدمت من أسر مجتمعة بسبب النميمة والكذب! وكم هدم من عمل خيري بسبب النميمة والكذب! وكم قتل من أخيار وفضلاء بسبب النميمة والكذب! وكم سجن من أبرياء بسبب النميمة والكذب! وكم سقطت من دول بسبب النميمة والكذب! ومن تتبع التاريخ وجد أن هذا المنهج منهج إجرامي متسلط، يتقنعه كثير من المجرمين، فيفسدون به مدناً وقرى، وكم عانينا من هذا المنهج الفاسد في مسيرتنا الدعوية! فكم من النمامين والكذابين دخلوا لإفساد الدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه، ولكن الله سلم فردّ كيدهم في نحرم، فترجو الله أن يكفيناهم بما شاء وكيف شاء.

* عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما فقال رسول الله ﷺ «إن من البيان لسحراً، أو: إن بعض البيان لسحر»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قال الخطابي: البيان اثنان: أحدهما: ما تقع به الإبانة عن المراد بأي وجه كان، والآخر: ما دخلته الصنعة بحيث يروق للسامعين ويستميل قلوبهم، وهو الذي يشبه بالسحر إذا خلّب القلب وغلب على النفس حتى يحول الشيء عن حقيقته ويصرفه عن جهته، فيلوح للناظر في معرض غيره. وهذا إذا صرف إلى الحق يمدح، وإذا صرف إلى الباطل يذم. قال: فعلى هذا فالذي يشبه بالسحر منه هو المذموم. وتعقب بأنه لا مانع من تسمية الآخر سحراً؛ لأن السحر يطلق على الاستمالة كما تقدم تقريره في أول باب السحر، وقد حمل بعضهم الحديث على المدح والحث على تحسين الكلام وتحبير الألفاظ، وهذا واضح إن صح أن الحديث ورد في قصة عمرو بن الأهتم، وحمله بعضهم على الذم لمن تصنع

(١) فتح المجيد (ص: ٣٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٦/٢) والبخاري (٥١٤٦/٢٥٢/٩) وأبو داود (٥٠٠٧/٢٧٥/٥) والترمذي (٣٢٩/٤).

في الكلام وتكلف لتحسينه وصرف الشيء عن ظاهره، فشبهه بالسحر الذي هو تخيل لغير حقيقة، وإلى هذا أشار مالك حيث أدخل الحديث في «الموطأ» في «باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله» وتقدم في «باب الخطبة» من كتاب النكاح في الكلام على حديث الباب من قول صعصعة بن صوحان في تفسير هذا الحديث ما يؤيد ذلك، وهو أن المراد به الرجل يكون عليه الحق، وهو ألحن بالحجة من صاحب الحق فيسحر الناس ببيانه فيذهب بالحق، وحمل الحديث على هذا صحيح، لكن لا يمنع حمله على المعنى الآخر إذا كان في تزيين الحق، وبهذا جزم ابن العربي وغيره من فضلاء المالكية. وقال ابن بطال: أحسن ما يقال في هذا أن هذا الحديث ليس ذمًا للبيان كله ولا مدحًا لقوله من البيان، فأتى بلفظة (من) التي للتبعض قال: وكيف يذم البيان وقد امتن الله به على عباده حيث قال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(١) انتهى. والذي يظهر أن المراد بالبيان في الآية المعنى الأول الذي نبه عليه الخطابي، لا خصوص ما نحن فيه. وقد اتفق العلماء على مدح الإيجاز، والإتيان بالمعاني الكثيرة بالألفاظ اليسيرة، وعلى مدح الإطناب في مقام الخطابة بحسب المقام، وهذا كله من البيان بالمعنى الثاني. نعم الإفراط في كل شيء مذموم وخير الأمور أوسطها. والله أعلم^(٢).

وقال القرطبي: «سمى رسول الله ﷺ الفصاحة في الكلام واللسانة فيه سحرًا؛ فقال: «إن من البيان لسحراً» أخرجه مالك وغيره. وذلك لأن فيه تصويب الباطل حتى يتوهم السامع أنه حق؛ فعلى هذا يكون قوله ﷺ: «إن من البيان لسحراً» خرج مخرج الذم للبلاغة والفصاحة، إذ شبهها بالسحر. وقيل: خرج مخرج المدح للبلاغة والتفضيل للبيان؛ قاله جماعة من أهل العلم. والأول أصح، والدليل عليه قوله ﷺ: «فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض»^(٣)، وقوله: «إن أبغضكم إلي الثرثارون المتفيهقون»^(٤). الثرثرة: كثرة الكلام وترديده؛ يقال: ثرثر

(١) الرحمن: الآيات (٣ و ٤). (٢) الفتح (١٠/ ٢٩١-٢٩٢).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠٣) والبخاري (١٢/ ٤١٩-٤٢٠/ ٦٩٦٧) ومسلم (٣/ ١٣٣٧/ ١٧١٣) وأبو داود (٤/

١٢- ٣٥٨٣) والترمذي (٣/ ٦٢٤/ ١٣٣٩) والنسائي (٨/ ٦٢٥/ ٥٤١٦) وابن ماجه (٢/ ٧٧٧/ ٢٣١٧)

من حديث أم سلمة.

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٣) وصححه ابن حبان (٢/ ٢٣١-٢٣٢/ ٤٨٢) من حديث أبي ثعلبة الخشني، وفي الباب

عن جابر وأبي هريرة وابن مسعود.

الرجل فهو ثرثار مهذار. والمتفهيق نحوه. قال ابن دريد، فلان يتفهيق في كلامه إذا توسع فيه وتنطع؛ قال: وأصله الفهق وهو الامتلاء؛ كأنه ملأ به فمه.

قلت: وبهذا المعنى الذي ذكرناه فسرناه عامر الشعبي راوي الحديث وصعصعة بن صوحان فقالا: أما قوله ﷺ: «إن من البيان لسحراً» فالرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق وهو عليه؛ وإنما يحمد العلماء البلاغة واللسانة ما لم تخرج إلى حد الإسهاب والإطناب، وتصوير الباطل في صورة الحق. وهذا بين، والحمد لله^(١).

قلت: مدح الله كتابه بالبيان، ومدح الله أنبياءه ورسله بالبيان، ومدح العلماء أصحاب البيان، قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(٢)، فالبيان إذا أوتيته الرجل فهو من أعظم النعم، لكن هذه النعمة كغيرها من النعم، إن استعملت في الخير كانت حسنة لصاحبها، وإن استعملت في الشر كانت وبالاً على صاحبها، وقد قال الرسول ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»^(٣). واستدل ﷺ بكلمة لبيد فقال: «أصدق كلمة قالها لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(٤).

فالكلام كما سبق نعمة من الله، فيجب على المتكلم أن يتقي الله فيما يقول إن كان خطيباً أو واعظاً، أو محامياً مدافعاً أو كاتباً أو مؤلفاً، حتى لا يقع الناس بسبب كلامه في بدعة أو شرك أو معصية، أو تحويل حق غير مستحق إلى غير مستحقه، أو غير ذلك من أنواع الكلام، يقلب الحق باطلاً؛ فإن الله تعالى يعلم السر وأخفى، وسمع شكوى المجادلة من فوق سبع سموات. وقال ابن مسعود: «كان رجلان من قريش وختن لهما من ثقيف، أو رجلان من ثقيف وختن لهما من قريش في بيت، فقال بعضهم لبعض: أترون أن الله يسمع حديثنا؟ قال بعضهم: يسمع بعضه، وقال بعضهم: لئن كان يسمع بعضه لقد يسمع كله، فأنزلت: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْوْنَ أَنْ يَشْهَدَ

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣٢/٢).

(٢) الرحمن: الآيات (١-٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٢٣٤/٢)، والبخاري (٦٤٧٨/٣٧٣/١١) واللفظ له، ومسلم (٢٩٨٨/٢٢٩٠/٤)، والترمذي (٢٣١٤/٤٨٣-٤٨٢/٤)، وابن ماجه (٣٩٧٠/١٣١٣/٢) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٤) أخرجه: أحمد (٢٤٨/٢)، والبخاري (٣٨٤١/١٨٨/٧)، ومسلم (٢٢٥٦/١٧٦٨/٤)، والترمذي (٥/٢٨٤٩/١٢٨)، وابن ماجه (٣٧٥٧/١٢٣٦/٢) من حديث أبي هريرة ؓ.

عَلَيْكُمْ سَمْعَكُمْ وَلَا أَبْصَرَكُمْ»^(١) الآية^(٢). ومع الأسف فقد اتخذ ما يسمى بعلم الأدب لنشر كل رذيلة وكل سيئة، وزعموا أن الأدب لا رقابة عليه، وأن الأديب له أن يقول ما شاء، وهذه فرية كبرى؛ فالمسلمون مجمعون على تفسير قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(٣) بأنهم الملكان عن اليمين وعن الشمال، فالأدب وغيره من العلوم لا بد أن يخضع للموازين الشرعية، فحسنه حسن وسيئه سيئ، ومن تتبع دواوين الشعراء وخطب الخطباء؛ وجد ما قلته حقيقة ماثلة في شعر الشعراء وفي خطب الخطباء - وإن يسر الله في العمر وبقيت فسحة اعتنيت بهذا الموضوع عناية خاصة - فإنه باب دخل منه كل زنديق وملحد، وكل مبتدع ومشرک، وكل باطني وشيعي محترق، وكل صوفي متلاعب بدين الله اتخذ دينه هزواً ولعباً باسم مدح النبي ﷺ، وباسم القصائد والأناشيد، وهذا البحث كنت سميته في وقت مبكر: (ظاهرة الإلحاد والفساد في الأدب العربي) فمعظم المناهج الآن التي تلقن للناشئة معظمها في هذا الباب من رؤوس الزندقة والإلحاد، كنجيب محفوظ والمعري وبشار وغيرهم كثير.

* عن عامر بن سعد سمعت سعداً رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أصبح سبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر»^(٤).

★ غريب الحديث:

تصبح: أصل الصبوح تناول الشراب صباحاً، ثم استعمل في الأكل.
العجوة: ضرب من أجود تمر المدينة وألينه.

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «كون العجوة تنفع من السم والسحر إنما هو ببركة دعوة النبي ﷺ لتمر المدينة لا لخاصية في التمر»^(٥).

(١) فصلت: الآية (٢٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١/٣٨١-٤٢٦-٤٤٢)، والبخاري (٨/٧٢١-٧٢٢/٧٢٢-٤٨١٦-٤٨١٧) واللفظ له، ومسلم (٤/٢١٤١/٢٧٧٥)، والترمذي (٥/٣٥٠-٣٥١/٣٢٤٨ و٣٢٤٩)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٥١/١١٤٦٨).

(٣) ق: الآية (١٨).

(٤) أخرجه أحمد (١/١٨١) والبخاري (١٠/٢٩٢/٥٧٦٩) ومسلم (٣/١٦١٨/٢٠٤٧) وأبو داود (٤/٢٠٨/٣٨٧٦) والنسائي في الكبرى (٤/١٦٥/٦٧١٣). (٥) الفتح (١٠/٢٩٤).

قال القرطبي: «وظاهر هذه الأحاديث: خصوصية عجوة المدينة بدفع السم، وإبطال السحر. وهذا: كما توجد بعض الأدوية مخصصة ببعض المواضع، وبعض الأزمان»^(١).

* عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال: «من عمل الشيطان»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «النشرة ضرب من الرقية والعلاج يعالج به من كان يظن به مس الجن وقيل: سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه أي يحل عنه ما خامره من الداء»^(٣).

قال الحافظ: «قال ابن الجوزي: النشرة حل السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر. وقد سئل أحمد عن يطلق السحر عن المسحور فقال: لا بأس به. وهذا هو المعتمد. ويجاب عن الحديث والأثر بأن قوله: (النشرة من عمل الشيطان) إشارة إلى أصلها، ويختلف الحكم بالقصد، فمن قصد بها خيراً كان خيراً وإلا فهو شر. ثم الحصر المنقول عن الحسن ليس على ظاهره لأنه قد ينحل بالرقى والأدعية والتعويد، ولكن يحتمل أن تكون النشرة نوعين»^(٤).

وقال ابن القيم: «وهي نوعان: حل سحر بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، فإن السحر من عمله فيتقرب إليه الناشر والمتشر بما يحب، فَيُبْطَلُ عَمَلُهُ عَنِ الْمَسْحُورِ، والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة، فهذا جائز، بل مستحب، وعلى النوع المذموم يحمل قول الحسن: (لا يحل السحر إلا ساحر)»^(٥).

ويوافق قول سعيد بن المسيب: عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه.

علقه البخاري^(٦) وقال الحافظ: وصله أبو بكر الأثرم في كتاب السنن.

(١) المفهم (٣٢٢/٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٩٤/٣) وأبو داود (٣٨٦٨/٢٠١/٤) وحسنه ابن حجر في الفتح (٢٨٦/١٠).

(٣) معالم السنن (٢٠٤/٤).

(٤) الفتح (٢٨٦/١٠).

(٥) إعلام الموقعين (٣٩٦/٤).

(٦) الفتح (٢٨٥/١٠).

قال الحافظ: «ويؤيد مشروعية النشرة ما تقدم في حديث «العين حق»^(١) في قصة اغتسال العائن».

إلى أن قال: «وممن صرح بجواز النشرة المزني صاحب الشافعي وأبو جعفر الطبري وغيرهما»^(٢).

قلت: أما حل السحر بالسحر فلا يشك من له أدنى التصاق بعلم العقيدة أنه لا يجوز؛ لأن السحر بالأصل هو من عمل الشيطان، وتعامل مع الشيطان، والشيطان لا يرضى إلا بالشرك والكفر وما حولهما، وقد شاع في الأزمنة المتأخرة عن بعض من نسب إلى العلم جواز حل السحر بالسحر، ولا شك أن هذا مناقض لدعوة التوحيد التي ينتسب إليها هذا القائل. وقد رد عليه العلماء جزاهم الله خيراً، وعلى رأسهم سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ.

ويكفي المسلم الحق الرقية الشرعية بالأدعية وقراءة القرآن والصلاة، وشرب زمزم وأكل تمر العجوة، والطواف بالبيت والإكثار من الصدقات، والإكثار من الأذكار التي فيها التفريغ عن المكروب، وطلب دعاء الأخيار والفضلاء وأهل العلم من ذكور وإناث، ولله أن يفعل ما يشاء، فهو القدير على كل شيء، وليس كل مرض إذا استعملت فيه الأدوية شفي صاحبه، فكم من الأمراض اجتمع عليها أطباء العالم فلم يستطيعوا إبعادها وإزالتها لملوك وأغنياء، فالشفاء بيد الله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَهُوَ يُحْيِيهِ﴾ (٧٨) ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُهُ وَيَسْقِيهِ﴾ (٧٩) ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾^(٣)، فالسحر مرض من الأمراض، يستعمل له من الأدوية ما يناسبه، ويرجى الشفاء من الله. وأما أن يكون الشرك والكفر والردة وسائل للمسحور لشفائه؛ فهذا مما يناقض دعوة الأنبياء والرسل، والله المستعان.

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣١٩/٢) والبخاري (١٠/٢٤٩/٥٧٤٠) ومسلم (٤/١٧١٩/٢١٨٧) وأبو داود (٤/٢١٠/٢١٠).

(٢) الفتح (١٠/٢٨٦).

(٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الشعراء: الآيات (٧٨-٨٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

★ غريب الآية:

مثوبة: الثواب والمثوبة: الجزاء على الفعل من خير أو شر. أصله من ثاب يثوب: إذا رجع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾، لو أن الذين يتعلمون من الملكين ما يفرقون به بين المرء وزوجه، ﴿ءَامَنُوا﴾ فصدقوا الله ورسوله وما جاءهم به من عند ربهم، ﴿وَاتَّقَوْا﴾ ربهم فخافوه فخافوا عقابه فأطاعوه بأداء فرائضه وتجنبوا معاصيه لكان جزاء الله إياهم، وثوابه لهم على إيمانهم به وتقواهم إياه، خيراً لهم من السحر وما اكتسبوا به، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أن ثواب الله إياهم على ذلك خير لهم من السحر ومما اكتسبوا به. وإنما نفى بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العلم عنهم: أن يكونوا عالمين بمبلغ ثواب الله، وقدر جزائه على طاعته»^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «أي: لو أنهم استبدلوا الإيمان بما جاء به النبي ﷺ بهذا السحر الخادع واتباع نزغات الشياطين أو لو آمنوا بكتابهم إيماناً حقيقياً ومنه البشارة بالنبي والأمر باتباعه واتقوا بالعمل به والمحافظة على حدوده مغبة ما ينتظره المجرمون من العقوبة على العصيان لكان ثواب الله لهم على الإيمان الصحيح والعمل الصالح خيراً لهم من جميع ما توهموه في المخالفة من المنافع. ثم قال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنهم في كل ما هم عليه من الأباطيل، ومن زعمهم أنها ترجع إلى الكتاب بضروب من التأويل، يتبعون الظنون ويعتمدون على التقليد،

(١) جامع البيان (٢/٤٥٧-٤٥٨ تحقيق شاكر).

وليسوا على شيء من العلم الصحيح ولو كانوا يعلمون علمًا صحيحًا لظهر أثره في أعمالهم ولآمنوا بالنبى ﷺ واتبعوه فكانوا من المفلحين»^(١).

* * *

(١) تفسير المنار (١/٤٠٨).

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا
وَأَسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

★ غريب الآية:

راعنا: أي تعهّدنا، يقال: راعاه يُراعِيه، إذا تعهده والمراعاة المحافظة والمراقبة بشيء في نفسه وأحواله. وكانت اليهود تقولها وتريد بها السب؛ أي: اسمع لا سمعت. فاغتموها وقالوا: كنا نُسَبُّه سرّاً فالآن نُسَبُّه جهراً. انظُرنا: أي انتظرنا وتأنّ علينا، وقيل: أقبل علينا وانظر إلينا. قال امرؤ القيس: فإنكما إن تَنْظُرَانِي سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ يَنْفَعْنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبٍ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقص -عليهم لعائن الله- فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا. يقولون: راعنا. يورون بالرعونة، كما قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَآتَمَمَّ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١) وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم، بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون: السام عليكم. والسام هو: الموت. ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ (وعليكم)^(٢). وإنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا، والغرض: أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا

(١) النساء: الآية (٤٦).

(٢) رواه أحمد (٩/٢) والبخاري (١٢/٣٤٧/٦٩٢٨) ومسلم (٤/١٧٠٦/٢١٦٤) وأبو داود (٥/٣٨٤/٥٢٠٦) والترمذي (٤/١٣٢/١٦٠٣) والنسائي في الكبرى (٦/١٠٢/١٠٢١٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وَقُولُوا أَنْظَرْنَا وَأَسْمِعُوا وَلَكِنَّ كَيْدَهُمْ عَلَاقٌ أَلِيمٌ»^(١).

وقال الشوكاني: «قوله: ﴿رَاعِنَا﴾ راقبنا واحفظنا وصيغة المفاعلة تدل على أن معنى ﴿رَاعِنَا﴾ ارعنا ونرعاك واحفظنا ونحفظك وراقبنا ونرقبك؛ ويجوز أن يكون من أرعنا سمعك: أي فرغه لكلامنا، وجه النهي عن ذلك أن هذا اللفظ كان بلسان اليهود سباً، قيل: إنه في لغتهم بمعنى اسمع لا سمعت؛ وقيل غير ذلك، فلما سمعوا المسلمين يقولون للنبي ﷺ راعنا طلباً منه أن يراعيهم من المراعاة اغتنموا الفرصة، وكانوا يقولون للنبي ﷺ كذلك مظهرين أنهم يريدون المعنى العربي، مبطنين أنهم يقصدون السب الذي معنى هذا اللفظ في لغتهم وفي ذلك دليل على أنه ينبغي تجنب الألفاظ المحتملة للسب والنقص وإن لم يقصد المتكلم بها ذلك المعنى المفيد للشتم سداً للذريعة ودفعاً للوسيلة وقطعاً لمادة المفسدة والتطرق إليه، ثم أمرهم الله بأن يخاطبوا النبي ﷺ بما لا يحتمل النقص ولا يصلح للتعريض فقال: ﴿وَقُولُوا أَنْظَرْنَا﴾ أي: أقبل علينا وانظر إلينا»^(٢).

وقال القرطبي: «في هذه الآية دليلان:

أحدهما: على تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والغض، ويخرج من هذا فهم القذف بالتعريض، وذلك يوجب الحد عندنا خلافاً لأبي حنيفة والشافعي وأصحابهما حين قالوا: التعريض محتمل للقذف وغيره، والحد مما يسقط بالشبهة...

الدليل الثاني: التمسك بسد الذرائع وحمايتها، وهو مذهب مالك وأصحابه، وأحمد بن حنبل في رواية عنه؛ وقد دل على هذا الأصل الكتاب والسنة. والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع. أما الكتاب فهذه الآية، ووجه التمسك بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك وهي سب بلغتهم؛ فلما علم الله ذلك منهم منع من إطلاق ذلك اللفظ؛ لأنه ذريعة للسب، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(٣) فمنع من سب آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْفَرِيكَةِ الَّتِي كَانَتْ

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٢٥٩-٢٦٠).

(٢) فتح القدير (١/١٨٣-١٨٤).

(٣) الأنعام: الآية (١٠٨).

حَاضِرَةَ الْبَحْرِ^(١) الآية؛ فحرم عليهم -تبارك وتعالى- الصيد في يوم السبت؛ فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعاً؛ أي: ظاهرة، فسدوا عليها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد، وكان السد ذريعة للاصطياد؛ فمسخهم الله قردة وخنازير؛ وذكر الله لنا ذلك معنى التحذير عن ذلك؛ وقوله تعالى لآدم وحواء: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾^(٢) وقد تقدم. وأما السنة فأحاديث كثيرة ثابتة صحيحة، منها حديث عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة -رضي الله عنهن- ذكرتا كنيسة رأتها بالحبشة فيها تصاوير (فذكرتا ذلك) لرسول الله ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»^(٣). أخرجه البخاري ومسلم. وقال علماؤنا: ففعل ذلك أوائلهم ليأتنسوا برؤية تلك الصور، ويتذكروا أحوالهم الصالحة، فيجتهدون كاجتهادهم، ويعبدون الله ﷻ عند قبورهم، فمضت لهم بذلك أزمان، ثم إنهم خلف من بعدهم خلوف جهلوا أغراضهم، ووسوس لهم الشيطان أن آباءكم وأجدادكم كانوا يعبدون هذه الصورة فعبدوها، فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك، وشدد النكير والوعيد على من فعل ذلك، وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك فقال: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحهم مساجد»^(٤) وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»^(٥). وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور متشابها، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه»^(٦) الحديث، فمنع من الإقدام على الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات؛ وذلك سداً للذريعة. وقال ﷺ: «لا يبلغ

(١) الأعراف: الآية (١٦٣).

(٢) البقرة: الآية (٣٥).

(٣) أخرجه أحمد (٥١/٦) والبخاري (٤٢٧/٦٨٩/١) ومسلم (٣٧٥-٣٧٦/١) والنسائي (٣٧١/٢-٣٧٢/١).

(٤) أخرجه بمعناه مسلم (٣٧٧-٣٧٨/١) من حديث جندب رضي الله عنه.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة أحمد (٢٤٦/٢) والحميدي (١٠٢٥) وابن سعد (٢٤١-٢٤٢/٢). وصححه سننه الألباني (تحذير الساجد ص: ١٨).

(٦) أخرجه أحمد (٢٦٧/٤) والبخاري (٣٦٤-٣٦٥/٤) ومسلم (١٢١٩-١٢٢٠/٣) وأبو داود (٢٢٣/٣-٢٢٥/٣) والنسائي (٢٧٧-٢٧٩/٧) (٤٤٦٥).

العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به البأس»^(١). وقال ﷺ: «إن من الكبائر شتم الرجل والديه قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»^(٢). فجعل التعرض لسب الآباء كسب الآباء»^(٣).

قلت: رحم الله أبا عبد الله القرطبي على هذه الكلمة الطيبة في قضية سد الذرائع، حيث استفادها من الآية الكريمة، ونسب هذا الأصل إلى مالك وأحمد - رحمهما الله -، والحقيقة أن هذا الأصل من أهم أصول الفقه الذي ينبغي العناية به؛ لأن الإسلام مبني عليه، فالإسلام وسائل وغايات، فينبغي أن تراعى فيه الوسائل والغايات، فما هو وسيلة لشئ ينبغي أن يسد، وما هو وسيلة لخير فينبغي أن يفتح، فالذكر وسيلة للثناء والتمجيد لله - تبارك وتعالى - بما يليق به، فينبغي الإكثار منه والتعلق به، فهو وسيلة إلى غاية محمودة، فالله - تبارك وتعالى - معرفته غاية السعادة، والجهل به غاية الشقاوة، فكل وسيلة شرعية توصل إلى معرفته فهي مطلوبة من المسلم، فما كان للتوحيد تلك المكانة العظيمة إلا لأنه أفراد لله بكل ما يليق به، وكل وسيلة للعبادة - كالطهارة التي هي وسيلة للصلاة وغيرها، من إحرام ومن إمساك عن الأكل والشرب والجماع وكل هذه الوسائل - محمودة ومطلوبة من الإنسان؛ لأن غايتها هي كمال العبودية لله تعالى، وكل وسيلة للشرك - كالحلف بغيره - تبارك وتعالى - أو الصلاة في القبور أو غيرها من المسائل الكثيرة التي توقع صاحبها في الشرك من أقوال وأعمال - فلا شك في تحريمها، وقد وفي العلامة ابن القيم رحمه الله هذا الموضع حقه ومستحقه في كتابه القيم إعلام الموقعين فليرجع إليه.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب سد الذرائع والنهي عن التشبه

بالكفار في الكليات والجزئيات

* عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»^(٤).

- (١) أخرجه الترمذي (٤/٥٤٧/٢٤٥١) وحسنه، وابن ماجه (٢/١٤٠٩/٤٢١٥) والحاكم (٤/٣١٩) من حديث عطية السعدي والحديث ضعفه الألباني (غاية المرام ص: ١٧٨).
- (٢) أخرجه أحمد (٢/١٦٤) ومسلم (١/٩٢/٩٠) والبخاري في الأدب المفرد (٢٨) والترمذي (٤/٢٧٦/١٩٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو.
- (٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/٤٠-٤١).
- (٤) أخرجه أحمد (٢/٥٠-٩٢) وأبو داود (٤/٣١٤/٤٠٣١) والحديث صحيح بشواهده، انظر الإرواء (١٢٦٩).

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «فيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد، على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم، وعبادتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولم نقرر عليها»^(١).

وقال شيخ الإسلام: «وهذا الحديث أقل أحواله: أن يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم، كما في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾»^(٢) وهو نظير ما سنذكره، عن عبد الله بن عمرو أنه قال: «من بنى بأرض المشركين، وصنع نيروزهم، ومهرجاناتهم، وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم يوم القيامة»^(٣).

فقد يحمل هذا على التشبه المطلق، فإنه يوجب الكفر، ويقتضي تحريم أبعاض ذلك، وقد يحمل على أنه منهم، في القدر المشترك الذي شابههم فيه، فإن كان كفراً، أو معصية، أو شعاراً لها، كان حكمه كذلك.

وبكل حال: يقتضي تحريم التشبه، بعله كونه تشبهاً، والتشبه: يعم من فعل الشيء لأجل أنهم فعلوه. وهو نادر. ومن تبع غيره في فعل لغرض له في ذلك، إذا كان أصل الفعل مأخوذاً عن ذلك الغير. فأما من فعل الشيء واتفق أن الغير فعله أيضاً، ولم يأخذه أحدهما عن صاحبه، ففي كون هذا تشبهاً نظر. لكن قد ينهي عن هذا، لثلاث يكون ذريعة إلى التشبه، ولما فيه من المخالفة، كما أمر بصبغ اللحى وإحفاء الشوارب، مع أن قوله ﷺ: «غبروا الشيب ولا تشبهوا باليهود»^(٤) دليل على أن التشبه بهم يحصل بغير قصد منا، ولا فعل. بل بمجرد ترك تغيير ما خلق فينا، وهذا أبلغ من الموافقة الفعلية، الاتفاقية.

وقد روي في هذا الحديث عن ابن عمر رضيهما، عن النبي ﷺ: أنه نهى عن التشبه بالأعاجم وقال: «من تشبه بقوم فهو منهم». ذكره القاضي أبو يعلى. وبهذا احتج غير واحد من العلماء على كراهة أشياء من زي غير المسلمين»^(٥).

(٢) المائدة: الآية (٥١).

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٦٠).

(٣) رواه البيهقي (٩/ ٢٣٤) وصححه شيخ الإسلام في الاقتضاء (١/ ٤٥٧) وابن القيم في أحكام أهل الذمة (٣/ ١٢٤٨).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦١) والترمذي (٤/ ٢٠٣/ ١٧٥٢) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن حبان (١٢/ ٢٨٧/ ٥٤٧٣). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٣٧-٢٣٩).

قوله تعالى: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
 أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ
 يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥٥﴾﴾

★ غريب الآية:

يود: الود محبة الشيء وتمني كونه، ويستعمل في كل واحد من المعنيين. على
 أن التمني يتضمن معنى الود؛ لأن التمني هو تشهي حصول ما توده.
 يَخْتَصُّ: أصل الاختصاص: الانفراد بالشيء، ومعنى (يختص برحمته) أي:
 يفرد بها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فتأويل الكلام: ما يحب الكافرون من أهل الكتاب
 ولا المشركين بالله من عبدة الأوثان، أن ينزل عليكم من الخير الذي كان عند الله
 فنزله عليكم. فتمنى المشركون وكفرة أهل الكتاب أن لا ينزل الله عليكم الفرقان،
 وما أوحاه إلى محمد ﷺ من حكمه وآياته، وإنما أحببت اليهود وأتباعهم من
 المشركين ذلك، حسداً وبغياً منهم على المؤمنين.

وفي هذه الآية دلالة بينة على أن الله -تبارك وتعالى- نهى المؤمنين عن الركون
 إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، والاستماع من قولهم، وقبول شيء مما
 يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم، بإطلاعه -جل ثناؤه- إياهم على ما يستبطنه
 لهم أهل الكتاب والمشركون من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما
 هم مستبطنون»^(١).

وقال: «يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: والله
 يختص من يشاء بنبوته ورسالته، فيرسله إلى من يشاء من خلقه، فيفضل بالإيمان

(١) جامع البيان (٢/ ٤٧٠) تحقيق شاكراً.

على من أحب فيهديه له . و(اختصاصه) إياهم بها ، أفرادهم بها دون غيرهم من خلقه . وإنما جعل الله رسالته إلى من أرسل إليه من خلقه ، وهدايته من هدى من عباده ، رحمة منه له ، ليصيره بها إلى رضاه ومحبه وفوزه بها بالجنة ، واستحقاقه بها ثناؤه . وكل ذلك رحمة من الله له .

وأما قوله : ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ . فإنه خبر من الله - جل ثناؤه - عن أن كل خير ناله عباده في دينهم ودنياهم ، فإنه من عنده ابتداء وتفضلاً منه عليهم ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه .

وفي قوله : ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ، تعريض من الله - تعالى ذكره - بأهل الكتاب : أن الذي أتى نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين به من الهداية ، تفضل منه ، وأن نعمه لا تدرك بالأمانى ، ولكنها مواهب منه يختص بها من يشاء من خلقه^(١) .

وقال محمد رشيد رضا : «يقول الله تعالى للمؤمنين إن هؤلاء الذين علمتم شأنهم مع أنبيائهم حسدة ، لا يلتفت إلى تكذيبهم ، ولا يبالي بعدوانهم ، ولا يضركم كفرهم وعنادهم ، فهم لحسدهم لا يودون أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم ، والقرآن أعظم الخيرات ؛ لأنه النظام الكامل ، والفضل الشامل ، والهداية العظمى ، والآية الكبرى ، جمع به شملكم ، ووصل حبلكم ، ووجد شعوبكم وقبائلكم ، وطهر عقولكم من نزغات الوثنية ، وزكى نفوسكم من أدران الجاهلية ، وأقامكم على سنن الفطرة ، وشرع لكم الحنيفية السمحة ، فكيف لا يحرق الحسد عليه أكبادهم ، ويخرج أضغانهم عليكم وأحقادهم ؟

(أقول) : الود محبة الشيء وتمني وقوعه يطلق على كل منهما قصداً وعلى الآخر تبعاً ويكون مفعول الأول مفرداً ، والثاني جملة ، ونفيه بمعنى الكراهة فالمعنى ما يحب الذين كفروا من اليهود والنصارى ولا من المشركين أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم . أما أهل الكتاب ولا سيما اليهود فلحسدهم للعرب أن يكون فيهم الكتاب والنبوة ، وهو ما كانوا يحتكرونه لأنفسهم ، وأما المشركون ؛ فلأن في التنزيل المرة بعد المرة من قوة الإسلام ورسوخه وانتشاره ما خيب آمالهم في تربصهم الدوائر

(١) جامع البيان (٤/٤٧٢ تحقيق شاكر) .

بالنبي ﷺ وانتهاء أمره .

ثم إن الله تعالى رد عليهم بما بين جهلهم وجهل جميع الحاسدين فقال : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : أن الحاسد لغباوته وفساد طويته يكون ساخطًا على الله تعالى ومعتزًا عليه ، أن أنعم على المحسود بما أنعم ، ولا يضر الله تعالى سخط الساخطين ، ولا يحول مجاري نعمه حسد الحاسدين ، فالله يختص برحمته من يشاء من عباده ، والله ذو الفضل العظيم ، أسند كلا من هذين الأمرين إلى اسم الذات الأعظم ، لبيان أنهما حق له لذاته فليس لأحد من عبيده أدنى تأثير في منحهما ولا في منعهما^(١) .

قلت : الله - تبارك وتعالى - عليم ورحيم وكريم وكبير وعدل في كل أقواله وأفعاله ، أنزل كتابه هداية وبيانًا ، من حفظه وقرأه وفهمه وعمل به كان على هداية كاملة ، تتضح له الطرق والسبل ، ويعرف حقيقة أعباءه وأصدقاءه وإخوانه أعدائه والمتربصين به .

وهذه الآية الكريمة تعطي للمسلم حقيقة لا يستطيع أن يصل إليها مهما كان عنده من علم ، ومهما بلغ من جهد وسبب ، ومهما أرسل من عيون وإخباريين ، إلا أن الله تفضل وتكرم فأخبره بحقيقة عدوه ونظرته إليه ، فعدوك يتمنى أن تتجرد من كل خير في الظاهر والباطن ، ويتمنى أن تكون على أسوأ الأحوال في ظاهرك وباطنك ، فيترقب لك كل النكسات في هذه الحياة وتكون على شر واقع ، ويذل بالليل والنهار أن يكون واقفك أقبح واقع وأشره ، وما يزال ، وهم جنود لا تحصي - لا كثرهم الله - ومع ذلك تجد المسلمين لا يفصلهم عن عدوهم أي فاصل ، لا في الشكل ولا في المضمون ، فيتابعونهم في كل صغيرة وكبيرة ، ويقدمونهم في كل شيء ، ويقدمون لهم كل شيء ، حتى الأعراض التي هي أعلى ما يملك ، فتقدم البنات والأخوات على أنهن لأولئك حبيبات وصديقات ، وتقدم لهم أحسن الموارد الاقتصادية على أنها استثمار وترويج للاقتصاد ، وما يقدم لهم كثير ، أما الموالاة السياسية بالتبعيات ؛ فالمسلمون بكل أسف هم ذبولهم ، لا يتحركون إلا بتحريكهم ، إلا من شاء الله ممن وعى واقعه وانتبه لكيد أعدائه ؛ فإنه يضع الأمور في نصابها وقليل ما هم .

(١) تفسير المنار (١/٤١٢-٤١٣) .

قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٦) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٠٧)

★ غريب الآية:

نسخ: النسخ في كلام العرب على وجهين، أحدهما: النقل، كنقل كتاب من آخر، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخاً؛ أي: من اللوح المحفوظ. وهذا لا مدخل له في هذه الآية، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْنِسُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١)؛ أي: نأمر بنسخه وإثباته. الثاني: الإبطال والإزالة، وهو المقصود هنا، وهو منقسم في اللغة على ضربين، أحدهما: إبطال الشيء وزواله وإقامة آخر مقامه، ومنه نسخت الشمس الظل، إذا أذهبت وحلت محله، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾. الثاني: إزالة الشيء دون أن يقوم آخر مقامه، كقولهم: «نسخت الريح الأثر»، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾^(٢)؛ أي: يزيله ولا يثبت في المصحف بدله.

ننسخها: من نسى الشيء إذا تركه، ومنه قوله تعالى: ﴿تَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٣) وقرئت ننسأها؛ أي: نؤخر نسخها. والنسء: التأخر، والمعنى: نمحوها من القلوب فنجعلها شيئاً منسياً.

ولي: الولي معناه فاعل من قول القائل: «وليت أمر فلان»؛ إذا صرت قيماً به، فأنا أليه، فهو وليه وقيمه، ومنه قول القائل: «فلان ولي عهد المسلمين»؛ يعني به القائم بما عهد إليه من أمر المسلمين.

نصير: أي: الناصر، وهو المعين والمؤيد.

(٢) الحج: الآية (٥٢).

(١) الجاثية: الآية (٢٩).

(٣) التوبة: الآية (٦٧).

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي في شأن النسخ: «معرفة هذا الباب أكيدة وفائدته عظيمة، لا يستغني عن معرفته العلماء، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء؛ لما يترتب عليه من النوازل في الأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام»^(١).

قال الشافعي في الرسالة: «إن الله خلق الخلق لما سبق في علمه مما أراد بخلقهم وبهم، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، وأنزل عليهم الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة، وفرض فيهم فرائض أثبتها، وأخرى نسخها رحمة لخلقهم بالتخفيف عنهم وبالتوسعة عليهم، زيادة فيما ابتدأهم به من نعمه، وأثابهم على الانتهاء إلى ما أثبت عليهم جنته، والنجاة من عذابه، فعمتهم رحمة فيما أثبت ونسخ فله الحمد على نعمه»^(٢).

وللإشارة فقد أنكرت طوائف من المنتمين إلى الإسلام المتأخرين جوازه وهم محجوجون بإجماع السلف على وقوعه في الشريعة، وأنكرته طوائف من اليهود وهم محجوجون بما جاء في توراتهم:

قال ابن كثير: «الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى؛ لأنه يحكم ما يشاء، كما أنه يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حل بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كي لا يستأصلهم القتل، وأشياء كثيرة المطلوب ذكرها، وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه»^(٣).

وقال القرطبي: «وليس هذا من باب البداء، بل هو نقل العباد من عبادة إلى

(٢) الرسالة (ص ١٠٦).

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤٣/٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/٢٦٤-٢٦٥).

عبادة، وحكم إلى حكم؛ لضرب من المصلحة، إظهارًا لحكمته وكمال مملكته، ولا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية؛ وإنما كان يلزم البدء لو لم يكن عالمًا بمآل الأمور؛ وأما العالم بذلك فإنما يتبدل خطابه بحسب تبدل المصالح؛ كالطبيب المراعي أحوال العليل؛ فراعى ذلك في خليقته بمشيئته وإرادته، لا إله إلا هو؛ فخطابه يتبدل، وعلمه وإرادته لا تتغير، فإن ذلك محال في جهة الله تعالى.

وجعلت اليهود النسخ والبدء شيئًا واحدًا؛ ولذلك لم يجوزوه فضلوا. قال النحاس: والفرق بين النسخ والبدء أن النسخ تحويل العبادة من شيء إلى شيء قد كان حلالًا فيحرم أو كان حرامًا فيحلل. وأما البدء فهو ترك ما عزم عليه؛ كقولك: امض إلى فلان اليوم؛ ثم تقول لا تمض إليه؛ فيبدو لك العدول عن القول الأول؛ وهذا يلحق البشر لنقصانهم^(١).

وقال رحمه الله: «قال علماؤنا -رحمهم الله تعالى-: جائز نسخ الأثقل إلى الأخف؛ كنسخ الثبوت لعشرة بالشبوت لاثنين. ويجوز نسخ الأخف إلى الأثقل؛ كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان؛ على ما يأتي بيانه في آية الصيام. وينسخ المثل بمثله ثقلاً وخفة، كالقبلة. وينسخ الشيء لا إلى بدل كصدقة النجوى. وينسخ القرآن بالقرآن. والسنة بالعبارة؛ وهذه العبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعي. وينسخ خبر الواحد بخبر الواحد.

وحذاق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة، وذلك موجود في قوله ﷺ: «لا وصية لوارث»^(٢). وهو ظاهر مسائل مالك. وأبى ذلك الشافعي وأبو الفرج المالكي، والأول أصح، بدليل أن الكل حكم الله تعالى ومن عنده وإن اختلفت في الأسماء. وأيضًا فإن الجلد ساقط في حد الزنى عن الثيب الذي يرجم، ولا مسقط لذلك إلا السنة فعل النبي ﷺ، هذا بين.

والحذاق أيضًا على أن السنة تنسخ بالقرآن وذلك موجود في القبلة، فإن الصلاة

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٧) وأبو داود (٣/ ٢٩٠-٢٩١/ ٢٨٧٠) والترمذي (٤/ ٣٧٦-٣٧٧/ ٢١٢٠) وقال: «حسن صحيح» وابن ماجه (٢/ ٩٠٥/ ٢٧١٣) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وفي الباب عن عمرو بن خارجه رضي الله عنه.

إلى الشام لم تكن في كتاب الله تعالى . وفي قوله تعالى : ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾^(١) فإن رجوعهن إنما كان بصلح النبي ﷺ لقريش .

والحذاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلاً ، واختلفوا هل وقع شرعاً ؛ فذهب أبو المعالي وغيره إلى وقوعه في نازلة مسجد قباء ، على ما يأتي بيانه ؛ وأبى ذلك قوم . ولا يصح نسخ نص بقياس ؛ إذ من شروط القياس ألا يخالف نصاً .

وهذا كله في مدة النبي ﷺ ، وأما بعد موته واستقرار الشريعة فأجمعت الأمة أنه لا نسخ ؛ ولهذا كان الإجماع لا ينسخ ولا ينسخ به إذ انعقاده بعد انقطاع الوحي ؛ فإذا وجدنا إجماعاً يخالف نصاً فيعلم أن الإجماع استند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن ، وأن ذلك النص المخالف متروك العمل به ، وأن مقتضاه نسخ وبقي سنة يقرأ ويروى ؛ كما آية عدة السنة في القرآن تتلى ؛ فتأمل هذا فإنه نفيس ، ويكون من باب نسخ الحكم دون التلاوة ؛ ومثله صدقة النجوى . وقد تنسخ التلاوة دون الحكم كآية الرجم . وقد تنسخ التلاوة والحكم معاً ؛ ومنه قول الصديق رضي الله عنه : كنا نقرأ (لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر) ومثله كثير .

والذي عليه الحذاق أن من لم يبلغه الناسخ فهو متعبد بالحكم الأول ؛ كما يأتي بيانه في تحويل القبلة .

والحذاق على جواز نسخ الحكم قبل فعله ، وهو موجود في قصة الذبيح ، وفي فرض خمسين صلاة قبل فعلها بخمس^(٢) .

قال ابن جرير : «فتأويل الآية إذا : ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيري ، أحكم فيهما وفيما فيهما ما أشاء ، وأمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء ، وأنهى عما أشاء ، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء ، وأقر منهما ما أشاء ؟

وهذا الخبر وإن كان من الله ﷻ خطاباً لنبيه محمد ﷺ على وجه الخبر عن عظمته ، فإنه منه - جل ثناؤه - تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة ، وجحدوا نبوة عيسى ، وأنكروا محمداً ﷺ ، لمجيئهما بما جاء به من عند الله بتغيير

(١) الممتحنة : الآية (١٠) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٤٥-٤٦) .

ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، فإن الخلق أهل مملكته وطاعته، عليهم السمع له والطاعة لأمره ونهييه، وأن له أمرهم بما شاء، ونهيهم عما شاء، ونسخ ما شاء، وإقرار ما شاء، وإنشاء ما شاء من أحكامه وأمره ونهييه. ثم قال لنبيه ﷺ وللمؤمنين معه: انقادوا لأمرى، وانتهوا إلى طاعتي فيما أنسخ، وفيما أترك فلا أنسخ، من أحكامى وحدودى وفرائضى، ولا يهولنكم خلاف مخالف لكم فى أمرى ونهىى وناسخى ومنسوخى، فإنه لا قيم بأمركم سوى، ولا ناصر لكم غيرى، وأنا المنفرد بولايتكم، والدفاع عنكم، والمتوحد بنصرتكم بعزى وسلطانى وقوتى على من ناوأكم وحادكم، ونصب حرب العداوة بينه وبينكم، حتى أعلى حجتكم، وأجعلها عليهم لكم»^(١).

وقال ابن كثير: «يرشد عباده تعالى بهذا، إلى أنه المتصرف فى خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقى من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفى من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم فى عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء، وهو الذى يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾»^(٢)، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فى أمر بالشىء لما فيه من المصلحة التى يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى، فالطاعة كل الطاعة فى امتثال أمره واتباع رسله فى تصديق ما أخبروا، وامتنال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا، وفى هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم -لعنهم الله- فى دعوى استحالة النسخ، إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفرًا، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكًا»^(٣).

وقال: «وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا يصرف الدلالة فى المعنى، إذ هو المقصود، وكما فى كتبهم مشهورا من البشارة بمحمد ﷺ والأمر باتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعتة -عليه الصلاة والسلام-، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته، وسواء قيل إن الشرائع المتقدمة مغياة إلى بعثته ﷺ، فلا يسمى

(١) جامع البيان ٤٨٨/٢-٤٨٩ تحقيق شاكراً.

(٢) الأنبياء: الآية (٢٣).

(٣) تفسير ابن كثير ٢٦٤/١.

ذلك نسخا لقوله: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾^(١)، وقيل: إنها مطلقة، وإن شريعة محمد ﷺ نسختها، فعلى كل تقدير، فوجوب متابعتها متعين؛ لأنه جاء بكتاب، هو آخر الكتب عهدًا بالله -تبارك وتعالى-، ففي هذا المقام بين تعالى جواز النسخ، ردًا على اليهود عليهم لعنة الله، حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) الآية؛ فكما أن له الملك بلا منازع، فكذلك له الحكم بما يشاء، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾^(٤) (١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجود النسخ في كتاب الله

* عن ابن عباس قال: (قال عمر رضي الله عنه: أقرؤنا أبي، وأقضانا علي، وإنا لندع من قول أبي وذلك أن أبا يقول لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ وقد قال الله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾^(٥)).

★ فوائد الحديث:

قوله: (سمعته من رسول الله ﷺ)

«في رواية صدقة: (أخذته من في رسول الله ﷺ ولا أتركه لشيء) لأنه بسماعه من رسول الله ﷺ يحصل له العلم القطعي به، فإذا أخبره غيره عنه بخلافه لم ينتهض معارضاً له حتى يتصل إلى درجة العلم القطعي، وقد لا يحصل ذلك غالباً»^(٦).

قوله: (وقد قال الله تعالى إلخ):

«وهو مقول عمر محتجاً به على أبي بن كعب ومشيراً إلى أنه ربما قرأ ما نسخت تلاوته لكونه لم يبلغه النسخ، واحتج عمر لجواز وقوع ذلك بهذه الآية. وقد أخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: (خطبنا عمر فقال: إن الله يقول: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ أي: نؤخرها»^(٧).

ثم قال: «واستدل بالآية المذكورة على وقوع النسخ خلافاً لمن شذ فمنعه، وتعقب بأنها قضية شرطية لا تستلزم الوقوع، وأجيب بأن السياق وسبب النزول كان

(١) البقرة: الآية (١٨٧).

(٢) البقرة: الآيتان (١٠٦ و١٠٧).

(٣) الأعراف: الآية (٥٤).

(٤) تفسير ابن كثير (١/٢٦٥).

(٥) أخرجه أحمد (٥/١١٣) والبخاري (٨/٢١١/٤٤٨١) والنسائي في الكبرى (٦/٢٨٩/١٠٩٩٥).

(٦) الفتح (٨/٢١٢).

(٧) الفتح (٨/٢١٢).

في ذلك لأنها نزلت جواباً لمن أنكر ذلك»^(١).

* عن أبي يونس مولى عائشة؛ أنه قال: (أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً، وقالت: إذا بلغت هذه الآية فأذني: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾^(٢) فلما بلغت أذنتها. فأملت علي: (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين). قالت عائشة: سمعتها من رسول الله ﷺ^(٣).

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «وفيه ما يدل على مذهب من قال: إن القرآن نسخ منه ما ليس في مصحفنا اليوم، ومن قال بهذا القول يقول: إن النسخ على ثلاثة أوجه في القرآن، أحدهما ما نسخ خطه وحكمه وحفظه، فنسي -يعني رفع خطه من المصحف، وليس حفظه على وجه التلاوة، ولا يقطع بصحته على الله، ولا يحكم به اليوم أحد، وذلك نحو ما روي أنه كان يقرأ: (لا ترغبوا عن آبائكم، فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم)^(٤)».

ومنها قوله: (لو أن لابن آدم وادياً من ذهب، لا بتغى إليه ثانياً، ولو أن له ثانياً، لا بتغى إليه ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)^(٥). قيل: إن هذا كان في سورة (ص). ومنها: بلغوا قومنا أنا قد لقينا ربنا، فرضي عنا ورضينا عنه. وهذا من حديث مالك عن إسحاق، عن أنس، أنه قال: أنزل الله في الذين قتلوا ببئر معونة قرآناً قرأناه، ثم نسخ بعد: بلغوا قومنا، وذكره^(٦).

ومنها قول عائشة: كان فيما أنزل الله من القرآن عشر رضعات، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ^(٧) - إلى أشياء في مصحف أبي، وعبد الله، وحفصة، وغيرهم، مما يطول ذكره.

(١) الفتح (٢١٢/٨). (٢) البقرة: الآية (٢٣٨).

(٣) رواه أحمد (٧٣/٦) ومسلم (٤٣٧/١-٤٣٨/٦٢٩) وأبو داود (٢٨٧/١-٤١٠) والترمذي (٢٠١/٥-٢٠٢/٢٩٨٢) والنسائي (٢٥٥/١-٤٧١).

(٤) أخرجه البخاري (١٢/١٧٥-٦٨٣٠) عن ابن عباس عن عمر في خطبته الطويلة.

(٥) أخرجه من حديث ابن عباس من قول النبي ﷺ: البخاري (١١/٣٠٤-٦٤٣٦-٦٤٣٧) وقال ابن عباس في آخره: «فلا أدري من القرآن هو أم لا؟». (٦) أخرجه مسلم (١/٤٦٨-٦٧٧).

(٧) أخرجه مسلم (٢/١٠٧٥-١٤٥٢) وأبو داود (٢/٥٥١-٢٠٦٢) والنسائي (٦/٤٠٩-٣٣٠٧) وابن ماجه (١/١٩٤٢-٦٢٥).

ومن هذا الباب، قول من قال: إن سورة الأحزاب، كانت نحو سورة البقرة أو الأعراف...

عن زر بن حبیش، قال: قال لي أبي بن كعب: كائن تقرأ سورة الأحزاب، أو كائن تعدها؟ قلت ثلاثاً وسبعين آية، قال: قط، لقد رأيتها وإنها لتعادل البقرة، ولقد كان فيما قرأنا فيها: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، نكالا من الله، والله عزيز حكيم^(١)...

عن عمرو بن دينار قال: كانت سورة الأحزاب تقارن سورة البقرة... عن مجاهد، قال: كانت الأحزاب مثل سورة البقرة أو أطول، ولقد ذهب يوم مسيلمة قرآن كثير، ولم يذهب منه حلال ولا حرام...

عن عميرة بن فروة، أن عمر بن الخطاب قال لأبي - وهو إلى جنبه: «أليس كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: إن انتفاءكم من آبائكم كفر بكم؟ فقال: بلى، ثم قال: أوليس كنا نقرأ: الولد للفراش، وللعاهر الحجر^(٢) فيما فقدنا من كتاب الله؟ فقال أبي: بلى».

والوجه الثاني: أن ينسخ خطه ويبقى حكمه، وذلك نحو قول عمر بن الخطاب: لولا أن يقول قوم زاد عمر في كتاب الله، لكتبتها بيدي: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، بما قضيا من اللذة، نكالا من الله، والله عزيز حكيم. فقد قرأناها على عهد رسول الله ﷺ، فهذا مما نسخ ورفع خطه من المصحف، وحكمه باقٍ في الثيب من الزنا إلى يوم القيامة - إن شاء الله - عند أهل السنة.

ومن هذا الباب قوله في هذا الحديث: (وصلاة العصر) في مذهب من نفى أن تكون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر.

ولقد تأول قوم في قول عمر: قرأناها على عهد رسول الله ﷺ؛ أي: تلونها، والحكمة تتلى، بدليل قول الله ﷻ: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلُو فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد (١٣٢/٥) والنسائي في الكبرى (٧١٥٠/٢٧١/٤)، وقال ابن كثير في التفسير (٣/٤٤٨): «هذا إسناد حسن».

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة من قول النبي ﷺ لا على أنه آية من القرآن: البخاري (٦٨١٨/١٥٣/١٢) ومسلم (١٤٥٨/١٠٨١/٢).

وَالْحَكْمَةُ^(١). وبين أهل العلم في هذا تنازع يطول ذكره.

والوجه الثالث: أن ينسخ حكمه ويبقى خطه يتلى في المصحف، وهذا كثير، نحو قوله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ^(٢)﴾ نسختها: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا^(٣)﴾ الآية. وهذا من الناسخ والمنسوخ المجتمع عليه^(٤).

* عن أنس رضي الله عنه قال: (بعث النبي ﷺ أقوامًا من بني سليم إلى بني عامر في سبعين، فلما قدموا قال لهم خالي: أتقدمكم فإن أمنوني حتى أبلغهم عن رسول الله ﷺ وإلا كنتم مني قريبًا، فتقدم فأمنوه، فبينما يحدثهم عن النبي ﷺ إذ أومؤوا إلى رجل منهم فطعنوه فأنفذه، فقال: الله أكبر، فزُت ورب الكعبة، ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوه إلا رجلًا أخرج صعد الجبل، قال همام: وأراه آخر معه، فأخبر جبريل عليه السلام النبي ﷺ أنهم قد لقوا ربهم فرضي عنهم وأرضاهم، فكنا نقرأ أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا، ثم نسخ بعد، فدعا عليهم أربعين صباحًا على رعل وذكوان وبني لحيان وبني عصية الذين عصوا الله ورسوله ﷺ^(٥)).

* عن أبي الأسود قال: (بعث أبو موسى الأشعري إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرأوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراءهم، فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد فتفسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم، وإنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير أنني قد حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى واديًا ثالثًا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيتها غير أنني حفظت منها: يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة^(٦)).

(١) الأحزاب: الآية (٣٤).

(٢) البقرة: الآية (٢٤٠).

(٣) البقرة: الآية (٢٣٤).

(٤) فتح البر (١/٢٢٨-٢٣١).

(٥) أخرجه أحمد (٣/١٠٩-٢٥٥) والبخاري (٦/٢٣/٢٨٠١) ومسلم (١/٤٦٨/٦٧٧).

(٦) أخرجه مسلم (٢/٧٢٦/١٠٥٠).

★ فوائد الحديث:

قال القاضي: «ونسخ ما نسخ من ذلك هو مما نسخ لفظه. والنسخ في القرآن على ثلاثة وجوه: نسخ حكم بقي لفظه، وهو أكثر المنسوخ، ونسخ حكم ولفظ، كما حكى من شأن خمس رضعات، ونسخ لفظ وبقاء حكم، كما يذكر من آية الرجم، فأنسى الله تعالى من ذلك ما شاء لحكمة أرادها. وتوفى النبي ﷺ وقد كمل النسخ وحفظ جميع القرآن، ثم تأمل ما يذكره الصحابة مما نسخ من ذلك، فإنما أتوا به على المعنى وبعض اللفظ، لا على نص المعجز. وسياق نظم القرآن يشهد لذلك ما ذكره من ذلك المعنى وبعده عن نظم القرآن وبلاغته»^(١).

* عن عبدالله بن عتبة؛ أنه سمع عبدالله بن عباس يقول: قال عمر بن الخطاب وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ: (إن الله قد بعث محمدًا ﷺ بالحق. وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها ووعيناهما وعقلناها، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله. فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله. وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف)^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «وهذه الآية مما نص العلماء أنه مما نسخ لفظه وبقي معناه، وحكمه ثابت وله نظائر، لكن لا يصح أن يثبت قرآنًا في المصحف ولا يتلى، إذ لم يكتب في المصحف لفظه، بل هذا ومثله مما أنسى الله المسلمين حفظه، حكمة منه وآية لعباده. ألا ترى أنه لو كان باقياً لفظه لم يجد المبتدع إلى التكذيب بحكمه سبيلاً، ألا ترى ما ذكر عمر رضي الله عنه منها إنما هو - والله أعلم - إخبار على معنى ما كان حفظ من القرآن إذ هذا اللفظ والنظم يبعد عن بلاغة القرآن

(١) إكمال المعلم (٣/ ٥٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٠) والبخاري (١٢/ ١٦٥/ ٦٨٢٩) مختصراً، ومسلم (٣/ ١٣١٧/ ١٦٩١) وأبو داود (٤/

٥٧٢/ ٤٤١٨) والترمذي (٤/ ٣٠/ ١٤٣٢) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٧٣-٢٧٤/

٧١٥٧) وابن ماجه (٢/ ٨٥٣/ ٢٥٥٣) مختصراً.

ونظمه . وفي قول عمر رضي الله عنه هذا ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الحيطة على أمر القرآن قبل جمع المصاحف وبعدها ، من أنه لا يزداد فيه شيء ، ولا ينقص منه شيء ، ولا يكتب معه شيء ، وامثالهم بذلك ، واثمارهم مخالفة ذلك ^(١) «(٢)» .

قلت : النسخ لا شك في ثبوته ، والأدلة قائمة على وقوعه ، والناس فيه صنفان : مفرطون ومفرطون ؛ فالمفرطون هم الذين اعتمدوا في نسخهم إما على أحاديث ونصوص لا تصح ، وإما على فهم سقيم - كما وقع لكثير من المفسرين في آية السيف حيث جعلوها ناسخة لكل آية فيها الأمر بالعفو والصفح - وألفت في ذلك الكتب وجمعت آيات ادعي فيها النسخ ما لها من أصل ، والصنف الثاني وهم المفرطون الذين ينكرون النسخ ، فلا شك أن هذا أصل يهودي ، والأولى الوسطية في ذلك ، فما صح دليله في النسخ نسخ ، وما لم يصح في ذلك دليل توقف المسلم في ذلك .

وليعلم أن النسخ لا يكون إلا في الأحكام ، أما العقائد والأخبار فلا نسخ فيها ، فلا يدخل النسخ صفات الرب تعالى وأسماءه وأفعاله ، ولا يدخل النسخ أخبار الساعة والجنة والنار والعرش وغيرها من الأخبار .

والنسخ رحمة من الله ، يخفف على عباده ما يشاء ويكمل عبوديته لمن يشاء .

* * *

(١) هكذا في الأصل !! ولعل الصواب : واثمارهم بعدم مخالفة ذلك .

(٢) إكمال المعلم (٥/٥٠٨) .

قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿١٨٨﴾

★ غريب الآية:

يتبدل: التبديل جعل شيء مكان آخر.

ضل: الضلال خلاف الهداية، والمعنى هنا: ذهب وحاد، وأصل الضلال عن الشيء الذهاب عنه والحيد، ثم يستعمل في الشيء الهالك، والشيء الذي لا يأبه له، كقولهم للرجل الخامل الذي لا ذكر له ولا نباهة ضل ابن ضل. قال الأخطل: كنت القذى في موج أكر مزبد قذف الأتي به فضل ضللا أي: هلك فذهب.

سواء: السواء من كل شيء وَسَطُهُ. وقيل: السواء القصد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والافتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى ﷺ تعنتاً وتكديباً وعناداً. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾، أي ومن يشتر الكفر بالإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال، وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء، واتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم، والافتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ أَلْفَارًا﴾ ﴿٢٩﴾».

وقال ابن جرير: «فتأويل الكلام: أتريدون أيها القوم أن تسألوا رسولكم من الأشياء نظير ما سأل قوم موسى من قبلكم، فتكفروا إن منعموه في مسألتكم ما

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٧).

(١) إبراهيم: الآيتان (٢٨ و ٢٩).

لا يجوز في حكمة الله إعطاؤكموه، أو أن تهلكوا إن كان مما يجوز في حكمته عطاؤكموه، فأعطاكموه، ثم كفرتم من بعد ذلك، كما هلك من كان قبلكم من الأمم التي سألت أنبياءها ما لم يكن لها مسألتها إياهم، فلما أعطيت كفرت، فعوجلت بالعقوبات لكفرها، بعد إعطاء الله إياها سؤالها^(١).

وقال: «فتأويل الكلام إذا: ومن يستبدل بالإيمان بالله وبرسوله الكفر، فيرتد عن دينه، فقد حاد عن منهج الطريق ووسطه الواضح المسبول.

وهذا القول ظاهره الخبر عن زوال المستبدل بالإيمان الكفر عن الطريق، والمعني به الخبر عنه أنه ترك دين الله الذي ارتضاه لعباده، وجعله لهم طريقاً يسلكونه إلى رضاه، وسبيلاً يركبونها إلى محبته والفوز بجناته. فجعل -جل ثناؤه- الطريق -الذي إذا ركب محجته السائر فيه، ولزم وسطه المجتاز فيه، نجا وبلغ حاجته، وأدرك طلبته- لدينه الذي دعا إليه عباده، مثلاً، لإدراكهم بلزومه واتباعه، طلباتهم في آخرتهم، كالذي يدرك اللازم محجة السبيل بلزومه إياها، طلبته من النجاة منها، والوصول إلى الموضع الذي أمه وقصده. وجعل مثل الحائد عن دينه، الجائر عن اتباع ما دعاه إليه من عبادته في إخطائه ما رجا أن يدركه بعمله في آخرته وينال به في معاده، وذهابه عما أمل من ثواب عمله، وبعده به من ربه مثل الحائد عن منهج الطريق وقصد السبيل، الذي لا يزداد وغولاً في الوجه الذي سلكه، إلا ازداد من موضع حاجته بعداً، وعن المكان الذي أمه وأرادته نائياً.

وهذه السبيل التي أخبر الله عنها، أن من يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواءها، هي (الصراط المستقيم)، الذي أمرنا بمسألته الهداية له بقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٢﴾ (٣).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾^(٤) لم يبين هنا هذا الذي سأل موسى من قبل ما هو؟ ولكنه بينه في موضع آخر. وذلك في قوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا

(٢) الفاتحة: الآيتان (٦ و ٧).

(١) جامع البيان (٢/ ٤٩٤ تحقيق شاكر).

(٤) البقرة: الآية (١٠٨).

(٣) جامع البيان (٢/ ٤٩٧-٤٩٨ تحقيق شاكر).

مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴿١﴾ (الآية) (٢).

وقال السعدي: «ينهى الله المؤمنين، أو اليهود، بأن يسألوا رسولهم ﴿كَمَا سَئَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾. والمراد بذلك، أسئلة التعنت والاعتراض، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ (٤).

فهذه ونحوها، هي المنهى عنها. وأما سؤال الاسترشاد والتعليم، فهذا محمود قد أمر الله به قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٥)، ويقرهم عليه؛ كما في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ (٦) و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ (٧) ونحو ذلك. ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة، قد تصل بصاحبها إلى الكفر قال: ﴿وَمَنْ يَتَّبِدْ لِّلْكَفْرِ ءِلَآئِينَ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾ (٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

من النهي عن السؤال فيما لا يعنيه في أمر ديني أو دنيوي

* عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال: «إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسأله» (٩).

* فوائد الحديث:

قال بغوي: «المسألة وجهان:

أحدهما: ما كان على وجه التبين والتعلم فيما يحتاج إليه من أمر الدين، فهو جائز مأمور به، قال الله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٠) وقال الله تعالى: ﴿فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (١١) وقد سألت الصحابة

(١) النساء: الآية (١٥٣).

(٣) النساء: الآية (١٥٣).

(٥) النحل: الآية (٤٣).

(٧) البقرة: الآية (٢٢٠).

(٩) أخرجه أحمد (١٧٩/١) والبخاري (٧٢٨٩/٣٢٨) ومسلم (٢٣٥٨/١٨٣١) وأبو داود (٤٦١٠/١٧-١٦).

(١١) يونس: الآية (٩٤).

(١٠) النحل: الآية (٤٣).

(٢) أضواء البيان (٨٣/١).

(٤) المائدة: الآية (١٠١).

(٦) البقرة: الآية (٢١٩).

(٨) تفسير السعدي (١٢٣/١).

رسول الله ﷺ مسائل، فأنزل الله ﷻ بيانها في كتابه، كما قال الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَلْهَةِ﴾^(١) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾^(٢) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾^(٣).

والوجه الآخر: ما كان على وجه التكلف، فهو مكروه، فسكوت صاحب الشرع عن الجواب في مثل هذا زجر وردع للسائل، فإذا وقع الجواب، كان عقوبة وتغليظا.

والمراد من الحديث هذا النوع من السؤال، وقد شدد بنو إسرائيل على أنفسهم بالسؤال عن وصف البقرة مع وقوع الغنية عنه بالبيان المتقدم، فشدد الله عليهم^(٤).

قال النووي: «مقصود أحاديث الباب أنه ﷺ نهاهم عن إكثار السؤال والابتداء بالسؤال عما لا يقع، وكره ذلك لمعان منها أنه ربما كان سبباً لتحريم شيء على المسلمين فيلحقهم به المشقة، وقد بين هذا بقوله ﷻ في الحديث الأول: «أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته» ومنها أنه ربما كان في الجواب ما يكرهه السائل ويسوؤه ولهذا أنزل الله تعالى في ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾^(٥) كما صرح به في الحديث في سبب نزولها ومنها أنهم ربما أحفوه ﷻ بالمسألة وألحقوه المشقة والأذى فيكون ذلك سبباً لهلاكهم، وقد صرح بهذا في حديث أنس المذكور في الكتاب في قوله: سألوا نبي الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة إلى آخره. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٦) ^(٧).

قوله: (أعظم المسلمين جرماً)

قال الطيبي: «إنما كان أعظم لأن سرية هذا الضرر عمت المسلمين إلى انقراض العالم. وبيان ذلك أن القتل وإن كان أكبر الكبائر بعد الشرك فإنه يتعدى إلى القاتل، أو إلى عاقلته، أو إلى قبيلته، ولكن جرم من حرم ما سئل عنه لأجل

(١) البقرة: الآية (١٨٩).

(٢) البقرة: الآية (٢٢٢).

(٣) الأنفال: الآية (١).

(٤) شرح السنة (١/٣١٠-٣١١).

(٥) المائدة: الآية (١٠١).

(٦) الأحزاب: الآية (٥٧).

(٧) شرح مسلم (١٥/٨٩-٩٠).

مسألته، فإنه تعدى في سائر المسلمين، فلا يمكن أن يوجد جرم ينتهي في معنى العموم إلى هذا الحد^(١).

* عن المغيرة بن شعبة قال: قال النبي ﷺ: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»^(٢).

★ غريب الحديث:

وأد البنات: أي: دفنهن وهن حيات.

منع: أي: منع ما عليكم إعطاؤه.

هات: فعل أمر من الإيتاء، وهي هنا طلب ما ليس لكم.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «والنهي عن كثرة السؤال يتناول الإلحاف في الطلب والسؤال عما لا يعني السائل، وقيل: المراد بالنهي المسائل التي نزل فيها ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ فَسْأَلُكُمْ﴾^(٣) وقيل: يتناول الإكثار من تفريع المسائل، ونقل عن مالك أنه قال: والله إنني لأخشى أن يكون هذا الذي أنتم فيه من تفريع المسائل، ومن ثم كره جماعة من السلف السؤال عما لم يقع لما يتضمن من التكلف في الدين والتنطع والرجم بالظن من غير ضرورة»^(٤).

* عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم»، ثم قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على

(١) شرح المشكاة (٢/٦٢١).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٢٤٦) والبخاري (٥/٨٦/٢٤٠٨) ومسلم (٣/١٣٤١/٥٩٣) والنسائي في الكبرى (١٠/١١٧٨٤/٣٨٢).

(٣) المائدة: الآية (١٠١).

(٤) الفتح (١١/٣٧١).

أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «والمراد بهذا الأمر ترك السؤال عن شيء لم يقع خشية أن ينزل به وجوبه أو تحريمه، وعن كثرة السؤال لما فيه غالباً من التعنت وخشية أن تقع الإجابة بأمر يستثقل، فقد يؤدي لترك الامتثال فتقع المخالفة»^(٢).

قال ابن رجب: «قد كان أصحاب النبي ﷺ أحياناً يسألونه عن حكم حوادث قبل وقوعها، لكن للعمل بها عند وقوعها، كما قالوا له: إنا لاقو العدو غداً، وليس معنا مدى أفندبج بالقصب؟»^(٣) وسألوه عن الأمراء الذين أخبر عنهم بعده وعن طاعتهم وقتالهم^(٤)، وسأله حذيفة عن الفتن وما يصنع فيها^(٥)»^(٦).

وقال الحافظ في جملة ما ذمّه السلف من المسائل: «ومثله الإكثار من التفريع على مسألة لا أصل لها في الكتاب ولا السنة ولا الإجماع وهي نادرة الوقوع جداً، فيصرف فيها زماناً كان صرفه في غيرها أولى ولا سيما إن لزم من ذلك إغفال التوسع في بيان ما يكثر وقوعه، وأشد من ذلك - في كثرة السؤال - البحث عن أمور مغيبة ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيتها، ومنها ما لا يكون له شاهد في عالم الحس، كالسؤال عن وقت الساعة وعن الروح وعن مدة هذه الأمة، إلى أمثال ذلك مما لا يعرف إلا بالنقل الصرف، والكثير منه لم يثبت فيه شيء فيجب الإيمان به من

(١) أخرجه أحمد (٥٠٨/٢) ومسلم (١٣٣٧/٩٧٥/٢) والنسائي (١١٦/٥-١١٧/١١٨/٢٦١٨). وأخرجه البخاري (١٣/٣١٢/٧٢٨٨) وابن ماجه (٢/٣/١) دون ذكر الحج.

(٢) الفتح (١٣/٣٢٤).

(٣) أخرجه أحمد (٤٦٣/٣-٤٦٤) والبخاري (١٦٥/٥-٢٤٨٨) ومسلم (٣/١٥٥٨/١٩٦٨) والترمذي (٤/٦٩/١٣٢٤) تحت حديث (١٤٩١) والنسائي (٧/٢٥٩/٤٤١٥) وابن ماجه (٢/١٠٦١/٣١٧٨) من طريق سعيد بن مسروق عن عباة عن جده رافع بن خديج ؓ.

(٤) يشير إلى حديث أم سلمة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ستكون أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع» قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا ماصلو».

رواه أحمد (٦/٢٩٥) ومسلم (٣/١٤٨٠/١٨٥٤) وأبو داود (٥/١١٩/٤٧٦٠) والترمذي (٤/٤٥٨/٢٢٦٥) عن ضبة بن محصن عنها ؓ.

(٥) أخرجه البخاري (١٣/٤٣-٤٤/٧٠٨٤) ومسلم (٣/١٤٧٥/١٨٤٧) وابن ماجه (٢/١٣١٧/٣٩٧٩) كلهم من رواية أبي إدريس الخولاني عن حذيفة ؓ.

(٦) جامع العلوم والحكم (١/٢٤٣).

غير بحث، وأشد من ذلك ما يوقع كثرة البحث عنه في الشك والحيرة»^(١).

وقال: «وإذا تقرر ذلك فمن يسد باب المسائل حتى فاته معرفة كثير من الأحكام التي يكثر وقوعها فإنه يقل فهمه وعلمه، ومن توسع في تفريع المسائل وتوليدها ولاسيما فيما يقل وقوعه أو يندر، ولاسيما إن كان الحامل على ذلك المباحة والمغالبة، فإنه يذم فعله وهو عين الذي كرهه السلف، ومن أمعن في البحث عن معاني كتاب الله، محافظاً على ما جاء في تفسيره عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه الذين شاهدوا التنزيل وحصل من الأحكام ما يستفاد من منطوقه ومفهومه، وعن معاني السنة وما دلت عليه كذلك مقتصرًا على ما يصلح للحجة منها فإنه الذي يحمد وينتفع به، وعلى ذلك يحمل عمل فقهاء الأمصار من التابعين فمن بعدهم حتى حدثت الطائفة الثانية فعارضتها الطائفة الأولى، فكثر بينهم المراء والجدال وتولدت البغضاء وتسموا خصومًا وهم من أهل دين واحد، والواسط هو المعتدل من كل شيء، وإلى ذلك يشير قوله ﷺ في الحديث الماضي: «إنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»، فإن الاختلاف يجر إلى عدم الانقياد، وهذا كله من حيث تقسيم المشتغلين بالعلم، وأما العمل بما ورد في الكتاب والسنة والتشاغل به فقد وقع الكلام في أيهما أولى، والإنصاف أن يقال كلما زاد على ما هو في حق المكلف فرض عين فالناس فيه على قسمين: من وجد في نفسه قوة على الفهم والتحرير فتشاغله بذلك أولى من إعراضه عنه وتشاغله بالعبادة لما فيه من النفع المتعدي، ومن وجد في نفسه قصورا فإقباله على العبادة أولى لعسر اجتماع الأمرين، فإن الأول لو ترك العلم لأوشك أن يضيع بعض الأحكام بإعراضه، والثاني لو أقبل على العلم وترك العبادة فاته الأمران لعدم حصول الأول له وإعراضه به عن الثاني والله الموفق»^(٢).

وقال: «وفي الحديث إشارة إلى الاشتغال بالأهم المحتاج إليه عاجلاً عما لا يحتاج إليه في الحال فكأنه قال: عليكم بفعل الأوامر واجتناب النواهي فاجعلوا اشتغالكم بها عوضاً عن الاشتغال بالسؤال عما لم يقع. فينبغي للمسلم أن يبحث عما جاء عن الله ورسوله ثم يجتهد في تفهم ذلك والوقوف على المراد به، ثم

(١) الفتح (١٣/ ٣٣١).

(٢) الفتح (١٣/ ٣٣٢).

يتشاغل بالعمل به، فإن كان من العمليات يتشاغل بتصديقه واعتقاد أحقيته، وإن كان من العمليات بذل وسعه في القيام به فعلاً وتركاً، فإن وجد وقتاً زائداً على ذلك فلا بأس بأن يصرفه في الاشتغال بتعرف حكم ما سيقع على قصد العمل به أن لو وقع، فأما إن كانت الهمة مصروفة عند سماع الأمر والنهي إلى فرض أمور قد تقع وقد لا تقع مع الإعراض عن القيام بمقتضى ما سمع فإن هذا مما يدخل في النهي، فالتفقه في الدين إنما يحمد إذا كان للعمل لا للمراء والجدال»^(١).

قلت: فله دره من إمام، ما أجمل هذا الكلام، وما أحسنه؛ فإنه ملخص للمنهاج السلفي الصحيح. فالمنهاج السلفي هو تتبع ما صح عن الله وعن رسوله ﷺ فيما يتعلق بأمور الاعتقاد، واعتقاد ذلك بدون زيادة أو نقصان، وهكذا في العبادات وفي المعاملات، فيتبع ما صح عن الله وعن رسوله فيعمل به، ويجتنب ما نهى عنه، ويا ليت المسلمين يفعلون ذلك فتستغل أعمارهم ويستفاد من حياتهم.

وأما تضييع الوقت في إحداث البدع أو تتبعها أو الدفاع عنها بالجدال الباطل سواء كانت في الاعتقاد أو في العبادات أو في غير ذلك؛ فإن ذلك مضيعة للوقت والدين، ومآل صاحبه إن لم يتب جهنم وبئس المصير، فلا فلاح في الدنيا ولا نجاة في الآخرة، فنسأل الله أن يوفقنا للوقوف مع أوامره وأوامر رسوله واجتناب نواهيه، وأن لا نتقدم بين يدي الله ورسوله ببدعة أو بأمر أو بنهي أو باستحسان أو بقياس أو برأي فلان أو بدعة فلان، أو بالبدعة الحسنة أو بالبدعة القبيحة فكل ذلك ضلال. وهذا الحديث من أمهات القواعد الأصولية في دين الله، فمن فهمه وعمل بمقتضاه فقد أفلح وفاز، ومن خالفه فسيصيبه ما أصاب من قبله، كذبوا أنبياءهم وضربوا أقوالهم وأفعالهم بعضها ببعض، وتعتوا في أسئلتهم ودخلوا في أغاليط، واستقوا من أصول خارجة عن هدي أنبيائهم ورسولهم.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٤٩﴾

★ غريب الآية:

فاعفوا: العفو: الصفح والتجاوز عن الذنب، وهو ترك المؤاخذه عليه. قال الشاعر:

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ
اصفحوا: الصفح إزالة أثر الذنب من النفس، صفحت عن فلان: إذا أعرضت عن ذنبه، وقد ضربت عنه صفحا إذا أعرضت عنه وتركته، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَنْضَبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾^(١).

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «وقد صرح هذا القول من قول الله -جل ثناؤه-، بأن خطابه بجميع هذه الآيات من قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا﴾^(٢) وإن صرف في نفسه الكلام إلى خطاب النبي ﷺ إنما هو خطاب منه للمؤمنين من أصحابه. وعتاب منه لهم، ونهي عن انتصاح اليهود ونظرائهم من أهل الشرك وقبول آرائهم في شيء من أمور دينهم ودليل على أنهم كانوا استعملوا أو من استعمل منهم في خطابه ومساءلته رسول الله ﷺ الجفاء، وما لم يكن له استعماله معه، تأسيساً باليهود في ذلك أو ببعضهم. فقال لهم ربهم ناهياً لهم عن استعمال ذلك: لا تقولوا لنبികم ﷺ كما تقول له اليهود: ﴿رَعَيْنَا﴾، تأسيساً منكم بهم، ولكن قولوا: ﴿أَنْظَرْنَا وَأَسْمَعُوا﴾، فإن أذى رسول الله ﷺ كفر بي، وجحود لحقي الواجب لي عليكم في

(٢) البقرة: الآية (١٠٤).

(١) الزخرف: الآية (٥).

تعظيمه وتوقيره، ولمن كفر بي عذاب أليم؛ فإن اليهود والمشركين ما يودون أن ينزل عليكم من خير من ربكم، ولكن كثيراً منهم ودوا أنهم يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً من عند أنفسهم لكم ولنبيكم محمد ﷺ، من بعد ما تبين لهم الحق في أمر محمد، وأنه نبي إليهم وإلى خلقي كافة»^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «بين الله تعالى في الآية الأولى من هاتين الآيتين أن أهل الكتاب المتعصبين لدينهم - من حيث هو جنسية لهم تقوم بها منافع جنسهم - لم يكتفوا بكفرهم بالنبي ﷺ والكيد له ونقض ما عاهدهم عليه حسداً له ولقومه على نعمة النبوة بل هم يزدون على ذلك ما قصه تعالى بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ فهو بيان لما يضمرونه وما تكنه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الإسلام التي عرفوا أنها الحق وأن وراءها السعادة في الدارين، ولكنهم شق عليهم أن يتبعوهم فتمنوا أن يحرموا هذه النعمة ويرجعوا كفاراً كما كانوا، وذلك شأن الحاسد يتمنى أن يسلب محسوده النعمة ولو لم تكن ضارة به فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة إذا تمت وثبتت يكون من أثرها سيادة المحسود عليه وإدخاله تحت سلطانه كما كان يتوقع علماء يهود في عصر التنزيل وقد جاء هذا التنبيه تنمة لقوله تعالى قبل آيات: ﴿مَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾^(٢) وقد بين الله لنا ما كان من محاولة أهل الكتاب وتحيلهم على تشكيك المسلمين في دينهم كقول بعضهم لبعض بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره لعل ضعفاء الإيمان يرجعون عن الإسلام اقتداء بهم كما سيأتي في سورة آل عمران، وفي هذه الآية وما بعدها إشارة إلى أن لذلك بعض الأثر في نفوس بعض المسلمين. وفائدة هذا التنبيه أو التنبهات: أن يعلم المسلمون أن ما يبدو من أهل الكتاب أحياناً من إلقاء الشبه على الإسلام وتشكيك المسلمين فيه إنما هو مكر السوء يبعث عليه الحسد لا النصيح الذي يبعث عليه الاعتقاد. وقال: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ ليبين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية أو غيرة على حق يعتقدونه، وإنما هو خبث

(٢) البقرة: الآية (١٠٥).

(١) جامع البيان (٢/ ٤٩٨-٤٩٩ تحقيق شاكراً).

النفوس وفساد الأخلاق والجمود على الباطل وإن ظهر لصاحبه الحق، ولذلك قفاه بقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي بالآيات التي جاء بها النبي -عليه الصلاة والسلام- وبانطباق ما يحفظون من بشارات كتبهم بنبي آخر الزمان عليه.

ثم أمر الله تعالى المؤمنين بأن يقابلوا هذا الحسد وما ينبعث عنه بما يليق بهم من محاسن الأخلاق فقال: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ ولم يقل فاعفوا واصفحوا عنهم لإرادة العموم؛ أي: عاملوا جميع الناس بالصفح والعفو فإن هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(١) «(٢)».

وقال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿فَاعْفُوا﴾، فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وخطأ في رأي أشاروا به عليكم في دينكم، إرادة صدكم عنه، ومحاولة ارتدادكم بعد إيمانكم -وعما سلف منهم من قيلهم لنبيكم ﷺ: ﴿وَأَسْمَعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْئًا يَأْسِنَنَّهُمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾^(٣)، واصفحوا عما كان منهم من جهل في ذلك حتى يأتي الله بأمره، فيحدث لكم من أمره فيكم ما يشاء، ويقضي فيهم ما يريد. ففضى فيهم -تعالى ذكره- وأتى بأمره، فقال لنبيه ﷺ وللمؤمنين به: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(٤). فنسخ الله -جل ثناؤه- العفو عنهم والصفح، بفرض قتالهم على المؤمنين، حتى تصير كلمتهم وكلمة المؤمنين واحدة، أو يؤدوا الجزية عن يد صغاراً»^(٥).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ هذه الآية في أهل الكتاب كما هو واضح من السياق، والأمر في قوله: ﴿بِأَمْرٍ﴾».

قال بعض العلماء: هو واحد الأمر. وقال بعضهم: هو واحد الأمور، فعلى القول الأول: بأنه الأمر الذي هو ضد النهي؛ فإن الأمر المذكور هو المصرح به في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

(١) الفرقان: الآية (٦٣).

(٢) تفسير المنار (١/ ٤٢٠-٤٢١).

(٣) النساء: الآية (٤٦).

(٥) جامع البيان (٢/ ٥٠٣ تحقيق شاكر).

(٤) التوبة: الآية (٢٩).

صَغُرُوا^(١). وعلى القول بأنه واحد الأمور: فهو ما صرح الله به في الآيات الدالة على ما أوقع باليهود من القتل والتشريد كقوله: ﴿فَأَنذَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَتَّوَلَّى الْآبَصْرُ ۖ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ﴾^(٢) الآية. إلى غير ذلك من الآيات، والآية غير منسوخة على التحقيق^(٣).

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «فيه مسائل:

الأولى: كون أناس ينتسبون إلى العلم والدين يجري منهم هذا عمداً جراءة على الله، وما أكثر من ينكر هذا.

الثانية: التنبيه على كثرة هذا الصنف.

الثالثة: كون المنتسب إلى العلم يقضي إضلال غيره إذا عجز عنه.

الرابعة: أن سبب هذا الأمر الغريب هو الحسد، لا خوف مضرّة ولا طلب مصلحة.

الخامسة: أن المنتسب إلى العقل والعلم، قد يسعى فيما يعلم أنه مصلحة لدنياه ليزيله، وفيما يعلم أنه مضرّة لدنياه ليأتي به، فإنهم يعلمون أن زوال المفساد وحصول المصالح في هذا الدين، وكانوا يستفتحون به قبل مجيئه على من ظلمهم، فلما جاءهم حملهم الحسد على ما ذكر.

السادسة: أن الحسد قد يكون سبباً للكفر كما وقع لهؤلاء ولإبليس.

السابعة: ذكر العفو الذي هو من أسباب العز وقهر الخصم، كما ورد في الحديث.

الثامنة: الرفق في الأمر، وفعله بالتدريج، كما فعل عمر بن عبد العزيز.

التاسعة: أنه سبحانه يمهّل ولا يهمل.

العاشرة: الإشعار بالنسخ قبل وقوعه.

الحادية عشرة: تسليّة المظلوم المحسود.

(٢) الحشر: الآيتان (٢) و(٣).

(١) التوبة: الآية (٢٩).

(٣) أضواء البيان (١/٨٣-٨٤).

الثانية عشرة: التنبيه على العلة.

الثالثة عشرة: أن الظالم الحاسد يذله الله كما جرى لهؤلاء إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه:

الرابعة عشرة: وهي الاستدلال بالصفات على الأفعال.

الخامسة عشرة: وهي الاستدلال بالقدرة على ما لا يظن وقوعه.

السادسة عشرة: وهي الاستدلال بها على جعل العفو سبباً لعز العافي وذلة المعفو عنه، عكس ما يظن الأكثر، وأما الاستدلال بها على ما كذب به الجاهل استبعاداً، مثل عذاب القبر وغيره، أو مثل الصراط والميزان وغيرهما، أو ما يجري في الدنيا من تبديل الأحوال من الغنى إلى الفقر وضده، ومن الذل إلى العز وضده، فأكثر من أن يحصر.

ولكن من أحسن ما فيها المسألة السابعة عشرة، وهي: تنبيه أعلم الناس على أشكال المسائل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في مدح العفو والصفح والصبر على الأذى

* عن عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد رضي الله عنه أخبره أن رسول الله ﷺ ركب على حمار على قطيفة فذكية وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عباد في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبدالله بن أبي ابن سلول - وذلك قبل أن يسلم عبدالله بن أبي - فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركون عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبدالله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبدالله بن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ عليهم ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبدالله بن أبي ابن سلول: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجلسنا، ارجع إلى رحلك فممن جاءك فاقصص عليه.

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٤٠-٤٢).

فقال عبدالله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسنا، فإننا نحب ذلك. فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتشاورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكنوا. ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ: «يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب - يريد عبدالله بن أبي - قال كذا وكذا». قال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ولقد اصطاح أهل هذه البحيرة على أن يتوجه فيعصبوه بالعصاة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شريق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت. فعفا عنه رسول الله ﷺ وكان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصطبرون على الأذى قال الله ﷻ: ﴿وَلَنَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾^(١) الآية. وقال الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ إلى آخر الآية وكان النبي ﷺ يتأول العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا فقتل الله به صناديد كفار قريش قال ابن أبي سلول ومن معه من المشركين وعبداء الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام، فأسلموا^(٢).

★ غريب الحديث:

قطيفة فدية: أي كساء غليظ منسوب إلى فذك بفتح الفاء والذال وهي بلد مشهور على مرحلتين من المدينة.

عجاجة الدابة: أي غبارها.

يتشاورون: أي يتواثبون؛ أي: قاربوا أن يثب بعضهم على بعض فيقتلوا.

البحيرة: بالتصغير، وهذا اللفظ يطلق على القرية وعلى البلد، والمراد به هنا المدينة النبوية.

(١) آل عمران: الآية (١٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٨/٢٩١-٢٩٢/٤٥٦٦). وأخرجه أحمد (٥/٢٠٣) ومسلم (٣/١٤٢٢-١٤٢٣/١٧٩٨) والنسائي في الكبرى (٤/٣٥٦-٣٥٧/٧٥٠٢) بأخصر منه. وأخرج الترمذي (٥/٨٥٠/٢٧٠٢) منه فقرة سلامه ﷺ على المجلس.

فيعصبوه بالعصاة : يرئسوه عليهم ويسودوه .
 شرق بذلك : أي غص به ، وهو كناية عن الحسد .
 صناديد : جمع صنديد ، وهو الكبير في قومه .

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير : «يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر ، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين ، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم ، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو أو الاحتمال ، حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح»^(١) .

* * *

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٨) .

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم، وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، حتى يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(١)، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، يعني أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل، ولا يضيع لديه سواء كان خيراً أو شراً، فإنه سيجازي كل عامل بعمله»^(٢).

وقال ابن جرير: «وهذا خبر من الله -جل ثناؤه- للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين، أنهم مهما فعلوا من خير وشر سراً وعلانية، فهو به بصير لا يخفى عليه منه شيء، فيجزئهم بالإحسان خيراً، وبالإساءة مثلاً».

وهذا الكلام، وإن كان خرج مخرج الخبر، فإن فيه وعداً ووعيداً وأمرًا وزجراً. وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم، ليجدوا في طاعته، إذ كان ذلك مذخوراً لهم عنده حتى يثيبهم عليه، كما قال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وليحذروا معصيته، إذ كان مطلعاً على راكبها، بعد تقدمه إليه فيها بالوعيد عليها، وما أوعده عليه ربنا -جل ثناؤه- فمنهي عنه، وما وعد عليه فمأمور به»^(٣).

وقال محمد رشيد رضا: «وبعد أن أمر بالصلاة والزكاة في سياق كشف شبهة من يشته من ضعفاء الإيمان في نصر الله المؤمنين، وجعل السلطان لهم على الكافرين، وبيان أن إقامة هذين الركنين من وسائل النصر والسلطان في الدنيا بين لهم أنها من أسباب السعادة في الآخرة فقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ولكن

(١) غافر: الآية (٥٢).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٢٦٩).

(٣) جامع البيان (٢/٥٠٦ تحقيق شاکر).

البيان جاء في صورة عامة وهذا من الأساليب التي لا تكاد تجد لها في غير القرآن نظيراً، ينتقل من بيان حكم إلى آخر فيكون الثاني قائماً بنفسه وشاملاً للأول بعمومه وتكون صلة العموم والخصوص هي الرابط في النظم. وقوله تعالى: ﴿تَجِدُوهُ﴾ هو كقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(١) وقالوا: إن المراد أنه يرى ويجد جزاءه، ولكن لما كان الجزاء مبنياً على أثر العمل في نفس العامل وارتقائها به كان الجزاء بمثابة العمل نفسه. ووصل الوعد بالجزاء على العمل بما يبعث المؤمن على الإحسان فيه ويدل على تحقيقه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يخفى عليه منه شيء فتخافوا أن ينقصكم من أجوركم شيئاً^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن ما قدم الإنسان من ماله فهو له

* عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر»^(٣).

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «هذا الحديث تنبيه للمؤمن على أن يقدم من ماله لآخرته، ولا يكون خازناً له وممسكه عن إنفاقه في طاعة الله، فيخيب من الانتفاع به في يوم الحاجة إليه، وربما أنفقه وارثه في طاعة الله فيفوز بثوابه.

فإن قيل: هذا الحديث يدل على أن إنفاق المال في وجوه البر أفضل من تركه لو ارثه، وهذا يعارض قوله ﷺ لسعد: «إنك إن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس»^(٤).

قيل: لا تعارض بينهما، وإنما حض النبي ﷺ سعداً على أن يترك ماله لورثته؛ لأن سعداً أراد أن يتصدق بماله كله في مرضه، وكان وارثه ابنته والابنة لا طاقة لها

(١) الزلزلة: الآية (٧).

(٢) تفسير المنار (١/٤٢٢-٤٢٣).

(٣) أخرجه أحمد (١/٣٨٢) والبخاري (١١/٣١٣/٦٤٤٢) والنسائي (٦/٥٤٧-٥٤٨/٣٦١٤).

(٤) أخرجه أحمد (١/١٦٨) والبخاري (٥/٤٥٦-٤٥٧/٢٧٤٢) ومسلم (٣/١٢٥٠-١٢٥١/١٦٢٨) وأبو داود

(٣/٢٨٤-٢٨٥/٢٨٦٤) والنسائي (٦/٥٥٣/٣٦٣٢) وابن ماجه (٢/٩٠٣-٩٠٤/٢٧٠٨) من حديث سعد

ابن أبي وقاص رضي الله عنه.

على الكسب، فأمره ﷺ بأن يتصدق منه بثلثه ويكون باقيه لابنته ولبيت مال المسلمين، وله أجر في كل من يصل إليه من ماله شيء بعد موته.

وحديث ابن مسعود إنما خاطب به ﷺ أصحابه في صحتهم ونبه به من شح على ماله، ولم تسمح نفسه بإنفاقه في وجوه البر أن ينفق منه في ذلك؛ لثلا يحصل وارثه عليه كاملاً موفراً، ويخيب هو من أجره، وليس فيه الأمر بصدقة المال كله فيكون معارضاً لحديث سعد، بل حديث عبدالله مجمل يفسره حديث سعد^(١).

* * *

(١) شرح البخاري (١٠/١٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾
تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٠﴾

★ غريب الآية:

أَمَانِيُّهُمْ: واحدها: أُمْنِيَّةٌ، وهي ما تشتهي النفس وتريده.
برهانكم: البرهان: الحجة، والدليل القاطع الموصول إلى اليقين.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «بين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى، أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة، أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ﴾^(١) فأكذبهم الله تعالى، بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا، لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم، أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة، ورد عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة»^(٢).

وقال ابن جرير: «وهذا أمر من الله - جل ثناؤه - لنبيه ﷺ بدعاء الذين قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ - إلى أمر عدل بين جميع الفرق: مسلمها، ويهودها، ونصاراها، وهو إقامة الحجة على دعواهم التي ادعوا: من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى. يقول الله لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، قل للزاعمين إن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى، دون غيرهم من سائر البشر: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ما تزعمون من ذلك، فنسلم لكم دعواكم إن كنتم في دعواكم - من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى - محقين»^(٣).

وقال ابن القيم: «هذه دعوى من كل واحد من الطائفتين أنه لن يدخل الجنة

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٠).

(١) المائدة: الآية (١٨).

(٣) جامع البيان (٢/ ٥٠٩ تحقيق شاكر).

إلا من كان منهما فقال اليهود: لا يدخلها إلا من كان هودًا. وقالت النصارى لا يدخلها إلا من كان نصرانيًا فاختصر الكلام أبلغ اختصار وأوجزه مع أمن اللبس ووضوح المعنى فطالبهم الله تعالى بالبرهان على صحة الدعوى فقال: ﴿قُلْ هَآؤُنَا بُرْهَانُنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا هو المسمى سؤال المطالبة بالدليل فمن ادعى دعوى بلا دليل يقال له هات برهانك إن كنت صادقًا فيما ادعيت^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «هذا بيان لحالين آخرين من أحوال أهل الكتاب في غرورهم بدينهم ما كان المسلمون قبل نزول الآيات يعرفونها أما الأولى فما بينه تعالى بقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ وهو عطف على قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾^(٢) أي: قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى كذلك في أنفسهم، وهو اختصار بديع غير محل. وهذه عقيدة الفريقين إلى اليوم ولا ينافي انسحاب حكمها على الآخرين أن نفرًا من الأولين قالوا ذلك بين يدي النبي -عليه الصلاة والسلام- كما يروى. وقد بين لنا تعالى أن هذا القول لا حجة له في كتبهم المنزلة فقال: ﴿تِلْكَ آيَاتُهُمْ قُلْ هَآؤُنَا بُرْهَانُنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ والأمانى جمع أمنية وهي ما يتمناه المرء ولا يدره. وهذا القول ناطق بأمنية واحدة ولكنها تتضمن أمانى متعددة هي لوازم لها كنجاتهم من العذاب وكوقوع أعدائهم فيه وحرمانهم من النعيم، ولهذا ذكر الأمانى بالجمع ولم يقل تلك أمنيتهم... ثم طالبهم تعالى بالبرهان على دعواهم فقرر لنا قاعدة لا توجد في غير القرآن من الكتب السماوية وهي أنه لا يقبل من أحد قول لا دليل عليه، ولا يحكم لأحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها، ذلك أن الأمم التي خوطبت بالكتب السالفة لم تكن مستعدة لاستقلال الفكر ومعرفة الأمور بأدلتها وبراهينها ولذلك اكتفى منهم بتقليد الأنبياء^(٣) فيما يبلغونهم وإن لم يعرفوا برهانه، فهم مكلفون أن يفعلوا ما يؤمرون سواء عرفوا لماذا أمروا أم لم يعرفوا،

(١) بدائع الفوائد (٤/١٥١).

(٢) البقرة: الآية (١٠٩).

(٣) في هذا الكلام نظر فإن الأنبياء يتبعون ولا يقلدون قال تعالى: ﴿أَتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْنَا مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: الآية (٣)]، وقال: ﴿أَتَقَكَّدُوا أَخْبَارَهُمْ وَزُهِقَتْهُمْ أَرْسَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية (٣١)].

ولكن القرآن يخاطب من أنزل عليه بمثل قوله : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^(١) وقد فسروا البصيرة بالحجة الواضحة، ويستدل على قدرة الله وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته بالآيات الكونية وهي كثيرة جداً في القرآن، وبالأدلة النظرية والعقلية كقوله : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٢) وغير ذلك، ويستدل على الأحكام بما يترتب عليها من نفي المضرات والإفضاء إلى المنافع.

علم القرآن أهله أن يطالبوا الناس بالحجة؛ لأنه أقامهم على سواء المحجة، وجدير بصاحب اليقين أن يطالب خصمه به ويدعوه إليه. وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح قالوا بالدليل، وطالبوا بالدليل، ونهوا عن الأخذ بشيء من غير دليل، ثم جاء الخلف الطالح فحكم بالتقليد، وأمر بالتقليد، ونهى عن الاستدلال على غير صحة التقليد، حتى كأن الإسلام خرج عن حده، أو انقلب إلى ضده، وصار الذين يعلمون أن الإسلام امتاز عن سائر الأديان بإبطال التقليد، وبالمطالبة بالبرهان والدليل، وعلم الناس استقلال الفكر، مع المشاورة في الأمر، يطالبون المسلمين بالرجوع إلى الدليل، ويعيبون عليهم الأخذ بقال وقيل، وباليته كان الأخذ بقال الله، وقيل فيما يروى عن رسول الله، ولكنه الأخذ بقال فلان وقيل عن علان ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾^(٣) (٤).

قلت: رحم الله الشيخ محمد رشيد رضا على هذا التوجيه الطيب، وأن الإسلام يمتاز عن غيره بالمطالبة بالحجة والبرهان في أحكامه وعقائده، أما العقائد فبالاتفاق، فلا عقيدة إلا بنص من القرآن أو السنة الصحيحة، وكذلك العبادات، فلا عبادة إلا بنص من القرآن أو صحيح من السنة، وأما الأحكام العملية كالأنكحة والبيوع وغيرها فأصولها كلها قائمة على الدليل من القرآن وصحيح السنة، وقد يستعمل القياس في هذه الأمور اضطراراً، وأما فيما سبق فلا قياس، ومكانه له لا حاجة لنا به؛ فإن العقائد أمور خبرية ليس للمسلم فيها إلا التصديق والإيمان، والعبادات لا يجوز فيها القياس؛ لأن ما يتعبد الله به لا يحل فيه القياس، فلهذا

(١) يوسف: الآية (١٠٨).

(٢) النجم: الآية (٢٣).

(٣) الأنبياء: الآية (٢٢).

(٤) تفسير المنار (١/٤٢٤-٤٢٥).

الاجتهاد في معرفة السنن والنصوص هو علم المسلمين الحق . وما سوى ذلك فضياع وضلالة ، ولهذا لما فشا التقليد في الأمة تجند فرسان السنة لإنكاره ورده والإجهاز عليه ، قال أحد أئمتهم : أجمع العلماء على أن المقلد ليس من أهل العلم ، وقال بعضهم : لا فرق بين مقلد وبهيمة ، وبالتقليد الأعمى ردت دعوات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ، وبالتقليد عبد شيوخ الصوفية واستحلوا أعراض تلامذتهم باسم المشيخة ، وأما الرفض فكما قال قائل : بال حمار فبالت حمر ، فهم حمر رديئة تتناسل وتتوالد من عصر لآخر ، ومن مكان لآخر ، وهكذا تجد هذا الداء سرى في كل الطوائف ، وانحرفوا عن الصراط المستقيم بسبب هذا الداء العضال ، فنعوذ بالله من الخذلان .

* * *

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٦٤﴾

★ غريب الآية:

أسلم: أخلص، يقال: أسلم وجهه لله؛ أي: أخلصه وصرفه إليه. قال زيد بن عمرو بن نفيل:

أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْمَرْزُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال سعيد بن جبير: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أخلص ﴿وَجْهَهُ﴾، قال: دينه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي اتبع فيه الرسول ﷺ، فإن للعمل المتقبل شرطين: أحدهما أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشرعية، فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١)، رواه مسلم من حديث عائشة عنه - عليه الصلاة والسلام -، فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله، فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعاً للرسول ﷺ، المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَرَابٍ يَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾^(٤) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٢﴾ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿١﴾ تُشَقَّىٰ مِنْ عَيْنٍ عَائِنَةٍ ﴿٤﴾، وروى عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، أنه تأولها في الرهبان كما سيأتي، وأما إن كان العمل موافقاً للشرعية، في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) الفرقان: الآية (٢٣).

(٣) النور: الآية (٣٩).

(٤) الغاشية: الآيات (٢-٥).

أيضاً مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿تَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾^(٢) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿وَيَسْتَعِزُّونَ بِالْمَاعُونِ﴾^(٣) ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٤) وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، وقوله: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، وأمنهم مما يخافونه من المحذور، فـ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبیر، فـ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني في الآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني لا يحزنون للموت»^(٥).

وقال محمد رشيد رضا: «قال تعالى ردًا عليهم ﴿بَلَى﴾ وهي كلمة تذكر في الجواب لإثبات نفي سابق فهي مبطله لقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ إلخ؛ أي: بلى إنه يدخلها من لم يكن هودًا ولا نصاري؛ لأن رحمة الله ليست خاصة بشعب دون شعب، وإنما هي مبذولة لكل من يطلبها ويعمل لها عملها، وهو ما بينه ﷺ بقوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾. إسلام الوجه لله هو التوجه إليه وحده وتخصيصه بالعبادة دون سواه، كما أشار إلى ذلك في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وغيرها من الآيات: وقد عبر هنا عن إسلام القلب وصحة القصد إلى الشيء بإسلام الوجه كما عبر عنه بتوجيه الوجه في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(٦)؛ لأن قاصد الشيء يقبل عليه بوجهه لا يوليه دبره، فلما كان توجيه الوجه إلى شيء له جهة تابعًا لقصد، واشتغال القلب به؛ عبر عنه به، وجعل التوجه بالوجه إلى جهة مخصوصة (وهي القبلة) بأمر الله مذكرًا بإقبال القلب على الله، الذي لا تحدده الجهات، فالإنسان يتضرع ويسجد لله تعالى بوجهه، وعلى الوجه يظهر أثر الخشوع. وظاهر أن المراد من إسلام الوجه لله توحيد بالعبادة والإخلاص له في العمل، بأن

(١) النساء: الآية (١٤٢).

(٢) الماعون: الآيات (٤-٧).

(٣) الكهف: الآية (١١٠).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٠-٢٧١).

(٥) الأنعام: الآية (٧٩).

لا يجعل العبد بينه وبينه وسطاء يقربونه إليه زلفى ، فإنه أقرب إليه من حبل الوريد .
ومن هنا يفهم معنى الإسلام الذي يكون به المرء مسلماً .

ذكر التوحيد والإيمان الخالص ولم يحمل عليه الوعد بالأجر عند الله تعالى ،
واستحقاق الكرامة في دار المقامة إلا بعد أن قيده بإحسان العمل فقال : ﴿ بَلَى مَنْ
أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ وتلك سنة القرآن ، تقرن الإيمان
بعمل الصالحات ، كقوله : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا
يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ
ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَبْرًا ﴾ (١) وهذا في معنى
الآيات التي نفسرها . نفى أمانى المسلمين كما نفى أمانى أهل الكتاب ، وجعل أمر
سعادة الآخرة منوطاً بالإيمان والعمل الصالح معاً . وكقوله : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ
الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ ﴾ (٢) الآية .

ثم بعد أن أثبت للمسلم وجهه إلى الله ، والمحسن في عمله الأجر عند الله نفى
عنه الخوف الذي يرهق الكافرين والمسيئين في هذه الدنيا وفي تلك الدار الآخرة ،
والحزن الذي يصيبهم فقال : ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ولا شك أن
المخاوف والأحزان تساور الذين لبسوا إيمانهم بظلم الوثنية ، وأسأوا أعمالهم
بالإعراض عن الهداية الدينية .

ترى أصحاب النزعات الوثنية في خوف دائم مما لا يخيف ؛ لأنهم يعتقدون
بثبوت السلطة الغيبية القاهرة ، لكل ما يظهر لهم منه عمل لا يهتدون إلى سببه
ولا يعرفون تأويله ، يستخدمون للدجالين والمشعوذين ، ويرتعدون من حوادث
الطبيعة الغريبة ، إذا لاح لهم نجم مذنب تخيلوا أنه منذر يهددهم بالهلاك ،
وإذا أصابتهم مصيبة بما كسبت أيديهم من الفساد توهموا أنها من تصرف بعض
العباد ، وتراهم في جزع وهلع من حدوث الحوادث ، ونزول الكوارث ، لا يصبرون
في البأساء والضراء ، ولا ينفقون في الرخاء والسراء ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ إِذَا
مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ

(١) النساء : الآيتان (١٢٣ و ١٢٤) .

(٢) الأنبياء : الآية (٩٤) .

دَائِمُونَ^(١) هذه حال من فقد التوحيد الخالص، وحرّم من العمل الصالح في هذه الحياة الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُصَرُّونَ﴾^(٢) وإنما كان صاحب النزعات الوثنية في خوف مما يستقبله، وحزن ما ينزل به؛ لأن ما اخترعه له وهمه من السلطة الغيبة لغير الله، التي يحكمها في نفسه، ويجعلها حجاباً بينه وبين ربه، لا يمكنه أن يعتمد في الشدائد عليها، ولا يجد عندها غناء إذا هو لجأ إليها، وما هو من سلطتها على يقين، وإنما هو من الظانين أو الواهمين.

وأما ذو التوحيد الخالص فهو يعلم أنه لا فاعل إلا الله تعالى، وأنه من رحمته قد هدى الإنسان إلى السنن الحكيمة التي يجري عليها في أفعاله، فإذا أصابه ما يكره بحث في سببه، واجتهد في تلافيه من السنة التي سنّها الله تعالى لذلك، فإن كان أمراً لا مردّ له سلم أمره فيه إلى الفاعل الحكيم، فلا يحار ولا يضطرب لأن سنده قوي عزيز، والقوة التي يلجأ إليها كبيرة لا يعجزها شيء، فإذا نزل به سبب الحزن أو عرض له مقتضى الخوف؛ لا يكون أثرهما إلا كما يطيف خاطر بالبال، ولا يلبث أن يعرض له الزوال ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٣)، فكأنه تعالى يقول لأهل الكتاب: لا تغرنكم الأمانى ولا يخدعنكم الانتساب الباطل إلى الأنبياء، فهذه هي طريق الجنة، أسلموا وجوهكم لله تسلموا، واعملوا الصالحات تؤجروا، وقد أفرد الضمير في قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ مراعاة للفظ (من) وجمعه في قول ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ إلخ مراعاة لمعناها^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في شروط قبول الأعمال

* عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد»^(٥).

وفي لفظ لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٦).

(١) فصلت: الآية (١٦).

(٢) المعارج: الآيات (١٩-٢٣).

(٣) الرعد: الآية (٢٨).

(٤) تفسير المنار (١/٤٢٥-٤٢٧).

(٥) أخرجه أحمد (٦/٢٤٠) والبخاري (٥/٣٧٧/٢٦٩٧) ومسلم (٣/١٣٤٣/١٧١٨) وأبو داود (٥/١٢/١٢٠٦).

(٦) وابن ماجه (١/١٤٠٦).

(٦) أخرجه مسلم (٣/١٣٤٣-١٣٤٤/١٨١٨).

★ فوائد الحديث:

قال ابن رجب: «وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها كما أن حديث: «الأعمال بالنيات»^(١) ميزان للأعمال في باطنها، فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله تعالى، فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله، فهو مردود على عامله، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله، فليس من الدين في شيء»^(٢).

وقال: «فهذا الحديث يدل بمنطوقه على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع فهو مردود، ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمره فهو غير مردود، والمراد بأمره ها هنا: دينه وشرعه، كالمراد بقوله في الرواية الأخرى «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه».

فالمعنى إذاً: أن من كان عمله خارجاً عن الشرع ليس متقيداً بالشرع، فهو مردود. وقوله: (ليس عليه أمرنا) إشارة إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة، وتكون أحكام الشريعة حاکمة عليها بأمرها ونهيها، فمن كان عمله جاريًا تحت أحكام الشرع، موافقاً لها، فهو مقبول، ومن كان خارجاً عن ذلك فهو مردود».

والأعمال قسمان: عبادات ومعاملات.

«فأما العبادات، فما كان منها خارجاً عن حكم الله ورسوله بالكلية، فهو مردود على عامله، وعامله يدخل تحت قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾^(٣)، فمن تقرب إلى الله بعمل، لم يجعله الله ورسوله قرينة إلى الله، فعمله باطل مردود عليه، وهو شبيه بحال الذين كانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية، وهذا كمن تقرب إلى الله تعالى بسماع الملاهي، أو بالرقص، أو بكشف الرأس في غير الإحرام، وما أشبه ذلك من المحدثات التي لم يشرع الله ورسوله التقرب بها بالكلية.

(١) أخرجه أحمد (٢٥/١) والبخاري (١/١١/١) ومسلم (٣/١٥١٥-١٥١٦/١٩٠٧) وأبو داود (٢/٦٥١-٦٥٢/٢٢٠١) والترمذي (٤/١٥٤/١٦٤٧) والنسائي (١/٦٢-٦٣/٥٧) وابن ماجه (٢/١٤١٣/٤٢٢٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) جامع العلوم والحكم (١/١٧٦).

(٣) الشورى: الآية (٢١).

وليس ما كان قربة في عبادة يكون قربة في غيرها مطلقا، فقد رأى النبي ﷺ رجلا قائما في الشمس، فسأل عنه، فقيل: إنه نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل وأن يصوم^(١)، فأمره النبي ﷺ أن يقعد ويستظل، وأن يتم صومه فلم يجعل قيامه وبروزه للشمس قربة يوفى بنذرهما. وقد روي أن ذلك كان في يوم الجمعة عند سماع خطبة النبي ﷺ وهو على المنبر، فنذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ما دام النبي ﷺ يخطب^(٢)، إعظاما لسماع خطبة النبي ﷺ، ولم يجعل النبي ﷺ ذلك قربة توفى بنذره، مع أن القيام عبادة في مواضع أخر، كالصلاة والأذان والدعاء بعرفة، والبروز للشمس قربة للمحرم، فدل على أنه ليس كل ما كان قربة في موطن يكون قربة في كل المواطن، وإنما يتبع في ذلك ما وردت به الشريعة في مواضعها. وكذلك من تقرب بعبادة نهى عنها بخصوصها، كمن صام يوم العيد، أو صلى في وقت النهي.

وأما من عمل عملا أصله مشروع وقربة، ثم أدخل فيه ما ليس بمشروع، أو أدخل فيه بمشروع، فهذا مخالف أيضا للشريعة بقدر إخلاله بما أخل به، أو إدخاله ما أدخل فيه، وهل يكون عمله من أصله مردودا عليه أم لا؟ فهذا لا يطلق القول فيه برد ولا قبول، بل ينظر فيه: فإن كان ما أخل به من أجزاء العمل أو شروطه موجبا لبطلانه في الشريعة، كمن أخل بالطهارة للصلاة مع القدرة عليها، أو كمن أخل بالركوع أو بالسجود أو بالطمأنينة فيهما، فهذا عمله مردود عليه، وعليه إعادته إن كان فرضا، وإن كان ما أخل به لا يوجب بطلان العمل، كمن أخل بالجماعة للصلاة المكتوبة عند من يوجبها ولا يجعلها شرطا، فهذا لا يقال: إن عمله مردود من أصله، بل هو ناقص^(٣).

وقال: «وأما المعاملات كالعقود والفسوخ ونحوهما، فما كان منها تغييرا للأوضاع الشرعية، كجعل حد الزنى عقوبة مالية، وما أشبه ذلك، فإنه مردود من أصله، لا ينتقل به الملك؛ لأن هذا غير معهود في أحكام الإسلام، ويدل على ذلك

(١) أخرجه البخاري (١١/٧١٨/٦٧٠٤) وأبو داود (٣/٥٩٩-٦٠٠/٣٣٠٠) وابن ماجه (١/٦٩٠/٢١٣٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٥/٤١١/٢١٦٧) والخطيب في الأسماء المبهمة (ص: ٢٧٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/١٧٧-١٧٩).

أن النبي ﷺ قال للذي سأله: إن ابني كان عسيقاً على فلان، فزني بامرأته، فافتديت منه بمئة شاة وخادم، فقال النبي ﷺ: «المئة شاة والخادم رد عليك، وعلى ابنك جلد مئة، وتغريب عام»^(١).

وما كان منها عقداً منهياً عنه في الشرع، إما لكون المعقود عليه ليس محلاً للعقد، أو لفوات شرط فيه، أو لظلم يحصل به للمعقود معه أو عليه، أو لكون العقد يشغل عن ذكر الله الواجب عند تضاييق وقته، أو غير ذلك، فهذا العقد: هل هو مردود بالكلية، لا ينتقل به الملك، أم لا؟ هذا الموضع قد اضطرب الناس فيه اضطراباً كثيراً، وذلك أنه ورد في بعض الصور أنه مردود لا يفيد الملك، وفي بعضها أنه يفيد، فحصل الاضطراب فيه بسبب ذلك، والأقرب - إن شاء الله تعالى - أنه إن كان النهي عنه لحق لله ﷻ، فإنه لا يفيد الملك بالكلية، ونعني بكون الحق لله: أنه لا يسقط برضا المتعاقدين عليه، وإن كان النهي عنه لحق آدمي معين، بحيث يسقط برضاه به، فإنه يقف على رضاه به، فإن رضي لزم العقد، واستمر الملك، وإن لم يرض به فله الفسخ، فإن كان الذي يلحقه الضرر لا يعتبر رضاه بالكلية، كالزوجة والعبد في الطلاق والعتاق، فلا عبرة برضاه ولا بسخطه، وإن كان النهي رفقا بالمنهي خاصة لما يلحقه من المشقة، فخالف وارتكب المشقة، لم يبطل بذلك عمله»^(٢).

قال النووي رحمه الله: «هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه ﷺ، فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات، وفي الرواية الثانية زيادة وهي أنه قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سبق إليها، فإذا احتج عليه بالرواية الأولى يقول: أنا ما أحدثت شيئاً، فيحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات سواء أحدثها الفاعل أو سبق بإحداثها... وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به»^(٣).

* * *

(١) أخرجه أحمد (١١٦-١١٥/٤) والبخاري (٢٦٩٦-٢٦٩٥/٣٧٧/٥) ومسلم (١٣٢٤-١٣٢٥/٣) وأبو داود (١٦٩٨) وابن ماجه (٥٤٢٥) وابن ماجة (٢٥٤٩/٨٥٢/٢) كلهم من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما.
(٢) جامع العلوم والحكم (١٨١-١٨٢).
(٣) شرح مسلم (١٥/١٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وأما تأويل الآية فإنه: قالت اليهود: ليست النصارى في دينها على صواب، وقالت النصارى: ليس اليهود في دينها على صواب، وإنما أخبر الله عنهم بقليلهم ذلك للمؤمنين، إعلاماً منه لهم بتضييع كل فريق منهم حكم الكتاب الذي يظهر الإقرار بصحته، وأنه من عند الله، وجحودهم مع ذلك ما أنزل الله فيه من فروضه؛ لأن الإنجيل الذي تدين بصحته وحقيقته النصارى، يحقق ما في التوراة من نبوة موسى عليه السلام، وما فرض الله على بني إسرائيل فيها من الفرائض، وأن التوراة التي تدين بصحتها وحقيقتها اليهود، تحقق نبوة عيسى عليه السلام، وما جاء به من عند الله من الأحكام والفرائض.

ثم قال كل فريق منهم للفريق الآخر ما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾، مع تلاوة كل واحد من الفريقين كتابه الذي يشهد على كذبه في قوله ذلك. فأخبر -جل ثناؤه- أن كل فريق منهم قال ما قال من ذلك، على علم منهم أنهم فيما قالوه مبطلون؛ وأتوا ما أتوا من كفرهم بما كفروا به، على معرفة منهم بأنهم فيه ملحدون»^(٢).

وقال: «وهذه الآية تنبئ عن أن من أتى شيئاً من معاصي الله على علم منه بنهي الله عنها، فمصيبته في دينه أعظم من مصيبة من أتى ذلك جاهلاً به؛ لأن الله -تعالى ذكره- عظم توبيخ اليهود والنصارى بما وبخهم به -في قليلهم ما أخبر عنهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ -من أجل

(١) البقرة: الآية (١١٣).

(٢) جامع البيان (٢/ ٥١٤ تحقيق شاکر).

أنهم أهل كتاب، قالوا ما قالوا من ذلك على علم منهم أنهم مبطلون»^(١).

وقال الشوكاني: «وفي هذا أعظم توبيخ وأشد تقريع؛ لأن الوقوع في الدعاوى الباطلة والتكلم بما ليس عليه برهان هو - وإن كان قبيحاً على الإطلاق، لكنه من أهل العلم والدراسة لكتب الله - أشد قبحا وأفظع جرماً وأعظم ذنباً»^(٢).

وقال محمد رشيد رضا: «والعبرة في الآية أن أهل الكتاب في تضليل بعضهم بعضاً واعتقاد كل واحد في الآخر أنه ليس على شيء حقيقي من أمر الدين مع أن كتاب اليهود أصل لكتاب النصارى، وكتاب النصارى متمم لكتاب اليهود، قد صاروا إلى حال من التهافت واتباع الأهواء لا يعتد معها بقول أحد منهم في نفسه ولا في غيره، فطعنهم في النبي - عليه الصلاة والسلام - وإعراضهم عن الإيمان به لا ينهض حجة على كونهم علموا أنه مخالف للحق، بل لا يصلح شبهة على ذلك لأنهم أهل أهواء، وتعصب للمذاهب المبتدعة والآراء، فإذا كانت اليهود كفرت بعبسى وأنكرته وهو منهم وهم ينتظرونه لإعادة مجدهم وتجديد عزهم، وإذا كانت النصارى قد رفضت التوراة وكفرت أهلها وهي حججهم على دينهم، فكيف يعتد بكفر هؤلاء وهؤلاء بمحمد ﷺ وهو من شعب غير شعبهم، وقد جاء بشريعة ناسخة لشرائعهم، وهم لا يفهمون من الدين إلا أنه جنسية دنيوية لهم»^(٣).

* * *

(٢) فتح القدير (١/١٩٣).

(١) جامع البيان (٢/٥١٨ تحقيق شاكر).

(٣) تفسير المنار (١/٤٢٩).

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذي عنى الله بقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فقال بعضهم: . . . وقالت النصارى مثل قول اليهود قبلهم . . . وقيل: أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل . وقال بعضهم: عنى بذلك مشركي العرب لأنهم لم يكونوا أهل كتاب، فنسبوا إلى الجهل، ونفى عنهم من أجل ذلك العلم»^(١).

ثم قال: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله -تبارك وتعالى- أخبر عن قوم وصفهم بالجهل، ونفى عنهم العلم بما كانت اليهود والنصارى به عالمين أنهم قالوا بجهلهم نظير ما قال اليهود والنصارى بعضها لبعض، مما أخبر عنهم أنهم قالوه في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾^(٢). وجائز أن يكونوا أمة كانت قبل اليهود والنصارى، ولا أمة أولى أن يقال هي التي عنيت بذلك من أخرى، إذ لم يكن في الآية دلالة على أي من أي، ولا خبر بذلك عن رسول الله ﷺ ثبتت حجته من جهة نقل الواحد العدل، ولا من جهة النقل المستفيض.

وإنما قصد الله -جل ثناؤه- بقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، إعلام المؤمنين أن اليهود والنصارى قد أتوا من قيل الباطل، واقتراء الكذب على الله، وجحود نبوة الأنبياء والرسل، وهم أهل كتاب يعلمون أنهم فيما يقولون مبطلون، وبجحودهم ما يجحدون من ملتهم خارجون، وعلى الله مفترون مثل الذي قاله أهل الجهل بالله وكتبه ورسله، الذين لم يبعث الله لهم رسولا ولا أوحى إليهم كتابا»^(٣).

(١) جامع البيان (٢/٥١٦-٥١٧ تحقيق شاكر) بتصرف يسير.

(٢) البقرة: الآية (١١٣).

(٣) جامع البيان (٢/٥١٧ تحقيق شاكر).

وقال محمد رشيد رضا : «وفي الآية إرشاد إلى بطلان التقليد، مؤيد لما في الآية التي تطالب المدعي بالبرهان، وإلى النهي على المقلدين المتعصبين لأرائهم، المتبعين لأهوائهم، وإلى التحري في الحكم على الشيء يعتقد الحاكم بطلانه لأنه مخالف لما يعتقده، فلا ينبغي للعاقل أن يحكم على شيء إلا بعد البحث والتحري، ومعرفة مكان الخطأ، والتزيل بينه وبين ما عساه يكون معه صواباً. ألم تر أن سياق الآيات ناطق بإنكار حكم كل من الفريقين على الآخر من غير بينة ولا برهان، ولا فصل ولا فرقان، مع أن كل واحد منهم على شيء من الحق وشيء من الباطل؛ لأن أصل دينه حق، ثم طرأت عليه نزغات الوثنية والبدع، وعرض له التحريف والتأويل، فتجريده من كل حق لم يكن إلا تعصباً للتقاليد من غير بينة ولا تمحيص، وأنى للمقلدين بذلك؟ وانظر كيف ألحق التقليد أهل الكتاب الذين كانوا على علم بالدين الإلهي بالمشركين الذين لا يعلمون منه شيئاً؟ هذا ما فعله التقليد بهم وبمن بعدهم لأنه عدو للعلم في كل زمان وكل مكان»^(١).

وقال الرازي : «واعلم أن هذه الواقعة قد وقعت في أمة محمد ﷺ، فإن كل طائفة تكفر الأخرى مع اتفاقهم على تلاوة القرآن»^(٢).

قال القاسمي : «فها هنا تسكب العبرات بما جناه التعصب في الدين على غالب المسلمين من الترامي بالكفر، لا بسنة ولا قرآن، ولا لبيان من الله ولا لبرهان، بل لما غلت مراجل العصبية في الدين، تمكن الشيطان من تفريق كلمة المسلمين،

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

مع أن الله تعالى أمر بالجماعة والائتلاف. ونهى عن الفرقة والاختلاف. فقال تعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٣). وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾^(٤). وقال تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾^(٥). وقال تعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(٦). وقد امتاز أهل الحق، من هذه الأمة، بالسنة

(١) تفسير المنار (١/ ٤٢٩-٤٣٠).

(٣) آل عمران : الآية (١٠٣).

(٥) آل عمران : الآية (١٠٥).

(٢) تفسير الرازي (٤/ ١٠).

(٤) الأنعام : الآية (١٥٩).

(٦) الأنعام : الآية (١٥٣).

والجماعة، عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنة رسول الله ﷺ، وعما مضت عليه جماعة المسلمين»^(١).

وقال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: فالله يقضى فيفصل بين هؤلاء المختلفين، -القائل بعضهم لبعض: لستم على شيء من دينكم- يوم قيام الخلق لربهم من قبورهم فيتبين المحق منهم من المبطل، بإثابته المحق ما وعد أهل طاعته على أعماله الصالحة، ومجازاته المبطل منهم بما أوعده أهل الكفر به على كفرهم به فيما كانوا فيه يختلفون من أديانهم ومللهم في دار الدنيا»^(٢).

قال ابن كثير: «أي: أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل، الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٣)، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾^(٤)»^(٥).

قلت: الانحراف والضلال لا ينتج عنهما خير أبداً؛ بل ينتج عنهما التضارب والتناقض والتلاعن بين أصحابه، فبعضهم يلعن بعضاً، وبعضهم يكفر بعضاً، وهذا هو الذي مع الأسف وقع في تاريخ الإسلام لما نشأت الفرق الضالة، فتجد في داخل الفرق الواحدة فرقاً يضلل بعضها بعضاً، ويكفر بعضها بعضاً، وهكذا طوائف الصوفية وفرقهم تجدهم على هذا المنهج الباطل، وأن الذي يخرج عن منهاج شيخه ارتد وكفر، وكذلك الرافضة وكل هذه الفرق، سابقتها ولاحقها تلحق بفرق أهل الشرك الذين لم ينزل فيهم كتاب، ولم يبعث فيهم نبي، وحالتهم كحالة هؤلاء الضلال، ولهذا علمنا الله أن نقول في فاتحة الكتاب: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ^(٧)، وكل أهل الباطل إما مغضوب عليهم وإما ضلال. فاللهم نجنا من الضلال، ونجنا من الغضب، واهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت.

(١) محاسن التأويل (٢/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٢) جامع البيان (٢/ ٥١٨ تحقيق شاكر).

(٣) الحج: الآية (١٧).

(٤) سبأ: الآية (٢٦).

(٥) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٢).

(٦) الفاتحة: الآيتان (٦ و ٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾^(١)

★ غريب الآية:

منع: المنع: الصد والحيلولة دون الشيء.

سعى: السعي: المشي السريع وهو دون العدو، والمراد: جد واجتهد في خرابها.

خرابها: الخراب: الهدم والتدمير، وخرابها إما حسي بنقض بنائها وهدمها، وإما معنوي بالتزهيد فيها ومحاربة أهلها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فإن قال قائل: ومن الذي عنى بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾؟ وأي المساجد هي؟ قيل: إن أهل التأويل في ذلك مختلفون، فقال بعضهم: الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم النصارى، والمسجد بيت المقدس... وقال آخرون: وهو بختنصر وجنده ومن أعانهم من النصارى، والمسجد مسجد بيت المقدس... وقال آخرون: بل عنى الله ﷻ بهذه الآية، مشركي قريش، إذ منعوا رسول الله ﷺ من المسجد الحرام...»^(٢).

ثم قال: «وأولى التأويلات التي ذكرتها في تأويل الآية، قول من قال: عنى الله ﷻ بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، النصارى. وذلك أنهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس، وأعانوا بختنصر على ذلك، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده.

(١) البقرة: الآية (١١٤).

(٢) جامع البيان (٢/ ٥٢٠-٥٢١ تحقيق شاکر).

والدليل على صحة ما قلنا في ذلك، قيام الحجة بأن لا قول في معنى هذه الآية إلا أحد الأقوال الثلاثة التي ذكرناها، وأن لا مسجد عنى الله ﷻ بقوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ إلا أحد المسجدين: إما مسجد بيت المقدس، وإما المسجد الحرام. وإذا كان ذلك كذلك، وكان معلومًا أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله ﷺ وأصحابه من الصلاة فيه صح وثبت أن الذين وصفهم الله ﷻ بالسعي في خراب مساجده، غير الذين وصفهم الله بعمارتها. إذ كان مشركو قريش بنوا المسجد الحرام في الجاهلية، وبعمارته كان افتخارهم، وإن كان بعض أفعالهم فيه، كان منهم على غير الوجه الذي يرضاه الله منهم.

وأخرى، أن الآية التي قبل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾، مضت بالخبر عن اليهود والنصارى وذم أفعالهم، والتي بعدها نبهت بدم النصارى والخبر عن افتراءهم على ربهم، ولم يجز لقريش ولا لمشركي العرب ذكر، ولا للمسجد الحرام قبلها، فيوجه الخبر بقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ إليهم وإلى المسجد الحرام.

وإذ كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بالآية أن يوجه تأويلها إليه، وهو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها، إذ كان خبرها لخبرهما نظيرًا وشكلاً، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بخلاف ذلك، وإن اتفقت قصصها فاشتبهت.

فإن ظن ظان أن ما قلنا في ذلك ليس كذلك إذ كان المسلمون لم يلزمهم قط فرض الصلاة في المسجد المقدس، فمنعوا من الصلاة فيه فيلجئون توجيه قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾، إلى أنه معني به مسجد بيت المقدس فقد أخطأ فيما ظن من ذلك. وذلك أن الله -جل ذكره- إنما ذكر ظلم من منع من كان فرضه الصلاة في بيت المقدس من مؤمني بني إسرائيل، وإياهم قصد بالخبر عنهم بالظلم والسعي في خراب المسجد، وإن كان قد دل بعموم قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾، أن كل مانع مصليًا في مسجد لله، فرضًا كانت صلاته فيه أو تطوعًا وكل ساع في إخراجه فهو من المعتدين

الظالمين»^(١).

وقال ابن كثير بعد أن ذكر الخلاف في تفسير الآية: «ثم اختار ابن جرير القول الأول، واحتج بأن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس، (قلت) والذي يظهر، والله أعلم، القول الثاني كما قاله ابن زيد، وروي عن ابن عباس؛ لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في البيت المقدس، كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك؛ لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون؛ وأيضاً فإنه تعالى، لما وجه الذم في حق اليهود والنصارى، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعوه من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة، فأبي خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعْبُدُوهُمْ وَأَهُمْ يَشْكُرُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾^(٣)، إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ^(٤) وقال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَيَنْصَبِكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٥) فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾^(٦)، فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها، فأبي خراب لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك»^(٦).

(١) جامع البيان (٢/ ٥٢١-٥٢٤ تحقيق شاكر).

(٢) الأنفال: الآية (٣٤).

(٣) التوبة: الآيتان (١٧ و ١٨).

(٤) الفتح: الآية (٢٥).

(٥) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٣-٢٧٤).

(٦) التوبة: الآية (١٨).

وقال السعدي: «أي: لا أحد أظلم، وأشد جرمًا، ممن منع مساجد الله، عن ذكر الله فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات.

﴿وَسَعَى﴾ أي: اجتهد وبذل وسعه ﴿فِي خَرَابِهَا﴾ الحسي والمعنوي. فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها، وتقديرها. والخراب المعنوي، منع الذاكرين لاسم الله فيها.

وهذا عام، لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل، وقريش، حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخبروا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة، الساعين في خرابها، محادة لله، ومشاقة.

فجازاهم الله، بأن منعهم دخولها شرعًا وقدرًا، إلا خائفين ذليلين، فلما أخافوا عباد الله، أخافهم الله.

فالمشركون الذين صدوا رسوله، لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيرًا، حتى أذن الله له في فتح مكة.

ومنع المشركين من قربان بيته، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾^(١). وأصحاب الفيل، قد ذكر الله ما جرى عليهم. والنصارى سلط الله عليهم المؤمنين فأجلوهم.

وهكذا كل من اتصف بوصفهم، فلا بد أن يناله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها الباري قبل وقوعها، فوقعت كما أخبر.

واستدل العلماء بالآية الكريمة، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد^(٢).

وقال ابن العربي: «فائدة هذه الآية تعظيم أمر الصلاة؛ فإنها لما كانت أفضل الأعمال وأعظمها أجرًا كان منعها أعظم إثمًا، وإخراص المساجد تعطيل لها، وقطع بالمسلمين في إظهار شعائرهم وتأليف كلمتهم»^(٣).

(٢) تفسير السعدي (١/ ١٢٦-١٢٧).

(١) التوبة: الآية (٢٨).

(٣) أحكام القرآن (١/ ٣٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب صيانة المساجد عن الأقدار الحسية والمعنوية

* عن أبي هريرة قال: (بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين يوم النحر نؤذن بمنى ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، قال حميد بن عبد الرحمن: ثم أردف رسول الله ﷺ علياً فأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان)^(١).

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير رحمه الله - بعد أن ذكر حديث أبي هريرة المتقدم -: «وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً، يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم. وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان، وأن تجلى اليهود والنصارى منها، ولله الحمد والمنة. وما ذاك إلا لتشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة التي بعث فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً صلوات الله عليه. وهذا هو الخزي لهم في الدنيا؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها»^(٢).

قوله: «لا يحج بعد العام مشرك»

قال الحافظ: «هو منتزع من قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾^(٣) والآية صريحة في منعهم دخول المسجد الحرام ولو لم يقصدوا الحج، ولكن لما كان الحج هو المقصود الأعظم صرح لهم بالمنع منه، فيكون ما وراءه أولى بالمنع. والمراد بالمسجد الحرام هنا الحرم كله»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩/٦٢٩/١) ومسلم (١٣٤٧/٩٨٢/٢) وأبو داود (١٩٤٦/٤٨٣/٢) والنسائي (٥/

(٢) تفسير ابن كثير (٢٧٤-٢٧٥).

(٤) الفتح (٤٠٨/٨).

(٢٩٥٧/٢٥٩-٢٥٨).

(٣) التوبة: الآية (٢٨).

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، ودعاء غير الله عنده، والطواف به عريًا، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرها الله ورسوله»^(١).

وقال ابن جرير: «وتأويل الآية: لهم في الدنيا الذلة والهوان والقتل والسبي على منعهم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعيهم في خرابها، ولهم على معصيتهم وكفرهم بربهم وسعيهم في الأرض فسادًا عذاب جهنم، وهو العذاب العظيم»^(٢).

وقال محمد رشيد رضا: «فأما خزي الدنيا فهو ما يعقبه الظلم من فساد العمران، المفضي إلى الذل والهوان، وناهيك بظلم يحل القيود، ويهدم الحدود، ويغري الناس بالنواحش والمنكرات، ويسهل عليهم سبل الشرور والموبقات، وهو ظلم يبطل العبادة من المساجد، والسعي في خراب المعابد، إذا وقع هذا الظلم كان الحاكم الظالم مخذولًا في حكمه، والفتاح الظالم غير أمين في فتحه، وإذا أردت تطبيق ذلك على من نسب إليهم هذا الظلم فانظر ماذا حل بالرومانيين، وماذا كانت عاقبة العرب المشركين، وبماذا انتهى عدوان الصليبيين، وكيف انقرض حزب القرامطة المجرمين، وأما عذاب الآخرة فالله أعلم به، ونحن بوعده ووعيده من المؤمنين»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاستعاذة بالله من الخزي والعذاب

* عن بسر بن أرطأة قال كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم أحسن عاقبتنا في

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٥).

(٢) جامع البيان (٢/ ٥٢٥-٥٢٦ تحقيق شاکر).

(٣) تفسير المنار (١/ ٤٣٣-٤٣٤).

الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة»^(١).

★ غريب الحديث:

خزي: خزي خزيًا من باب علم ذل وهان، وأخزاه الله أذله وأهانته.

★ فوائد الحديث:

إذا عصم الله العبد من البدع وأبعده من أهلها فتلك علامة على عدم خزيه في الدنيا وإذا تقبل الله منه عمله في الدنيا وجزاه عليه بحسن العاقبة في الآخرة فقد أعاده من الخزي.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨١) وابن حبان (الإحسان ٣/ ٢٢٩-٢٣٠/ ٩٤٩) والحاكم (٣/ ٥٩١) والطبراني في الكبير (٢/ ٣٣-١١٩٦-١١٩٧). قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٧٨): «ورجال أحمد وأحد أسانيد الطبراني ثقات»، وحسن إسناده ابن كثير في التفسير (١/ ١٥٠) والعراقي في تخريج الإحياء (٣/ ١١١٦).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٥)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا - والله أعلم - فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه، الذين أخرجوا من مكة، وفارقوا مسجدهم ومصلاهم، وقد كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه؛ فلما قدم المدينة، وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾» (١).

وقال ابن جرير: «وقال آخرون: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ، إذنا من الله ﷻ له أن يصلي التطوع حيث توجه وجهه من شرق أو غرب، في مسيره في سفره، وفي حال المساينة، وفي شدة الخوف والتقاء الزخوف في الفرائض. وأعلمه أنه حيث وجه وجهه فهو هنالك، بقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾...» وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها، فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال الله ﷻ لهم: لي المشارق والمغارب فأني وليتم وجوهكم فهناك وجهي، وهو قبلتكم - معلمهم بذلك أن صلاتهم ماضية...».

ثم قال: «والصواب من القول في ذلك: أن الله - تعالى ذكره - إنما خص الخبر عن المشرق والمغرب في هذه الآية بأنهما له ملكا - وإن كان لا شيء إلا وهو له ملك - إعلاما منه عباده المؤمنين أن له ملكهما وملك ما بينهما من الخلق، وأن على جميعهم - إذ كان له ملكهم - طاعته فيما أمرهم ونهاهم، وفيما فرض عليهم من الفرائض، والتوجه نحو الوجه الذي وجهوا إليه، إذ كان من حكم الممالك طاعة

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٧٦).

مالكهم . فأخرج الخبر عن المشرق والمغرب والمراد به : من بينهما من الخلق ، على النحو الذي قد بينت ، من الاكتفاء بالخبر عن سبب الشيء ، من ذكره والخبر عنه ، كما قيل : ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾^(١) ، وما أشبه ذلك .

ومعنى الآية إذا : ولله ملك الخلق الذي بين المشرق والمغرب ، يتعبد لهم بما شاء ، ويحكم فيهم ما يريد ، عليهم طاعته ، فولوا وجوهكم أيها المؤمنون نحو وجهي ، فإنكم أينما تولوا وجوهكم فهناك وجهي^(٢) .

وقال السعدي : « وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، فلا أعظم إيماناً ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾^(٣) . بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها ، فقال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾^(٤) . وللمساجد أحكام كثيرة ، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة ؛ أي : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ : خصهما بالذكر ؛ لأنهما محل الآيات العظيمة ، في مطالع الأنوار ومغاربها . فإذا كان مالكا لها ، كان مالكا لكل الجهات .

﴿ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا ﴾ وجوهكم من الجهات ، إذا كان توليكم إياها بأمره ، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس ، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها ، فإن القبلة حيثما توجه العبد أو تشبه القبلة ، فيتحرى الصلاة إليها ، ثم يتبين له الخطأ ، أو يكون معذورا بصلب أو مرض ونحو ذلك .

فهذه الأمور ، إما أن يكون العبد فيها معذورا أو مأمورا . وبكل حال ، فما استقبل جهة من الجهات ، خارجة عن ملك ربه .

﴿ فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ فيه إثبات الوجه لله تعالى ، على الوجه اللائق به تعالى ، وأن لله وجهاً لا تشبهه الوجوه ، وهو - تعالى - واسع الفضل والصفات عظيمها ، عليم بسر أئركم ونياتكم .

(٢) جامع البيان (٢/٥٢٧-٥٣٣ تحقيق شاکر) .

(٤) النور : الآية (٣٦) .

(١) البقرة : الآية (٩٣) .

(٣) التوبة : الآية (١٨) .

فمن سعته وعلمه، وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن النافلة يتسامح فيها ما لا يتسامح في الفريضة

* عن ابن عمر؛ قال: كان رسول الله ﷺ يصلي، وهو مقبل من مكة إلى المدينة، على راحلته حيث كان وجهه. قال: وفيه نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَوْنَ فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر بعد ذكر هذا الحديث: «وتلقاه العلماء من السلف والخلف بالعمل والقبول في جملته، إلا أنهم اختلفوا في بعض معانيه، فالذي أجمعوا عليه منه أنه جائز لكل من سافر سفرًا تقصر فيه أو مثله - الصلاة - أن يصلي التطوع على دابته وراحلته حيثما توجهت به يومئذ إيماء السجود أخفض من الركوع ويتشهد ويسلم وهو جالس على دابته، وفي محمله؛ إلا أن منهم جماعة يستحبون أن يفتح المصلي صلاته على دابته في تطوعه إلى القبلة ويحرم بها - وهو مستقبل القبلة، ثم لا يبالي حيث توجهت به، ومنهم من لم يستحب ذلك»^(٣).

وقال: «واختلف أهل العلم في المعنى الذي فيه نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَوْنَ فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ فقال ابن عمر وطائفة: نزلت هذه الآية في الصلاة على الراحلة»^(٤).

وقال: «وقول من قال: إنما نزلت في الصلاة على الراحلة، قول حسن أيضًا تعضده السنة في ذلك»^(٥).

(١) تفسير السعدي (١/١٢٨-١٢٩)

(٢) أخرجه أحمد (٦٦/٢) والبخاري (١٠٠٠/٦٢٠/٢) مختصرًا دون ذكر الآية، ومسلم (١/٤٨٦/١) [٣٣] ٧٠٠ وأبو داود (٢/٢٠-٢١/١٢٢٤) مختصرًا دون ذكر الآية والترمذي (٥/١٨٩/٢٩٥٨) والنسائي (١/

٢٦٤/٤٩٠) من طرق عن ابن عمر ؓ. وفي الباب عن جابر وأنس ؓ.

(٣) فتح البر (٦/٤٧).

(٤) فتح البر (٦/٤٨).

(٥) فتح البر (٦/٤٩).

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبله»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال الأثرم: «سألت أحمد بن حنبل عن معنى الحديث فقال: هذا في كل البلدان إلا بمكة عند البيت فإنه إن زال عنه شيئاً وإن قل فقد ترك القبلة ثم قال: هذا المشرق وأشار بيده وهذا المغرب وأشار بيده وما بينهما قبله. قلت له فصلاة من صلى بينهما جائزة قال نعم وينبغي أن يتحرى الوسط»^(٢).

وقال ابن عبد البر: «تفسير قول أحمد هذا في كل البلدان يريد أن البلدان كلها لأهلها في قبلتهم مثل ما كانت قبلتهم بالمدينة الجنوب التي يقع لهم فيها الكعبة فيستقبلون جهتها ويتسعون يميناً وشمالاً فيها ما بين المشرق والمغرب يجعلون المغرب عن أيماهم والمشرق عن يسارهم، وكذلك لأهل اليمن من السعة في قبلتهم مثل ما لأهل المدينة ما بين المشرق والمغرب إذا توجهوا أيضاً قبل القبلة إلا أنهم يجعلون المشرق عن أيماهم والمغرب عن يسارهم، وكذلك أهل العراق وخراسان لهم من السعة في استقبال القبلة ما بين الجنوب والشمال مثل ما كان لأهل المدينة فيما بين المشرق والمغرب، وكذلك ضد العراق على ضد ذلك أيضاً، وإنما تضيق القبلة كل الضيق على أهل المسجد الحرام وهي لأهل مكة أوسع قليلاً ثم هي لأهل الحرم أوسع قليلاً ثم لأهل الآفاق من السعة على حسب ما ذكرنا»^(٣).

(١) أخرجه الترمذي (٢/١٧١-٣٤٢-٣٤٣) وابن ماجه (١/٣٢٣-١٠١١). وذكره النسائي (٤/٤٨٢) من طريق أبي معشر عن محمد بن عمرو بن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً. قال الترمذي: «وقد تكلم بعض أهل العلم في أبي معشر من قبل حفظه واسمه نجيع مولى بني هاشم. قال محمد: لا أروى عنه شيئاً وقد روى عنه الناس، وحديث عبدالله بن جعفر المخزومي عن عثمان بن محمد الأخنسي عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أقوى من حديث أبي معشر وأصح».

أخرجه الترمذي (٢/١٧٣-٣٤٤) وقال: «حديث حسن صحيح» اهـ. وفي الباب عن ابن عمر رضي الله عنهما.
أخرجه الحاكم (١/٢٠٥-٢٠٦) وصحح الطريق الأول على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، والدارقطني (١/٢٧٠-٢٧١).
(٢) تحفة الأحوذى (٢/٢٦٦-٢٦٧).

(٣) الاستذكار (٧/٢٢١).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِينُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

★ غريب الآية:

سبحانه: التسبيح: التنزيه والتقديس.

قَادِرُونَ: أصل القنوت: دوام الطاعة، والمراد هنا: خاضعون.

بَدِيعُ: بمعنى: مُبْدِع. وهو المنشئ المخترع من غير مثال يُجْرى عليه.

قَضَى: بالشيء: حكم به. وأصل القضاء: الفصل وإحكام الشيء. ويأتي

بمعنى الأمر والوصية والعهد. قال أبو ذؤيب:

وعليهما مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا داوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبْعُ
أي: أحكمهما.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: اليهود والنصارى والمشركون، وكل من
قال ذلك. ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأساءوا كل الإساءة،
وظلموا أنفسهم. وهو - تعالى - صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم،
ورزقهم مع تنقصهم إياه.

﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي: تنزهه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما
لا يليق بجلاله. فسبحان من له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا يعتريه
نقص بوجه من الوجوه. ومع رده لقولهم، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك
فقال: ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم
تصرف المالك بالمماليك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره.

فإذا كانوا كلهم عبيده، مفتقرين إليه، وهو غني عنهم، فكيف يكون منهم أحد،

يكون له ولدا، والولد لابد أن يكون من جنس والده؛ لأنه جزء منه .
والله تعالى المالك القاهر، وأنتم المملوكون المقهورون، وهو الغني وأنتم
الفقراء .

فكيف مع هذا، يكون له ولد؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه^(١).
وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ : «ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
سُبْحَنَهُ﴾ إلى قوله : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ فرد عليهم سبحانه دعواهم له اتخاذ الولد،
ونزه نفسه عنه، ثم ذكر أربع حجج على استحالة اتخاذ الولد :

أحدها : كون ما في السموات والأرض ملكا له، وهذا ينافي أن يكون فيهما ولد
له لأن الولد بعض الوالد وشريكه، فلا يكون مخلوقا له مملوكا له؛ لأن المخلوق
مملوك مربوب عبد من العبيد، والابن نظير الأب، فكيف يكون عبده تعالى
ومخلوقه ومملوكه بعضه ونظيره، فهذا من أبطل الباطل، وأكد مضمون هذه الحجة
بقوله ﴿كُلُّ لَمْ يَكُنْ﴾، فهذا تقرير لعبوديتهم له وأنهم مملوكون مربوبون ليس فيهم
شريك ولا نظير ولا ولد، فإثبات الولد لله تعالى من أعظم الإشراك به، فإن
المشرك به جعل له شريكا من مخلوقاته مع اعترافه بأنه مملوك كما كان المشركون
يقولون في تلبيتهم : «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك
تملكه وما ملك»^(٢). فكانوا يجعلون من أشركوا به مملوكا له عبدا مخلوقا،
والنصارى جعلوا له شريكا هو نظير وجزء من أجزائه، كما جعل بعض المشركين
الملائكة بناته فقال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لَمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾^(٣) فإذا كان له ما في
السموات والأرض عبيد قانتون مربوبون مملوكون، استحال أن يكون له منهم
شريك، وكل من أقر بأن لله تعالى ما في السموات وما في الأرض لزمه أن يقر له
بالتوحيد ولا بد، ولهذا يحتج سبحانه على المشركين بإقرارهم بذلك كقوله : ﴿قُلْ
لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَلَمْ يَكُنْ لِلَّهِ قُلُوبًا فَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٤)
وسأيتي إن شاء الله تعالى مزيد بيان لهذا في موضعه .

الحجة الثانية : قوله تعالى : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذه من أبلغ الحجج على

(١) تفسير السعدي (١/ ١٢٩-١٣٠).

(٢) مسلم (٢/ ٨٤٣/ ١١٨٥).

(٣) الزخرف : الآية (١٥).

(٤) المؤمنون : الآيات (٨٤ و ٨٥).

استحالة نسبة الولد إليه، ولهذا قال في سورة الأنعام: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَفَنُكُونُ لَهُ وَلَدٌ؟﴾^(١) أي: من أين يكون لبديع السموات والأرض ولد، ووجه تقرير هذه الحجة أن من اخترع هذه السموات والأرض مع عظمهما وآياتهما، وفطرهما وابتدعهما فهو قادر على اختراع ما هو دونهما، ولا نسبة له إليهما البتة، فكيف يخرجون هذا الشخص بالعين عن قدرته وإبداعه، ويجعلونه نظيرًا وشريكًا وجزءًا، مع أنه تعالى بديع العالم العلوي والسفلي، وفطره ومخترعه وبارئه، فكيف يعجزه أن يوجد هذا الشخص من غير أب حتى يقولوا إنه ولده، فإذا كان قد ابتدع العالم علويه وسفليه فما يعجزه ويمنعه عن إبداع هذا العبد وتكوينه وخلقه بالقدرة التي خلق بها العالم العلوي والسفلي، فمن نسب الولد لله فما عرف الرب تعالى، ولا آمن به، ولا عبده، فظهر أن هذه الحجة من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه، وإن شئت أن تقرر الاستدلال بوجه آخر؛ وهو أن يقال إذا كان نسبة السموات والأرض وما فيهما إليه إنما هي بالاختراع والخلق والإبداع، أنشأ ذلك وأبدعه من العدم إلى الوجود، فكيف يصح نسبة شيء من ذلك إليه بالبنوة، وقدرته على اختراع العالم وما فيه لم تزل ولم يحتج فيها إلى معاون ولا صاحب ولا شريك، وإن شئت أن تقررها بوجه آخر فتقول النسبة إليه بالبنوة تستلزم حاجته وفقره إلى محل الولادة، وذلك يناهض غناه وانفراده بإبداع السموات والأرض، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) فكمال قدرته وكمال غناه وكمال ربوبيته يحيل نسبة الولد إليه ونسبته إليه تقدر في كمال ربوبيته وكمال غناه وكمال قدرته، ولذلك كانت نسبة الولد إليه مسببة له - تبارك وتعالى - كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: شتمني عبدي ابن آدم وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، أما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد، وأما تكذيبه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته»^(٣). وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في النصاري: «أذلهم ولا تظلموهم، فلقد سبوا الله مسباً إياها أحد من البشر». وقال

(١) الأنعام: الآية (١٠١).

(٢) يونس: الآية (٦٨).

(٣) أخرجه أحمد (٣١٧/٢-٣٩٣-٣٩٤) والبخاري (٩٥٨/٨-٤٩٧٤) والنسائي (٤١٨/٤-٢٠٧٧).

تعالى: ﴿وَنُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾^(١) الآية. وأخبر تعالى إن كادت السموات تنفطر من قولهم هذا وتنشق الأرض منه وتخر الجبال هدا، وما ذاك إلا لتضمنه شتم الرب -تبارك وتعالى- والتنقص به، ونسبة ما يمنع كمال ربوبيته وقدرته وغناه إليه.

الحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وتقرير هذه الحجة أن من كانت قدرته تعالى كافية في إيجاد ما يريد إيجاداً بمجرد أمره وقوله: كن، فأى حاجة به إلى ولد وهو لا يتكثر به من قلة، ولا يتعزز به، ولا يستعين به يعجز عن خلق ما يريد خلقه، وإنما يحتاج إلى الولد من لا يخلق ولا إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وهذا المخلوق العاجز المحتاج الذي لا يقدر على تكوين ما أراد، وقد ذكر تعالى حججاً أخرى على استحالة نسبة الولد إليه فنذكرها في هذا الموضع، فمنها كمال علمه وعموم خلقه لكل شيء واستحالة نسبة الصاحبة إليه، فقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَفَنُكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَوْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾^(٢) الآية.

فأما منافاة عموم خلقه لنسبة الولد إليه فظاهر، فإنه لو كان له ولد لم يكن مخلوقاً بل جزءاً، وهذا ينافي كونه خالق كل شيء، وبهذا يعلم أن الفلاسفة الذين يقولون بتولد العقول والنفوس عنه بواسطة أو بغير واسطة شر من النصارى، وأن من زعم أن العالم قديم فقد أخرجهم عن كونه مخلوقاً لله، وقوله أخبث من قول النصارى؛ لأن النصارى أخرجوا عن عموم خلقه شخصاً واحداً أو شخصين، ومن قال بقدم العالم فقد أخرج العالم العلوي والسفلي والملائكة عن كونه مخلوقاً لله، والنصارى لم يصل كفهم إلى هذا الحد.

وأما منافاة عدم المصاحبة للولد فظاهر أيضاً؛ لأن الولد إنما يتولد من أصلين، فاعل ومحل قابل، يتصلان اتصالاً خاصاً فينفصل من أحدهما جزء في الآخر يكون منه الولد، فمن ليس له صاحبة كيف يكون له ولد، ولذلك لما فهم عوام النصارى أن الابن يستلزم المصاحبة؛ لم يستنكفوا من دعوى كون مريم إلهة، وأنها والدة

(١) الكهف: الآيتان (٤ و ٥).

(٢) الأنعام: الآية (١٠١).

الإله عيسى، فيقول عوامهم يا والده الإله اغفري لي، ويصرح بعضهم بأنها زوجة الرب، ولا ريب أن القول بالإيلاد يستلزم ذلك، أو إثبات إيلاد لا يعقل ولا يتوهم فخواص النصارى في حيرة وضلال، وعوامهم لا يستنكفون أن يقولوا بالزوجة والإيلاد المعقول، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، والقوم في هذا المذهب الخبيث أضل خلق الله، فهم كما وصفهم الله بأنهم: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾^(١).

وأما منافاة عموم علمه تعالى للولد فيحتاج إلى فهم خاص وتقريره أن يقال: لو كان له ولد لعلمه؛ لأنه بكل شيء عليم، وهو تعالى لا يعلم له ولد، فيستحيل أن يكون له ولد لا يعلمه، وهذا استدلال بنفي علمه للشيء على نفيه في نفسه، إذ لو كان لعلمه، فحيث لم يعلمه فهو غير كائن، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾^(٢) الآية فهذا نفي لما ادعوه من الشفعاء بنفي علم الرب تعالى بهم، المستلزم لنفي المعلوم، ولا يمكن أعداء الله المكابرة، وأن يقولوا قد علم الله وجود ذلك؛ لأنه تعالى إنما يعلم وجود ما أوجده وكونه، ويعلم أنه سيوجد ما يريد إيجاده، فهو يعلم نفسه وصفاته، ويعلم مخلوقاته التي دخلت في الوجود وانقطعت، والتي دخلت في الوجود وبقيت والتي لم توجد بعد، وأما شيء آخر غير مخلوق له ولا مربوب، فالرب تعالى لا يعلمه لأنه مستحيل في نفسه فهو يعلمه مستحيلاً لا يعلمه واقعاً، إذ لو علمه واقعاً لكان العلم به عين الجهل، وذلك من أعظم المحال، فهذه حجج الرب -تبارك وتعالى- على بطلان ما نسبته إليه أعداؤه والمفترون عليه، فوازن بينها وبين حجج المتكلمين الطويلة العريضة التي هي كالضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، فإذا وازنت بينهما ظهرت لك المفاضلة إن كنت بصيراً، ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٣) فالحمد لله الذي أغنى عباده المؤمنين بكتابه وما أودعه من حججه وبيانه عن شقاشق المتكلمين وهذيانات المتهوكين، فلقد عظمت نعمة الله تعالى على عبد أغناه بفهم كتابه عن الفقر إلى غيره ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ

(١) المائدة: الآية (٧٧).

(٢) يونس: الآية (١٨).

(٣) الإسراء: الآية (٧٢).

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾.

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ هذا الولد المزعوم - على زاعمه لعائن الله - قد جاء مفصلاً في آيات أخر كقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفَنُؤْفِكُونَ﴾^(٣) وقوله: ﴿وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾^(٤) الآية»^(٥).

قلت: المسلم الحق هو الذي يصف الله بما يليق به، فهو - تبارك وتعالى - الغني الغني المطلق، فهو القائم بعباده القاهر لهم المحيي المميت، وهذه الفرية التي صدرت من اليهود والنصارى ومن المشركين تدل على جهل مطبق، وأنه لو فرضنا - وهو من قبيل المستحيل - أن لله ولداً، فأين هذا الولد؟ وما اسمه؟ وأين ولد؟ ومن ولده؟ ومن هي أمه؟ وفي أي بقعة ولد في الأرض أو في السماوات؟ وما تاريخ ولادته؟ كل هذا من المحال، فالولد لا يكون إلا من النطف التي تخرج من الإنسان الذكر والأنثى، والله تعالى منزّه عن هذه النقائص، فلا يشبهه شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٦)، وهو الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٧)، فهل من كانت صفاته هكذا يتشدد عليه المتوحدون وينسبون له ما لا يليق به؟ ﴿كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾^(٨)، وهذا منتهى الجهل والضلال ولا يقول هذا إلا من لا يفرق بين الخالق والمخلوق، فالخالق له صفاته المنفرد بها لا يشركه فيها المخلوق، والمخلوق له صفاته التي تليق بعجزه وفقره وهو الذي يحتاج إلى الصاحبة والولد، فالصاحبة يستأنس بها ويسكن إليها، والولد امتداد له وزينة حياته، وأما الله تعالى فهو غني عن العالمين، وهو غني عن هذا الإفك والبهتان وهذا الهذيان، الذي لا يصدر إلا عمّن أعمى الله بصيرته وانتكس عقله وانتكست فطرته، نسأل الله السلامة والعافية.

(١) العنكبوت: الآية (٥١).

(٣) التوبة: الآية (٣٠).

(٥) أضواء البيان (١/ ٨٤-٨٥).

(٧) يس: الآية (٨٢).

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٢-١٥٥).

(٤) النحل: الآية (٥٧).

(٦) الشورى: الآية (١١).

(٨) الكهف: الآية (٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب تنزيه الله عما لا يليق به

* عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله: كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أنني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقلوه: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدًا»^(١).

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس أحد أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولدًا، وإنه ليعافيه ويرزقهم»^(٢).

★ فوائد الحديثين:

يستفاد من الحديث أنه لا يجوز أن ننسب الله إلى ما لا يليق بجلاله، بل علينا أن ننزهه ونقدسه عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون، فالله -تبارك وتعالى- ليس له نظير، ولا مشارك في عظمته ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٣).

قال ابن حجر: «قوله: (وأما شتمه إياي فقلوه لي ولد) إنما سماه شتمًا لما فيه من التنقيص لأن الولد إنما يكون عن والدة تحمله ثم تضعه ويستلزم ذلك سبق النكاح، والناكح يستدعي باعًا له على ذلك. والله سبحانه منزّه عن جميع ذلك»^(٤).
قال ابن تيمية: «ومما يبين خذلان الله لأهل البدع، المخالفين للكتاب والسنة، أن هذين الأصلين: أمر الولادة، وأمر المعاد، هما من أعظم أصول أهل الضلال؛ كالدهرية من الفلاسفة وغيرهم، الذين يقولون: إن العقول تولدت عن الله، وينكرون إحياء الله الموتى.

(١) أخرجه البخاري (٢١٢/٨-٢١٣/٨٤٨٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد (٣٥١/٢) والبخاري (٣٥٢/٦) والنسائي (٤١٨/٤-٢٠٧٧). من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤٠٥، ٤٠١، ٣٩٥/٤) والبخاري (٦٠٩٩/١٠-٦٢٦/١٠) ومسلم (٢٨٠٤/٤-٢١٦٠/٤) والنسائي في الكبرى (٧٧٠٨/٤-٤٠٦/٤).
(٣) الأنعام: الآية (١٠١).

(٤) الفتح (٢١٣/٨).

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك. فأما شتمه إياي فقله: إني اتخذت ولدًا، وأنا الأحد الصمد، الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد. وأما تكذيبه إياي فقله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته». وهذا في الصحيح من غير وجه عن النبي ﷺ، من حديث أبي هريرة، وابن عباس.

وهؤلاء الملاحدة شتموه بما ذكروه من تولد الموجودات عنه، وكذبوه بقولهم: لن يعيدنا كما بدأنا، وضاهوا في ذلك أشباههم من ملاحدة العرب.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ۖ﴾ (٦٦) ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَا وَوَلَدًا ۖ﴾ (٦٧) ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبِ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ﴾ (٦٨) ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۖ﴾ (٦٩) ﴿وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۖ﴾ (٨٩) ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۖ﴾ (٩٠) ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۖ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۖ﴾ (٩١) ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۖ﴾ (٩٢) ﴿وَكُلُّهُمْ عَائِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۖ﴾ (٩٣)

فذكر سبحانه في هذا الكلام الرد على من أنكر المعاد، وعلى من قال: إنه اتخذ ولدًا، كما جمع النبي ﷺ بينهما في الحديث.

وهذا المبتدع ذكر في دلالة القرآن على هذا وعلى ما تقدم التنبيه على فرط ضلال قائله عن حقائق ما أنزل الله على رسوله.

ولهذا لما كانت طريقة القرآن فيما يشبهه للرب تعالى وينفيه عنه مبنية على برهان الأولى، لا على البرهان الذي تستوي أفرادها، أو يماثل فرعه أصله.

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ (٢) بعد قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٣)

(٢) النحل: الآية (٦٠).

(١) مريم: الآيات (٩٥-٩٦).

(٣) النحل: الآية (٥٨).

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ﴾^(١) أي بما ضربوه للرحمن مثلاً، والمثل الذي ضربوه له هو البنات، وهو عندهم مثل سوء مذموم معيب. فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾^(٢)، ومن قال: إنه ولد الملائكة، أو قال: إنه ولد العقول أو النفوس، فإنه لا يؤمن بالآخرة، فله مثل السوء.

والله تعالى له المثل الأعلى، فلا يضرب له المثل المساوي، إذ لا كفو له ولا ند، فضلاً عن أن يضرب له المثل الناقص، ولا يكتفي في حقه بالمثل العالي، بل له المثل الأعلى، إذ هو الأعلى سبحانه، والعلم به أعلى العلوم، وذكره أعلى الأذكار، وحبه أعلى الحب.

والذي يبتغي وجه ربه الأعلى هو أعلى، إذ هو الأتقى الذي هو أكرم الخلق على الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾^(٤) ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾^(٥) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿٦﴾ إِلَّا أَتِنَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾^(٤) ﴿٥﴾.

* * *

(١) الزخرف: الآية (١٧).

(٢) النحل: الآية (٦٠).

(٣) الحجرات: الآية (١٣).

(٥) درء التعارض (٧/٣٨٦-٣٨٩).

(٤) الليل: الآيات (١٧-٢٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل فيمن عنى الله بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾. فقال بعضهم: عنى بذلك النصارى... وقال آخرون: بل عنى الله بذلك اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ... وقال آخرون: بل عنى بذلك مشركي العرب...».

ثم قال: «وأولى هذه الأقوال بالصحة والصواب قول القائل: إن الله تعالى عنى بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ النصارى دون غيرهم؛ لأن ذلك في سياق خبر الله عنهم، وعن افتراءهم عليه، وادعائهم له ولدًا، فقال -جل ثناؤه- مخبراً عنهم فيما أخبر عنهم من ضلالتهم: أنهم مع افتراءهم على الله الكذب بقولهم: ﴿أَتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، تمنوا على الله الأباطيل، فقالوا جهلاً منهم بالله. وبمنزلتهم عنده، وهم بالله مشركون: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ كما يكلم رسله وأنبياءه، أو تأتينا آية كما أتتهم؟ ولا ينبغي لله أن يكلم إلا أوليائه، ولا يؤتي آية معجزة على دعوى مدع إلا لمن كان محققاً في دعواه وداعياً إلى الله وتوحيده؛ فأما من كان كاذباً في دعواه وداعياً إلى الفرية عليه، وادعاء البنين والبنات له، فغير جائز أن يكلمه الله -جل ثناؤه-، أو يؤتيه آية معجزة تكون مؤيدة كذبه وفريته عليه.

وأما الزاعم أن الله عنى بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، العرب، فإنه قائل قولاً لا خبر بصحته، ولا برهان على حقيقته في ظاهر الكتاب. والقول إذا صار إلى ذلك، كان واضحاً خطؤه؛ لأنه ادعى ما لا برهان على صحته. وادعاء مثل ذلك لن يتعذر على أحد»^(٢).

قال ابن كثير معلقاً على اختيار ابن جرير: «وفي ذلك نظر، وحكى القرطبي: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾؛ أي: يخاطبنا بنبوتك يا محمد، قلت: وهو ظاهر السياق،

(٢) جامع البيان (٢/ ٥٥٠-٥٥٢ تحقيق شاکر).

(١) البقرة: الآية (١١٨).

والله أعلم . . . ويؤيد هذا القول ، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب ، قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ ^(١) الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ إلى قوله : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ ^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُيْكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ ^(٣) الآية ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴾ ^(٤) ؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به ، إنما هو الكفر والمعاندة ، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً ﴾ ^(٥) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْشُوا عَلَى الْأَرْضِ كَمَا شَاءُوا ﴾ ^(٦) الآية .

قلت : اعتمد الإمام ابن جرير رحمته الله في ترجيحه أن المعني بهم في الآية هم النصراني على السياق ؛ لأنهم هم الذين عرفوا بفرية نسبة الولد إلى الله ، وأما الحافظ ابن كثير رحمته الله فقد اعتمد في ترجيحه على أن المعني بهم هم كفار قريش ، مجموع ما صدر منهم من تحدياتهم للنبي صلى الله عليه وسلم في أسئلتهم وطلباتهم ، وقد أفاض في ذكرها وأجاد رحمته الله ، والذي يظهر أن الآية لم يصح فيها سبب نزول ، والسياق في اليهود والنصارى في الآيات السابقة ، وأيًا ما كان ، فسواء رجحنا قول ابن جرير أو قول ابن كثير ، فهي صفات للمعاندين في كل وقت تبقى قائمة إلى أن تقوم الساعة ، فنعوذ بالله من العناد ورد الرسالات ، والتجروء على الأنبياء والرسول بما لا يليق بحقهم .

* * *

(١) الأنعام : الآية (١٢٤) .

(٢) الإسراء : الآيات (٩٠-٩٣) .

(٣) الفرقان : الآية (٢١) .

(٤) المدثر : الآية (٥٢) .

(٥) النساء : الآية (١٥٣) .

(٦) البقرة : الآية (٥٥) .

(٧) تفسير ابن كثير (١/٢٨٣) .

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

★ غريب الآية:

يوقنون: اليقين: هو ثبوت الأمر في القلب بحيث لا يخالجه شك، أصله من يَقَنَ الماء: إذا ثبت وسكن.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قد دللنا على أن الذين عنى الله - تعالى ذكره - بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾، هم النصارى، والذين قالوا مثل قولهم هم اليهود؛ سألت موسى ﷺ أن يريهم ربهم جهرة، وأن يسمعهم كلام ربهم كما قد بينا فيما مضى من كتابنا هذا وسألوا من الآيات ما ليس لهم مسألته تحكما منهم على ربهم. وكذلك تمت النصارى على ربها مثل أمانيتها، وأن قولهم الذي قالوه من ذلك، إنما يشابه قول اليهود، من أجل تشابه قلوبهم في الضلالة والكفر بالله. فهم وإن اختلفت مذاهبتهم في كذبهم على الله وافترائهم عليه، فقلوبهم متشابهة في الكفر بربهم والفرية عليه، وتحكمهم على أنبياء الله ورسله ﷺ»^(١).

وقال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ (٥٢) اتَّوَاصُوا بِهِ»^(٢) الآية»^(٣).

قال ابن جرير: «يعني - جل ثناؤه - بقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، قد بينا العلامات التي من أجلها غضب الله على اليهود، وجعل منهم القردة والخنازير، وأعد لهم العذاب المهين في معادهم؛ والتي من أجلها أخزى النصارى

(٢) الذاريات: الآيتان (٥٢ و ٥٣).

(١) جامع البيان (٢/ ٥٥٥ تحقيق شاك).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٣).

في الدنيا، وأعد لهم الخزي والعذاب الأليم في الآخرة، والتي من أجلها جعل سكان الجنان، الذين أسلموا وجوههم لله وهم محسنون في هذه السورة وغيرها. فأعلموا الأسباب التي من أجلها استحق كل فريق منهم من الله ما فعل به من ذلك، وخص الله بذلك القوم الذين يوقنون؛ لأنهم أهل التثبيت في الأمور، والطالبون معرفة حقائق الأشياء على يقين وصحة. فأخبر الله -جل ثناؤه- أنه بين لمن كانت هذه الصفة صفته ما بين من ذلك، ليزول شكه ويعلم حقيقة الأمر، إذ كان ذلك خبراً من الله -جل ثناؤه-، وخبر الله الخبر الذي لا يعذر سامعه بالشك فيه. وقد يحتمل غيره من الأخبار ما يحتمل من الأسباب العارضة فيه من السهو والغلط والكذب، وذلك منفي عن خبر الله ﷻ^(١).

وقال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أي قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل، بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى لمن أيقن وصدق واتبع الرسل، وفهم ما جاءوا به عن الله -تبارك وتعالى-، وأما من ختم الله على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة، فأولئك قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٢)»^(٣).

وقال ابن عطية: «لما تقدم ذكر الذين أضلهم الله حتى كفروا بالأنبياء وطلبوا ما لا يجوز لهم اتباع ذلك بذكر الذين بين لهم ما ينفع وتقوم به الحجة، لكن البيان وقع وتحصل للموقنين، فلذلك خصهم بالذكر، ويحتمل أن يكون المعنى قد بينا البيان الذي هو خلق الهدى، فكأن الكلام قد هدينا من هدينا، واليقين إذا اتصف به العلم خصصه وبلغ به نهاية الوثاقة، وقوله تعالى: ﴿بَيَّنَّا﴾ قرينة تقتضي أن اليقين صفة لعلمهم، وقرينة أخرى، وهي أن الكلام مدح لهم»^(٤).

وقال محمد رشيد رضا: «أي: أننا لم ندعك يا محمد بغير آية بل بينا الآيات على يديك بياناً لا يدع للريب طريقاً إلى نفس من يعقلها. وقد قال: ﴿بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ ولم يقل أعطيناك الآيات للتفرقة والفصل بين آيات القرآن التي هي من علم الله

(١) جامع البيان (٢/ ٥٥٧ تحقيق شاکر).

(٢) يونس: الآيتان (٩٦ و ٩٧).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٣).

(٤) المحرر الوجيز (١/ ٢٠٣).

وكلامه يظهر بها الحق بطريق معقول بين لا يشتبه فيه الفهم، ولا يحار فيه الذهن، وبين الآيات الكونية التي هي من صنعه يستخذي لها العقل ويخضع لها لشعوره بأنها من قوة فوق قوته. وللناس فيما يرونه فوق ما يعقلون طريقان معهودان: منهم من يسنده إلى القوة الغيبية العليا سواء كان له سبب خفي في الواقع أم لا ومنهم من يسنده إلى الأسباب الخفية التي يسمونها السحر، وإن كان فوق قدرة البشر، ولذلك ضلت الأمم في آيات الأنبياء السابقين وليس لأحد أن يضل في آيات القرآن لأنها بينة معقولة ولذلك قال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(١).

نعم إن الآيات العلمية لا يعقلها إلا أهل الاستعداد للعلم واليقين. ولذلك قال: ﴿لَقَوْمٍ يُؤَفَّقُونَ﴾^(٢).

* * *

(٢) تفسير المنار (١/٤٤١).

(١) البقرة: الآية (٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُنْشِلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (١١٩)

★ غريب الآية:

الجحيم: شدة توقد النار وإضرارها، وحجمت النار: أضرمتها وزدت في توقدها، وصار هذا الاسم كالعلم على جهنم. قال ابن أبي الصلت: إذا شبت جهنم ثم زادت وأعرض عن قوايسها الجحيم

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «ومعنى قوله -جل ثناؤه-: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: إنا أرسلناك يا محمد بالإسلام الذي لا أقبل من أحد غيره من الأديان، وهو الحق، مبشراً من اتبعك فأطاعك، وقبل منك ما دعوته إليه من الحق بالنصر في الدنيا، والظفر بالشواب في الآخرة، والنعيم المقيم فيها ومنذراً من عصاك فخالفك، ورد عليك ما دعوته إليه من الحق بالخزي في الدنيا، والذل فيها، والعذاب المهين في الآخرة»^(١).

وقال السعدي رحمه الله: «ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ وصحة ما جاء به فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور: الأول، في نفس إرساله، والثاني، في سيرته وهديه ودله. والثالث في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة. فالأول والثاني، قد دخلا في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾. والثالث في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾.

وبيان الأمر الأول وهو نفس إرساله أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ، وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران، والصليبان، وتبديلهم للأديان، حتى كانوا

(١) جامع البيان (٢/ ٥٥٧-٥٥٨ تحقيق شاكر).

في ظلمة من الكفر، قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقروا قبيل البعثة.

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملاً؛ لأنه حكيم عليم، قدير رحيم.

فمن حكمته ورحمته بعباده، أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فبمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله.

وأما الثاني، فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة، ونشوءه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك، قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للنظرين، فمن عرفها، وسبر أحواله، عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين؛ لأنه تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.

وأما الثالث، فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم، والقرآن الكريم، المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالشيء الثابت المتحقق الذي لا يضل من يأخذه به، ولا تعبت به رياح الأباطيل والأوهام، بل يكون الآخذ به سعيداً بالطمأنينة واليقين. قال الأستاذ الإمام: إن الحق في هذا المقام يشمل العلوم الاعتقادية وغيرها، فهو يقول: إنا أرسلناك بالعقائد الحق المطابقة للواقع، والشرائع الصحيحة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿بَشِيرًا﴾ لمن يتبع الحق بالسعادتين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن لا يأخذ به بشقاء الدنيا وخزي الآخرة، ﴿وَلَا تَسْأَلُ عَنْ أَهْوَابِ الْجَحِيمِ﴾ أي: فلا يضرك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم إلى الجحيم؛ لأنك لم تبعث ملزماً لهم، ولا جباراً عليهم، فيعد عدم إيمانهم تقصيراً منك تسأل عنه، بل بعثت معلماً وهادياً بالبيان والدعوة، وحسن الأسوة، لا هادياً بالفعل ولا ملزماً بالقوة، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي

(١) تفسير السعدي (١/ ١٣١-١٣٣).

مَنْ يَشْكَاُ، وفي الآية تسليّة للنبي -عليه الصلاة والسلام- لثلاث يضيّق صدره كما تدل على ذلك آيات أخرى، وفي الآية من العبرة أن الأنبياء بعثوا معلمين لا مسيطرين، ولا متصرفين في الأنفس ولا مكرهين، فإذا جاهدوا فإنما يجاهدون دفاعاً عن الحق لا إكراهاً عليه. وفيها أن الله تعالى لا يطالب الناس بأن يأخذوا عنهم إلا العلم؛ الذي يهديهم إلى معرفة حقوق الله، وحقوق العباد^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان بعض صفات الرسول ﷺ

* عن عطاء بن يسار قال: (لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء؛ بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح بها أعين عمي وأذان صم وقلوب غلف)^(٢).

* غريب الحديث:

حرزاً: أي: حافظاً وأصل الحرز الموضع الحصين.

الفظ: سيئ الخلق الجافي.

الغليظ: قاسي القلب.

السخاب في الأسواق: الذي يرفع صوته على الناس لسوء خلقه ويكثر الصياح

عليهم.

الملة العوجاء: ملة إبراهيم قد اعوجت في الفترة بالتبديل والنقص والزيادة.

ووصفها بالعوج لما دخل فيها من عبادة الأصنام.

الغلف: هو الذي لا يفهم كأن قلبه في غلاف.

(١) تفسير المنار (١/ ٤٤٢-٤٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٤) والبخاري (٤/ ٤٣١ / ٢١٢٥).

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «في هذا الحديث مدح النبي ﷺ ببعض صفاته الشريفة التي خصه الله تعالى بها وجبله عليها»^(١).

من هذه الأوصاف:

«أنه شاهد على الأمة ومبشر للمطيعين بالجنة والعصاة بالنار، أو أنه شاهد للرسول قبله بالإبلاغ»^(٢).

«أنه سمي بالمتوكل لقناعته باليسير من الرزق، واعتماده على الله تعالى بالتوكل عليه في الرزق والنصر، والصبر على انتظار الفرج والأخذ بمحاسن الأخلاق»^(٣).

«أنه لين الجانب، شريف النفس لا يرفع الصوت على الناس لسوء خلقه، ولا يكثر الصياح عليهم في الأسواق لدنائه، بل يلين لهم ويرفق بهم»^(٤).

«أنه يعفو ويغفر ما لم تنتهك حرمة الله تعالى، فإذا انتهكت كان أشدهم غضبا».

«أن الله أقام به عوج الكفر حتى ظهر دين الإسلام، ووضحت أعلامه، وأيد الله نبيه بالصبر والأناة، والسياسة لنفوس العالمين، والتوكل على الله»^(٥).

(١) شرح البخاري (٢٥٤/٦).

(٣) شرح ابن بطال (٢٥٤/٦).

(٥) شرح ابن بطال (٢٥٤/٦).

(٢) الفتح (٧٥٣/٨).

(٤) شرح الطيبي (٣٦٣٩/١١).

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾^(١)

★ غريب الآية:

مِلَّتَهُمْ: الملة: النحلة والدين. والفرق بينهما أن الملة لا تضاف إلا للنبي الذي تسند إليه نحو: ﴿أَنْ أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٢). ولا تكاد توجد مضافة إلى الله تعالى، ولا إلى آحاد الأمة، بخلاف الدين.

قال القرطبي: «الملة: اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه وعلى السنة رسله، فكانت الملة والشريعة سواء؛ فأما الدين فقد فرق بينه وبين الملة والشريعة؛ فإن الملة والشريعة ما دعا الله عباده إلى فعله، والدين ما فعله العباد عن أمره».

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، وليست اليهود، يا محمد، ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم، ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم؛ لأن اليهودية ضد النصرانية، والنصرانية ضد اليهودية، ولا تجتمع النصرانية واليهودية في شخص واحد، في حال واحدة. واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك، إلا أن تكون يهوديا نصرانيا، وذلك مما لا يكون منك أبداً؛ لأنك شخص واحد، ولن يجتمع فيك دينان متضادان في حال واحدة. وإذا لم يكن إلى اجتماعهما فيك في وقت واحد سبيل، لم يكن لك إلى إرضاء الفريقين سبيل. وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل، فالزم هدى الله الذي لجميع الخلق إلى الألفة عليه سبيل»^(٣).

وقال محمد رشيد رضا: «ثم قال ﷺ: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ

(١) البقرة: الآية (١٢٠).

(٢) النحل: الآية (١٢٣).

(٣) جامع البيان (٢/٥٦٢-٥٦٣ تحقيق شاكرو).

وقال في معنى الآية: من شأن الإنسان أن يتألم من القبيح أشد التألم إذا وقع ممن لا يتوقع منه، فكان النبي -عليه الصلاة والسلام- يرجو أن يبادر أهل الكتاب إلى الإيمان به، وأن لا يرى منهم المكابرة والمجاحدة والعناد، ولهذا كبر عليه أن رأى من إعراض اليهود والنصارى عن إجابة دعوته، وإسرافهم في مجاحدته، أشد مما رأى من مشركي العرب الذين جاء لمحو دينهم من الأرض، مع موافقته لأهل الكتاب في أصل دينهم، ومقصده من توحيد الله تعالى والإخلاص له، وتقويم عوج الفطرة الإنسانية الذي طرأ عليها بسبب التقاليد، وترقية المعارف الدينية إلى أعلى ما استعد له الإنسان من الارتقاء العقلي والأدبي، ولذلك كان يخاطبهم بمثل قوله تعالى: ﴿قَدْ يَأْكُلُ الْكَتِبَ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ﴾^(١) الآية، وغيرها من الآيات. ولقد كان من الصعب لولا إعلام الله تعالى أن تعرف درجة فتك التقليد بعقول أهل الكتاب، وإفساد الأهواء لقلوبهم، لذلك سلى الله تعالى نبيه عما كان يجده من عنادهم، وإيذاهم بآيات كثيرة، عرفه فيها حقيقة حالهم، منها هذه الآية الناطقة بأن كلاً من اليهود والنصارى على اتحادهم في أصل الدين قد تعصب

(١) آل عمران: الآية (٦٤).

لتقاليده، واتخذ الدين جنسية لا يرضيه من أحد شيء، إلا الدخول فيها وقبول لقبها
فقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَبْغَىٰ يَلَتَهُمْ﴾ مراد به ما هم عليه من التقاليد والأهواء، التي غيروا
بها وجه الدين الواحد، حتى صار بعضهم يحكم بكفر بعض^(١).

* * *

(١) تفسير المنار (١/٤٤٣-٤٤٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «ثم قال -جل ثناؤه- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء النصارى واليهود الذين قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾^(٢): ﴿إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾؛ يعني: إن بيان الله هو البيان المقنع، والقضاء الفاصل بيننا، فهلموا إلى كتاب الله وبيانه الذي بين فيه لعباده ما اختلفوا فيه، وهو التوراة التي تقرون جميعاً بأنها من عند الله يتضح لكم فيها المحق منا من المبطل، وأينا أهل الجنة وأينا أهل النار، وأينا على الصواب وأينا على الخطأ.

وإنما أمر الله نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى هدى الله وبيانه؛ لأن فيه تكذيب اليهود والنصارى فيما قالوا: من أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى، وبيان أمر محمد ﷺ، وأن المكذب به من أهل النار دون المصدق به»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة اتباع الحق

* عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال: «لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»^(٤).

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «وأما هذه الطائفة فقال البخاري: هم أهل العلم، وقال أحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم، قال القاضي عياض: إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث، قلت: ويحتمل أن

(٢) البقرة: الآية (١١١).

(١) البقرة: الآية (١٢٠).

(٣) جامع البيان (٢/٥٦٣ تحقيق شاكر).

(٤) أخرجه أحمد (٤/٢٤٤-٢٤٨-٢٥٢) والبخاري (٦/٧٨٤/٣٦٤٠) ومسلم (٣/١٥٢٣/١٩٢١). من طرق

قيس عن المغيرة بن شعبة مرفوعاً.

هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وأمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض، وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة، فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبي ﷺ إلى الآن، ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور في الحديث، وفيه دليل لكون الإجماع حجة، وهو أصح ما استدلل به له من الحديث^(١).

قلت: هذا الحديث على وجازة ألفاظه وقلة كلماته يحمل منهاجاً كبيراً يدل عليه، فدين الإسلام تكفل الله بحفظه كتاباً وسنة، منذ البعثة وإلى أن تقوم الساعة، وهو الهدى، فمن خرج عليه ضل وأضل، ولهذا وصف رسول الله ﷺ الفرق الناجية بأنها ما كان عليه ﷺ وأصحابه، فالهدى محصور في القرآن والسنة ومما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم من كان على منهاجهم، فمن دعا إلى هذا المنهج وأحياه على طريق النبوة والرسالة فهو من المجددين الذين جاء ذكرهم والخبر عنهم في الحديث: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»^(٢) ولهذا صح عن النبي ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها»^(٣) والقصد هو إحيائها وتعليمها ونصرتها، فلهذا ما ذكره بعض المؤلفين في المجددين حيث ذكروا مجموعة غالبيتهم من المخالفين للسنة كالغزالي والجويني، وبعض المخرفين الذين كان لهم قدم سوء في الإسلام، فهذا مما ينبغي أن يعلم، فالتجديد حقاً إحياء القرآن بكل سورة وآياته حفظاً وتجويداً، وفهماً وعلماً وعملاً، والتحذير من كل ما يخالف المنهاج السلفي في تفسير كتاب الله، وكذلك إحياء السنة بمصنفاتها المشهورة ومتونها وأسانيدها، وكل ما يخدم أهدافها، وكذلك

(١) شرح مسلم (١٣/٥٧-٥٨).

(٢) أخرجه: أبو داود (٤/٢٨٠-٤٢٩١)، والحاكم (٤/٥٢٢) وسكت عنه، قال الشيخ الألباني: «سكت عنه الحاكم والذهبي، أما المناوي فنقل عنه أنه صححه، فلعله سقط ذلك من النسخة المطبوعة من المستدرک، والسند صحيح، رجاله ثقات رجال مسلم» الصحيحة (٢/١٤٨-٥٩٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/٣٥٨-٣٥٩)، ومسلم (٢/٧٠٤-٧٠٥)، والترمذي (٥/٤٢٧٥)، والنسائي (٥/٧٩-٢٥٥٣)، وابن ماجه (١/٧٤-٢٠٣) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

إحياء ما اندرس من العقائد السلفية بمصنفاتها ورجالاتها ، فهؤلاء هم الذين على الهدى ، وهم الذين قال فيهم الرسول ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك »^(١) ، وظهورهم يتجلى في نصرتهم للكتاب والسنة ، أما المحرفون من الرافضة والصوفية ، والمتهوكون من المتكلمين والفلاسفة ؛ فلا حظ لهم من هذا الوعد الذي أخبر به النبي ﷺ .

* * *

(١) أخرجه : أحمد (٢٤٤/٤) ، والبخاري (١٣/٣٦٣/٧٣١١) ، ومسلم (٣/١٥٢٣/١٩٢١) .

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

★ غريب الآية:

أهواءهم: واحدتها: هوى. وهو ما تميل إليه النفس وتحبه من الشهوات والشبهات؛ قال الشاعر:

هواي مع الركب اليماني مضعِدٌ حبيبٌ وجثماني بمكة مؤثِقُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ﴾، يا محمد، هوى هؤلاء اليهود والنصارى فيما يرضيهم عنك من تهود وتنصر، فصرت من ذلك إلى إرضائهم، ووافقت فيه محبتهم من بعد الذي جاءك من العلم بضلالهم وكفرهم بربهم، ومن بعد الذي اقتضت عليك من نبئهم في هذه السورة مالك من الله من ولي يعني بذلك: ليس لك يا محمد من ولي يلي أمرك، وقيم يقوم به، ولا نصير ينصرك من الله فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته، ويمنعك من ذلك، إن أحل بك ذلك ربك. . . وقد قيل: إن الله -تعالى ذكره- أنزل هذه الآية على نبيه محمد ﷺ؛ لأن اليهود والنصارى دعتهم إلى أديانها، وقال كل حزب منهم: إن الهدى هو ما نحن عليه، دون ما عليه غيرنا من سائر الملل. فوعظه الله أن يفعل ذلك، وعلمه الحجة الفاصلة بينهم فيما ادعى كل فريق منهم»^(١).

وقال ابن كثير: «فيه تهديد ووعد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعدما علموا من القرآن والسنة، عياذا بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأئمة»^(٢).

وقال الرازي: «فيها دلالة على أن اتباع الهوى لا يكون إلا باطلاً، فمن هذا

(٢) تفسير ابن كثير (١/٢٨٦).

(١) جامع البيان (٢/٥٦٣-٥٦٤ تحقيق شاكر).

الوجه يدل على بطلان التقليد»^(١).

وقال الشوكاني: «وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذي ترجف له القلوب وتتصدع منه الأفئدة، ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه والقائمين ببيان شرائعه، ترك الدهان لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء، التاركين للعمل بالكتاب والسنة، المؤثرين لمحض الرأي عليهما؛ فإن غالب هؤلاء وإن أظهر قبولاً وأبان من أخلاقه لنا لا يرضيه إلا اتباع بدعته والدخول في مداخله والوقوع في حباله، فإن فعل العالم ذلك بعد أن علمه الله من العلم ما يستفيد به أن هدى الله هو ما في كتابه وسنة رسوله، لا ما هم عليه من تلك البدع التي هي ضلالة محضة، وجهالة بينة ورأي منهار، وتقليد على شفا جرف هار، فهو إذ ذاك ماله من الله من ولي ولا نصير ومن كان كذلك فهو مخذول لا محالة وهالك بلا شك ولا شبهة»^(٢).

* * *

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٥).

(٢) فتح القدير (١/ ٢٠٠-٢٠١).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٢١)

★ غريب الآية:

يتلونونه: يتبعونه، من تلا الشيء إذا تبعه. قال تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ إِذَا تُلَّيْنَاهُ﴾^(١) أي: اتبعها.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذين عناهم الله -جل ثناؤه- بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾. فقال بعضهم: هم المؤمنون برسول الله ﷺ وبما جاء به، من أصحابه... وقال آخرون: بل عنى الله بذلك علماء بني إسرائيل، الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، فأقروا بحكم التوراة. فعملوا بما أمر الله فيها من اتباع محمد ﷺ، والإيمان به، والتصديق بما جاء به من عند الله... وهذا القول أولى بالصواب من القول الذي قاله قتادة؛ لأن الآيات قبلها مضت بأخبار أهل الكتابين، وتبديل من بدل منهم كتاب الله، وتأولهم إياه على غير تأويله، وادعائهم على الله الأباطيل، ولم يجز لأصحاب محمد ﷺ في الآية التي قبلها ذكر، فيكون قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، موجهاً إلى الخبر عنهم، ولا لهم بعدها ذكر في الآية التي تتلوها، فيكون موجهاً ذلك إلى أنه خبر مبتدأ عن قصص أصحاب رسول الله ﷺ، وبعد انقضاء قصص غيرهم؛ ولا جاء بأن ذلك خبر عنهم أثر يجب التسليم له.

فإذ كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بمعنى الآية، أن يكون موجهاً إلى أنه خبر عن قص الله -جل ثناؤه- قصصهم في الآية قبلها والآية بعدها، وهم أهل الكتابين التوراة والإنجيل. وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: الذين آتيناهم الكتاب الذي قد عرفته يا محمد وهو التوراة فقرأوه واتبعوا ما فيه، فصدقوك وآمنوا بك وبما جئت به

(١) الشمس: الآية (٢).

من عندي، أولئك يتلونه حق تلاوته»^(١).

وقال: «فمعنى الكلام: الذين آتيناهم الكتاب، يا محمد من أهل التوراة الذين آمنوا بك وبما جئتهم به من الحق من عندي، يتبعون كتابي الذي أنزلته على رسولي موسى -صلوات الله عليه-، فيؤمنون به ويقرون بما فيه من نعتك وصفتك، وأنتك رسولي، فرض عليهم طاعتي في الإيمان بك والتصديق بما جئتهم به من عندي، ويعملون بما أحللت لهم، ويجتنبون ما حرمت عليهم فيه، ولا يحرفونه عن مواضعه، ولا يبدلونه ولا يغيرونه كما أنزلته عليهم بتأويل ولا غيره.

أما قوله: ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، فمبالغة في صفة اتباعهم الكتاب ولزومهم العمل به، كما يقال: إن فلانًا لعالم حق عالم، وكما يقال: إن فلانًا لفاضل كل فاضل»^(٢).

وقال: «فأخبر الله -جل ثناؤه- أن المؤمن بالتوراة، هو المتبع ما فيها من حلالها وحرامها، والعامل بما فيها من فرائض الله التي فرضها فيها على أهلها، وأن أهلها الذين هم أهلها من كان ذلك صفته، دون من كان محرفًا لها، مبدلًا وتأويلها، مغيرًا سننها، تاركًا ما فرض الله فيها عليه.

وإنما وصف -جل ثناؤه- من وصف بما وصف به من متبعي التوراة، وأثنى عليهم بما أثنى به عليهم؛ لأن في اتباعها اتباع محمد نبي الله ﷺ وتصديقه؛ لأن التوراة تأمر أهلها بذلك، وتخبرهم عن الله -تعالى ذكره- بنبوته، وفرض طاعته على جميع خلق الله من بني آدم، وأن في التكذيب بمحمد التكذيب لها. فأخبر -جل ثناؤه- أن متبعي التوراة هم المؤمنون بمحمد ﷺ، وهم العاملون بما فيها»^(٣).

وقال محمد رشيد رضا: «الصلة بين قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ الآية وبين ما قبلها واضحة جلية، وهي أن هذه جاءت في موضع الاستدراك على ما سبقها من إيناس النبي والمؤمنين من أهل الكتاب، فقد علمنا أن آية ﴿وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾^(٤) قد سلت ما كان يخالج النفوس من الرجاء بإيمان أهل الكتاب كلهم؛ وهذه الآية تنطق بأن منهم من يرجى إيمانه وهم الذين وصفهم بما هو علة

(٢) جامع البيان (٢/ ٥٧٠) تحقيق شاكر.

(١) جامع البيان (٢/ ٥٦٤-٥٦٥) تحقيق شاكر.

(٣) جامع البيان (٢/ ٥٧١-٥٧٢) تحقيق شاكر.

(٤) البقرة: الآية (١٢٠).

الرجاء ومناط الأمل وهو تلاوة كتابهم حق تلاوته، وعدم الجمود على الظواهر والتقاليد، والاكتفاء بالأمامي والظنون، كأنه يقول إن كانت نفسك تحدثك بأن أهل الكتاب أقرب إلى الإيمان بما جئت به لأنه يشبه ما عندهم ويصدق أنبياءهم وأصول شرائعهم من حيث يقتلع جذور دين الوثنيين ويمحوه محوا فيكون الوثنيون أجدر من أهل الكتاب بمعاندتك ومجاحدثك، فاعلم أن هؤلاء قد ألحقوا بدينهم من التقاليد والمخترعات، وألصقوا به من البدع والعادات، ما غرهم في دينهم بغير فهم، وجعلهم يتعصبون له بغير عقل، فكانوا بذلك أبعد عن حقيقة الإيمان من أولئك الذين يعبدون الأوثان، وذلك أنهم اتخذوا الدين جنسية فليس لهم منه إلا الجمود على عادات صارت مميزة للمنتسبين إليه، ولكن لا يزال فيهم نفر يرجى منهم تدبر الشيء والتمييز بين الحق والباطل وهم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم يتلون حق تلاوته أي يفهمون أسرارهم ويفقهون حكمة تشريعهم، وفائدة نوط التكليف به، لا يتقيدون في ذلك بآراء من سبقهم فيه، ولا بتحريفهم كلمه عن مواضعه، ﴿أُولَئِكَ﴾ هم الذين يقدرون ما جئت به من الترقى في الدين، وإقامة قواعده على الأساس المتين، و﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بعد العلم بأنه الحق الذي يزيل ما بينهم من الخلاف، ويهديهم إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ من الرؤساء المعاندين والمقلدين الجاهلين وهم الأكثرون، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لهذه السعادة، المحرومون مما يكون للمؤمنين من المجد والسيادة، سواء كان كفرهم بتحريفه ليوافق مذاهبهم التقليدية، أم بإهماله اكتفاء بقول علمائهم^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في عموم رسالة النبي ﷺ للإنس والجن

* عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به؛ إلا كان من أصحاب النار»^(٢).

(١) تفسير المنار (١/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٠) ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٣).

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «قوله ﷺ: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة...» فيه دليل على أن من في أطراف الأرض وجزائر البحر المقطعة ممن لم تبلغه دعوة الإسلام ولا أمر النبي ﷺ؛ أن الحرج عنه في عدم الإيمان به ساقط لقوله: «لا يسمع بي»، إذ طريق معرفته والإيمان به ﷺ مشاهدة معجزته وصدقه أيام حياته، أو صحة النقل بذلك والخبر لمن لم يشاهده وجاء بعده، بخلاف الإيمان بالله وتوحيده الذي يوصل إليه بمجرد النظر الصحيح ودليل العقل السليم»^(١).

قال القرطبي: «وفيه دليل على أن من لم تبلغه دعوة رسول الله ﷺ ولا أمره لا عقاب عليه، ولا مؤاخذه، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(٢) ومن لم تبلغه دعوة الرسول ولا معجزته فكأنه لم يبعث إليه رسول»^(٣).

قلت: فدعوة الرسول محمد ﷺ أصبحت واضحة لكل الأمم والشعوب، وخبرها منتشر في كل الآفاق، ووسائل الإعلام والاتصال، ووسائل الترجمة بكل اللغات مما يسر ذلك. ومحاربة أهل الكفر من يهود وصليبيين ومرتدين وزنادقة للرسول ﷺ في كل مكان، ومحاولة تشويه دينه وذاته الشريفة المباركة بتصوير أفلام عنه بكل اللغات تارة، ورسوم كاريكاتورية تارة أخرى؛ كل هذا يدل على بلوغ دعوته إلى كل أهل الأرض، فلا عذر لهم في التخلف عن الإيمان به ومحبه ونصرته وكل ما يتعلق بدينه، فهذا الحديث آية من آيات نبوته، فقد وقع ما أخبر به، فسمع بدعوته اليهود والنصارى وكل مخالف له، فالذين لا يؤمنون به بعد بلوغ دعوته إليهم لا محالة أنهم من أهل النار، وكل من قصر في نصرة دعوته من أهل الإسلام - كل بحسبه - فهم تحت المشيئة، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم، فيجب على المسلمين أن ينفروا كافة في كل الأرض للدعوة إلى هذا الدين، بكل الوسائل التي يملكونها، وإلا وقعوا في نصوص الوعيد.

(٢) الإسراء: الآية (١٥).

(١) إكمال المعلم (١/٤٦٨).

(٣) المفهم (١/٣٦٨).

قوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٢٢﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «وهذه الآية عظة من الله - تعالى ذكره - لليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ، وتذكير منه لهم ما سلف من أياديه إليهم في صنعه بأوائلهم، استعطافاً منه لهم على دينه وتصديق رسوله محمد ﷺ، فقال: يا بني إسرائيل اذكروا أيادي لديكم، وصنائعي عندكم، واستنقاذي إياكم من أيدي عدوكم فرعون وقومه، وإنزالي عليكم المن والسلوى في تيهكم، وتمكيني لكم في البلاد بعد أن كنتم مذللين مقهورين، واختصاصي الرسل منكم، وتفضيلي إياكم على عالم من كنتم بين ظهرانيه، أيام أنتم في طاعتي باتباع رسولي إليكم، وتصديقه وتصديق ما جاءكم به من عندي، ودعوا التماذي في الضلال والغنى»^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «أقام الله تعالى الحجج الدامغة على أهل الكتاب ثم ناداهم ودعاهم إلى ترك أسباب الغرور المانع من الإيمان فقال: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وقد سبق التذكير بهذه النعمة في أول المحاجة، ثم أعيد هنا للمناسبة الظاهرة، وهي أنه بعد ما ذكر أن الإعراض عن تدبر الكتاب والتفقه فيه هو كفر به، ذكرهم بأنه لا يليق بمن كرمه ربه وفضله على غيره من الشعوب بإيثاره الكتاب أن يكون حظه منه كحظ الحمار يحمل أسفاراً. فإذا كان ابتداء العظة والدعوة بذكر هذا التفضيل لتتوجه إليها الأنظار وتصغى إليها الأسماع... فلا غرو أن يذكر هذا التفضيل ثانياً بعد التوبيخ والتقريع، لإزالة ما ربما يحدثه ذلك من الاستياء الذي يتوقع أن يكون من أسباب التنفير عما في الآية التالية، وليس هذا من التكرار الذي يتحاماها البلغاء، وإنما هو من إعادة الشيء لإفادة ما لا يستفاد بدونه. كأن هذه الآية تمهيدا لما بعدها، وهو فذلكة القصة، والمقصود من إقامة الحجة»^(٢).

(١) جامع البيان (٢/ ٥٧٣ تحقيق شاكر).

(٢) تفسير المنار (١/ ٤٥٠-٤٥١).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿١٠١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذه الآية ترهيب من الله - جل ثناؤه - للذين سلفت عظته إياهم بما وعظهم به في الآية قبلها . يقول الله لهم : واتقوا يا معشر بني إسرائيل ، المبدلين كتابي وتنزيلي ، المحرفين تأويله عن وجهه ، المكذبين برسولي محمد ﷺ عذاب يوم لا تقضي فيه نفس عن نفس شيئا ، ولا تغني عنها غناء أن تهلكوا على ما أنتم عليه من كفركم بي ، وتكذيبكم رسولي ، فتموتوا عليه ، فإنه يوم لا يقبل من نفس فيما لزمها فدية ، ولا يشفع فيما وجب عليها من حق لها شافع ، ولا هم ينصرهم ناصر من الله إذا انتقم منها بمعصيتها إياه»^(١).

وقال محمد رشيد رضا : «فلا ينفعكم يوم القيامة أن تعتذروا عن الإعراض عن فهم كتاب الله بأن بعض سلفكم كانوا يفهمونه ويتدبرونه ، وأنكم استغنيتم بتدبرهم وفهمهم عن أن تفهموا وتتدبروا ، فإنه يوم لا يغني فيه أحد عن أحد شيئا . ويؤيد الآية حديث الصحيحين «يا فاطمة يا بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا» إلخ وإذا كان لا يجزي فهم سلفكم عنكم أنكم أعرضتم عن هداية كتابه فلا تنفعكم شفاعتهم أيضا ، كما أنه لا يقبل منكم عدل وفداء تعتقدون به وتجعلونه معادلا لما فرطتم فيه كما قال : ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ﴾ وكانوا يعتقدون بالمكفرات تؤخذ عدلا عما فرطوا فيه وبشفاعة أنبيائهم فأخبرهم الله تعالى أنه لا يقوم مقام الاهتداء بكتابه شيء آخر ، ثم قطع جبل رجائهم من كل ناصر ينصرهم فقال : ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي : أنه لا يأتيهم نصر من هاتين الجهتين ، ولا من غيرهما»^(٢).

(٢) تفسير المنار (١/ ٤٥١).

(١) جامع البيان (٢/ ٥٧٤ تحقيق شاکر).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الإنسان يرفعه عمله الصالح لا نسبه

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﻋَلَيْكَ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١) قال: «يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً. يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً. ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال ابن تيمية: «... الذي ينفع الناس طاعة الله ورسوله. وأما ما سوى ذلك فإنه لا ينفعهم لا قرابة ولا مجاورة ولا غير ذلك... وأما ما يظنه بعض الناس من أن البلاء يندفع عن أهل بلد أو إقليم بمن هو مدفون عندهم من الأنبياء والصالحين، كما يظن بعض الناس أنه يندفع عن أهل بغداد البلاء لقبور ثلاثة: أحمد بن حنبل، وبشر الحافي، ومنصور بن عمار، ويظن بعضهم أنه يندفع البلاء عن أهل الشام بمن عندهم من قبور الأنبياء الخليل وغيره ﷺ، وبعضهم يظن أنه يندفع البلاء عن أهل مصر بنفيسة أو غيرها. أو يندفع عن أهل الحجاز بقبر النبي ﷺ وأهل البقيع أو غيرهم. فكل هذا غلو مخالف لدين الإسلام، مخالف للكتاب والسنة والإجماع. فالبيت المقدس كان عنده من قبور الأنبياء والصالحين ما شاء الله، فلما عصوا الأنبياء وخالفوا ما أمر الله به ورسله سلط عليهم من انتقم منهم. والرسول الموتى ما عليهم إلا البلاغ المبين، وقد بلغوا رسالة ربهم. وكذلك نبينا ﷺ قال الله تعالى في حقه: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(٤).

(١) الشعراء: الآية (٢١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٠/٢) والبخاري (٢٧٥٣/٤٨٠/٥) ومسلم (٢٠٤/١٩٢/١) والترمذي (٣١٦/٥-٣١٧).

(٣) الشورى: الآية (٥٥٨-٥٦٠/٣٦٤٦-٣٦٤٩).

(٤) النور: الآية (٥٤) والعنكبوت: الآية (١٨).

(٣) الشورى: الآية (٤٨).

وقد ضمن الله لكل من أطاع الرسول أن يهديه وينصره. فمن خالف أمر الرسول استحق العذاب ولم يغن عنه أحد من الله شيئاً. كما قال النبي ﷺ: «يا عباس! عم رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً. يا صفية عممة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً. يا فاطمة بنت رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً». وقال ﷺ لمن ولاه من أصحابه: «لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بغير له رغاء يقول: يا رسول الله أغثنني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد بلغتكم»^(١)»^(٢).

قلت: هذا الفهم للآية من أئمة الإسلام؛ ابن جرير من المتقدمين، ومحمد رشيد رضا من المتأخرين في أن كتب الله يجب أن تتعلق بها كل فئة زماناً أو مكاناً بفهم صحيح يليق بها، وبالنسبة لأهل الإسلام فإن فهم سلفهم لكتاب الله أمر لا بد من اعتماده في الاستضاءة، والتفني من ظلاله وعدم الخروج عنه، مع بقاء دلالة الكتاب والسنة على ما يوافق حاجة الأمة ومبتغاها ومطلوبها قائماً إلى أن تقوم الساعة، فلا يستغنى عن التعلق بكتاب الله بفهم علان أو زيدان من الناس، ولا سيما المنحرفين عن الصراط المستقيم، كالذين قرءوا القرآن وجعلوه رمزاً لمنهجهم الضالة، وسموا ذلك بأسماء يخدعون بها الناس كالتفسير الإشاري، وأن القرآن له ظاهر وباطن، وأن الصفات لا يقصد بها ظاهرها، وأن لها معاني يسميها أصحابها بالمجاز، وهو كذب وبهتان، وتنزيل الآيات على مقاصد لا يدل عليها سابقها ولا لاحقها.

ما أشار إليه شيخ الإسلام من اعتقادات في مقبور البلد هو من الاعتقادات الباطلة التي تسلسل تاريخها في الأمة الإسلامية واتسع، فلا تجد قرية ولا مدينة إلا وترى كثيراً من أهلها يعتقدون - كما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية - أنها محفوظة بأولئك الأموات الذين يسمونهم بالأولياء أو برجال البلد، ولهذا تجد دائماً على ألسنتهم نحن في حفظ الله وفي حفظ رجال البلد، هذا إن أشرك الله في هذا الأمر، وإلا أفردوا رجال البلد به وجردوا الله عما اختص به، فيقسمون بهم ويلجؤون إليهم في الملمات، ويستغيثون بهم في القحط وفي النوازل، ولهذا أوكلهم الله إلى

(١) أخرجه أحمد (٤٢٦/٢) والبخاري (٣٠٧٣/٢٢٨/٦) ومسلم (١٤٦١/٣/١٤٦٢/١٨٣١) من حديث أبي هريرة.
(٢) مجموع الفتاوى (٤٣٥-٤٣٦).

أمواتهم، وسلط عليهم البلاء من كل جانب، فأراهم أن أمواتهم لا يملكون لهم ضرراً ولا نفعاً.

وهذه الصفة - مع الأسف - منتشرة في معظم العالم الإسلامي والقرآن يتلى فيه آناء الليل وأطراف النهار، وتقرأ فيه سيرة رسول الله ﷺ ويزعم له المحبة، لكن كثيراً من أهله يخالفون منهاج النبوة والرسالة، إلا من حفظه الله من هذا التاريخ المشؤوم؛ تاريخ الشرك الصريح الذي ما كان يعتقدُه أهل الجاهلية في جاهليتهم، وما اعتقدوه في أصنامهم، وإن شئت مزيداً من البيان والإيضاح؛ فاقراً ما كتبه صاحب الإبريز في الديوان المزعوم، الذي سطر فيه الإثم والعدوان، والكذب والبهتان ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٥٩﴾ وهو الذي يتوَفَّنكم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ﴿١﴾، وقال: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ ﴿٢﴾، وقال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ﴾ ﴿٣﴾، وقال: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ﴿٤﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي يعرفها الصبيان. وحفظ الكون هو لمن خلقه وصنعه، لا لمن هو من الكون مصنوع مخلوق ضعيف، قبضة روحه بيد الملك، ويبعث ماثلاً بين يدي الله لا حول له ولا قوة، فما هذا الهراء الذي ينشره عبدة الأوثان باسم الولاية والصلاح، وغيرها من الأسماء التي ظاهرها الرحمة وباطنها الشرك والعذاب. نسأل الله السلامة والعافية.

* * *

(٢) الأنعام: الآية (١٧).

(٤) الجن: الآية (٦).

(١) الأنعام: الآيتان (٥٩ و ٦٠).

(٣) الزمر: الآية (٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾^(١)

★ غريب الآية:

ابتلى: أي اختبر، والابتلاء يكون في الخير والشر.
 أتمهن: التمام: الكمال. خلافه النقصان، تقول: تم الأمر تمامًا، إذا كمل، والمعنى: عملَ بهن.
 إمامًا: الإمام القدوة، ومنه قيل لخيط البناء: إمام، وللطريق: إمام؛ لأنه يأم فيه للمسالك؛ أي: يقصد. والمعنى جعلناك للناس إمامًا يأتون بك في هذه الخصال، ويقتدي بك الصالحون.
 ذريتي: الذرية: الولد والنسل، يقال: ذرية فلان؛ أي: أولاده ونسله.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وكان اختبار الله - تعالى ذكره - إبراهيم، اختبارًا بفرائض فرضها عليه، وأمر أمره به. وذلك هو (الكلمات) التي أوحاهن إليه، وكلفه العمل بهن، امتحانا منه له واختبارًا. ثم اختلف أهل التأويل في صفة (الكلمات) التي ابتلى الله بها إبراهيم نبيه وخليفه - صلوات الله عليه - .
 فقال بعضهم: هي شرائع الإسلام، وهي ثلاثون سهمًا . . .
 وقال آخرون: هي خصال عشر من سنن الإسلام . . .
 وقال بعضهم: بل (الكلمات) التي ابتلي بهن عشر خلال، بعضهن في تطهير الجسد، وبعضهن في مناسك الحج . . .
 وقال آخرون: بل ذلك: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ في مناسك الحج . . .

وقال آخرون: بل ذلك الخلال الست: الكوكب والقمر والشمس والنار والهجرة والختان التي ابتلي بهن فصبر عليهن . . .».

ثم قال: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله ﷻ أخبر عباده أنه اختبر إبراهيم خليله بكلمات أوحاهن إليه، وأمره أن يعمل بهن فآتمهن، كما أخبر الله -جل ثناؤه- عنه أنه فعل. وجائز أن تكون تلك الكلمات جميع ما ذكره من ذكرنا قوله في تأويل (الكلمات)، وجائز أن تكون بعضه؛ لأن إبراهيم -صلوات الله عليه- قد كان امتحن فيما بلغنا بكل ذلك، فعمل به، وقام فيه بطاعة الله وأمره الواجب عليه فيه. وإذا كان ذلك كذلك، فغير جائز لأحد أن يقول: عنى الله بالكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم شيئاً من ذلك بعينه دون شيء، ولا عنى به كل ذلك، إلا بحجة يجب التسليم لها: من خبر عن الرسول ﷺ، أو إجماع من الحجة. ولم يصح في شيء من ذلك خبر عن الرسول بنقل الواحد، ولا بنقل الجماعة التي يجب التسليم لما نقلته»^(١).

قال ابن القيم: . . . ولهذا كان من تمام الحنيفية ملة إبراهيم، وأصل مشروعية الختان لتكميل الحنيفية، فإن الله ﷻ لما عاهد إبراهيم وعده أن يجعله للناس إماماً، ووعد أنه يكون أباً لشعوب كثيرة، وأن يكون الأنبياء والملوك من صلبه، وأن يكثر نسله، وأخبره أنه جاعل بينه وبين نسله علامة العهد أن يختنوا كل مولود منهم، ويكون عهدي هذا ميسماً في أجسادهم، فالختان علم للدخول في ملة إبراهيم، وهذا موافق لتأويل من تأول قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(٢) على الختان. اهـ^(٣)

قال السعدي: «يخبر تعالى، عن عبده وخليله، إبراهيم ﷺ، المتفق على إمامته وجلالته، الذي كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون: أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات؛ أي: بأوامر ونواهٍ، كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده، ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان، من الصادق الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره، ويزكو عمله، ويخلص ذنبه. وكان من أجلهم في هذا

(٢) البقرة: الآية (١٣٨).

(١) جامع البيان (٣/ ٧-١٥ تحقيق شاكر).

(٣) تحفة المودود (ص: ٣٥١).

المقام، الخليل ﷺ. فأتى ما ابتلاه الله به، وأكمل له وفاءه، فشكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكوراً فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: يقتدون بك في الهدى، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الثناء الدائم، والأجر الجزيل، والتعظيم من كل أحد.

وهذه - لعمر الله - أفضل درجة، تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام، شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم، من كل صديق متبع لهم، داع إلى الله وإلى سبيله^(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى منها على شرف إبراهيم خليله ﷺ وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي، ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَتَيْنَا إِبراهيمَ ربهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ أي واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهن كلهن كما قال تعالى: ﴿وَإِبراهيمَ الَّذِي وَفَّى﴾^(٢) أي: وفى جميع ما شرع له فعمل به - صلوات الله عليه -، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبراهيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣) شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿وَمَا يَتَّبِعُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٤) ثُمَّ أُوحِيَ إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبراهيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(٥) وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبراهيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٦)؛ وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبراهيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٧) إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبراهيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ^(٨)، وقوله تعالى: ﴿يَكَلِّمُنِي﴾ أي: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق، ويراد بها الكلمات القدريّة، كقوله تعالى عن مريم ﷺ: ﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا ذِكْرٌ وَإِسْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٩) وتطلق، ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ

(٢) النجم: الآية (٣٧).

(٤) الأنعام: الآية (١٦١).

(١) تفسير السعدي (١/ ١٣٥).

(٣) النحل: الآيات (١٢٠-١٢٣).

(٥) آل عمران: الآيات (٦٧ و ٦٨).

(٦) التحريم: الآية (١٢).

كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا»^(١) أي: كلماته الشرعية، وهي إما خبر صدق، وإما طلب عدل إن كان أمرًا أو نهيًا، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أُنْتَقِيَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَتْهُنَّ﴾؛ أي: قام بهن قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي جزاء على ما فعل، كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة، وإمامًا يقتدى به ويحتذى حذوه»^(٢).

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «ففي الآية مسائل:

الأولى: معرفة أنه تعالى حكيم لا يضع الأشياء إلا في مواضعها؛ لأنه ما جعله إمامًا إلا بعد ما أتم ما ابتلاه به. وسئل بعضهم: أيما الابتلاء أو التمكين؟ فقال: الابتلاء ثم التمكين.

الثانية: إذا كان يتلى الأنبياء هل يفعلونه أم لا؟ فكيف بغيرهم؟

الثالثة: الشاء على إبراهيم بأنه أتم الكلمات التي ابتلاه بها.

وقيل: إن الله لم يبتل أحدا بهذا الدين فأتاه إلا إبراهيم. ولهذا قال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾^(٣)

الرابعة: أنه سبحانه جازاه على ذلك بأمور منها: أنه جعله للناس إمامًا، ولما علم ﷺ كبر هذه العطية سألها للذرية، وهي الخامسة.

السادسة: أن الله أجابه أن هذه المرتبة لا ينالها ظالم ولو من ذرية الأنبياء.

السابعة: أن هذا يدل على أن الإمامة في الدين تحصل لغير الظالم، فليست بمختصة.

الثامنة: معرفة قدر هذه المرتبة التي أكرم بها، وهي الإمامة في الدين»^(٤).

قلت: ما أشار إليه ابن جرير من عدم تعيين الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم -أي امتحنه واختبره- هو الواجب على كل مفسر: أن لا يعين شيئًا إلا بدليل، فما فسر في آية أخرى أو فسره النبي ﷺ قبل وكان حجة، وما لم يفسر في القرآن ولا في

(١) الأنعام: الآية (١١٥).

(٢) النجم: الآية (٣٧).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٤) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٤٣-٤٤).

صحيح السنن فيبقى على عمومه وإجماله ، وإن كان المفسرون ذكروا هاهنا أحاديث -سندكرها إن شاء الله- ظنوها من الكلمات ، والحق -كما سبق في كلمة الشيخ السعدي رحمه الله- أن إبراهيم عليه السلام جمع الله له بين كمال التوحيد وكمال امتثال الأوامر والنواهي الشرعية ، فجمع الله له الخير كله ، فأتى بلاغ التوحيد وذبح عنه وبذل نفسه كاملة في سبيل التوحيد ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ٥١﴾ وأرادوا به كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْآخِرِينَ^(١) ، وقد ذكر الله مواقفه وأخباره في كتابه وأثنى عليه الثناء الكامل ، وأمر نبيه محمداً ﷺ باتباعه والافتداء به ، فهذا إن دل على شيء ؛ فإنما يدل على تمام إخلاصه ، وأن هذه الخصلة العظيمة التي وصل إليها إبراهيم كانت نعمة له ولعقبه ، فجعلت فيهم النبوة والرسالة ، ومن آخرهم إمام المتقين وسيد المرسلين وقائد الغر المحجلين ﷺ .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن إبراهيم ابتلي بتحقيق المعتقد وإصلاح الظاهر فوفق لذلك

* عن ابن عباس في قوله : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال : ابتلاه الله بالطهارة ، خمس في الرأس وخمس في الجسد . في الرأس قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس . وفي الجسد تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل مكان الغائط والبول بالماء^(٢) .

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الفطرة خمس أو

(١) الأنبياء : الآيتان (٦٩ و ٧٠) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٥٧/١) . ومن طريقه : ابن أبي حاتم في تفسيره (١/٣٥٩/١١٧٢) وابن جرير في التفسير (٣/٩/١٩١٠) والبيهقي (١/١٤٩) . كلهم من طريق معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس .

وأخرجه الحاكم (٢/٢٦٦) من طريق ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وصححه كذلك الحافظ في الفتح (١٠/٤١٤) .

تنبيه : سقط أول السند من المستدرك ولعل الحاكم أخرج هذا الأثر من طريق عبد الرزاق لأن البيهقي أخرجه من طريق الحاكم عن أبي زكريا العنبري عن محمد بن عبد السلام عن إسحاق بن إبراهيم عن عبد الرزاق به ، ثم وجدت الحاكم يسوق أسانيده إلى عبد الرزاق من هذه الطريق كما في (٢/٢٦٩-٢٧٧) .

خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب^(١).

* عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من الفطرة حلق العانة، وتقليم الأظفار، وقص الشارب»^(٢).

* عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء»، قال زكرياء: (قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة)^(٣).

* فوائد الأحاديث:

قال الخطابي: «قوله ﷺ: «عشر من الفطرة» فسر أكثر العلماء الفطرة في هذا الحديث بالسنة، وتأويله: إن هذه الخصال من سنن الأنبياء الذين أمرنا أن نقتدي بهم، لقوله سبحانه: ﴿فِيهِدْهُمْ أَقْدَةً﴾^(٤) وأول من أمر بها إبراهيم -صلوات الله عليه-، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَمَرْنَا إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَمْلِكَ بِكَمَلَتِ فَأَتَمَّهُنَّ﴾. قال ابن عباس: (أمره بعشر خصال ثم عد من فلما فعلهن قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: ليقتدى بك ويستن بسنتك، وقد أمرت هذه الأمة بمتابعته خصوصًا، وبيان ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^(٥) ويقال أنها كانت عليه فرضًا وهن لنا سنة»^(٦).

قال القرطبي: «وهذه الخصال مجتمعة في أنها محافظة على حسن الهيئة والنظافة، وكلاهما يحصل به البقاء على أصل كمال الخلقة التي خلق الإنسان عليها، وبقاء هذه الأمور وترك إزالتها يشوه الإنسان ويقبحه، بحيث يستقذر

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٢٩-٢٣٩-٢٨٣-٤١٠-٤٨٩) والبخاري (١٠/٤١١-٥٨٨٩) ومسلم (١/٢٢١-٢٥٧) وأبو داود (٤/٤١٢-٤١٩٨) والترمذي (٥/٨٥-٢٧٥٦) والنسائي (١/٢١-١١) وابن ماجه (١/١٠٦-٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٠/٤٢٧-٥٨٩٠) والنسائي (١/٢١-١٢).

(٣) أخرجه أحمد (٦/١٣٧) ومسلم (١/٢٢٣-٢٦١) وأبو داود (١/٤٤-٥٢/٤٥) والترمذي (٥/٨٥-٢٧٥٧) والنسائي (٨/٥٠١-٥٠٥٥) وابن ماجه (١/١٠٧-٢٩٣).

(٤) الأنعام: الآية (٩٠).

(٥) النحل: الآية (١٢٣).

(٦) معالم السنن (هامش سنن أبي داود ١/٤٤-٤٥).

ويجتنب، فيخرج عما تقتضيه الفطرة الأولى، فسميت هذه الخصال فطرة لهذا المعنى والله أعلم اهـ^(١).

جاء في هذه الأحاديث مجموعة من خصال الفطرة، ننقل بيانها بإيجاز:
* الختان:

قال ابن العربي: «وهو سنة شرعية، وشرعية إبراهيمية، وملة خليلية، أول من اختن إبراهيم عليه السلام»^(٢).

وقال ابن القيم: «الختان من محاسن الشرائع التي شرعها الله سبحانه لعباده، وكمل بها محاسنهم الظاهرة والباطنة، فهو مكمل للفطرة التي فطرهم عليها»^(٣).

قال ابن حجر: «قال الماوردي: ختان الذكر قطع الجلد التي تغطي الحشفة، والمستحب أن تستوعب من أصلها عند أول الحشفة، وأقل ما يجزئ أن لا يبقى منها ما يتغشى به شيء من الحشفة». قال إمام الحرمين: والمستحق من ختان المرأة ما ينطلق عليه الاسم.

قال الماوردي: ختانها قطع جلدة تكون أعلى فرجها فوق مدخل الذكر كالنواة أو كعرف الديك. والواجب قطع الجلدة المستعلية منه دون استئصاله»^(٤).
أول من اختن إبراهيم عليه السلام.

* فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اختن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم»^(٥).

★ غريب الحديث:

القدوم: بالتخفيف: الآلة. وبالتشديد: الموضع.

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر: «وأجمع العلماء على أن إبراهيم أول من اختن، وقال أكثرهم:

(١) المفهم (١/٥١١-٥١٢).

(٢) عارضة الأحوزي (١٠/٢١٦).

(٣) تحفة المودود (ص: ٣٥١).

(٤) الفتح (١٠/٤١٧).

(٥) أخرجه أحمد (٢/٤١٨) والبخاري (٦/٤٧٨/٣٣٥٦) ومسلم (٤/١٨٣٩/٢٣٧٠).

الختان من مؤكدات سنن المرسلين، ومن فطرة الإسلام التي لا يسع تركها في الرجال. وقالت طائفة: ذلك فرض واجب لقول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^(١)، قال قتادة: هو الاختتان^(٢).

* عن أم عطية الأنصارية، أن امرأة كانت تختن بالمدينة، فقال لها النبي ﷺ: «لا تنهكي؛ فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب إلى البعل»^(٣).

★ غريب الحديث:

لا تنهكي: لا تبالغي في الخفض، والنهك: المبالغة في الضرب والقطع، ونحو ذلك، وقد نهكته الحمى: إذا بلغت منه وأضررت به.

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «ومعنى هذا أن الخافضة إذا استأصلت جلدة الختان؛ ضعفت شهوة المرأة، فقلت حظوتها عند زوجها، كما أنها إذا تركتها كما هي ولم تأخذ منها شيئاً ازدادت غلمتها، فإذا أخذت منها وأبقت، كان في ذلك تعديلاً للخلفة والشهوة، وهذا مع أنه لا ينكر أن يكون قطع هذه الجلدة علماً على العبودية، فإنك تجد قطع طرف الأذن وكى الجبهة ونحو ذلك في كثير من الرقيق؛ علامة لرقهم وعبوديتهم، حتى إذا أبق رد إلى مالكة بتلك العلامة، فما ينكر أن يكون قطع هذا الطرف علماً على عبودية صاحبه لله سبحانه، حتى يعرف الناس أن من كان كذلك فهو من عبيد الله الحنفاء، فيكون الختان علماً لهذه السنة، التي لا أشرف منها مع ما فيه من الطهارة والنظافة والزينة وتعديل الشهوة»^(٤).

* قصص الشارب:

قال القرطبي: «أن يأخذ ما يطول عن إطار الشفة بحيث لا يشوش على الأكل ولا يجتمع فيه الوسخ. والإحفاء والجز في الشارب هو ذلك القص المذكور، وليس بالاستئصال عند مالك وجماعة من العلماء، وهو عنده مثله يؤدب من فعله،

(١) النحل: الآية (١٢٣).

(٢) فتح البر (٣/١١٩-١٢٠).

(٣) أخرجه: أبو داود (٥/٤٢١/٥٢٧١) وضعفه، والحديث ذكره الشيخ الألباني في الصحيحة (رقم ٧٢٢) وذكره له طرقاً وشواهد، ثم قال: وبالجملته فالحديث بهذه الطرق والشواهد صحيح، والله أعلم.

(٤) تحفة المودود (ص: ٣٥٦).

إذ قد وجد من يقتدى به من الناس لا يحفون جميعه ولا يستأصلون ذلك . . . وذهب الكوفيون وغيرهم: إلى الاستئصال، تمسكًا بظاهر اللفظ. وذهب بعض العلماء إلى التخيير في ذلك»^(١).

قلت: الذي يظهر من فعل الرسول ﷺ هو الإحفاء، فكان ﷺ يضع السواك فيأخذ ما فوقه، وغالب النصوص وظواهرها تبين أن السنة هي الأخذ من الشارب وإحفاؤه، لكن ليس هنا من النصوص ما يدل على تحريم الاستئصال والحلق، فالأولى بالجمال - جمال الرجل - هو الأخذ والإحفاء والإنهاك كما جاء في الحديث، وإن حصل الحلق والاستئصال فلا إنكار لعدم وجود دليل يعتمد عليه في ذلك.

* إعفاء اللحية :

قال القرطبي: «هو توفيرها وتكثيرها . . . فلا يجوز حلقها ولا نتفها ولا قص الكثير منها، فأما أخذ ما تطاير منها، وما يشوه ويدعو إلى الشهرة طولاً وعرضاً فحسن عند مالك وغيره من السلف، وكان ابن عمر يأخذ من طولها ما زاد على القبضة»^(٢).

قال القاضي: «وكره قصها وحلقها وتحريقها، وقد جاء الحديث بدم فاعل ذلك، وسنة بعض الأعاجم حلقها وجزها وتوفير الشوارب، وهي كانت سيرة الفرس، وأما الأخذ من طولها وعرضها فحسن، ويكره الشهرة في تعظيمها وتحليلتها كما تكره في قصها وجزها، وقد اختلف السلف هل لذلك حد؟ فمنهم من لم يحدد، إلا أنه لم يتركها لحد الشهرة ويأخذ منها، وكره مالك طولها جداً، ومنهم من حدد فما زاد على القبضة فيزال، ومنهم من كره الأخذ منها إلا في حج أو عمرة»^(٣).

قلت: حلق اللحية هو من سيئات الغزاة الوافدين على ديار الإسلام، فقد نشروا هذه الخصلة السيئة في كبار الأمة وعليتها، وإلا فقبل وجود الغزاة كان توفير اللحية من الرجولة ومن الشهامة، وحلقها كان عاراً وشناراً، حتى إن الرجل إذا خاصم

(٢) المفهم (١/٥١٢).

(١) المفهم (١/٥١٢).

(٣) إكمال المعلم (٢/٦٣-٦٤).

الرجل توعده - إن لم يفعل ما أمره به - بحلق لحيته، وإن كان هذا أيضًا لا يصح شرعاً؛ فإن السنن والفطرة لا تغير مهما كان الأمر.

فاللحية من الزينة للرجل، ومن الفطرة التي جاءت في الحديث، ومن سنن الأنبياء أجمعين، ولهذا قال هارون لموسى: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحَّتِي﴾^(١) فلهذا لم يعرف حلق اللحية إلا عند الأعاجم المتأثرين بالغزاة الغربيين، والحلق أصله من فعل المجوس، ومن قرأ خصال المجوس عبدة النار وجد من بعضها هذا الفعل الشنيع المغير للفطرة، وفاعله متشبه بالنساء اللائي خلقهن الله بدون لحية، فحذار من التأثير بالغزاة والمتملقين لهم، وأشباه الرجال وليسوا برجال، والله المستعان.

* غسل البراجم:

قال الخطابي: «وأما غسل البراجم فمعناه تنظيف المواضع التي تتشج ويجمع فيها الوسخ، وأصل البراجم العقد التي تكون في ظهور الأصابع»^(٢).

* الانتضاح:

قال ابن حجر: «فقال أبو عبيد الهروي: هو أن يأخذ قليلاً من الماء فينضح به مذاكيره بعد الوضوء، لينفي عنه الوسواس، وقال الخطابي: انتضاح الماء: الاستنجاء به، وأصله من النضح وهو الماء القليل، فعلى هذا هو والاستنجاء خصلة واحدة، وعلى الأول فهو غيره، ويشهد له ما أخرجه أصحاب السنن من رواية الحكم بن سفيان الثقفي أو سفيان بن الحكم عن أبيه أنه رأى رسول الله ﷺ توضأ ثم أخذ حفنة من ماء فانتضح بها»^(٣). . . اهـ^(٤)

* نتف الإبط:

قال النووي: «أما نتف الإبط فسنة بالاتفاق، والأفضل فيه النتف لمن قوي عليه، ويحصل أيضًا بالحلق وبالنورة. . . ويستحب أن يبدأ بالإبط الأيمن»^(٥).

(١) طه: الآية (٩٤).

(٢) معالم السنن (هامش سنن أبي داود ٤٥/١).

(٣) أخرجه أحمد (٤١٠/٣) وأبو داود (١٦٦/١١٧) والنسائي (١٣٤/٩٣-١٣٥) وابن ماجه (١٥٧/١).

(٤٦١) وفي سنده اضطراب والحديث حسنه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود (١٥٩).

(٥) شرح مسلم (١٢٧/٣).

(٤) الفتوح (٤١٥/١٠).

* الاستحداد :

قال النووي : «وأما الاستحداد فهو حلق العانة سمي استحدادًا لاستعمال الحديدية وهي موسى ، وهو سنة ؛ والمراد به نظافة ذلك الموضع ، والأفضل فيه الحلق ، ويجوز بالقص والتنف والنورة ، المراد بالعانة الشعر الذي فوق ذكر الرجل وحواليه ، وكذلك الشعر الذي حوالي فرج المرأة ، ونقل عن أبي العباس بن سريج أنه الشعر النابت حول حلقة الدبر ، فيحصل من مجموع هذا استحباب حلق جميع ما على القبل والدبر وحولهما»^(١).

* تقليم الأظفار :

قال النووي : «وأما تقليم الأظفار فسنة ليس بواجب ، وهو تفعيل من القلم وهو القطع»^(٢).

قال ابن حجر : «والمراد إزالة ما يزيد على ما يلبس رأس الأصبع من الظفر ؛ لأن الوسخ يجتمع فيه فيستقذر ، وقد ينتهي إلى حد يمنع من وصول الماء إلى ما يجب غسله في الطهارة»^(٣).

قال ابن العربي عن قص الأظفار : «وما أخفها بالافتقاد ، فإنه عضو يصرف في منافع البدن ، وفي تنظيفه عن الأقدار ، فيتعلق بالأظفار جزء مما يباشر من الأجسام في الأعمال ، حتى إذا طال الظفر رأته كأنه هلال ظلمة ، أو طوق قلفة سوداء ، فلا تطيب النفس على مباشرة الغذاء من المأكل والمشرب»^(٤).

* السواك :

قال النووي : «قال أهل اللغة : السواك بكسر السين وهو يطلق على الفعل وعلى العود الذي يتسوك به . . . وهو في اصطلاح العلماء : استعمال عود أو نحوه في الأسنان لتذهب الصفرة وغيرها والله أعلم ، ثم إن السواك سنة ليس بواجب في حال من الأحوال ؛ لا في الصلاة ولا في غيرها بإجماع . .

(١) شرح مسلم (١٢٧/٣).

(٢) الفتح (٤٢٣/١٠).

(٣) شرح مسلم (١٢٧/٣).

(٤) عارضة الأحوذى (٢١٧-٢١٨).

ثم إن السواك مستحب في جميع الأوقات، ولكن في خمسة أوقات أشد استحباباً: أحدها: عند الصلاة، سواء كان متطهراً بماء أو بتراب أو غير متطهر، كمن لم يجد ماء ولا تراباً، الثاني: عند الوضوء، الثالث: عند قراءة القرآن، الرابع: عند الاستيقاظ من النوم، الخامس: عند تغير الفم، وتغيره يكون بأشياء منها: ترك الأكل والشرب، ومنها: أكل ماله رائحة كريهة، ومنها: طول السكوت، ومنها: كثرة الكلام، والمستحب أن يستاك بعد متوسط لا شديد اليبس يجرح، ولا رطب لا يزيل، والمستحب أن يستاك عرضاً، ولا يستاك طولاً لثلا يدمي لحم أسنانه، فإن خالف واستاك طولاً حصل السواك مع الكراهة، ويستحب أن يمر السواك أيضاً على طرف أسنانه، وكراسي أضراسه وسقف حلقه إمراراً لطيفاً، ويستحب أن يبدأ في سواكه بالجانب الأيمن من فيه، ولا بأس باستعمال سواك غيره بإذنه، ويستحب أن يعود الصبي السواك ليعتاده»^(١).

* المضمضة:

قال أبو عمر: «المضمضة معروفة، وهي أخذ الماء بالفم من اليد، وتحريكه في الفم هي المضمضة، وليس إدخال الأصبع وذلك الأسنان بها من المضمضة في شيء»^(٢).

قال النووي: «وأما حقيقة المضمضة فقال أصحابنا: كمالها أن يجعل الماء في فمه ثم يديره فيه، ثم يمجه، وأما أقلها فأن يجعل الماء في فيه، ولا يشترط إدارته على المشهور الذي قاله الجمهور»^(٣).

* الاستنشاق:

قال النووي: «وأما الاستنشاق فهو إيصال الماء إلى داخل الأنف وجذبه بالنفس إلى أقصاه، ويستحب المبالغة في المضمضة والاستنشاق إلا أن يكون صائماً. فيكره ذلك لحديث لقيط أن النبي ﷺ قال: «بالغ في الاستنشاق إلا أن

(١) شرح مسلم (٣/ ١٢١-١٢٢).

(٢) فتح البر (٣/ ٢١٧).

(٣) شرح مسلم (٣/ ٩٠).

تكون صائماً»^(١)»^(٢).

* فرق الشعر :

* عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه ، وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم ، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم ، فسدل النبي ﷺ ناصيته ثم فرق بعد^(٣).

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر : « وفيه من الفقه أن الفرق في الشعر سنة ، وأنه أولى من السدل ؛ لأنه آخر ما كان عليه رسول الله ﷺ ، وهذا الفرق لا يكون إلا مع كثرة الشعر وطوله . . . والتفريق أن يقسم شعر ناصيته يميناً وشمالاً فتظهر جبهته وجبينه من الجانبين . والفرق سنة مسنونة . وقد قيل : أنها من ملة إبراهيم وسنته ﷺ »^(٤).

* قال أنس : (وقت لنا في قص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة ؛ أن لا نترك أكثر من أربعين ليلة)^(٥).

★ فوائد الحديث:

قال القاضي : « وما في الحديث إنما هو حد في أكثر ذلك ، والمستحب تفقد ذلك من الجمعة إلى الجمعة وإلا فلا تحديد فيه عند العلماء ، إلا أنه إذا كثر ذلك وطال من شارب أو شعر إبط قصه وأزاله »^(٦).

قال النووي : « وأما وقت حلقه فالمختار أنه يضبط بالحاجة وطوله ، فإذا طال حلق ، وكذلك الضبط في قص الشارب ونتف الإبط وتقليم الأظفار ، وأما حديث

(١) أخرجه أحمد (٣٣/٤) وأبو داود (٩٧/١-١٠٠/١٤٢) والترمذي (٣/٧٨٨/١٥٥) وقال : « حديث حسن صحيح » ، والنسائي (١/٧٠/٨٧) وابن ماجه (١/١٤٢/٤٠٧) وصححه ابن خزيمة (١/٧٨/١٥٠) والحاكم (١/١٤٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/٢٨٧ و ٣٢٠) والبخاري (١٠/٤٤٢/٥٩١٧) ومسلم (٤/١٨١٧/٢٣٣٦) وأبو داود (٤/٤٠٧-٤٠٨/٤١٨٨) والنسائي (٨/٥٦٧ و ٥٦٨/٥٢٥٣) والترمذي في الشمائل (المختصر ص : ٢٤) وابن ماجه (٢/١١٩٩/٣٦٣٢).

(٣) أخرجه أحمد (٣/١٢٢-٢٠٣-٢٥٥) ومسلم (١/٢٢٢/٢٥٨) وأبو داود (٤/٢١٣/٤٢٠٠) والترمذي (٥/٨٦/٢٧٥٨ و ٢٧٥٩) والنسائي (١/٢٢/١٤) وابن ماجه (١/١٠٨/٢٩٥) من طريق عمران الجوني عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٦) إكمال المعلم (٢/٦٢).

أنس المذكور (وقت لنا . الحديث)، فمعناه لا يترك تركا يتجاوز به أربعين، لا أنهم وقت لهم الترك أربعين . والله أعلم»^(١)

قال القرطبي: «هذا تحديد أكثر مدة، والمستحب تفقد ذلك من الجمعة إلى الجمعة، وإلا فلا تحديد فيه للعلماء، إلا أنه إذا كثر ذلك أزيل»^(٢).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً، ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾»^(٣) وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم، وإن أناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: أصحابي أصحابي، فيقال إنهم لم يزلوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿الْحَكِيمُ﴾»^(٤)»^(٥).

★ غريب الحديث:

غرلاً: الغرل جمع الأغرل، وهو الأقف، والغرلة القلفة.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «هذا يدل على أن الناس كلهم - الأنبياء وغيرهم - يحشرون عراة كما قال في الحديث المتقدم وأن أهل السعادة يكسون من ثياب الجنة، ولا شك في أن من كسى من ثياب الجنة فقد لبس جبة تقيه مكاره الحشر وعرقه، وحر الشمس والنار وغير ذلك. فظاهر عمومه يقتضي أن إبراهيم يكسى قبل نبينا محمد ﷺ، فيجوز أن يكون هذا من خصائص إبراهيم؛ كما قد خص موسى ﷺ بأن النبي ﷺ يجده متعلقاً بساق العرش، مع أن النبي ﷺ أول من تنشق عنه الأرض، ولا يلزم من هذا أن يكونا أفضل منه مطلقاً، بل هو أفضل من وافى القيامة، وسيد ولد آدم، ويجوز أن يراد بالناس من عداه من الناس، فلم يدخل تحت خطاب نفسه والله تعالى أعلم»^(٦).

(٢) المفهم (١/٥١٥).

(١) شرح مسلم (٣/١٢٧).

(٤) المائدة: الآيات (١١٧ و ١١٨).

(٣) الأنبياء: الآية (١٠٤).

(٥) أخرجه أحمد (١/٢٢٣-٢٢٩-٢٣٥-٢٥٣) والبخاري (٦/٤٧٦-٤٧٧) ومسلم (٤/٢١٩٤-٢١٩٥) [٥٨]

والترمذي (٤/٥٣٢-٢٤٢٣) و (٥/٣٠١-٣١٦٧)، والنسائي (٤/٤٢٠-٤٢١/٢٠٨١).

(٦) المفهم (٧/١٥٢-١٥٣).

* عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك إبراهيم عليه السلام»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال الإمام المازري: «قد ثبت أنه ﷺ أفضل من سائر المرسلين، فيحتمل أن يكون هذا منه ﷺ على جهة التواضع واستثقالاً لأن ينادى بهذا، وقد كان إبراهيم عليه السلام من آبائه عليه السلام، ويكره إظهار المطاولة على الآباء، وقد يكون فهم من مناديه هذا المعنى، وأخبر في موضع آخر بكونه سيد ولد آدم غير قاصد التعاضد والتطاول على من تقدمه عليه السلام، بل ليبين ما أمره الله -تبارك وتعالى- ببيانه، ولهذا عقب كلامه بأن قال: «ولا فخر» ليزيل ما قد يظن بمطلق هذا الكلام إذا أطلقه غيره من الناس، وقد يحتمل قوله: «ذاك إبراهيم» قبل أن يوحى إليه بأنه هو خير منه»^(٢).

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أولاد المؤمنين في جبل في الجنة، يكفلهم إبراهيم وسارة عليه السلام حتى يردهم إلى آبائهم يوم القيامة»^(٣).

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «أجمع المسلمون من أهل السنة وغيرهم إلا المجبرة؛ أن أولاد المؤمنين في الجنة»^(٤).

قال ابن حجر: «إنما اختص إبراهيم عليه السلام؛ لأنه أبو المسلمين. قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾»^(٥)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾»^(٦)،^(٧).

(١) أخرجه أحمد (١٧٨/٣-١٨٤) ومسلم (١٨٣٩/٤-٢٣٦٩) وأبو داود (٥٤/٥-٤٦٧٢) والترمذي (٤١٥/٥/٣٣٥٢) والنسائي في الكبرى (١١٦٩٢/٥٢٠/٦). كلهم من طريق المختار بن فلفل عن أنس بن مالك عليه السلام.

(٢) المعلم (١٢٩/٣-١٣٠).

(٣) أخرجه أحمد (٣٢٦/٢) وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢٣٣/٢) والحاكم (٣٨٤/١). وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي من طريق مؤمل بن إسماعيل عن سفيان بن عبد الرحمن عن أبي حازم عن أبي هريرة عليه السلام.

وذكره الهيثمي في المجمع (٢١٩/٧) وقال: «رواه أحمد وفيه عبد الرحمن بن ثابت وثقه المدني وجماعة وضعفه ابن معين وغيره وبقي رجاله ثقات».

(٥) الحج: الآية (٧٨).

(٤) فتح البر (٢١٩/٢).

(٧) الفتح (٥٥٢/١٢).

(٦) آل عمران: الآية (٦٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

★ غريب الآية:

عهدي: أُماني. وقيل: المراد به هنا التولية والتمكين. والمعنى: لا أولي ولاية شرعية من كان ظالمًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «هذا خبر من الله -جل ثناؤه- عن أن الظالم لا يكون إمامًا يقتدي به أهل الخير. وهو من الله -جل ثناؤه- جواب لما يتوهم في مسألته إياه: أن يجعل من ذريته أئمة مثله. فأخبر أنه فاعل ذلك، إلا بمن كان من أهل الظلم منهم، فإنه غير مصيره كذلك، ولا جاعله في محل أوليائه عنده، بالكرمة بالإمامة؛ لأن الإمامة إنما هي لأوليائه وأهل طاعته، دون أعدائه والكافرين به»^(١).

قال صديق حسن خان: «وقد استدل بهذه الآية جماعة من أهل العلم على أن الإمام لا بد أن يكون من أهل العدل والعمل بالشرع كما ورد؛ لأنه إذا زاغ عن ذلك كان ظالمًا ويمكن أن ينظر إلى ما يصدق عليه اسم العهد وما يفيد الإضافة من العموم فيشمل جميع ذلك اعتبارًا بعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب ولا إلى السياق، فيستدل به على اشتراط السلامة من وصف الظلم في كل من تعلق بالأمر الدينية»^(٢).

وقال السعدي: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا ينال الإمامة في الدين، من ظلم نفسه وضرها، وحط قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آلته الصبر واليقين.

ونتيجة أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمائل السديدة، والمحبة التامة، والخشية والإنابة.

فأين الظلم وهذا المقام؟

(٢) فتح البيان (١/ ٢٧٤).

(١) جامع البيان (٣/ ٢٠) تحقيق شاکر.

ودل مفهوم الآية، أن غير الظالم، سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها^(١). قال القرطبي: «استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوة على القيام بذلك، وهو الذي أمر النبي ﷺ ألا ينازعوا الأمر أهله فأما أهل الفسوق والجور والظلم فليسوا له بأهل، لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ والذي عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه؛ لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف، وإراقة الدماء، وانطلاق أيدي السفهاء، وشن الغارات على المسلمين، والفساد في الأرض»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في وجوب طاعة ولاية الأمر ما لم يأمروا بمعصية

* عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»^(٣).
* عن عبادة بن الصامت قال: (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننزع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا، ولا نخاف في الله لومة لائم)^(٤).

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر: «وأما قوله: «وأن لا ننزع الأمر أهله»، فاختلف الناس في ذلك، فقال قائلون: أهله أهل العدل والإحسان والفضل والدين، فهو لاء لا ينازعون لأنهم أهله، وأما أهل الجور والفسق والظلم، فليسوا له بأهل، ألا ترى إلى قول الله ﷻ لإبراهيم عليه السلام قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي

(١) تفسير السعدي (١/١٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٧/٢) والبخاري (١٣/١٥٢/٧١٤٤) ومسلم (٣/١٤٦٩/١٨٣٩) وأبو داود (٣/٩٣-٩٤/٩٤).

(٣) الترمذي (٤/١٨٢/١٧٠٧) والنسائي (٧/١٧٩-٤٢١٧/١٨٠) وابن ماجه (٢/٩٥٦/٢٨٦٤).

(٤) أخرجه أحمد (٣/٤٤١) والبخاري (١٣/٢٣٨/٧١٩٩-٧٢٠٠) ومسلم (٣/١٤٧٠/١٧٠٩) والنسائي (٧/١٥٥/٤١٦٠) وابن ماجه (٢/٩٥٧/٢٨٦٦).

أَفْطَلَمِينَ^(١) وإلى منازعة الظالم الجائر، ذهبت طوائف من المعتزلة وعامة الخوارج. وأما أهل الحق وهم أهل السنة، فقالوا: هذا هو الاختيار: أن يكون الإمام فاضلاً عدلاً محسناً، فإن لم يكن، فالصبر على طاعة الجائرين من الأئمة أولى من الخروج عليه؛ لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف، ولأن ذلك يحمل على هراقة الدماء وشن الغارات والفساد في الأرض، وذلك أعظم من الصبر على جورهِ وفسقه، والأصول تشهد والعقل والدين أن أعظم المكروهين أولاهما بالترك، وكل إمام يقيم الجمعة والعيد، ويجاهد العدو ويقيم الحدود على أهل العداء، وينصف الناس من مظالمهم بعضهم لبعض، وتسكن له الدهماء وتأمين به السبل، فواجب طاعته في كل ما يأمر به من الصلاح أو من المباح^(٢).

قلت: لا شك في أن صلاح الإمام من أعظم النعم التي قد يمن الله بها على الأمة من الأمم، فما مرت فترة من التاريخ إلا وكان أئمة العدل رحمة على الأمة، وظلاً واقياً من كل الشرور، استظلت بهم الأمة فكثرت الخيرات، وسالت الوديان واتسعت رقعة الإسلام، وتحدث الناس بالنعم.

وأما ظلم الإمام وجوره وانحرافه فمن أعظم النقم على الأمة، فجوره وظلمه يكون سبباً للقلق والاضطراب، ومستجبلاً لغضب الله وسخطه فيكثر القحط وغلاء الأسعار، ويكثر قطاع الطرق، والقتل والسفك، وتعظم البلايا والمصائب، والله المستعان. ومع ذلك يجب الصبر والانقياد فيما فيه طاعة لله تعالى واتباع للرسول ﷺ، ولا يجوز الخروج ولا المشاركة في ذلك حتى لا تتضاعف المصائب، ويصبح الناس كما قال القائل: كالمستجير من الرمضاء بالنار، فيتقون الرمضاء ويقعون في النار، فمن تتبع تاريخ الخوارج من بدايته إلى نهايته وجده كله شؤماً على الأمة، وهكذا كل من خرج على إمام المسلمين؛ فإنه لم يأت بخير، وإنما أتى ببلاء ومصائب وكوارث يرقق بعضها بعضاً. فنسأل الله السلامة والعافية وإذا أراد بأهل الأرض فتنة فليقبضنا إليه غير مفتونين.

* * *

(١) البقرة: الآية (١٢٤).

(٢) فتح البر (١/١١١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آبِيَّتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا﴾^(١)

★ غريب الآية:

البيت: المنزل والمأوى. والمراد هنا: الكعبة المشرفة.
مثابة: المثابة: المعاد والمرجع. والمراد: مكاناً يثوب الناس إليه مرة بعد مرة. قال الشاعر في الكعبة:

مَثَابًا لَأَفْنَاءِ الْقَبَائِلِ كُلِّهَا تَخُبُّ إِلَيْهَا الْيَعْمَلَاتُ الذَّوَامِلُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن العربي: «هذا تنبيه من الله تعالى على فضله، وتعدد لنعمه التي منها أن جعل البيت الحرام للعرب عموماً ولقريش خصوصاً مثابة للناس؛ أي: معاداً في كل عام لا يخلو منهم، يقال: ثاب إلى كذا؛ أي رجع وعاد إليه.

فإن قيل: ليس كل من جاءه عاد إليه. قلنا: لا يختص ذلك بمن ورد عليه، وإنما المعنى أنه لا يخلو من الجملة، ولم يعدم قاصداً من الناس؛ وكذلك جعله -تبارك وتعالى- أمناً يلقي الرجل فيه قاتل وليه فلا يروعه. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾^(٢)، وكذلك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾^(٣).

وهذا لما كان الله تعالى قد ركب في قلوبهم من تعظيم البقعة وتفضيل الموضع على غيره من الأرض المشابهة له في الصفة، بهذه الخصيصة المعظمة».

وقال: «وقد اختلف العلماء في تفسير الأمن على أربعة أقوال:

الأول: أنه أمن من عذاب الله تعالى في الآخرة، والمعنى أن من دخله معظماً له، وقصده محتسباً فيه لمن تقدم إليه. ويعضده ما روي في الصحيح عن النبي ﷺ

(٢) آل عمران: الآية (٩٧).

(١) البقرة: الآية (١٢٥).

(٣) العنكبوت: الآية (٦٧).

أنه قال: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»^(١).

الثاني: معناه: من دخله كان آمناً من التشفي والانتقام، كما كانت العرب تفعله فيمن أناب إليه من تركها لحق يكون لها عليه.

الثالث: أنه أمن من حد يقام عليه، فلا يقتل به الكافر، ولا يقتص فيه من القاتل، ولا يقام الحد على المحصن والسارق؛ قاله جماعة من فقهاء الأمصار، ومنهم أبو حنيفة...

الرابع: أنه أمن من القتال؛ لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله حبس عن مكة الفيل - أو القتل - وسلط عليها رسوله والمؤمنين، لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار»^(٢).

والصحيح فيه القول الثاني، وهذا إخبار من الله تعالى عن منته على عباده، حيث قرر في قلوب العرب تعظيم هذا البيت، وتأمين من لجأ إليه، إجابة لدعوة إبراهيم ﷺ، حين أنزل به أهله وولده، فتوقع عليهم الاستطالة، فدعا أن يكون آمناً لهم فاستجيب دعاؤه.

وأما من قال: إنه أمن من عذاب الله تعالى، فإن الله تعالى نبه بجعله مثابة للناس وأمناً على حجته على خلقه، والأمن في الآخرة لا تقام به حجة.

وأما امتناع الحد فيه فقول ساقط؛ لأن الإسلام الذي هو الأصل، وبه اعتصم الحرم، لا يمنع من إقامة الحدود والقصاص؛ وأمر لا يقتضيه الأصل أخرى ألا يقتضيه الفرع.

وأما الأمن عن القتل والقتال فقول لا يصح؛ لأنه قد كان فيه القتل والقتال بعد ذلك ويكون إلى يوم القيامة، وإنما أخبر النبي ﷺ عن التحليل للقتال، فلا جرم لم يكن فيها تحليل قبل ذلك اليوم، ولا يكون لعدم النبوة إلى يوم القيامة، وإنما أخبر

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩/٢) والبخاري (٤٨٧/٣) ومسلم (١٥٢١/٢) والترمذي (١٣٥٠/٩٨٣) والترمذي (٨١١/١٧٦/٣) والنسائي (١٢٠/٥-٢٦٢٦/١٢١) وابن ماجه (٩٦٤-٢٨٨٩/٩٦٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٨/٢) والبخاري (١٠٩/٥-٢٤٣٤) ومسلم (١٣٥٥/٩٨٨/٢) وأبو داود (٥١٨/٢-٥٢٠/٢) والترمذي (٢٠١٧) والنسائي (١٤٠٥/١٤/٤) والكبرى (٤٣٤-٥٨٥٥/٤٣٥) من حديث أبي هريرة.

النبي ﷺ عن امتناع تحليل القتال شرعاً لا عن منع وجوده حسناً^(١).

وقال ابن كثير: «ومضمون ما فسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدرًا من كونه مثابة للناس؛ أي: جعله محللاً تشناق إليه الأرواح وتحن إليه، ولا تقضي منه وطراً ولو ترددت إليه كل عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿فَجَعَلْ أَفْتَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾^(٢) إلى أن قال: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾^(٣) ويصفه تعالى بأنه جعله أمناً، من دخله آمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً، وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: «كان الرجل يلقي قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له». كما وصف في سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَفْبَةَ الْآبِتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾^(٤) أي: يدفع عنهم بسبب تعظيمها سوء، كما قال ابن عباس: «لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض». وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً وهو خليل الرحمن كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾^(٦)»^(٧).

وقال السعدي: «﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ أي: مرجعاً يثوبون إليه لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطراً. وجعله أمناً يأمن به كل أحد حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار. ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمون أشد الاحترام، ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه. فلما جاء الإسلام زاده حرمة وتعظيماً وتشريفاً وتكريماً»^(٨).

* * *

(١) أحكام القرآن (١/ ٣٨-٣٩).

(٢) إبراهيم: الآية (٣٧).

(٣) إبراهيم: الآية (٤٠).

(٤) المائدة: الآية (٩٧).

(٥) الحج: الآية (٢٦).

(٦) آل عمران: الآيتان (٩٦ و ٩٧).

(٧) ابن كثير (١/ ٢٩٥).

(٨) تفسير السعدي (١/ ١٣٦-١٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾

★ غريب الآية:

مقام إبراهيم: المقام في اللغة: موضع القدمين والمراد مكان قيامه حين بناءه الكعبة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وفي (مقام إبراهيم) فقال بعضهم: (مقام إبراهيم) هو الحج كله... وقال آخرون: (مقام إبراهيم) عرفة والمزدلفة والجمار... وقال آخرون: (مقام إبراهيم) الحرم... وقال آخرون: (مقام إبراهيم) الحجر الذي قام عليه إبراهيم حين ارتفع بناؤه، وضعف عن رفع الحجارة... وقال آخرون: بل (مقام إبراهيم) هو مقامه الذي هو في المسجد الحرام... ثم قال: وأولى هذه الأقوال بالصواب عندنا ما قاله القائلون: إن مقام إبراهيم هو المقام المعروف بهذا الاسم الذي هو في المسجد الحرام. واستدل لذلك بحديثي عمر وجابر^(١)».

ثم قال: «فهذان الخبران يثبتان أن الله - تعالى ذكره - إنما عني به (مقام إبراهيم) الذي أمرنا الله باتخاذَه مصلى هو الذي وصفنا.

ولو لم يكن على صحة ما اخترنا في تأويل ذلك خبر عن رسول الله ﷺ، لكان الواجب فيه من القول ما قلنا. وذلك أن الكلام محمول معناه على ظاهره المعروف، دون باطنه المجهول، حتى يأتي ما يدل على خلاف ذلك، مما يجب التسليم له. ولا شك أن المعروف في الناس به (مقام إبراهيم)، هو المصلى الذي قال الله - تعالى ذكره -: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(٢).

(١) سيأتي ذكرهما في تفسير الآية بالسنة.

(٢) جامع البيان (٣/٣٣-٣٧ تحقيق شاكر).

وقال ابن كثير: -بعد أن ذكر الخلاف والآثار في ذلك-: «فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناول الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها، وهكذا حتى تم جدران الكعبة . . . وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها، ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافيا غير ناعل
وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضاً.

وقال: «عن قتادة: ﴿وَأَخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه. وقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابه فيه فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلوق وانمحي؛ (قلت) وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمينة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك، ولهذا والله أعلم، أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليه السلام أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»^(١) وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده، ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة -رضي الله عنهم أجمعين-، قال عبدالرزاق ابن جريج: حدثني عطاء وغيره من أصحابنا، قال: أول من نقله عمر بن الخطاب عليه السلام، وقال عبدالرزاق أيضاً عن معمر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد، قال: أول

(١) أخرجه أحمد (٣٨٢/٥) والترمذي (٣٦٦٢/٥٦٩/٥) وقال: «حديث حسن»، والحاكم (٧٥/٣) وصححه الذهبي. من حديث حذيفة عليه السلام، وفي الباب عن ابن مسعود وأبي الدرداء وأبي قتادة وغيرهم عليه السلام.

من آخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ^(١).
وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «أمره أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلًى، وهذا من الخصائص، فيفتطن المؤمن لشبهة المبتدعة؛ لأنه لا يجوز أن يتخذ من مقام غيره مصلًى» ^(٢).

قلت: فرضي الله عن الإمام محمد بن عبد الوهاب المجدد المصلح، حيث نبه على أمر عظيم، وهو عدم مشابهة مقام إبراهيم لغيره من مقامات الأضرحة من حيث اتخاذها مصلًى، لكن -مع الأسف الشديد- قد سارع كثير من الناس إلى الصلاة فيها، مع تواتر النصوص عن النبي ﷺ في النهي عن الصلاة في المقبرة، فالذهاب إلى مقامات الأضرحة للصلاة فيها مخالف لنهي النبي ﷺ، فالهدي هديه والسنة سنته، ومخالفته ﷺ نذير شر لكل مخالف له، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في تعظيم شعائر الله بالتعبد فيها له تعالى خالصاً

* عن أنس قال: (قال عمر: وافقتُ الله في ثلاث أو وافقني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله؛ لو اتخذت مقام إبراهيم مصلًى، وقلت: يا رسول الله؛ يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، قال: وبلغني معاتبه النبي ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن قلت: إن انتهيتن أو لبيدلن الله رسوله ﷺ خيراً منكن، حتى أتيت إحدى نسائه قالت: يا عمر؛ أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت، فأنزل الله: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ﴾ ^(٤) الآية) ^(٥).

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٩٨-٢٩٩).

(٢) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٤٤).

(٣) النور: الآية (٦٣).

(٤) التحريم: الآية (٥).

(٥) أخرجه أحمد (١/٢٣-٢٤) والبخاري (٨/٢١٣-٤٤٨٣). وأخرجه مختصراً: مسلم (٤/١٨٦٥/٢٣٩٩) والترمذي (٥/١٩٠/٢٩٦٠) والنسائي في الكبرى (٦/٤٩٦/١١٦١١) وابن ماجه (١/٣٢٢/١٠٠٩) من حديث عمر رضي الله عنه.

★ فوائد الحديث:

موافقة عمر رضي الله عنه لربه في مقام إبراهيم:

قال ابن حجر: «قال ابن الجوزي: إنما طلب عمر الاستئذان بإبراهيم عليه السلام مع النهي عن النظر في كتاب التوراة؛ لأنه سمع قول الله تعالى في حق إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٢) فعلم أن الائتنام بإبراهيم من هذه الشريعة، ولكون البيت مضافاً إليه، وأن أثر قدميه في المقام كرقم الباني في البناء ليذكر به بعد موته، فرأى الصلاة عند المقام كقراءة الطائف بالبيت اسم من بناء. انتهى. وهي مناسبة لطيفة. ثم قال: ولم تزل آثار قدمي إبراهيم حاضرة في المقام معروفة عند أهل الحرم، حتى قال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

وفي «موطأ ابن وهب» عن يونس عن ابن شهاب عن أنس قال: رأيت المقام فيه أصابع إبراهيم وأخمص قدميه، غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم. وأخرج الطبري في تفسيره من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في هذه الآية: إنما أمروا أن يصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه، قال: ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيها، فما زالوا يمسحونه حتى اخلولق وانمحي^(٣)، وكان المقام من عهد إبراهيم لزم البيت إلى أن أخره عمر رضي الله عنه إلى المكان الذي هو فيه الآن، أخرجه عبد الرزاق في مصنفه بسند صحيح عن عطاء وغيره، وعن مجاهد أيضاً^(٤)، وأخرج البيهقي عن عائشة مثله بسند قوي، ولفظه: «أن المقام كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وفي زمن أبي بكر ملتصقاً بالبيت ثم أخره عمر». وأخرج ابن مردويه بسند ضعيف عن مجاهد: أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي حوله، والأول أصح. وقد أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عيينة قال: كان المقام في سقع البيت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحوله عمر، فجاء سيل فذهب به فردّه عمر إليه. قال سفيان: لا أدري أكان لاصقاً بالبيت أم لا^(٥). انتهى. ولم تنكر الصحابة فعل عمر ولا من جاء بعدهم فصار إجماعاً. وكان عمر رأى أن إبقاءه يلزم منه

(٢) النحل: الآية (١٢٣).

(١) البقرة: الآية (١٢٤).

(٤) المصنف (٥/٤٨).

(٣) أخرجه ابن جرير (١/٥٣٧).

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (١/٢٢٦-٢٢٧).

التضييق على الطائفين أو على المصلين، فوضعه في مكان يرتفع به الحرج، وتهدأ له ذلك لأنه الذي كان أشار باتخاذ مصلًى، وأول من عمل عليه المقصورة الموجودة الآن»^(١).

قلت: المقام القائم الآن - مع الأسف - ترى الناس يتمسحون بجدرانها ويفعلون به أفعالا مخالفة للمعتقد الصحيح، فمقام إبراهيم لا علاقة له بتمسح ولا بتقبيل، والذي يقبل هو الحجر الأسود لا غير. كما أن الطواف إنما يكون بالبيت، وما سوى ذلك فهو تحريف وانحراف، فهذا الفعل الغير الشرعي من قبل الأعاجم وجهال العرب هو من أثر الجهل في بلادهم، وتعلقهم بالخرافات والأوثان، والأحجار التي يقبلونها في بلادهم، والمغارات التي يؤمنونها ويعبدونها من دون الله، فاللهم اهد ضال هذه الأمة.

وقال الحافظ: «قوله: (باب قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾) وقع في روايتنا: ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ بكسر الخاء على الأمر وهي إحدى القراءتين، والأخرى بالفتح على الخبر، والأمر دال على الوجوب، لكن انعقد الإجماع على جواز الصلاة إلى جميع جهات الكعبة، فدل على عدم التخصيص، وهذا بناء على أن المراد بمقام إبراهيم الحجر الذي فيه أثر قدميه وهو موجود إلى الآن، وقال مجاهد: المراد بمقام إبراهيم الحرم كله، والأول أصح، وقد ثبت دليله عند مسلم من حديث جابر^(٢)»^(٣).

* عن عمرو بن دينار قال: (سألنا ابن عمر عن رجل طاف بالبيت للعمرة ولم يطف بين الصفا والمروة، أيأتي امرأته؟ فقال: قدم النبي ﷺ فطاف بالبيت سبعا، وصلى خلف المقام ركعتين، وطاف بين الصفا والمروة، وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، وسألنا جابر بن عبد الله فقال: لا يقربنها حتى يطوف بين الصفا والمروة)^(٤).

(١) الفتح (٢١٤-٢١٥).

(٢) هو الحديث الطويل في صفة حجة النبي ﷺ، ومحل الشاهد منه قوله: «ثم نفذ إلى مقام إبراهيم ﷺ، فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت» أخرجه مسلم (١٢١٨/٢-٨٨٦-٨٨٧).

(٣) الفتح (٦٥٧/١).

(٤) أخرجه أحمد (١٥/٢) والبخاري (١/٦٥٧-٣٩٥-٣٩٦) ومسلم (٢/٩٠٦-١٢٣٤) والنسائي (٥/٢٤٧-٢٤٨/٢٩٣٠) وابن ماجه (٢/٩٨٦-٢٩٥٩).

* عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(١).

★ فوائد الحديثين:

قال النووي: «هذا دليل لما أجمع عليه العلماء أنه ينبغي لكل طائف إذا فرغ من طوافه أن يصلي خلف المقام ركعتي الطواف، واختلفوا هل هما واجبتان أم سنتان، وعندنا فيه خلاف حاصله ثلاثة أقوال:

أصحها: أنهما سنة. والثاني: أنهما واجبتان. والثالث: إن كان طوافاً واجباً فواجبتان وإلا فسنتان وسواء قلنا واجبتان أو سنتان لو تركهما لم يبطل طوافه، والسنة أن يصليهما خلف المقام، فإن لم يفعل ففي الحجر، وإلا ففي المسجد، وإلا ففي مكة وسائر الحرم، ولو صلاهما في وطنه وغيره من أقاصي الأرض جاز وفاته الفضيلة، ولا تفوت هذه الصلاة ما دام حياً»^(٢).

قال ابن العربي: «ولما قضى النبي ﷺ طوافه مشى إلى المقام المعروف اليوم، وقرأ: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وصلى فيه ركعتين، وبين بذلك أربعة أمور: الأول: أن ذلك الموضع هو المقام المراد في الآية.

الثاني: أنه بين الصلاة وأنها المتضمنة للركوع والسجود لا مطلق الدعاء.

الثالث: أنه عرف وقت الصلاة فيه وهو عقب الطواف وغيره من الأوقات مأخوذ من دليل آخر.

الرابع: أنه أوضح أن ركعتي الطواف واجبتان، فمن تركهما فعليه دم»^(٣).

(١) أخرجه مسلم مطولاً (٢/٨٨٦-٨٩٢/١٢١٨) والترمذي (٣/٢١١/٨٥٦) والنسائي (٥/٢٥١/٢٩٣٩).

(٢) شرح مسلم (٨/١٤٢-١٤٣).

(٣) أحكام القرآن (١/٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

★ غريب الآية:

عهدنا: أي: وصينا وأمرنا، وقيل: أوحينا.
الطائفين: جمع طائف، من طاف حول الشيء إذا دار من جميع جوانبه وأحاط به، ثم استعير للطائف من الجن والخيال والحوادث.
العاكفين: جمع عاكف، والعاكف: اللبث والإقامة، وقيل: هو الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم. والاعتكاف: شرعاً: اللبث في المسجد بشروطه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فمعنى الآية: وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين. (والتطهير) الذي أمرهما الله به في البيت، هو تطهيره من الأصنام، وعبادة الأوثان فيه، ومن الشرك بالله».

فإن قال قائل: وما معنى قوله: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾؟ وهل كان أيام إبراهيم قبل بناء البيت بيت يطهر من الشرك وعبادة الأوثان في الحرم، فيجوز أن يكونا أمرا بتطهيره؟
قيل: لذلك وجهان من التأويل، قد قال بكل واحد من الوجهين جماعة من أهل التأويل.

أحدهما: أن يكون معناه: وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن ابنا بيتي مطهراً من الشرك والريب، كما قال -تعالى- ذكره-: ﴿أَفَمَنَ أَشَسَّ بُنْيَكُنْهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِن اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنَ أَشَسَّ بُنْيَكُنْهُ عَلَىٰ شَفَا حُجْرٍ حَاسِرٍ﴾^(١) فكذلك قوله: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ

(١) التوبة: الآية (١٠٩).

إِبْرَهْمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴿١﴾ ؛ أي : ابنيا بيتي على طهر من الشرك بي والريب . . . والوجه الآخر منهما : أن يكونا أمرا بأن يطهرا مكان البيت قبل بنيانه ، والبيت بعد بنيانه ، مما كان أهل الشرك بالله يجعلونه فيه على عهد نوح ومن قبله من الأوثان ، ليكون ذلك سنة لمن بعدهما ، إذ كان الله - تعالى ذكره - قد جعل إبراهيم إماماً يقتدي به من بعده»^(١) .

وقال السعدي : ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَهْمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ ﴿١﴾ أي : أوحينا إليهما ، وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك ، والكفر والمعاصي ، ومن الرجس والنجاسات ، والأقذار ، ليكون ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ ﴿٢﴾ فيه ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ وَالرُّكَّعِ الشُّجُودِ ﴿٣﴾ أي : المصلين .

قدم الطواف ، لاختصاصه بالمسجد الحرام . ثم الاعتكاف ؛ لأن من شرطه ، المسجد مطلقاً . ثم الصلاة ، مع أنها أفضل ، لهذا المعنى . وأضاف الباري البيت إليه لفوائد . منها : أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره ، لكونه بيت الله . فيبذلان جهدهما ، ويستغرقان وسعهما في ذلك . ومنها : أن الإضافة ، تقتضي التشريف والإكرام . ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه . ومنها : أن هذه الإضافة ، هي السبب الجالب للقلوب إليه»^(٢) .

وقال ابن كثير : «والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له ، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِ يُظَلَمِ نُزُفُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾»^(٣) ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له إما بطواف أو صلاة ، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة : قيامها وركوعها وسجودها ، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين ، واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام ؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام ، وفي ذلك أيضاً رد على من لا يحججه من أهل

(١) جامع البيان (٣/ ٣٨-٣٩ تحقيق شاکر) .

(٢) الحج : الآية (٢٥) .

(٣) تفسير السعدي (١/ ١٣٧-١٣٨) .

الكتابين اليهود والنصارى؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وإسماعيل، ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وغير ذلك وللاعتكاف والصلاة عنده، وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع الله له؟ وقد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾^(١).

وتقدير الكلام إذا: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴿أَن طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: طهراه من الشرك والريب، وأبناءه خالصاً لله معقلاً للطائفين والعاكفين والركع السجود^(٢).

وقال القرطبي: «لما قال الله تعالى: ﴿أَن طَهَّرَا بَيْتِي﴾ دخل فيه بالمعنى جميع بيوته تعالى؛ فيكون حكمها حكمه في التطهير والنظافة. وإنما خص الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها، أو لكونها أعظم حرمة؛ والأول أظهر، والله أعلم. وفي التنزيل: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾^(٣)»^(٤).

وقال ابن كثير: «وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة، ومن قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾^(٥) ومن السنة من أحاديث كثيرة من الأمر بتطهيرها وتطيبها وغير ذلك من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك»^(٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الأمر بتطهير المساجد وتنظيفها

* عن أبي هريرة: أن رجلاً أسود -أو امرأة سوداء- كان يقيم المسجد، فمات، فسأل النبي ﷺ عنه فقالوا: مات. قال: «أفلا كنتم أذنتموني به، دلوني على قبره -أو قال: قبرها- فأتى قبره فصلى عليه»^(٧).

(١) النجم: الآية (٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٣٠٢/١).

(٣) النور: الآية (٣٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٧٨/٢).

(٥) النور: الآية (٣٦).

(٦) تفسير ابن كثير (٣٠٢/١).

(٧) أخرجه أحمد (٣٥٣/٢) والبخاري (٤٥٨/٧٢٧/١) واللفظ له، ومسلم (٩٥٦/٦٥٩/٢) وأبو داود (٣/٥٤١/٣٢٠٣) وابن ماجه (١٥٢٨/٤٨٩/١).

★ غريب الحديث:

يقم: بقاف مضمومة؛ أي: يجمع القمامة وهي الكناسة.

★ فوائد الحديث:

بوب البخاري رحمه الله على هذا الحديث: باب كنس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيان:

قال ابن حجر: «فإن قيل: دل الحديث على كنس المسجد فمن أين يؤخذ التقاط الخرق وما معه؟ أجب بعض المتأخرين بأنه يؤخذ بالقياس عليه، والجامع التنظيف. قلت: والذي يظهر لي من تصرف البخاري أنه أشار بكل ذلك إلى ما ورد في بعض طرقه صريحاً، ففي طريق العلاء المتقدمة: (كانت تلتقط الخرق والعيان من المسجد)»^(١)»^(٢).

وقال الإمام ابن الحاج -في بيان الأمر بتغيير البدع التي أحدثت في المساجد-: «قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»^(٣)، ولا شك أن المسجد وما يفعل فيه من رعية الإمام والمؤذن والقيم إلى غير ذلك ممن له التصرف.

ألا ترى إلى فعله -عليه الصلاة والسلام- حين رأى نخامة في القبلة فحكها بيده، ورؤي منه كراهية، أو رؤي كراهيته لذلك وشدته عليه، وقال: «إن أحدكم إذا قام يصلي فإنما يناجي ربه، أو ربه بينه وبين القبلة فلا يبزقن في قبلته، ولكن عن يساره أو تحت قدميه» ثم أخذ طرف ردائه فبزق فيه ورد بعضه على بعض وقال: «أو يفعل هكذا»^(٤)»^(٥).

ثم قال: «إذا تقرر أن المسجد من رعية الإمام فيحتاج أن يتفقده، فما كان فيه على منهاج السلف، الماضين أبقاه، وما كان من غير ذلك أزاله برفق وتلطف إن

(١) أخرجه ابن خزيمة (٢/٢٧٢/١٣٠٠). (٢) الفتح (١/٧٢٧-٧٢٨).

(٣) أخرجه أحمد (٥/٢) والبخاري (٩/٣١٦/٥١٨٨) ومسلم (٣/١٤٥٩/١٨٢٩) وأبو داود (٣/٣٤٢-٣٤٣/٢٩٢٨) والترمذي (٤/١٨٠-١٨١/١٧٠٥) والنسائي في الكبرى (٥/٣٧٤/٩١٧٣) كلهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه من حديث ابن عمر البخاري (١/٦٧٠/٤٠٦) ومسلم (١/٣٨٨/٥٤٧) وأبو داود (١/٣٢٣/٤٧٩) والنسائي (٢/٣٨٣/٧٢٣). وفي الباب عن أبي هريرة، وأبي سعيد، وأنس بن مالك، وعائشة رضي الله عنهن.

(٥) المدخل (٢/٢٠٧).

قدر على ذلك كما تقدم من فعله - عليه الصلاة والسلام - في النخامة^(١).

قلت: رحم الله الإمام ابن الحاج المالكي ومن سبقه من الأئمة العلماء في العناية بالمساجد حساً ومعنى؛ فالحس العناية بالمسجد في بنائه وهندسته وجدرانه وسقوفه، بحيث لا يكون فيها ما يخالف تعاليم الإسلام من كتابة على الجدران، ومن صور لباني المسجد أو المحسن الذي ينفق عليه، أو أي شيء يخالف هدي رسول الله ﷺ، مع العناية بفرشه، والنظافة المتواصلة حتى لا يتأذى المصلون بالغبار أو الروائح الكريهة، التي تكون نتيجة الإهمال، مع التطيب المستمر الذي يدخل الفرحة والسرور على المصلي، وإن أمكن تكييفه في البلاد الحارة في أيام الصيف أو البلاد الباردة في أيام البرد القارس فأمر محمود، فينبغي أن يكون المسجد في أعلى النماذج في كل الصور المريحة للمصلين.

وينبغي أن يختار له أحسن الأئمة قراءةً وصوتاً وسمتاً، فلا يعين فيه أراذل الناس وأسوؤهم قراءةً وأقبحهم سلوكاً وعقيدةً، فينبغي أن يكون الإمام هو ذاك الشخص الذي وصفه رسول الله ﷺ بأنه أقرأ الناس، وأقرأ الناس في كلام رسول الله ﷺ أفقههم وأعلمهم، فالإمام هو القدوة، وبه يقتدي المصلون، فلا يجوز إحداث البدع التي ألحقها المبتدعة بالمساجد، فهي فتنة للمصلين في صلاتهم، فتحدث لهم من الفتن والقلاقل ما الله به عليم، فالواجب على ولاية أمور المسلمين محو البدع من المساجد وإزالتها، وإقامتها على سنة رسول الله ﷺ.

* * *

(١) المدخل (٢/٢٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

★ غريب الآية:

أضطره: الاضطرار: هو حمل المرء على ما يضره أو يكرهه.
المصير: الحال التي يُصارُ إليها، من صار إلى كذا أي انتهى إليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله: ﴿آمِنًا﴾، آمناً من الجبابة وغيرهم، أن يسلطوا عليه، ومن عقوبة الله أن تناله كما تنال سائر البلدان، من خسف واثتفك وغرق، وغير ذلك من سخط الله ومثلاته التي تصيب سائر البلاد غيره... فإن قال لنا قائل: أو ما كان الحرم آمناً إلا بعد أن سأل إبراهيم ربه له الأمان؟ قيل له: لقد اختلف في ذلك. فقال بعضهم: لم يزل الحرم آمناً من عقوبة الله وعقوبة جبابة خلقه، منذ خلقت السموات والأرض... وقال آخرون: كان الحرم حلالاً قبل دعوة إبراهيم كسائر البلاد غيره. وإنما صار حراماً بتحريم إبراهيم إياه، كما كانت مدينة رسول الله ﷺ حلالاً قبل تحريم رسول الله ﷺ إياها...»

ثم قال: «والصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله -تعالى ذكره- جعل مكة حرماً حين خلقها وأنشأها، كما أخبر النبي ﷺ: «أنه حرمها يوم خلق السموات والأرض»، بغير تحريم منه لها على لسان أحد من أنبيائه ورسله، ولكن بمنعه من أرادها بسوء، وبدفعه عنها من الآفات والعقوبات وعن ساكنيها، ما أحل بغيرها وغير ساكنيها من النقمات. فلم يزل ذلك أمرها حتى بوأها الله إبراهيم خليله، وأسكن بها أهله هاجر وولده إسماعيل. فسأل حينئذ إبراهيم ربه إيجاب فرض تحريمها على عباده على لسانه، ليكون ذلك سنة لمن بعده من خلقه يستنون به فيها،

إذ كان -تعالى ذكره- قد اتخذ خليلاً ، وأخبره أنه جاعله للناس إماماً يقتدى به . فأجابه ربه إلى ما سأله ، وألزم عباده حينئذ فرض تحريمه على لسانه .

فصارت مكة بعد أن كانت ممنوعة بمنع الله إياها ، بغير إيجاب الله فرض الامتناع منها على عباده ، ومحرمه بدفع الله عنها ، بغير تحريمه إياها على لسان أحد من رسله ، فرض تحريمها على خلقه على لسان خليله إبراهيم عليه السلام ، وواجب على عباده الامتناع من استحلالها ، واستحلال صيدها وعضاها لها بإيجابه الامتناع من ذلك ، ببلاغ إبراهيم رسالة الله إليه بذلك إليهم .

فلذلك أضيف تحريمها إلى إبراهيم ، فقال رسول الله ﷺ : «إن الله حرم مكة» ؛ لأن فرض تحريمها الذي ألزم الله عباده على وجه العبادة له به دون التحريم الذي لم يزل متعبداً لها به على وجه الكلاءة^(١) والحفظ لها قبل ذلك ، كان عن مسألة إبراهيم ربه إيجاب فرض ذلك على لسانه ، وهو الذي لزم العباد فرضه دون غيره .

فقد تبين إذا بما قلنا صحة معنى الخبرين -أعني خبر أبي شريح وابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : «إن الله حرم مكة يوم خلق الشمس والقمر»- وخبر جابر وأبي هريرة ورافع بن خديج وغيرهم : أن النبي ﷺ قال : «اللهم إن إبراهيم حرم مكة» ، وأن ليس أحدهما دافعاً صحة معنى الآخر ، كما ظنه بعض الجهال .

وغير جائز في أخبار رسول الله ﷺ أن يكون بعضها دافعاً بعضاً ، إذا ثبت صحتها . وقد جاء الخبران اللذان رويَا في ذلك عن رسول الله ﷺ ، مجيئاً ظاهراً مستفيضاً يقطع عذر من بلغه .

وأما قول إبراهيم عليه السلام : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِ بَوَادِ عَيْرٍ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمَ﴾^(٢) ، فإنه إن يكن قاله قبل إيجاب الله فرض تحريمه على لسانه على خلقه ، فإنما عنى بذلك تحريم الله إياه الذي حرمه بحياطته إياه وكلاءته ، من غير تحريمه إياه على خلقه على وجه التعبد لهم بذلك ، وإن يكن قال ذلك بعد تحريم الله إياه على لسانه على خلقه على وجه التعبد ، فلا مسألة لأحد علينا في ذلك^(٣) .

وقال السعدي : «وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت ، أن يجعله الله بلداً آمناً ، ويرزق

(١) بكسر الكاف : الحرس والحفظ .

(٢) إبراهيم : الآية (٣٧) .

(٣) جامع البيان (٣/ ٤٤-٥١ تحقيق شاکر) .

أهله من أنواع الثمرات .

ثم قيد ﷺ هذا الدعاء للمؤمنين، تأديباً مع الله، إذ كان دعاؤه الأول، فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيداً بغير الظالم .

فلما دعا لهم بالرزق، وقيده بالمؤمن، وكان رزق الله شاملاً للمؤمن والكافر، والعاصي والطائع، قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: أرزقهم كلهم، مسلمهم وكافرهم . أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة . وأما الكافر، فيتمتع فيها قليلاً ﴿ثُمَّ أَصْطَرُّهُ﴾ أي: ألجته وأخرجه مكرهاً ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَشَرُّ الْمَصِيرِ﴾^(١) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحريم مكة والمدينة

* عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإنني حرمت المدينة ما بين لابتيها، لا يقطع عضائها، ولا يصاد صيدها»^(٢) .

* عن رافع بن خديج قال: (قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإنني أحرم ما بين لابتيها»؛ يريد المدينة)^(٣) .

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أحدمه، فلما قدم النبي ﷺ راجعاً وبدا له أحد، قال: «هذا جبل يحبنا ونحبه»، ثم أشار بيده إلى المدينة، قال: «اللهم إنني أحرم ما بين لابتيها كتحریم إبراهيم مكة، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا»^(٤) .

* عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم ﷺ لمكة»^(٥) .

(١) تفسير السعدي (١/١٣٨-١٣٩) .

(٢) أخرجه مسلم (٢/٩٩٢/١٣٦٢) والنسائي في الكبرى (٢/٤٨٧-٤٨٨/٤٢٨٤) .

(٣) أخرجه أحمد (٤/١٤١) ومسلم (٢/٩٩١/١٣٦١) .

(٤) أخرجه أحمد (٣/١٤٩-١٥٩-٢٤٠-٢٤٣) والبخاري (٦/١٠٤-٢٨٨٩) ومسلم (٢/٩٩٣/١٣٦٥) .

والترمذي (٥/٦٧٨/٣٩٢٢) .

(٥) أخرجه أحمد (٤/٤٠) والبخاري (٤/٤٣٦/٢١٢٩) ومسلم (٢/٩٩١/١٣٦٠) .

* غريب الحديث:

لابتيها: اللابتان: الحرتان واحدها لابة، وهي الأرض الملبسة حجارة سوداء. وللمدينة لابتان شرقية وغربية وهي بينهما، ويقال: لابة ولوبة ونوبة بالنون ثلاث لغات مشهورات، وجمع اللابة في القلة لابات والكثرة لاب ولوب.

عضاها: العضاء - بالقصر وكسر العين وتخفيف الضاد المعجمة - كل شجر فيه شوك واحدها عضاهة وعضهة وعضة.

* فوائد الأحاديث:

متى حرمت مكة؟

قوله ﷺ: (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض).

قال النووي: «وفي الأحاديث التي ذكرها مسلم بعد هذا أن إبراهيم حرم مكة، فظاهرها الاختلاف، وفي المسألة خلاف مشهور ذكره الماوردي في الأحكام السلطانية وغيره من العلماء في وقت تحريم مكة، فقليل: إنها ما زالت محرمة من يوم خلق الله السموات والأرض، وقيل: ما زالت حلالاً كغيرها إلى زمن إبراهيم ﷺ، ثم ثبت لها التحريم من زمن إبراهيم، وهذا القول يوافق الحديث الثاني، والقول الأول يوافق الحديث الأول، وبه قال الأكثرون، وأجابوا عن الحديث الثاني بأن تحريمها كان ثابتاً من يوم خلق الله السموات والأرض، ثم خفي تحريمها واستمر خفاؤه إلى زمن إبراهيم، فأظهره وأشاعه لا أنه ابتداء، ومن قال بالقول الثاني أجاب عن الحديث الأول بأن معناه: أن الله كتب في اللوح المحفوظ أو في غيره يوم خلق الله تعالى السموات والأرض أن إبراهيم سيحرم مكة بأمر الله تعالى. والله أعلم»^(١).

وقال أبو يعلى الفراء: «وقد اختلف في مكة وما حولها، هل صارت حراماً بسؤال إبراهيم، أو كانت قبله كذلك؟ فمن الناس من قال: لم تنزل حرماً آمناً من الجابرة المسلطين، ومن الخسوف والزلازل، وإنما سأل إبراهيم ربه أن يجعله آمناً من الجذب والقحط، وأن يرزق أهله من كل الثمرات.

(١) شرح مسلم (١٠٥/٩-١٠٦).

وهذا ظاهر كلام أحمد في رواية الأثرم، وقد سئل عن قول النبي ﷺ «مكة أحلت لي ساعة من نهار ولم تحل لأحد قبلي»^(١) ما وجهه؟ قال: «وجهه: أنها كانت حراماً ولم تنزل».

فقد نص على أنها لم تنزل حراماً:

«والوجه فيه ما روى سعيد بن أبي سعيد - يعني المقبري - قال: سمعت أبا شريح الخزاعي يقول: «إن رسول الله ﷺ لما افتتح مكة قام خطيباً، فقال: يا أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام إلى يوم القيامة، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، أو يعضد بها شجرة، ألا وإنها لا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها، ألا وهي قد رجعت على حالها بالأمس، ألا ليلبلغ الشاهد الغائب، فمن قال إن رسول الله ﷺ قاتل بها، فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله، ولم يحلها لك»^(٢).

ومن الناس من قال: إن مكة كانت حلالاً قبل دعوة إبراهيم كسائر البلاد، وأنها صارت بدعوته حراماً آمناً، حين حرمها، كما صارت المدينة بتحريم رسول الله ﷺ حرماً بعد أن كانت حلالاً، لما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم كان عبد الله و خليله، وإني عبد الله ورسوله، وإن إبراهيم حرم مكة، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها: عضاهها وصيداها. لا يحمل فيها السلاح لقتال. ولا يقطع فيها شجرة إلا لعلف بعير»^(٣).

وقال ابن القيم: «فهذا تحريم شرعي قدره سبق به قدره يوم خلق هذا العالم، ثم ظهر به على لسان خليله إبراهيم، ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهما - كما في الصحيح عنه، أنه ﷺ قال: «اللهم إن إبراهيم خليلك حرم مكة، وإني أحرم المدينة»، فهذا إخبار عن ظهور التحريم السابق يوم خلق السموات والأرض على لسان إبراهيم، ولهذا لم ينازع أحد من أهل الإسلام في تحريمها، وإن تنازعوا في تحريم المدينة، والصواب المقطوع به تحريمها، إذ قد صح فيه بضعة وعشرون

(١) سيأتي قريباً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٣١/٤) والبخاري (١٠٤/٢٦٣) ومسلم (٩٨٧-٩٨٨/٢) والترمذي (١٣٥٤/٣) والترمذي (١٧٣/٣).

(٣) والنسائي (٢٢٥-٢٢٦/٥) من حديث أبي شريح.

(٣) الأحكام السلطانية (١٩٢).

حديثاً عن رسول الله ﷺ لا مطعن فيها بوجه .

ومنها : قوله : (فلا يحل لأحد أن يسفك بها دمًا) ، هذا التحريم لسفك الدم المختص بها ، وهو الذي يباح في غيرها ، ويحرم فيها لكونها حرماً ، كما أن تحريم عضد الشجر بها ، واختلاء خلائها ، والتقاط لقطتها ، هو أمر مختص بها ، وهو مباح في غيرها ، إذ الجميع في كلام واحد ، ونظام واحد ، وإلا بطلت فائدة التخصيص^(١) .

وقال ابن كثير : « فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها ؛ لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها وأنها لم تزل بلدًا حرامًا عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها ، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوبًا عند الله خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾^(٢) الآية ؛ وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقدره^(٣) .

* قال علي رضي الله عنه : « ما عندنا كتاب نقرؤه إلا كتاب الله غير هذه الصحيفة قال : فأخرجها فإذا فيها أشياء من الجراحات وأسنان الإبل ، قال : وفيها : المدينة حرم ما بين عير إلى ثور ؛ فمن أحدث فيها حدثًا ، أو آوى محدثًا ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل . ومن والى قومًا بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل . وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ، فمن أخفر مسلمًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل^(٤) .

★ غريب الحديث :

عير وثور : جبلان بالمدينة النبوية .

ذمة : المراد بها الأمان .

(٢) البقرة : الآية (١٢٩) .

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٤٢-٤٤٣) .

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٥-٣٠٦) .

(٤) أخرجه البخاري (١٢/ ٤٧-٤٨ / ٦٧٥٥) ، ومسلم (٢/ ٩٩٤-٩٩٨ / ١٣٧٠) .

أخضر: نقض عهده.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وقوله: «فمن أحدث فيها حدثاً» يعني: من أحدث ما يخالف الشرع من بدعة، أو معصية، أو ظلم، كما قال: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ»^(١).

وقوله: «أو آوى محدثاً» أي: ضمّه إليه، ومنعه ممن له عليه حق، ونصره. ويقال: آوى - بالقصر والمد - متعدياً ولازماً، والقصر في اللازم أكثر، والمد في المتعدي أكثر.

وقوله: «فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» لعنة الله: طرده للملعون، وإبعاده عن رحمته. ولعنة الملائكة والناس: الإبعاد، والدعاء بالإبعاد. وهؤلاء هم اللاعنون، كما قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾^(٢). والصرف: التوبة، والعدل: الفدية؛ قاله الأصمعي. وقيل: الصرف: الفريضة، والعدل: التطوع. وعكس ذلك الحسن. وقيل: الصرف: الحيلة والكسب، والعدل: المثل. كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ عَدَلْ ذَلِكَ صِيَامًا﴾^(٣) «^(٤)».

* عن أبي هريرة أنه قال: (كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبي ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه»، قال: ثم يدعوا أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر)^(٥).

* عن علي بن أبي طالب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بحرة السقيا

(١) أخرجه: أحمد (٦/٢٤٠ و ٢٧٠)، والبخاري (٥/٣٧٧/٢٦٩٧) واللفظ له، ومسلم (٣/١٣٤٣/١٧١٨)، وأبو داود (٥/١٢/٤٦٠٦)، وابن ماجه (١/١٤/١٤).

(٢) البقرة: الآية (١٥٩).

(٣) المائدة: الآية (٩٥).

(٤) المفهم (٣/٤٨٧).

(٥) أخرجه مسلم (٢/١٠٠٠/١٣٧٣) والترمذي (٥/٤٧٢/٣٤٥٤) والنسائي في الكبرى (٦/٨٣/١٠١٤٣) وابن ماجه (٢/١١٠٥/٣٣٢٩).

التي كانت لسعد بن أبي وقاص: فقال رسول الله ﷺ: «اتنوني بوضوء»، فتوضأ ثم قام فاستقبل القبلة ثم قال: «اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليلك، ودعا لأهل مكة بالبركة، وأنا عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مدهم وصاعهم مثل ما باركت لأهل مكة مع البركة بركتين»^(١).

* عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لمكة: «ما أطيبك من بلد وأحبك إلي!! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»^(٢).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: «لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكة، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يخنل خلاها»، قال العباس: يا رسول الله! إلا الإذخر؟ فإنه لقينهم ولبيوتهم، قال: قال: «إلا الإذخر»^(٣).

* عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح»^(٤).

★ فوائد الأحاديث:

قال أبو يعلى الفراء: «والذي يختص به الحرم من الأحكام التي تباين سائر البلاد خمسة أحكام:

- (١) أخرجه أحمد (١/١١٥-١١٦) والترمذي (٥/٦٧٤-٦٧٥/٣٩١٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».
- (٢) أخرجه الترمذي (٥/٦٧٩-٦٨٠/٣٩٢٦). وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وابن حبان (٩/٢٣/٣٧٠٩) والطبراني في الكبير (١٠/٢٦٧-٢٧٠/١٠٦٢٤-١٠٦٣٣) والحاكم (١/٤٨٦) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي. وفي الباب عن عبد الله بن عدي بن الحمراء أخرجه الترمذي (٥/٦٧٩/٣٩٢٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب صحيح»، والنسائي في الكبرى (٢/٤٧٩/٤٢٥٢ و٤٢٥٣) وابن ماجه (٢/١٠٣٧/٣١٠٨).
- (٣) أخرجه أحمد (١/٢٥٩) والبخاري (٤/٥٧/١٨٣٤) ومسلم (٢/٩٨٦-٩٨٧/١٣٥٣) وأبو داود (٢/٥٢١/٢٠١٨) والترمذي (٤/١٢٦/١٥٩٠) والنسائي (٥/٢٢٣-٢٢٥/٢٨٧٤).
- (٤) أخرجه أحمد (٣/٣٤٧-٣٩٣) ومسلم (٢/٩٨٩/١٣٥٦).

أحدها : أن لا يدخله محل قدم إليه حتى يحرم لدخوله ، إما بحج أو بعمره ، يتحلل بها من إحرامه ؛ إلا أن يكون ممن يكثر الدخول إليها لمنافع أهلها ، كالحطابين ، والسقايين الذين يخرجون منها غدوة ويعودون إليها عشاء ، فيجوز لهم دخولها محلين ، لدخول المشقة عليهم في الإحرام كلما دخلوا . . .

الحكم الثاني : أن لا يحارب أهلها ، لتحريم رسول الله ﷺ قتالهم بقوله : « لا يحل لامرئ مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا »^(١) .

فإن بغوا على أهل العدل قاتلهم على بغيهم إذا لم يمكن ردهم عن البغي إلا بالقتال ؛ لأن قتال أهل البغي من حقوق الله التي لا يجوز أن تضاع ، وكونها محفوظة في حرمة أولى من أن تكون مضاعة فيه .

فأما إقامة الحدود في الحرم فينظر . فإن أتاها في الحرم أقيمت عليه فيه . وإن أتاها في الحل ثم لجأ إلى الحرم لم يقم عليه فيه ، وألجئ إلى الخروج منه بترك مبايعته ومشاراته . فإذا خرج أقيمت عليه .

الحكم الثالث : تحريم صيده على المحرمين والمحلين من أهل الحرم ومن طراً عليه . . .

الحكم الرابع : تحريم قطع الشجر الذي أنبته الله تعالى فيه ، ولا يحرم قطع ما غرسه الآدميون ، كما لا يحرم فيه ذبح الأنيس من الحيوان . ولا يجوز أن يرعى حشيش الحرم . . .

الحكم الخامس : أن يمنع من خالف دين الإسلام من ذمي أو معاهد أن يدخل الحرم ، لا مقيماً ولا ماراً به^(٢) .

* حرمة المدينة :

قال أبو عمر : « قال ابن مهدي عن مالك : حرم المدينة بريد في بريد ؛ يعني من الشجر . قال : واللابتان هما الحرتان . وقال ابن حبيب : اللابة : الحرة ، وهي الأرض التي ألبيت الحجارة السود الجرد ، وجمع اللابة : لابات ، فإذا كثرت جداً فهي لوب .

(٢) الأحكام السلطانية (١٩٢-١٩٥)

(١) تقدم قريباً من حديث أبي شريح رضي الله عنه .

قال: وتحريم النبي ﷺ ما بين لابتي المدينة، إنما يعني في الصيد، فأما في قطع الشجر، فبريد في بريد في دور المدينة كلها محرم، كذلك أخبرني مطرف عن مالك، وعمر بن عبد العزيز. فقول رسول الله ﷺ: «ما بين لابتيها» يعني حرثها الشرقية والغربية، وهي حرار أربع، لكن القبلية والجوفية متصلتان بها، وقد ردها حسان ابن ثابت إلى حرة واحدة لاتصالها فقال:

لنا حرة مأطورة بجبالها بنى العز فيها بيته فتأثلا

قال: وقوله: مأطورة بجبالها يعني: معطوفة بجبالها؛ لاستدارة الجبال بها، وإنما جبالها تلك الحجارة السود التي تسمى الحرار.

قال أبو عمر: وكذلك فسر ابن وهب ما بين لابتيها، قال: ما بين حرثيها، قال: وهو قول مالك. قال ابن وهب: وهذا الذي حرمه رسول الله ﷺ فيها، إنما هو في قتل الصيد، قيل لابن وهب: فما حرمه فيها في قطع الشجر؟ قال: حد ذلك: بريد في بريد، بلغني ذلك عن عمر بن عبد العزيز. وقال ابن نافع: اللابتان هما الحرثان، إحداهما التي ينزل بها الحاج إذا رجعوا من مكة وهي بغربي المدينة، والأخرى مما يليها من شرقي المدينة، قال: فما بين هاتين الحرثين، حرام أن يصاد فيها طير، أو صيد. قال ابن نافع: وحررة أخرى مما يلي قبلة المدينة، وحررة رابعة من جهة الجوف، فما بين هذه الحرار كلها في الدور محرم أن يصاد فيها، ومن فعل ذلك أثم، ولم يكن عليه جزاء ما صاده كما يكون عليه في حرم مكة إذا صاد فيه^(١).

قال شيخ الإسلام: «وكذلك حرم مدينة رسول الله ﷺ، وهو ما بين لابتيها، و(اللابة) هي الحرة، وهي الأرض التي فيها حجارة سود، وهو بريد في بريد، والبريد أربعة فراسخ، وهو من غير إلى ثور، وغير هو جبل عند الميقات يشبه العير، وهو الحمار، وثور هو جبل من ناحية أحد، وهو غير جبل ثور الذي بمكة؛ فهذا الحرم أيضًا لا يصاد صيده ولا يقطع شجره، إلا لحاجة كآلة الركوب، والحرث، ويؤخذ من حشيشه ما يحتاج إليه للعلف، فإن النبي ﷺ رخص لأهل المدينة في هذا لحاجتهم إلى ذلك، إذ ليس حولهم ما يستغنون به عنه، بخلاف الحرم المكي. وإذا

(١) المصدر السابق (٩/٢٠٣-٢٠٤).

أدخل عليه صيد لم يكن عليه إرساله .

وليس في الدنيا حرم لا بيت المقدس ، ولا غيره ، إلا هذان الحرمان ، ولا يسمى غيرهما حرماً كما يسمى الجهاد . فيقولون : حرم المقدس ، وحرم الخليل ، فإن هذين وغيرهما ليسا بحرماً باتفاق المسلمين ، والحرم المجمع عليه حرم مكة . وأما المدينة فلها حرم أيضاً عند الجمهور ، كما استفاضت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ^(١) .

قال القرطبي : «وقوله : «إني أحرم ما بين لابتي المدينة» . . . هذا الحديث نص في تحريم صيد المدينة ، وقطع شجرها . وهو حجة للجمهور على أبي حنيفة وأصحابه في إباحة ذلك ، وإنكارهم على من قال بتحريم المدينة بناء منهم على أصلهم في ردهم أخبار الآحاد فيما تعم به البلوى . وقد تكلمنا معهم في هذا الأصل في باب أحداث الوضوء . ولو سلم لهم ذلك جدلاً ، فتحريم المدينة قد انتشر عند أهل المدينة والمحدثين ، وناقلي الأخبار ، حتى صار ذلك معلوما عندهم ، بحيث لا يشكون فيه ، والذي قصر بأبي حنيفة وأصحابه في ذلك قلة اشتغالهم بالحديث ، ونقل الأخبار ، وإلا فما الفرق بين الأحاديث الشاهدة بتحريم مكة ، وبين الشاهدة بتحريم المدينة في الشهرة ، ولو بحثوا عنها ؛ وأمعنوا فيه ؛ حصل لهم منها مثل الحاصل لهم من أحاديث مكة»^(٢) .

قال أبو عمر : «ذكر أبو يحيى الساجي ، قال : اختلف العلماء في تفضيل مكة على المدينة : فقال الشافعي : مكة خير البقاع كلها ، وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين .

وقال مالك والمدنيون : المدينة أفضل من مكة . واختلف البغداديون وأهل البصرة في ذلك : فطائفة تقول : مكة ، وطائفة تقول : المدينة . وقال عامة أهل الأثر والفقه : إن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد الرسول ﷺ بمائة صلاة . وروى يحيى بن يحيى عن ابن نافع ، أنه سأل عن معنى هذا الحديث فقال : معناه أن الصلاة في مسجد النبي ﷺ أفضل من الصلاة في المسجد الحرام ، بدون ألف صلاة ، وفي سائر المساجد بألف صلاة .

(٢) المفهم (٣/ ٤٨١) .

(١) مجموع الفتاوى (٢٦/ ١١٧-١١٨) .

قال أبو عمر: أما القول في فضل مكة والمدينة، فقد مضى منه في كتابنا هذا ما فيه كفاية. وأما تأويل ابن نافع، فبعيد عند أهل المعرفة باللسان، ويلزمه أن يقول: إن الصلاة في مسجد الرسول ﷺ أفضل من الصلاة في المسجد الحرام بتسعمائة ضعف، وتسعة وتسعين ضعفاً.

وإذا كان هكذا، لم يكن للمسجد الحرام فضل على سائر المساجد، إلا بالجزء اللطيف على تأويل ابن نافع، وحسبك ضعفاً بقول يؤول إلى هذا؛ فإن حدّاً في ذلك، لم يكن لقوله دليل ولا حجة، وكل قول لا تعضده حجة ساقط^(١).

قال الحافظ شي «الفتح» معلقاً على حديث عبد الله بن زيد: «استدل به عن تفضيل المدينة على مكة وهو ظاهر من هذه الجهة، لكن لا يلزم من حصول أفضلية المفضل في شيء من الأشياء ثبوت الأفضلية له على الإطلاق. وأما من ناقض ذلك بأنه يلزم أن يكون الشام واليمن أفضل من مكة لقوله في الحديث الآخر: «اللهم بارك لنا في شامنا. وأعادها ثلاثاً»^(٢) فقد تعقب بأن التأكيد لا يستلزم التكثير المصرح به في حديث الباب. وقال ابن حزم: لا حجة في حديث الباب لهم لأن تكثير البركة بها لا يستلزم الفضل في أمور الآخرة. ورده عياض بأن البركة أعم من أن تكون في أمور الدين أو الدنيا؛ لأنها بمعنى النماء والزيادة، فأما في الأمور الدينية فلما يتعلق بها من حق الله تعالى من الزكاة والكفارات ولا سيما في وقوع البركة في الصاع والمد. وقال النووي: الظاهر أن البركة حصلت في نفس المكيل بحيث يكفي المد فيها من لا يكفيه في غيرها، وهذا أمر محسوس عند من سكنها»^(٣).

قال أبو عمر: «وهذا من أصح الآثار عن النبي ﷺ، [ثم ساق بسنده إلى] عبد الله بن عدي بن الحمراء، قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته^(٤) بالحزورة يقول: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنني

(١) فتح البر (٩/٢١٧-٢١٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١١٨/٢) والبخاري (٧٠٩٤/٥٧/١٣) والترمذي (٣٩٥٣/٦٨٩/٥) وقال: «هذا حديث

حسن صحيح»، كلهم من حديث ابن عمر ؓ. (٣) فتح الباري (٤/١٢٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٣٠٥/٤)، والترمذي (٣٩٢٥/٦٧٩/٥) وقال: «حسن غريب صحيح»، وابن ماجه (٢/

٣٧/١٠٣٧)، وابن حبان (الإحسان ٩/٢٢/٣٧٠٨)، والحاكم (٣/٢٨٠/٤٨١).

أخرجت منك ما خرجت». وهذا قاطع في موضع الخلاف، والله المستعان^(١).
وقال: «فهذا عمر وعلي وابن مسعود وأبو الدرداء وابن عمر وجابر يفضلون مكة ومسجدها، وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم»^(٢).

وقال أيضًا: «إنما يحتج بقبر رسول الله ﷺ وبفضائل المدينة وبما جاء فيها عن النبي ﷺ وعن أصحابه على من أنكر فضلها وكرامتها. وأما من أقر بفضلها، وعرف لها موضعها، وأقر أنه ليس على وجه الأرض أفضل بعد مكة منها؛ فقد أنزلها منزلتها، وعرف لها حقها، واستعمل القول بما جاء عن النبي ﷺ في مكة وفيها؛ لأن فضائل البلدان لا تدرك بالقياس والاستنباط، وإنما سبيلها التوقيف. فكل يقول بما بلغه وصح عنده غير حرج. والآثار في فضل مكة عن السلف أكثر، وفيها بيت الله الذي رضي من عباده على الحط لأوزارهم بقصده مرة في العمر»^(٣).

قال ابن عبد البر: «دعاء إبراهيم لمكة كان كما قال الله ﷻ عنه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾^(٤) ولو كان الدعاء بالبركة في صاع المدينة ومدها يدل على فضلها على مكة، لكان كذلك دعاء رسول الله ﷺ بالبركة في الشام واليمن تفضيلًا منه لهما على مكة. وهذا لا يقوله أحد، وأما دعاء إبراهيم ﷺ فهو معنى قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(٥).

* * *

(٢) المصدر السابق (٩/ ٢٢٨).

(٤) البقرة: الآية (١٢٦).

(١) فتح البير (٩/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٣) المصدر السابق (٩/ ٢٣٤-٢٣٥).

(٥) فتح البير (٩/ ١٧٦-١٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

★ غريب الآية:

يرفع: أي: يعلّيها عن مقرها. ونقيض الرفع الخفض في كل شيء.
القواعد: مفردا قاعدة، وهي الأساس والركن، أصلها الثبوت والاستقرار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في (القواعد) التي رفعها إبراهيم وإسماعيل من البيت أهما أحدا ذلك، أم هي قواعد كانت له قبلهما؟ فقال قوم: هي قواعد بيت كان بناه آدم أبو البشر بأمر الله إياه بذلك، ثم درس مكانه وتعفى أثره بعده، حتى بوأه الله إبراهيم عليه السلام، فبناه وقال آخرون: بل هي قواعد بيت كان الله أهبطه لآدم من السماء إلى الأرض، يطوف به كما كان يطوف بعرشه في السماء، ثم رفعه إلى السماء أيام الطوفان، فرفع إبراهيم قواعد ذلك البيت... وقال آخرون: بل كان موضع البيت ربوة حمراء كهيئة القبة. وذلك أن الله لما أراد خلق الأرض علا الماء زبدة حمراء أو بيضاء، وذلك في موضع البيت الحرام. ثم دحا الأرض من تحتها، فلم يزل ذلك كذلك حتى بوأه الله إبراهيم، فبناه على أساسه. وقالوا: أساسه على أركان أربعة في الأرض السابعة... والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله -تعالى ذكره- أخبر عن إبراهيم خليله أنه وابنه إسماعيل، رفعوا القواعد من البيت الحرام. وجائز أن يكون ذلك قواعد بيت كان أهبطه مع آدم، فجعله مكان البيت الحرام الذي بمكة. وجائز أن يكون ذلك كان القبة التي ذكرها عطاء، مما أنشأ الله من زبد الماء. وجائز أن يكون كان ياقوته أو درة أهبطا من السماء. وجائز أن يكون كان آدم بناه ثم انهدم، حتى رفع قواعد إبراهيم وإسماعيل. ولا علم عندنا بأي ذلك كان من أي؛ لأن حقيقة ذلك لا تدرك إلا بخبر عن الله وعن رسوله ﷺ بالنقل المستفيض. ولا خبر بذلك

تقوم به الحجة فيجب التسليم لها، ولا هو - إذ لم يكن به خبر، على ما وصفنا - مما يدل عليه بالاستدلال والمقاييس، فيمثل بغيره، ويستنبط علمه من جهة الاجتهاد. فلا قول في ذلك هو أولى بالصواب مما قلنا. واللّٰه تعالى أعلم^(١).

قلت: هذا الذي قرره الإمام ابن جرير في عدم ثبوت خبر يئبي عن أول من بنى البيت الحرام هو قول من يئبي أموره على الدليل الصحيح الواضح، وأمر كبيت اللّٰه الحرام وتاريخ بنائه أمر لا ينبغي أن يعتمد فيه على الظن والتخمين، وروايات أهل الكتاب المكذوبة المبنية على الاختلاف. فاللّٰه تعالى تولى بيان بناء البيت ومن بناه بآيات صريحة، فلا حاجة إلى الالتفات إلى غيرها، وأسلوب القرآن العربي المتين في سياقه لا ينبغي أن يدخل عليه في سابقه أو لاحقه حتى يقال إن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ليس لهما إلا مجرد الرفع والتكميل، وإنما البناء كان قبل ذلك، وهذا كله ظن وتخمين، والصحيح ما أخبر اللّٰه به في كتابه أن البناء والرفع من أبي الحنفاء وابنه البار إسماعيل - عليهم الصلاة والسلام -.

وقال ابن جرير: «فتأويل الكلام: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان: ربنا تقبل منا عملنا، وطاعتنا إياك، وعبادتنا لك، في انتهائنا إلى أمرك الذي أمرتنا به، في بناء بيتك الذي أمرتنا ببنائه، إنك أنت السميع العليم. وفي إخبار اللّٰه - تعالى ذكره - أنهما رفعوا القواعد من البيت وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم دليل واضح على أن بناءهما ذلك لم يكن مسكنًا يسكنانه، ولا منزلًا ينزلانه، بل هو دليل على أنهما بنياه ورفعوا قواعده لكل من أراد أن يعبد اللّٰه، تقرّبًا منهما إلى اللّٰه بذلك. ولذلك قالوا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾. ولو كانا بنياه مسكنًا لأنفسهم، لم يكن لقولهما: ﴿تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ وجه مفهوم؛ لأنه كانا يكونان - لو كان الأمر كذلك - سائلين أن يتقبل منهما ما لا قربة فيه إليه. وليس موضعهما مسألة اللّٰه قبول ما لا قربة إليه فيه»^(٢).

(١) جامع البيان (٣/٥٧-٦٤ تحقيق شاکر).

(٢) جامع البيان (٣/٧٢-٧٣ تحقيق شاکر).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في تاريخ بناء الكعبة وما حصل فيها من الآيات

* عن سعيد بن جبير قال ابن عباس: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبانها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه؛ استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾^(١) وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه - يتلوى أو قال: يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صه، تريد نفسها، ثم سمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً». قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن ها هنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان

(١) إبراهيم: الآية (٣٧).

البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم -أو أهل بيت من جرهم- مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عاثفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك، فقالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل، وهي تحب الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألتها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشرٌ، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد، قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غير عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك؟ الحقني بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرباكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء»، قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أنا أنا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء

الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبكي نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قال: «فجعلاً يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾»^(١).

★ غريب الحديث:

المنطق: بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء. هو ما يشد به الوسط.
تعفي: يقال عفى الله على أثر فلان وعفا الله عليه. وقفى الله على أثر فلان وقفا عليه بمعنى واحد. وقوله: لتعفي أثرها؛ أي: لتخفي أثرها.
يتلبط: لبط فلان بفلان الأرض يلبط لبطاً مثل لبج به: ضربها به. وتلبط أي اضطجع وتمرغ.

صه: اسم فعل أمر. معناه: اسكت فكأنها خاطبت نفسها فقالت لها: اسكتي.
غواث: بالضم من الإغاثة. وغوث الرجل. واستغاث: صاح واغوثاه والاسم: الغوث والغواث والغواث.

طائرًا عائفاً: هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه.
أرسلوا جرياً: أي: رسولاً. وقد يطلق على الوكيل وعلى الأجير. وسمي بذلك لأنه يجري مجرى مرسله أو موكله. أو لأنه يجري مسرعاً في حوائجه.
* عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بني آدم»^(٢).

(١) أخرجه أحمد (٣٤٧-٣٤٨) والبخاري (٤٨٨-٤٨٩/٦) والسنائي في الكبرى (١٠٠/٥-١٠١/٥). (٨٣٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣٠٧-٣٢٩-٣٧٣) والترمذي (٨٧٧/٣/٢٢٦). وقال: «حديث حسن صحيح»، والسنائي (٢٤٩/٥-٢٩٣٥) مختصراً، وصححه ابن خزيمة (٢١٩/٤-٢٢٠/٤-٢٧٣٣).

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «استمتعوا من هذا البيت فقد هدم مرتين، ويرفع في الثالثة»^(١).

* عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، فقال: «أرني إزاري»، فشده عليه»^(٢).

★ غريب الحديث:

طمحت: أي ارتفعت.

* عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لها: «ألم تري أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم»، فقلت: يا رسول الله؛ ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال: «لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت»^(٣).

* عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «يا عائشة؛ لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين باباً شرقياً وباباً غربياً، فبلغت به أساس إبراهيم». فذلك الذي حمل ابن الزبير رضي الله عنه على هدمه، قال يزيد: وشهدت ابن الزبير حين هدمه وبناه وأدخل فيه من الحجر، وقد رأيت أساس إبراهيم حجارة كأسنمة الإبل، قال جرير: فقلت له: أين موضعه؟ قال: أريكه الآن، فدخلت معه الحجر فأشار إلى مكان فقال: ها هنا، قال جرير: فحزرت من الحجر ستة أذرع أو نحوها»^(٤).

★ غريب الحديث:

فحزرت: الحزرت: التقدير والخرص.

(١) أخرجه البزار (كشف الأستار ١٠٧٢/٣/٢) وابن خزيمة (١٢٨/٤-١٢٩/٢٥٠٦) وابن حبان (الاحسان ١٥/١٥٣/٦٧٥٣) والحاكم (٤٤١/١) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٢٩٥/٣) والبخاري (١٥٨٢/٥٦٠/٣) ومسلم (٣٤٠/٢٦٧/١).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٧/٦) والبخاري (١٥٨٣/٥٦٠/٣) ومسلم (١٣٣٣/٩٦٨/٢) وأبو داود (٤٤٠/٢).

(٤) (١٨٧٥) والنسائي (٢٣٥-٢٣٦/٢٩٠٠).

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٩/٦) والبخاري (١٥٨٦/٥٦١/٣) ومسلم (١٣٣٣/٩٦٨/٢) والترمذي (٢٢٤-٢٢٥/٣).

(٨٧٥) والنسائي (٢٣٧/٥/٢٩٠٣).

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن كثير: «يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفه وخليله إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء - عليه أفضل صلاة وتسليم -، أنه بنى البيت العتيق الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه، وبوأه الله مكانه؛ أي: أرشده إليه ودله عليه»^(١).

وقال: «والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع في واد غير ذي زرع، ودعا لأهلها بالبركة، وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار، وأن يجعله حرماً محرماً وأمناً محتماً، فاستجاب الله -وله الحمد- له مسألته، ولبي دعوته، وأتاه طلبته، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَفِّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾^(٣) وسأل الله أن يبعث فيهم رسولاً منهم؛ أي: من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية سعادة الأولى والأخرى. وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولاً وأي رسول، ختم به أنبياء ورسله، وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحداً قبله، وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم في سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة، وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء لشرفه في نفسه، وكمال ما أرسل به، وشرف بقعته، وفصاحة لغته، وكمال شفقتة على أمته، ولطفه ورحمته وكريم محتده، وعظيم مولده وطيب مصدره ومورده، ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض أن يكون منصبه ومحلّه وموضع في منازل السموات، ورفيع الدرجات عند البيت المعمور، الذي هو كعبة أهل السماء السابعة، المبارك المبرور، الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور»^(٤).

وقال: «وقد كانت على بناء الخليل مدة طويلة، ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصرتها بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلي الشام على ما هي عليه اليوم. وفي الصحيحين من حديث مالك عن ابن شهاب عن سالم أن عبد الله بن محمد بن

(١) البداية والنهاية (١/١٥٣).

(٢) العنكبوت: الآية (٦٧).

(٣) القصص: الآية (٥٧).

(٤) البداية والنهاية (١/١٥٤-١٥٥).

أبي بكر أخبر ابن عمر عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تري إلى قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم»، فقلت: يا رسول الله؛ ألا تردها على قواعد إبراهيم، فقال: «لولا حدثان قومك»، وفي رواية: «لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية -أو قال: بكفر-؛ لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحجر». وقد بناها ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أيامه على ما أشار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه، فلما قتله الحجاج في سنة ثلاث وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه، فأمر بردها إلى ما كانت عليه، فنقضوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحجر، ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة، فارتفع بابها الشرقي، وسدوا الغربي بالكلية كما هو مشاهد إلى اليوم، ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين، ندموا على ما فعلوا وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك. ثم لما كان في زمن المهدي بن المنصور استشار الإمام مالك بن أنس في ردها على الصفة التي بناها ابن الزبير، فقال له: «إني أخشى أن يتخذها الملوك لعبة؛ يعني: كلما جاء ملك بناها على الصفة التي يريد، فاستقر الأمر على ما هي عليه اليوم»^(١).

قال أبو عمر: «في هذا الحديث -يعني: حديث عائشة- من العلم، أن قريشاً بنت الكعبة ولم تتمها على قواعد إبراهيم. وقوله ﷺ لعائشة: ألم تري إلى قومك، ولولا حدثان قومك بالكفر. إنما عنى بذلك قريش لبنانهم الكعبة. قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿وَكَذَّبَ بِدِينِ قَوْمِكَ﴾^(٢). وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَذِكْرٌ لَّكُمْ وَلِقَوْمِكُمْ﴾^(٣) قال المفسرون: يعني قريشاً، والقواعد أساس البيت، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾^(٤) قال أهل اللغة: الواحدة منها قاعدة، قالوا: والواحد من النساء قاعدة.

وفيه حديث الرجل مع أهله في باب العلم وغيره من أيام الناس. وفيه أن رسول الله ﷺ لم يستلم الركنين اللذين يليان الحجر قال الشافعي: وذلك فيما نرى

(٢) الأنعام: الآية (٦٦).

(٤) البقرة: الآية (١٢٧).

(١) البداية والنهاية (١/١٥٥).

(٣) الزخرف: الآية (٤٤).

والله أعلم لأنهما كسائر البيت الذي لا يستلم ولأنهما ليسا بركنين على حقيقة، لما لم يكونا تامين على قواعد إبراهيم^(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»^(٢).

★ غريب الحديث:

ذو السويقتين: تشية سويقة وهي تصغير ساق؛ أي: له ساقان دقيقان.

* عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كأنني به أسود أفحج يقلعها حجرًا حجرًا»^(٣).

★ غريب الحديث:

أفحج: الفحج تباعد ما بين الساقين.

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج»^(٤).

★ فوائد الأحاديث:

قال الحافظ: «قيل: هذا الحديث يخالف قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾^(٥) ولأن الله حبس عن مكة الفيل ولم يتمكن أصحابه من تخريب الكعبة ولم تكن إذ ذاك قبلة، فكيف يسلط عليها الحبشة بعد أن صارت قبلة للمسلمين؟ وأجيب بأن ذلك محمول على أنه يقع في آخر الزمان قرب قيام الساعة، حيث لا يبقى في الأرض أحد يقول: الله الله كما ثبت في صحيح مسلم: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله»^(٦) ولهذا وقع في رواية سعيد بن سمعان: «لا يعمر بعده أبدا» وقد وقع قبل ذلك فيه من القتال وغزو أهل الشام له في زمن يزيد بن معاوية ثم

(١) فتح البر (٨/ ٤٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٥٧٩/ ١٥٩١) ومسلم (٤/ ٢٢٣٢/ ٢٩٠٩) والنسائي (٥/ ٢٣٧/ ٢٩٠٤).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٨) والبخاري (٣/ ٥٨٧/ ١٥٩٥).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٢٧) والبخاري (٣/ ٥٨٠/ ١٥٩٣) وابن خزيمة (٤/ ١٢٩/ ٢٥٠٧).

(٥) العنكبوت: الآية (٦٧).

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٧) ومسلم (١/ ١٣١/ ١٤٨) والترمذي (٤/ ٤٢٦-٤٢٧/ ٢٢٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

من بعده في وقائع كثيرة من أعظمها وقعة القرامطة بعد الثلاثمائة فقتلوا من المسلمين في المطاف من لا يحصى كثرة، وقلعوا الحجر الأسود فحولوه إلى بلادهم ثم أعادوه بعد مدة طويلة، ثم غزي مراراً بعد ذلك، كل ذلك لا يعارض قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾^(١) لأن ذلك إنما وقع بأيدي المسلمين فهو مطابق لقوله ﷺ: «ولن يستحل هذا البيت إلا أهله»^(٢)، فوقع ما أخبر به النبي ﷺ، وهو من علامات نبوته، وليس في الآية ما يدل على استمرار الأمن المذكور فيها. والله أعلم»^(٣).

وقال القرطبي: «ولا يعارض هذا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾»^(٤)؛ لأن تخريب الكعبة على يدي هذا الحبشي إنما يكون عند خراب الدنيا، ولعل ذلك في الوقت الذي لا يبقى إلا شرار الخلق، فيكون حرماً آمناً مع بقاء الدين وأهله، فإذا ذهبوا ارتفع ذلك المعنى.

قلت: وتحقيق الجواب عن ذلك أنه لا يلزم من قوله تعالى: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أن يكون ذلك دائماً في كل الأوقات؛ بل: إذا حصلت له حرمة وأمن في وقت ما، فقد صدق اللفظ وصح المعنى، ولا يعارضه ارتفاع ذلك المعنى في وقت آخر، فإن قيل: فقد قال النبي ﷺ: «إن الله أحل لي مكة ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها إلى يوم القيامة». قلنا: أما الحكم بالحرمة والأمن فلم يرتفع، ولا يرتفع إلى يوم القيامة إذ لم ينسخ ذلك بالإجماع، وأما وقوع الخوف فيها وترك حرمتها فقد وجد ذلك كثيراً، ويكفيك بعوث يزيد بن معاوية، وجيوش عبدالملك، وقتال الحجاج لعبد الله بن الزبير وغير ذلك مما جرى لها، وما فعل فيها من إحراق الكعبة ورميها بحجارة المنجنيق»^(٥).

* * *

(١) العنكبوت: الآية (٦٧).

(٢) أخرجه من حديث سعيد بن سمعان عن أبي هريرة: أحمد (٢/٢٩١) وصححه ابن حبان (١٥/٢٣٩/٦٨٢٧) والحاكم (٤/٤٥٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» وتعقبه الذهبي بقوله: «ما أخرجا لابن سمعان شيئاً».

(٣) الفتح (٣/٥٨٩).

(٥) المفهم (٧/٢٤٦).

(٤) العنكبوت: الآية (٦٧).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَارِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٢٨﴾

★ غريب الآية:

مُسْلِمِينَ: أصل الإسلام الانقياد والخضوع لأمر الله ﷻ.

مناسكنا: المناسك جمع منسك بفتح السين وكسرهما، وهي عبادات الحج وأماكنها، وأصل النُسك العبادة مطلقاً من حج وغيره. ثم غلب عليه، ومنه: تَنَسَّكَ فلان وَنَسَكَ بمعنى: تَعَبَّدَ، فهو نَسِيكَ وَنَاسِكَ. قال الأعشى:

وَذَا النُّصْبِ الْمَنْصُوبِ لَا تَنْسُكُنَّهُ وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهُ فَاعْبُدَا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا أيضاً خبر من الله - تعالى ذكره - عن إبراهيم وإسماعيل: أنهما كانا يرفعان القواعد من البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾، يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحدا سواك، ولا في العبادة غيرك... وأما قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾، فإنهما خصا بذلك بعض الذرية؛ لأن الله - تعالى ذكره - قد كان أعلم إبراهيم خليله ﷺ قبل مسأله هذه، أن من ذريته من لا ينال عهده لظلمه وفجوره. فخصا بالدعوة بعض ذريتهما»^(١).

وقال: «وخرج هذا الكلام من قول إبراهيم وإسماعيل على وجه المسألة منهما ربهما لأنفسهما. وإنما ذلك منهما مسألة ربهما لأنفسهما وذريتهما المسلمين. فلما ضما ذريتهما المسلمين إلى أنفسهما، صارا كالمخبرين عن أنفسهما بذلك. وإنما قلنا إن ذلك كذلك، لتقدم الدعاء منهما للمسلمين من ذريتهما قبل في أول الآية، وتأخره بعد في الآية الأخرى. فأما الذي في أول الآية فقولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا

(١) جامع البيان (٣/٧٣-٧٤ تحقيق شاکر).

مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ ﴿١﴾ ، ثم جمعا أنفسهما والأمة المسلمة من ذريتهما ، في مسألتهما ربهما أن يريهم مناسكهم فقالا : ﴿وَارِنَا مَنَاسِكَكَ﴾ . وأما التي في الآية التي بعدها : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ ^(١) ، فجعلا المسألة لذريتهما خاصة ^(٢) .

وقال : «أما (التوبة) ، فأصلها الأوبة من مكروه إلى محبوب . فتوبة العبد إلى ربه ، أوبته مما يكرهه الله منه ، بالندم عليه ، والإقلاع عنه ، والعزم على ترك العود فيه . وتوبة الرب على عبده : عوده عليه بالعفو له عن جرمه ، والصفح له عن عقوبة ذنبه ، مغفرة له منه ، وتفضلا عليه .

فإن قال لنا قائل : وهل كان لهما ذنوب فاحتاجا إلى مسألة ربهما التوبة؟

قيل : إنه ليس أحد من خلق الله ، إلا وله من العمل - فيما بينه وبين ربه - ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة . فجائز أن يكون ما كان من قبلهما ما قالوا من ذلك ، إنما خصا به الحال التي كانا عليها ، من رفع قواعد البيت ؛ لأن ذلك كان أحرى الأماكن أن يستجيب الله فيها دعاءهما ، وليجعل ما فعلا من ذلك سنة يقتدى بها بعدهما ، وتتخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تنصل من الذنوب إلى الله . وجائز أن يكونا عنيا بقولهما : ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا﴾ ، وتب على الظلمة من أولادنا وذريتنا -الذين أعلمتنا أمرهم- من ظلمهم وشركهم ، حتى ينيبوا إلى طاعتك . فيكون ظاهر الكلام على الدعاء لأنفسهما ، والمعني به ذريتهما . كما يقال : (أكرمني فلان في ولدي وأهلي ، وبرني فلان) ، إذا بر ولده .

وأما قوله : ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ، فإنه يعني به : إنك أنت العائد على عبادك بالفضل ، والمتفضل عليهم بالعفو والغفران -الرحيم بهم ، المستنقذ من تشاء منهم برحمتك من هلكته ، المنجي من تريد نجاته منهم برأفتك من سخطك^(٣) .

وقال ابن عطية : «واختلف في معنى طلبهم التوبة وهم أنبياء معصومون ، فقالت طائفة : طلبا التثبيت والدوام ، وقيل : أرادوا من بعدهما من الذرية كما تقول برني فلان وأكرمني وأنت تريد في ولدك وذريتك ، وقيل وهو الأحسن عندي : إنهما لما عرفا المناسك وبني البيت وأطاعا أرادوا أن يسنا للناس أن ذلك الموقف وتلك المواضع

(١) البقرة : الآية (١٢٩) .

(٢) جامع البيان (٣/ ٨٠ تحقيق شاكرو) .

(٣) جامع البيان (٣/ ٨١-٨٢ تحقيق شاكرو) .

مكان التنصل من الذنوب وطلب التوبة . وقال الطبري : إنه ليس أحد من خلق الله تعالى إلا وبينه وبين الله تعالى معان يحب أن تكون أحسن مما هي .

وأجمعت الأمة على عصمة الأنبياء في معنى التبليغ ومن الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة ، واختلف في غير ذلك من الصغائر ، والذي أقول به أنهم معصومون من الجميع ، وأن قول النبي ﷺ : «إني لأتوب إلى الله في اليوم وأستغفره سبعين مرة»^(١) إنما هو رجوعه من حالة إلى أرفع منها لتزيد علومه واطلاعه على أمر الله ، فهو يتوب من المنزلة الأولى إلى الأخرى ، والتوبة هنا لغوية»^(٢) .

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : « . . الرابعة : طلبهما أن يرزقهما الله الإسلام وهما هما ؛ والغفلة عن هذه الكلمة من العجائب .

الخامسة : إشراكهما في الدعوة بعض الذرية ، ففيها رغوب المؤمن وحرصه على صلاح ذريته .

السادسة : طلبهما أن يعلمهما المناسك ، ففيهما حرصهما على العمل بالنص مع عصمتهما .

السابعة : طلبهما أن يتوب عليهما وهما هما ؛ ففيهما خوفهما من الذنوب .

الثامنة : التوسل بالصفات .

التاسعة : التعليل بكونه ﴿التَّوَابُّ الرَّحِيمُ﴾ ، ولولا ذلك لاستحقا العقوبة .

العاشرة : الرد على المشركين وأهل الكتاب .

الحادية عشرة : أن دعوتهما بهذه النعمة ، التي هي أعظم النعم للذرية ، جعلها الذرية من أعظم المصائب»^(٣) .

قال الشنقيطي : «قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُّ الرَّحِيمُ﴾ (٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ» لم يبين هنا من هذه الأمة التي أجاب الله بها دعاء نبيه إبراهيم وإسماعيل . ولم يبين هنا

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٨٢) والبخاري (١١/١٢١/٦٣٠٧) والترمذي (٥/٣٥٧/٣٢٥٩) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٣٦) . وأخرجه ابن ماجه (٢/١٢٥٤/٣٨١٥) بمعناه . كلهم من حديث أبي هريرة .

(٢) المحرر الوجيز (١/٢١١-٢١٢) . (٣) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص : ٤٦-٤٧) .

أيضًا: هذا الرسول المسئول الذي بعثه فيهم من هو؟ ولكنه يبين في سورة الجمعة أن تلك الأمة العرب، والرسول هو سيد الرسل محمد ﷺ. وذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ① وَالْآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ②﴾ (١) لأن الأميين العرب بالإجماع. والرسول المذكور نبينا محمد ﷺ إجماعًا. ولم يبعث رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلا نبينا محمد ﷺ وحده.

وثبت في الصحيح أنه هو الرسول الذي دعا به إبراهيم ولا ينافي ذلك عموم رسالته ﷺ إلى الأسود والأحمر» (٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أحسن الدعاء

* عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة؛ إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (٣).

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «هذه الثلاث الخصال إنما جرى عملها بعد الموت على من نسبت إليه؛ لأنه تسبب في ذلك، وحرص عليه، ونواه. ثم إن فوائدها متجددة بعده دائمة فصار كأنه باشرها بالفعل، وكذلك حكم كل ما سنه الإنسان من الخير فتكرر بعده» (٤).

وقال الطيبي: «والمعنى: إذا مات الإنسان لا يكتب له بعده أجر أعماله؛ لأنه جزاء العمل، وهو ينقطع بموته إلا فعلاً دائماً الخير، مستمر النفع، مثل وقف أرض، أو تصنيف كتاب، أو تعليم مسألة يعمل بها، أو ولد صالح وكل منها يلحق أجره إليه. وإنما جعل «ولد صالح» من جنس العمل لأنه هو السبب في وجوده، وسبب لصلاحه بإرشاده إلى الهدى، كما جعل نفس العمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ

(٢) أضواء البيان (١/ ٨٥-٨٦).

(١) الجمعة: الآيتان (٢ و ٣).

(٣) أخرجه أحمد (٣٧٢/ ٢) ومسلم (٣/ ١٢٥٥ / ١٦٣١) وأبو داود (٣/ ٣٠٠ / ٢٨٨٠) والترمذي (٣/ ٦٦٠ / ١٣٧٦) والنسائي (٦/ ٥٦١-٥٦٢ / ٣٦٥٣) والبخاري في الأدب المفرد (٣٨).

(٤) المفهم (٤/ ٥٥٤).

عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٌ»^(١) وأما فائدة القيد بالولد يدعو له ، مع أن الغير من المسلمين لو دعا له لنفعه أيضًا فزيادة للبيان ، وتحريض للولد على الدعاء ، وأنه كالواجب عليه^(٢) .

وقال القاضي : «وذلك لأن عمل الميت منقطع بموته ، لكن هذه الأشياء لما كان هو سببها من اكتسابه الولد ، وبثه العلم عند من حمله فيه ، أو إيداعه تأليفًا بقي بعده ، وإيقافه هذه الصدقة - بقيت له أجورها ما بقيت ووجدت»^(٣) .

* * *

(١) هود: الآية (٤٦) .

(٢) شرح المشكاة (٢/٦٦٣-٦٦٤) .

(٣) الإكمال (٥/٣٧٣) .

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَنْبِئْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٢٩﴾

★ غريب الآية:

العزیز: الغالب الممتنع على من يريده بالقهر والغلبة. واللّه تعالى قاهر فوق عباده، ونقيض العزّ: الدّلّ. وعزّ المرء يعزّ عِزًّا وعِزَّةً: إذا صار عزيزًا. وفي المثل: «من عزّ بزّ»؛ أي: من غلب سلّب.

الحكيم: أي ذو الحكمة والحكم الذي أحسن الصنع وأحكم التدبير، أصله المنع. ومنه سميت حكمة اللجام؛ لأنها تمنع الفرس من الجري والذهاب في غير قصد. قال جرير:

أبني حنيفةً أحكمموا سفهاءكم
إني أخاف عليكم أن أغضبا
أي: امنعوه من الفساد. والحكمة من هذا؛ لأنها تمنع صاحبها من الجهل.
وأحكم الشيء: أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى إخبارًا عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم، أن يبعث الله فيهم رسولًا منهم، أي من ذرية إبراهيم، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد -صلوات الله وسلامه عليه- رسولًا في الأميين إليهم إلى سائر الأعجميين من الإنس والجن»^(١).

وقال القاسمي: «هذا إخبار عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولًا منهم، أي من ذرية إبراهيم، وهم العرب من ولد إسماعيل. وقد أجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة، فبعث في ذريته رسولًا منهم، وهو محمد، ﷺ،

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٤).

إلى الناس كافة . وقد أخبر ﷺ عن نفسه أنه دعوة إبراهيم . ومراده هذه الدعوة^(١) .
وقال ابن جرير : «ثم اختلف أهل التأويل في معنى (الحكمة) التي ذكرها الله في هذا الموضع . فقال بعضهم : هي السنة . . . وقال بعضهم : (الحكمة) : هي المعرفة بالدين والفقه فيه . . . والصواب من القول عندنا في (الحكمة) أنها العلم بأحكام الله التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول ﷺ ، والمعرفة بها ، وما دل عليه ذلك من نظائره . وهو عندي مأخوذ من (الحكم) الذي بمعنى الفصل بين الحق والباطل ، بمنزلة (الجلسة والقعدة) من (الجلوس والقعود) ، يقال منه : إن فلاناً لحكيم بين الحكمة ؛ يعني به : إنه لبين الإصابة في القول والفعل .

وإذا كان ذلك كذلك ، فتأويل الآية : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم كتابك الذي تنزله عليهم ، وفصل قضائك وأحكامك التي تعلمه إياها»^(٢) .

وقال السعدي : «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ» أي : في ذريتنا ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ ليكون أرفع لدرجتهم ، ولينقادوا له ، وليعرفوه حقيقة المعرفة . ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ لفظاً ، وحفظاً ، وتحفيظاً . ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ معنى . ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بالتربية على الأعمال الصالحة والتبري من الأعمال الردية ، التي لا تزكى النفس معها . ﴿إِنَّكَ أَنْتَ أَعْلَمُ بِزُرِّي﴾ أي : القاهر لكل شيء ، الذي لا يمتنع على قوته شيء . ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها . فبعزتك وحكمتك ، ابعث فيهم هذا الرسول . فاستجاب الله لهما ، فبعث الله هذا الرسول الكريم ، الذي رحم الله به ذريتهما خاصة ، وسائر الخلق عامة : ولهذا قال - عليه الصلاة والسلام - : «أنا دعوة أبي إبراهيم»^(٣) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في أن النبي ﷺ دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام

* عن أبي أمامة قال : قلت يا رسول الله ! ما كان أول بدء أمرك؟ قال : «دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه

(١) محاسن التأويل (٢/ ٢٥٧) .

(٢) جامع البيان (٣/ ٨٦-٨٨ تحقيق شاكر) .

(٣) تفسير السعدي (١/ ١٤٠) .

قصور الشام»^(١).

★ فوائد الحديث:

قوله: «دعوة أبي إبراهيم»

قال أحمد البنا: «والمعنى أنه أراد بدء أمره بين الناس واشتهار ذكره فذكر دعوة إبراهيم الذي تنسب إليه العرب، وكان يشاركه في هذا الدعاء ابنه إسماعيل، ولم يوجد نبي من العرب بعد إسماعيل سوى نبينا ﷺ، ثم بشرى عيسى الذي هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، ويستفاد من هذا أن من بينهما من الأنبياء بشروا به أيضًا، أما في الملاء الأعلى فقد كان أمره مشهورًا مذكورًا معلومًا من قبل خلق آدم ﷺ»^(٢).

مسألة: ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة العزة لله ﷻ

* عن أبي هريرة قال: (قال أناس: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله! قال: «هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك يجمع الله الناس فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبعه، فليتبعه من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتهم الله في غير الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم فيقولون: نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه ويضرب جسر جهنم، قال رسول الله ﷺ: «أكون أول من يعجز، ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلم سلم، وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم، منهم الموبق

(١) أخرجه أحمد (٢٦٢/٥) والطبراني (١١٤٠) وابن سعد في الطبقات (١٠٢/١) والطبراني في الكبير (٨/١٧٥/٧٧٢٩). وذكره الهيثمي في المجمع (٨/٢٢٢) وقال: «رواه أحمد بإسناد حسن له شواهد تقويه ورواه الطبراني».

(٢) الفتح الرباني (٢٠/١٨١).

بعمله، ومنهم المنخردل ثم ينجو، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله؛ أمر الملائكة أن يخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء يقال له: ماء الحياة، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل، ويبقى رجل منهم مقبل بوجهه على النار: فيقول: يا رب قد قشبنني ريحها وأحرقني ذكاؤها، فاصرف وجهي عن النار، فلا يزال يدعو الله فيقول: لعلك إن أعطيتك أن تسألني غيره فيقول: لا، وعزتك لا أسألك غيره، فيصرف وجهه عن النار، ثم يقول بعد ذلك: يا رب قربني إلى باب الجنة، فيقول: أليس قد زعمت أن لا تسألني غيره، ويلك ابن آدم ما أغدرك! فلا يزال يدعو، فيقول: لعلني إن أعطيتك ذلك تسألني غيره، فيقول: لا، وعزتك لا أسألك غيره، فيعطي الله ما شاء من عهود ومواثيق أن لا يسأله غيره، فيقربه إلى باب الجنة، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: رب أدخلني الجنة، ثم يقول: أو ليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ويلك يا ابن آدم ما أغدرك! فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها، فإذا دخل فيها قيل: تمنَّ من كذا فيتمنى، ثم يقال له تمن من كذا فيتمنى، حتى تنقطع به الأمانى، فيقول له: هذا لك ومثله معه، قال أبو هريرة: وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا^(١).

★ غريب الحديث:

تضارون: بضم أوله وبالضاد المعجمة وتشديد الراء، بصيغة المفاعلة من الضرر، وأصله تضاررون بكسر الراء وبفتحها؛ أي: لا تضرون أحداً ولا يضركم بمنازعة ولا مجادلة ولا مضايقة، وجاء بتخفيف الراء من الضير، وهو لغة في الضر؛ أي: لا يخالف بعضهم بعضاً فيكذبه وينازعه فيضيره بذلك.

الطواغيت: جمع طاغوت وهو الشيطان والصنم، ويكون جمعاً ومفرداً

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٧٥-٢٧٦) والبخاري (١١/٥٤٣-٥٤٤/٦٥٧٣-٦٥٧٤) ومسلم (١/١٦٣-١٦٧/١٨١) وأبو داود (٥/٩٨-٩٩/٤٧٣٠) والنسائي (٢/٥٧٨-٥٧٩/١١٣٩).

ومؤنثاً ، وقال الطبري : الصواب عندي أنه كل طاغ طغى على الله يعبد من دونه ، إما بقهر منه لمن عبد ، وإما بطاعة ممن عبد إنساناً كان أو شيطاناً أو حيواناً أو جماداً .

الكلايب : جمع كلوب : حديدة معوجة الرأس .

شوك السعدان : بالسین والعین المهملتين بلفظ التثنية ، والسعدان جمع سعدانة وهو نبات ذو شوك يضرب به المثل في طيب مرعاه قالوا : مرعى ولا كالسعدان .

المويق : المهلك .

المخردل : معناه أن كلايب النار تقطعه فيهوي في النار .

امتحنوا : امتحش : بفتح المثناة والمهملة وضم المعجمة ؛ أي : احترقوا .
والمحش : احتراق الجلد وظهور العظم .

قشبي ريحها : قشبه الدخان إذا ملأ خياشيمه وأخذ يكظمه ، وأصل القشب خلط السم بالطعام يقال : قشبه إذا سمه ، ثم استعمل فيما إذا بلغ الدخان والرائحة الطيبة منه غايته .

* عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول : «أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون»^(١) .

* عن أنس عن النبي ﷺ قال : «لا يزال يلقي فيها ﴿وَقُولْ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾»^(٢) حتى يضع فيها رب العالمين قدمه فينزوي بعضها إلى بعض ، ثم تقول : قد قد ، بعزتك وكرمك ، ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة»^(٣) .

★ فوائد الأحاديث:

فيها إثبات صفة العزة لله تعالى ، وهي من صفات الذات والعزة والعزهي الرفع والامتناع ، قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾^(٤) أي : الغلبة والعزة ، وقد وصف الله تعالى نفسه بالعزیز في آيات عدة منها قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾^(٥) .

(١) أحمد (٣٠٢/١) والبخاري (٧٣٨٣/٤٥٦/١٣) ومسلم (٢٧١٧/٢٠٨٦/٤) والنسائي في الكبرى (٣٩٩/٤/٧٦٨٤) .
(٢) ق : الآية (٣٠) .

(٣) أحمد (١٤١/٣) والبخاري (٧٣٨٤/٤٥٦/١٣) ومسلم (٢٨٤٨/٢١٨٧/٤) والترمذي (٣٢٧٢/٣٦٤/٥) .

(٤) المنافقون : الآية (٨) .

(٥) آل عمران : الآية (٤) .

قال السعدي: «العزیز الذي له العزة كلها: عزة القوة وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، دانت له الخلیقة، وخضعت لعظمته»^(١).

* * *

(١) في مقدمة تفسيره.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾^(١)

★ غريب الآية:

يرغب: أي: يميل عنها إلى غيرها من الملل والنحل. يقال: رغبت عنه في الكراهة، ورغبت فيه في المحبة والإرادة.

سفه: السفه خفة في البدن، ومنه قيل: زمام سفیه، كثير الاضطراب، وثوب سفیه: رديء النسج، واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل، وفي الأمور الدنيوية والأخروية، فقيل: سفه نفسه، وأصله سفهت نفسه فصرف عنه الفعل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾، وأي الناس يزهد في ملة إبراهيم، ويتركها رغبة عنها إلى غيرها؟ وإنما عنى الله بذلك اليهود والنصارى، لا اختيارهم ما اختاروا من اليهودية والنصرانية على الإسلام؛ لأن (ملة إبراهيم) هي الحنيفية المسلمة، كما قال -تعالى ذكره-: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾^(٢)، فقال -تعالى ذكره- لهم: ومن يزهد عن ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة إلا من سفه نفسه... عن قتادة قوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾، رغب عن ملته اليهود والنصارى، واتخذوا اليهودية والنصرانية، بدعة ليست من الله، وتركوا ملة إبراهيم يعني الإسلام حنيفا؛ كذلك بعث الله نبيه محمدا ﷺ بملة إبراهيم... فمعنى الكلام: وما يرغب عن ملة إبراهيم الحنيفية، إلا سفیه جاهل بموضع حظ نفسه فيما ينفعها، ويضرها في معادها»^(٣).

(١) البقرة: الآية (١٣٠).

(٢) آل عمران: الآية (٦٧).

(٣) جامع البيان (٣/٨٩-٩٠ تحقيق شاكر).

وقال ابن كثير: «يقول -تبارك وتعالى- ردًا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه -تبارك وتعالى- فلم يدع معه غيره ولا أشرك به طرفه عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه، فقال: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّمَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٤) ولهذا وأمثاله قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد من حادثة سنه إلى أن اتخذ الله خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته، واتبع طريق الضلالة والغي، فأى سفه أعظم من هذا؟ أم أي ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٥) قال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود، أحدثوا طريقاً ليست من عند الله، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّكَ أَوَّلُ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦) (٧).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٨) الآية لم يبين هنا ما ملة إبراهيم وبينها بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رِبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا

(١) الأنعام: الآيتان (٧٨ و ٧٩).

(٢) التوبة: الآية (١١٤).

(٣) النحل: الآيات (١٢٠-١٢٢).

(٤) لقمان: الآية (١٣).

(٥) آل عمران: الآيتان (٦٧ و ٦٨).

(٦) تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٥-٣٢٦).

(٧) البقرة: الآية (١٣٠).

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(١) فصرح في هذه الآية بأنها دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمداً ﷺ. وكذا في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٢) الآية^(٣).

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «هي من جوامع الكلم وأظهر البراهين. فنذكر شيئاً منها:

الأولى: أنه بين أن ملة إبراهيم هي الإسلام، ومنه تعظيم البيت وحجه، ومع إقرار علماء أهل الكتاب لذلك يرغبون عنه. وهذه مسألة مهمة: يدل عليه قوله ﷺ: «من رغب عن سنتي فليس مني»^(٤).

الثانية: أن أكثر الناس رغبوا عن اسم الإسلام، وعندهم لا فضيلة فيه، ولا بد عندهم من نسبة دين خاصة.

الثالثة: أعجب من ذلك أنهم لا يعرفون معنى الإسلام، وعندهم لا فضيلة فيه، بل هذا عندهم صورة لا معنى لها.

الرابعة: أعجب من الجميع أنهم إذا بين لهم معناه، اشتد إنكارهم لذلك مع قراءة هذه الآية وأمثالها.

الخامسة: التي سيق الكلام لأجلها أنك إذا عرفت ملته، فالواجب الاتباع، لا مجرد الإقرار مع المرغوب عنها.

السادسة: أن من فعل ذلك لم يضر إلا نفسه.

السابعة: أن ذلك في غاية الجهل والسفه الواضح، مع ادعائهم الكمال في العلم.

الثامنة: كيف يطلب أفضل من طريقه، والله سبحانه هو الذي اصطفاه، ووعدته في الآخرة ما وعده بسبب طريقه^(٥).

قلت: لا شك في أن ملة إبراهيم ﷺ هي التوحيد الخالص، ودعوته - عليه

(١) الأنعام: الآية (١٦١).

(٢) النحل: الآية (١٢٣).

(٣) أضواء البيان (٨٦/١).

(٤) أخرجه: أحمد (٢٤١/٣) والبخاري (١٢٩/٩) ومسلم (٥٠٦٣/٢) والنسائي (٣٦٨/٦).

(٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٤٨-٤٩).

وعلى نبينا الصلاة والسلام- واضحة في موقفه وأقواله التي ذكرها الله في كتابه ،
 فعدول اليهود والنصارى عن دعوته وعقيدته -ومعهم العرب الذين هم على بقايا من
 دينه- سفه وانحراف . فعيسى ﷺ لو بعث فيهم لقاتلهم على الصليب الذي
 اخترعوه وزعموه، وموسى ﷺ لو بعث فيهم لقاتلهم على ادعائهم البنوة لعزير،
 وإبراهيم ﷺ لو بعث في العرب لقاتلهم على عبادة الأصنام؛ فالأنبياء -عليهم
 الصلاة والسلام- يحيي بعضهم دعوة بعض ويعلنها وينشرها، ولا يناقض بعضهم
 دعوة بعض، فدعوة الأنبياء كلها إلى التوحيد، فمن زعم غير ذلك فهو من أسفه
 الخلق، فلا صليب ولا عزير ولا معبود من حجارة أو كواكب أو شجر، أو حي
 أو ميت أو قبر أو ضريح، فكل ذلك من السفه الذي لا معنى له إلا العبث،
 والدخول في الشرك الأكبر الذي قال الله فيه : ﴿إِنَّكُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
 الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾^(١)، فقصة إبراهيم ﷺ هي الالتزام بكتب الله وسنن الأنبياء
 جميعاً -عليهم الصلاة والسلام-، كل أمة حسب دعوة نبيها إليها، فمخالفة الأنبياء
 -عليهم الصلاة والسلام- في الأصول والفروع هو أسفه السفه وأعظم الحمق،
 فضلاً عن أن توضع قوانين وضعية تنسخ بها دعوات الأنبياء وشرائعهم -عليهم
 الصلاة والسلام-، فكل هذا من الحمق والسفه واختيار سبل الضلال على سبيل
 الرشاد، فنرجو الله أن يجعلنا على سبيل الرشاد، وأن يجنبنا سبل الغواية
 والانحراف .

* * *

(١) المائدة : الآية (٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾
 ﴿٢٩٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩٣﴾

★ غريب الآية:

اصطفيناه: اخترناه واجتبيناه: مشتق من الصَّفْو، وهو الخلوص من الشوب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من الله - تعالى ذكره - عن أن من خالف إبراهيم فيما سن لمن بعده، فهو لله مخالف، وإعلام منه خلقه أن من خالف ما جاء به محمد ﷺ، فهو لإبراهيم مخالف. وذلك أن الله - تعالى ذكره - أخبر أنه اصطفاه لخلته، وجعله للناس إماما، وأخبر أن دينه كان الحنيفية المسلمة. ففي ذلك أوضح البيان من الله - تعالى ذكره - عن أن من خالفه فهو لله عدو، لمخالفته الإمام الذي نصبه الله لعباده».

وقال: «فأخبر - تعالى ذكره - عن إبراهيم خليله، أنه في الدنيا صفي، وفي الآخرة ولي، وأنه وارد موارد أوليائه الموفين بعهده»^(١).

قال القاسمي: «وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة، وتكثير الأنبياء من نسله، وإعطاء الخلعة، وإظهار المناسك عليه، وجعل بيته آمنا، ذا آيات بينات إلى يوم القيامة. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم الدرجات العلى، وفي هذا أكبر تفخيم لرتبة الصلاح، حيث جعله من المتصفين بها، فهو حقيق بالإمامة، لعلو رتبته عند الله تعالى في الدارين، ففي ذلك أعظم ترغيب في اتباع دينه، والاهتداء بهديه. وأشد ذم لمن خالفه.

(١) جامع البيان (٣/ ٩١-٩٢ تحقيق شاکر).

قال الراغب: إن قيل: كيف وصفه بالاصطفاء في الدنيا، وبالصلاح في الآخرة، والنظر يقتضي عكس ذلك. فإن الصلاح وصف يرجع إلى الفعل، وذلك يكون في الدنيا، والاصطفاء حال يستحقه العبد بكونه صالحًا، فحقه أن يكون في الآخرة؟ قيل: الاصطفاء ضربان، أحدهما كما قلت، والآخر في الدنيا، وهو اختصاص الله بعض العبيد بولايته ونبوته بخصوصية فيه، وهو المعنى بقوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجْتَبَنَّهُ﴾^(١)، والصلاح، وإن اعتبر بأحوال الدنيا، فمجازي به في الآخرة، فبين تعالى أنه مجتبي في الدنيا لما علم الله من حكمته فيه، ومحكوم له في الآخرة، بصلاحه في الدنيا، تنبيهًا أن الثواب في الآخرة لم يستحقه باصطفائه في الدنيا، وإنما استحقه بصلاحه فيها. ويجوز أن يكون قوله: ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: في أفعال الآخرة لمن الصالحين. ويجوز أنه عنى بقوله: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ حال بقاءه، و﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: حال وفاته، ويكون الإشارة بصلاحه إلى الثناء الحسن عليه، الذي رغب إلى الله تعالى فيه بقوله: ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾^(٢) ويجوز أنه لما كان الناس ثلاثة أضرب: ظالم، ومقتصد، وسابق، عبر عن السابق بالصلاح، فكل سابق إلى طاعة الله ورحمته صالح. انتهى... ﴿إِذْ﴾ أي: اصطفيناه لأنه ﴿قَالَ لَمْ رَبُّهُ أَتَسْلِمُ﴾ أي: لربك، أي: انقذه، وأخلص نفسك له، أو استقم على الإسلام، واثبت على التوحيد. ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّي الْعَلِيِّمِينَ﴾. وظاهر النظم الكريم أن القول حقيقي، وليس في ذلك مانع، ولا ما جاء ما يوجب تأويله. وقول بعضهم: هو تمثيل، والمعنى أخطر بباله دلائل التوحيد المؤدية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام - ليس بشيء. ولا معنى لحمل شيء من الكلام على المجاز، إذا أمكنت فيه الحقيقة بوجه ما^(٣).

* * *

(١) النحل: الآية (١٢١).

(٢) الشعراء: الآية (٨٤).

(٣) محاسن التأويل (٢/ ٢٦١-٢٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾^(١)

★ غريب الآية:

وصى: ويقال أيضًا: أوصى. بمعنى: أمر وعهد. والأولى أبلغ من الثانية؛ لأنها لا تكون إلا مرارًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «وفي هذه الآية انتقال إلى إشراك أهل الكتاب وغيرهم من العالمين مع العرب في التذكير والإرشاد إلى الإسلام ولذلك ذكرت وصية يعقوب، واختلف الأسلوب، فقد كان جاريًا على طريقة الإيجاز، فانتقل إلى طريقة الإطناب والإلحاح، لما تقدم الإلماع إليه من مراعاة (الأولى) في خطاب العرب (والثانية) في خطاب أهل الكتاب، الذين لا يكتفون بالإشارة والعبارة المختصرة لجمود أذهانهم واعتيادهم على التأويل والتحريف. وفصل بين العاطف والمعطوف بالمفعول، ولم يقل: ووصى بها إبراهيم ويعقوب بنيهما، لئلا يتوهم أن الوصية كانت منهما في وقت واحد أو أنها خاصة بأبنائهما معًا وهم أولاد يعقوب على نحو ما تقدم في تفسير ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ﴾^(٢).

ذكر ملة إبراهيم وحكم الراغب عنها ووصيته بنيه بها ووصية حفيده يعقوب بنيه بها أيضًا، وذلك يشعر بأن بني إبراهيم كانوا يوصون بما أوصاهم أبوهم، فإن يعقوب أخذ الوصية عن أبيه إسحاق. وذلك من ضروب الإيجاز الدقيقة»^(٣).

(٢) البقرة: الآية (١٢٨).

(١) البقرة: الآية (١٣٢).

(٣) تفسير المنار (١/٤٧٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ إيجاز بليغ، وذلك أن المقصود منه أمرهم بالإسلام والدوام عليه، فأتى ذلك بلفظ موجز يقتضي المقصود ويتضمن وعظاً وتذكيراً بالموت، وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدري متى؟ فإذا أمر بأمر لا يأتيه الموت إلا وهو عليه، فقد توجه من وقت الأمر دائماً لازماً، وحكى سيبويه فيما يشبه هذا المعنى قولهم: لا أرينك ها هنا، وليس إلى المأمور أن يحجب إدراك الأمر عنه، فإنما المقصود: اذهب وزل عن ها هنا، فجاء بالمقصود بلفظ يزيد معنى الغضب والكراهية، و﴿وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ابتداء وخبر في موضع الحال»^(١).

وقال ابن كثير: «أي: أحسنوا في حال الحياة، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عاداته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه، ومن نوى صالحاً ثبت عليه. وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(٢) لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، ويعمل أهل النار فيما يبدو للناس، وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ ﴿٦﴾

(١) المحرر الوجيز (١/٢١٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/٣٨٢) والبخاري (٦/٣٧٣/٣٢٠٨) ومسلم (٤/٢٠٣٦/٢٦٤٣) وأبو داود (٥/٨٢-٨٣/

٤٧٠٨) والترمذي (٤/٣٨٨-٣٨٩/٢١٣٧) وابن ماجه (١/٢٩/٧٦) وأخرجه النسائي في الكبرى (٦/

٣٦٦/١١٢٤٦) دون ذكر محل الشاهد. كلهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فَسَيُصِيبُكَ لِلْإِسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ وَاسْتَعْفَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ (٩) فَسَيُصِيبُهُ لِلْمُصْرَى (١٠) (١) (٢).

باب: ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن العاقل يسأل حسن الخاتمة، ولا يغتر بظواهر كبر الآمال

* عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم -وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه - فقالوا: ما أجزأنا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه من أهل النار!!» فقال رجل من القوم: أنا صاحبه، قال: فخرج معه كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجرح الرجل جرحاً شديداً، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثديه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: «وما ذاك؟» قال الرجل: الذي ذكرت آنفاً أنه من أهل النار، فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طلبه، ثم جرح جرحاً شديداً، فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين ثديه ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة» (٣).

★ غريب الحديث:

لا يدع لهم شاذة: الشاذ والشاذة: الخارج والخارجة عن الجماعة ومعناه أنه لا يدع أحداً على طريق المبالغة، قال ابن الأعرابي: يقال فلان لا يدع شاذة ولا فاذة إذا كان شجاعاً لا يلقاه أحد إلا قتله.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وقوله: (فأعظم الناس ذلك) أي: عظموه، وكبر عليهم، وإنما

(٢) تفسير ابن كثير (١/٣٢٦-٣٢٧).

(١) الليل: الآيات (٥-١٠).

(٣) أخرجه أحمد (٥/٣٣١-٣٣٢) والبخاري (٦/١١١-١١٢/٢٨٩٨) ومسلم (١/١٠٦/١١٢).

كان ذلك لأنهم نظروا إلى صورة الحال، ولم يعرفوا الباطن ولا المآل، فأعلم العليم الخبير البشير النذير بمغيب الأمر وعاقبته، وكان ذلك من أدلة صدق الرسول ﷺ وصحة رسالته، ففيه التنبيه على ترك الاعتماد على الأعمال، والتعويل على فضل ذي العزة والجلال»^(١).

قال ابن رجب: «وقوله: (فيما يبدو للناس) إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسياسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيئ ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت، وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير، فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره، فتوجب له حسن الخاتمة... وفي الجملة: فالخواتيم ميراث السوابق، وكل ذلك سبق في الكتاب السابق، ومن هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم، ومنهم من كان يقلق من ذكر السوابق»^(٢).

وقال: «ومن هنا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق ويشتد قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة»^(٣).

قال القاضي عياض: «ودل بمجموع هذا أن الأعمال بخواتيمها كما أشار إليه رسول الله آخر الحديث، وهذا يرجح هذا التأويل في قوله: «حتى ما يبقى بينه وبين الجنة إلا ذراع» وذكر في النار مثيله على من تأول أن معناه الحيف في الوصية»^(٤).

* * *

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٢-١٧٣).

(٤) الإكمال (١/ ٣٩٥).

(١) المفهم (١/ ٣١٨).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٢٢٦﴾

★ غريب الآية:

شهداء: جمع شاهد، وهو الحاضر. تقول: حضرت القوم أحضرهم: إذا شهدتهم.
حضر الموت: أتى؛ أي: مقدماته وأسبابه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وتأويل الكلام: أكنتم يا معشر اليهود والنصارى، المكذبين بمحمد ﷺ، الجاحدين نبوته حضور يعقوب وشهوده إذ حضره الموت. أي إنكم لم تحضروا ذلك، فلا تدعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل، وتنحلوهم اليهودية والنصرانية، فإني ابتعثت خليلي إبراهيم وولده إسحاق وإسماعيل وذريتهم بالحنيفية المسلمة، وبذلك وصوا بنيتهم، وبه عهدوا إلى أولادهم من بعدهم. فلو حضرتموهم فسمعتهم منهم، علمتم أنهم على غير ما نحلتموهم من الأديان والملل من بعدهم.

وهذه آيات نزلت، تكذيباً من الله تعالى لليهود والنصارى في دعواهم في إبراهيم وولده يعقوب: أنهم كانوا على ملتهم، فقال لهم في هذه الآية: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾، فتعلموا ما قال لولده وقال له ولده؟ ثم أعلمهم ما قال لهم وما قالوا له»^(١).

قال الشوكاني: «قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أم هذه قيل هي المنقطعة؛ وقيل: هي المتصلة، وفي الهمزة الإنكار المفيد للتقريع والتوبيخ، والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون إلى إبراهيم وإلى بنيهم أنهم على اليهودية والنصرانية. فرد الله ذلك

(١) جامع البيان (٣/ ٩٧-٩٨ تحقيق شاکر).

عليهم وقال لهم: أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى به بنيه فتدعون ذلك عن علم، أم لم تشهدوا بل أنتم مفترون»^(١).

وقال السعدي: «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ» أي: حضورا ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أي: مقدماته وأسبابه.

فقال لبنيه على وجه الاختبار، ولتقر عينه في حياته بامثالهم ما وصاهم به. ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ فأجابوه بما قرت به عينه فقالوا: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾. فلا نشرك به شيئا، ولا نعدل به. ﴿وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ﴾ فجمعوا بين التوحيد والعمل. ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب؛ لأنهم لم يوجدوا بعد. فإذا لم يحضروا، فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنيه بالحنيفية، لا باليهودية»^(٢).

قلت: هذا هو الخبر الصدق من رب العزة والجلال في عناية أنبياء الله تعالى بالتوحيد، وأنه مرتبط بأنفاسهم بداية ونهاية، فهذا نبي الله يعقوب عليه وعلى بقية الأنبياء الصلاة والسلام لم يشغله آلام الموت وحرارته، وآلام المرض وقوة دائه على إخلاص النصيح لأبنائه، فهذا النبي الكريم ابن النبي الكريم، وحفيد النبي الكريم، يلفظ أنفاسه بالتوحيد، ولا يستحضر مالا ولا ضيعة، وإنما يستحضر توحيداً وعقيدة، فأقر الله عينيه بما ذكره ربنا -تبارك وتعالى- عليهم وأنهم على الحنيفية ملة إبراهيم، والتوحيد الخالص والدعوة الخالصة.

فماذا الآن عن الآباء وارتباطهم بأبنائهم، وتوجيهاتهم لهم في كل لحظاتهم، أهي كما كان عليه هذا النبي الكريم؟ أم أنها التوجيه للدنيا والمال والمنصب والجاه فقط؟ فهذا التوجيه ليس عيباً وليس به بأس إن حصل، ولكن لا يكون هو العمدة؛ بل العمدة التوحيد والسنة الذي ينبغي أن يكون الأبناء عليه من بعد وفاة أبيهم وأمهم، وأما الأرزاق فإن الله تعالى رزق البهائم البهائم والطيور البكماء، ورزق الزواحف الضعيفة التي لا أرجل لها وإنما تمشي على بطونها فبسط لها من

(١) فتح القدير (١/٢١٥).

(٢) تفسير السعدي (١/١٤٢-١٤٣).

الأرزاق ما ملأت به بطونها ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ (١) ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْقَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (٢) ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ (٣)، فالعناية بالتوحيد منهاج الأنبياء الصالحين الصادقين الذين يلفظون أنفاسهم الأخيرة بالوصاية به، فوصية الله للأولين والآخرين ووصية العباد الصالحين من العباد والرسل والصديقين هي التوحيد..

فالوصايا للأبناء والأحفاد كلها مما تكفل الله به وليس لأحد فيه دخل، لا أب ولا أم، فكم من الأبناء مات أبائهم وهم في بطون أمهاتهم، وأعطاهم الله من الأرزاق ما لا يعلمه أبائهم ولا أمهاتهم، وهذا رسول الله ﷺ نموذج لكل أب وأم: مات أبوه وهو جنين في بطن أمه، وماتت أمه وهو صبي، وأشرق شمس على أهل الأرض كلهم منذ بعثته وإلى أن تقوم الساعة، فاللهم صل عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والرسل الذين اهتموا بعقيدة التوحيد الخالصة.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان وحدة العقيدة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «أكرمهم اتقاهم»، قالوا: يا نبي الله! ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «أفمن معادن العرب تسألونني؟» قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا» (٤).

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «ومناسبت هذه الترجمة (وهي آية الباب) من جهة موافقة الحديث الآية في سياق نسب يوسف عليه السلام، فإن الآية تضمنت أن يعقوب خاطب أولاده عند موته محرضاً لهم على الثبات على الإسلام، وقال له أولاده: إنهم يعبدون إلهه وإله آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ومن جملة أولاد يعقوب يوسف عليه السلام، فنص

(١) سبأ: الآية (٢٤).

(٢) النحل: الآية (٩٦).

(٣) هود: الآية (٦).

(٤) أخرجه أحمد (٤٣١/٢) والبخاري (٣٣٧٤/٥١١/٦) ومسلم (٢٣٧٨/١٨٤٦/٤) والنسائي في الكبرى (٦/

١١٢٤٩/٣٦٧).

الحديث على نسب يوسف ، وأنه ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وزاد أن الأربعة أنبياء في نسق»^(١) .

* عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعلات ؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد»^(٢) .

★ غريب الحديث :

العلة : الضرة ، وبنو العلات أولاد الرجل من نسوة شتى .

★ فوائد الحديث :

قال الحافظ : «ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع ، وقيل المراد أن أزمتهم مختلفة»^(٣) .

قال القاضي عياض : «والظاهر في معناه : أن الأنبياء يختلفون في أزمانهم ، وبعضهم بعيد الوقت من بعض ، وبين بعضهم وبعض أنبياء آخر ، وإن شملتهم النبوة وكأنهم أولاد علات ، إذ لم يجمعهم زمن واحد كما لم يجمع أولاد العلات بطن واحد . وعيسى لما كان قريب الزمن منه ولم يكن بينهما نبي ، فكأنهما في زمن واحد وابني أم واحدة فكان بخلاف غيرهما»^(٤) .

وقال القرطبي : «وقوله : (دينهم واحد) أي : في توحيدهم ، وأصول أديانهم ، وطاعتهم لله تعالى ، واتباعهم لشرائعه ، والقيام بالحق ، كما قال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾^(٥) ، ولم يرد فروع الشرائع ؛ فإنهم مختلفون فيها كما قال تعالى : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾^(٦)»^(٧) .

(١) الفتح (٥١١/٦) .

(٢) أخرجه أحمد (٣١٩/٢) والبخاري (٥٩٠-٥٩١/٦) ومسلم (١٨٣٧/٤) (٢٣٦٥) .

(٣) الفتح (٦٠٥/٦) .

(٤) الإكمال (٣٣٧/٧) .

(٥) الشورى : الآية (١٣) .

(٦) المائدة : الآية (٤٨) .

(٧) المفهم (١٧٦-١٧٧) .

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشَئُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٨﴾

★ غريب الآية:

أمة: الأمة: الجماعة من الناس يجمعهم جامع واحد إما دين أو زمان أو مكان، جمعها أمم.

خلت: أي مضت وطوي زمانها، وأصل الخلو: الانفراد.

كسبت: اقترفت، والكسب: كل ما يتحراه المرء مما فيه جلب نفع أو دفع ضرر، قال الشاعر:

فَأَوْسَعْتُهُ مَدْحًا وَأَوْسَعَنِي قِرَى وَأَكْسَبَنِي مَالًا وَأَكْسَبْتُهُ حَمْدًا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني - تعالى ذكره - بقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ولدهم.

يقول لليهود والنصارى: يا معشر اليهود والنصارى، دعوا ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والمسلمين من أولادهم بغير ما هم أهلهم، ولا تنحلوهم كفر اليهودية والنصرانية، فتضيفونها إليهم، فإنهم أمة ويعني: بـ (الأمة) في هذا الموضع: الجماعة والقرن من الناس قد خلت: مضت لسبيلها... ويعني بقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾؛ أي: ما عملت من خير، ولكم يا معشر اليهود والنصارى مثل ذلك ما عملتم، ولا تؤاخذون أنتم أيها الناحلوهم ما نحلتموهم من الملل فتسألوا عما كان إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ولدهم يعملون. فيكسبون من خير وشر؛ لأن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت. فدعوا انتحالهم وانتحال مللهم، فإن الدعاوى غير مغنيتكم عند الله، وإنما يغني عنكم

عنده ما سلف لكم من صالح أعمالكم، إن كنتم عملتموها وقدمتموها»^(١).

وقال القرطبي: «وفي هذا دليل على أن العبد يضاف إليه أعمال وأكساب؛ وإن كان الله تعالى أقدره على ذلك، إن كان خيرًا فبفضله وإن كان شرًا فبعده؛ وهذا مذهب أهل السنة؛ والآي في القرآن بهذا المعنى كثيرة. فالعبد مكتسب لأفعاله، على معنى أنه خلقت له قدرة مقارنة للفعل، يدرك بها الفرق بين حركة الاختيار وحركة الرعشة مثلًا؛ وذلك التمكن هو مناط التكليف. وقالت الجبرية بنفي اكتساب العبد، وإنه كالنبات الذي تصرفه الرياح. وقالت القدرية والمعتزلة خلاف هذين القولين، وإن العبد يخلق أفعاله»^(٢).

وقال محمد رشيد رضا: «قال الأستاذ الإمام: جاءت هذه الآية الكريمة بعد الكلام عن وصية إبراهيم لبنيه وإسماعيل وإسحاق ويعقوب لبنهم؛ استدراكًا على ما عساه يقع في أذهان ذراري هؤلاء الأنبياء الكرام -عليهم الصلاة والسلام-، من أن هذا السلف الذي له عند الله هذه المكانة يشفع لهم فينجون ويسعدون يوم القيامة بمجرد الانتساب إليهم. فبين الله في هذه الآية أن سنته في عباده أن لا يجزى أحد إلا بكسبه وعمله، ولا يستل إلا عن كسبه وعمله. وقد بين في سورة النجم أن هذه القضية من أصول الدين العامة، التي جاء بها الأنبياء من قبل: ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بَآءُ فِي صُحُفٍ مُّوسَىٰ ۖ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۖ أَلَا زُرُّ وَزَرَةً ۖ وَزَرٌ أُخْرَىٰ ۖ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾^(٣) إلخ، وبين في آيات متعددة، في سور متفرقة، أن المرسلين لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين، فمن آمن بهم وعمل بما يرشدون إليه كان ناجيًا، وإن بعد عنهم في النسب، ومن أعرض عن هديهم كان هالكًا وإن أدلى إليهم بأقرب سبب، ﴿قَالَ يَنْفُخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾^(٤)، وإذا لم تنتفع بهم ذرياتهم الذين لم يقتدوا بهم، فكيف ينتفع بهم أولئك البعداء الذين ليس بينهم وبينهم صلة؟ إلا الأقوال الكاذبة التي يعبر عنها أهل هذا العصر (بالمحسوبية) ويقولون في مخاطبة أصحاب القبور عند الاستغاثة بهم (المحسوب كالمنسوب) وما أحسن قول الإمام الغزالي: إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والده دونه، والظمان يروى بشرب

(١) جامع البيان (٣/ ١٠٠-١٠١ تحقيق شاكرو).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٩٤).

(٣) النجم: الآيات (٣٦-٣٩).

(٤) هود: الآية (٤٦).

والده وإن لم يشرب، فالعاصي ينجو بصلاح والده. والآيات التي تؤيد هذه الآية كثيرة جداً، فهي أصل من أصول الدين الإلهي، لا يفيد معها تأويل المغرورين، ولا غرور الجاهلين^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «معناه من كان عمله ناقصاً لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال، فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب وفضيلة الآباء، ويقصر في العمل»^(٣).
وقال في عون المعبود: «أي: من أخره عمله السيئ وتفريطه في العمل الصالح؛ لم ينفعه في الآخرة شرف النسب»^(٤).

* * *

(١) تفسير المنار (١/٤٧٨-٤٧٩).

(٢) طرف من حديث أخرجه أحمد (٢/٢٥٢-٤٠٧) ومسلم (٤/٢٠٧٤/٢٦٩٩) وأبو داود (٤/٥٩/٣٦٤٣) والترمذي (٥/١٧٩/٢٩٤٥) وابن ماجه (١/٨٢/٢٢٥).

(٣) شرح النووي (١٧/١٨).

(٤) العون (١٠/٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٣٥﴾

★ غريب الآية:

حنيفًا: الحنف: الميل، ومنه قيل: رجل أحنف لمتمايل القدمين. قالت أم الأحنف:

واللَّه لولا حَنْفٌ بِرِجْلِهِ ما كانَ في فِئائِكُمْ مِنْ مثْلِهِ
وعلى هذا فالحنيف من مال عن الباطل إلى الحق.

وقيل: الحنف الاستقامة. وسُمِّي معوج القدمين أَحْنَفَ تَفَاؤُلًا له بالاستقامة، كما قيل للديغ: سليم. وعلى هذا فالحنيف من استقام على الحق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «احتج الله لنبيه محمد ﷺ بأبلغ حجة وأجزها وأكملها، وعلمها محمدًا نبيه ﷺ فقال: يا محمد، قل للقائلين لك من اليهود والنصارى ولأصحابك: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾: بل تعالوا نتبع ملة إبراهيم التي يجمع جميعنا على الشهادة لها بأنها دين الله الذي ارتضاه واجتبه وأمر به فإن دينه كان الحنيفة المسلمة وندع سائر الملل التي نختلف فيها، فينكرها بعضنا، ويقر بها بعضنا. فإن ذلك على اختلافه لا سبيل لنا على الاجتماع عليه، كما لنا السبيل إلى الاجتماع على ملة إبراهيم»^(١).

وقال القاسمي: «ولما أثبت إسلامه بالحنيفية نفى عنه غيره بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وفيه تعريض بأهل الكتاب، وإيدان ببطلان دعواهم اتباعه ﷺ، مع إشراكهم بقولهم: عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله. وقد أفادت هذه الآية الكريمة أن ما عليه الفريقان محض ضلال وارتكاب بطلان، وأن الدين المرضي عند الله

(١) جامع البيان (٣/ ١٠٢ تحقيق شاکر).

الإسلام، وهو دعوة الخلق إلى توحيده تعالى، وعبادته وحده، لا شريك له. ولما خالف المشركون هذا الأصل العظيم بعث الله نبيه محمداً خاتم النبيين لدعوة الناس جميعاً إلى هذا الأصل^(١).

قال ابن القيم: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ فأجيبوا عن هذه الدعوى بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا الجواب مع اختصاره قد تضمن المنع والمعارضة، أما المنع فما تضمنه حرف بل من الإضراب؛ أي: ليس الأمر كما قالوا، وأما المعارضة ففي قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: أتتبع أو يتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، وفي ضمن هذه المعارضة إقامة الحجة على أنها أولى بالصواب مما دعوتهم إليه من اليهودية والنصرانية؛ لأنه وصف صاحب الملة بأنه حنيف غير مشرك، ومن كانت ملته الحنيفة والتوحيد فهو أولى بأن يتبع ممن ملته اليهودية والنصرانية، فإن الحنيفة والتوحيد هي دين جميع الأنبياء الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، وهو الفطرة التي فطر الله عليها عباده، فمن كان عليها فهو المهتدي؛ لأن من كان يهودياً أو نصرانياً فإن الحنيفة تتضمن الإقبال على الله بالعبادة والإجلال والتعظيم والمحبة والذل. والتوحيد يتضمن إفراده بهذا الإقبال دون غيره، فيعبد وحده، ويحب وحده، ويطاع وحده، ولا يجعل معه إلهاً آخر فمن أولى بالهداية صاحب هذه الملة، أو ملة اليهودية والنصرانية، ولا يبقى بعد هذا للخصوم إلا سؤال واحد. وهو أن يقولوا: فنحن على ملته أيضاً لم نخرج عنها وإبراهيم وبنوه كانوا هوداً أو نصارى، فأجيبوا عن هذا السؤال بأنهم كاذبون فيه، وأن الله تعالى قد علم أنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً فقال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾^(٢) الآية، وقرر تعالى هذا الجواب في سورة آل عمران بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾^(٣) إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (فإن قالوا) فهب أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، فنحن على ملته وإن انتحلنا هذا الاسم، (فأجيبوا) عن هذا بقوله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَمْ مُسْلِمُونَ﴾ فهذه للمؤمنين^(٤).

(١) محاسن التأويل (٢/ ٢٧٠).

(٢) البقرة: الآية (١٤٠).

(٣) آل عمران: الآية (٦٧).

(٤) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٥-١٥٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في بيان أن الحنيفية دين الأنبياء كلهم

* عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «الحنيفية السمحة»^(١).

★ غريب الحديث:

السمحة: بفتح السين وسكون الميم: أي التي تسهل على النفوس، لا كالرهبانية الشاقة عليها.

★ فوائد الحديث:

قال السندي: «أي الملة المنسوبة إلى إبراهيم يريد دين الإسلام الذي بعث به نبينا -عليه الصلاة والسلام-، فإنه يشارك دين إبراهيم في كثير من الفروع مع الاتحاد في الأصول، فلذلك ينسب إلى إبراهيم، والحنيف عند العرب: من كان على دين إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام»^(٢).

وقال ابن حجر: «قوله: (أحب الدين) أي: خصال الدين؛ لأن خصال الدين كلها محبوبة، لكن ما كان منها سمحاً أي سهلاً فهو أحب إلى الله. ويدل عليه ما أخرجه أحمد بسند صحيح من حديث أعرابي لم يسمه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «خير دينكم أيسره»^(٣). أو الدين جنس، أي أحب الأديان إلى الله الحنيفية. والمراد بالأديان الشرائع الماضية قبل أن تبدل وتنسخ. والحنيفية ملة إبراهيم، والحنيف في اللغة من كان على ملة إبراهيم، وسمي إبراهيم حنيفاً لميله عن الباطل إلى الحق لأن أصل الحنف الميل، والسمحة السهلة؛ أي: أنها مبنية على السهولة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٤)»^(٥).

(١) علقه البخاري في صحيحه (١/١٢٦) بصيغة الجزم، ووصله أحمد (١/٢٣٦) والبخاري في الأدب المفرد

(رقم ٢٨٧) وله شواهد يتقوى بها من حديث عائشة وأبي أمامة وجابر رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/٤٧٩).

(٣) حاشية المسند (٤/١٧).

(٤) فتح الباري (١/١٢٦).

(٥) الحج: الآية (٧٨).

قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ
وَلَا نَسْتَعِيلَ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ
النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٢٢٨﴾

★ غريب الآية:

الأسباط: أولاد يعقوب بن إسحاق عليه السلام، وهم اثنا عشر سبطاً. والسبط: الجماعة يرجعون إلى أب واحد. وأصل المادة الامتداد والتفرع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني - تعالى ذكره - بذلك: ﴿قُولُوا﴾ أيها المؤمنون، لهؤلاء اليهود والنصارى، الذين قالوا لكم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: صدقنا بالله... ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ يقول أيضاً: صدقنا بالكتاب الذي أنزل الله إلى نبينا محمد ﷺ. فأضاف الخطاب بالتنزيل إليهم، إذ كانوا متبعيه، ومأمورين منهيين به. فكان وإن كان تنزيلاً إلى رسول الله ﷺ بمعنى التنزيل إليهم، للذي لهم فيه من المعاني التي وصفت.

ويعني بقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ﴾، صدقنا أيضاً وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وهم الأنبياء من ولد يعقوب.

وقوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾؛ يعني: وآمنا أيضاً بالتوراة التي آتاه الله موسى، وبالإنجيل الذي آتاه الله عيسى، والكتب التي آتى النبيين كلهم، وأقرنا وصدقنا أن ذلك كله حق وهدى ونور من عند الله، وأن جميع من ذكر الله من أنبيائه كانوا على حق وهدى، يصدق بعضهم بعضاً، على منهاج واحد في الدعاء إلى توحيد الله، والعمل بطاعته، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يقول: لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض، ونتبرأ من بعض ونتولى بعضاً، كما تبرأت اليهود من عيسى ومحمد ﷺ وأقرت بغيرهما من الأنبياء، وكما تبرأت النصارى من محمد ﷺ

وأقرت بغيره من الأنبياء، بل نشهد لجميعهم أنهم كانوا رسل الله وأنبياءه، بعثوا بالحق والهدى.

وأما قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، فإنه يعني - تعالى ذكره - : ونحن له خاضعون بالطاعة، مذعنون له بالعبودية^(١).

وقال ابن كثير: «أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (٥٥) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا (٢) الآية»^(٣).

وقال السعدي: «وفي قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ فقد اشتملت هذه الآية الكريمة - على إيجازها واختصارها - على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

واشتملت على الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب. وعلى التخصيص الدال على الفضل، بعد التعميم.

وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك.

وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعى النبوة من الكاذبين.

وعلى تعليم الباري عباده، كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة.

فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون^(٤).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا بِرُوحٍ﴾ لم يبين هنا هذا الذي أنزل إلى إبراهيم، ولكنه بين في سورة الأعلى أنه صحف وأن من جملة ما في تلك

(٢) النساء: الآيتان (١٥٠ و ١٥١).

(١) جامع البيان (٣/ ١٠٩-١١٠ تحقيق شاكر).

(٤) تفسير السعدي (١/ ١٤٥-١٤٨).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٩).

الصحف: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(١) وذلك في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۖ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾^(٢) قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾^(٣)، لم يبين هنا ما أوتي موسى وعيسى، ولكنه بينه في مواضع أخر. فذكر أن ما أوتي موسى هو التوراة المعبر عنها بالصحف في قوله: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾^(٤) وذلك كقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾^(٥) وهو التوراة بالإجماع. وذكر أن ما أوتي عيسى هو الإنجيل كما في قوله: ﴿وَفَقَيْنَا يَحْيَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾^(٦) قوله تعالى: ﴿وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾^(٧) أمر الله النبي ﷺ والمسلمين في هذه الآية أن يؤمنوا بما أوتيهم جميع النبيين وأن لا يفرقوا بين أحد منهم حيث قال: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾^(٨) ولم يذكر هنا هل فعلوا ذلك أو لا؟ ولم يذكر جزاءهم إذا فعلوه ولكنه بين كل ذلك في غير هذا الموضع. فصرح بأنهم امتثلوا الأمر بقوله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾^(٩) وذكر جزاءهم على ذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ۖ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^{(١٠) (١١)}.

قلت: هكذا آيات القرآن تعرض لنا الوحدة الكاملة في الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وأن ما جاءوا به جميعهم هدى ورحمة، وأن الإيمان بواحد منهم إيمان بهم كلهم، والكفر بواحد منهم كفر بهم جميعا، فلا يجوز التفرقة بين نبي ونبي، ولا بين رسول ورسول، فهم كلهم حملوا لأمرهم كتب الله ورسالته، وكذلك لا يجوز التفرقة بين حواربيهم وصحابتهم، وبالنسبة لأهل الإسلام يجب عليهم الإيمان بالصحابة كلهم، فكل من ثبتت صحبته وجبت محبته، ولا يجوز أن يفرق

(١) الأعلى: الآيتان (١٦ و ١٧).

(٢) البقرة: الآية (١٣٦) وآل عمران: الآية (٨٤).

(٣) الأعلى: الآية (١٩).

(٤) الحديد: الآية (٢٧).

(٥) الأنعام: الآية (١٥٤).

(٦) البقرة: الآية (١٣٦).

(٧) آل عمران: الآية (٨٤).

(٨) البقرة: الآية (٢٨٥).

(٩) النساء: الآية (١٥٢).

(١٠) أضواء البيان (١/ ٨٦-٨٧).

بين صحابي وصحابي، فكلهم أصحاب رسول الله ﷺ، فمن ثبتت سابقته أثبتناها، ومن ثبتت أفضليته أثبتناها، فلا نفرق بين واحد منهم فنحب بعضاً ونبغض بعضاً، فلا شك أن في هذا المنهاج الفاسد أهواء وأغراض، إما عرفية أو ملية، فمن لم يكونوا على موافقة أهوائهم طعنوا فيهم ووصفوه بما لا يليق بهم، كما هو واقع الرافضة والخوارج والمعتزلة، فقد فرقت هذه الفرق الضالة بين الصحابة، فأمنت ببعض وكفرت ببعض، وأهل السنة يحبون الجميع ويترضون عن الجميع، ويرون أن أسعد الناس من كان على وصفهم ومنهاجهم.

وهكذا التابعون لهم بإحسان وبقية علماء الإسلام، فلا يميلون إلى أحد ويذمون غيره، فكل ما عند الجميع من الحق يأخذون به، فلا يرجحون أحمد على مالك، ولا مالكا على الشافعي، ولا البخاري على أشهب بن عبد العزيز... فالعلماء كلهم أئمة أهل السنة وقدوتهم فيما وافقوا فيه الحق، وقد ظهرت نابتة من أدعياء محبي العلماء والأئمة، فنسبوا إليهم كل ما لا يليق بهم من بدع وخرافات، بل وزندقة وشركيات وكفريات، والأئمة رحمة الله عليهم براء مما نسبوا إليهم، وتراهم في باب الأسماء والصفات يختارون مذاهب عقدية لم يعرف أصحابها بحديث ولا رواية، فانتسبوا إلى الأشعري البصري وتركوا مالكا الإمام والشافعي الإمام وأحمد الإمام، وانتسبوا إلى الماتوريدي وتركوا أبا حنيفة الإمام وأئمة الحنفية كأبي يوسف ومحمد بن الحسن، وهكذا تجد هذه الشرذمة في كثير من الأمم، يتركون العلماء الفحول والأئمة المهديين المرضيين الذين كانوا على السنة، وينتسبون إلى جهال - لا علاقة لهم بالعلم - في التصوف وغيره، فالمسلم الصادق السني حقاً هو الذي يستفيد من جميع أئمة الإسلام الصادقين، ويجعل نصب عينيه الأئمة الفحول الذين كان لهم القدم الراسخ، ويحرم عليه أن ينسب إلى الأئمة الكبار ما لم يوجد في كتبهم ولا فتاواهم ولا في مصنفاتهم، كما فعله جهال المنتسبين إليهم - بزعمهم - حيث نسبوا إليهم كل ما لا يليق بهم من بدع وضلالات، وأعمال لا صلة لها بالكتاب والسنة، وإنما هي بدع وأهواء انتحلها المرتزقة، ولكي يرفعوا لواءها نسبوها إلى الأئمة وهم منها براء براءة الذئب من دم ابن يعقوب، وهكذا تجد الأمم الهالكة بالجهل والابتعاد عن الصراط المستقيم تتخط في البدع والرزائل الحقيرة، وتنسبها إلى الأئمة والعلماء، فاللهم عليك بهم؛ فإنهم ينسبون إلى أوليائك ما ليس من قولهم ولا فعلهم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عناية النبي ﷺ بالآية وعدم تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم

* عن ابن عباس : (أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية التي في البقرة وفي الآخرة منهما : ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١)).

★ فوائد الحديث:

يستفاد من الحديث عناية الرسول ﷺ بالتوحيد وأنه ﷺ كان ينوع بين هاتين الآيتين وبين سورتي الإخلاص في راتبة الفجر، فينبغي للمسلم أن يقتدي به ﷺ في هذه السنة الطيبة التي نذكرها دائماً في افتتاح نهارنا بالتوحيد، وأنه لا معبود بحق إلا هو، وأنه لا هداية إلا فيما أنزله، وأن الإيمان بذلك هو الإيمان والتعلق بذلك في لحظات الحياة هو تمام السعادة والانفصال عن توحيد الله والاهتداء بهديه هو الشقاوة الكبرى التي نهايتها شقاوة الدارين.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا : ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية»^(٢)).

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ : «قوله «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» أي : إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً لثلاث يكون في نفس الأمر صدقاً فتكذبوه، أو كذباً فتصدقوه فتقعوا في الحرج. ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه، نبه على ذلك الشافعي رحمه الله، ويؤخذ من هذا الحديث التوقف عن الخوض في المشكلات والعزم فيها بما يقع في الظن، وعلى

(١) آل عمران : الآية (٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (١/٢٣٠، ٢٣١) ومسلم (١/٥٠٢، ٧٢٧) وأبو داود (٢/٤٦، ١٢٥٩) والنسائي (٢/٤٩٣/٩٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (٨/٢١٥-٢١٦/٤٤٨٥) والنسائي في الكبرى (٦/٤٢٦/١١٣٨٧).

هذا يحتمل ما جاء عن السلف من ذلك»^(١).

قال شيخ الإسلام: «فإن قيل: ما ذكرتموه من الأدلة معارض بما يدل على خلافه، وذلك أن شرع من قبلنا شرع لنا، ما لم يرد شرعنا بخلافه، وقوله تعالى: ﴿فِيهِدْهُمْ أَقْدَةً﴾^(٢)، وقوله: ﴿أَتَبِعَ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^(٣) وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾^(٤). وغير ذلك من الدلائل المذكورة في غير هذا الموضع، مع أنكم مسلمون لهذه القاعدة، وهي قول عامة السلف وجمهور الفقهاء.

ومعارض بما رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ قدم المدينة. فوجد اليهود صيامًا، يوم عاشوراء، فقال لهم ﷺ: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» قالوا: هذا يوم عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فيه فرعون وقومه، فصامه موسى شكرًا لله، فنحن نصومه تعظيمًا له، فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم»، فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه)^(٥) متفق عليه.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: (كان يوم عاشوراء تعده اليهود عيدًا، قال النبي ﷺ: «فصوموه أنتم» متفق عليه، وهذا اللفظ للبخاري ولفظ مسلم: (تعظمه اليهود وتتخذونه عيدًا) وفي لفظ له: (كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء ويتخذونه عيدًا، ويلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم)^(٦).

عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (كان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان رسول الله ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، فسدل رسول الله ﷺ ناصيته، ثم فرق بعد)^(٧) متفق عليه.

قيل: أما المعارضة بكون شرع من قبلنا شرعًا لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه؛ فذاك

(١) الفتح (٢١٦/٨).

(٢) النحل: الآية (١٢٣).

(٣) المائدة: الآية (٤٤).

(٤) سبأ: الآية (١٨٣).

(٥) البخاري (٢٠٥٠/٣٠٧/٤)، ومسلم (١١٣١/٧٩٦/٢).

(٦) أخرجه أحمد (٢٤٦/١) والبخاري (٣٥٥٨/٧٠١/٦) ومسلم (١٨١٧-١٨١٨/٢٣٣٦) وأبو داود (٤/٤).

(٧) ٤٠٧-٤١٨٨/٤٠٨ والنسائي (٥٦٧-٥٦٨/٥٢٤٣) وابن ماجه (١١٩٩/٢/٣٦٣٢).

مبني على مقدمتين، كلاهما منتفية في مسألة التشبه بهم.

إحداهما: أن يثبت أن ذلك شرع لهم، بنقل موثوق به، مثل أن يخبرنا الله في كتابه، أو على لسان رسوله، أو ينقل بالتواتر، ونحو ذلك، فأما مجرد الرجوع إلى قولهم، أو إلى ما في كتبهم، فلا يجوز بالاتفاق، والنبي ﷺ وإن كان قد استخبرهم فأخبروه، ووقف على ما في التوراة، فإنما ذلك لأنه لا يروج عليه باطلهم، بل الله سبحانه يعرفه ما يكذبون مما يصدقون، كما قد أخبره بكذبهم غير مرة، وأما نحن فلا نأمن أن يحدثونا بالكذب، فيكون فاسق، بل كافر، قد جاءنا نبأ فاتبعناه. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم».

المقدمة الثانية: أن لا يكون في شرعنا بيان خاص لذلك، فأما إذا كان فيه بيان خاص إما بالموافقة، أو بالمخالفة، استغني عن ذلك فيما ينهى عنه من موافقته، ولم يثبت أنه شرع لمن كان قبلنا، وإن ثبت فقد كان هدي نبينا ﷺ وأصحابه بخلافه، وبهم أمرنا نحن أن نتبع ونقتدي. وقد أمرنا نبينا ﷺ: أن يكون هدينا مخالفاً لهدي اليهود والنصارى. وإنما تجيء الموافقة في بعض الأحكام العارضة، لا في الهدي الراتب، والشعار الدائم.

ثم ذلك بشرط: أن لا يكون قد جاء عن نبينا وأصحابه خلافه، أو ثبت أصل شرعه في ديننا، وقد ثبت عن نبي من الأنبياء أصله أو وصفه. مثل: فداء من نذر أن يذبح ولده بشاء. ومثل: الختان المأمور به في ملة إبراهيم عليه السلام، ونحو ذلك، وليس الكلام فيه^(١).

* * *

(١) الاقتضاء (١/ ٤١٠-٤١٢).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ نَسِيَ كَيْفَ كُفَّهِمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٣٧﴾

★ غريب الآية:

شقاق: الشقاق: المنازعة والمخاصمة. أصله من الشَّقَّ وهو الجانِب. والمعنى: في خلاف؛ أي: صاروا في شِقٍّ غير شِقٍّ ما أمروا به. قال الشاعر:
وإِلَّا فاعلموا أَنَّا وأنثُمْ بُغَاةٌ ما بَقِينَا في شِقَاقٍ
فسيكفيكهم: أي: كافيك مكرهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ﴾، فإن صدق اليهود والنصارى بالله، وما أنزل إليكم، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، وأقروا بذلك، مثل ما صدقتم أنتم به أيها المؤمنون وأقررتم، فقد وفقوا ورشدوا، ولزموا طريق الحق، واهتدوا، وهم حينئذ منكم وأنتم منهم، بدخولهم في ملتكم بإقرارهم بذلك.

فدل -تعالى ذكره- بهذه الآية، على أنه لم يقبل من أحد عملاً إلا بالإيمان بهذه المعاني التي عدها قبلها»^(١).

وقال: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، وإن تولى هؤلاء الذين قالوا للمحمد ﷺ وأصحابه: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ فأعرضوا، فلم يؤمنوا بمثل إيمانكم أيها المؤمنون بالله، وبما جاءت به الأنبياء وابتعثت به الرسل، وفرقوا بين رسل الله وبين الله ورسله، فصدقوا ببعض وكفروا ببعض، فاعلموا أيها المؤمنون، أنهم إنما هم في عصيان وفراق وحرب لله ولرسوله ولكم»^(٢).

(١) جامع البيان (٣/ ١١٣) تحقيق شاكراً.

(٢) جامع البيان (٣/ ١١٥) تحقيق شاكراً.

وقال: ﴿تَسْبِكُمْ اللَّهُ﴾، فسبكفك الله يا محمد، هؤلاء الذين قالوا لك ولأصحابك: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، من اليهود والنصارى، إن هم تولوا عن أن يؤمنوا بمثل إيمان أصحابك بالله، وبما أنزل إليك، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وسائر الأنبياء غيرهم، وفرقوا بين الله ورسله إما بقتل السيف، وإما بجلاء عن جوارك، وغير ذلك من العقوبات، فإن الله هو ﴿السَّمِيعُ﴾ لما يقولون لك بالسنتهم، ويبدون لك بأفواههم، من الجهل والدعاء إلى الكفر والملل الضالة، ﴿أَلَعَلِمْ﴾ بما يبتنون لك ولأصحابك المؤمنين في أنفسهم من الحسد والبغضاء. ففعل الله بهم ذلك عاجلاً، وأنجز وعده، فكفى نبيه ﷺ بتسليطه إياه عليهم، حتى قتل بعضهم، وأجلى بعضاً، وأذل بعضاً وأخزاه بالجزية والصغار^(١).

وقال القاضي: «قال القاضي: ولا يكاد يقال في المعادة على وجه الحق أو المخالفة التي لا تكون معصية إنه شقاق. وإنما يقال ذلك في مخالفة عزيمة توقع صاحبها في عداوة الله وغضبه ولعنه، وفي استحقاق النار، فصار هذا القول وعيداً منه تعالى لهم، وصار وصفهم بذلك دليلاً على أن القوم معادون للرسول، مضمرون له السوء، مترصدون لإيقاعه في المحن، فعند هذا أمنه الله تعالى من كيدهم وأمن المؤمنين من شرهم ومكرهم فقال: ﴿تَسْبِكُمْ اللَّهُ﴾ تقوية لقلبه وقلب المؤمنين لأنه تعالى إذا تكفل بالكفاية في أمر حصلت الثقة به. وقد أنجز وعده بقتل قريظة وسبيهم وإجلاء بني النضير ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أتبع وعده بالنصر والكفاية، بما يدل على أن ما يسرون وما يعلنون من أمرهم لا يخفى عليه تعالى. فهو يسبب لكل قول وضمير منهم ما يرد ضرره عليهم. فهو وعيد لهم، أو وعد لرسول الله ﷺ. أي يسمع ما تدعو به، ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق. وهو مستجيب لك وموصلك إلى مرادك^(٢).

وقال السعدي: «أي: فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به يا معشر المؤمنين من جميع الرسل، وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا لله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من الرسل ﴿فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ للصراط المستقيم، الموصل لجنت النعيم.

(١) جامع البيان (٣/١١٦ تحقيق شاكِر).

(٢) محاسن التأويل (٢/٢٧٢-٢٧٣).

أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية، إلا بهذا الإيمان.
ولا كما زعموا بقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾. فزعموا أن الهداية، خاصة بما كانوا عليه. و (الهدى) هو العلم بالحق، والعمل به، وضده الضلال عن العلم، والضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه، لما تولوا وأعرضوا.

فالمشاق، هو الذي يكون في شق واللّه ورسوله في شق. ويلزم من المشاقة، المحادة، والعداوة البليغة، التي من لوازمها، بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول. فلهذا وعد الله رسوله، أن يكفيه إياهم؛ لأنه السميع لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن. فإذا كان كذلك، كفاك الله شرهم. وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم، حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشردهم كل مشرد.

ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر^(١).

قلت: هذا هو منهاج القرآن وكلام رب العالمين الواضح في الفصل بين الحق والباطل، فلا تشطير ولا ترقيع، فالحق حق والباطل باطل، فالحق ينبغي أن يؤخذ كله ولا يتنازل فيه عن شيء، فبقدر ما يقع من التنازل بقدر ما ينطفئ نور الحق في نفس الفاعل، فلهذا أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن لا يلتفت إلى اقتراحات اليهود والنصارى الباطلة، وأن يلتزم بشرعه وما ألزمه الله به، وهكذا يبقى هذا المنهاج خالداً ما دامت السموات والأرض، فكل طرق الباطل لا يجوز الدخول فيها، ولا موافقتها مهما كان القائل أو الفاعل، فلا يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية، ولا جهمية ولا رافضة ولا صوفية ولا خارجية ولا غيرها من طرق الضلال، فكلها يجب الإعراض عنها، والالتزام بما أنزل الله في كتابه وما صح عن نبيه ﷺ، وما كان عليه سلف هذه الأمة من فهم صحيح ومتابعة للأصلين الكبيرين.

(١) تفسير السعدي (١/١٤٨-١٤٩).

قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً
وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (١٢٨)

★ غريب الآية:

صبغة الله: أي: دين الله. سُمِّيَ بذلك لأنه هيئة تظهر بالمشاهدة.
قال أمية:

في صِبْغَةِ اللَّهِ كَانَ إِذْ نَسِيَ الْ عَهْدَ وَخَلَّى الصَّوَابَ إِذْ عَرَفَا
قال القرطبي: «فسمي الدين صبغة استعارة ومجازاً من حيث تظهر أعماله
وسمته على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب».

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- (بالصبغة)، صبغة الإسلام. وذلك أن
النصارى إذا أرادت أن تنصر أطفالهم، جعلتهم في ماء لهم تزعم أن ذلك لها
تقديس، بمنزلة غسل الجنابة لأهل الإسلام، وأنه صبغة لهم في النصرانية.
فقال الله -تعالى ذكره- إذ قالوا لنبيه محمد ﷺ وأصحابه المؤمنين به:
﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾: قل لهم يا محمد: أيها اليهود والنصارى، بل
اتبعوا ملة إبراهيم، صبغة الله التي هي أحسن الصبغ، فإنها هي الحنيفية المسلمة،
ودعوا الشرك بالله، والضلال عن محجة هداة»^(١).

وقال: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾، أمر من الله -تعالى ذكره- نبيه ﷺ أن يقوله لليهود
والنصارى، الذين قالوا له ولمن تبعه من أصحابه: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾
فقال لنبيه محمد ﷺ: قل: بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً، صبغة الله، ونحن له
عابدون؛ يعني: ملة الخاضعين لله، المستكينين له، في اتباعنا ملة إبراهيم،

(١) جامع البيان (٣/ ١١٧) تحقيق شاكر.

ودينونتنا له بذلك ، غير مستكبرين في اتباع أمره ، والإقرار برسالته رسله ، كما استكبرت اليهود والنصارى ، فكفروا بمحمد ﷺ استكباراً وبغياً وحسداً^(١) .

وقال السعدي : «أي الزموا صبغة الله ، وهو دينه ، وقوموا به قياماً تاماً ، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة ، وجميع عقائده في جميع الأوقات ، حتى يكون لكم صبغة ، وصفة من صفاتكم .

فإذا كان صفة من صفاتكم ، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره ، طوعاً واختياراً ومحبة ، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للشوب الذي صار له صفة ، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية ، لحث الدين على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ومعالي الأمور .

فلهذا قال على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي : لا أحسن صبغة من صبغته . وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ ، فقس الشيء بضده .

فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً ، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح .

فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن ، وفعل جميل ، وخلق كامل ، ونعت جليل . ويتخلى من كل وصف قبيح ، ورذيلة وعيب . فوصفه ، الصدق في قوله وفعله ، والصبر والحلم ، والعفة ، والشجاعة ، والإحسان القولي والفعل ، ومحبة الله وخشيته ، وخوفه ، ورجاؤه . فحاله الإخلاص للمعبود ، والإحسان لعبيده . فقسه بعبد كفر بربه ، وشرذ عنه ، وأقبل على غيره من المخلوقين . فاتصف بالصفات القبيحة ، من الكفر ، والشرك والكذب ، والخيانة ، والمكر ، والخداع ، وعدم العفة ، والإساءة إلى الخلق ، في أقواله ، وأفعاله . فلا إخلاص للمعبود ولا إحسان إلى عبده . فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما ، ويتبين لك أنه لا أحسن من صبغة الله ، وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه .

وفي قوله : ﴿وَتَحْنُ لَمْ عَيْدُونَ﴾ بيان لهذه الصبغة ، وهي القيام بهذين الأصلين ، الإخلاص والمتابعة ؛ لأن (العبادة) اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من

(١) جامع البيان (٣/ ١٢٠ تحقيق شاكر) .

الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة . ولا تكون كذلك ، حتى يشرعها الله على لسان رسوله . والإخلاص أن يقصد العبد وجه الله وحده في تلك الأعمال . فتقديم المعمول يؤذن بالحصص . وقال : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار ، ليدل على اتصافهم بذلك^(١) .

* * *

(١) تفسير السعدي (١/ ١٥٠-١٥١) .

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ ﴿١٣٩﴾

★ غريب الآية:

أَتَحَاجُّونَنَا: أَسْأَلُونَنَا .

مُخْلِصُونَ: الإخلاص: التبري من الشيء. والخالص: ما زال عنه الشوب. والمراد: أن المسلمين تبرؤوا مما ادّعاه اليهود من التشبيه، والنصارى من التثليث.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني - تعالى ذكره - بقوله: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾، قل يا محمد، لمعاشر اليهود والنصارى، الذين قالوا لك ولأصحابك: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، وزعموا أن دينهم خير من دينكم، وكتابهم خير من كتابكم؛ لأنه كان قبل كتابكم، وزعموا أنهم من أجل ذلك أولى بالله منكم: ﴿أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، بيده الخيرات، وإليه الثواب والعقاب، والجزاء على الأعمال، الحسنات منها والسيئات، فتزعمون أنكم بالله أولى منا، من أجل أن نبيكم قبل نبينا، وكتابكم قبل كتابنا، وربكم وربنا واحد، وأن لكل فريق منا ما عمل واكتسب من صالح الأعمال وسيئها، يجازى عليها فيثاب أو يعاقب، لا على الأنساب وقدم الدين والكتاب»^(١).

وقال: «فأما قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾، فإنه يعني: ونحن لله مخلصو العبادة والطاعة، لا نشرك به شيئاً، ولا نعبد غيره أحداً، كما عبد أهل الأوثان معه الأوثان، وأصحاب العجل معه العجل.

وهذا من الله - تعالى ذكره - توبيخ لليهود، واحتجاج لأهل الإيمان، بقوله - تعالى ذكره - للمؤمنين من أصحاب محمد ﷺ: قولوا، أيها المؤمنون، لليهود

(١) جامع البيان (٣/ ١٢٠-١٢١ تحقيق شاکر).

والنصارى الذين قالوا لكم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾: ﴿أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾؟ يعني بقوله: ﴿فِي اللَّهِ﴾، في دين الله الذي أمرنا أن ندينه به، وربنا وربكم واحد عدل لا يجور، وإنما يجازي العباد على ما اكتسبوا، وترعمون أنكم أولى بالله منا، لقدم دينكم وكتابكم ونبىكم، ونحن مخلصون له العبادة، لم نشرك به شيئاً، وقد أشركتم في عبادتكم إياه، فعبد بعضكم العجل، وبعضكم المسيح، فأنى تكونون خيراً منا، وأولى بالله منا؟^(١).

وقال ابن كثير: «يقول الله تعالى مرشداً نبيه -صلوات الله وسلامه عليه- إلى درء مجادلة المشركين: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أي تناظرونا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد واتباع أوامره وترك زواجه. ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فينا وفيكم المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له ﴿وَلَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي نحن براء منكم ومما تعبدون وأنتم براء منا، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَلَن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾^(٣) إلى آخر الآية؛ وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ﴾^(٤) إلى آخر الآية؛ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾^(٥) الآية^(٦).

وقال السعدي: «المحاجة هي: المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق بالمسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله، وإبطال قول خصمه. فكل واحد منهما، يجتهد في إقامة الحجة على ذلك. والمطلوب منها، أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقيم الحجة على المعاند، ويوضح الحق، ويبين الباطل. فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت مماراة، ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت. فكان أهل الكتاب، يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى، تفتقر إلى برهان ودليل.

(١) جامع البيان (٣/ ١٢١-١٢٢ تحقيق شاكر).

(٢) يونس: الآية (٤١).

(٣) آل عمران: الآية (٢٠).

(٤) الأنعام: الآية (٨٠).

(٥) البقرة: الآية (٢٥٨).

(٦) تفسير ابن كثير (١/ ٣٣١).

فإذا كان رب الجميع واحدًا، ليس ربا لكم دوننا، وكل منا ومنكم، له عمله، فاستوينا نحن وأنتم بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره.

لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء، من غير فرق ومؤثر، دعوى باطلة، وتفریق بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة. وإنما يحصل التفضيل، بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده. وهذه الحالة، وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص.

فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية، التي يسلمها أهل العقول، ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول.

ففي هذه الآية، إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين^(١).

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «ذكر بعض ما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُمَاجُوتُنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾، من بيان الحق وإبطال الباطل:

الأولى: إذا كانت المحاجة في الله سبحانه من أقرب ما يكون إليه من المختلفين في مسألة التوحيد، وبيان ذلك بمعرفة الله تعالى فيما اجتمعنا وإياكم عليه، ومعرفة حالنا وحالكم في المسألة، وذلك أنا مجمعون على استوائنا وإياكم في العبودية، بخلاف ملوك الدنيا، فإن بعض الناس يكون أقرب إليهم من بعض بالقربة وغيرها، ونحن مجمعون أيضًا أنه لا يظلم أحدًا من عبيده، بل كل نفس ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(٢). بخلاف ملوك الدنيا فإنهم يأخذون مال هذا ويعطونه هذا، فإذا كان الأمر كذلك فكيف تدعون أنكم أولى بالله منا، ونحن له مخلصون وأنتم به مشركون؟ وكيف يظن به أنه يساوي بين من قصده وحده لا شريك له، ومن قصد غيره وأعرض عنه؟ وهل يظن عاقل أو سفيه برجل من بني آدم خصوصًا إذا كان كريمًا، أن من قصده وضاف عنده يكرهه ولا يضيفه، ويخص

(١) تفسير السعدي (١/ ١٥٢-١٥٣).

(٢) البقرة: الآية (٢٨٦).

بالرضا والكرامة والضيافة من أعرض عنه وضاف عند غيره، مع استواء الجميع في القرب منه والبعد؟ هذا لا يظن في الآدمي فكيف يظن برب العالمين؟
فتبين بقضية العقل؛ أن ما جاءت به الرسل من الإخلاص هو الموافق للعقل، وما فعل المشركون هو العجائب المخالف للعقل، فيا لها من حجة ما أعظمها وأبينها، لكن لمن فهمها كما ينبغي^(١).

* * *

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٤٢-٤٣).

قوله تعالى: ﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

★ غريب الآية:

كَتَمَ: أَسَرَّ وَأَخْفَى.

غافل: الغفلة: السهو والنسيان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذه الآية أيضًا احتجاج من الله -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ على اليهود والنصارى، الذين ذكر الله قصصهم. يقول الله لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى: أتجاجوننا في الله، وتزعمون أن دينكم أفضل من ديننا، وأنكم على هدى نحن على ضلالة، ببرهان من الله -تعالى ذكره-، فتدعوننا إلى دينكم؟ فهاتوا برهانكم على ذلك فتتبعكم عليه، أم تقولون: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى على دينكم؟ فهاتوا على دعواكم ما ادعيتم من ذلك برهانًا، فنصدقكم، فإن الله قد جعلهم أئمة يقتدى بهم.

ثم قال -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: قل لهم يا محمد إن ادعوا أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى، أنتم أعلم بهم وبما كانوا عليهم من الأديان أم الله؟^(١).

وقال ابن كثير: «وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُنْمُ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُخْلِصُونَ﴾ أي: نحن براء منكم كما أنتم براء منا، ونحن له مخلصون؛ أي: في العبادة والتوجه، ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء

(١) جامع البيان (٣/١٢٣-١٢٤ تحقيق شاكر).

والأسباط، كانوا على ملتهم إما اليهودية وإما النصرانية، فقال: ﴿أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَرَأَيْتُمْ﴾ يعني بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هودًا ولا نصارى كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١) الآية والتي بعدها؛ وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ مِنَ اللَّهِ﴾ قال الحسن البصري: كانوا يقرءون في كتاب الله الذي أتاهم، إن الدين الإسلام، وإن محمدًا رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، كانوا براء من اليهودية والنصرانية فشهدوا لله بذلك، وأقروا على أنفسهم لله، فكتبوا شهادة الله عندهم من ذلك، وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعد شديد؛ أي: أن علمه محيط بعلمكم وسيجزيكم عليه^(٢).

وقال ابن جرير: «وقل لهؤلاء اليهود والنصارى، الذين يحاجونك يا محمد: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، من كتمانكم الحق فيما ألزمكم في كتابه بيانه للناس من أمر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط في أمر الإسلام، وأنهم كانوا مسلمين، وأن الحنيفية المسلمة دين الله الذي على جميع الخلق الدينونة به، دون اليهودية والنصرانية وغيرهما من الملل ولا هو ساء عن عقابكم على فعلكم ذلك، بل هو محص عليكم حتى يجازيكم به من الجزاء ما أنتم له أهل في عاجل الدنيا وآجل الآخرة. فجازاهم عاجلاً في الدنيا، بقتل بعضهم، وإجلاءه عن وطنه وداره، وهو مجازيهم في الآخرة العذاب المهين»^(٣).

وقال السعدي: «وهذه دعوى أخرى منهم، ومحاجة في رسل الله، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين. فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَرَأَيْتُمْ﴾ فالله يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٤) وهم يقولون: بل كان يهوديًا أو نصرانيًا.

فإما أن يكونوا، هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة. وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان. حتى إنه من وضوحه لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق،

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٣١-٣٣٢).

(١) آل عمران: الآية (٦٧).

(٤) آل عمران: الآية (٦٧).

(٣) جامع البيان (٣/ ١٢٧) تحقيق شاكر.

ونحو ذلك، لانجلائه لكل أحد. كما إذا قيل: الليل أنور، أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن التوحيد؟ ونحو ذلك.

وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء، لم يكونوا هودًا ولا نصارى، فكتبوا هذا العلم وهذه الشهادة، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ فهي شهادة عندهم، مودعة من الله، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتبوها، وأظهروا ضدها. جمعوا بين كتم الحق، وعدم النطق به، وإظهار الباطل، والدعوة إليه. أليس هذا، أعظم الظلم؟ بلى والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة. فلهذا قال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل قد أحصى أعمالهم، وعدها وادخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئست النار مثوى للظالمين. وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها. فيفيد ذلك الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب. ويفيد أيضًا، ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام، أن الأمر الديني والجزائي، أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له^(١).

وقال الرازي: «أما قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهو الكلام الجامع لكل وعيد، ومن تصور أنه تعالى عالم بسرهِ وإعلانه، ولا يخفى عليه خافية أنه من وراء مجازاته إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، لا يمضي عليه طرفة عين إلا وهو حذر خائف، ألا ترى أن أحدنا لو كان عليه رقيب من جهة سلطان يعد عليه الأنفاس لكان دائم الحذر والوجل، مع أن ذلك الرقيب لا يعرف إلا الظاهر، فكيف بالرب الرقيب الذي يعلم السر وأخفى، إذا هدد وأوعد بهذا الجنس من القول»^(٢).

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «فيها مسائل:

الأولى: إن كانت الخصومة في الصالحين ودعواهم أنهم على طريقهم، فهم لا يقدر أن يدعوا أن رسول الله ﷺ وأصحابه على طريقته، بل يصرحون أنهم على غيرها، ولكن يعتذرون أنهم لا يقدر أن يعرفوا، فكيف هذا التناقض؟ يدعون

(١) تفسير السعدي (١/١٥٣-١٥٤).

(٢) تفسير الرازي (٤/١٠٠).

أنهم تابعوهم مع تحريمهم اتباعهم ، وزعمهم أن أحدا لا يقدر عليه ! .

الثانية : قوله : ﴿أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ فهذه لا يقدر أحد أن يعارضها ، فإذا سلمها وسلم لك أن العلم الذي أنزله الله ليس هو لعدم القدرة فهذا الذي عليه غيره ، وهذا إلزام لا محيد عنه .

الثالثة : أن منهم من يعرف الحق ويكتمه خوفاً من الناس مع كونه لا ينكره ، فلا أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ، فكيف بمن جمع مع الكتمان ، دفعها وسبها وتكفير من آمن بها ؟

الرابعة : الوعيد بقوله : ﴿وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ والله أعلم^(١) .
وقال ﷺ : «وأما قوله : ﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ الآية .

فهذه حجة أخرى ، وبيانها أنا إذا أجمعنا على الإمام والأئمة أنهم ومن اتبعهم على الحق ، ومن خالفهم فهو على الباطل ، فهذه أيضاً مثل التي قبلها ، فإذا كان رسول الله ﷺ وأصحابه والأئمة بعدهم قد أجمعنا أنهم ومن اتبعهم على الحق ، ومن خالفهم فهو على الباطل .

فنقول : هذه المسألة التي اختلفنا وإياكم فيها هل : رسول الله ﷺ وأصحابه على قولنا أو على قولكم ؟

فإذا أقرروا أن دعاء أهل القبور والبناء عليها ، وجعل الأوقاف والسدنة عليها من دين الجاهلية ، فلما بعث الله محمداً ﷺ نهى عن ذلك كله ، وهدم البناء الذي جعلته الجاهلية على القبور ، ونهى عن دعاء الصالحين ، وعن التعلق بهم ، وأمر بإخلاص الدعوة لله ، وأمر بإخلاص الاستعانة لله ، وبلغنا عن الله أنه يقول : ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(٢) ، ومضى رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعون وأتباعهم ، والأئمة وأصحابهم على ذلك ؛ ولم يحدث هذا إلا بعد ذلك ، أعني دعاء غير الله والبناء على القبور ، وما يتبع ذلك من المنكرات ؛ فكيف تقرون أن رسول الله ﷺ وأصحابه والأئمة بعدهم على ما نحن عليه ، ثم تنكرونها أعظم من إنكار دين اليهود والنصارى ، مع إقراركم أنه الدين الذي عليه رسول الله ﷺ وأصحابه والأئمة ؟ أم

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص : ٥٣-٥٤) . (٢) الجن : الآية (١٨) .

كيف تنصرون الشرك وما يتبعه، وتبذلون في نصره النفس والمال مع إقراركم أنه دين الجاهلية المشركين؟ هذا هو الشيء العجيب، لا جعل الآلهة إلهاً واحداً، يا أعداء الله لو كنتم تعقلون!!

وليس هذا في هذه المسألة وحدها، بل كل مسألة اختلفنا وإياهم فيها، وأقروا أن ما نحن عليه هو الذي عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فهذه الخصومة فيها واقعة فاصلة لها، فإن أقروا بذلك ولكن زعموا أن الناس أحدثوا أموراً تقتضي حسن ما هم عليه كقولهم: هذه بدعة حسنة فيها من المصالح كذا وكذا، وفي تركها من المفاسد كذا وكذا. فيجوابون بالمسألة الثالثة، وهي قوله: ﴿أَتَشْتُمُ عَلَّمَ أَمِ اللَّهِ﴾. فإذا كان رسول الله ﷺ بإقراركم أوصانا بقوله: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»^(١)، فقد أقررتم أنه أمر بلزوم ما أمرتم بتركه، وأنه نهى عما أمرتم بفعله، مع إقراركم أنه أوصى بهذه الوصية عند وقوع الاختلاف في أمته، مع إقراركم أنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فالله سبحانه قد علم ما يحدث في خلقه إلى يوم القيامة، ومع هذا أمر بطاعة رسوله الذي أقررتم به وأنتم تشهدون أنه قاله؛ فإذا بان لك أن الأولى في الأمر بالإخلاص والنهي عن الشرك، وأن الثانية في الأمر بلزوم السنة والنهي عن البدعة، بان لك أن هذا هو تقرير القاعدتين اللتين عليهما مدار الدين، وهما: لا يعبد إلا الله، والثانية: لا يعبد إلا بما شرع، فالأولى قوله: «إنما الأعمال بالنيات»^(٢)، والثانية قوله: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٣).

فإن كان المحاج لا يقر ببعض ذلك بل أنكر شيئاً من تفاصيل ما ذكرنا، فهي المسألة الرابعة وهو قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ مَوْلَاهُ﴾ فإذا كان

(١) أخرجه: أحمد (١٢٦/٤-١٢٧) وأبو داود (١٣/٥-١٥/٥) والترمذي (٤٣/٥-٢٦٧٦) وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه (١٦/١-١٧/١-٤٣-٤٤) وصححه ابن حبان (١٧٨/١-١٧٩/٥) والحاكم (٩٥/١-٩٦) ووافقه الذهبي، كلهم من حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٢٥/١) والبخاري (١/١١/١) ومسلم (٣/١٥١٥-١٩٠٧) وأبو داود (٢/٦٥١-٦٥٢/٢) والترمذي (٤/١٥٤-١٦٤٧) والنسائي (١/٦٢-٦٣/٧٥) وابن ماجه (٢/١٤١٣-٤٢٢٧) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ: مسلم (٣/١٣٤٤-١٣٤٤/١٧١٨ [١٨]) وأخرجه بلفظ: (من أحدث في أمرنا هذا...) أحمد (٦/٢٤٠) والبخاري (٥/٣٧٧-٢٦٩٧) ومسلم (٣/١٣٤٣-١٧١٨ [١٧]) وأبو داود (٥/١٢-٤٦٠٦) وابن ماجه (١/٧-١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

هذا في الكاتم مع المحبة وتمني ظهوره، ولكن أحب الدنيا عليه، فكيف بالكاتم المبغض؟

فإن كان يدعي أنه لم يفعل ذلك، وأنه تابع لهذا الحق لكنه يكتم إيمانه كمؤمن آل فرعون، مع معرفتك أنه كاذب فهي المسألة الخامسة، وهي: أن تقول له: ﴿وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١).

قلت: رحم الله الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب على هذا التقرير العظيم، في محاجة أهل الباطل من عباد القبور والأحجار والأشجار والنجوم والشيوخ الأحياء الذين زعموا عصمتهم وتقديسهم، حيث قرّر أن هذا الأمر هو ما كان عليه أهل الجاهلية، وأن الرسول -عليه الصلاة والسلام- جاء لإبعاده وإزالته، والصحابة -رضوان الله عليهم- تابعوه على ذلك، فهل هذا هو الحق أو الرجوع إلى ما كان عليه أهل الجاهلية من تخبط مزر، وشرك مفضوح وبدع مختلفة من الجهال الأدعياء، أم التوحيد والسنة الواضحة البيضاء؟ كل هذا ومثله مما قرره الشيخ محمد مما يجب التنبه له، والحذر مما كان عليه أهل الجاهلية، فالله -تبارك وتعالى- يقرر في هذه الآية أن العلم علم، والوحي وحي، فمن علم ذلك وكتمه فهو من أظلم الناس وأضلهم، فيجب على العلماء الذين علموا السنة وعلموا مصادرها وحقائقها الثابتة الصحيحة أن يبلغوا ذلك لأمة محمد ﷺ، وأن لا يستبدلوا ذلك بمصالحهم وأغراضهم ومناصبهم التي يؤثرونها على ما عند الله من خير، وهذا - في الحقيقة - واقع أهل زماننا في كل مكان؛ فإن بعضهم كتموا الحق وآثروا مصالحهم على ما عند الله.

* * *

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٥٤-٥٧).

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فمعنى الآية إذا: قل يا محمد لهؤلاء الذين يجادلونك في الله من اليهود والنصارى، إن كنتموا ما عندهم من الشهادة في أمر إبراهيم ومن سميئا معه، وأنهم كانوا مسلمين، وزعموا أنهم كانوا هودًا أو نصارى، فكذبوا: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط أمة قد خلت أي: مضت لسبيلها فصارت إلى ربها، وخلت بأعمالها وآمالها، لها عند الله ما كسبت من خير في أيام حياتها، وعليها ما اكتسبت من شر، لا ينفعها غير صالح أعمالها، ولا يضرها إلا سيئها. فاعلموا أيها اليهود والنصارى ذلك، فإنكم إن كان هؤلاء وهم الذين بهم تفتخرون، وتزعمون أن بهم ترجون النجاة من عذاب ربكم، مع سيئاتكم وعظيم خطيئاتكم لا ينفعهم عند الله غير ما قدموا من صالح الأعمال، ولا يضرهم غير سيئها، فأنتم كذلك أحرى أن لا ينفعكم عند الله غير ما قدمتم من صالح الأعمال، ولا يضركم غير سيئها. فاحذروا على أنفسكم، وبادروا خروجها بالتوبة والإنابة إلى الله مما أنتم عليه من الكفر والضلالة والفرية على الله وعلى أنبيائه ورسله، ودعوا الاتكال على فضائل الآباء والأجداد، فإنما لكم ما كسبتم، وعليكم ما اكتسبتم، ولا تسألون عما كان إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط يعملون من الأعمال؛ لأن كل نفس قدمت على الله يوم القيامة، فإنما تسأل عما كسبت وأسلمت، دون ما أسلف غيرها»^(١).

وقال ابن كثير: «أي: قد مضت، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين

(١) جامع البيان (٣/١٢٨-١٢٩ تحقيق شاكر).

مثلهم لأوامر الله واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين ، فإنه من كفر بنبي واحد ، فقد كفر بسائر الرسل ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين»^(١) .

قلت : هكذا يفصل القرآن بين الأبناء والآباء ، وبين الخلف والسلف ، وبين الأنبياء وذرياتهم ، فالميزان في الجميع هو الاتباع لما بلغه أنبياءه ورسله ، فلا ينفع التغني بنسب ، ولا نسبة إلى نبي أو صحابي أو تابعي أو عالم أو رجل صالح ، فالكل له عمله ، ويجزى بعمله ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(٢) ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾^(٣) ، فالانتساب وحده لا يكفي مهما كانت صحة النسب ، فمن انتسب مثلاً إلى آل النبي ﷺ وهو مخالف له ﷺ فيما جاء به ؛ فلا يغني عنه ذلك الانتساب شيئاً ، كما صرح بذلك الرسول ﷺ حيث قال : «يا فاطمة بنت محمد ، سأليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئاً . . يا عباس . . يا صفية . .»^(٤) ، وما أكثر المتغنين في هذا الزمان بالأنساب والطوائف ، وهم مخالفون لأصولهم وأجدادهم فيما كانوا عليه من متابعة للرسول ﷺ ، كما عاب الله على بني إسرائيل الذين زعموا الانتساب إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، وهم مخالفون لهم في التوحيد والدعوة والاستقامة على شرع الله ، كل ذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً .

فاللهم وفقنا لمتابعة دينك والاهتداء بهديك ، والالتساء بأسوتك ، وجنبنا الزيغ والضلال والأهواء والبدع ما ظهر منها وما بطن ، آمين .

* * *

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٣٢) .

(٢) لقمان : الآية (٣٣) .

(٣) المدثر : الآية (٣٨) .

(٤) تقدم تخريجه عند الآية (١٢٣) .

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٤٢﴾

★ غريب الآية:

السفهاء: واحدها: سفيه، وهو الضعيف الرأي: الخفيف الحلم، الذي ليس له خبرة بمواطن النفع والضرر، من قولهم: ثوب سفيه إذا خَفَّ نَسْجُهُ.
ما ولاهم: ما صرفهم.
قبلتهم: أصل القبلة الجهة، سميت بذلك لأنها تقابل المصلي ويقابلها، والمراد هنا: بيت المقدس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه-: سيقول السفهاء؛ سيقول الجاهل من الناس، وهم اليهود وأهل النفاق، وإنما سماهم الله ﷻ سفهاء؛ لأنهم سفهوا الحق، فتجاهلت أحبار اليهود، وتعاضمت جهالهم وأهل الغباء منهم عن اتباع محمد ﷺ؛ إذ كان من العرب ولم يكن من بني إسرائيل، وتحير المنافقون فتبلدوا»^(١).

قال ابن كثير: «ولما وقع هذا»^(٢) حصل لبعض الناس -من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود- ارتياب وزيف عن الهدى وتخبيط وشك، وقالوا: ﴿مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾، أي قالوا: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم في قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾؛ أي: الحكم والتصرف والأمر كله لله ﴿فَأَيْنَمَا تُولَؤْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(٣)، ﴿وَلَيْسَ إِلَٰهٌ أَن تُولَؤْا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَٰهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾^(٤)، أي الشأن كله في امتثال أوامر الله،

(١) جامع البيان (١/٢).

(٢) يعني تحويل القبلة.

(٣) البقرة: الآية (١١٥).

(٤) البقرة: الآية (١٧٧).

فحيثما وجَّهنا توجَّهنا، فالطاعة في امتثال أمره، ولو وجَّهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة؛ فنحن عبيده وفي تصريفه وخدامه؛ حيثما وجَّهنا توجَّهنا، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه - وأتمه عناية عظيمة؛ إذ هداهم إلى قبله إبراهيم خليل الرحمن، وجعل توجَّههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ لم يبين هنا الصراط المستقيم، ولكنه بينه بقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ^(٣)».

وقال محمد رشيد رضا: «كان أنبياء بني إسرائيل يصلون إلى بيت المقدس، وكانت صخرة المسجد الأقصى هي قبلتهم، وقد صلى النبي والمسلمون إليها زمنا، وكان النبي صلى الله عليه وآله يتشوف لاستقبال الكعبة، يتمنى لو حول الله القبلة إليها، فأمره الله بذلك كما يأتي تفصيله في الآيات الآتية. وقد ابتدأ الكلام في هذه المسألة ببيان تفصيله في الآيات الآتية. وقد ابتدأ الكلام في هذه المسألة ببيان ما يقع من اعتراض اليهود وغيرهم على التحويل وإخبار الله نبيه والمؤمنين به قبل وقوعه بقوله: ﴿سَيَقُولُ الشُّعْبَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾ وتلقينهم الحجة البالغة عليه، والحكمة السديدة فيه، ويتضمن هذا بيان سر من أسرار الدين، وقاعدة كبرى من قواعد الإيمان، كان أهل الكتاب في غفلة عنها وجهل بها، فهذه الآيات متصلة بما قبلها في كونها بحاجة لأهل الكتاب في أمر الدين لإمالتهم عن التقليد الأعمى فيه والجمود على ظواهره من غير تفقه فيه ولا نفوذ إلى أسرارهِ وحكمه التي لم تشرع الأحكام إلا لأجلها.

ليست صخرة بين المقدس بأفضل من سائر الصخور في مادتها وجوهرها، وليس لها منافع وخواص لا توجد في غيرها، ولا هيكل سليمان في نفسه من حيث هو حجر وطن أفضل من سائر الأبنية. وكذلك يقال في الكعبة والبيت الحرام كما

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٣٤).

(٣) الأضواء (١/ ٨٧).

(٢) الفاتحة: الآيات (٦ و٧).

تقدم في تفسير ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾^(١) وإنما يجعل الله للناس قبلة لتكون جامعة لهم في عبادتهم إلى آخر ما تقدم شرحه في تفسيره ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(٢) وفي الكلام على الكعبة والحج . ولكن سفهاء الأحلام من أهل الجمود يظنون أن القبلة أصل في الدين من حيث هي الصخرة المعينة ، أو البناء المعين ، ولذلك كانت الحجة التي لقنها الله لنبيه في الرد على السفهاء الجاهلين بهذه الحكمة ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي : إن الجهات كلها لله تعالى لا فضل لجهة منها بذاتها على جهة ، وإن لله أن يخصص منها ما شاء فيجعله قبلة لمن يشاء ، وهو الذي ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو صراط الاعتدال في الأفكار والأخلاق والأعمال كما يبين في الآية الآتية . فعلم أن نسبة الجهات كلها إلى الله تعالى واحدة وأن العبرة في التوجه إليه سبحانه بالقلوب لا بالوجوه^(٣) .

وقال القاسمي : «ظاهر قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ الخ أنه إخبار بقولهم المذكور . ثم إن الإخبار قبل وقوعه . وفائدته توطين النفس وإعداد ما يبيكتهم ، فإن مفاجأة المكروه على النفس أشق وأشد . والجواب العتيد لشغب الخصم الألد أرد ، مع ما فيه من دلائل النبوة حيث يكون إخباراً عن غيب ، فيكون معجزاً ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ جواب عن شبهتهم . وتقريره أن الجهات كلها لله ملكاً . فلا يستحق شيء منها لذاته أن يكون قبلة . بل إنما تصير قبلة لأن الله تعالى جعلها قبلة . فلا اعتراض عليه بالتحويل من جهة إلى أخرى . وما أمر به فهو الحق ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فيه تعظيم أهل الإسلام ، وإظهار عنايته تعالى بهم ، وتفضيم شأن الكعبة . كما فخمه بإضافته إليه في قوله تعالى : ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾^(٤)»^(٥) .

وقال السعدي : «وقد اشتملت الآية الأولى على معجزة ، وتسلية وتطمين قلوب المؤمنين ، واعتراض وجوابه من ثلاثة أوجه ، وصفة المعترض ، وصفة المسلم لحكم الله دينه .

فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس ، وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم ، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن ، وهم اليهود والنصارى ، ومن

(١) البقرة: الآية (١٢٧) .

(٢) البقرة: الآية (١١٥) .

(٣) تفسير المنار (٢/ ١-٢) .

(٤) الحج: الآية (٢٦) .

(٥) محاسن التأويل (٢/ ٢٨٠) .

أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه .

وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس ، مدة مقامهم بمكة . ثم بعد الهجرة إلى المدينة ، نحو سنة ونصف - لما لله في ذلك من الحكم التي سيشير إلى بعضها ، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة . فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس : ﴿ مَا وَلَّهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ ﴾ وهي استقبال بيت المقدس ؛ أي : أي شيء صرفهم عنه ؟ .

وفي ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه ، وفضله وإحسانه .

فسلاهم ، وأخبر بوقوعه ، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه ، قليل العقل ، والحلم والديانة . فلا تبالوا بهم ، إذ قد علم مصدر هذا الكلام .

فالعاقل لا يبالي باعتراض السفیه ، ولا يلقي له ذهنه . ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله ، إلا سفيه جاهل معاند . وأما الرشيد المؤمن العاقل ، فيتلقى أحكام ربه بالقبول ، والانقياد ، والتسليم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (١) . ﴿ فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢) الآية . ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (٣) .

وقد كان في قوله : ﴿ السُّفَهَاءُ ﴾ ما يغني عن رد قولهم ، وعدم المبالاة به . ولكنه تعالى - مع هذا - لم يترك هذه الشبهة ، حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ لَهُمْ مَجِيبًا ﴾ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

أي : فإذا كان المشرق والمغرب ملكا لله ، ليس جهة من الجهات خارجة من ملكه ، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي من ملة إبراهيم - فلا شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلية تحت ملك الله ، لم تستقبلوا جهة ليست ملكا له ؟ فهذا يوجب التسليم لأمره ، بمجرد ذلك . فكيف ، وهو من فضل الله عليكم ، وهدايته وإحسانه ، أن هداكم لذلك .

(٢) النساء : الآية (٦٥) .

(١) الأحزاب : الآية (٣٦) .

(٣) النور : الآية (٥١) .

فالمعترض عليكم، معترض على فضل الله، حسداً لكم وبغيًا.

ولما كان قوله: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ مطلقاً، والمطلق يحمل على المقيد، فإن الهداية والضلال، لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية، التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُمُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾^(١) «(٢)».

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل واضح على أن في أحكام الله تعالى وكتابه ناسخاً ومنسوخاً، وأجمعت عليه الأمة إلا من شذ، كما تقدم^(٣). وأجمع العلماء على أن القبلة أول ما نسخ من القرآن، وأنها نسخت مرتين، على أحد القولين المذكورين في المسألة قبل.

ودلت أيضاً على جواز نسخ السنة بالقرآن؛ وذلك أن النبي ﷺ صلى نحو بيت المقدس؛ وليس في ذلك قرآن، فلم يكن الحكم إلا من جهة السنة، ثم نسخ ذلك بالقرآن؛ وعلى هذا يكون ﴿كُنْتَ عَلَيْنَا﴾^(٤) بمعنى أنت عليها^(٥).

قلت: ومما تقدم من كلام أهل العلم في تأويل هذه الآية نخلص إلى ما يلي:

أولاً: أن الأعداء دائماً متربصون بأهل الإسلام، وأنهم متى وجدوا إلى زعزعة أمن المسلمين وعقيدتهم ودينهم باباً دخلوا منه، ولو كان ذلك الباب من المستحيل.

ثانياً: أن المسلم الحق هو الذي يكون فيه كامل الاستسلام لله تعالى، فلا يعترض على أي حكم من الأحكام كما اعترض الملاحدة على الحدود كلها، فاعترضوا على قطع يد السارق، وعلى رجم الزاني المحصن، وعلى غيرهما، فسعوا إلى رفع أحكام الله من الأرض، بدعوى أن الحدود لا تناسب العصر، وحسبوا كثيراً من الأحكام والسنن قشوراً وجزئيات، واعتراضاتهم على أحكام الله كثيرة.

ثالثاً: اعتراض المبتدعة على أهل السنة في تمسكهم بالسنة والاعتصام بها، ورميهم بالجمود والظاهرية، وبلغة زنادقة العصر متشددون وإرهابيون، وغيرها من

(١) المائدة: الآية (١٦).

(٢) تفسير السعدي (١/ ١٥٥-١٥٧).

(٣) عند قوله تعالى: ﴿تَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ الآية (١٠٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٥١).

(٥) البقرة: الآية (١٤٣).

الألفاظ المستوردة من أهل الكفر والزندقة .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحويل القبلة

* عن البراء رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر - أو سبعة عشر - شهراً ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ ^(١) فتوجه نحو الكعبة ، وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - : ﴿ مَا وَلَهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فصلى مع النبي ﷺ رجل ، ثم خرج بعد ما صلى فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال : هو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ ، وأنه توجه نحو الكعبة ، فتحرف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة » ^(٢) .

★ فوائد الحديث :

قال أبو عمر : « وهذا الحديث أصل في كل من صلى على حال ثم تغيرت به حاله تلك قبل أن يتم صلاته ، أنه يتمها ولا يقطعها ليستأنف غيرها ، ويُجزيه ما مضى منها وما أتمه على غير سنته ، كمن صلى عرياناً ، ثم وجد ثوباً في الصلاة ، أو ابتداء صلاته صحيحاً فمرض ، أو مريضاً فصح ، أو قاعداً ، ثم قدر على القيام . .

وفيه دليل على أن بيت المقدس كان رسول الله ﷺ وأصحابه يصلون إليه إذ قدموا المدينة ، وذلك بأمر الله لهم بذلك لا محالة ، ثم نسخ الله ذلك وأمره أن يستقبل بصلاته الكعبة ، وكان رسول الله ﷺ يريد ذلك ، ويرفع طرفه إلى السماء فيه ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ ^(٣) » ^(٤) .

قال القرطبي : « وفيها دليل على أن من لم يبلغه الناسخ أنه متعبّد بالحكم الأول ، خلافاً لمن قال : إن الحكم الأول يرتفع بوجود الناسخ لا بالعلم به ، والأول أصح ؛ لأن أهل قباء لم يزالوا يصلون إلى بيت المقدس إلى أن أتاهم الآتي فأخبرهم

(١) البقرة : الآية (١٤٤) .

(٢) أخرجه أحمد (٣٠٤/٤) والبخاري (٣٩٩/٦٦١) ومسلم (٥٢٥/٣٧٤) والترمذي (٢٩٦٢/١٩١/٥) والنسائي (٧٤١/٣٩٣/٢) وابن ماجه (٣٢٢-٣٢٣/١٠١٠) .

(٤) فتح البر (٢٩٨/٤) .

(٣) البقرة : الآية (١٤٤) .

بالناسخ، فمالوا نحو الكعبة، فالناسخ إذا حصل في الوجود فهو رافع لا محالة، لكن بشرط العلم به؛ لأن الناسخ خطاب ولا يكون خطاباً في حق من لم يبلغه، وفائدة هذا الخلاف في عبادات فعلت بعد النسخ وقبل البلاغ هل تعاد أم لا؟ وعليه تنبني مسألة الوكيل في تصرفه بعد عزل موكله أو موته، وقبل علمه بذلك على قولين، وكذلك المقارَض والحاكم إذا مات من ولّاه أو عزل، والصحيح أن ما فعله كل واحد من هؤلاء ينفذ فعله ولا يرد حكمه^(١).

قال ابن حجر: «وفيه أن تمني تغيير بعض الأحكام جائز إذا ظهرت المصلحة في ذلك، وفيه بيان شرف المصطفى ﷺ، وكرامته على ربه، لإعطائه له ما أحب من غير تصريح بالسؤال، وفيه بيان ما كان في الصحابة من الحرص على دينهم والشفقة على إخوانهم»^(٢).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة - وكان أكثر أهلها اليهود - أمره الله ﷻ أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، فكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم عليه السلام، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله - تبارك وتعالى - : ﴿قَدْ زَيَّيْنَا قَلْبَكَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ﴿مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾ فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَسَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾^(٣)»^(٤).

* فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «أجمع العلماء أن شأن القبلة أول ما نسخ من القرآن، وأجمعوا أن ذلك كان بالمدينة، وأن رسول الله ﷺ إنما صرف عن الصلاة إلى بيت المقدس وأمر بالصلاة إلى الكعبة بالمدينة، واختلفوا في صلاته ﷺ حين فرضت عليه الصلاة بمكة هل كانت إلى بيت المقدس؟ أو إلى مكة؟ فقالت طائفة: كانت

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٥٢/٢).

(٢) فتح الباري (١٣٢-١٣٣).

(٣) البقرة: الآية (١١٥).

(٤) أخرجه: ابن جرير (٥٠٢/١) وابن أبي حاتم (١٣٢٩/٢٤٨/١) والحاكم (٢٦٧-٢٦٨) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة» ووافقه الذهبي.

صلاته إلى بيت المقدس من حين فرضت عليه الصلاة بمكة إلى أن قدم المدينة، ثم بالمدينة سبعة عشر شهرًا أو نحوها حتى صرفه الله إلى الكعبة»^(١).

قال الحافظ: «وظاهر حديث ابن عباس هذا أن استقبال بيت المقدس إنما وقع بعد الهجرة إلى المدينة، لكن أخرج أحمد من وجه آخر عن ابن عباس: «كان النبي ﷺ يصلي بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه»^(٢)، والجمع بينهما ممكن بأن يكون أمر ﷺ لما هاجر أن يستمر على الصلاة لبيت المقدس، وأخرج الطبري من طريق ابن جريج قال: «صلى النبي ﷺ أول ما صلى إلى الكعبة، ثم صرف إلى بيت المقدس وهو بمكة فصلى ثلاث حجج، ثم هاجر فصلى إليه بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرًا، ثم وجهه الله إلى الكعبة»^(٣)، فقوله في حديث ابن عباس الأول: أمره الله؛ يرّد قول من قال: إنه صلى إلى بيت المقدس باجتهاد، وقد أخرجه الطبري عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف، وعن أبي العالية أنه ﷺ صلى إلى بيت المقدس يتألف أهل الكتاب، وهذا لا ينفي أن يكون بتوقيف»^(٤).

وقال: «إن العلماء اختلفوا في الجهة التي كان النبي ﷺ يتوجه إليها للصلاة وهو بمكة، فقال ابن عباس وغيره: كان يصلى إلى بيت المقدس لكنه لا يستدبر الكعبة، بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس. وأطلق آخرون أنه كان يصلي إلى بيت المقدس. وقال آخرون: كان يصلي إلى الكعبة، فلما تحول إلى المدينة استقبل بيت المقدس، وهذا ضعيف، ويلزم منه دعوى النسخ مرتين، والأول أصح؛ لأنه يجمع بين القولين، وقد صححه الحاكم وغيره من حديث ابن عباس»^(٥).

* * *

(١) فتح البر (٤/ ٣٠٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٥) والطبراني (١١٠٦٦/ ٦٧/ ١١) والبخاري (١/ ٢١٠-٢١١/ ٤١٨) وقال الهيثمي في

المجمع (١٢/ ٢): ورجاله رجال الصحيح. (٣) أخرجه الطبري (٥/ ٢).

(٤) الفتح (١٦٦٢-١٦٦١/ ١). (٥) الفتح (١/ ١٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية؛ أي: خياراً عدولاً، ويدل لأن الوسط الخيار العدول، قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) وذلك معروف في كلام العرب...»

قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ لم يبين هنا هل هو شهيد عليهم في الدنيا أو الآخرة؟ ولكنه بين في موضع آخر: أنه شهيد عليهم في الآخرة وذلك في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(٣) يَوْمَئِذٍ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا^(٤).

قال ابن كثير: «يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، واختارناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط ههنا: الخيار والأجود، كما يقال: قرش أوسط العرب نسباً وداراً؛ أي: خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه؛ أي: أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات، وهي العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصها بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَجْتَبَنَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ بَلَّةً أَيْبَكُمْ إِتْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(٥)»^(٦).

قال محمد رشيد رضا: «قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وهو تصريح

(١) البقرة: الآية (١٤٣).

(٢) آل عمران: الآية (١١٠).

(٣) النساء: الآيتان (٤١-٤٢).

(٤) الأضواء (١/٨٧).

(٥) سورة الحج: الآية (٧٨).

(٦) تفسير القرآن العظيم (١/٣٣٥).

بما فهم من قوله: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١) إلخ أي: على هذا النحو من الهداية جعلناكم أمة وسطًا، قالوا إن الوسط هو الخيار، وذلك أن الزيادة على المطلوب في الأمر إفراط، والنقص عنه تفريط وتقصير، وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمية فهو شر ومذموم، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر أي: المتوسط بينهما. قال الأستاذ الإمام بعد إيراد هذا: ولكن يقال لم اختيار لفظ الوسط على لفظ الخيار مع أن هذا هو المقصود، والأول إنما يدل عليه بالالتزام؟ والجواب من وجهين: أحدهما أن وجه الاختيار هو التمهيد للتعليل الآتي، فإن الشاهد على الشيء لا بد أن يكون عارفاً به، ومن كان متوسطًا بين شيئين فإنه يرى أحدهما من جانب، وثانيهما من الجانب الآخر، وأما من كان في أحد الطرفين فلا يعرف حقيقة حال الطرف الآخر ولا حال الوسط أيضًا. وثانيهما أن في لفظ الوسط إشعارًا بالسببية، فكأنه دليل على نفسه؛ أي: أن المسلمين خيار وعدول؛ لأنهم وسط أي أنهم ليسوا من أرباب الغلو في الدين المفرطين، ولا من أرباب التعطيل المفرطين، فهم كذلك في العقائد والأخلاق والأعمال^(٢).

قال شيخ الإسلام: «فالمسلمون وسط في أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين، لم يغلوا فيهم كما غلت النصارى، ﴿فَتَنَازَعُوا أَهْبَارَهُمْ وَرَهْبَتُهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٣). ولا جفوا عنهم كما جفت اليهود، فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقًا وقتلوا فريقًا. بل المؤمنون آمنوا برسول الله وعزروه ونصروهم ووقروهم وأحبوهم وأطاعوهم، ولم يعبدوهم ولم يتخذوهم أربابا كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾^(٤) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ^(٥)». ومن ذلك أن المؤمنين توسطوا في المسيح، فلم يقولوا: هو الله، ولا ابن الله، ولا ثالث ثلاثة، كما تقوله النصارى، ولا كفروا به، وقالوا على مريم

(١) البقرة: الآية (١٤٢).

(٢) تفسير المنار (٣/٢).

(٣) التوبة: الآية (٣١).

(٤) آل عمران: الآيتان (٧٩ و٨٠).

بهتاناً عظيماً، حتى جعلوه ولد بغية كما زعمت اليهود، بل قالوا: هذا عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه. وكذلك المؤمنون وسط في شرائع دين الله، فلم يحرموا على الله أن ينسخ ما شاء ويمحو ما شاء ويثبت، كما قالته اليهود، كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ النَّبِيَّ كَاوُوا عَلَيْهِمْ﴾ وبقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُوكَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾^(١). ولا جوزوا لأكابر علمائهم وعبادهم أن يغيروا دين الله، فيأمرُوا بما شاؤوا وينهوا عما شاؤوا، كما يفعل النصارى كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، قال عدي بن حاتم رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله! ما عبدوهم. قال: «ما عبدوهم، ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم»^(٢). والمؤمنون قالوا: لله الخلق والأمر، فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره، وقالوا: سمعنا وأطعنا، فأطاعوا كل ما أمر الله به، وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾^(٣)، وأما المخلوق فليس له أن يبدل أمر الخالق تعالى ولو كان عظيماً، وكذلك في صفات الله تعالى؛ فإن اليهود وصفوا الله تعالى بصفات المخلوق الناقصة، فقالوا: هو فقير ونحن أغنياء، وقالوا يد الله مغلولة، وقالوا إنه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت إلى غير ذلك، والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به، فقالوا: إنه يخلق ويرزق ويغفر ويرحم ويتوب على الخلق ويشيب ويعاقب، والمؤمنون آمنوا بالله تعالى، ليس له سمي ولا ند، ولم يكن له كفوا أحد، وليس كمثله شيء، فإنه رب العالمين وخالق كل شيء، وكل ما سواه عباد له فقراء إليه، ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾^(٤). . . وهذا باب يطول وصفه.

وهكذا أهل السنة والجماعة في الفرق، فهم في باب أسماء الله وآياته وصفاته وسط بين أهل التعطيل الذين يلحدون في أسماء الله وآياته، ويعطلون حقائق ما نعت الله به نفسه، حتى يشبهوه بالعدم والموات، وبين أهل التمثيل الذين يضربون له الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات، فيؤمن أهل السنة والجماعة بما وصف الله به

(١) البقرة: الآية (٩١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٩/٥-٢٦٠/٣٠٩٥) وقال: «حديث حسن غريب». وحسنه الشيخ الألباني في الصحيحة (رقم: ٣٢٩٣).

(٤) مريم: الآيات: (٩٣-٩٥).

(٣) سورة المائدة: الآية (١).

نفسه، وما وصفه به رسوله ﷺ؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف وتمثيل، وهم في باب خلقه وأمره وسط بين المكذبين بقدرة الله، الذين لا يؤمنون بقدرته الكاملة، ومشيتته الشاملة، وخلقه لكل شيء؛ وبين المفسدين لدين الله، الذين يجعلون العبد ليس له مشيئة ولا قدرة ولا عمل، فيعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب، فيصيرون بمنزلة المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾^(١)، فيؤمن أهل السنة بأن الله على كل شيء قدير، فيقدر أن يهدي العباد ويقلب قلوبهم، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في ملكه ما لا يريد، ولا يعجز عن إنفاذ مراده، وأنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات، ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل، وأنه مختار، ولا يسمونه مجبوراً؛ إذ المجبور من أكره على خلاف اختياره، والله سبحانه جعل العبد مختاراً لما يفعله فهو مختار مريد، والله خالقه وخالق اختياره، وهذا ليس له نظير؛ فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. وهم في باب الأسماء والأحكام والوعد الوعيد؛ وسط بين الوعيدية الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلدين في النار، ويخرجونهم من الإيمان بالكلية، ويكذبون بشفاععة النبي ﷺ؛ وبين المرجئة الذين يقولون: إيمان الفساق مثل إيمان الأنبياء، والأعمال الصالحة ليست من الدين والإيمان، ويكذبون بالوعد والعقاب بالكلية، فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله، وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذي يستوجبون به الجنة، وأنهم لا يخلدون في النار، بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، أو مثقال خردلة من إيمان، وأن النبي ﷺ ادخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته. وهم أيضاً في أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم؛ وسط بين الغالية الذين يغالون في علي عليه السلام، فيفضلونه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويعتقدون أنه الإمام المعصوم دونهما، وأن الصحابة ظلموا وفسقوا، وكفروا الأمة بعدهم كذلك، وربما جعلوه نبياً أو إلهاً؛ وبين الجافية الذين يعتقدون كفره وكفر عثمان رضي الله عنهما، ويستحلون دماءهما ودماء من تولاهما، ويستحبون سب علي وعثمان ونحوهما،

(١) الأنعام: الآية (١٤٨).

ويقدحون في خلافة علي عليه السلام وإمامته . وكذلك في سائر أبواب السنة هم وسط ؛ لأنهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان^(١) .

قلت : مما تقدم من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه يتبين لك الوسطية الحقة ، في تاريخ البشرية وفي تاريخ الأمم التي أنزل الله فيها كتبه ، فالنصارى انحرفوا وضلوا وأضلوا ، فرفعوا المسيح فوق قدره وجعلوه إلهاً يعبد من دون الله ، واليهود انحرفوا في الأنبياء والرسل فقتلوهم وتمردوا عليهم ، وقد بسط القرآن هذا بسطاً واسعاً ، فلا يحتاج إلى كبير تقرير .

وفي أهل الإسلام غلت الروافض في علي وذريته ، فوصفوه بما لا يوصف به النبي ﷺ من الغلو والتصرف في الكون ، وما لا يليق إلا بالله .

وهكذا الخوارج غلوا في باب الوعيد ، فكفروا بمطلق الذنب ، والمرجئة في باب الوعد ، فعذروا الزنادقة والمنحرفين ، وهكذا تجد لكل طائفة بقايا تنصر هذه المذاهب الباطلة الغالية أو المائعة المتساهلة ، فنبتت نابتة في الوقت الحاضر يدعون إلى هذه الوسطية المذمومة ، وسطية تعطيل الصفات ، ووسطية الأخذ من الحضارات المخالفة للإسلام ، والمنايذة له والمعارضة له ، والاعتراف بكل ديانة باطلة ، وبكل منهاج مارق ، وينشرون هذه الوسطية المزعومة تحت عقد المؤتمرات المشبوهة ، بل أسسوا لذلك القنوات الفضائية ، فلا تبث فيها إلا النطيحة والمرتدية من أدعياء العلم ، والمميعين للأحكام الشرعية بحجة يسر الإسلام وسماحته ، فيلون أعناق النصوص لتسويغ الواقع بما فيه من مخالفات .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في أن الشهادة يشترط فيها الصلاح والعدالة

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يدعى نوح يوم القيامة ، فيقول : لبيك وسعديك يا رب ، فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيقال

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٧٠-٣٧٥) .

لأمتة: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمتة. فيشهدون أنه قد بلغ ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، فذلك قوله - جل ذكره -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ والوسط العدل^(١).

★ من فوائد الحديث:

بوب البخاري على الحديث بقوله: «باب ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وما أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم»^(٢).

قال الحافظ: «وأما قوله: (وما أمر) إلى آخره؛ فمطابقته لحديث الباب خفية، وكأنه من جهة الصفة المذكورة وهي العدالة لما كانت تعم الجميع لظاهر الخطاب، أشار إلى أنها من العام الذي أريد به الخاص، أو من العام المخصوص؛ لأن أهل الجهل ليسوا عدولا، وكذلك أهل البدع، فعرف أن المراد بالوصف المذكور أهل السنة والجماعة، وهم أهل العلم الشرعي، ومن سواهم ولو نسب إلى العلم فهي نسبة صورية لا حقيقة... وقال الكرماني: مقتضى الأمر بلزوم الجماعة أنه يلزم المكلف متابعة ما أجمع عليه المجتهدون وهم المراد بقوله: «وهم أهل العلم»، والآية التي ترجم بها احتج بها أهل الأصول لكون الإجماع حجة لأنهم عدلوا بقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي عدولا، ومقتضى ذلك أنهم عصموا من الخطأ فيما أجمعوا عليه قولاً وفعلاً»^(٣).

قال ابن بطال: «معنى هذا الباب الاعتصام بالجماعة، ألا ترى قوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ولا يجوز أن يكونوا شهداء غير مقبولي القول، ولما كان الرسول واجبا اتباعه وجب اتباع قولهم؛ لأن الله جمع بينه وبينهم في قبول قولهم، وزكاهم وأحسن الثناء عليهم بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ يعني عدلا، والاعتصام بالجماعة كالاكتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لقيام الدليل على توثيق الله ورسوله صحة الإجماع وتحذيرهما من مفارقتها، بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ

(١) أخرجه أحمد (٣٢/٣) والبخاري (٤٤٨٧/٢١٧/٨) والترمذي (١٩٠/٥-١٩١/١٩١) والنسائي في الكبرى (١١٠٠٧/٢٩٢/٦) وابن ماجه (٤٢٨٤/١٤٣٢/٢) مختصرا.

(٢) الفتح (٣٩٠/١٣). (٣) الفتح (٣٩٠-٣٩١/١٣).

يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى ﴿١﴾ الآية، وقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٢) الآية، وهاتان الآيتان قاطعتان على أن الأمة لا تجتمع على ضلال، وقد أخبر الرسول ﷺ بذلك فهما من كتاب الله فقال: «لا تجتمع أمتي على ضلال» (٣)، ولا يجوز أن يكون أراد جميعها من عصره إلى قيام الساعة؛ لأن ذلك لا يفيد شيئاً؛ إذ الحكم لا يعرف إلا بعد انقراض جميعها، فعلم أنه أراد أهل الحل والعقد من كل عصر» (٤).

قال ابن القيم: «وجه الاستدلال بالآية أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خياراً عدولاً، هذا حقيقة الوسط، فهم خير الأمم وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإرادتهم ونياتهم، وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسول على أمهم يوم القيامة، والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه، ولهذا نوه بهم ورفع ذكرهم وأثنى عليهم؛ لأنه تعالى لما اتخذهم شهداء أعلم خلقه من الملائكة وغيرهم بحال هؤلاء الشهداء، وأمر ملائكته أن تصلي عليهم وتدعو لهم وتستغفر لهم، والشاهد المقبول عند الله هو الذي يشهد بعلم وصدق، فيخبر بالحق مستنداً إلى علمه به، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٥) فقد يخبر الإنسان بالحق اتفاقاً من غير علمه به، وقد يعلمه ولا يخبر به، فالشاهد المقبول عند الله هو الذي يخبر به عن علم، فلو كان علمهم أن يفتي أحدهم بفتوى وتكون خطأ مخالفة لحكم الله ورسوله، ولا يفتي غيره بالحق الذي هو حكم الله ورسوله؛ إما مع اشتها فتوى الأول أو يدون اشتها رها؛ كانت هذه الأمة العدل الخيار قد أطبقت على خلاف الحق، بل انقسموا قسمين: قسماً أفتى بالباطل، وقسماً سكنت عن الحق، وهذا من المستحيل فإن الحق لا يعدوهم ويخرج عنهم إلى من بعدهم قطعاً، ونحن نقول لمن خالف أقوالهم: لو كان خيراً ما سبقونا إليه» (٦).

(١) النساء: الآية (١١٥).

(٢) آل عمران: الآية (١١٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٢١٦٧/٤٠٥/٤) والحاكم (١١٥/١) من سبعة أوجه، وابن أبي عاصم (٨٠/٣٩/١) من طرق عن ابن عمر، قال الحافظ ابن حجر في التلخيص (١٤١/٣): وفيه سليمان بن شعبان المدني وهو ضعيف. وأخرجه الطبراني (٣٦٢٣/٤٤٧/١٢) قال الشيخ الألباني في ظلال الجنة (٤٠/١) بعد أن ساق سند الطبراني: وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

(٤) الزخرف: الآية (٨٦).

(٥) شرح البخاري (٣٧٩/١٠).

(٦) إعلام الموقعين (١٣٣/٤).

قال الحافظ رحمته الله : «أخرج ابن أبي حاتم^(١) بسند جيد عن أبي العالية عن أبي بن كعب في هذه الآية قال : ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾ وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة ، كانوا شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وغيرهم ؛ أن رسلهم بلغتهم وأنهم كذبوا رسلهم ، قال أبو العالية : وهي قراءة أبي : (لتكونوا شهداء على الناس يوم القيامة)^(٢) .

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مروا بجنائز فأنشوا عليها خيرا ، فقال النبي ﷺ : «وجبت» ثم مروا بأخرى فأنشوا عليها شرا ، فقال : «وجبت» فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما وجبت ؟ قال : «هذا أنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا أنيتم عليه شرا فوجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض»^(٣) .

★ من فوائد الحديث :

قال النووي : «وأما معناه ففيه قولان للعلماء ؛ أحدهما : أن هذا الشئ بالخير لمن أنشئ عليه أهل الفضل ، فكان ثناؤهم مطابقا لأفعاله ، فيكون من أهل الجنة ، فإن لم يكن كذلك فليس هو مرادا بالحديث . والثاني : -وهو الصحيح المختار- أنه على عمومه وإطلاقه ، وأن كل مسلم مات فآلهم الله تعالى الناس أو معظمهم الشئ عليه ؛ كان ذلك دليلا على أنه من أهل الجنة ، سواء كانت أفعاله تقتضي ذلك أم لا ، وإن لم تكن أفعاله تقتضيه فلا تحتّم عليه العقوبة ، بل هو في خطر المشيئة ، فإذا ألهم الله ﷻ الناس الشئ عليه ؛ استدللنا بذلك على أنه ﷺ قد شاء المغفرة له ، وبهذا تظهر فائدة الشئ»^(٤) .

قال الحافظ : «قوله : «أنتم شهداء الله في الأرض» أي : المخاطبون بذلك من الصحابة ومن كان على صفتهم من الإيمان . وحكى ابن التين أن ذلك مخصوص بالصحابة ؛ لأنهم كانوا ينطقون بالحكمة ، بخلاف من بعدهم . قال : والصواب أن

(١) أخرجه : ابن أبي حاتم (١٣٣٥/٢٤٩/١) .

(٢) الفتح (٢١٨/٨) .

(٣) أخرجه : أحمد (١٨٦/٣) والبخاري (١٣٦٧/٢٩٣/٣) ومسلم (٩٤٩/٦٥٥/٢) والترمذي (٣٧٣/٣) .

(٤) (١٠٥٨) والنسائي (٤/٣٥٢-٣٥١/٤) .

(٤) شرح مسلم (١٧/٧) .

ذلك يختص بالثقات والمتقين»^(١).

وقال: «قال الداودي: المعتبر في ذلك شهادة أهل الفضل والصدق لا الفسقة؛ لأنهم قد يثنون على من يكون مثلهم ولا من بينه وبين الميت عداوة؛ لأن شهادة العدو لا تقبل. وفي الحديث فضيلة هذه الأمة، وإعمال الحكم بالظاهر»^(٢).

قلت: فرحمة الله على هذا الإمام، وكأنه يعيش واقعا المعاصر، فإن الشهادة للغير أصبحت أمرا مرتبطا بالمصالح والمواصفات، وأصبح الناس يشهدون للمخالفين للشريعة بكل تعظيم وتقدير، فأثنا على المستشرقين الكفرة الذين تخصصوا في حرب الشريعة الإسلامية بالقلم والكتاب وأثنا على رؤوس الكفر، وجعلوا أعمالهم أعمالا بر. كما قال بعض المعاصرين في البابا الهالك: إن الله سيجازيه بما عمل، أي: من حسنات!! وهذا البابا الهالك من يقرأ سيرته يجدها كلها مجاهدة في حرب الإسلام في كل مكان. وهكذا نجدهم يشهدون لكل فاسق مارق يتبنى الفكر الاستشراقي، بل يشهدون للملاحدة الذين ينكرون وجود الله فضلا على أهل الحداثة الذين ينكرون كل أصل أصيل في الإسلام، ويثنون على كل مائع يحاول الجمع بين الحق والباطل، كما هي الدعوة في كثير من البلدان في الجمع بين دين الإسلام الحق وبين بقايا مشوهة محرفة مبدلة من الديانات السابقة باسم حوار الأديان، والتقارب بين الحضارات، وهذا لعمر الله هو الضلال بعينه.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مروا على رسول الله ﷺ بجنازة فأنثوا عليها خيرا في مناقب الخير، فقال: «وجبت»، ثم مروا عليه بأخرى فأنثوا عليها شرا في مناقب الشر، فقال: «وجبت، إنكم شهداء الله في الأرض»^(٣).

* عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة أهل أبيات من جيرانه الأذنين؛ أنهم لا يعلمون منه إلا خيرا إلا قال الله: قد قبلت علمكم فيه وغفرت له ما لا تعلمون»^(٤).

(٢) الفتح (٣/٢٩٦).

(١) الفتح (٣/٢٩٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢/٢٦١) وأبو داود (٣/٥٥٦-٥٥٧/٣٢٣٣) والنسائي (٤/٣٥٢/١٩٣٢) وابن ماجه (١/١٤٩٢/٤٧٨) وصححه ابن حبان (الإحسان ٧/٢٩٣-٢٩٤/٣٠٢٤).

(٤) أخرجه أحمد (٣/٢٤٢). وصححه ابن حبان (الإحسان ٧/٢٩٥/٣٠٢٦) والحاكم (١/٣٧٨) على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وأبو يعلى (٦/١٩٩/٣٤٨١). وذكره الهيثمي في المجمع (٣/٤) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى... ورجال أحمد رجال الصحيح».

* عن أبي الأسود قال: قدمت المدينة وقد وقع بها مرض، فجلست إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فمرت بهم جنازة فأثني على صاحبها خيرًا، فقال عمر رضي الله عنه: وجبت، ثم مر بأخرى فأثني على صاحبها خيرًا، فقال عمر رضي الله عنه: وجبت، ثم مر بالثالثة فأثني على صاحبها شرا، فقال: وجبت، فقال أبو الأسود: فقلت: وما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال قلت كما قال النبي ﷺ: «أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة»، فقلنا: وثلاثة؟ قال: «وثلاثة»، فقلنا: واثنان؟ قال: «واثنان»، ثم لم نسأله عن الواحد^(١).

* عن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي عن أبيه رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ بالنباوة أو النباوة - قال: والنباوة من الطائف - قال: «يوشك أن تعرفوا أهل الجنة من أهل النار» قالوا: بم ذاك يا رسول الله؟ قال: «بالثناء الحسن والثناء السيئ، أنتم شهداء الله بعضهم على بعض»^(٢).

★ من فوائد الأحاديث:

قال البخاري: «باب إذا زكى رجل رجلاً كفاه»، قال الحافظ: «ترجم في أوائل الشهادات: «تعديل كم يجوز» فتوقف هناك وجزم هنا بالاكْتفاء بالواحد. . واختلف السلف في اشتراط العدد في التزكية، فالمرجح عند الشافعية والمالكية - وهو قول محمد بن الحسن - اشتراط اثنين كما في الشهادة، واختاره الطحاوي، واستثنى كثير منهم بطلانة الحاكم؛ لأنه نائبه فينزل قوله منزلة الحكم، وأجاز الأكثرون قبول الجرح والتعديل من واحد؛ لأنه ينزل منزلة الحكم، والحكم لا يشترط فيه العدد»^(٣).

قوله: «أنتم شهداء الله في الأرض»

قال القاري: ««أنتم» أي أيها الصحابة، أو أيها المؤمنون، «شهداء الله في

(١) أخرجه أحمد (٢١-٢٢/١) والبخاري (٢٩٣/٣) والترمذي (٣٧٣-٣٧٤/٣). وقال: «حديث حسن صحيح» والنسائي (٣٥٢-٣٥٣/٤).
(٢) أخرجه: أحمد (٤١٦/٣) وابن ماجه (٤٢٢١/٢). قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح، رجاله ثقات، والحاكم (١٢٠/١). وصححه ووافقه الذهبي.
(٣) الفتح (٣٤٣/٥).

الأرض»: لأن الإضافة للتشريف، وأنهم بمكان ومنزلة عالية عند الله، وهو أيضاً كالتركية من رسول الله ﷺ لأمته وإظهار عدالتهم بعد أداء شهادتهم لصاحب الجنائز، فينغي أن يكون لها أثر ونفع في حقه، وأن الله تعالى يقبل شهادتهم، ويصدق ظنونهم في حق المثني عليه كرامة لهم، وتفضلاً عليهم؛ كالدعاء والشفاعة، فيوجب لهم الجنة والنار على سبيل الوعد والوعيد؛ لأن وعده حق لا بد من وقوعه، فهو كالواجب إذ لا أثر للعمل ولا الشهادة في الوجوب، وإلى معنى الحديث يرمز قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: جعلناكم عدولاً خيار الشهود؛ لتشهدوا على غيركم، ويكون الرسول رقيباً عليكم ومزكياً لكم وبين عدالتكم. . . وقال: والأظهر أن هذا أمر غالبي، فإن الله تعالى ينطق بالألسنة في حق كل إنسان بما يعلمه من سريرته التي لا يطاع عليها غيره، ولذا قيل: ألسنة الخلق أقلام الحق، وليس المراد أن من خلق للجنة يصير للنار بقولهم، ولا عكسه، إذ قد يقع عليه الثناء بالخير أو الشر، وفي باطن الأمر خلافه، وإنما المراد أن الثناء علامة مطابقة للواقع غالباً والله أعلم.

قال المظهر: ليس معنى قوله -عليه الصلاة والسلام- «أنتم شهداء الله» أن ما يقول الصحابة والمؤمنون في حق شخص من استحقاقه الجنة أو النار؛ يكون كذلك؛ لأن من يستحق الجنة لا يصير من أهل النار بقولهم، ولا من يستحق النار يصير من أهل الجنة بقولهم، بل معناه: أن الذي أثنوا عليه خيراً رأوا منه الصلاح والخيرات في حياته، والخيرات والصلاح علامة كون الرجل من أهل الجنة، والذي أثنوا عليه شراً رأوا منه الشر والفساد، والشر والفساد من علامة النار، ألا ترى أنه لا يجوز أن يقطع بكون أحد من أهل الجنة، أو من أهل النار، وإن شهد له جماعة كثيرة، بل يرجى الجنة لمن شهد له بالخير، ويخاف النار لمن شهد له جماعة بالشر»^(١).

قال خطاب السبكي: «يعني أن الله يقبل شهادة المؤمنين بعضهم على بعض ويحكم بمقتضاها، ويحتمل أن هذا خاص بالصحابة رضي الله عنهم؛ لأنهم كانوا ينطقون

(١) المرقاة (٤/١٥٠-١٥١).

بالصدق والحكمة لعدالتهم، ومثلهم من كان على صفتهم من المؤمنين الأتقياء، فالمعول عليه في ذلك شهادة أهل الفضل والصلاح والصدق والأمانة، بخلاف الفسقة لأنهم قد يذكرون أهل الفسق بالخير، وأهل الفضل والصلاح بالشر، فليسوا داخلين في هذا الحديث، ومصدق هذا الحديث قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: جعلناكم عدولاً خياراً، تشهدون على غيركم من الأمم، ويكون الرسول مذكياً لكم، مبيّناً عدالتكم، وفي الحديث تزكية من النبي ﷺ لأئمة، وإظهار عدالتهم، وأن لشهادة المؤمنين مدخلا في نفع المشهود له، وضرر المشهود عليه، فإن قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وجبت» بعد الثناء؛ حكم عقب وصف مناسب مشعر بالعلية، ويؤيده ما رواه البخاري عن عمر أن النبي ﷺ قال: «أيما مسلم شهد له أربعة بخير؛ أدخله الله الجنة»، فقلنا: وثلاثة؟ قال: «وثلاثة»، فقلنا: واثنان؟ فقال: «واثنان»، ثم لم نسأله عن الواحد..

ودل الحديث على جواز ذكر الميت بما فيه من خير أو شر، وعلى نجاة من شهد له الصالحون بالخير، ومحله إذا شهدوا بما يعلمون منه بحسب ظاهر حاله، فما يفعله كثير من أهل زماننا من قول بعضهم بعد الصلاة على الميت: ما تشهدون فيه؟ ويريد بذلك الثناء عليه بخير ولو كان من الفاسقين، فيقولون: هو من أهل الخير والصلاح!! ولو لم يكن الميت كذلك، وربما أوقعت كثيراً من الناس في شهادة الزور؛ بدعة مخالفة لهديه ﷺ، ودل الحديث على مظنة تعذيب من ذكره الصالحون بشرّ على حسب علمهم، ولا يكون ذلك من الغيبة المحرمة، بل يباح ذلك للتحذير من سلوك طريق أهل الفساد، والافتداء بهم والتخلق بأخلاقهم^(١).

وقال ابن تيمية: «والشهداء على الناس لا بد أن يكونوا عالمين عادلين كالرسول، ولهذا قال في الجنائز: «وجبت، وجبت» وقال: «أنتم شهداء الله في الأرض» وقال: «توشكوا أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار بالثناء الحسن والثناء السيئ» فعلم أن شهادتهم مقبولة فيما يشهدون عليه من الأشخاص والأفعال؛ ولو

(١) المنهل العذب المورود (٩١/٩-٩٣).

كانوا قد يشهدون بما ليس بحق؛ لم يكونوا شهداء مطلقاً»^(١).

وقال: «ولهذا لما كان أهل السنة والجماعة الذين مَحَضُوا الإسلام ولم يشوبوه بغيره؛ كانت شهادتهم مقبولة على سائر فرق الأمة، بخلاف أهل البدع والأهواء كالخوارج والروافض، فإن بينهم من العداوة والظلم ما يخرجهم عن كمال هذه الحقيقة التي جعلها الله لأهل السنة، قال النبي ﷺ فيهم: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»^(٢)»^(٣).

وقال ابن القيم: «وهؤلاء شهداء الله على الناس يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾» فإنهم قاموا بشروط الشهادة، وهي العلم والعدل، فإن الشاهد لا يكون مقبولاً حتى يكون عالمًا بما يشهد له، عدلاً في نفسه، ولم يكن الله سبحانه ليجمع شهادة هؤلاء الذين هم ورثة رسوله وأنصار دينه، ولهم لسان الصدق في الأمة على باطل وزور، وتكون شهادة اتباع أهل الفلسفة الصابئين والمشركين، وشهادة الجهمية الجاحدين لصفات رب العالمين، وكلامه وعلوه على خلقه وأوقاح المعتزلة وأفراخ المجوس وأمثالهم؛ هي المقبولة عند الله، وهي شهادة الحق بل هؤلاء هم المشهود عليهم بين يدي الله، فإنهم خصماؤه وخصماء وحيه ورسوله، حيث نسبوا كلامه وكلام رسوله إلى ما لا يليق به، وظنوا به أسوأ الظن، واعتقدوا أن ظاهره باطل ومحال وتشبيهه وضلال، فكيف يقبل أحكم الحاكمين وأعدل العادلين شهادة هؤلاء المتهوكين المتجبرين، على حزبه وأنصاره وأنصار كتابه وسنة رسوله، الذين قدموا كتابه وسنة رسوله على كل ما خالفهما، ولم يقدموا ما خالفهما عليهما، وتركوا الآراء الباطلة والمعتقدات السخيفة لهما، ولم يتركوهما لأجلها، وقرروا بالعقل

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/٥٠١).

(٢) أخرجه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص ٢٩) وابن عبد البر في التمهيد [فتح البر: المقدمة (ص ٦٥-

٦٦)] والعقبلي في الضعفاء (٤/٢٥٦) وغيرهم من حديث أبي هريرة وغيره. وانظر تحقيق جمال محمد السيد

على «البدر المنير» (١/٢١٥) فقد حسنه بمجموع طرقه وشواهده.

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/٢٩٨).

الصريح صحة ما جاء به الرسول، ولم يقرأوا بالعقل الفاسد بطلان ما جاء به، وأنه مخالف للعقل الصريح، ورأوا أن اليقين كل اليقين مستفاد من كلام الله ورسوله، ولم يقولوا إنه لا يستفاد منه علم ولا يقين، ورأوا أن ما أخبر به عن أسمائه وصفاته وأفعاله حقيقة، ولم يقولوا إنه مجاز لا حقيقة له، فأَيَ الفريقين أحق بالعلم والعدالة وقبول الشهادة عند الله وعند ملائكته وعند جميع المؤمنين؟ وأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟»^(١).

قلت: هذا الذي أشار إليه العلامة ابن القيم رحمته الله في أهل الكلام والفلسفة؛ - الذين آثروا فكرهم وفهمهم على فهم السلف الصالح وردوا نصوص الوحي بقسميه - هو منهاج الكثيرين من المثقفين المعاصرين، انسلخوا عن منهاج السلف في الفهم والتطبيق، وقالوا: نحن أحق بالفهم والتوجيه، وما بلغنا من العلوم والفهم لم يكن للسلف عشر معشاره، فالواجب علينا أن نقطع صلتنا بالصحابة والتابعين ومن بعدهم، فرجولتنا أفضل من رجولتهم، ولغتنا أفصح من لغتهم، وحضارتنا أزخر من حضارتهم، فهم رعاة إبل وبقر وغنم ونحن أصحاب الصواريخ والمواصلات السريعة. . وغير ذلك من الهراء الذي يردده الكثير من سفهاء المثقفين، الذين رسموا لأنفسهم مناهج باطلة، وزعموا لها التأصيل والتقنين، وهذا باب واسع يعرفه من يعايش القوم ويقرأ كتبهم ومقالاتهم، ويستمع إلى محاضراتهم الباهتة التالفة. فترجو الله أن يعصمنا وأن يعيذ إخواننا من هذه المناهج الباطلة المحدثه، التي تبنت كل ساقط ولقيط، وكل فكر عفن باهت.

* عن زيد بن أسلم: أن عبد الملك بن مروان بعث إلى أم الدرداء بأنجاد من عنده، فلما أن كان ذات ليلة قام عبد الملك من الليل فدعا خادمه، فكأنه أبطأ عليه فلعنه. فلما أصبح قالت له أم الدرداء: سمعتك الليلة لعنت خادمك حين دعوته، فقالت: سمعت أبا الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»^(٢).

(١) الصواعق المرسله (٤/١٤٢٢-١٤٢٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤٤٨/٦) ومسلم (٤/٢٠٠٦) وأبو داود (٥/٢١١-٢١٢/٤٩٠٧).

* غريب الحديث:

أنجاد: جمع نَجَد بفتح النون والجيم وهو متاع البيت الذي يزينه من فرش ونمارق وستور.

* من فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وإنما خصّ اللعان بالذكر ولم يقل: اللاعن؛ لأن الصديق قد يلعن من أمره الشرع بلعنه، وقد يقع منه اللعن فلتة ونذرة ثم يراجع، وذلك لا يخرج من الصديقية، ولا يفهم من نسبتنا الصديقية لغير أبي بكر مساواة غير أبي بكر لأبي بكر رضي الله عنه في صديقته، فإن ذلك باطل بما قد علم: أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ. لكن المؤمنون الذين ليسوا بلعائن لهم حظ من تلك الصديقية، ثم هم متفاوتون فيها على حسب ما قسم لهم منها، والله تعالى أعلم»^(١).

قال النووي: «وأما قوله: «إنهم لا يكونون شفعاء ولا شهداء» فمعناه: لا يشفعون يوم القيامة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار. ولا شهداء، فيه ثلاثة أقوال:

أصحها وأشهرها: لا يكونون شهداء يوم القيامة على الأمم بتبليغ رسلهم إليهم الرسالات. والثاني: لا يكونون شهداء في الدنيا؛ أي: لا تقبل شهادتهم لفسقهم. والثالث: لا يرزقون الشهادة وهي القتل في سبيل الله»^(٢).

قال ابن القيم: «لأن اللعن إساءة، بل من أبلغ الإساءة، والشفاعة إحسان، فالمسيء في هذه الدار باللعن سلبه الله الإحسان في الأخرى بالشفاعة، فإن الإنسان إنما يحصد ما يزرع، والإساءة مانعة من الشفاعة التي هي إحسان، وأما منع اللعن من الشهادة فإن اللعن عداوة، وهي منافية للشهادة، ولهذا كان النبي ﷺ سيد الشفعاء، وشفيع الخلائق؛ لكمال إحسانه ورأفته ورحمته بهم ﷺ»^(٣).

* * *

(٢) شرح مسلم (١٦/١٢٣).

(١) المفهم (٦/٥٨٠).

(٣) بدائع الفوائد (٣/٢٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْفِتْنَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾^(١)

★ غريب الآية:

عقبه: العقب: مؤخر القدم، والمعنى: يرجع القهقري وينكص عن الحق.
ليضيع: الإضاعة: الإبطال، من أضاع يُضيع الشيء إذا أهדרه وأبطله،
والمعنى: ليبطل إيمانكم، وأصل الضياع: الهلاك.

رؤوف: الرأفة: أشد الرحمة، قال ابن مالك الأنصاري:

نُطِيعُ نَبِينَا وَنُطِيعُ رَبًّا هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بِنَا رُؤُوفًا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْفِتْنَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ الآية، ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً؛ بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون، وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه، بقوله -جل وعلا-: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٢) فقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾؛ دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالماً به، ﷺ عن ذلك علواً كبيراً؛ لأن العليم بذات الصدور غني عن الاختبار، وفي هذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التي يذكر الله فيها اختباره لخلقه، ومعنى ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: علماً يترتب عليه الثواب والعقاب، فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس، أما عالم السر والنجوى فهو عالم بكل ما سيكون كما لا يخفى، وقوله: ﴿مِمَّنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ أشار إلى أن الرسول هو محمد ﷺ بقوله مخاطباً له: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْفِتْنَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾

(٢) آل عمران: الآية (١٥٤).

(١) الآية (١٤٣).

الآية؛ لأن هذا الخطاب له إجماعاً»^(١).

قال ابن كثير: «إنما شرعنا لك -يا محمد- التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبه؛ أي: مرتداً عن دينه ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي هذه الفعل، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة؛ أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس، إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة، والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً، كما يحصل للذين آمنوا إيقاناً وتصديقاً»^(٢).

قال شيخ الإسلام: «فبين سبحانه أن من حكمة نسخ القبلة وتغييرها؛ مخالفة الناس الكافرين في قبلتهم؛ ليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل، ومعلوم أن هذا المعنى ثابت في كل مخالفة وموافقة، فإن الكافر إذا اتبع في شيء من أمره؛ كان له في الحجة مثل ما كان أو قريب مما كان لليهود من الحجة في القبلة»^(٣).

قلت: فلهذا در شيخ الإسلام إذ أتى بعلوم استفادها من الكتاب والسنة، تبين مدى بعد نظره وفهمه العميق، الذي يريد به تشخيص الكتاب والسنة وأن يبقيا ماثلاً في كل شيء، وأن تبقى الأمة الإسلامية محافظة على عزها وشرفها؛ لأنها الأمة الأخيرة المتبوعة لا التابعة، والمتبوع دائماً يجمع صفة الكمال اللاتئة به، فلا يليق به أن يكون تابعا في يوم من الأيام، فلهذا أوجب الله متابعة الأنبياء والرسل، ومتابعة الكتب السماوية، ومتابعة أصحاب الأنبياء الذين قالوا بالحق وبه يعدلون. فكل هذه أصول تبين مدى أهمية المتابعة للمتبوع؛ لأنها أصل أصيل؛ فإن انقلبت الموازين وصار المتبوع تابعا، فهذا دلالة على الانحراف والوهن، فالإسلام دائماً هو المتبوع، وأهل الإسلام دائماً هم المتبوعون لا غيرهم، فالله -تبارك وتعالى- أنزل الشريعة كاملة وبعث إلى الناس خير خلقه، فلا حاجة لهم بغيره

(١) أضواء البيان (١/ ٨٧-٨٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٣٧).

(٣) الاقتضاء (١/ ٨٧).

في كل أوصاف المتابعة، فإن وقع ما يوافق الغير؛ فإن ذلك من أصول شريعتنا، وليس من غيرنا، فمن المستحيل أن يقول الله تعالى في كتابه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١) ويأتي من يقول: كنتم أضعف أمة أخرجت للناس. فالضعيف دائما هو التابع، والقوي دائما هو المتبوع، فما حرره شيخ الإسلام في كتابه القيم (اقتضاء الصراط المستقيم) فذلك على أصله، فهو الأصل الأصيل، الذي لا ينبغي أن يؤتى بغيره، ولهذا ضاعت الأمة وذابت صفاتها الحقيقية في غيرها، لما ضيعت هذا الأصل، وصار أبنائنا يحلقون نصف رؤوسهم، ويلبسون السلاسل الحديدية والذهبية والفضية في جميع أجسادهم، وصار البنات كل يوم لهن لون من اللباس لا أصل له ولا أساس إلا تبعية حمقاء، وتصرفات رعناء، لا تليق بالحيوان البهيم، بله من خلقه الله في أحسن تقويم، نسأل الله السلامة والعافية.

وقال ابن القيم: «وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس، ثم تحويلها إلى الكعبة؛ حكم عظيمة، ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين. فأما المسلمون فقالوا: سمعنا وأطعنا، وقالوا: ﴿أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾^(٢) وهم الذين هدى الله، ولم تكن كبيرة عليهم. وأما المشركون فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع إليها إلا أنه الحق. وأما اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء قبله، ولو كان نبيا لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء. وأما المنافقون فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجه، إن كانت الأولى حقا فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق؛ فقد كان على باطل، وكثرت أقاويل السفهاء من الناس، وكانت كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ وكانت محنة من الله امتحن بها عباده؛ ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه»^(٣).

قال شيخ الإسلام: «وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لِيَشُوا أَمَدًا﴾^(٤) ونحو ذلك، فهذا هو العلم الذي يتعلق بالمعلوم بعد وجوده، وهو العلم الذي

(١) آل عمران: الآية (١١٠).

(٢) زاد المعاد (٣/٦٦-٦٧).

(٣) الكهف: الآية (١٢).

(٤) آل عمران: الآية (٧).

يترتب عليه المدح والذم والثواب والعقاب، والأول هو العلم بأنه سيكون. ومجرد ذلك العلم لا يترتب عليه مدح ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب؛ فإن هذا إنما يكون بعد وجود الأفعال، وقد روي عن ابن عباس أنه قال في هذا: (لنرى) وكذلك المفسرون قالوا: لنعلمه موجودًا بعد أن كنا نعلم أنه سيكون، وهذا المتجدد فيه قولان مشهوران للنظار: منهم من يقول: المتجدد هو نسبة وإضافة بين العلم والمعلوم فقط، وتلك نسبة عدمية، ومنهم من يقول: بل المتجدد علم بكون الشيء وجوده، وهذا العلم غير العلم بأنه سيكون، وهذا كما في قوله: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(١) فقد أخبر بتجدد الرؤية، فقليل: نسبة عدمية، وقيل: المتجدد أمر ثبوتي... وعامة السلف وأئمة السنة والحديث على أن المتجدد أمر ثبوتي كما دل عليه النص، وهذا مما هجر أحمد بن حنبل الحارث المحاسبي على نفيه، فإنه كان يقول بقول ابن كلاب: فرّ من تجدد أمر ثبوتي، وقال بلوازم ذلك، فخالف من نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف ما أوجب ظهور بدعة اقتضت أن يهجره الإمام أحمد ويحذر منه، وقد قيل: إن الحارث رجع عن ذلك، والمتأخرون من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة؛ على قولين: منهم من سلك طريقة ابن كلاب وأتباعه، ومنهم من سلك طريقة أئمة السنة والحديث، وهذا مبسوط في موضعه، والمقصود هنا: أن تقدم علم الله وكتابته لأعمال العباد حق، والقول بحدوث ذلك قول مهجور... وليس في ذلك ما ينافي أمر الله ونهيه؛ فإن كونه خالقًا لأفعال العباد لا ينافي الأمر والنهي، فكيف العلم المتقدم، وليس في ذلك ما يقتضي كون العبد مجبورًا لا قدرة له ولا فعل؛ كما تقوله الجهمية المجبرة^(٢).

(١) سورة النوبة: الآية (١٠٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/٤٩٦-٤٩٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

من مبادرة الصحابة لأمر الله ورسوله فور وصوله إليهم

* عن ابن عمر رضي الله عنهما: بينما الناس يصلون الصبح في مسجد قباء؛ إذ جاء جاء فقال: أنزل الله على النبي ﷺ قرآنا: أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، فتوجهوا إلى الكعبة^(١).

* عن البراء بن عازب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده -أو قال: أخواله- من الأنصار، وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس وأهل الكتاب، فلما ولي وجهه قبل البيت أنكروا ذلك^(٢).

★ من فوائد الحديثين:

قال ابن حجر: «فيه أن ما يؤمر به النبي ﷺ يلزم أمته، وأن أفعاله يتأسى بها من أقواله حتى يقوم دليل الخصوص»^(٣).

قال ابن كثير: «وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلي بين الركنتين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، قاله ابن عباس والجمهور. ثم اختلف هؤلاء هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره؟ على قولين، وحكى القرطبي في تفسيره عن عكرمة وأبي العالية والحسن البصري: أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده ﷺ، والمقصود أن التوجه إلى بيت المقدس بعد

(١) أحمد (١٦-١٥/٢) والبخاري (٤٤٨٨/٢١٩/٨) ومسلم (٥٢٦/٣٧٥/١) والترمذي (٣٤١/١٧٠/٢).

مختصرا، (١٩١-١٩٢/٢٩٦٣) مختصرا. والنسائي (٤٩٢/٢٦٥/١).

(٢) البخاري (١٢٨-١٢٩/٤٠) ومسلم (٥٢٥/٣٧٤/١) والنسائي (٤٨٨/٢٦٣/١).

(٣) الفتح (٦٧٧/١).

مقدمه ﷺ المدينة، واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهرًا، وكان يكثر الدعاء والابتهاال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام، فأجيب إلى ذلك، وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق، فخطب رسول الله ﷺ الناس فأعلمهم بذلك، وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر، كما تقدم في الصحيحين من رواية البراء، ووقع عند النسائي من رواية أبي سعيد بن المعلى أنها الظهر^(١) وقال: كنت أنا وصاحبي أول من صلى إلى الكعبة، وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم: أن تحويل القبلة نزل على رسول الله ﷺ وقد صلى ركعتين من الظهر، وذلك في مسجد بني سلمة، فسمي مسجد القبلتين، وفي حديث نويلة بنت مسلم: أنهم جاءهم الخبر بذلك وهم في صلاة الظهر، قالت: فتحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمري، وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما^(٢).

* * *

(١) أخرجه النسائي (٢/٣٨٧/٧٣١) وفي الكبرى (٦/٢٩١/١١٠٠٤) وضعف إسناده الشيخ الألباني في ضعيف النسائي (ص: ٢٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٣٣٣-٣٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «أي صلاتكم إلى بيت المقدس على الأصح، ويستروح ذلك من قوله قبله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ الآية، ولا سيما على القول باعتبار دلالة الاقتران، والخلاف فيها معروف في الأصول»^(٢).

وقال ابن جرير: «فمعنى قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ - على ما تظاهرت به الرواية من أنه الصلاة - وما كان الله ليضيع تصديق رسوله ﷺ، بصلاتكم التي صليتموها نحو بيت المقدس عن أمره؛ لأن ذلك كان منكم تصديقاً لرسولي، واتباعاً لأمري، وطاعة منكم لي.

قال: (وإضاعته إياه) - جل ثناؤه - لو أضاعه: ترك إثابة أصحابه وعامله عليه، فيذهب ضياعاً، ويصير باطلاً، كهيئة (إضاعة الرجل ماله)، وذلك إهلاكه إياه فيما لا يعتاض منه عوضاً في عاجل ولا آجل. فأخبر الله - جل ثناؤه - أنه لم يكن يبطل عمل عامل عمل له عملاً وهو له طاعة، فلا يثيبه عليه، وإن نسخ ذلك الفرض بعد عمل العامل إياه على ما كلفه من عمله.

فإن قال قائل: وكيف قال الله - جل ثناؤه -: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾، فأضاف الإيمان إلى الأحياء المخاطبين، والقوم المخاطبون بذلك إنما كانوا أشفقوا على إخوانهم الذين كانوا ماتوا وهم يصلون نحو بيت المقدس، وفي ذلك من أمرهم أنزلت هذه الآية؟

قيل: إن القوم وإن كانوا أشفقوا من ذلك، فإنهم أيضاً قد كانوا مشفقين من حبوط ثواب صلاتهم التي صلوها إلى بيت المقدس قبل التحويل إلى الكعبة، وظنوا أن عملهم ذلك قد بطل وذهب ضياعاً؟ فأنزل الله - جل ثناؤه - هذه الآية حينئذ،

(٢) أضواء البيان (١/ ٨٧-٨٨).

(١) البقرة: الآية (١٤٣).

فوجه الخطاب بها إلى الأحياء ودخل فيهم الموتى منهم؛ لأن من شأن العرب -إذا اجتمع في الخبر المخاطب والغائب- أن يغلبوا المخاطب فيدخل الغائب في الخطاب. فيقولوا لرجل خاطبوه على وجه الخبر عنه وعن آخر غائب غير حاضر: (فعلنا بكما وصنعنا بكما)، كهيئة خطابهم لهما وهما حاضران، ولا يستجيزون أن يقولوا: (فعلنا بهما)، وهم يخاطبون أحدهما، فيردوا المخاطب إلى عداد الغيب^(١).

وقال السعدي: «أي ما ينبغي له ولا يليق به تعالى، بل هو من الممتنعات عليه، ومستحيل أن يضيع إيمانكم. وفي هذا بشارة عظيمة لمن من الله عليهم بالإسلام والإيمان؛ بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم فلا يضيعه، وحفظه نوعان:

حفظ عن الضياع والبطلان، بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيد له ومنقص من المحن المقلقة والأهواء الصادة. وحفظ بتنميته لهم، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم ويتم به إيقانهم. فكما ابتدأكم، بأن هداكم للإيمان، فسيحفظه لكم، ويتم نعمته، بتنميته وتنمية أجره، وثوابه، وحفظه من كل مكدر، بل إذا وجدت المحن المقصود منها؛ تبين المؤمن الصادق من الكاذب، فإنها تمحص المؤمنين وتظهر صدقهم... ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة، فإن الله لا يضيع إيمانهم، لكونهم أمثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله أمثال أمره في كل وقت بحسب ذلك. وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة؛ أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الأعمال من الإيمان

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما وجه النبي ﷺ إلى الكعبة قالوا: يا رسول الله! كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾^(٣).

(١) جامع البيان (٣/ ١٦٠-١٧٩ تحقيق شاكر). (٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٦١-١٦٢).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٥) وأبو داود (٥/ ٥٩-٦٠/ ٤٦٨٠) والترمذي (٥/ ١٩٢/ ٢٩٦٤) وقال: حسن صحيح.

وصححه ابن حبان (الإحسان ٤/ ٦٢٠-٦٢١/ ١٧١٧) والحاكم (٢/ ٢٦٩) ووافقه الذهبي.

وللحديث شاهد عند البخاري (١/ ١٢٨-١٢٩/ ٤٠) والطائفي (٧٢٢) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

★ من فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «هذه الآية أقطع الحجج للجهمية والمرجئة في قولهم: إن الفرائض والأعمال لا تسمى إيماناً، وقولهم خلاف نص التنزيل؛ لأن الله سمي صلاتهم إلى بيت المقدس إيماناً، ولا خلاف بين أهل التفسير أن هذه الآية نزلت في صلاتهم إلى بيت المقدس، ومثل هذه الآية قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» (٢) حتى الزكاة، وفي تسميته لهم مؤمنين فإن كانوا للصلاة عاملين، وللزكاة مؤدين، فما وجب به أن تكون الصلاة والزكاة إيماناً؛ لأن المسمى مؤمناً بعمله لشيء يوجب أن يسمى ذلك الشيء إيماناً، ومثله أيضاً قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (٣) فسماهم مؤمنين بإيمانهم بالله ورسوله، وألا يذهبوا إذا كانوا مع نبيهم حتى يستأذنه، واستئذانهم له عمل مفترض عليهم، سموا به مؤمنين كما سموا بإيمانهم بالله ورسوله» (٤).

قال ابن عبد البر: «ومن الدلائل على أن الإيمان قول وعمل - كما قالت الجماعة والجمهور -؛ قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ لم يختلف المفسرون أنه أراد صلاتكم إلى بيت المقدس، فسمى الصلاة إيماناً، ومثل هذا قوله: ﴿يَسَّ أَلَيْسَ أَلَيْسَ أَنْ تَوَلَّوْا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ أَلَيْسَ أَلَيْسَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٥)، وأما من السنة فكثير جداً» (٦).

قال ابن رجب: «وأنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان إنكاراً شديداً، وممن أنكر ذلك على قائله، وجعله قولاً محدثاً: سعيد بن جبير، وميمون ابن مهران، وقتادة، وأيوب السختياني، وإبراهيم النخعي، والزهري، ويحيى بن أبي كثير، وغيرهم، وقال الثوري: هو رأي محدث، أدركننا الناس على غيره، وقال الأوزاعي: كان من مضى ممن سلف لا يفرقون بين الإيمان والعمل، وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى أهل الأمصار: (أما بعد، فإن للإيمان فرائض وشرائع، وحدوداً وستناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان).

(١) الأنفال: الآيتان (٢) و (٣).

(٢) التور: الآية (٦٢).

(٣) شرح البخاري (١/٩٧-٩٨).

(٤) البقرة: الآية (١٧٧).

(٥) التمهيد [فتح البر (١/٤٣٨-٤٣٩)].

ذكره البخاري في صحيحه^(١)»^(٢).

قلت: ما أشار إليه العلامة ابن رجب، من أقوال السلف في دخول الأعمال في مسمى الإيمان، هو الذي يوافق حكمة نزول القرآن وبعثة النبي ﷺ، فلا إسلام بدون عمل، فالعمل هو الدليل الصادق على الإيمان، كما بين ذلك أئمة السلف -رحمهم الله-؛ فإن الله تعالى ربط الإيمان في القرآن بالأعمال في كثير من الآيات ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾^(٣)، و«الإيمان بضع وستون شعبة...»^(٤)، فلا إيمان بدون عمل.

والدعاوى ما لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء
فالبحث في هذا الموضوع بحث جدلي لا خير فيه، والله -تبارك وتعالى- فرض الصلاة من فوق سبع سموات، وجعلها مقارنة لمعراجة ﷺ وإسرائه؛ لمن أكبر الدلالات على أهميتها ومكانتها، والصيام ذكره الله عن الأمم السابقة وربطنا به، وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة، والزكاة حق في المال توعد الله -تبارك وتعالى- من تركه، والحج اشترك فيه أهل الجاهلية وأهل الإسلام، وهو من بقايا دين إبراهيم في الجزيرة، وأنزل الله الأمر به في آيات من كتابه، وبينه النبي ﷺ أحسن البيان، وحشد له الألوف المؤلفة، ونادى فيه من كل مكان، فكانت مسيرة تاريخية قادها الرسول ﷺ، وهكذا كل عمل صالح، فريضة كان أو مستحبًا، فبه يعلمو شأن المسلم، ويزداد إيمانه، ويصقل قلبه وتكمل إمامته، فينبغي لأهل الإسلام جميعًا أن تكون دعوتهم بالإيمان والعمل، أمرًا واحدًا لا ينفصل، فما جرأ الفساق على الله، وزهد الناس في اتباع النبوة والرسالة حتى أبعدوا الحكم بما أنزل الله من مجتمعاتهم وقضاياهم إلا هذا الفكر الضال، الذي أحدثه من لا يريد

(١) أخرجه البخاري تعيقاً (٦٣/١)، ووصله ابن أبي شيبة في: الأيمان (ح: ١٣٥)، وقال الحافظ في التلخيص (٢٠/٢): وهو إسناد صحيح رجاله ثقات.

(٢) جامع العلوم والحكم (١٠٤/١).

(٣) النحل: الآية (٩٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٤١٤/٢)، والبخاري (٩/٧١/١)، ومسلم (٣٥/٦٣/١)، وأبو داود (٥٦-٥٥/٥/٥٦٧٦)، والترمذي (٢٦١٤/٤١٢/٥)، والنسائي (٥٠٢٠/٤٨٤/٨)، وابن ماجه (٥٧/٢٢/١) من حديث أبي هريرة ؓ.

للإسلام خيراً، من أهل الإرجاء على اختلاف مشاربهم، فتركت الصلاة ومنعت الزكاة وانتهكت حرمة رمضان، بسبب هذا الفكر الخبيث، وتجراً الناس على المعاصي والموبقات، بل وتساهلوا في إحداث البدع والعمل بها، فعم الفساد واستشرى في الأمة. فإننا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رءِيمٌ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «ويعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رءِيمٌ﴾ أن الله بجميع عباده ذو رأفة، والرأفة أعلى معاني الرحمة، وهي عامة لجميع الخلق في الدنيا، ولبعضهم في الآخرة، وأما الرحيم فإنه ذو الرحمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة، على ما قد بينا فيما مضى قبل، وإنما أراد -جل ثناؤه- بذلك؛ أن الله ﷻ أرحم بعباده من أن يضيع لهم طاعة أطاعوه بها، فلا يثيبهم عليها، وأرأف بهم من أن يؤاخذهم بترك ما لم يفرضه عليهم؛ أي: ولا تأسوا على موتاكم الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس، فإني لهم على طاعتهم إياي بصلاتهم التي صلوها كذلك مثيب؛ لأنني أرحم بهم من أن أضيع لهم عملا عملوه لي، ولا تحزنوا عليهم فإني غير مؤاخذهم بتركهم الصلاة إلى الكعبة؛ لأنني لم أكن فرضت ذلك عليهم، وأنا أرأف بخلقهم من أن أعاقبهم على تركهم ما لم أمرهم بعمله»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفتي الرأفة والرحمة

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(٢).

* غريب الحديث:

السبي: أخذ الناس عبيداً وإماء. من سبا العدو سبياً: أسره.

(١) جامع البيان (٣/١٧٠-١٧١) شاكر.

(٢) أخرجه: البخاري (١٠/٥٢٣/٥٩٩٩) ومسلم (٤/٢١٠٩/٢٧٥٤).

★ من فوائد الحديث:

قال ابن حجر - نقلاً عن ابن أبي جمرة - : «فيه إشارة إلى أنه ينبغي للمرء أن يجعل تعلقه في جميع أموره بالله وحده، وأن كل من فرض أن فيه رحمة ما حتى يقصد لأجلها؛ فالله ﷻ أرحم منه، فليقصد العاقل لحاجته من هو أشد له رحمة»^(١).

وقال شيخ الإسلام: «فبين أن الله أرحم بعباده من أرحم الوالدات بولدها، فإنه من جعلها رحمة أرحم منها، وهذا مما يدل عليه قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾»^(٢) وقولنا: الله أكبر، فإنه سبحانه أرحم الراحمين، وخير الغافرين، وخير الفاتحين، وخير الناصرين، وأحسن الخالقين، وهو نعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير، وهذا يقتضي حمدا مطلقا على ذلك، وأنه كافي من توكل عليه، وأنه يتولى عبده تولى حسنا، وينصره نصرا عزيزا، وذلك يقتضي أنه أفضل وأكمل من كل ما سواه، كما يدل على ذلك قولنا: الله أكبر»^(٣).

★ تنبيه: تقدم الكلام على صفة الرحمة في سورة الفاتحة.

(٢) العلق: الآية (٣).

(١) الفتح (٥٢٩/١٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٤٤٨/١٦-٤٤٩).

قوله تعالى: ﴿قَدْ زَرَى ثَقَلُْبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾

★ غريب الآية:

ثَقَلُْبَ: الثقل: التحول، والمعنى: تحرك وجهك في الجهات.
شَطْرَ: الشطر: الجهة والناحية؛ أي: من جهة، والشطر من الأضداد، يقال: شطر إلى كذا: إذا أقبل نحوه، وشَطَرَ عن كذا، إذا بَعَدَ منه وأعرض عنه، وشَطَرُ الشيء: نصفه، ومنه الحديث: «الطهور شَطْرُ الإيمان»^(١).

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾؛ بيّنه قوله بعده: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية»^(٢).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر، فإنه يصليها حيثما توجه قلبه، وقلبه نحو الكعبة، وكذا في حال المسابقة في القتال، يصلي على كل حال، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده، وإن كان مخطئاً في نفس الأمر؛ لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها»^(٣).

(١) أخرجه: أحمد (٣٤٢/٥) ومسلم (٢٢٣/٢٠٣/١) والترمذي (٣٥١٧/٥٠١/٥) والنسائي (٢٤٣٦/٨/٥) وابن ماجه (١٠٢/١-٢٨٠/١٠٣) من حديث أبي مالك الأشعري.

(٢) الأضواء (٨٨/١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٤٠/١).

وقال القاسمي: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي تردد وجهك وتصرف نظرك في جهة السماء؛ تشوقاً لنزول الوحي بالتحويل، قالوا: وفي ذلك تنبيه على حسن أدبه حيث انتظر ولم يسأل، وهذا ألطف مما قيل: إن ثقلب وجهه كناية عن دعائه، ولا مانع أن يراد بثقلب وجهه ﷺ بالتحويل، ففيه إعلام بما جعله تعالى من اختصاص السماء بوجه الداعي، وهذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة؛ فهي متقدمة في المعنى، فإنها رأس القصة، ﴿فَلَنَوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أي: لنعطينك أو لنوجهنك إلى قبلة تحبها وتميل إليها، ودلّ على أن مرضيته الكعبة بقاء السبب في قوله: ﴿قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي نحوه وجهته، والتعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة دون العين، ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي: حيثما كنتم في برّ أو بحر فولوا وجوهكم في الصلاة تلقاء المسجد، وأما سرّ الأمر بالتولية خاصاً وعمماً؛ فقال الراغب: أما خطابه الخاص فتشريعاً له وإيجاباً لرغبته، وأما خطابه العام بعده؛ فلأنه كان يجوز أن يعتقد أن هذا أمر قد خصّ ﷺ به، كما خص في قوله: ﴿قُرْ أَيْلَ﴾^(١) ولأنه لما كان تحويل القبلة أمراً له خطر؛ خصهم بخطاب مفرد، ليكون ذلك أبلغ، وليكون لهم في ذلك تشریف، ولأن في الخطاب العام تعليق حكم آخر به، وهو أنه لا فرق بين القرب والبعد في وجوب التوجه إلى الكعبة^(٢).

وقال السعدي: «يقول الله لنبيه: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: كثرة تررده في جميع جهاته، شوقاً وانتظاراً لنزول الوحي باستقبال الكعبة. وقال: ﴿وَجْهِكَ﴾ ولم يقل (بصرك) لزيادة اهتمامه، ولأن ثقلب الوجه مستلزم لتقليب البصر. ﴿فَلَنَوَلِّيَنَّكَ﴾ أي: نوجهك لولايتنا إياك. ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أي: تحبها، وهي الكعبة. وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن الله تعالى: يسارع في رضاه، ثم صرح له باستقبالها فقال: ﴿قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان. ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ أي: من بر وبحر، وشرق وغرب، جنوب وشمال. ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي: جهته.

(١) سورة المزمل: الآية (٢).

(٢) محاسن التأويل (٢/ ٣٠٠-٣٠١).

ففيها اشتراط استقبال الكعبة ، للصلوات كلها ، فرضها ونفلها ، وأنه إن أمكن استقبال عينها ، وإلا فيكفى شطرها وجهتها .

وأن الالتفات بالبدن ، مبطل للصلاة ؛ لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده^(١) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن استقبال القبلة

شرط في الصلاة بالإجماع

* عن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ كان يصلي نحو بيت المقدس فنزلت : ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فمرّ رجل من بني سلمة وهم ركوع في صلاة الفجر -وقد صلوا ركعة- فنادى : ألا إن القبلة قد حولت ، فمالوا كما هم نحو القبلة^(٢) .

* عن أنس رضي الله عنه قال : لم يبق ممن صلى القبليتين غيري^(٣) .

* من فوائد الحديثين:

قال الخطابي : «فيه دليل على أن كل شيء له أصل صحيح في التعبد ، ثم طرأ عليه الفساد قبل أن يعلم صاحبه به ؛ فإن الماضي منه صحيح ، وذلك مثل أن يجد المصلي بثوبه نجاسة لم يكن علمها حتى صلى ركعة ، فإنه إذا رأى النجاسة ألقاها عن نفسه ، وبنى على ما مضى من صلاته»^(٤) .

قال العيني : «مطابقته للآية تؤخذ من قوله : (ممن صلى القبليتين) لأن الآية مشتملة على أمر القبليتين»^(٥) .

* عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رجلاً دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس في ناحية المسجد ، فصلّى ثم جاء فسلم عليه ، فقال له رسول الله ﷺ : «وعليك السلام ، ارجع فصل فإنك لم تصل» فرجع فصلّى ، ثم جاء فسلم ، فقال : «وعليك السلام ، فارجع

(١) تفسير السعدي (١/١٦٣) .

(٢) أخرجه : أحمد (٣/٢٨٤) ومسلم (١/٣٧٥/٥٢٧) وأبو داود (١/٦٣٣/١٠٤٥) والنسائي في الكبرى (٦/

١١٠٠٨/٢٩٢) .

(٣) البخاري (٨/٢١٩/٤٤٨٩) النسائي في الكبرى (٦/٢٩٢/١١٠٠٥) .

(٤) عمدة القاري (١٢/٤٣٢) .

(٥) معالم السنن (١/٢٠٩) .

فصل فإنك لم تصل» فقال في الثانية -أو في التي بعدها- : علمني يا رسول الله ! فقال : «إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة فكبر ، ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ، ثم ارفع حتى تستوي قائماً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها»^(١).

* عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يصلي على راحلته حيث توجهت ، فإذا أراد الفريضة نزل فاستقبل القبلة .^(٢)

★ من فوائد الحديثين:

قوله : «ثم استقبل القبلة» قال الصنعاني : «دل على إيجاب استقبال القبلة قبل تكبيرة الإحرام»^(٣).

قال أبو عمر : «وأجمع العلماء أن القبلة التي أمر الله نبيه وعباده بالتوجه نحوها في صلاتهم ؛ هي الكعبة البيت الحرام بمكة ، وأنه فرض على كل من شاهدها وعانيتها استقبالها ، وأنه إن ترك استقبالها وهو معان لها ، أو عالم بجهتها ؛ فلا صلاة له ، وعليه إعادة كل ما صلى كذلك .

وأجمعوا : على أنه من صلى إلى غير القبلة من غير اجتهاد حمله على ذلك ؛ أن صلاته غير مجزئة عنه ، وعليه إعادتها إلى القبلة ؛ كما لو صلى بغير طهارة ، وفي هذا المعنى حكم من صلى في مسجد يمكنه طلب القبلة فيه بالمحراب وشبهه فلم يفعل ؛ وصلى إلى غيرها ، وأجمعوا : أن على كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاها ، وعلى أن على من خفيت عليه ناحيتها ؛ الاستدلال عليها بكل ما يمكنه من النجوم ، والجبال ، والرياح ، وغير ذلك ؛ مما يمكن أن يستدل به على ناحيتها»^(٤).

(١) أخرجه أحمد (٤٣٧/٢) والبخاري (٦٢٥١/٤٣/١١) ومسلم (٣٩٧/٢٩٨/١) وأبو داود (٥٣٤-٥٣٥/٨٥٦) والترمذي (٣٠٣/١٠٤-١٠٣/٢) والنسائي (٨٨٣/٤٦١/٢) وابن ماجه (٣٣٦-٣٣٧/٣٣٧-١٠٦٠).
(٢) أخرجه : أحمد (٣٧٨/٣) والبخاري (٤٠٠/٦٦٣/١) وأخرجه بنحوه أبو داود (١٢٢٧/٢٢/٢) والترمذي (٣٠٧/١) السبل.
(٣) (٣٥١/١٨٢/٢).

(٤) فتح البر (٣٠٤/٤).

وقال ابن بطال: «قال المهلب: هذه الأحاديث تخص قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وتبين أن معناه في المكتوبات وما كان من النوافل في الأرض، وتفسر قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَوْنَ فَنُصِرْ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أن ذلك في النافلة على الدابة»^(١).

قال الشوكاني: «وأما وجوب استقبال الكعبة على المشاهد ومن في حكمه؛ فلأنه قد تمكّن من اليقين، فلا يعدل عنه إلى الظن، والأحاديث المتواترة مصرّحة بوجوب الاستقبال، بل هو نص القرآن الكريم ﴿قَوْلِ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وعلى ذلك أجمع المسلمون، وهو قطعي من قطعيات الشريعة.

وأما كون فرض غير المشاهد ومن في حكمه استقبال الجهة؛ فلأن ذلك هو الذي يمكنه ويدخل تحت استطاعته، ولم يكلفه الله تعالى ما لا يطيق؛ كما صرح بذلك في كتابه العزيز، وقد جعل النبي ﷺ ما بين المشرق والمغرب قبلة، كما في حديث أبي هريرة عند الترمذي وابن ماجه^(٢)، وورد مثل ذلك عن الخلفاء الراشدين، وقد استقبل النبي ﷺ الجهة بعد خروجه من مكة، وشرع للناس ذلك»^(٣).

وقال القنوجي: «استقبال القبلة هو من ضروريات الدين، فمن أمكنه استقبال القبلة تحقيقاً، فذلك الواجب عليه، مثل القاطن حولها المشاهد لها، من دون قطع مسافة، ولا تجشم مشقة، ومن لم يكن كذلك ففرضه استقبال الجهة، وليس المراد من تلك الجهة الكعبة على الخصوص، بل المراد ما أرشد إليه ﷺ من كون بين المشرق والمغرب قبلة، فمن كان في جهات اليمن، وعرف جهة المشرق، وجهة المغرب؛ توجّه بين الجهتين، فإن تلك الجهة هي القبلة، وكذلك من كان بجهة الشام، يتوجه بين الجهتين، من دون إتعاب للنفس في تقدير الجهات، فإن ذلك مما لم يرد به الشرع، ولا كلف به العباد، والمحاريب^(٤) المنصوبة في المساجد والمشاهد المعمورة في بلاد المسلمين، الذين لهم عناية بأمر الدين؛ مغنية عن

(١) شرح البخاري (٣/٨٦-٨٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢/١٧٣/٣٤٤) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (١/٣٢٣/١٠١١)، وصححه الألباني

كشّافه في الإرواء: (٢٩٢).

(٣) الدراري المضية (١/١١٤).

(٤) انظر الكلام على بدعية المحاريب في المساجد في السلسلة الضعيفة تحت رقم [٤٤٨]، وللبيوطي رسالة بعنوان: «إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب».

التكلف، وكذلك إخبار العدول المرضيين كافة، فإن من قال: هذه جهة القبلة، أو عمّر محرّاباً يأوي إليه الناس؛ لاشك أنه قد بلغ من التحري ما يبلغه من أراد تأدية صلاة أو صلوات في مكان من الأمكنة؛ لأن معرفة الجهة التي عرفناك بها من السير ما تراد لمعرفته لكون الجهات الأربع معلومة لكل عاقل، وقد يعرض اللبس في بعض المواطن على بعض الأفراد، إما لعدم ظهور ما يهتدى به في ظلمة الليل، أو حيلولة جبال عالية في أرض عالية لا يعرفها، مع تلوّن طرقها التي قد سلكها، فهذا فرضه أن يمعن النظر في تعريف الجهة، فإذا أعوزه الأمر توجه حيث شاء، هذا في الفرائض. وأما النوافل فقد خفف الشارع فيها، وسوّغ تأديتها على ظهر الراحلة إلى جهة القبلة وغير جهتها، بل سوّغ تأدية الفريضة في الأرض الندية على ظهر الراحلة. فهذا خلاصة ما تعبّدنا الله به في أمر القبلة، وهو يغنيك عن التفريعات الطويلة، والتهويلات المهيلة في كتب الفقه^(١).

قال ابن بطال: «أجمع العلماء أنه لا يجوز أن يصلي أحد فريضة على الدابة من غير عذر، وأنه لا يجوز له ترك القبلة إلا في شدة الخوف، وفي النافلة في السفر على الدابة؛ رخصة من الله لعباده ورفقاً بهم، فثبت أن القبلة فرض من الفرائض في الحضر والسفر، وفي السنن لمن تنفل على الأرض»^(٢).

* * *

(١) الروضة الندية (١/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) شرح البخاري (٣/ ٩٠).

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير : « وقوله : ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي : واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة ، وانصرافكم عن بيت المقدس ؛ يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها ، بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته ، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ، ولكن أهل الكتاب يتكاثمون ذلك بينهم ؛ حسدا وكفرا وعنادا ، ولهذا تهددهم تعالى بقوله : ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ﴾ »^(١).

وقال محمد رشيد رضا : « بعد هذا عاد إلى بيان حال السفهاء ، مثيري الفتنة في مسألة تحويل القبلة ، فقال : ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي : أن تولي المسجد الحرام هو الحق المنزل من الله على نبيه . وجمهور المفسرين على أن أكثر أولئك الفاتنين كانوا من أهل الكتاب المقيمين في الحجاز ، ولولا ذلك لم تكن الفتنة عظيمة ؛ لأن كلام المشركين في مسائل الوحي والتشريع قلما يلتفت إليه ، وأما أهل الكتاب فقد كانوا معروفين بين الناس بالعلم ، ومن كان كذلك فإن عامة الناس تتقبل كلامه ، ولو نطق بالمحال ؛ لأن الثقة بمظهره تصد عن تمحيص خبره ، فهو في حاله الظاهرة شبهة إذا أنكر ، وحجة إذا اعترف ، ولأن الجماهير من الناس قد اعتادوا على تقليد مثله من غير بحث ولا دليل ، وقد جرى أصحاب المظاهر العلمية والدينية على الانتفاع بغرور الناس بهم ، فصار الغرض لهم من أقوالهم التأثير في نفوس الناس ، فهم يقولون ما لا يعتقدون لأجل ذلك ، ويسندون ما يقولون إلى كتبهم كذباً صريحاً أو تأويلاً بعيداً كما كان أحبار اليهود

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٠-٣٤١).

يطعنون في النبي ﷺ وما جاء به، ويذكرون للناس أقوالاً على أنها من كتبهم، وما هي من كتبهم، إن يريدون إلا خداعاً، وقد كذب الله هؤلاء الخادعين، ويبن أنهم يقولون غير ما يعتقدون، كأنه يقول: إن هؤلاء قد قام عندهم الدليل على ما سبقت به بشارة أنبيائهم من صحة نبوة الرسول، ويعلمون أن أمر القبله كغيرها من أمور الدين، قد جاء به الوحي عن الله تعالى، وأنه الحق لا محيص عنه. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فهو المطلع على الظواهر والضمائر، الحسيب على ما في السرائر، الرقيب على الأعمال، فيخبر نبيه بما شاء أن يخبره، وإليه المرجع والمصير، وعليه الحساب والجزاء^(١).

وقال السعدي: «ولما ذكر تعالى فيما تقدم، المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم وذكر جوابهم، ذكر هنا، أن أهل الكتاب والعلماء منهم، يعلمون أنك في ذلك على حق واضح، لما يجدونه في كتبهم، فيعرضون عناداً وبغياً. فإذا كانوا يغمون بخطاهم، فلا تبالوا بذلك. فإن الإنسان إنما يغمه، اعتراض من اعترض عليه، إذا كان الأمر مشتبهاً، وكان ممكناً أن يكون معه صواب. فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعترض عليه، وأن المعترض معاند، عارف ببطلان قوله، فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعترض، العقوبة الدنيوية والأخروية، فلهذا قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها. وفيها وعيد للمعترضين، وتسليه للمؤمنين. كان النبي ﷺ - من كمال حرصه على هداية الخلق - يبذل غاية ما يقدر عليه من النصيحة، ويتلطف بهدايتهم، ويحزن إذا لم ينقادوا لأمر الله. فكان من الكفار، من تمرد عن أمر الله، واستكبر على رسل الله، وترك الهدى، عمدا وعدوانا. فمنهم: اليهود والنصارى، أهل الكتاب الأول، الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين، لا عن جهل^(٢).

وقال ابن جرير: «قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يعني بذلك - تبارك وتعالى - : وليس الله بغافل عما تعملون أيها المؤمنون، في اتباعكم أمره،

(١) تفسير المنار (٢/١٦-١٧).

(٢) تفسير السعدي (١/١٦٣-١٦٤).

وانتهائكم إلى طاعته، فيما ألزمكم من فرائضه، وإيمانكم به في صلاتكم نحو بيت المقدس، ثم صلاتكم من بعد ذلك شطر المسجد الحرام، ولا هو ساء عنه، ولكنه -جل ثناؤه- يحصيه لكم ويدخره لكم عنده، حتى يجازيكم به أحسن جزاء، ويشيكم عليه أفضل الثواب»^(١).

* * *

(١) جامع البيان (٣/ ١٨٤ تحقيق شاكر).

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٦٥﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم، ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به؛ لما اتبعوه وتركوا أهواءهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ»^(١)، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم، فهو أيضًا مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله، ولا كونه متوجهًا إلى بيت المقدس لكونها قبله اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى، ثم حذر تعالى من مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى؛ فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره، ولهذا قال مخاطبًا للرسول، والمراد به الأمة: ﴿وَلَيْنَ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

وقال السعدي: «﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ أي: بكل برهان ودليل، يوضح قولك، ويبين ما تدعو إليه. ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ أي: ما تبعوك؛ لأن اتباع القبلة، دليل على اتباعه. ولأن السبب هو شأن القبلة. وإنما كان الأمر كذلك؛ لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه. فالآيات إنما ينتفع بها، من يتطلب

(١) يونس: الآيتان (٩٦ و ٩٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤١).

الحق، وهو مشتبه عليه، فتوضح له الآيات البينات. وأما من جزم بعدم اتباع الحق، فلا حيلة فيه. وأيضاً فإن اختلافهم فيما بينهم حاصل، وبعضهم غير تابع قبله بعض. فليس بغريب منهم -مع ذلك- أن لا يتبعوا قبلك يا محمد، وهم الأعداء الحسدة حقيقة، وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ أبلغ من قوله: «ولا تتبع» لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه. ولم يقل: (ولو أتوا بكل آية) لأنهم لا دليل لهم على قولهم. وكذلك إذا تبين الحق بأدلة اليقينية، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه؛ لأنها لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها، للعلم بأن كل ما نافي الحق الواضح، فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع. ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إنما قال: (أهواءهم) ولم يقل: (دينهم) لأن ما هم عليه مجرد أهواء نفس، حتى هم -في قلوبهم- يعلمون أنه ليس بدين. ومن ترك الدين، اتبع الهوى، لا محالة. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوًى﴾^(١). ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ بأنك على الحق، وهم على الباطل. ﴿إِنَّكَ إِذَا﴾ أي: إن اتبعتهم، فهذا احتراز، لثلاث تنفصل هذه الجملة عما قبلها، ولو في الأفهام. ﴿لَنِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: داخل فيهم، ومندرج في جملتهم. وأي ظلم أعظم، من ظلم من علم الحق والباطل، فآثر الباطل على الحق. وهذا وإن كان الخطاب له ﷺ، فإن أمته داخله في ذلك. وأيضاً، فإذا كان هو ﷺ لو فعل ذلك -وحاشاه- صار ظالماً مع علو مرتبته، وكثرة إحسانه -فغيره من باب أولى وأحرى^(٢).

قال الشوكاني: «وفي هذه الآية مبالغة عظيمة وهي متضمنة للتسلية لرسول الله ﷺ، وترويح خاطره؛ لأن هؤلاء لا تؤثر فيهم كل آية، ولا يرجعون إلى الحق وإن جاءهم بكل برهان فضلاً عن برهان واحد، وذلك أنهم لم يتركوا اتباع الحق لدليل عندهم، أو لشبهة طرأت عليهم، حتى يوازنوا بين ما عندهم وما جاء به الرسول ﷺ ويقلعوا عن غوايتهم عند وضوح الحق، بل كان تركهم للحق تمرّداً وعناداً، مع علمهم بأنهم ليسوا على شيء، ومن كان هكذا فهو لا ينتفع بالبرهان أبداً.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ هذا الإخبار ممكن أن يكون بمعنى النهي من الله سبحانه لنبيه ﷺ؛ أي: لا تتبع يا محمد قبلتهم، ويمكن أن يكون على ظاهره؛ دفعاً

(١) الجاثية: الآية (٢٣).

(٢) تفسير السعدي (١/ ١٦٥-١٦٦).

لأطماع أهل الكتاب، وقطعاً لما يرجونه من رجوعه ﷺ إلى القبله التي كان عليها .
 وقوله: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِ قِبَلَةٍ بَعْضٍ﴾ فيه إخبار بأن اليهود والنصارى مع حرصهم على متابعة الرسول ﷺ لما عندهم؛ مختلفون في دينهم حتى في هذا الحكم الخاص الذي قصه الله سبحانه على رسوله، فإن بعضهم لا يتابع الآخر في استقبال قبلته، قال في «الكشاف»: وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس . اهـ

وقوله: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إلى آخر الآية، فيه من التهديد العظيم والزجر البليغ ما تقشعر له الجلود وترجف منه الأفئدة، وإذا كان الميل إلى أهوية المخالفين لهذه الشريعة الغراء والملة الشريفة من رسول الله ﷺ الذي هو سيد ولد آدم، يوجب عليه أن يكون -وحاشاه- من الظالمين؛ فما ظنك بغيره من أمته، وقد صان الله هذه الفرقة الإسلامية بعد ثبوت قدم الإسلام، وارتفاع مناره عن أن يميلوا إلى شيء من هوى أهل الكتاب، ولم تبق إلا دسيسة شيطانية، ووسيلة طاغوتية، وهي ميل بعض من تحمل حجج الله إلى هوى بعض طوائف المبتدعة، لما يرجوه من الحطام العاجل من أيديهم، أو الجاه لديهم إن كان لهم في الناس دولة، أو كانوا من ذوي الصولة، وهذا الميل ليس بدون ذلك الميل، بل اتباع أهوية المبتدعة تشبه اتباع أهوية أهل الكتاب، كما يشبه الماء الماء، والبيضة البيضة، والتمرة التمرة؛ وقد تكون مفسدة اتباع أهوية المبتدعة أشد على هذه الملة من مفسدة اتباع أهوية أهل الملل؛ فإن المبتدعة ينتمون إلى الإسلام، ويظهرون للناس أنهم ينصرون الدين، ويتبعون أحسنه؛ وهم على العكس من ذلك، والضد لما هنالك، فلا يزالون ينقلون من يميل إلى أهويتهم من بدعة إلى بدعة، ويدفعونه من شناعة إلى شناعة، حتى يسلخوه من الدين ويخرجونه منه، وهو يظن أنه منه في الصميم، وأن الصراط الذي هو عليه هو الصراط المستقيم، هذا إن كان في عداد المقصرين، ومن جملة الجاهلين؛ وإن كان من أهل العلم والفهم المميزين بين الحق والباطل؛ كان في اتباعه لأهويتهم ممن أضله الله على علم وختم على قلبه، وصار نقمة على عباد الله، ومصيبة صباها الله على المقصرين؛ لأنهم يعتقدون أنه في علمه وفهمه لا يميل إلا إلى حق، ولا يتبع إلا الصواب، فيضلون بضلاله، فيكون عليه إثمهم وإثم من

اقتدى به إلى يوم القيامة، نسأل الله اللطف والسلامة والهداية»^(١).

قلت: لله در الإمام الشوكاني! ما أحسن ما قال! ولو عاش إلى عصرنا هذا، ورأى تلاعب الكبار ممن ينتسبون إلى العلم؛ لقال أكثر مما قال، فما أشبه اليوم بالأمس! والله المستعان.

قال ابن القيم: «أخبر تعالى عن شدة كفر أهل الكتاب بأنهم لو أتاهم الرسول بكل آية ما تبعوا قبلته، ففي ذلك التسلية له وتركهم وقبلتهم، ثم برّاه من قبلتهم فقال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَلْبَهُمْ﴾، ثم ذكر اختلافهم في القبلة، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى؛ لأن القبلة من خواص الدين وأعلامه وشعائره الظاهرة، فأهل كل دين لا يفارقون قبلتهم إلا أن يفارقوا دينهم، فأخبر تعالى في هذه الجمل الثلاث بثلاث إخبارات، تتضمن براءة كل طائفة من قبلة الطائفة الأخرى، وتتضمن الإخبار بأن أهل الكتاب لو رأوا كل آية تدل على صدق الرسول؛ لما تبعوا قبلته: عنادا وتقليداً لبائهم، وأنهم إن اشتركوا في خلاف القبلة الحق فمنهم مختلفون في باطلهم، فلا تتبع طائفة قبلة الأخرى، فهم متفقون على خلاف الحق في اختيار الباطل، وفي هذه الآية أيضاً تثبيت للرسول ﷺ والمؤمنين على لزوم قبلتهم، وأنه لا يشتغل بما يقوله أهل الكتاب: ارجعوا إلى قبلتنا فنتبعكم على دينكم، فإن هذا خداع ومكر منهم، فإنهم لو رأوا كل آية تدل على صدق ما تبعوا قبلتك؛ لأن الكفر قد تمكن من قلوبهم، فلا مطمع للحق فيها، ولست أيضاً بتابع قبلتهم، فليقطعوا مطامعهم من موافقتك لهم، وعودك إلى قبلتهم، وكذلك هم أيضاً مختلفون فيما بينهم، فلا يتبع أحد منهم قبلة الآخر، فهم مختلفون في القبلة، ولستم أيها المؤمنون موافقين لأحد منهم في قبلته، بل أكرمكم الله بقبلة غير قبلة هؤلاء المختلفين؛ اختارها الله لكم ورضيها، وأكد تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فهذا كله تثبيت وتحذير من موافقتهم في القبلة، وبراءة من قبلتهم كما هم براء من قبلتك؛ وكما بعضهم بريء من قبلة بعض، فأنتم أيها المؤمنون أولى بالبراءة من

(١) فتح القدير (١/٢٢٧-٢٢٨).

قبلتهم التي أكرمكم الله بالتحويل عنها»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عناد اليهود وتنكبهم عن الحق

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود، لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»^(٢).

★ من فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «فالمراد: عشرة مختصة، وإلا فقد آمن به أكثر من عشرة. وقيل: المعنى لو آمن بي في الزمن الماضي كالزمن الذي قبل قدوم النبي ﷺ المدينة أو حال قدومه، والذي يظهر أنهم الذين كانوا حينئذ رؤساء في اليهود، ومن عداهم كان تبعاً لهم، فلم يسلم منهم إلا القليل؛ كعبد الله بن سلام، وكان من المشهورين بالرياسة في اليهود عند قدوم النبي ﷺ»^(٣).

* عن ابن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم! حدثنا عن خلالٍ نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، قال: «سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب عليه السلام على بنيهِ: لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الإسلام؟» قالوا: فذلك لك، قال: «فسلوني عما شئتم» قالوا: أخبرنا عن أربع خلالٍ نسألك عنهن: أخبرنا أيّ طعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ كيف يكون الذكر منه؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم؟ ومن وليه من الملائكة؟ قال: «فعليكم عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم لتتابعني؟» قال: فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، قال: «فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام؛ هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب عليه السلام مرض مرضاً شديداً، وطال سقمه، فنذر لله نذراً لئن شفاه الله تعالى من سقمه؛ ليحرّم من أحب الشراب إليه، وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟» قالوا: اللهم نعم، قال:

(١) بدائع الفوائد (٤/١٥٩-١٦٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٣٤٦) والبخاري (٧/٣٤٩) ومسلم (٤/٢١٥١/٢٧٩٣).

(٣) الفتح (٧/٣٥٠).

«اللهم اشهد عليهم، فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى؛ هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق؟ فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله، وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى بإذن الله» قالوا: اللهم نعم، قال: «اللهم اشهد عليهم، فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى؛ هل تعلمون أن هذا النبي الأُمِّي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟» قالوا: اللهم نعم، قال: «اللهم اشهد» قالوا: وأنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: «فإن وليي جبريل عليه السلام، ولم يبعث الله نبياً قط إلا هو وليه»، قالوا: فعندها نفارقك!! لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك، قال: «فما يمنعكم من أن تصدقوه؟» قالوا: إنه عدونا!!، قال: فعند ذلك قال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١) إلى قوله ﷻ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢) فعند ذلك: باؤوا بغضب على غضب^(٣).

★ فوائد الحديث:

قلت: اليهود عليهم لعائن الله عازمون على حرب الرسول ودعوته وكتابه وسنته، مهما كلفهم من العناء والتعب، وإن فتحوا باباً يظهرون فيه الموافقة والترحيب بالإسلام، فهو من أكبر أبواب الخداع والتلبيس فهاهم يسألون الرسول ﷺ عن آيات ظنوا أنه ﷺ يعجز عن الجواب عنها، فلما أجابهم وما وجدوا حيلة لرد جوابه ﷺ لجأوا إلى المكر والخداع، فذكروا شبهة لا علاقة لها بالسؤال ولا بالجواب، وهي عبارة عن عناد ومكر وتجديد كفر، وبيان حقيقة حالهم وواقعهم، وأن الرسول مهما بذل من الجهد ومهما أوتي من الآيات فهم معه على طرفي نقيض، وهذا أمر معروف لا يخفى من نصوص القرآن ونصوص السنن، وهذه القصة أكبر شاهد على ذلك.

(١) البقرة: الآية (٩٧).

(٢) البقرة: الآية (١٠١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢٧٨/١) والترمذي (٣١١٧/٢٧٤/٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب». والنسائي في الكبرى (٩٠٧٢/٣٣٦/٥) والطبراني (١٢٤٢٩/٤٦-٤٥/١٢) وذكره الهيثمي في المجمع (٢٤٢/٨) وقال: «رواه الترمذي باختصار، ورواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات».

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٧٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ، كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا»^(١).

قال القرطبي: «أي يعرفون نبوته وصدق رسالته، والضمير عائد على محمد ﷺ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، وقيل: يعرفون تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة أنه حق، قاله ابن عباس وابن جريج والربيع وقتادة أيضًا، وخص الأبناء في المعرفة بالذكر دون الأنفس - وإن كانت ألصق - لأن الإنسان يمر عليه من زمنه برهة لا يعرف فيها نفسه، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه ابنه، وروي أن عمر قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمدًا ﷺ كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم وأكثر، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: محمدًا ﷺ، قاله مجاهد وقتادة وخصيف. وقيل: استقبال الكعبة على ما ذكرنا آنفًا. قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ظاهر في صحة الكفر عنادا، ومثله: ﴿وَيَحْذَرُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^(٢)، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾^(٣) ﴿٤﴾.

وقال السعدي: «يخبر تعالى: أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم، وعرفوا أن محمدًا رسول الله، وأن ما جاء به، حق وصدق، وتيقنوا ذلك، كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشبهون بغيره.

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤١).

(٢) النمل: الآية (١٤).

(٣) البقرة: الآية (٨٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٦٢-١٦٣).

فمعرفتهم بمحمد ﷺ، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون. ولكن فريقا منهم - وهم أكثرهم - الذين كفروا به، كتموا هذه الشهادة مع تيقنها، وهم يعلمون ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾^(١). وفي ضمن ذلك، تسلية للرسول والمؤمنين، وتحذير له من شرهم وشبههم. وفريق منهم، لم يكتموا الحق وهم يعلمون.

فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر به، جهلا. فالعالم، عليه إظهار الحق، وتبيينه وتزيينه، بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان، ومثال، وغير ذلك، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق، وتشيينه وتقبيحه للنفوس، بكل طريق مؤد لذلك. فهو لاء الكاتمون، عكسوا الأمر، فانعكست أحوالهم»^(٢).

وقال شيخ الإسلام: «قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾»^(٣). فالمتصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبت فيه الكافرون وذلك من وجوه:

أحدها: أن الكتب المتقدمة تنطق بأن موسى وغيره دعوا إلى عبادة الله وحده، ونهوا عن الشرك فكان في هذا حجة على من ظن أن الشرك دين. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾^(٤). وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٥). وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكَذِّبِينَ﴾^(٦).

الوجه الثاني: أن أهل الكتاب يعلمون أن الله إنما أرسل إلى الناس بشرا مثلهم، لم يرسل إليهم ملكا؛ فإن من الكفار من كان يزعم أن الله لا يرسل إلا ملكا أو بشرا معه ملك، ويتعجبون من إرسال بشر ليس معه ملك ظاهر كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَّ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُرْسِلَ إِلَهُهُمْ إِلَهًا أَنْ قَالُوا أَبْعَثْ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾^(٧) قُلْ لَوْ كَانَ فِي

(٢) تفسير السعدي (١/ ١٦٦-١٦٧).

(٤) الزخرف: الآية (٤٥).

(٦) النحل: الآية (٣٦).

(١) البقرة: الآية (١٤٠).

(٣) البقرة: الآية (١٤٦).

(٥) الأنبياء: الآية (٢٥).

الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا^(١). وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّةٌ فَلَا تَتَّقُونَ^(٢)﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ^(٣). وقال تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ^(٤)﴾ فَقَالُوا ابْشِرْنَا مِنَّا وَجَدًا نَتَّعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ^(٥). وكذلك قال الذين من بعدهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ^(٦)﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُونَ^(٧). وكذلك قال قوم فرعون لموسى وهارون: ﴿أَتُؤْتُونَ لِبَشَرَيْنِ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ^(٨)﴾. وقال فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ^(٩)﴾ فَلَوْلَا أُلْفِيَ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقَرَّنِينَ^(١٠). وكذلك قالوا للمحمد ﷺ وقال تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ^(١١)﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صَدِيقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ^(١٢). وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ^(١٣)﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ^(١٤). فبين سبحانه أنكم لا تطيقون التلقي عن الملك، فلو أنزلناه ملكًا لجعلناه في صورة بشر. وحينئذ كنتم تظنونهم بشرًا فيحصل اللبس عليكم. فأمر الله تعالى بسؤال أهل الكتاب عما أرسل إليهم أكان بشرًا أم كان ملكًا ليقيم الحجة بذلك على من أنكر إرسال بشر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ^(١٥)﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ^(١٦) ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَّشَاءِ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ^(١٧). وأهل الذكر هم أهل الذكر الذي أنزله الله تعالى.

الوجه الثالث: أنهم يسألون أهل الكتاب عما جرى للرسول مع أممهم، وكيف كان عاقبة المؤمنين بهم، وعاقبة المكذبين لهم.

(١) المؤمنون: الآيتان (٢٣ و ٢٤).

(١) الإسراء: الآيتان (٩٤ و ٩٥).

(٤) المؤمنون: الآيتان (٣٣ و ٣٤).

(٣) القمر: الآيتان (٢٣ و ٢٤).

(٦) الزخرف: الآيتان (٥٢ و ٥٣).

(٥) المؤمنون: الآية (٤٧).

(٨) الأنعام: الآيتان (٨ و ٩).

(٧) يونس: الآيتان (١ و ٢).

(٩) الأنبياء: الآيات (٧-٩).

الوجه الرابع: يسألون أهل الكتاب عن الدين الذي بعث الله به رسله، وهو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل، كالأمر بالتوحيد، والصدق، والعدل، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والنهي عن الشرك، والظلم والفواحش.

الوجه الخامس: يسألونهم عما وصفت به الرسل ربهم، هل هو موافق لما وصفه به محمد أم لا؟ وهذه الأمور المسؤول عنها متواترة عند أهل الكتاب معلومة لهم ليست مما يشكون فيه، وليس إذا كان مثل هذا معلوماً لهم بالتواتر فيسألون عنه يجب أن يكون كل ما يقولونه معلوماً لهم بالتواتر. وأيضاً فإنهم يسألون أيضاً عما عندهم من الشهادات والبشارات بنبوّة محمد ﷺ. وقد أخبر الله بذلك في القرآن فقال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ١٤٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ^(١)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ^(٢).

فقد أخبر عن عيسى أنه صدق بالرسول والكتاب الذي قبله وهو التوراة وبشر بالرسول الذي يأتي بعده وهو أحمد. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَيْسَكَ قِبَلَهُ نَفَسٌ فَقُولِ لِجَهْلِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ^(٣).

وقال تعالى عن من أننى عليه من النصارى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا^(٤)﴾. وقال تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا لَهُ فَرَقَانَهُ لِنَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّهِ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ١٤٧﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُ عَلَيْهِمْ يَجِزُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ١٤٨﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ١٤٩﴾

(٢) الصف: الآية (٦).

(١) الأعراف: الآيات (١٥٦ و ١٥٧).

(٤) المائدة: الآية (٨٣).

(٣) البقرة: الآيات (١٤٤-١٤٦).

وَيَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ يَكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا^(١). وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَئِبُ يَكْمُونَ أَنَّهُمْ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ^(٢)﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ^(٣)﴾ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَئِبُ يَكْمُونَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ^(٤) وَإِذَا يُنْزِلُ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ^(٥) أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ^(٦)﴾. وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَئِبُ يَكْمُونَ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(٧)﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ^(٨)﴾. والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم.

وكان قبل أن يبعث النبي ﷺ تجري حروب وقاتل بين العرب وبين أهل الكتاب فتقول أهل الكتاب: قد قرب مبعث هذا النبي الأمي الذي يبعث بدين إبراهيم، فإذا ظهر اتبعناه، وقتلناهم معه شر قتلة، فلما بعث النبي ﷺ، كان منهم من آمن به، ومنهم من كفر به^(٩).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن كتمان الحق منهج يهودي قديم

ومن تشبه بقوم فهو منهم

* عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبت، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها!! فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد! فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، قال

(١) الإسراء: الآيات (١٠٦-١٠٩).

(٢) الأنعام: الآية (١١٤).

(٣) القصص: الآيات (٥١-٥٤).

(٤) الأنعام: الآية (٢٠).

(٥) البقرة: الآية (٨٩).

(٦) الجواب الصحيح (٢/٣٥٩-٣٦٦).

عبد الله : فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة^(١) .

★ غريب الحديث:

يجنأ : أي يكب ويميل عليها ليقىها الحجارة .

★ من فوائد الحديث:

قال الوزير بن هبيرة : «فيه دليل على قلة أمانة اليهود، وكتمانهم الحق، جرياً على عادتهم السيئة، فإنهم بلغ بهم البهت إلى أن وضع واضع منهم يده على آية الرجم حتى أظهرها عبد الله بن سلام، فاستدل بذلك على أنهم قد كتموا أمر رسول الله ﷺ وصفته، وقد أعلم الله تعالى نبيه ﷺ أن القوم بدلوا التوراة؛ إلا أن هذا لم يكن قد حرفوه بعد»^(٢) .

وقال : «وفيه أن اليهود إنما كانوا يحتملون من أحكام الله ما يخف عليهم دون ما يثقل، فقد حذرنا الله ﷻ بذكر هذا الحال عن أن نكون مثلهم، بل نحمل ما حملنا ربنا، ونسأله التخفيف»^(٣) .

* * *

(١) أخرجه : أحمد (٥/٢) والبخاري (٧٨٢/٦) ومسلم (٣٦٣٥) و (٣/١٣٢٦/١٦٩٩) وأبو داود (٥٩٣-٥٩٤/٤)

(٤٤٤٦) والنسائي في الكبرى (٤/٢٩٣-٢٩٤/٧٢١٣-٧٢١٦)

(٣) الإفصاح (٤/١٤٩) .

(٢) الإفصاح (٤/١٤٨-١٤٩) .

قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿٧٧﴾

★ غريب الآية:

الممترين: الامتراء: الشك والريب، والامتراء والمرء أيضًا: المحاجة والجدال، قال الشاعر:

فإيّاك إيّاك المِرَاءَ فَإِنَّهُ إِلَى الشَّرِّ دَعَاءٌ وَلِلشَّرِّ جَالِبٌ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول الله - جل ثناؤه - : اعلم يا محمد أن الحق ما أعلمك ربك وأتاك من عنده، لا ما يقول لك اليهود والنصارى، وهذا من الله - تعالى ذكره - خبر لنبيه - عليه الصلاة والسلام - عن أن القبلة التي وجهه نحوها هي القبلة الحق، التي كان عليها إبراهيم خليل الرحمن، ومن بعده من أنبياء الله ﷺ، يقول - تعالى ذكره - له : فاعمل بالحق الذي أتاك من ربك يا محمد، ولا تكونن من الممترين، يعني بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: فلا تكونن من الشاكين في أن القبلة التي وجهتك نحوها قبله إبراهيم خليلي ﷺ، وقبله الأنبياء غيره»^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «أي: أن العمدة في معرفة الحق هو الوحي يأتيك من عند ربك، فلا تلتفت إلى أوهام هؤلاء المجاحدين؛ فإنها لا تصلح شبهة على الحق الصريح الذي علمك الله فتمتري بها. والنهي في الآية هو كالوعيد في الآية السابقة، ووجه الخطاب به إلى النبي ﷺ والمراد أمته: من كان منهم غير راسخ في الإيمان، وخشي عليه الاغترار بمظاهر أولئك المخادعين، الذين يغتر بأمثال الأغرار في كل زمان ومكان، احتج تعالى على أهل الكتاب بقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(٢) وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾^(٣) أي: وإذا كان الأمر كذلك؛ فكل ما يأتي به عن الله فهو حق، فما

(٢) البقرة: الآية (١٤٤).

(١) جامع البيان (٢/ ٢٧).

(٣) البقرة: الآية (١٤٦).

بالهم يشاغبون في مسألة القبلة من الأحكام الفرعية خاصة؟ فالكلام من قبيل إقامة الدليل بعد إيراد الدعوى، وليس اعتراضاً كما توهم بعضهم^(١).

وقال السعدي: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى حقاً من كل شيء، لما اشتمل عليه من المطالب العالية، والأوامر الحسنة، وتزكية النفوس وحثها على تحصيل مصالحها، ودفع مفسادها، لصدوره من ربك، الذي من جملة تربيته لك، أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية العقول والنفوس، وجميع المصالح.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ أي: فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه. بل تفكر فيه، وتأمل، حتى تصل بذلك إلى اليقين؛ لأن التفكير فيه لا محالة، دافع للشك، موصل لليقين^(٢).

* * *

(١) تفسير المنار (٢/ ٢١-٢٢).

(٢) تفسير السعدي (١/ ١٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٤٨﴾

★ غريب الآية:

وِجْهَةٌ: الوجهة والجهة والوجه بمعنى واحد، والمراد: القبلة.
فَاسْتَبِقُوا: الاستباق: الابتدار والإسراع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «أي: لكل أمة أول لكل نبي قبله أو شرعة ومنهاج ﴿هُوَ مُوَلِّيًا﴾ وجهه؛ أي: مائل إليها بوجهه، تابع لها؛ لأنها حبيت إليه وزينت له، وقال أبو معاذ: موليتها بمعنى متوليتها؛ أي: تولّاها ورضيها واتبعها، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي: ابتدروها بالمسابقة إليها، وهذا أبلغ من الأمر بالمسارعة؛ لما فيه من الحث على إحراز قصب السبق، والمراد بالخيرات جميع أنواعها؛ مما ينال به سعادة الدارين، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ قال الراغب: أي: أيّ شغل تحرّيتم، وحيثما تصرفتم، وأيّ معبود اتخذتم؛ فإنكم مجموعون ومحاسبون عليها، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لما قبله، أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم.

* تنبيه: تشير الآية إلى أن الناس على مذاهب عديدة، وأديان متنوعة، وأن على العاقل أن يستبق إلى ما كان خيرها وأرقاها، وقد اتفق العقلاء قاطبة والفلاسفة: أن دين الإسلام أرقى الأديان كلها؛ لما حوى من حاجيات الكمال البشري، ووقى بشؤون الاجتماع، وأسباب العمران، وذرائع الرقي، وطرق السعادتين، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾^(١) وقوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ فِرْقَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ

(١) الحج: الآية (٦٧).

فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنْفِقُ فِيهَا مَا كُنْتُمْ تَحْتَلِفُونَ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾ .

وقوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ قال القرطبي: «أي: بادروا ما أمركم الله ﷻ من استقبال البيت الحرام، وإن كان يتضمن الحث على المبادرة والاستعجال إلى جميع الطاعات بالعموم، فالمراد ما ذكر من الاستقبال لسياق الآي، والمعنى المراد: المبادرة بالصلاة أول وقتها» (٣).

قال شيخ الإسلام: «وأما تنوع الشرائع وتعددتها؛ فقال تعالى لما ذكر القبلة بعد الملة بقوله: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٌ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، فأخبر أن لكل أمة وجهة، ولم يقل: جعلنا لكل أمة وجهة، بل قد يكون هم ابتدعوها كما ابتدعت النصارى وجهة المشرق، بخلاف ما ذكره في الشرع والمناهج» (٤).

وقال: «وأما الشرعة والمنهاج؛ فقد قال عن أهل التوراة والإنجيل والقرآن: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿١٦١﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَنَاقِ وَالْمُعْتَرِ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٦٦﴾ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَبَالُ النَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ (٥) إلى قوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، وأما القبلة فلم يجعل ما ابتدعه أهل الكتاب من القبلة، فلذلك قال: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٌ هُوَ مُوَلِّيًا﴾، لم يقل: إنا جعلنا لكل وجهة كما قال في المنسك والشرعة والمنهاج» (٦).

وقال محمد رشيد رضا: «أي: لكل أمة من الأمم، جهة توليها في صلاتها، فلم تكن جهة من الجهات قبله في كل ملة بحيث تُعدّ ركناً ثابتاً في الدين المطلق كتوحيد

(١) المائدة: الآية (٤٨).

(٢) محاسن التأويل (٣٠٦-٣٠٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦٥/٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١١٢/١٩).

(٥) الحج: الآيات (٣٧-٣٤).

(٦) الجواب الصحيح (٣٤٢/٥-٣٤٣).

الله تعالى، والإيمان بالبعث والجزاء، إبراهيم وإسماعيل كانا يوليان الكعبة، وكان بنو إسرائيل يستقبلون صخرة بيت المقدس، وترك النصارى ذلك إلى استقبال الشرق، وكان الأنبياء المتقدمون يستقبلون جهات أخرى، فإذا كان الأمر كذلك، ولم تكن جهة معينة ركنًا ثابتًا في الأديان؛ فأى شبهة من العقل أو من تقاليد الملل على فتنة المشاغبين في أمر القبلة؟ وأي وجه لما أظهروه من الشبه والحيرة، وزجوا أنفسهم فيه من الغمة حتى جعلوه مسوغًا للطعن في النبوة والتشريع»^(١).

وقال السعدي: «أي: كل أهل دين وملة، له وجهة يتوجه إليها في عبادته. وليس الشأن في استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل، من جهة إلى جهة. ولكن الشأن كل الشأن، في امتثال طاعة الله، والتقرب إليه، وطلب الزلفى عنده. فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية. وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة. كما أنها إذا اتصفت به، فهي الراححة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له الخلق، وأمرهم به. والأمر بالاستباق إلى الخيرات، قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات. فإن الاستباق إليها، يتضمن فعلها، وتكملها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها. ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة. والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة، وصيام، وزكاة وحج وعمرة وجهاد ونفع متعد وقاصر. ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير، وينشطها، ما رتب الله عليها من الثواب قال: ﴿إِنَّ مَا تَكُونُوا يَأْتِيِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾^(٢).

ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل. كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة، من الصيام، والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فله ما أجمعها وأنفعها من آية!!^(٣).

(١) تفسير المنار (٢٢/٢).

(٢) النجم: الآية (٣١).

(٣) تفسير السعدي (١/١٦٨-١٦٩).

قلت: مما تقدم من كلام أهل العلم يتبين أن القرآن يصرف الناس عن الأهواء الملية، ويدلهم على الامتثال الذي هو حقيقة الإخلاص والصدق، وأن العبادات غاياتها ووسائلها كلها من عند الله، فلكل نبي سنن وله خصوصيات، فلا داعي إلى مقارنة السابق باللاحق، فالسابق له ما يناسب حاله وأمته، واللاحق له ما يناسب حاله وأمته، والصدق والإخلاص هو امتثال كل أمة ما جاء به نبيها، أما نبينا محمد ﷺ فهو خاتم النبيين، اكتملت شريعته وامتنع نسخها، فما على أمته إلا امتثال ما جاء به، ومن أحدث بدعة في دينه فهي مردودة في وجهه، مهما حسن المبتدع بدعته، ومهما ادعى لها من الفضائل، فعلى الأمة العض بالنواجذ على سنته ونبذ كل ما يخالفها من نزوات وأهواء وبدع وضلالات.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من أظهر شعار الدين أجريت عليه أحكام أهله ما لم يظهر منه خلاف ذلك

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته»^(١).

★ غريب الحديث:

الذمة: العهد، وهو إشارة إلى ما عهد الله ورسوله إلى المسلمين بالكف عن دم المسلم وماله وعرضه.

لا تخفروا: من الرباعي؛ أي: لا تغدروا. يقال: أخفرت إذا غدرت، وخفرت إذا حميت.

★ من فوائد الحديث:

قال الحافظ: «وفي الحديث تعظيم شأن القبلة، وذكر الاستقبال بعد الصلاة للتنويه به، وإلا فهو داخل في الصلاة لكونه من شروطها»^(٢).

(١) أخرجه: البخاري (٦٥٣/١-٦٥٤/٣٩١) والنسائي (٥٠١٢/٤٧٩/٨).

(٢) الفتح (٦٥٤/١).

قال ابن رجب: «وذكر استقبال القبلة: إشارة إلى أنه لا بد من الإتيان بصلاة المسلمين المشروعة في كتابهم المنزل على نبيهم، وهي الصلاة إلى الكعبة، وإلا فمن صلى إلى بيت المقدس بعد نسخه كاليهود، أو إلى المشرق كالنصارى؛ فليس بمسلم، ولو شهد بشهادة التوحيد، وفي هذا دليل على عظم موقع استقبال القبلة من الصلاة، فإنه لم يذكر من شرائط الصلاة غيرها كالطهارة، وغيرها»^(١).

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قال: ثم أي؟ قال: «ثم برّ الوالدين»، قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قال: حدّثني بهن، ولو استزدته لزداني^(٢).

* عن أم فروة رضي الله عنها قالت: سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «الصلاة في أول وقتها»^(٣).

* من فوائد الحديثين:

قال المناوي: «قال ابن الزمكاني: أطلق جمعُ أن الفضل في الأعمال الصالحة باعتبار كثرة الثواب، وليس على إطلاقه، بل إن كانت ذات هذا الوصف أو هذا العمل أشرف وأعلى؛ فهو أفضل، وقد يخص الله بعض الأعمال من الوعد بما لا يخص به الآخر؛ ترغيباً فيه: إما لنفرة النفس عنه، أو لمشقته غالباً، فرغب فيه بمزيد الثواب، أو لأن غيره مما يكتفى فيه بداعي النفس، والثواب عليه فضل، فالإنصاف: أن المفاضلة تارة تكون بكثرة الثواب، وتارة بحسب الوصفين بالنظر إليهما، وتارة بحسب متعلقاتهما، وتارة بحسب ثمراتهما، وتارة بأمر عرضي لهما، ويجمع ذلك أنه قد يكون لأمر ذاتي، وقد يكون لأمر عرضي، فإذا حاولنا الكلام في التفضيل؛ فلا بد من استحضار هذه المقدمة، فتدبرها، فلا بد من ملاحظتها فيما مرّ وفيما يأتي انتهى.

وتحصل المبادرة باشتغاله بأسبابها؛ كطهارة وغيرها أول الوقت، ثم يصليها،

(١) فتح الباري له (٥٦-٥٧/٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤٠٩-٤١٠) والبخاري (٥٢٧/١١/٢) ومسلم (٨٩/١-٨٥/٩٠) والترمذي (٣٢٥-١٧٣/٣٢٦) والنسائي (٣١٨-٣١٩/٦٠٩).

(٣) أخرجه أحمد (٣٧٤-٣٧٥) وأبو داود (٤٢٦/٢٩٦/١) والترمذي (٣١٩-٣٢٠/١٧٠) وصححه الحاكم (١٨٩/١) والشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٤٥٣).

ولا تشترط السرعة خلاف العادة، ولا يضر التأخير لقليل أكل، وكلامه شامل للعشاء، وهو الأصح عند جمهور الشافعية، وذهب كثير منهم إلى ندب تأخيرها إلى ثلث الليل، لحديث آخر، ومحل ندب التعجيل ما لم يعارضه معارض مما هو مقرر في الفروع^(١).

قال النووي: «وفي هذا الحديث الحث على المحافظة على الصلاة في وقتها، ويمكن أن يؤخذ منه استحبابها في أول الوقت لكونه احتياطاً لها ومبادرة إلى تحصيلها في وقتها»^(٢).

* * *

(١) فيض القدير (٢/ ٢٥).

(٢) شرح مسلم (٢/ ٦٩).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِتَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض»^(١).

قال القرطبي: «قيل: هذا تأكيد للأمر باستقبال الكعبة واهتمام بها؛ لأن موقع التحويل كان صعباً في نفوسهم جداً، فأكد الأمر ليرى الناس الاهتمام به فيخفف عليهم، وتسكن نفوسهم إليه. وقيل: أراد بالأول: ولَّ وجهك شطر الكعبة؛ أي عاينها إذا صليت تلقاءها، ثم قال: وحيث ما كنتم معاشر المسلمين في سائر المساجد بالمدينة وغيرها؛ فولوا وجوهكم شطره، ثم قال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾؛ يعني: وجوب الاستقبال في الأسفار، فكان هذا أمراً بالتوجه إلى الكعبة في جميع المواضع من نواحي الأرض. قلت: هذا القول أحسن من الأول؛ لأن فيه حمل كل آية على فائدة»^(٢).

قال ابن عاشور: «وقد تكرر الأمر باستقبال النبي الكعبة ثلاث مرات، وتكرر الأمر باستقبال المسلمين الكعبة مرتين.

وتكرر أنه الحق ثلاث مرات، وتكرر تعميم الجهات ثلاث مرات، والقصد من ذلك كله؛ التنويه بشأن استقبال الكعبة، والتحذير من تطرق التساهل في ذلك؛ تقريراً

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٣٤٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/١٦٨).

للحق في نفوس المسلمين، وزيادة في الرد على المنكرين التأكيد، من زيادة: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾، ومن جُمل معترضة، لزيادة التنويه بحكم الاستقبال: وهي جملة: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ﴾ الآيات، وجملة: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، وجملة: ﴿لَيْتَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ الآيات، وفيه إظهار أحقية الكعبة بذلك؛ لأن الذي يكون على الحق لا يزيده إنكار المنكرين إلا تصميماً، والتصميم يستدعي إعادة الكلام الدال على ما صمم عليه؛ لأن الإعادة تدل على التحقق في معنى الكلام.

وقد ذكر في خلال ذلك من بيان فوائد هذا التحويل وما حف به؛ ما يدفع قليل السامة العارضة لسماع التكرار، فذكر قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ الخ، وذكر قوله: ﴿لَيْتَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ الخ.

والضمير في: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ راجع إلى مضمون الجملة، وهو حكم التحويل، فهو راجع إلى ما يؤخذ من المقام، فالضمير هنا كالضمير في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ بِعَرَفُونَهُ﴾^(١).

وقوله: ﴿لَيْتَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾

قال ابن كثير: «أي أهل الكتاب؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس، وهذا أظهر»^(٢).

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿لَيْتَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾؛ علة لقوله: ﴿قُولُوا﴾ فولّوا الدال على طلب الفعل وامثاله، أي شرعت لكم ذلك لندحض حجة الأمم عليكم، وشأن تعليل صيغ الطلب أن يكون التعليل للطلب باعتبار الإتيان بالفعل المطلوب.

فإن مدلول صيغة الطلب هو إيجاد الفعل أو الترك؛ لا الإعلام بكون الطالب طالباً، وإلا لما وجب الامتثال للأمر، فيكتفى بحصول سماع الطلب، لكن ذلك ليس مقصوداً.

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٤٥-٤٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٣).

والتعريف في: «الناس» للاستغراق، يشمل مشركي مكة، فإن من شبهتهم أن يقولوا: لا نتبع هذا الدين؛ إذ ليس ملة إبراهيم؛ لأنه استقبل قبلة اليهود والنصارى وأهل الكتاب، والحجة أن يقولوا: إن محمداً اقتدى بنا واستقبل قبلتنا فكيف يدعونا إلى اتباعه. ولجميع الناس ممن عداكم حجة عليكم، أي ليكون هذا الدين مخالفاً في الاستقبال لكل دين سبقه، فلا يدعي أهل دين من الأديان أن الإسلام مقتبس منه.

ولا شك أن ظهور الاستقبال يكون في أمر مشاهد لكل أحد؛ لأن إدراك المخالفة في الأحكام والمقاصد الشرعية والكمالات النفسانية التي فضل بها الإسلام غيره؛ لا يدركه كل أحد، بل لا يعلمه إلا الذين أوتوا العلم، وعلى هذا يكون قوله: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ ناظراً إلى قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(١)، وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَرُ يَفْقَهُونَهُ﴾^(٢)، وقد قيل في معنى حجة الناس معان أخر أراها بعيدة^(٣).

قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

قال محمد رشيد رضا: «ابتدأ هذه الآية بصيغة الأمر الواردة في الآية قبلها، وقرن بها صيغة الأمر السابقة، وجمع فيها بين خطاب النبي وخطاب الأمة؛ ليرتب على ذلك التعليل وبيان الحكمة وهو: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ الخ، وليس هذا الجمع والإعادة لمجرد التأكيد كما قال مفسرنا «الجلال»؛ وإنما هو تمهيد للعلة وتوطئة لبيان الحكم الموصولة به، وهو أسلوب معهود عند البلغاء، والمتأخرون الذين لا يذوقون طعم الأساليب البليغة؛ يكتفون في مثل هذا المقام بقولهم: كل ذلك لئلا يكون للناس عليكم حجة؛ وهو نظم غير معهود في الكلام البليغ؛ لاسيما في مقام الإطناب والتأكيد والاحتجاج وإزالة الشبه، والمراد بالناس: المحاجون في القبلة المعروفون، وهم فريقان: أهل الكتاب، والمشركون، ووجه انتفاء حجتهم على الطعن في النبوة بتحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة؛ هو أن أهل الكتاب كانوا يعرفون من كتبهم: أن النبي الذي

(١) البقرة: الآية (١٤٤).

(٢) البقرة: الآية (١٤٦).

(٣) التحرير والتنوير (٤٦/٢).

يبعث من ولد إسماعيل يكون على قبلته وهي الكعبة، فجعل بيت المقدس قبلة دائمة له حجة على أنه ليس هو النبي المبشّر به، فلما كان التحويل عرفوا أنه الحق من ربهم، وأن المشركين كانوا يرون أن نبياً من ولد إبراهيم جاء لإحياء ملته؛ لا ينبغي له أن يستقبل غير بيت ربه الذي بناه جده إبراهيم، وقد جاء التحويل موافقاً لما يرونه، فانتفت حجة الفريقين، ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ فهم لا يهتدون بكتاب، ولا يعتبرون ببرهان، ولا ينظرون إلى حكم الأمور وأسرارها، بل يجادلون في الله وشرعه بلا هدى ولا كتاب منير، وهم الذين أثاروا الفتن، وحرّكوا رياح الشبه في مسألة القبلة، ولا قيمة لما يقول هؤلاء؛ فإنهم هم السفهاء - كما وصفوا في الآية الأولى، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ إذ لا مرجع لكلامهم من الحق، ولا تمكّن له في النفس؛ لأنه لا يستند إلى برهان عقلي، ولا إلى هدي سماوي، ﴿وَإِخْشَاؤُنِي﴾ أنا، فإنني القدير، وقد وعدتكم بأن أمكن لكم دينكم الذي ارتضيت لكم، وأبدلكم من بعد خوفكم أمناً، وإنني لا أخلف الميعاد، والآية ترشدنا إلى أن صاحب الحق هو الذي يخشى جانبه، وأن المبطل لا ينبغي أن يخشى، فإن الحق يعلو ولا يعلى، وما آفة الحق إلا ترك أهله له، وخوفهم من أهل الباطل فيه^(١).

قال العلامة ابن القيم: «الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ منقطع؛ قد قاله أكثر الناس، ووجهه أن الظالم لا حجة له، فاستثناءه مما ذكر قبله منقطع، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ليس الاستثناء بمنقطع، بل هو متصل على بابه، وإنما أوجب لهم أن حكموا بانقطاعه حيث ظنوا أن الحجة ههنا؛ المراد بها الحجة الصحيحة الحق، والحجة في كتاب الله يراد بها نوعان: أحدهما: الحجة الحق الصحيحة؛ كقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾^(٢) وقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ﴾^(٣)، ويراد بها مطلق الاحتجاج بحق أو بباطل؛ كقوله: ﴿إِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَمْتُمْ وَجْهِي لِلَّهِ﴾^(٤) وقوله: ﴿وَإِذَا نُنَادِيَنَا يَٰنَبِيَّ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتُونَا بِبَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٥) وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾^(٦) وقوله:

(١) تفسير المنار (٢/ ٢٤-٢٥).

(٢) الأنعام: الآية (٨٣).

(٣) الأنعام: الآية (١٤٩).

(٤) آل عمران: الآية (٢٠).

(٥) الجاثية: الآية (٢٥).

(٦) البقرة: الآية (٢٥٨).

﴿وَالَّذِينَ يُجَاجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحِيشٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^(١) وإذا كانت الحجة اسمًا لما يحتاج به من حق أو باطل؛ صح استثناء حجة الظالمين من قوله: لئلا يكون للناس عليكم حجة، وهذا في غاية التحقيق، والمعنى: أن الظالمين يحتاجون عليك بالحجة الباطلة الداحضة، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾^(٢).

قال ابن كثير: «ووجه بعضهم حجة الظلمة - وهي داحضة - أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم، فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم؛ فلم يرجع عنه؟ والجواب: أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً؛ لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى في ذلك، ثم صرفه إلى قبله إبراهيم وهي الكعبة، فامتثل أمر الله في ذلك أيضاً، فهو - صلوات الله وسلامه عليه - مطيع لله في جميع أحواله، لا يخرج عن أمر الله طرفه عين، وأمته تبع له.

وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي: لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين، وأفردوا الخشية لي؛ فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه، وقوله: ﴿وَلَأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ عطف على ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾؛ أي: لأتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة؛ لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوها، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها»^(٣).

قال العلامة السعدي: «أي: شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة؛ لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين، فإنه لو بقي مستقبلاً لبيت المقدس، لتوجهت عليه الحجة، فإن أهل الكتاب، يجدون في كتابهم أن قبلته المستقرة، هي الكعبة البيت الحرام، والمشركون يرون أن من مفاخرهم؛ هذا البيت العظيم، وأنه من ملة إبراهيم، وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ، توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعي أنه على ملة إبراهيم، وهو من ذريته، وقد ترك استقبال قبلته؟! فباستقبال القبلة قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين، وانقطعت حججهم عليه.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: من احتج منهم بحجة، هو ظالم فيها، وليس لها

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٧٣).

(١) الشورى: الآية (١٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٣-٣٤٤).

مستند إلا اتباع الهوى والظلم؛ فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه، وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التي يوردونها على سبيل الاحتجاج محلاً يؤبه لها، ولا يلقي لها بال، فلهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾؛ لأن حجبتهم باطلة، والباطل كاسمه مخذول، مخذول صاحبه، وهذا بخلاف صاحب الحق؛ فإن للحق صولة وعزاً، يوجب خشية من هو معه، وأمر تعالى بخشيته، التي هي رأس كل خير، فمن لم يخش الله، لم ينكف عن معصيته، ولم يمثل أمره. وكان صرف المسلمين إلى الكعبة، مما حصلت فيه فتنة كبيرة، أشاعها أهل الكتاب، والمنافقون، والمشركون، وأكثروا فيها من الكلام والشبه، فلهذا بسطها الله تعالى، وبينها أكمل بيان، وأكدها بأنواع من التأكيدات، التي تضمنتها هذه الآيات.

منها: الأمر بها ثلاث مرات، مع كفاية المرة الواحدة، ومنها: أن المعهود؛ أن الأمر؛ إما أن يكون للرسول، فتدخل فيه الأمة، أو للأمة عموماً، وهذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: ﴿قَوْلٍ وَجْهًا﴾ والأمة عموماً في قوله: ﴿قَوْلًا وَجْهًا﴾.

ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة، التي أوردها أهل العناد، وأبطلها شبهة شبهة كما تقدم توضيحها.

ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبله أهل الكتاب.

ومنها: قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف، ولكن مع هذا قال: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

ومنها: أنه أخبر -وهو العالم بالخفيات- أن أهل الكتاب متقرر عندهم، صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم. ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد، وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة؛ قال: ﴿وَلَا تُنِمَّ عَلَيْكُمْ﴾.

فأصل النعمة الهداية لدينه، بإرسال رسوله، وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك، النعم المتممات لهذا الأصل، لا تعد كثرة ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم، وأعطى أمته؛ ما أتم به نعمته عليه وعليهم، وأنزل الله عليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ

لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا^(١).

فلله الحمد على فضله، الذي لا يبلغ له عدا، فضلاً عن القيام بشكره. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: تعلمون الحق وتعملون به، فالله -تبارك وتعالى- من رحمته بالعباد قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونبههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبين، حتى إن في جملة ذلك أنه يقيض للحق؛ المعاندين له فيجادلون فيه، فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها تتبين الأشياء، فلولا الليل، ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح، ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما اتضح الحق اتضاحاً ظاهراً، فلله الحمد على ذلك^(٢).

* * *

(١) المائدة: الآية (٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٧٠-١٧٢).

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١) ﴿١﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبینات، ويزكيهم؛ أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق، ودنس النفوس، وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن، والحكمة وهي السنة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفّهون بالقول الفري، فانتقلوا ببركة رسالته، ويمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجاياء العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (١)، الآية، وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (٢) قال ابن عباس: يعني بنعمة الله محمداً ﷺ» (٣).

قال أبو حيان: «في ذلك تشبيه إتمام هذه النعمة الحادثة من الهداية لاستقبال قبلة الصلاة؛ التي هي عمود الإسلام، وأفضل الأعمال، وأدل الدلائل على الاستمساك بشريعة الإسلام؛ بإتمام النعمة السابقة، بإرسال الرسول المتصف بكونه منهم إلى سائر الأوصاف التي وصفه تعالى بها، وجعل ذلك إتماماً للنعمة في الحالين؛ لأن استقبال الكعبة ثانياً؛ أمر لا يزداد عليه شيء ينسخه، فهي آخر القبلات المتوجه إليها في الصلاة، كما أن إرسال محمد ﷺ هو آخر إرسالات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-؛ إذ لا نبي بعده، وهو خاتم النبيين، فشبه إتمام تلك النعمة؛ التي هي كمال نعمة استقبال القبل، بهذا الإتمام الذي هو كمال إرسال

(١) آل عمران (١٦٤).

(٢) إبراهيم: الآية (٢٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/٣٤٤).

الرسول، وفي إتمام هاتين النعمتين عز للعرب، وشرف واستمالة لقلوبهم، إذ كان الرسول منهم، والقبلة التي يستقبلونها في الصلاة بيتهم الذي يحجونه قديماً وحديثاً ويعظمونه.

﴿رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ فيه اعتناء بالعرب؛ إذ كان الإرسال فيهم، والرسول منهم، وإن كانت رسالته عامة، وكذلك جاء: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾^(١) ويشعر هذا الامتنان بأنه لم يسبق أن يرسل ولا يبعث في العرب رسولاً غير نبينا محمد ﷺ، ولذلك أفرد، فقال: ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾^(٢) وصفه بأوصاف كلها معجز لهم، وهي كونه منهم، وتالياً عليهم آيات الله، ومزكياً لهم، ومعلماً لهم الكتاب والحكمة ومالم يكونوا يعلمون، وقدم كونه منهم، أي يعرفونه شخصاً ونسباً ومولداً ومنشأً؛ لأن معرفة ذات الشخص متقدمة على معرفة ما يصدر من أفعاله، وأتى ثانياً بصفة تلاوة الآيات إليه تعالى؛ لأنها هي المعجزة الدالة على صدقه، الباقية إلى الأبد، وأضاف الآيات إليه تعالى؛ لأنها كلامه ﷺ، ومن تلاوته تستفاد العبادات ومجامع الأخلاق الشريفة، وتنبع العلوم، وأتى ثالثاً بصفة التزكية، وهي التطهير من أنجاس الضلال؛ لأن ذلك ناشئ عن إظهار المعجز لمن أراد الله تعالى توفيقه وقبوله للحق، وأتى رابعاً بصفة تعليم الكتاب والحكمة؛ لأن ذلك ناشئ عن تطهير الإنسان باتباع النبي ﷺ، فيعلمه إذ ذاك ويفهمه ما انطوى عليه كتاب الله تعالى، وما اقتضته الحكمة الإلهية، وأتى بهذه الصفات فعلاً مضارعاً ليدل بذلك على التجدد؛ لأن التلاوة والتزكية والتعليم تتجدد دائماً، وأما الصفة الأولى، وهي كونه منهم، فليست بمتجددة، بل هو وصف ثابت له^(٣).

وقال القاسمي: «وفي إرساله فيهم ومنهم نعم عظيمة عليهم لما لهم فيه من الشرف. ولأن المشهور من حال العرب الأنفة الشديدة من الانقياد للغير. فبعثه الله تعالى من واسطتهم ليكونوا إلى القبول أقرب ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ﴾ يقرأ عليكم القرآن الذي هو من أعظم النعم؛ لأنه معجزة باقية. ولأنه يتلى فتأدى به العبادات ويستفاد منه جميع العلوم، ومجامع الأخلاق الحميدة، فتحصل من تلاوته كل

(٢) الجمعة: الآية (٢).

(١) الجمعة: الآية (٢).

(٣) البحر المحيط (٦١٨/١).

خيرات الدنيا والآخرة ﴿وَزَكَّيْكُمْ﴾ أي: يطهركم من الشرك وأفعال الجاهلية وسفاسف الأخلاق ﴿وَيَعْلَمُكُمْ الْكِتَابَ﴾ وهو القرآن. وهذا ليس بتكرار؛ لأن تلاوة القرآن عليهم غير تعليمه إياهم ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ وهي العلم بسائر الشريعة التي يشتمل القرآن على تفصيلها. ولذلك قال الشافعي رحمته الله: الحكمة هي سنة الرسول. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ تنبيه على أنه تعالى أرسل رسوله على حين فترة من الرسل، وجهالة من الأمم، فالخلق كانوا متحيرين ضالين في أمر أديانهم. فبعث الله تعالى النبي بالحق. حتى علمهم ما احتاجوا إليه في دينهم. فصاروا أعمق الناس علما وأبرهم قلوبا وأقلهم تكلفا وأصدقهم لهجة. وذلك من أعظم أنواع النعم. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية. ^(١) وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ ^(٢) قال ابن عباس: يعني بنعمة الله: محمدا صلوات الله عليه ^(٣).

وقال السعدي: «يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع، والنعم المتممة، ليس ذلك ببذع من إحساننا، ولا بأوله، بل أنعمنا عليهم بأصول النعم ومتمماته، فأبلغها، إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه، وأمانته وكماله ونصحه.

﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا﴾ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها. فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التي دلتكم أولا على توحيد الله وكماله، ثم على صدق رسوله، ووجوب الإيمان به، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة، والعلم اليقيني.

﴿وَزَكَّيْكُمْ﴾ أي: يطهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهاها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع،

(٢) إبراهيم: الآية (٢٨).

(١) آل عمران: الآية (١٦٤).

(٣) محاسن التأويل (٢/٣٠٩-٣١٠).

إلى التحابب والتواصل والتوَادد، وغير ذلك من أنواع التزكية.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة، معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلها. فيكون -على هذا- تعليم السنة داخل في تعليم الكتاب؛ لأن السنة، تبين القرآن وتفسره، وتعبر عنه.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين، لا علم ولا عمل. فكل علم أو عمل، نالته هذه الأمة فعلى يده ﷺ، وبسببه كان. فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق، وهي أكبر نعم نعم بها على عباده. فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها^(١).

* * *

(١) تفسير السعدي (١/١٧٣-١٧٤).

قوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن عاشور : «الفاء للتفريع ، عاطفة جملة الأمر بذكر الله وشكره على جمل النعم المتقدمة ؛ أي : إذ قد أنعمت عليكم بهاته النعم ؛ فأنا آمركم بذكرى ، وقوله : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ فعلان مشتقان من الذكر ، بكسر الذال ، ومن الذكر بضمها ، والكل مأمور به ؛ لأننا مأمورون بذكر الله تعالى عند الإقدام على الأفعال ؛ لنذكر أوامره ونواهيه ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾^(٢) وعن عمر بن الخطاب : (أفضل من ذكر الله باللسان ؛ ذكر الله عند أمره ونهيه) ، ومأمورون بذكر اسم الله تعالى بالسنتنا في جمل تدل على حمده وتقديسه ، والدعوة إلى طاعته ونحو ذلك»^(٣) .

قال السعدي : «فأمر تعالى بذكره ، ووعد عليه أفضل جزاء ، وهو ذكره لمن ذكره ، كما قال تعالى على لسان رسوله : «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم» .

وذكر الله تعالى ؛ أفضله ما تواطأ عليه القلب واللسان ، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله ومحبه ، وكثرة ثوابه»^(٤) .

قال النووي : «اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها ، بل كل عامل لله تعالى بطاعة ، فهو ذاكراً لله تعالى ، كذا قاله سعيد ابن جبير رحمته الله وغيره من العلماء ، وقال عطاء رحمته الله : مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام : كيف تشتري ، وتبيع ، وتصلي ، وتصوم ، وتنكح ، وتطلق ، وتحج . . . وأشباه هذا»^(٥) .

(١) الآية (١٥٢) .

(٢) آل عمران (١٣٥) .

(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٥٠) .

(٤) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٧٤) .

(٥) صحيح كتاب الأذكار وضعيفه (١/ ٧٠) .

قال ابن القيم: «كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكراً لله ﷻ، بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكراً منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته، وأحكامه وأفعاله، ووعدته ووعدته؛ ذكراً منه له، وثناؤه عليه بآلائه، وتمجيده، وحمده، وتسبيحه؛ ذكراً منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه، ورغبته ورهبته؛ ذكراً منه له، وسكوته وصمته؛ ذكراً منه له بقلبه، فكان ذاكرة لله في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه، قائماً وقاعداً وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه، ومسيره ونزوله، وظعنه وإقامته»^(١).

وقال القاسمي: «وأما الأذكار المحدثه والسماعات المبتدعة، سماع الكف والدف، فلم يكن الصحابة، والتابعون لهم بإحسان، وسائر الأكابر من أئمة الدين، يجعلون هذا طريقاً إلى الله -تبارك وتعالى- . ولا يعدونه من القرب والطاعات بل يعدونه من البدع المذمومة . حتى قال الشافعي : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه (التغيير) يصدون به الناس عن القرآن . وأولياء الله العارفون يعرفون ذلك . ويعلمون أن للشيطان فيه نصيباً وافراً . ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم . ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية الله ، كان نصيب الشيطان فيه أكثر . فسماع الغناء والملاهي من أعظم ما يقوي الأحوال الشيطانية . وهو سماع المشركين ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾^(٢) . قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما وغيرهما من السلف : التصدي : التصفيق باليد . والمكاء : مثل الصفير . فكان المشركون يتخذون هذا عبادة ، وأما النبي ﷺ وأصحابه فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءة والذكر ونحو ذلك ، والاجتماعات الشرعية . ولم يجتمع النبي ﷺ وأصحابه على استماع غناء قط . لا بكف ولا بدف ولا تواجد . وكان أصحاب النبي ﷺ ، إذا اجتمعوا ، أمروا واحداً منهم أن يقرأ . والباقيون يستمعون . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري : ذكرنا ربنا ، فيقرأ وهم يستمعون ، ومر النبي ﷺ بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال له : «مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك» ، فقال : لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً ، أي لحسنه لك تحسيناً . كما قال النبي ﷺ : «زينوا القرآن

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٦٥).

(٢) الأنفال : الآية (٣٥).

بأصواتكم»^(١). وقال ﷺ: «لله أشد أذنًا (أي: استماعًا) إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به، من صاحب القينة إلى قينته»^(٢). وعن عبد الله بن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ علي» قلت: يا رسول الله! اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نعم» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(٣) قال: «حسبك الآن». فالتفت فإذا عيناه تذرفان^(٤).

ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم كما ذكر الله تعالى ذلك في كتابه فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا﴾^(٥) وقال تعالى في أهل المعرفة: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾^(٦) ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الإيمان واقتسار الجلد ودمع العين فقال تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَنْفَعُ مَنْ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْتُونُ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٧) وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾^(٨)، فخلاص هذا السماع، من الباطل الذي نهى عنه. ولذلك لم يفعله القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي ﷺ، ولا فعله أكابر المشايخ، فليفق من كان من الفريق الأدنى في سلوك فقره. وليصحب من هو من الفريق الأعلى إلى حلول قبره، وليداو جراحات اجتراح بدعته، باتباع هدى النبي ﷺ ولزوم سنته. لقد رته

(١) أخرجه: أحمد (٢٨٣/٤) وأبو داود (١٤٦٨/١٥٥/٢) والنسائي (١٠١٤/٥٢١/٢) وابن ماجه (٤٢٦/١) (١٣٤٢) والحاكم (٥٧١-٥٧٢) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه من حديث فضالة بن عبيد: أحمد (١٩/٦) وابن ماجه (٤٢٥/١) (١٣٤٠) وصححه الحاكم (٥٧٠-٥٧١) على شرط الشيخين، وتعقبه الذهبي بقوله: «بل هو منقطع». وحسنه البوصيري في الزوائد، وضعفه

الألباني في الضعيفة (٢٩٥١). (٣) النساء: الآية (٤١).

(٤) أخرجه: أحمد (٣٨٠/١) والبخاري (٤٥٨٢/٣١٧/٨) ومسلم (٨٠٠/٥٥١/١) وأبو داود (٣٦٦٨/٧٤/٤) والترمذي (٣٠٢٥/٢٢٢/٥) والنسائي في الكبرى (٨٠٧٨/٢٩-٢٨/٥).

(٥) مريم: الآية (٥٨). (٦) المائدة: الآية (٨٣).

(٧) الزمر: الآية (٢٣). (٨) الأنفال: الآية (٢).

فيتولد منه الخوف والحزن . وتارة لنعمته فيتولد منه الشكر ، ولذلك قيل : ذكر النعمة شكرها . وتارة لأفعاله الباهرة فيتولد منه العبر . فحق المؤمن أن لا ينفك أبدًا عن ذكره تعالى على أحد هذه الأوجه^(١) .

قلت : ما ذكره العلامة القاسمي رحمته الله من أوصاف للبدعة التي حدثت في الذكر هو قطرة من بحر ، وشعرة من جلد ، وحصاة من جبل ، فما أحدثه المبتدعة في هذه الأزمان باسم التصوف والمشايخ المزعومة ؛ أمر لا يوصف ، وأصبح ذكرهم لهوًا ولعبًا ، ومشابهة لأصحاب المجون ، الذين يبيتون لياليلهم على الآلات والاختلاط ، ويعتبرون كل ذلك قرينةً لله واستلذاً بذكره والنظر إلى آياته !! فالشرك كلامهم ، والانحراف الخلقي سلوكهم ، وأكل أموال الناس بالباطل هو غذاؤهم ، فليحذر المسلم هذه الفئات الضالة ، فإنها وباء ووبال على أهل الإسلام ، سواء كانت تجانية أو درقاوية ، أو قادرية أو نقشبندية ، أو ياسينية أو بودشيشية ، فكل هؤلاء ضلوا وأضلوا ، نسأل الله السلامة والعافية .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في أن الذكر الصحيح من كمال التوحيد

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(٢) .

★ غريب الحديث:

الباع : هو قدر مد اليدين .

الهرولة : ضرب من المشي السريع ، وهي دون العدو .

(١) محاسن التأويل (٢/٣١٢-٣١٥) .

(٢) أخرجه : أحمد (٢/٢٥١) والبخاري (١٣/٤٧٤-٤٧٥/٧٤٠٥) ومسلم (٤/٢١٠٢/٢٦٧٥) والترمذي (٤/

٥١٤-٢٣٨٨) مختصراً . والنسائي في الكبرى (٤/٤١٢/٧٧٣٠) وابن ماجه (٢/١٢٥٥/٣٨٢٢) .

* عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله: يا ابن آدم إذا ذكرتني خاليًا ذكرتني خاليًا، وإذا ذكرتني في ملا ذكرتني في ملا خير من الذين تذكرني فيهم»^(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله ﻻ يقول: أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه»^(٢).

★ فوائد الأحاديث:

قوله: «أنا عند ظن عبدي بي»

قال القرطبي: «قيل: معناه ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن قبول الأعمال عند فعلها على شروطها تمسكًا بصادق وعده، وجزيل فضله، قلت: ويؤيده قوله ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»^(٣)، وكذلك ينبغي للتائب والمستغفر، وللعامل أن يجتهد في القيام بما عليه من ذلك، موقنًا أن الله تعالى يقبل عمله، ويغفر ذنبه، فإن الله تعالى قد وعد بقبول التوبة الصادقة، والأعمال الصالحة، فأما لو عمل هذه الأعمال، وهو يعتقد، أو يظن أن الله تعالى لا يقبلها، وأنها لا تنفعه، فذلك هو القنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، وهو من أعظم الكبائر، ومن مات على ذلك وصل إلى ما ظن منه، كما قد جاء في بعض ألفاظ هذا الحديث: «أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء»^(٤)، فأما ظن المغفرة والرحمة مع الإصرار على المعصية، فذلك محض الجهل والعزة، وهو يجر إلى مذهب المرجئة، وقد قال ﷺ: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على

(١) أخرجه: البزار (٤/٦٠٤/٣٠٦٥ كشف الأستار). قال الهيثمي في المجمع (١٠/٧٨): «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير بشر بن معاذ العقدي وهو ثقة». وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/٣٩٤): «رواه البزار بإسناد صحيح».

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٥٤٠) البخاري - تعليقًا بصيغة الجزم - (١٣/٦١٠) وابن ماجه (٢/١٢٤٦/٣٧٩٢). وصححه ابن حبان الإحسان (٣/٩٧/٨) والحاكم (١/٤٩٦) ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: الترمذي من حديث أبي هريرة (٥/٤٨٣/٣٤٧٩) وقال: «حديث غريب». والحاكم (١/٤٩٣) وقال: «هذا حديث مستقيم الاسناد، تفرد به صالح المري»، وتعقبه الذهبي بقوله: «صالح متروك». وذكره الشيخ الألباني في الصحيحة (٢/١٤١-١٤٢/٥٩٤) وأورد له شاهدا من حديث ابن عمرو. وحسنه الهيثمي في المجمع (١٠/١٤٨) وذكر له شاهدا آخر عن ابن عمر.

(٤) أخرجه أحمد (٣/٤٩١) وصححه ابن حبان: الإحسان (٢/٤٠١/٦٣٣) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

الله»^(١)، والظن: تغليب أحد المجوزين بسبب يقتضي التغليب، فلو خلا عن السبب المغلب لم يكن ظنا؛ بل غرة وتمنياً. «^(٢)

وقال الشوكاني: «فيه ترغيب من الله ﷻ لعباده بتحسين ظنونهم، وأنه يعاملهم على حسبها، فمن ظن به خيراً أفاض عليه جزيل خيراته، وأسبل عليه جميل تفضلاته، ونثر عليه محاسن كراماته، وسوابغ عطياته، ومن لم يكن في ظنه هكذا؛ لم يكن الله تعالى له هكذا، وهذا هو معنى كونه ﷻ عند ظن عبده. فعلى العبد أن يكون حسن الظن بربه في جميع حالاته، ويستعين على تحصيل ذلك باستحضاره؛ ما ورد من الأدلة الدالة على سعة رحمة الله ﷻ»^(٣).

قوله: «وأنا معه إذا ذكرني»

قال ابن القيم رحمه الله: «الذاكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه، وهذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾^(٤)، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٥)، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٦)، ﴿لَا تَخْزَنَ آبُكَ اللَّهُ مَعَكُمْ﴾^(٧)، وللذاكر من هذه المعية نصيب وافر، كما في الحديث الإلهي: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفّته»^(٨).

وقال الشوكاني: «فيه تصريح بأن الله ﷻ مع عباده عند ذكرهم له، ومن مقتضى ذلك أن ينظر إليه برحمته، ويمده بتوقيفه وتسديده. فإن قلت: هو مع جميع عباده كما قال ﷻ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(٩) وقوله -جل ذكره-: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاعِيَهُمْ﴾^(١٠) الآية؛ قلت: هذه معية عامة، وتلك معية خاصة حاصلة للذاكر على الخصوص بعد دخوله مع أهل المعية العامة، وذلك يقتضي مزيد العناية ووفور

(١) أخرجه من حديث شداد بن أوس أحمد (٤/١٢٤) والترمذي (٤/٥٥٠/٢٤٥٩) وحسنه وابن ماجه (٢/٤٢٣/١٤٦٠) والحاكم (١/٥٧) وصححه على شرط البخاري وتعقبه الذهبي بقوله: «لا والله أبو بكر واه» والحديث أورده الألباني في الضعيفة (١١/٤٩٩/٥٣١٩).

(٢) المفهم (٧/٦-٥).

(٣) تحفة الذاكرين (ص ١٢).

(٤) النحل: الآية (١٢٨).

(٥) البقرة: الآية (٢٤٩).

(٦) العنكبوت: الآية (٦٩).

(٧) التوبة: الآية (٤٠).

(٨) الوابل الصيب (١٤١-١٤٣).

(٩) الحديد: الآية (٤).

(١٠) المجادلة: الآية (٧).

الإكرام له والتفضل عليه، ومن هذه المعية الخاصة ما ورد في الكتاب العزيز؛ من كونه مع الصابرين، وكونه مع الذين اتقوا، وما ورد هذا المورد في الكتاب العزيز أو السنة، فلا منافاة بين إثبات المعية الخاصة وإثبات المعية العامة، ومثل هذا ما قيل من أن ذكر الخاص بعد العام يدل على أن للخاص مزية اقتضت ذكره على الخصوص بعد دخوله تحت العموم^(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان، بل الذكر القلبي واللساني، وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته، وذكر أمره ونهيه، وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله، والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتم إلا بتوحيده، فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه»^(٢).

قوله: «إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي»

قال شيخ الإسلام: «وهذا يدخل فيه ذكره باللسان في نفسه؛ فإنه جعله قسيم الذكر في الملاء، وهو نظير قوله: ﴿وَدُّونَ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾^(٣)، والدليل على ذلك أنه قال: ﴿يَالْقُدُّوْ وَالْأَصَالِ﴾^(٤) ومعلوم أن ذكر الله المشروع بالغدو والآصال في الصلاة وخارج الصلاة؛ هو باللسان مع القلب، مثل صلاتي الفجر والعصر، والذكر المشروع عقب الصلاتين، وما أمر به النبي ﷺ، وعلمه وفعله من الأذكار والأدعية المأثورة؛ من عمل اليوم والليلة المشروعة طرفي النهار بالغدو والآصال»^(٥).

وقال ابن القيم: «إذا شهد العبد ذكر ربه تعالى له، ووصل شاهده إلى قلبه؛ شغله ذلك عما سواه، وحصل لقلبه به غنى عال لا يشبهه شيء، وهذا كما يحصل للمملوك الذي لا يزال أستاذه وسيده يذكره ولا ينساه، فهو يحصل له - بشعوره بذكر أستاذه له - غنى زائد على إنعام سيده عليه، وعطاياه السنوية له، فهذا هو غنى ذكر الله للعبد، وقد قال ﷺ فيما يروي عن ربه - تبارك وتعالى - : «من ذكرني في نفسه

(١) تحفة الذاكرين (ص: ١٣).

(٢) الفوائد (ص: ١٦٦).

(٣) الأعراف: الآية (٢٠٥).

(٤) الأعراف: الآية (٢٠٥).

(٥) مجموع الفتاوى (١٥/٣٤-٣٥).

ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منهم»، فهذا ذكر ثان بعد ذكر العبد لربه، غير الذكر الأول الذي ذكره به حتى جعله ذاكراً، وشعور العبد بكلا الذكرين يوجب له غنى زائداً على إنعام ربه عليه وعطاياه له^(١).

وقال: «وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده»^(٢).

قوله: «وإن ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منهم»

قال عبد الله الغنيان: «والمعنى أن العبد إذا ذكر ربه ظاهراً في جماعة يسمعون ذكره لربه، فإن الله تعالى يذكره ويشني عليه في جماعة أفضل من الجماعة الذين ذكر العبد ربه فيهم؛ لأن الذين يذكر الله عبده فيهم في الملا الأعلى عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون»^(٣).

* عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله! إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أشبث به، قال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»^(٤).

* عن مالك بن يخامر؛ أن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال لهم: إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله ﷺ؛ أن قلت: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله»^(٥).

* من فوائد الحديثين:

قال ابن القيم رحمه الله: «فدله الناصح ﷺ على شيء يبعثه على شرائع الإسلام، والحرص عليها، والاستكثار منها، فإنه إذا اتخذ ذكر الله تعالى شعاره، أحبه

(١) طريق الهجرة (ص ٤٢).

(٢) الفوائد (ص ٢٤٧).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/٢٦٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/١٨٨) والترمذي (٥/٤٢٧-٤٢٨/٣٣٧٥) وقال: «حديث غريب من هذا الوجه». وابن ماجه (٢/١٢٤٦-٣٧٩٣) وصححه ابن حبان (الإحسان ٣/٩٦-٩٧/٨١٤) والحاكم (١/٤٩٥) ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه: الطبراني (٢٠/٩٣/١٨١) وصححه ابن حبان (الإحسان ٣/٩٩-١٠٠/٨١٨). والبزار (كشف الأستار ٤/٣٠٥٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢). قال الهيثمي في المجمع (١٠/٧٤): «رواه الطبراني بأسانيد وفي هذه الطريق خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك، وضعفه جماعة ووثقه أبو زرعة الدمشقي وغيره، وبقية رجاله ثقات ورواه البزار من غير طريقه إلا أنه قال: أخبرني بأفضل الأعمال وأقربه إلى الله. وإسناده حسن» اهـ. وله شاهد من حديث عبد الله بن بسر وقد تقدم قبله.

وأحب ما يحب، فلا شيء أحب إليه من التقرب بشرائع الإسلام، فدلّه ﷺ على ما يتمكن به من شرائع الإسلام، وتسهل به عليه، وهو ذكر الله ﷻ. يوضحه: أن ذكر الله ﷻ من أكبر العون على طاعته، فإنه يحببها إلى العبد، ويسهلها عليه، ويلذذها له، ويجعل قرة عينه فيها، ونعيمه وسروره بها، بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل»^(١).

* عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى، قال: «ذكر الله»^(٢).

★ من فوائد الحديث:

قال الحافظ: «والمراد بالذكر هنا: الإتيان بالألفاظ التي ورد الترغيب في قولها والإكثار منها، مثل الباقيات الصالحات، وهي: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) وما يلتحق بها من الحوقلة والبسمة والحسبة والاستغفار ونحو ذلك والدعاء بخيري الدنيا والآخرة، ويطلق ذكر الله أيضاً ويراد به: المواظبة على العمل بما أوجبه أو ندب إليه كتلاوة القرآن، وقراءة الحديث، ومدارسة العلم، والتنفل بالصلاة، ثم الذكر يقع تارة باللسان ويؤجر عليه الناطق، ولا يشترط استحضاره لمعناه، ولكن يشترط أن لا يقصد به غير معناه، وإن انضاف إلى النطق الذكر بالقلب فهو أكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى ونفي النقائص عنه ازداد كمالاته، فإن وقع ذلك في عمل صالح مهما فرض من صلاة أو جهاد أو غيرهما ازداد كمالاته، فإن صحح التوجه وأخلص لله تعالى في ذلك فهو أبلغ الكمال»^(٣).

قال ابن رجب رحمه الله: «وقد تكاثرت النصوص بتفضيل الذكر على الصدقة

(١) الوابل الصيب (١٦٣-١٦٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٤٤٧/٦) والترمذي (٣٣٧٧/٥) وابن ماجه (٣٧٩٠/٢) والحاكم (٤٩٦/١) وصححه ووافقه الذمبي. قال الهيثمي في المجمع (٧٣/١٠): «رواه أحمد وإسناده حسن».

(٣) الفتح (٢٥٠/١١).

بالمال وغيرها من الأعمال، كما في حديث أبي الدرداء...» فذكر الحديث^(١).

قال الطيبي: «قال الأشرف: لعل الخيرية والأرفعية في الذكر؛ لأجل أن سائر العبادات من إنفاق الذهب والفضة، ومن ملاقات العدو، والمقاتلة معهم؛ إنما هي وسائل ووسائط يتقرب العباد بها إلى الله، والذكر إنما هو المقصود الأسنى، والمطلوب الأعلى، وناهيك عن فضيلة الذكر قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾»^(٢).

وقال الشوكاني: «قوله: «بخير أعمالكم» فيه دليل على أن الذكر خير الأعمال على العموم؛ كما يدل عليه إضافة الجمع إلى الضمير، وكذلك إضافة أزكى وأرفع إلى ضمير الأعمال، والزكاء: النماء والبركة، فأفاد كل ذلك أن الذكر أفضل عند الله ﷻ من جميع الأعمال التي يعملها العباد، وأنه أكثرها نماء وبركة، وأرفعها درجة، وفي هذا ترغيب عظيم، فإنه يدخل تحت الأعمال كل عمل يعمله العبد كائناً ما كان.

قوله: «وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة» وفي نسخة: «من إنفاق الذهب والورق»، وفي نسخة الجمع بين الفضة والورق، والورق هي الدراهم المضروبة، فعطفه على الفضة من عطف الخاص على العام، وعطف إنفاق الذهب والفضة على ما تقدم من عموم الأعمال مع كونه مندرجا تحتها؛ يدل على فضيلة زائدة على سائر الأعمال، كما هو النكتة المذكورة في عطف الخاص على العام، وهكذا قوله: «وخير لكم من أن تلقوا العدو» وهذا من عطف الخاص على العام؛ لكون الجهاد من الأعمال الفاضلة، وطبقته مرتفعة على كثير من الأعمال، وفي تخصيص هذين العاملين الفاضلين بالذكر أيضاً بعد تعميم جميع الأعمال؛ زيادة تأكيد لما دل عليه: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم» وما بعده من فضيلة الذكر على كل الأعمال، ومبالغة في النداء بفضله عليها، ودفع لما يظن من أن المراد بالأعمال هاهنا غير ما هو متناه في الفضيلة وارتفاع الدرجة، وهو الجهاد والصدقة بما هو محبب إلى قلوب العباد فوق كل نوع من أنواع المال، وهو الذهب والفضة»^(٣).

وقال: «قد أورد بعض أهل العلم إشكالاً هاهنا، فقال: إن صدقة المال يتعدى

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٦٦-٦٧).

(٢) شرح الطيبي (٥/١٧٣٣).

(٣) تحفة الذاكرين (ص: ١٥).

نفعها إلى الغير بخلاف الذكر، والنفع المتعدي أفضل من النفع القاصر، وأجاب الحلبي عن ذلك بأنه لم يكن المراد من هذا الذكر ذكر اللسان وحده، بل المراد ذكر اللسان والقلب جميعاً، وذكر القلب أفضل لأنه يردع عن التقصير في الطاعات، وعن المعاصي والسيئات، وذكر مثل هذا الجواب البيهقي في شعب الإيمان وأقره. ونقل عن النووي أن ذكر اللسان مع حضور القلب أفضل من ذكر القلب وحده، وعلة ذلك أن شغل جارحتين فيما يرضي الله ﷻ أفضل من شغل جارحة واحدة، وكذلك شغل ثلاث جوارح أفضل من شغل جارحتين، وكل ما زاد فهو أفضل^(١).

* عن جابر رضي الله عنه رفعه إلى النبي ﷺ قال: «ما عمل آدمي عملاً أنجى له من العذاب من ذكر الله» قيل: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع»^(٢).

★ من فوائد الحديث:

فيه أن من فضائل الذكر؛ أنه ينجي من عذاب الله تعالى^(٣).

* عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه؛ مثل الحي والميت»^(٤).

★ من فوائد الحديث:

قال الشوكاني: «وفي هذا التمثيل منقبة للذاكر جليلة، وفضيلة له نبيلة، وأنه بما يقع منه من ذكر الله ﷻ في حياة ذاتية وروحية لما يغشاه من الأنوار، ويصل إليه من الأجور، كما أن التارك للذكر وإن كان في حياة ذاتية فليس لها اعتبار، بل هو شبيه بالأموات الذين لا يفيض عليهم بشيء مما يفيض على الأحياء المشغولين بالطاعة لله ﷻ، ومثل ما في هذا الحديث قوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا﴾

(١) تحفة الذاكرين (ص: ١٤).

(٢) أخرجه: الطبراني في الأوسط (٣/١٥٦/٢٣١٧). وفي الصغير (١/١٠٠/٢٠١). وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٧٤): «رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجالهما رجال الصحيح». وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (ج ٥٦٤٤).

(٣) الوابل الصيب (ص ٩٥).

(٤) أخرجه: البخاري (١١/٢٤٩/٦٤٠٧) واللفظ له ومسلم (١/٥٣٩/٧٧٩).

فَأَحْيَيْنَاهُ ﴿١﴾ والمعنى تشبيه الكافر بالميت وتشبيه الهداية إلى الإسلام بالحياة ﴿٢﴾.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم ﷻ - وهو أعلم منهم-: ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا؛ والله ما رأوك. قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيذاً، وأكثر لك تسبيحاً. قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا؛ والله يا رب ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة. قال: فمِمَّ يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا؛ والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأشهدكم أنني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى جلسهم» ﴿٣﴾.

* عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما: أنهما شهدا على رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده» ﴿٤﴾.

* عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله، لا يريدون بذلك إلا وجهه؛ إلا ناداهم مناد من السماء: أن قوموا مغفوراً لكم، قد بدلت سيئاتكم حسنات» ﴿٥﴾.

(١) الأنعام: الآية (١٢٢).

(٢) تحفة الذاكرين (ص: ١٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/٢٥١-٢٥٢) والبخاري (١١/٢٤٩-٢٥٠/٦٤٠٨) ومسلم (٤/٢٠٦٩-٢٠٧٠/٢٦٨٩) والترمذي (٥/٥٤٠-٥٤١/٣٦٠٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/٤٤٧) ومسلم (٤/٢٠٧٤-٢٧٠٠) والترمذي (٥/٤٢٩/٣٣٧٨) وابن ماجه (٢/١٢٤٥/٣٧٩١).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/١٤٢) والطبراني في الأوسط (٢/٣٣٤/١٥٧٩) والبيزار (كشف الأستار ٤/٤/٣٠٦١=).

* عن أنس رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «خلق الذكر»^(١).

★ فوائد الأحاديث:

قوله ﷺ: «فيقول ملك من الملائكة: فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة» وفي رواية مسلم: «فيهم فلان، عبد خطاء، إنما مر فجلس معهم».

قال القرطبي: «إنما استبعدت الملائكة أن يدخل هذا مع أهل المجلس في المغفرة؛ لأنه لم تكن عاداته حضور مجالس الذكر، وإنما كانت عاداته ملازمة الخطايا، فعرض له هذا المجلس، فجلسه، فدخل مع أهله فيما قسم لهم من المغفرة والرحمة، فيستفاد منه الترغيب العظيم، في حضور مجالس الذكر، ومجالسة العلماء والصالحين وملازمتهم»^(٢).

قوله ﷺ: «قال هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»

قال القرطبي: «هذه مبالغة في إكرامهم، وزيادة في إعلاء مكانتهم، ألا ترى: أنه أكرم جليسهم بنحو ما أكرموا به لأجلهم، وإن لم يشفعوا فيه، ولا طلبوا له شيئاً، وهذه حالة شريفة، ومنزلة منيفة، لا خيبنا الله منهم، وجعلنا من أهلها»^(٣).

وقال ابن حجر: «وفي الحديث فضل مجالس الذكر والذاكرين، وفضل الاجتماع على ذلك، وأن جليسهم يندرج معهم في جميع ما يتفضل الله تعالى به عليهم، إكراماً لهم ولو لم يشاركونهم في أصل الذكر، وفيه محبة الملائكة بني آدم واعتناؤهم بهم، وفيه أن السؤال قد يصدر من السائل وهو أعلم بالمسؤول عنه من المسؤول؛ لإظهار العناية بالمسؤول عنه، والتنويه بقدره، والإعلان بشرف منزلته. وقيل: إن في خصوص سؤال الله الملائكة عن أهل الذكر الإشارة إلى قولهم:

= وأبو يعلى (١٦٧/٧/٤٠٤١). وذكره الهيثمي في المجمع (٧٦/١٠) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبيهقي والطبراني في الأوسط، وفيه ميمون المراني وثقه جماعة وفيه ضعف، وبقي رجال أحمد رجال الصحيح. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب (١٥٠٤).

(١) أخرجه: أحمد (٣/١٥٠) والترمذي (٤٩٨/٥/٣٥١٠) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس؛ اهـ. والحديث حسنه الشيخ الألباني بشواهده (الصحيحة ٢٥٦٢).

(٢) المفهم (١٣/٧).

(٣) المفهم (١٣/٧).

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(١) فكانه قيل لهم: انظروا إلى ما حصل منهم من التسبيح والتقديس مع ما سلط عليهم من الشهوات ووساوس الشيطان، كيف عالجوا ذلك وضاهوكم في التسبيح والتقديس. وقيل: إنه يؤخذ من هذا الحديث أن الذكر الحاصل من بني آدم أعلى وأشرف من الذكر الحاصل من الملائكة؛ لحصول ذكر الآدميين مع كثرة الشواغل، ووجود الصوارف وصدوره في عالم الغيب^(٢).

قلت: المقارنة بين ذكر بني آدم وذكر الملائكة دخول فيما لا يعني؛ فذكر الملائكة خاص بهم، وصفاتهم وكل ما يتعلق بهم لا دخل لنا فيه، وإنما هو مما اختصوا به، وهم مجبولون على ذلك، والله تعالى لم يذكر لنا أنهم مجزيون على ذلك، لا في آية ولا حديث، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٠﴾ لَا يَسْخَرُونَ مِنْ الْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ يَعْمَلُونَ﴾^(٣)، وقال: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٤).

وأما ذكر بني آدم فهو معروف لنا بالتفصيل، وهو من العبادات التي يثابون عليها، فلا مقارنة بين ذكر بني آدم وذكر الملائكة، كما لا مقارنة بين خلق الملائكة وخلق بني آدم، فأولئك من نور وبني آدم من طين، فالأولى بكل عالم وشارح أن يمسك عن كل ما لا علم له به. والله أعلم.

قال السندي: «قوله: «إلا ناداهم مناد»: تشريفا لهم وإن لم يعلموا به، وهم عملوا بخبر الصادق، فينبغي أن يرغبوا فيه كما لو سمعوا، والله تعالى أعلم»^(٥).

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال: آله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إنني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلي من رسول الله ﷺ أقلّ عنه حديثاً مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا

(٢) الفتح (١١/٢٥٥).

(٤) التحريم: الآية (٦).

(١) البقرة: الآية (٣٠).

(٣) الأنبياء: الآيتان ٢٦ و ٢٧.

(٥) حاشية المسند (١٩/٤٣٨).

للإسلام ومن به علينا، قال: «آله ما أجلسكم إلا ذاك؟» قالوا: واللّه ما أجلسنا إلا ذاك، قال: «أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل، فأخبرني أن الله ﷻ يباهي بكم الملائكة»^(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه»^(٢).

* غريب الحديث:

نفّس: بالتشديد أي فرج.

كربة: أي غمًا وشدة.

غشيتهم: أي غطتهم وسترتهم.

حفتهم: طافوا بهم وأداروا حولهم.

* من فوائد الحديثين:

قوله ﷺ: «فأخبرني أن الله ﷻ يباهي بكم الملائكة»

قال القاضي عياض: «معناه يظهر فضلهم لهم، ويريهم حسن عملهم ويشني عليهم عندهم. وأصل البهاء: الحسن والجمال»^(٣).

وقال ابن علان: «وفلان يباهي بكذا: يفخر به ويتجمل على غيره، ووجه المفاخرة أنهم لم يمنعه من ذكر الله تعالى وطاعته ما قام بهم من العلائق والعوائق والدواعي القوية إلى البطالة والفتور، بل أقبلوا معها إلى الطاعة وإن شقت،

(١) أخرجه: أحمد (٩٢/٤) ومسلم (٢٠٧٥/٤) والترمذي (٤٢٩٠/٥) والنسائي (٣٣٧٩/٨) وابن ماجه (٥٤٤١/٦٤١).

(٢) أحمد (٢٥٢/٢) ومسلم (٢٠٧٤/٤) وأبو داود (١٤٥٥/٢) والترمذي (٢٩٤٥/٥) وابن ماجه (٢٢٥/٨٢/١).

(٣) الإكمال (١٩٦/٨).

فاستحقوا المدح لذلك، إذ الطاعة وإن وقعت من المَلَك إلا أنها لكونها له كالنفس للإنسان، يرتاح بها، إذ لا تعب عليه ولا مشقة فيها أصلاً، بخلاف النوع الإنساني، فإنه لما سلط عليه من العلائق والعوائق المذكورة يشق عليه مشقة شديدة فلذا باهى بعمل الإنسان الملائكة»^(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فهذه المباهاة من الرب -تبارك وتعالى- دليل على شرف الذكر عنده، ومحبة له، وأن له مزية على غيره من الأعمال»^(٢).

* عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه؛ إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان لهم حسرة»^(٣).

* عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه؛ كانت عليه من الله ترة، ومن اضطجع مضجعاً لا يذكر الله؛ كانت عليه من الله ترة»^(٤).

* من فوائد الحديثين:

قال الشوكاني: «أي: بسبب تفريطهم في ذكر الله ﷻ، وذلك لما يظهر لهم في موقف الحساب من أجور العامرين لمجالسهم بذكر الله ﷻ، فينبغي لمن حضر مجالس الغفلة أن لا يخليها عن شيء من ذكر الله، وأن يأتي عند القيام منها بكفارة المجلس التي أرشد إليها ﷺ كما في حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا^(٥)، عند أبي داود والحاكم، أنه ﷺ كان إذا أراد أن يقوم من مجلس قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» فقال رجل: إنك لتقول قولاً ما كنت تقول فيما مضى؟ قال: «ذلك كفارة لما يكون في المجلس»^(٦).

ومن فوائد الذكر -يقول ابن القيم-: «أنه يؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة،

(١) الفتوحات الربانية (١/١٠٢-١٠٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/٣٨٩) وأبو داود (٥/١٨٠-١٨١/٤٨٥٥) والترمذي [إثر حديث (٥/٤٣٠/٣٣٨٠) والنسائي في الكبرى (٦/١٠٨/١٠٢٤١) وصححه ابن حبان [الإحسان (٢/٣٥١/٥٩٠)].

(٤) أخرجه أحمد (٢/٤٦٣) وأبو داود (٥/١٨١/٤٨٥٦) والنسائي في الكبرى (٦/١٠٧/١٠٢٣٧) وصححه ابن حبان [الإحسان (٣/١٣٣/٨٥٣)] والحاكم (١/٥٥٠) ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه: أحمد (٦/٧٧) والنسائي (٣/٨١/١٣٤٣) وفي الكبرى (٦/١٠٦/١٠٢٣١) وصححه الحاكم (١/٤٩٦-٤٩٧) ووافقه الذهبي وهو عند أبي داود (٥/١٨٢/٤٨٥٩) من حديث أبي بركة الأسلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٦) تحفة الذاكرين (ص: ٢٣).

فإن كل مجلس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى كان عليه حسرة وفترة يوم القيامة^(١).
وقال رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم أن الحسرة كل الحسرة الاشتغال بمن لا يجز عليك
الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظك من الله ﷻ، وانقطاعك عنه، وضياح وقتك
عليك، وشتات قلبك، وضعف عزيمتك، وتفرق همك.

فإذا بليت بهذا -ولا بد لك منه- فعامل الله تعالى فيه، واحتسب عليه ما
أمكنك، وتقرب إلى الله تعالى بمرضاته فيه، واجعل اجتماعك به متجرا لك،
لا تجعله خسارة، وكن معه كرجل سائر في طريقه عرض له رجل وقفه عن سيره،
فاجتهد أن تأخذه معك وتسير به، فتحمله ولا يحملك، فإن أبى ولم يكن في سيره
مطمع، فلا تقف معه، بل اركب الدرب ودعه ولا تلتفت إليه، فإنه قاطع الطريق ولو
كان من كان، فانج بقلبك، وضن بيومك وليلتك، لا تغرب عليك الشمس قبل
وصول المنزل فتؤخذ، أو يطلع عليك الفجر وأنت في المنزل، فتسير الرفاق فتصبح
وحدك، وأننى لك بلحاقهم^(٢).

* * *

(١) الوابل الصيب (ص: ٩٦).

(٢) المصدر السابق (١٠٧-١٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ﴿١٥٦﴾ يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٧﴾

★ غريب الآية:

واشكروا: الشكر في اللغة: الظهور، من قولك: دابة شكور: إذا ظهر عليها
 السمن، والشكر: الشناء على المحسن بما أولاه من معروف، خلافة: الكفر،
 وهو نسيان النعمة وسترها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بذلك:
 اشكروا لي أيها المؤمنون فيما أنعمت عليكم من الإسلام والهداية للدين الذي
 شرعته لأنبيائي وأصفياي، ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ يقول: ولا تجحدوا إحساني إليكم،
 فأسلبكم نعمتي التي أنعمت عليكم، ولكن اشكروا لي عليها، وأزيدكم، فأتمم
 نعمتي عليكم، وأهديكم لما هديت له من رضيت عنه من عبادي، فإني وعدت
 خلقي أن من شكر لي زده، ومن كفرني حرمته وسلبته ما أعطيته»^(١).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أمر الله تعالى بشكره،
 ووعد على شكره بمزيد الخير فقال: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ
 كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾»^(٢)»^(٣).

قوله: ﴿يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ قال ابن
 كثير: «لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى
 الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في
 نقمة فيصبر عليها؛ كما جاء في الحديث «عجبا للمؤمن لا يقضي الله له قضاء

(١) جامع البيان (٣٧/٢).

(٢) إبراهيم: الآية (٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/٣٤٥).

إلا كان خيرًا له : إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له^(١) ، وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة كما تقدم في قوله : ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٢) ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمرٌ صلى^(٣) ، والصبر صبران : فصبر على ترك المحارم والمأثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات ، والثاني أكثر ثوابًا ؛ لأنه المقصود ، وأما الصبر الثالث ؛ وهو الصبر على المصائب والنوائب ، فذلك أيضًا واجب كالاستغفار من المعاييب ، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الصبر في بايين : الصبر لله بما أحب ؛ وإن ثقل على الأنفس والأبدان ، والصبر لله عما كره ؛ وإن نازعت إليه الأهواء^(٤) .

قال أبو حيان : «لأن الصبر والصلاة هما ركننا الإسلام ، فالصبر قصر النفس على المكاره والتكاليف الشاقة ، وهو أمر قلبي ؛ والصلاة ثمرته ، وهي من أشق التكاليف لتكررها . ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ؛ لأنهم سمعوا من طعن الكفار على التوجه إلى الكعبة والصلاة إليها أذى كثيرًا ، فأمروا عند ذلك بالاستعانة بالصبر والصلاة ، وقد قيد بعضهم الصبر هنا : بأنه الصبر على أذى الكفار بالطن على التحول والصلاة إلى الكعبة ، وبعضهم بالصبر على أداء الفرائض . . . والأولى ما قدمناه من عموم اللفظ ، فتندرج هذه الأفراد تحته»^(٥) .

قال شيخ الإسلام : «وذلك أن الصلاة هي أعرف المعروف من الأعمال ، وهي عمود الإسلام وأعظم شرائعه ، وهي قرينة الشهادتين ، وإنما فرضها الله ليلة المعراج ، وخاطب بها الرسول بلا واسطة ، لم يبعث بها رسولاً من الملائكة ، وهي آخر ما وصى به النبي ﷺ أمته ، وهي المخصوصة بالذكر في كتاب الله تخصيصاً بعد تعميم كقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾^(٦) وقوله : ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾^(٧) ، وهي المقرونة بالصبر وبالزكاة وبالنسك

(١) سيأتي مع أحاديث الباب .

(٢) البقرة : الآية (٤٥) .

(٣) تقدم تخريجه عند الآية (٤٥) من حديث حذيفة ؓ .

(٤) تفسير القرآن العظيم (١/٣٤٦) .

(٥) البحر المحيط (١/٦٢١) .

(٦) الأعراف : الآية (١٧٠) .

(٧) العنكبوت : الآية (٤٥) .

وبالجهاد في مواضع من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(١) وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾^(٢) وقوله: ﴿أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رَحَمَاءَ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سَجْدًا﴾^(٣) وقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾^(٤) إلى قوله: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾^(٥)، وأمرها أعظم من أن يحاط به، فاعتناء ولاية الأمر بها يجب أن يكون فوق اعتنائهم بجميع الأعمال، ولهذا كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله: إن أهم أمركم عندي الصلاة، من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها كان لما سواها أشد إضاعة^(٦).

وقال: «وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور؛ أحدها: الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره، وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن. الثاني: الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة. الثالث: الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب، ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيرا كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٧) وكقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرَيْنِ﴾^(٨) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ^(٩) وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾^(١٠) وكذلك في سورة ق: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾^(١١) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾^(١٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ^(١٣)، وأما قرنه بين

(١) وردت هذا الطرف من الآية في كثير من المواضع منها: البقرة (٤٣).

(٢) الأنعام: الآية (١٦٢).

(٣) الفتح: الآية (٢٩).

(٤) النساء: الآية (١٠٢).

(٥) الآية (١٠٣).

(٦) مجموع الفتاوى (٧٨/٧٠-٧١).

(٧) البقرة: الآية (٤٥).

(٨) هود: الآيتان (١١٤-١١٥).

(٩) طه: الآية (١٣٠).

(١٠) ق: الآية (٣٩).

(١١) الحجر: الآيتان (٩٧-٩٨).

الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جدًا .

فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية، إذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة: يدخل في الصلاة: ذكر الله تعالى، ودعاؤه، وتلاوة كتابه، وإخلاص الدين له، والتوكل عليه، وفي الزكاة: الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع؛ من نصر المظلوم، وإغاثة الملهوف، وقضاء حاجة المحتاج. . وفي الصبر: احتمال الأذى، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، ومخالفة الهوى، وترك الأشر والبطر»^(١).

قلت: فلهذا درس شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا الفقه العظيم في دين الله، وبيان أن ولاية الأمور لا يمكن أن يستقيم حالهم ولا أن تعلو مرتبتهم، ولا نصر لهم ولا مقاومة لعدوهم بالسلاح والعدة والعتاد، إلا بإظهار شعائر دينه وإعلاء كلمته، وإقامة توحيده والدعوة إليه، ومحاربة ما يخالفه حربًا لا هوادة فيها ولا مناقشة، فالتوحيد كلمة الله العليا، والعمود الفقري لدينه؛ فإن ضاع ضاع الدين، وإن قام قام الدين، والصلاة من أعظم شعائر الدين، ومن لم يهتم بها من ولاية الأمور فلا خير فيه، فالرسول -عليه الصلاة والسلام- لم يثبت أنه تخلف عن الإمامة بالناس إلا في تبوك لما ذهب لقضاء حاجته، وفي مرضه الذي قدم فيه أبا بكر رضي الله عنه، وهكذا الخلفاء من بعده، وشهادة عمر كانت في محرابه، فالعناية بالصلاة والزكاة وبقية أركان الإسلام دلالة صدق وإخلاص، والتهاون بها دلالة انحراف وتهاون بدين الله، فإلى الله المشتكى من واقع تعيشه أكثر الأمة الإسلامية في التهاون بالتوحيد وبهذه الشعائر العظيمة.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن شكر النعم والصبر على المصائب من كمال العبودية لله

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتحبون أن تجتهدوا في الدعاء؟ قولوا: اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(٢).

(١) المصدر السابق (٢٨/٣٦١-٣٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٩٩) ومن طريقه: أبو نعيم (٩/٢٢٣) قال الهيثمي في المجمع (١٠/١٧٢): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، غير موسى بن طارق وهو ثقة، اه وصححه الحاكم (١/٤٩٩) ووافقه الذهبي، =

* عن الصنابحي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ أخذ بيده يوماً ثم قال: «يا معاذ! إني لأحبك» فقال معاذ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! وأنا أحبك، قال: «أوصيك يا معاذ: لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

وأوصى بذلك معاذ الصنابحي، وأوصى به الصنابحي أبا عبد الرحمن، وأوصى أبو عبد الرحمن عقبة بن مسلم^(١).

★ فوائد الحديثين:

قال ابن علان: -نقلًا عن فتح الإله-: «وبما تقرر علم أنه ﷺ جمع في هذه الألفاظ القليلة مطالب الدنيا والآخرة، وجعل الشكر وسطا لتكفله بمصالح الدنيا والآخرة بنص قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٢) أي: مما أنتم فيه من نعم الدارين، وجعل الذكر وحسن العباداة مبدأ ومنتهى؛ لأنهما لما تمحضا للمصالح الأخروية والمعارف الربانية؛ استحقا أن يبدأ بأحدهما ويختم بالآخر؛ إشارة إلى أن الآخرة وشهودها وما يؤدي إليها؛ هو المقصود بداية ونهاية. اهـ ملخصاً، وعطف «وحسن عبادتك» على الشكر عطف خاص على عام، إذ الشكر أداء العبودية لما تقدم من أنه شرعاً صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه لما خلق لأجله، لكن منه ما هو حسن وهو ما صحب بالحضور والخضوع والخشوع، فيكون أقرب إلى القبول، ومنه ما ليس كذلك»^(٣).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»^(٤).

= وصححه إسناده الشيخ الألباني في الصحيحة (٨٤٤).

(١) أخرجه: أحمد (٥/٢٤٤-٢٤٥) وأبو داود (٢/١٨٠-١٨١/١٥٢٢) والنسائي (٣/٦١/١٣٠٢). وصححه ابن خزيمة (١/٣٦٩-٧٥١)، وابن حبان (الاحسان ٥/٣٦٤-٣٦٦/٢٠٢٠-٢٠٢١)، والحاكم (١/٢٧٣) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢) إبراهيم: الآية (٧).

(٣) دليل الفالحين (٤/٢٢٦).

(٤) أخرجه أحمد (٢/٢٨٩)، والترمذي (٤/٥٦٣/٢٤٨٦) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (١/٥٦١/١٧٦٤). وعلقه البخاري (٩/٧٢٧). وصححه: ابن خزيمة (٣/١٩٧-١٩٨/١٨٩٨)، وابن حبان (الاحسان ٢/١٦/٣١٥) والحاكم (٤/١٣٦) ووافقه الذهبي.

* فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «قال ابن التين: الطاعم هو الحسن الحال في المطعم، وقال ابن بطلال: هذا من تفضل الله على عباده؛ أن جعل للطاعم إذا شكر ربه على ما أنعم به عليه ثواب الصائم الصابر، وقال الكرمانى: التشبيه هنا في أصل الثواب لا في الكمية ولا الكيفية، والتشبيه لا يستلزم المماثلة من جميع الأوجه، وقال الطيبي: ربما توهم متوهم أن ثواب الشكر يقصر عن ثواب الصبر فأزيل توهمه، أو وجه الشبه اشتراكهما في حبس النفس، فالصابر يحبس نفسه على طاعة المنعم، والشاكر يحبس نفسه على محبته اهـ، وفي الحديث الحث على شكر الله على جميع نعمه، إذ لا يختص ذلك بالأكل، وفيه رفع الاختلاف المشهور في الغني الشاكر والفقير الصابر وأنهما سواء، كذا قيل، ومساق الحديث يقتضي تفضيل الفقير الصابر؛ لأن الأصل أن المشبه به أعلى درجة من المشبه، والتحقيق عند أهل الحذق أن لا يجاب في ذلك بجواب كلي، بل يختلف الحال باختلاف الأشخاص والأحوال، نعم عند الاستواء من كل جهة، وفرض رفع العوارض بأسرها، فالفقير أسلم عاقبة في الدار الآخرة، ولا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيء، والله أعلم»^(١).

* عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(٢).

* عن عمر بن سعد عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبت من قضاء الله ﷻ للمؤمن! إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته»^(٣).

* عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «عجبت للمؤمن! إن الله لم

(١) فتح الباري (٧٢٨/٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٣٣٢/٤) ومسلم (٢٩٩٩/٤).

(٣) أخرجه: أحمد (١٧٣/١) والنسائي في الكبرى (١٠٩٠٦/٢٦٣/٦) وذكره الهيثمي (٢٠٩/٧) وقال: «رواه أحمد بأسانيد ورجالها رجال الصحيح». وصحح إسناده الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٧٧/١).

يقضى له قضاء؛ إلا كان خيرا له»^(١).

★ فوائد الأحاديث:

قوله: «وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»

قال المناوي: «وليس ذلك للكافرين ولا للمنافقين، ثم بين وجه العجب بقوله: «إن أصابته سرء» كصحة وسلامة ومال وجاه؛ «شكر» الله على ما أعطاه، «وكان خيرا له» فإنه يكتب في ديوان الشاكرين. «وإن أصابته ضراء» كمصيبة؛ «صبر فكان خيرا له»، فإنه يصير من أحزاب الصابرين، الذين أثنى الله عليهم في كتابه المبين، فالعبد ما دام قلم التكليف جاريا عليه؛ فمناهج الخير مفتوحة بين يديه، فإنه بين نعمة يجب عليه شكر المنعم بها، ومصيبة يجب عليه الصبر عليها، وأمر ينفذه، ونهي يجتنبه، وذلك لازم له إلى الممات»^(٢).

وقال العثيمين: «وفي هذا الحديث الحث على الشكر عند السراء؛ لأنه إذا شكر الإنسان ربه على نعمة فهذا من توفيق الله له، وهو من أسباب زيادة النعم كما قال الله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾»^(٣) وإذا وفق الله العبد لشكره فهذه نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثانية، فإذا وفق فهي نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثالثة وهكذا؛ لأن الشكر قلّ من يقوم به، فإذا منّ الله عليك وأعانك عليه فهذه نعمة»^(٤).

(١) أخرجه: أحمد (١١٧/٣) وأبو يعلى (٤٠١٩/٨٦/٧) والقضاعي في الشهاب (١/٣٤٨/٥٩٦). وصححه ابن

حيان (الاحسان ٢/٥٠٧/٧٢٨).

(٢) فيض القدير (٤/٣٠٢).

(٤) شرح رياض الصالحين (١/١٤٥).

(٣) إبراهيم: الآية (٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٥٤﴾

★ غريب الآية:

سبيل الله: السبيل: الطريق، والمراد هنا: الجهاد.
لا تشعرون: أي لا تدركون بحواسكم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره-: يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر على طاعتي في جهاد عدوكم، وترك معاصي، وأداء سائر فرائضي عليكم، ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله: هو ميت، فإن الميت من خلقي من سلبته حياته، وأعدمته حواسه، فلا يلتذ لذة، ولا يدرك نعيمًا؛ فإن من قتل منكم، ومن سائر خلقي في سبيلي؛ أحياء عندي في حياة ونعيم، وعيش هنيئ، ورزق سني، فرحين بما آتيتهم من فضلي، وحبوتهم به من كرامتي»^(١).

قال الشوكاني: «أي لا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله هم أموات، بل هم أحياء، ولكن لا تشعرون بهذه الحياة عند مشاهدتكم لأبدانهم بعد سلب أرواحهم؛ لأنكم تحكمون عليها بالموت في ظاهر الأمر بحسب ما يبلغ إليه علمكم الذي هو بالنسبة إلى علم الله؛ كما يأخذ الطائر في منقاره من ماء البحر، وليسوا كذلك في الواقع، بل هم أحياء في البرزخ، وفي الآية دليل على ثبوت عذاب القبر، ولا اعتداد بخلاف من خالف في ذلك، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة ودلت عليه الآيات القرآنية، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٢)»^(٣).

(١) جامع البيان (٣٨/٢).

(٢) آل عمران (١٦٩).

(٣) فتح القدير (١/٢٣٤).

قال السعدي: «لما ذكر -تبارك وتعالى-، الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأحوال؛ ذكر نموذجاً مما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات البدنية، وأشقها على النفوس، لمشقته في نفسه، ولكونه مؤدياً للقتل وعدم الحياة، التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوآزمها، فكل ما يتصرفون به، فإنه سعي لها، ودفع لما يضادها.

ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبيب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى: أن من قتل في سبيله، بأن قاتل في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض؛ فإنه لم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل، مما تظنون وتحسبون. فالشهداء ﴿أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَنَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى، وتمتعهم برزقه البدني في المأكولات والمشروبات اللذيذة، والرزق الروحي، وهو الفرح، وهو الاستبشار، وزوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا، بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، وفي هذه الآية، أعظم حث على الجهاد في سبيل الله، وملازمة الصبر عليه، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب؛ لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام، هو الذي فتر العزائم، وزاد نوم النائم، وأفات الأجور العظيمة والغنائم، لم لا يكون كذلك والله تعالى قد ﴿أَشْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَهِمُ الْجَنَّةِ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُونَ وَيُقْبَلُونَ﴾ (٢).

فوالله لو كان للإنسان ألف نفس، تذهب نفساً فنفساً في سبيل الله؛ لم يكن عظيماً في جانب هذا الأجر العظيم، ولهذا لا يتمنى الشهداء -بعد ما عاينوا- من ثواب الله وحسن جزائه؛ إلا أن يردوا إلى الدنيا، حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد

(١) آل عمران: (١٦٩-١٧١).

(٢) التوبة: (١١١).

مرة، وفي الآية، دليل على نعيم البرزخ وعذابه، كما تكاثرت بذلك النصوص^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الشهادة وعظم أجر الشهداء

* عن مسروق قال: سألتنا عبد الله - هو ابن مسعود رضي الله عنه - عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»^(٢).

* عن كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة»^(٣).

★ غريب الحديث:

تعلق من ثمر الجنة: يروى بفتح اللام وهو الأكثر، ويروى بضم اللام، والمعنى واحد، وهو الأكل والرعي، يقول: تأكل من ثمار الجنة، وترعى: تسرح بين أشجارها، والعلوقة والعلاق والعلوق: الأكل والرعي، وتقول العرب: ما ذاق اليوم علوقاً أي طعاماً.

* عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بيباب الجنة في قبة خضراء، يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا»^(٤).

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٧٨/١-١٧٩).

(٢) أخرجه: مسلم (٣/١٥٠٢/١٨٨٧) والترمذي (٥/٢١٥/٣٠١١) وابن ماجه (٢/٩٣٦/٢٨٠١).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/٣٨٦/١٥١/٤) الترمذي (٤/١٦٤١) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٤/٤١٤-٤١٥/٢٠٧٢).

ابن ماجه (٢/١٤٢٨/٤٢٧١).

(٤) أخرجه: أحمد (١/٢٦٦) والطبراني في الكبير (١٠/٤٠٥/١٠٨٢٥) وصححه ابن حبان (١٠/٥١٥/٤٦٥٨).

والحاكم (٢/٧٤) ووافقه الذهبي.

* فوائد الأحاديث:

قال القاضي عياض: «وفيه دليل على مجازاة الأموات بالثواب والعقاب قبل القيامة، وقد ترى من هذا في عذاب القبر، وفيه أن الأرواح باقية لا تفتنى، فينعم المحسن ويعذب المسيء، كما جاء في القرآن والآثار، وهو مذهب أهل السنة؛ خلافاً لغيرهم من أهل البدع القائلين بقناتها»^(١).

قال ابن عبد البر: «اختلف العلماء في معنى هذا الحديث، فقال منهم قائلون: أرواح المؤمنين عند الله في الجنة، شهداء كانوا أم غير شهداء، إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين، وتلقاهم ربهم بالعفو عنهم، وبالرحمة لهم.

واحتجوا: بأن هذا الحديث لم يخص فيه مؤمناً شهيداً من غير شهيد، واحتجوا أيضاً بما روي عن أبي هريرة: أن أرواح الأبرار في عليين، وأرواح الفجار في سجين. وعن عبد الله بن عمر مثل ذلك.

وهذا قول يعارضه من السنة ما لا مدفع في صحة نقله؛ وهو قوله ﷺ: «إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»^(٢)»^(٣).

وقال: «وقال آخرون: إنما معنى هذا الحديث في الشهداء دون غيرهم؛ لأن القرآن والسنة لا يدلان إلا على ذلك، أما القرآن فقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٤) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ»^(٥)...

- ثم ذكر ﷺ مجموعة من الآثار تدل على أن المقصود في الحديث هم الشهداء دون غيرهم -

ثم قال: وهذه الآثار كلها تدل على أنهم الشهداء دون غيرهم، وفي بعضها في

(١) إكمال المعلم (٣٠٦/٦).

(٢) أخرجه: أحمد (١٦/٢) والبخاري (٣٩١/٦) ومسلم (٣٢٤٠/٤) والترمذي (٣٨٤/٣).

(٣) والنسائي (١٠٧٢) وابن ماجه (٤٢٧/٢) وابن ماجه (٤٢٧٠/٢) من حديث ابن عمر.

(٤) آل عمران: الآيتان (١٦٩ و ١٧٠).

(٥) فتح البر (١٤٣/٢-١٤٤).

صورة طير، وفي بعضها في أجواف طير، وفي بعضها كطير، والذي يشبه عندي -والله أعلم- أن يكون القول؛ قول من قال كطير، أو كصور طير، لمطابقتها لحديثنا المذكور، وليس هذا موضع نظر ولا قياس؛ لأن القياس إنما يكون فيما يسوغ فيه الاجتهاد، ولا مدخل للاجتهاد في هذا الباب، وإنما نسلم فيه لما صح من الخبر، عمن يجب التسليم له^(١).

قال ابن القيم: «لا تنافي بين قوله ﷺ: «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة»^(٢) وبين قوله: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار» وهذا الخطاب يتناول الميت على فراشه والشهيد، كما أن قوله: «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة» يتناول الشهيد وغيره، ومع كونه يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي؛ ترد روحه أنهار الجنة، وتأكّل من ثمارها، وأما المقعد الخاص به والبيت الذي أعد له؛ فإنه إنما يدخله يوم القيامة، ويدل عليه أن منازل الشهداء ودورهم وقصورهم التي أعد الله لهم ليست هي تلك القناديل التي تأوي إليها أرواحهم في البرزخ قطعاً، فهم يرون منازلهم ومقاعدهم من الجنة، ويكون مستقرهم في تلك القناديل المعلقة بالعرش، فإن الدخول التام الكامل إنما يكون يوم القيامة، ودخول الأرواح الجنة في البرزخ أمر دون ذلك . . .

وأما قول من قال: إن حديث كعب في الشهداء دون غيرهم؛ فتخصيص ليس في اللفظ ما يدل عليه، وهو حمل اللفظ العام على أقل مسمياته، فإن الشهداء بالنسبة إلى عموم المؤمنين قليل جداً، والنبي ﷺ علق هذا الجزاء بوصف الإيمان، فهو مقتضي له، ولم يعلقه بوصف الشهادة . . . وأما النصوص والآثار التي ذكر في رزق الشهداء، وكون أرواحهم في الجنة؛ فكلها حق، وهي لا تدل على انتفاء دخول أرواح المؤمنين الجنة، ولا سيما الصديقين الذين هم أفضل من الشهداء بلا نزاع بين الناس، فيقال لهؤلاء: ما تقولون في أرواح الصديقين؛ هل هي في الجنة أم لا؟ فإن قالوا: إنها في الجنة، -ولا يسوغ لهم غير هذا القول- فثبت أن هذه النصوص لا تدل على اختصاص أرواح الشهداء بذلك، وإن قالوا: ليست في

(١) فتح البر (٢/ ١٤٤-١٤٨).

(٢) تقدم تخريجه.

الجنة؛ لزمهم من ذلك أن تكون أرواح سادات الصحابة كأبي بكر الصديق، وأبي بن كعب، وعبدالله بن مسعود، وأبي الدرداء، وحذيفة بن اليمان، وأشباههم رضي الله عنهم؛ ليست في الجنة وأرواح شهداء زماننا في الجنة، وهذا معلوم البطلان ضرورة، فإن قيل: فإن كان هذا حكماً يختص بالشهداء؛ فما الموجب لتخصيصهم بالذكر في هذه النصوص؟ قلت: التنبيه على فضل الشهادة وعلو درجتها، وأن هذا مضمون لأهلها ولا بد، وأن لهم منها أوفر نصيب، فنصيبهم من هذا النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فراشهم، وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة منهم، فله نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه، ويدل على هذا أن الله سبحانه جعل أرواح الشهداء في أجواف طير خضر فإنهم لما بذلوا أنفسهم لله حتى أتلفها أعداؤه فيه؛ أعاضهم منها في البرزخ أبداناً خيراً منها، تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من نعيم الأرواح المجردة عنها، ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير أو كطير، ونسمة الشهيد في جوف طير، وتأمل لفظ الحديثين، فإنه قال: نسمة المؤمن طير فهذا يعم الشهيد وغيره، ثم خص للشهيد بأن قال هي في جوف طير، ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير، فصلوات الله وسلامه على من يصدق كلامه بعضه بعضاً، ويدل على أنه حق من عند الله، وهذا الجمع أحسن من جمع أبي عمر وترجيحه رواية من روى: «أرواحهم كطير خضر» بل الروايتان حق وصواب فهي كطير خضر وفي أجواف طير خضر^(١).

قال القاضي: «وأما قوله تعالى لهم: «هل تشتهون شيئاً»؛ فمبالغة في الإكرام والنعيم، إذ قد أعطاهم ما لا يخطر على قلب بشر، ثم رغبهم في سؤال الزيادة، فلم يجدوا وراء ما أعطاهم من مزيد، لكن تلقوا ذلك بالشكر بأن سألوه بأن يرد أرواحهم إلى أجسادهم حتى يجاهدوا فيه، ويبذلوا أنفسهم، ويقتلوا في شكر إحسانه، ويستلذوا ألم القتل والموت كمكافأة برة، ويجودوا بذواتهم له، إذ لم يقدرُوا على غاية فوق ذلك، والجود بالنفس أقصى غاية الجود^(٢).

قلت: الفرق بين قاتل نفسه وبين من يبذل نفسه لإعلاء كلمة الله، هو أن الشهيد

(١) الروح (٩٧-٩٩).

(٢) الإكمال (٦/٣٠٩).

له من الفضل والجزاء ما صرحت به النصوص، وقاتل نفسه عليه من العذاب ما لا تستحمله الفطر والعقول السليمة، فخرجو الله أن يجعلنا من الشهداء وأن لا يجعلنا من الذين استعجلوا أنفسهم تشاؤماً أو قنوطاً من رحمة الله، أو يأساً من روح الله ﴿إِنَّكُمْ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١).

* * *

(١) يوسف: الآية (٨٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ
وَالْأَنفُسِ وَالشَّامِتِ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا
إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

★ غريب الآية:

لنبلونكم: لنختبرنكم.

الخوف: توقع المكروه، ويعبر عنه بالجزع.

مصيبة: المصيبة: النائة والنكبة.

المهتدون: الاهتداء إصابة طريق الحق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا إخبار من الله - تعالى ذكره - أتباع رسوله ﷺ، أنه مبتليهم وممتحنهم بشدائد من الأمور، ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، كما ابتلاهم فامتحانهم بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وكما امتحن أصفياه قبلهم. ووعدهم ذلك في آية أخرى فقال لهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾^(١). . . وقوله: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ يعني: من خوف العدو، وبالجوع - وهو القحط - يقول: ولنختبرنكم بشيء من خوف ينالكم من عدوكم، وبسنة تصيبكم ينالكم فيها مجاعة وشدة، وتتعذر المطالب عليكم، فتتقص لذلك أموالكم؛ وحروب تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار، فينقص لها عددكم؛ وموت ذراريكم وأولادكم، وجدوب تحدث فتتقص لها

(١) البقرة: الآية (٢١٤).

ثماركم . كل ذلك امتحان مني لكم ، واختبار مني لكم ، فيتبين صادقوكم في إيمانكم من كاذبيكم فيه ، ويعرف أهل البصائر في دينهم منكم ، من أهل النفاق فيه والشك والارتياب . كل ذلك خطاب منه لأتباع رسول الله ﷺ وأصحابه . . ثم قال - تعالى ذكره - لنبيه ﷺ : يا محمد ، بشر الصابرين على امتحاني بما أمتحنهم به ، والحافظين أنفسهم عن التقدم على نهبي عما أنهاهم عنه ، والآخذين أنفسهم بأداء ما أكلفهم من فرائضي ، مع ابتلائي إياهم بما أبتليهم به ، القائلين إذا أصابتهم مصيبة : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ . فأمره الله - تعالى ذكره - بأن يخص - بالبشارة على ما يمتحنهم به من الشدائد - أهل الصبر ، الذين وصف الله صفتهم ^(١) .

وقال ابن كثير : « أخبرنا تعالى أنه يتلي عباده ؛ أي : يختبرهم ويمتحنهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ^(٢) فتارة بالسراء ، وتارة بالضراء ؛ من خوف وجوع ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ ^(٣) ، فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه ، ولهذا قال : ﴿ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ بَشِيرٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ﴾ أي : بقليل من ذلك ، ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ ﴾ أي : ذهاب بعضها ، ﴿ وَالْأَنْفُسِ ﴾ : كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ، ﴿ وَالشَّرَمَاتِ ﴾ أي : لا تغل الحقائق والمزارع كعادتها ، قال بعض السلف : فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة ، وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده ، فمن صبر أثابه ، ومن قنط أحل به عقابه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَبَشِيرِ الصَّادِقِينَ ﴾ . . . ثم بين تعالى من الصابرون الذين شكرهم فقال : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أي تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم ، وعلموا أنهم مُلك لله يتصرف في عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة ، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده ، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة ، ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك ؛ فقال : ﴿ وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي : ثناء من الله عليهم ، قال سعيد بن جبیر : أي أمنة من العذاب ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخُونَ ﴾ ^(٤) .

(١) جامع البيان (٣/ ٢١٠-٢٢١) .

(٢) محمد : الآية (٣١) .

(٣) النحل : الآية (١١٢) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٧) .

قال السعدي: «أخبر تعالى: أنه لا بد أن يتبلي عباده بالمحن؛ ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان، ولم يحصل معها محنة؛ لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر، هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية أنه سيبتلي عباده ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ من الأعداء ﴿وَالْجُوعِ﴾ أي: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله، أو الجوع؛ لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك.

﴿وَنَقَصَ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال؛ من جوائح سماوية، وغرق، وضياح، وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة، وقطاع الطريق وغير ذلك. ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر ببرد، أو برد، أو حرق، أو آفة سماوية، من جراد ونحوه.

فهذه الأمور، لا بد أن تقع؛ لأن العليم الخبير، أخبر بها، ف وقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع، حصلت له المصيبتان: فوات المحبوب، وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامثال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له السخط الدال على شدة النقصان.

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التسخط، قولاً وفعلاً، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه؛ لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها؛ فقد امتثل أمر الله، وفاز بالشواب، فلهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أي: بشرهم بأنهم يوقون أجرهم بغير حساب.

﴿الصَّابِرِينَ﴾ هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ﴾ وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره.

﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها، فقد تصرف أرحم الراحمين، بمماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد، علمه، بأن وقوع البلية؛ من المالك الحكيم الذي هو أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله، والشكر له على تدبيره، لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك، ومع أننا مملوكون لله، فإننا إليه راجعون يوم المعاد، فمُجازٍ كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا؛ وجدنا أجرنا موفورا عنده، وإن جزعنا وسخطنا؛ لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله وراجع إليه؛ من أقوى أسباب الصبر.

﴿وَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ثناء وتنويه بحالهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة، ومن رحمته إياهم، أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع، علمهم بأنهم لله، وأنهم إليه راجعون، وعملوا به، وهو هنا صبرهم لله. ودلت هذه الآية، على أن من لم يصبر؛ فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله، والعقوبة، والضلال، والخسارة، فما أعظم الفرق بين الفريقين! وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين!! فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطین النفوس على المصائب قبل وقوعها؛ لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به، إذا وقعت، وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابرين من الأجر، ويعلم حال غير الصابر، بضد حال الصابر.

وأن هذا الابتلاء والامتحان؛ سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وبيان أنواع المصائب^(١).

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ بيان لفضيلة سنتهم إذ اهتموا لما هو حق كل عبد عارف فلم تزعجهم المصائب ولم تكن لهم حاجباً عن التحقق في مقام الصبر، لعلمهم أن الحياة لا تخلو من الأكدار، وأما الذين لم يهتموا فهم يجعلون المصائب سبباً في اعتراضهم على الله أو كفرهم به أو قول ما لا يليق أو شكهم في صحة ما هم عليه من الإسلام، يقولون لو كان هذا هو الدين

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٨٠-١٨٣).

المرضي لله لما لحقنا عذاب ومصيبة، وهذا شأن أهل الضلال الذين حذرنا الله أمرهم بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾^(١) وقال في المنافقين: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾^(٢)، والقول الفصل أن جزاء الأعمال يظهر في الآخرة، وأما مصائب الدنيا فمسببة عن أسباب دنيوية، تعرض لعروض سببها، وقد يجعل الله سبب المصيبة عقوبة لعبده في الدنيا على سوء أدب أو نحوه للتخفيف عنه من عذاب الآخرة، وقد تكون لرفع درجات النفس، ولها أحوال ودقائق لا يعلمها إلا الله تعالى وقد يطلع عليها العبد إذا راقب نفسه وحاسبها»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الصبر على المصائب واستحباب الاسترجاع عند وقوعها

* عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من الناس من مسلم يتوفى له ثلاث لم يبلغوا الحنث؛ إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم»^(٤).

★ غريب الحديث:

لم يبلغوا الحنث: أي لم يبلغوا مبلغ الرجال، ويجري عليهم القلم، فيكتب عليهم الحنث، وهو الإثم، وقال الجوهرى: بلغ الغلام الحنث؛ أي: المعصية والطاعة.

* عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النساء قلن للنبي ﷺ: اجعل لنا يوما. فوعظهن وقال: «أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد كانوا لها حجاباً من النار». قالت امرأة: واثنان؟ قال: «واثنان»^(٥).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج

(١) الأعراف: الآية (١٣١).

(٢) النساء: الآية (٧٨).

(٣) التحرير والتنوير (٥٨/٢).

(٤) أحمد (١٥٢/٣) والبخاري (١٢٤٨/١٥٣/٣) والنسائي (١٨٧٢/٣٢٤/٤) وابن ماجه (١٦٠٥/٥١٢/١).

(٥) أحمد (٣٤/٣) والبخاري (١٢٤٩/١٥٣/٣) ومسلم (٢٠٢٨/٢٦٣٣) والنسائي في الكبرى (٤٥١/٣).

(٥٨٩٦/٤٥٢).

النار إلا تحلة القسم»^(١).

★ غريب الحديث:

إلا تحلة القسم: بفتح المثناة وكسر المهملة وتشديد اللام؛ أي: ما ينحل به القسم وهو اليمين، وهو مصدر حلل اليمين؛ أي: كفرها، يقال حلل تحليلاً وتحلة وتحلاً بغير هاء والثالث شاذ. وقال أهل اللغة: يقال فعلته تحلة القسم؛ أي: قدر ما حللت به يميني ولم أبالغ.

* عن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل ثلاثة من صلبه فاحتسبهم على الله وجبت له الجنة»^(٢).

★ من فوائد الأحاديث:

قوله: «ما من الناس من مسلم» قال الحافظ: «قيد به ليخرج الكافر»^(٣).

قوله: «لم يبلغوا الحنث»

قال الحافظ: «وخص الصغير بذلك لأن الشفقة عليه أعظم، والحب له أشد، والرحمة له أوفر، وعلى هذا فمن بلغ الحنث لا يحصل لمن فقد ما ذكر من هذا الثواب، وإن كان في فقد الولد أجر في الجملة، وبهذا صرح كثير من العلماء، وفرقوا بين البالغ وغيره؛ بأنه يتصور منه العقوق المقتضي لعدم الرحمة، بخلاف الصغير؛ فإنه لا يتصور منه ذلك، إذ ليس بمخاطب. وقال الزين بن المنير: بل يدخل الكبير في ذلك من طريق الفحوى؛ لأنه إذا ثبت ذلك في الطفل الذي هو كلٌّ على أبويه؛ فكيف لا يثبت في الكبير الذي بلغ معه السعي، ووصل له منه النفع، وتوجه إليه الخطاب بالحقوق؟! قال: ولعل هذا هو السر في إلغاء البخاري التقييد بذلك في الترجمة، انتهى. ويقوي الأول قوله في بقية الحديث: «بفضل رحمته إياهم»؛ لأن الرحمة للصغار أكثر لعدم حصول الإثم منهم، وهل يلتحق بالصغار

(١) أخرجه: أحمد (٢/٢٣٩-٢٤٠) والبخاري (٣/١٥٣/١٢٥١) ومسلم (٤/٢٠٢٨/٢٦٣٢) والنسائي في الكبرى (٣/٣٩٤/١١٣٢٠) وابن ماجه (١/٥١٢/١٦٠٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/١٤٤) والطبراني (١٧/٣٠٠/٨٢٩). قال الهيثمي في المجمع (٣/٥-٦): «رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجال الطبراني ثقات».

(٣) الفتح (٣/١٥٥).

من بلغ مجنوناً مثلاً واستمر على ذلك فمات؟ فيه نظر؛ لأن كونهم لا إثم عليهم يقتضي الإلحاق، وكون الامتحان بهم يخف بموتهم يقتضي عدمه، ولم يقع التقييد في طرق الحديث بشدة الحب ولا عدمه، وكان القياس يقتضي ذلك لما يوجد من كراهة بعض الناس لولده وتبرمه منه، ولا سيما من كان ضيق الحال، لكن لما كان الولد مظنة المحبة والشفقة نيط به الحكم وإن تخلف في بعض الأفراد^(١).

قوله: «إلا أدخله الله الجنة»

قال الحافظ: «في حديث عتبة بن عبد الله السلمي عند ابن ماجه بإسناد حسن نحو حديث الباب لكن فيه: «إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل»^(٢) وهذا زائد على مطلق دخول الجنة، ويشهد له ما رواه النسائي بإسناد صحيح من حديث معاوية بن قرة عن أبيه مرفوعاً في أثناء حديث: «ما يسرك أن لا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته عنده يسعى يفتح لك»^(٣)»^(٤).

قوله: «بفضل رحمته إياهم».

قال الحافظ: «أي: بفضل رحمة الله للأولاد. وقال ابن التين: قيل: إن الضمير في رحمته للأب؛ لكونه كان يرحمهم في الدنيا، فيجازى بالرحمة في الآخرة، والأول أولى، ويؤيده أن في رواية ابن ماجه من هذا الوجه: «بفضل رحمة الله إياهم» وللنسائي من حديث أبي ذر: «إلا غفر الله لهما بفضل رحمته»^(٥) وللطبراني وابن حبان من حديث الحارث بن أقيش -وهو بقاف ومعجمة مصغر- مرفوعاً: «ما من مسلمين يموت لهما أربعة أولاد إلا أدخلهما الله الجنة بفضل رحمته»^(٦) وكذا في حديث عمرو بن عبسة كما سنذكره قريباً، وقال الكرماني: الظاهر أن المراد بقوله: «إياهم» جنس المسلم الذي مات أولاده لا الأولاد، أي

(١) الفتح (٣/١٥٥-١٥٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١/٥١٢/١٦٠٤).

(٣) سيأتي تخريجه ضمن أحاديث الباب. (٤) الفتح (٣/١٥٦).

(٥) أخرجه أحمد (٥/١٥١) والنسائي (٤/٣٢٤-٣٢٥/١٨٧٣) وصححه ابن حبان [الإحسان (٧/٢٠٢/٢٩٤٠)].

والحاكم (٢/٨٦-٨٧).

(٦) أخرجه أحمد (٥/٣١٢-٣١٣) والطبراني (٣/٣٠٠/٣٣٥٩) وقال الهيثمي (٣/٨): «ورجاله ثقات».

وصححه الحاكم (١/٧١) ووافقه الذهبي.

بفضل رحمة الله لمن مات لهم، قال: وساغ الجمع لكونه نكرة في سياق النفي فتعمم انتهى. وهذا الذي زعم أنه ظاهر ليس بظاهر، بل في غير هذا الطريق ما يدل على أن الضمير للأولاد، ففي حديث عمرو بن عبسة عند الطبراني: «إلا أدخله الله برحمته هو وإياهم الجنة»^(١) وفي حديث أبي ثعلبة الأشجعي المقدم ذكره «أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهما» قاله بعد قوله: «من مات له ولدان»^(٢) فوضح بذلك أن الضمير في قوله: «إياهم» للأولاد لا للآباء والله أعلم»^(٣).

قال الحافظ: «قوله «واثنان» أي: وإذا مات اثنان ما الحكم؟ فقال: «واثنان» أي: وإذا مات اثنان فالحكم كذلك. . وهو ظاهر في التسوية بين حكم الثلاثة والاثنين، وقد تقدم النقل عن ابن بطال أنه محمول على أنه أوحى إليه بذلك في الحال، ولا بُد أن ينزل عليه الوحي في أسرع من طرفة عين، ويحتمل أن يكون كان العلم عنده بذلك حاصلًا، لكنه أشفق عليهم أن يتكلموا؛ لأن موت الاثنين غالبًا أكثر من موت الثلاثة، كما وقع في حديث معاذ وغيره في الشهادة بالتوحيد»^(٤)، ثم لما سئل عن ذلك لم يكن بد من الجواب والله أعلم»^(٥).

وقال أبو عمر: «والوجه عندي في هذا الحديث وما أشبهه من الآثار: أنها لمن حافظ على أداء فرائضه، واجتنب الكبائر، والدليل على ذلك؛ أن الخطاب في ذلك العصر لم يتوجه إلا إلى قوم الأغلب من أعمالهم ما ذكرنا، وهم الصحابة رضوان الله عليهم»^(٦).

* عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتى وأخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها». قالت: فلما مات أبو سلمة

(١) أخرجه أحمد (٣٨٦/٤) والطبراني في الصغير (٣٨٤-٣٨٥/٢) قال الهيثمي (٦-٥/٣): «ورجال الطبراني ثقات».

(٢) أخرجه أحمد (٣٩٦/٦) والطبراني في الكبير (٩٥٧/٣٨٤/٢٢) قال الهيثمي (٧/٣): «ورجاله ثقات».

(٣) الفتح (١٥٦/٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢٢٨/٥) والبخاري (٧٢-٧٣/٢٨٥٦) ومسلم (٣٠/٥٨/١) وأبو داود (٢٥٥٩/٥٥/٣) مختصراً. والترمذي (٢٦-٢٧/٢٦٤٣) والنسائي في الكبرى (٤٤٣-٤٤٤/٥٨٧٧).

(٥) الفتح (١٥٨/٣). (٦) فتح البر (٣٢١/٦).

قلت : أي المسلمين خيرٌ من أبي سلمة؟ أولُ بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ!! ثم إنني قلتها فأخلف الله لي رسول الله ﷺ، قال : أرسل إليّ رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له ، فقلت : إن لي بنتاً ، وأنا غيور ، فقال : «أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها ، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة»^(١) .

★ من فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر : «ليس في حديث أم سلمة من رواية مالك معنى يشكل ، ولا موضع تنازعه العلماء في التأويل ، وإنما هو دعاء ، واسترجاع ، وتعز ، ومعنى قوله : «إنا لله» أي : نحن لله ، وعبيد ، وخلق ، خلقنا للفناء «وإنا إليه راجعون» أي : إليه نصير ، وإليه نرجع ؛ لأنه -تبارك اسمه- إليه يرجع الأمر كله ، والخلق كله ، فلا بد من الموت ، والرجوع إلى الله ؛ أي : فما لنا نجزع مما لا بد لنا منه ، ولا محيد عنه ، وهذا أحسن شيء وأبلغه في حسن العزاء ، وفيه إيمان ، وإخلاص ، وإقرار بالبعث ، والحمد لله»^(٢) .

قال القرطبي : «قوله : «ما من مسلم نصيبه مصيبة . . » هذا تنبيه على قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(٣) الآية ، مع أنه ليس فيها أمر بذلك القول ، وإنما تضمنت مدح من قاله ، فيكون ذلك القول مندوباً ، والمندوب مأمور به ؛ أي : مطلوب ومقتضى ، وإن سوغ تركه . وقال أبو المعالي : لم يختلف الأصوليون أن المندوب مقتضى ومطلوب ، وإنما اختلفوا هل يسمى مأموراً به ، قلت : وهذا الحديث يدل على أنه يسمى بذلك .

وقوله : «إنا لله وإنا إليه راجعون» كلمة اعتراف بالملك لمستحقه ، وتسليم له فيما يجريه في ملكه ، وتهوين للمصيبات بتوقع ما هو أعظم منها ، وبالثواب المرتب عليها ، وتذكير المرجع والمآل الذي حكم به ذو العزة والجلال»^(٤) .

قال أبو عبد الله القرطبي : «جعل الله تعالى هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب ، وعصمة للممتحنين ؛ لما جمعت من المعاني المباركة ؛ فإن قوله :

(١) أخرجه : أحمد (٣٠٩/٦) ومسلم (٦٣١/٢-٦٣٢/٩١٨) وأخرجه أبو داود (٣/٤٨٨/٣١١٩) والنسائي في

الكبرى (٦/٢٦٤/١٠٩١٠) مختصراً . (٢) فتح البر (٦/٣٠٨) .

(٣) البقرة : الآية (١٥٥) . (٤) المفهم (٢/٥٧٠) .

﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إنا لله توحيد وإقرار بالعبودية والملك. وقوله: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إقرار بالهلك على أنفسنا، والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له. قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: (لم تعط هذا الكلمات نبياً قبل نبينا، ولو عرفها يعقوب لما قال: يا أسفى على يوسف!)^(١).

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: نعم العدلان ونعم العلاوة: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴿نعم العدلان، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ نعم العلاوة^(٢).

★ غريب الحديث:

العدلان: بكسر المهملة؛ أي: المثلان.

العلاوة: بكسر المهملة؛ أي: ما يعلق على البعير بعد تمام الحمل.

★ من فوائد الحديث:

قال العيني: «قوله: (نعم العدلان) بكسر العين؛ أي: المثلان. وقال المهلب: العدلان الصلوات والرحمة، والعلاوة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، وقيل: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، والعلاوة التي يثاب عليها. وقال ابن التين: قال أبو الحسن: العدل الواحد قول المصاب: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، والعدل الثاني الصلوات التي هي عليهن من الله تعالى، والعلاوة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، وهو ثناء من الله تعالى عليهم. وقال الداودي: إنما هو مثل ضربه للجزاء، فالعدلان عدلا البعير أو الدابة، والعلاوة الغرارة التي توضع في وسط العدلين مملوءة، يقول: وكما

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧٦/٢).

(٢) أخرجه: البخاري معلقاً بصيغة الجزم (٢٢١/٣) والحاكم (٢٧٠/٢) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ولا أعلم خلافاً بين أئمتنا أن سعيد بن المسيب أدرك أيام عمر رضي الله عنه، وإنما اختلفوا في سماعه منه» اهـ. وأقره الذهبي.

قال الحافظ في «تهذيب التهذيب» (٨٧/٤): «وقد وقع لي حديث بإسناد صحيح لا مطعن فيه، فيه تصريح سعيد بسماعه من عمر، وساق سنده إلى سعيد بن المسيب قال: سمعت عمر بن الخطاب على هذا المنبر يقول: (عسى أن يكون بعدي أقوام يكذبون بالرجم . . . والحديث)» اهـ. وسعيد بن منصور في سننه (٢/٢٣٣/٦٣٤) والبيهقي في السنن (٦٥/٤) وفي الشعب (١٥٨٧/٢٢١/٢).

حملت هذه الراحلة وسقاءها فإنها لم يبق موضع يحمل عليه ، فكذلك أعطي هذا الأجر وافراً^(١) .

* عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته : قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون : نعم . فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون : نعم . فيقول : ماذا قال عبدي؟ فيقولون : حمدك واسترجع . فيقول الله : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة ، وسموه بيت الحمد» .^(٢)

* عن معاوية بن قرة عن أبيه رضي الله عنه : أن رجلاً كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابن له ، فقال له النبي ﷺ : «أتجبه؟» فقال : يا رسول الله ! أحبك الله كما أحبه . ففقدته النبي ﷺ ، فقال : «ما فعل ابن فلان؟» قالوا : يا رسول الله ! مات . فقال النبي ﷺ لأبيه : «أما تحب أن لا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟» فقال الرجل : يا رسول الله ! أله خاصة أم لكلنا؟ قال : «بل لكلكم»^(٣) .

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله تعالى : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه ؛ إلا الجنة»^(٤) .

★ غريب الحديث:

إذا قبضت صفيه : «بفتح الصاد المهملة وكسر الفاء وتشديد التحتانية ، وهو الحبيب المصافي كالولد والأخ ، وكل من يحبه الإنسان ، والمراد بالقبض قبض روحه ، وهو الموت»^(٥) .

* عن أبي سلمى رضي الله عنه راعي رسول الله ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «بخ بخ ، وأشار بيده بخمس ، ما أثقلهن في الميزان : سبحان الله ، والحمد لله ،

(١) عمدة القاري (١٣٧/٦) .

(٢) أخرجه : أحمد (٤١٥/٤) والترمذي (١٠٢١/٣٤١) وقال : حسن غريب . وصححه ابن حبان (الإحسان ٢٩٤٨/٢١٠/٧) وانظر الصحيحة (١٤٠٨) .

(٣) أخرجه أحمد (٤٣٦/٣) والنسائي (٣٢٢-٣٢٣/١٨٦٩) وصححه ابن حبان (الإحسان ٢٩٤٧/٢٠٩/٧) والحاكم (٣٨٤/١) ووافقه الذهبي .

(٤) أخرجه : أحمد (٤١٧/٢) والبخاري (٦٤٢٤/٢٩٠/١١) .

(٥) من الفتح (٢٩٢/١١) .

ولا إله إلا الله، والله أكبر، والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه»^(١).

★ فوائد الأحاديث:

قوله: «ثم احتسبه إلا الجنة» قال الحافظ: «قال الجوهرى: احتسب ولده إذا مات كبيراً، فإن مات صغيراً قيل: أفرطه، وليس هذا التفصيل مراداً هنا بل المراد بـ«احتسبه»: صبر على فقده راجياً الأجر من الله على ذلك، وأصل الحسبة بالكسر الأجرة، والاحتساب طلب الأجرة من الله تعالى خالصاً، واستدل به ابن بطال على أن من مات له ولد واحد يلتحق بمن مات له ثلاثة، وكذا اثنان، وأن قول الصحابي . . (ولم نسأله عن الواحد)؛ لا يمنع من حصول الفضل لمن مات له واحد، فعله ﷺ سئل بعد ذلك فأخبر بذلك، أو أنه أعلم بأن حكم الواحد حكم ما زاد عليه فأخبر به»^(٢).

وقال: «وجه الدلالة من حديث الباب أن الصفي أعم من أن يكون ولدًا أم غيره، وقد أفرد ورتب الثواب بالجنة لمن مات له فاحتسبه»^(٣).

قال الطيبي: «مرجع السؤال إلى تنبيه الملائكة على ما أراد الله سبحانه من التفضل على عبده الحامد، لأجل تصبره على المصائب، وعدم تشكيه، بل إعداده إياها من جملة النعماء التي يستوجب الشكر عليها ثم استرجاعه، وأن نفسه ملك الله وإليه المصير في العاقبة، قال أولاً: «ولد عبدي» أي فرع شجرته، ثم ترقى إلى «ثمرة فؤاده» أي: نقاوة خلاصته، فإن خلاصة الإنسان الفؤاد، والفؤاد إنما يعتد به لما هو مكان اللطيفة التي خلق لها، وبها شرفه وكرامته، فحقيق لمن فقد مثل تلك النعمة الخطيرة، ويلقاها بمثل ذلك الحمد، أن يكون محموداً حتى المكان الذي يسكن فيه، فلذلك سمي بيت الحمد»^(٤).

(١) أخرجه: أحمد (٤٤٣/٣) والنسائي في الكبرى (٩٩٩٥/٥٠/٦) وصححه ابن حبان (الاحسان ٣/١١٤ -

٨٣٣/١١٥) والحاكم (٥١٢-٥١١/١) وأقره الذهبي.

(٢) الفتح (٢٩٢/١١).

(٣) الفتح (٢٩٢/١١).

(٤) شرح المشكاة (١٤٢٣/٤).

* عَنْ عطاء بن أبي رباح مرفوعاً : قال النبي ﷺ : «إذا أصاب أحدكم مصيبة ؛ فليذكر مصابه بي ، فإنها من أعظم المصائب»^(١) .

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر : «وصدق ﷺ لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة ؛ انقطع الوحي ، ومات النبوة ، وكان أول ظهور الشر بارتداد العرب ، وغير ذلك مما يطول ذكره ، وكان أول انقطاع الخير ، وأول نقصانه»^(٢) .

وقال شيخ الإسلام : «وموته ﷺ كان أعظم المصائب التي تزلزل بها الإيمان ، حتى ارتد أكثر الأعراب ، واضطرب لها عمر الذي كان أقواهم إيماناً ، وأعظمهم يقيناً»^(٣) .

* عن أنس بن مالك ؓ قال : مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال : «انقي الله واصبري» ، قالت : إليك عني ، فإنك لم تصب بمصيبي - ولم تعرفه - فقيل لها : إنه النبي ﷺ ، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجده عنده بوأبين ، فقالت : لم أعرفك ، فقال : «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(٤) .

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر : «والمعنى : إذا وقع الثبات أول شيء يهجم على القلب من مقتضيات الجزع ؛ فذلك هو الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر ، وأصل الصدم ضرب الشيء الصلب بمثله ، فاستعير للمصيبة الواردة على القلب»^(٥) .

وقال ابن بطال : «إن قيل : قد علمت أن العبد منهى عن الهُجر وتسخط قضاء الرب في كل حال ، فما وجه خصوص نزول الأولى بالصبر في حال حدوثها؟ قيل :

(١) أخرجه : ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٧٥) والدارمي (١/ ٤٠) وابن عبد البر في التمهيد [فتح البر (٦/ ٣٣٤)] مرسلًا ، وذكر له الشيخ الألباني شواهد فقال : وبالجمله فالحديث بهذه الشواهد صحيح . انظر الصحيحة (١١٠٦) .

(٢) التمهيد : فتح البر (٦/ ٣٣٤) . (٣) منهاج السنة (٨/ ٤٥٢) .

(٤) أخرجه : أحمد (٣/ ١٣٠) والبخاري (٣/ ١٩٠-١٩١/ ١٢٨٣) ومسلم (٢/ ٦٣٧-٦٣٨/ ٩٢٦) وأبو داود (٣/ ٤٩١/ ٣١٢٤) وأخرجه الترمذي (٣/ ٩٨٨) والنسائي (٤/ ٣٢٢/ ١٨٦٨) وابن ماجه (١/ ٥٠٩/ ١٥٢٦) مختصرًا . (٥) الفتح (٣/ ١٩٢) .

وجه خصوص ذلك أن للنفس عند هجوم الحادثة محرّكًا على الجزع، ليس في غيرها مثله، وتلك حال يضعف عن ضبط النفس فيها كثير من الناس، ثم يصير كل جازع بعد ذلك إلى السكون ونسيان المصيبة، والأخذ بقهر الصابر نفسه، وغلبته هواها عند صدمته إثارًا لأمر الله على هوى نفسه، ومنجزا لموعوده، بل السالي عن مصابه لا يستحق اسم الصبر على الحقيقة؛ لأنه أثر السلو على الجزع واختاره.

وإنما الصابر على الحقيقة من صبر نفسه، وحبسها عن شهوتها، وقهرها عن الحزن والجزع والبكاء الذي فيه راحة النفس وإطفاء لنار الحزن، فإذا قابل سورة الحزن وهجومه بالصبر الجميل، واسترجع عند ذلك، وأشعر نفسه أنه لله ملك، لا خروج له عن قضائه، وإليه راجع بعد الموت ويلقى حزنه بذلك؛ انقمعت نفسه، وذلت على الحق، فاستحقت جزيل الأجر^(١).

قلت: قوله **رَضِيَ اللَّهُ**: «وقهرها عن الحزن والجزع والبكاء»؛ ليس معنى هذا أن الإنسان يدفع الأمور الفطرية التي فطر عليها من حبٍّ للمفقود، فإن محبة المفقود أمر فطري، لا يمكن أن يدفعه أحد، وقدوة الخلق محمد ﷺ؛ لما فقد ابنه دمعت عينه ﷺ، ورثي عليه أثر الحزن، وصرح بذلك ﷺ في حديثه: «وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(٢). فالحزن وأثره على الإنسان أمر فطري لا يمكن أن يدفع بحال، ولكن الفرق بين ما يدل على الرحمة وبين ما يدل على التكر والتسخط؛ هو ما يظهر من آثار في الأقوال والأفعال، فالمسلم الحق هو الذي يشتغل بالأدعية المأثورة؛ بما ذكره الله في كتابه من استرجاع، وما في السنة من حوقلة وتسبيح وتهليل، وكلمات تدل على كمال الرضا، وأما الجاهل فهو الذي يعاكس سنن الله الكونية والشرعية؛ فيظهر عليه من أثر التسخط واستنكار ما حدث على رب العالمين؛ ما جاءت النصوص في وصفه من لعنة، وبراءة للرسول ﷺ من الصالحة والحالقة^(٣) وغيرهما من الأوصاف المذمومة في هذا الباب، نرجو الله أن يرزقنا

(١) شرح ابن بطال (٣/٢٨٦-٢٨٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/١٩٤)، والبخاري (٣/٢٢٢/١٣٠٣)، ومسلم (٤/١٨٠٧-١٨٠٨/٢٣١٥)، وأبو داود (٣/٤٩٣/٣١٢٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/٣٩٧)، والبخاري (٣/٢١٢/١٢٩٦) معلقًا بصيغة الجزم، ومسلم (١/١٠٠/١٠٤)، والنسائي (٤/٣٢٠/١٨٦٢)، وابن ماجه (١/٥٠٥/١٥٨٦) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

الصبر والثبات عند مصائبنا وما ينزل بنا ، والله المستعان .

* عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يتعهد الأنصار ويعودهم ويسأل عنهم ، فبلغه عن امرأة من الأنصار مات ابنها وليس لها غيره ، وأنها جزعت عليه جزعا شديدا ، فأتاها النبي ﷺ فأمرها بتقوى الله وبالصبر . فقالت : يا رسول الله ! إنني امرأة رقوب لا ألد ولم يكن لي غيره . فقال رسول الله ﷺ : « الرقوب التي يبقى ولدها » . ثم قال : « ما من امرئ أو امرأة مسلمة يموت لها ثلاثة أولاد ؛ إلا أدخلهم الله بهم الجنة » فقال عمر : يا رسول الله ! بأبي أنت وأمي واثنان ؟ قال : « واثنان »^(١) .

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله ، حتى يلقي الله وما عليه خطيئة »^(٢) .

★ من فوائد الحديثين :

قال أبو عمر : « وذلك أن من أراد الله به خيرا - وخير الله في هذا الموضع رحمته - ابتلاه بمرض في جسمه ، وبموت ولد يحزنه ، أو بذهاب مال يشق عليه ، فيأجره على ذلك كله ، ويكتب له إذا صبر واحتسب ، بكل شيء منه حسنات يجدها في ميزانه لم يعملها ، أو يجدها كفارة لذنوب قد عملها »^(٣) .

قال القاسمي : « ولإمام عز الدين محمد بن عبد السلام رحمته الله كلام على فوائد المحن والرزايا يحسن إيراده هنا .

قال - عليه الرحمة - : للمصائب والبلايا ، والمحن والرزايا ؛ فوائد تختلف باختلاف رتب الناس .

أحدها : معرفة عز الربوبية وقهرها .

والثاني : معرفة ذلة العبودية وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا

(١) أخرجه : البزار (الكشف ١/ ٤٠٥ / ٨٥٧) ، والحاكم (١/ ٣٨٤) وصححه ووافقه الذهبي . وقال الهيثمي (٣/

٨) : « رواه البزار ورجاله رجال الصحيح » .

(٢) أخرجه : أحمد (٢/ ٢٨٧) والترمذي (٤/ ٥٢٠ / ٢٣٩٩) . وقال : « حسن صحيح » . وصححه ابن حبان

(الاحسان ٧/ ١٧٦ / ٢٩١٣) والحاكم (١/ ٣٤٦) ووافقه الذهبي .

(٣) فتح البر (٦/ ٢٩٥) .

أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٥﴾ اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده، وأنهم راجعون إلى حكمه وتديره، وقضائه وتقديره، لا مفرّ لهم منه، ولا محيد لهم عنه.

والثالثة: الإخلاص لله تعالى؛ إذ لا مرجع في رفع الشدائد إلا إليه، ولا معتمد في كشفها إلا عليه ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾^(١)، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٢).

الرابعة: الإجابة إلى الله تعالى والإقبال عليه، ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾^(٣).

الخامسة: التضرع والدعاء ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا﴾^(٤)، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَيْنَا﴾^(٥)، ﴿بَلْ إِلَيْنَا تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾^(٦)، ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٧).

السادسة: الحلم ممن صدرت منه المصيبة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٨)، ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلَمٍ حَلِيمٍ﴾^(٩)، «إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»^(١٠)، وتختلف مراتب الحلم باختلاف المصائب في صغرها وكبرها، فالحلم عند أعظم المصائب أفضل من كل حلم.

السابعة: العفو عن جانيها، ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾^(١١)، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(١٢)، والعفو عن أعظمها أفضل من كل عفو.

الثامنة: الصبر عليها، وهو موجب لمحبة الله تعالى وكثرة ثوابه، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(١٣)، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١٤)، «وما أعطي أحد عطاء خيراً

(١) الأنعام: الآية (١٧).

(٢) العنكبوت: الآية (٦٥).

(٣) الزمر: الآية (٨).

(٤) يونس: الآية (١٢).

(٥) الإسراء: الآية (٦٧).

(٦) الأنعام: الآية (٤١).

(٧) الأنعام: الآية (٦٣).

(٨) التوبة: الآية (١١٤).

(٩) الصافات: الآية (١٠١).

(١٠) أخرجه: أحمد (٢٣/٣) ومسلم (٤٨/١-٤٩/١٨) وابن ماجه (١٤٠١/٢) (٤١٨٧) من حديث أبي سعيد

الخدري رضي الله عنه.

(١١) آل عمران: الآية (١٣٤).

(١٢) الشورى: الآية (٤٠).

(١٣) آل عمران: الآية (١٤٦).

(١٤) الزمر: الآية (١٠).

وأوسع من الصبر»^(١).

التاسعة: الفرح بها من أجل فوائدها، قال -عليه الصلاة والسلام-: «والذي نفسي بيده؛ إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء»^(٢)، وقال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: (حبذا المكروهان: الموت والفقر)، وإنما فرحوا بها إذ لا وقع لشدتها ومرارتها؛ بالنسبة إلى ثمرتها وفائدتها، كما يفرح من عظمت أدواؤه بشرب الأدوية الحاسمة لها، مع تجرعه لمرارتها.

العاشرة: الشكر عليها لما تضمنته من فوائدها؛ كما يشكر المريض الطبيب القاطع لأطرافه المانع من شهواته؛ لما يتوقع في ذلك من البرء والشفاء.

الحادية عشرة: تمحيصها للذنوب والخطايا ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٣) و«لا يصيب المؤمن وصب ولا نصب حتى الهم يهيمه والشوكة يشاكها؛ إلا كفر به من سيئاته»^(٤).

الثانية عشرة: رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم، «فالناس معافى ومبتلى، فارحموا أهل البلاء واشكروا الله على العافية»^(٥) وإنما يرحم العشاق من عشق.

الثالثة عشرة: معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها، فإن النعم لا تعرف أقدارها إلا بعد فقدانها.

الرابعة عشرة: ما أعده الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها.

الخامسة عشرة: ما في طيها من الفوائد الخفية، ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ

(١) سيأتي تخريجه في تفسير: الآية (٢٧٣) من هذه السورة.

(٢) أخرجه من حديث أبي سعيد: أحمد (٩٤/٣) وابن ماجه (١٣٣٤/٢-١٣٣٥/١٣٣٥) قال في الزوائد: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وصححه الحاكم (٣٠٧/٤) ووافقه الذهبي وهو في الصحيحة (١٤٤).

(٣) الشورى: الآية (٣٠).

(٤) أخرجه أحمد (٣٠٣/٢) ومسلم (٤/١٩٩٢-١٩٩٣/٢٥٧٣) والترمذي (٣/٢٩٨/٩٦٦) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه مالك في الموطأ (٨/٦٨٦/٢) وابن المبارك في الزهد (١٣٥) وابن أبي شيبة (٧/٦٥/٣٤٢٣٠) من قول عيسى عليه السلام، وقال الشيخ الألباني في الضعيفة (٩٠٨): لا أصل له مرفوعاً.

اللَّهُ فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرًا^(١)، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾^(٢)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِإِلْفِكَ عَصَبَةٌ يَنْكُرُونَ مَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾^(٣)، ولما أخذ الجبار سارة من إبراهيم^(٤) كان في طي تلك البلية أن أخدمها هاجر، فولدت إسماعيل لإبراهيم -عليهما الصلاة والسلام-، فكان من ذرية إسماعيل خاتم النبيين، فأعظم بذلك من خير كان في طي تلك البلية. وقد قيل:

كم نعمة مطوية لك بين أثناء المصائب
وقال آخر:

رب مبنغوض كربه فيه لله لطائف

السادسة عشرة: إن المصائب والشدائد تمنع من الأشر والبطر، والفخر والخيلاء، والتكبر والتجبر؛ فإن نمرود لو كان فقيراً سقيماً، فاقد السمع والبصر؛ لما حاج إبراهيم في ربه، لكن حمله بطر الملك على ذلك، وقد علّل الله ﷻ محاجته بإتيانه الملك، ولو ابتلي فرعون بمثل ذلك لما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتَعْلَمُونَ﴾^(٥)، ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٦)، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾^(٧)، ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾^(٨)، ﴿وَأَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾^(٩)، ﴿لَأَسْفِنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾^(١٠)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(١١)، والفقراء والضعفاء هم الأولياء، وأتباع الأنبياء، ولهذه الفوائد الجليلة كان «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»^(١٢) نسبوا إلى الجنون، والسحر، والكهانة، واستهزئ بهم، وسخر منهم؛

(١) النساء: الآية (١٩).

(٢) البقرة: الآية (٢١٦).

(٣) النور: الآية (١١).

(٤) أخرجه أحمد (٤٠٣-٤٠٤) والبخاري (٥١٦-٥١٧/٥٢١٧) ومسلم (٤/١٨٤٠-١٨٤١/٢٣٧١) وأبو داود (٢/٦٦٠) إثر (٢٢١٢) والترمذي (٣٠١-٣٠٠/٣١٦٦) والنسائي في الكبرى (٩٧-٩٨/٨٣٧٣).

(٥) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٦) النازعات: الآية (٢٤).

(٧) العلق: الآية (٧٦).

(٨) هود: الآية (١١٦).

(٩) سبأ: الآية (٣٤).

(١٠) الجن: الآية (١٧).

(١١) الجن: الآية (١٧).

(١٢) أخرجه أحمد (٣٨١/١) والبخاري (١٣٧/١٠) ومسلم (٥٦٤٨/٤) والنسائي في الكبرى (٣٥٧/٤) من حديث عبد الله بن مسعود ؓ.

﴿فَصَبِّرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾^(١) وقيل لنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾^(٢) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(٣) ﴿لَتُبْلُوَنَّكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ آوَوْا إِلَيْكُم مِّن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾^(٤)، كالذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، وتغربوا عن أوطانهم، وكثر عناهم، واشتدّ بلاهم، وتكاثر أعداءهم، فغلبوا في بعض المواطن، وقتل منهم بأحد^(٥)، وبثر معونة من قتل^(٦)، وشجّ وجه رسول الله ﷺ وكسرت ربايعته، وهشمت البيضة على رأسه^(٧)، وقتل أعزاه، ومثل بهم، فشمت أعداؤه، واغتم أولياؤه، وابتلوا يوم الخندق^(٨)، وزلزلوا زلزالاً شديداً، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وكانوا في خوف دائم، وعري لازم، وفقر مدقع؛ حتى شدوا الحجارة على بطونهم من الجوع، ولم يشبع سيد الأولين والآخرين من خبز برّ في يوم مرتين، وأوذي بأنواع الأذية حتى قذفوا أحبّ أهله إليه^(٩)، ثم ابتلي في آخر الأمر بمسيلمه^(١٠)، وطليحة^(١١)،

(١) الأنعام: الآية (٣٤).

(٢) البقرة: الآية (٢١٤).

(٣) البقرة: الآية (١٥٥).

(٤) آل عمران: الآية (١٨٦).

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٦/٧/٤٠٧٨).

(٦) أخرجه أحمد (١٠٩/٣) والبخاري (٤٩٠/٧/٤٠٩٠) ومسلم (٦٧٧/١٥١١/٣) وأبو داود (١٤٣/٢/١٤٤٤) والنسائي (١٠٦٩/٥٤٦-٥٤٥/٢) وابن ماجه (١١٨٤/٣٧٤/١) مختصراً عند الثلاثة الآخرين من حديث أنس رضي الله عنه.

(٧) أخرجه البخاري (١٢٠/٦/٢٩١١) ومسلم (١٤١٦/٣/١٧٩٠) وابن ماجه (١١٤٧/٢/٣٤٦٤) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٨) أخرجه أحمد (١٨٧/٣) والبخاري (٤٩٩/٧/٤٠٩٩) ومسلم (١٤٣١-١٤٣٢/٣/١٨٠٥) والترمذي (٥/٨٣١٧/٣٨٥٧) والنسائي في الكبرى (٨٥/٥/٨٣١٧).

(٩) أخرجه أحمد (١٩٤-١٩٧/٦) والبخاري (٥٤٨-٥٥٢/٧/٤١٤١) ومسلم (٢١٢٩-٢١٣٨/٤/٢٧٧٠) وأبو داود (١٠٣-١٠٤/٥/٤٧٣٥) مختصراً، والنسائي في الكبرى (٤١٥-٤١٨/٦/١١٣٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١٠) أخرجه البخاري (١١١/٨/٤٣٧٣) ومسلم (١٧٨٠/٤/٢٢٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١١) قال عنه الذهبي: «طليحة بن خويلد، والبطل الكرار، صاحب رسول الله ﷺ، ومن يضرب بشجاعته المثل، أسلم سنة تسع، ثم ارتد وظلم نفسه، وتنبأ بنجد، وتمت له حروب مع المسلمين، ثم انهزم وخذل، ولحق بال جفنة الغسانيين بالشام، ثم ارعوى وأسلم وحسن إسلامه لما توفي الصديق... أبلى يوم نهاوند ثم استشهد رضي الله عنه، وسامحه». سير أعلام النبلاء (٣١٦-٣١٧).

والعنسي^(١)، ولقي هو وأصحابه في جيش العسرة ما لقوه^(٢)، ومات ودرعه عند يهودي على أصع من شعير^(٣)، ولم تنزل الأنبياء والصالحون يتعهدون بالبلاء الوقت بالوقت، «يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان صلباً في دينه شدد في بلائه»^(٤)، «ولقد كان أحدهم يوضع المنشار على مفرقه فلا يصده ذلك عن دينه»^(٥) وقال -عليه الصلاة والسلام-: «مثل المؤمن مثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء»^(٦) وقال -عليه الصلاة والسلام-: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيثها الريح، تصرعها مرة وتعديلها مرة حتى تهيج»^(٧) فحال الشدة والبلوى مقبلة بالعبد إلى الله ﷻ، وحال العافية والنعماء صارفة للعبد عن الله تعالى ﴿وَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ مَا لَدَيْهِ مِنْ فَخْرٍ لَّهِ يَافِرًا ۖ أَكْثَرُ مِنْ شَرِّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٨) فلاجل ذلك تقللوا في المآكل والمشارب والمناكح والمجالس والمراكب وغير ذلك، ليكونوا على حالة توجب لهم الرجوع إلى الله تعالى ﷻ والإقبال عليه.

السابعة عشرة: الرضا الموجب لرضوان الله تعالى، فإن المصائب تنزل بالبر والفاجر، فمن سخطها فله السخط وخسران الدنيا والآخرة، ومن رضيها فله

(١) أخرجه أحمد (٢٦٣/١) والبخاري (١١١-١١٢/٤٣٧٤) ومسلم (١٧٨١/٤/٢٢٧٤) والترمذي (٤٧٠/٢٢٩٢) والنسائي في الكبرى (٣٨٩/٤/٧٦٤٩) من حديث ابن عباس عن أبي هريرة ؓ.

(٢) أخرجه أحمد (٣٩٨/٤) والبخاري (١٣٨/٨/٤٤١٥) ومسلم (١٢٦٨/٣/١٦٤٩) وأبو داود (٣/٥٨٣-٣٢٧٦) والنسائي (١٣-١٤/٣٧٨٩) وابن ماجه (١/٦٨١/٢١٠٧) من حديث أبي موسى الأشعري ؓ.

(٣) أخرجه أحمد (٤٢/٦) والبخاري (١٢٣/٦/٢٩١٦) ومسلم (١٢٢٦/٣/١٦٠٣) والنسائي (٣٣٢/٧/٤٦٢٣) وابن ماجه (٢/٨١٥/٢٤٣٦) من حديث عائشة ؓ.

(٤) أخرجه أحمد (١٨٥/١) والترمذي (٥٢٠/٤/٢٣٩٨) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٢/١٣٣٤/٤٠٢٣) وصححه ابن حبان (٧/١٦١/٢٩٠١) والحاكم (١/٤٠-٤١) ووافقه الذهبي من حديث سعد بن أبي وقاص ؓ.

(٥) أخرجه أحمد (١٧-١٨/٦) ومسلم (٢٢٩٩-٢٣٠١/٤/٣٠٠٥) والترمذي (٤٠٧-٤٠٩/٥/٣٣٤٠) والنسائي في الكبرى (٦/٥١٠-٥١٢/١١٦٦١) من حديث صهيب ؓ.

(٦) أخرجه أحمد (٢/٢٣٤) والبخاري (١٠/١٢٧-١٢٨/٥٦٤٤) ومسلم (٤/٢١٦٣/٢٨٠٩) والترمذي (٥/١٣٨-٢٨٦٦) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٧) أخرجه أحمد (٣/٤٥٤) والبخاري (١٠/١٢٧/٥٦٤٣) ومسلم (٤/٢١٦٣/٢٨١٠) والنسائي في الكبرى (٤/٣٥١-٧٤٧٩) من حديث كعب بن مالك ؓ. (٨) يونس: الآية (١٢).

الرضا، والرضا أفضل من الجنة وما فيها، لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(١) أي: من جنات عدن.

فهذه نبذة مما حصرنا من فوائد البلوى ونحن نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة فلسنا من رجال البلوى. وفقنا الله تعالى لما يحب ويرضى، وعافانا من المحن والرزايا، بمنه وكرمه آمين^(٢).

* * *

(١) التوبة: الآية (٧٢).

(٢) محاسن التأويل (٢/٣٢٩-٣٤٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

★ غريب الآية:

الصفاء: موضع بمكة معروف، وفي الأصل: الحجر الأملس، مأخوذ من الصفو، واحده صفاء.

المروة: موضع بمكة معروف، وفي الأصل الحجارة الصلبة اللينة وقيل: الحصاة الصغيرة.

شعائر: واحدها شعيرة وهي مناسك الحج، والشعيرة في الأصل: العلامة، سميت مواضع الحج وأفعاله شعائر؛ لأنها علامات جعلها الله لمواطن للعبادة من موقف وسعي ومنحر.

الحج: بفتح الحاء وكسرهما القصد لغة، وفي الشرع قصد مخصوص، لمكان مخصوص، في زمان مخصوص، على هيئات مخصوصة؛ من إحرام وطواف وسعي ووقوف.

اعتمر: أي قام بالعمرة، وأصلها الزيارة، وفي الشرع: زيارة مخصوصة لبيت الله الحرام.

جناح: أي إثم، وأصله ما يميل بك عن الحق.

يطوف: أصل الطواف الدوران حول الشيء، وفي الشرع الدوران حول البيت. تطوع: التطوع التنفل بالطاعة مما لم يفترض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «فقد بين الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله أي: مما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج، وقد تقدم في حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وتردادها بين الصفا والمروة في طلب الماء

لولدها، لما نفذ ماؤهما وزادهما، حين تركهما إبراهيم ﷺ هنالك، وليس عندهما أحد من الناس فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك، ونفذ ما عندهما؛ قامت تطلب الغوث من الله ﷻ فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلّة مضطرة فقيرة إلى الله ﷻ حتى كشف الله كربتها، وأنس غربتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها «طعام طعم وشفاء سقم»^(١) فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه، وصلاح حاله، وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله ﷻ؛ لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم وأن يثبت عليه إلى مماته، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي؛ إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بها جر ﷻ، وقوله: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ قيل: زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنة وتاسعة ونحو ذلك، وقيل: يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع، وقيل: المراد تطوع خيراً في سائر العبادات. حكى ذلك الرازي وعزى الثالث إلى الحسن البصري والله أعلم. قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يثيب على القليل بالكثير، عليم بقدر الجزاء فلا يبخل أحدًا ثوابه، ولا يظلم مثقال ذرة، ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢) ^(٣).

وقال ابن العربي: «أدلت الآية إباحة الطواف بينهما وسلّ سخيمة الحرج التي كانت في صدور المسلمين منها قبل الإسلام وبعده، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي: من معالم الحج ومناسكه ومشروعاته لا من مواضع الكفر وموضوعاته، فمن جاء البيت حاجاً أو معتمراً؛ فلا يجد في نفسه شيئاً من الطواف بهما»^(٤).

وقال السعدي: «يخبر تعالى ﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ وهما معروفان ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي أعلام دينه الظاهرة، التي تعبد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله، فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقَوَّى

(١) أخرجه أحمد (١٧٥/٥) ومسلم (٤/١٩١٩-١٩٢٢/٢٤٧٣) من حديث أبي ذر ﷺ بلفظ: «إنها مباركة وإنها

طعام طعم» وزاد الطيالسي (٤٥٧): «وشفاء سقم».

(٢) النساء (٤٠). (٣) تفسير القرآن العظيم (١/٣٥١-٣٥٢).

(٤) أحكام القرآن (١/٤٧).

الْقُلُوبِ^(١) فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره، من تقوى القلوب.

والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة، كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية وفعله النبي ﷺ وقال: «خذوا عني مناسككم»^(٢).

﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ هذا دفع لوهم من توهم وتخرج من المسلمين عن الطواف بينهما، لكونهما في الجاهلية تُعبد عندهما الأصنام، فنفي تعالى الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه غير لازم.

ودل تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة؛ أنه لا يتطوع بالسعي مفردا إلا مع انضمامه لحج أو عمرة، بخلاف الطواف بالبيت، فإنه يشرع مع العمرة والحج، وهو عبادة مفردة.

فأما السعي، والوقوف بعرفة، ومزدلفة، ورمي الجمار؛ فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك؛ كانت بدعة؛ لأن البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلاً، ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة، وهذا منه.

وقوله: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ أي: فعل طاعة مخلصا بها لله تعالى ﴿خَيْرًا﴾ من حج، وعمرة، وطواف، وصلاة، وصوم وغير ذلك ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾^(٣) فدل هذا، على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله، ازداد خيره وكماله، ودرجته عند الله، لزيادة إيمانه. ودل تقييد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع، التي لم يشرعها الله ولا رسوله؛ أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شراً له إن كان متعمداً عالماً بعدم مشروعية العمل.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ الشاكر والشكور، من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من

(١) سورة الحج: الآية (٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣١٨/٣) ومسلم (١٢٩٧/٩٤٣/٢) وأبو داود (١٩٧٠/٤٩٦-٤٩٥/٢) والنسائي (٢٩٨/٥).

(٣) وابن ماجه (٣٠٦٢) وابن ماجه (٣٠٢٣/١٠٠٦/٢) من حديث جابر رضي الله عنه بالفاظ متقاربة.

(٣) هذا جزء من آية سنائي في الصيام: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية (١٨٤)].

عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره، وامتلأ طاعته؛ أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نوراً وإيماناً، وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطاً، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق.

ثم بعد ذلك، يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملاً موفراً، لم تنقصه هذه الأمور.

ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئاً لله أعاضه الله خيراً منه، ومن تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافاً مضاعفة.

ومع أنه شاكر، فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد، فلا يضيعها، بل يجدونها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

أن السعي بين الصفا والمروة فرض من فرائض الحج

* عن عاصم قال: قلت لأنس بن مالك رضي الله عنه: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ قال: نعم؛ لأنها كانت من شعائر الجاهلية، حتى أنزل الله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾^(٢).

* عن عروة: سألت عائشة رضي الله عنها فقالت لها: رأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة؟! قالت: بئس ما قلت يا بن أخي؛ إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يهللون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، فكان من أهل يتخرج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا

(١) تيسير الكريم (١/ ١٨٣-١٨٥).

(٢) البخاري (٣/ ٦٤٠/ ١٦٤٨) ومسلم (٢/ ٩٣٠/ ١٢٧٨) والترمذي (٥/ ١٩٣/ ٢٩٦٦).

رسول الله ﷺ عن ذلك؛ قالوا: يا رسول الله! إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ الآية. قالت عائشة رضي الله عنها: وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما، ثم أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن؛ فقال: إن هذا لعلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يذكرون أن الناس -إلا من ذكرت عائشة ممن كان يهمل بمناة- كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن؛ قالوا: يا رسول الله! كنا نطوف بالصفا والمروة وإن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا؛ فهل علينا من حرج أن نطوف بالصفا والمروة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ الآية. قال أبو بكر: فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما: في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا في الجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام؛ من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت^(١).

★ غريب الحديث:

يهلون: يحجون.

مناة: بفتح الميم والنون الخفيفة: صنم كان في الجاهلية، وقيل: كانت صخرة نصبها عمرو بن لحي لهذيل وكانوا يعبدونها.

★ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «إنما فهم هذا عروة من ظاهر قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾» ووجه فهمه أن رفع الحرج عن الفعل إنما يشعر بإباحته لا بوجوبه، وهو مقتضى ظاهرها، إذا لم يعتبر سبب نزولها، فإذا وقف على سبب نزولها تحقق الواقف عليه: أنها إنما أتت رافعة لحرج من تحرج من الطواف بينهما على ما يأتي، وقد اختلف فيه قول عائشة واختلف الرواة عنها في ذلك، ففي بعض الروايات

(١) أحمد (١٤٤/٦) والبخاري (٦٣٤-٦٣٥/٣) ومسلم (١٢٧٧/٩٢٨/٢) والترمذي (١٩٢/٥-١٩٣/٢٩٦٥) والنسائي (٢٦٣-٢٦٤/٥) وابن ماجه (٩٩٤-٩٩٥/٢) (٢٩٨٦/٩٩٥).

عنها : أن أهل المدينة كان من أهل منهم لمناة ؛ لم يطف بينهما ، وكأن هؤلاء بقوا بعد الإسلام على ذلك الامتناع حتى أنزلت الآية . وفي بعضها : أن من أهل لإساف ونائلة بالإسلام خافوا ألا يكون مشروعا لمن لم يهلّ لهما . فرفع الله تلك التوهّمات كلها بقوله : ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ وقد ذكر أبو بكر بن عبد الرحمن عند سماعه قول عائشة رضي الله عنها ما يدل على سببين آخرين ، نصّ عليهما في معنى الحديث ، ويرتفع الإشكال ويصح الجمع بين هذه الروايات المختلفة بالطريق الذي سلكه أبو بكر بن عبد الرحمن ، حيث قال : فأراها نزلت في هؤلاء وهؤلاء . فنقول : نزلت الآية جوابا لجميع هؤلاء الذين ذكرت أسبابهم ورافعة للحرّج عنهم والله تعالى أعلم^(١) .

قال ابن عبد البر : «في هذا الحديث من قول عائشة ؛ دليل على وجوب السعي بين الصفا والمروة في الحج ، وقد بينت عائشة معنى نزول الآية ومخرجها ، وجاءت بالعلم الصحيح في ذلك ، وعلى قولها على وجوب السعي بين الصفا والمروة ؛ مالك ، والشافعي ، وأصحابهما ، وبه قال أحمد ، وإسحاق ، وأبو ثور ، وكل هؤلاء يقول : إن السعي بين الصفا والمروة واجب فرضا ، وعلى من نسيه أو نسي شوطا واحدا منه أن ينصرف إليه حيث ذكره في بلده أو غير بلده حتى يأتي به كاملا ، كمن نسي الطواف الواجب طواف الإفاضة سواء ، أو نسي شيئا منه»^(٢) .

قال الحافظ : «قوله : (فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة) الخ . الجواب : محصله أن عروة احتج للإباحة باقتصار الآية على رفع الجناح ، فلو كان واجبا لما اكتفى بذلك ؛ لأن رفع الإثم علامة المباح ، ويزداد المستحب بإثبات الأجر ، ويزداد الوجوب عليهما بعقاب التارك ، ومحل جواب عائشة أن الآية ساكتة عن الوجوب وعدمه ، مصرحة برفع الإثم عن الفاعل ، وأما المباح فيحتاج إلى رفع الإثم عن التارك ، والحكمة بذلك مطابقة جواب السائلين ؛ لأنهم توهّموا من كونهم كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية ؛ أنه لا يستمر في الإسلام ، فخرج الجواب مطابقا لسؤالهم ، وأما الوجوب فيستفاد من دليل آخر ، ولا مانع أن يكون الفعل واجبا ، ويعتقد إنسان امتناع إيقاعه على صفة مخصوصة فيقال له : لا جناح عليك في ذلك ، ولا يستلزم ذلك نفي الوجوب ، ولا يلزم من نفي الإثم عن الفاعل نفي الإثم عن

(١) المفهم (٣/ ٣٨٣-٣٨٤) .

(٢) فتح البر (٨/ ٥٣٠) .

التارك، فلو كان المراد مطلق الإباحة لنفي الإثم عن التارك»^(١).

* عن جابر رضي الله عنه قال: لما دنا رسول الله ﷺ من الصفا في حجته قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، «أبدأ بما بدأ الله به»، فبدأ بالصفا فرقي عليه^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «وفيه دليل على أنه قد اعتبر تقديم المبدأ بذكره في التلاوة فقدمه، وأن الظاهر في حق الكلام أن المبدوء بذكره مقدم في الحكم على ما بعده»^(٣).

قال أبو عمر: «وقد يحتمل أن يحتج بقوله ﷺ: «نبدأ بما بدأ الله به» على أن الواو لا توجب الترتيب؛ لأنها لو كانت توجب الترتيب لم يحتج رسول الله ﷺ أن يقول لهم: «نبدأ بما بدأ الله به»؛ لأنهم أهل اللسان الذي نزل القرآن به. فلو كان مفهوما في فحوى الخطاب أن الواو توجب القبل والبعد ما احتاج رسول الله ﷺ -والله أعلم- أن يبين لهم ذلك. وإنما بين لهم ذلك لأن المراد كان من السعي بين الصفا والمروة؛ أن يبدأ فيه بالصفا، ولم يكن ذلك بينا في الخطاب، فبينه رسول الله ﷺ»^(٤).

قال النووي: «في هذا اللفظ أنواع من المناسك، منها: أن السعي يشترط فيه أن يبدأ من الصفا، وبه قال الشافعي ومالك والجمهور، وقد ثبت في رواية النسائي في هذا الحديث بإسناد صحيح: أن النبي ﷺ قال: «ابدؤوا بما بدأ الله به»^(٥) هكذا بصيغة الجمع، ومنها: أنه ينبغي أن يرقى على الصفا والمروة»^(٦).

وقال القرطبي: «ولذلك يمنع الابتداء بالمروة، فإن فعل ألغي ذلك الشوط عند الجمهور. وقال عطاء: إن جهل ذلك أجزأه»^(٧).

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا طاف الطواف الأول خب ثلاثاً

(١) الفتح (٦٣٦/٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٣٢٠/٣) ومسلم (١٢١٨/٨٨٦/٢) وأبو داود (١٩٠٥/٤٥٥/٢) والترمذي (٨٦٢/٢١٦/٣) والنسائي (٢٩٦٩/٢٦٤/٥) وابن ماجه (٣٠٧٤/١٠٢٢/٢).

(٣) معالم السنن (١٧١/٢). (٤) فتح البر (٢٥٧/٣).

(٥) هذه الرواية في سنن النسائي (٢٩٦٢/٢٦١/٥) وحكم الشيخ الألباني رحمته الله بشذوذها في الإرواء (١١٢٠).

(٦) شرح النووي (١٤٤/٨). (٧) المفهم (٣٢٧/٣).

ومشى أربعاً، وكان يسعى بطن المسيل إذا طاف بين الصفا والمروة. فقلت لنافع: أكان عبد الله يمشي إذا بلغ الركن اليماني؟ قال: لا، إلا أن يزاحم على الركن، فإنه كان لا يدعه حتى يستلمه^(١).

قال ابن عمر رضي الله عنهما: السعي من دار بني عباد إلى زقاق بني أبي حسين^(٢).
* عن أم ولد شيبه أنها أبصرت النبي ﷺ وهو يسعى بين الصفا والمروة؛ يقول: «لا يقطع الأبطح إلا شداً»^(٣).

★ غريب الحديث:

الطواف الأول: طواف القدوم.

حَبّ: يَحُبُّ بفتح أوله وضم المعجمة؛ أي: يسرع في مشيه، والخبب بفتحيتين: العدو السريع، يقال: حَبَّت الدابة إذا أسرعت وراوحت بين قدميها.
المسيل: المكان الذي يجتمع فيه السيل.

★ فوائد الأحاديث:

قوله: (يسعى بطن المسيل)

قال النووي: «هذا مجمع على استحبابه، وهو أنه إذا سعى بين الصفا والمروة استحَب أن يكون سعيه شديداً في بطن المسيل، وهو قدر معروف، وهو من قبل وصوله إلى الميل الأخضر المعلق بفناء المسجد إلى أن يحاذي الميلين الأخضرين المتقابلين للذين بفناء المسجد ودار العباس، والله أعلم»^(٤).

قال ابن القيم: «ثم نزل إلى المروة يمشي، فلما انصبت قدماه في بطن الوادي، سعى حتى إذا جاوز الوادي وأصعد، مشى»^(٥) هذا الذي صح عنه، وذلك اليوم قبل

(١) أخرجه أحمد (٩٨/٢) والبخاري (١٦٤٤/٦٤٠/٣) ومسلم (١٢٦١/٩٢٠/٢) وأبو داود (١٨٩١/٤٤٨/٢) والنسائي (٢٥٢/٥/٢٩٤٠) وابن ماجه (٩٨٣/٢/٢٩٥٠).

(٢) علقه البخاري (٦٣٩/٣) بصيغة الجزم.

(٣) أخرجه أحمد (٤٠٤/٦) والنسائي (٢٩٨٠/٢٦٨/٥) وابن ماجه (٢٩٨٧/٩٩٥/٢) وهو في الصحيحة (٢٤٣٧).

(٤) شرح مسلم (٨/٩).

(٥) جزء من حديث جابر رضي الله عنه الطويل عند مسلم (١٢١٨/٨٨٨/٢).

الميلين الأخضرين في أول المسعى وآخره . والظاهر : أن الوادي لم يتغير عن وضعه^(١) .

* عن عمرو بن دينار قال : «سألنا ابن عمر رضي الله عنهما عن رجل طاف بالبيت في عمرة ولم يطف بين الصفا والمروة، أيأتي امرأته؟ فقال : قدم النبي ﷺ فطاف بالبيت سبعا، وصلى خلف المقام ركعتين، فطاف بين الصفا والمروة سبعا ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾»^(٢) .

وسألنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه فقال : لا يقربنها حتى يطوف بين الصفا والمروة^(٤) .

* فوائد الحديثين:

قال النووي : «معناه لا يحل له ذلك ؛ لأن النبي ﷺ لم يتحلل من عمرته حتى طاف وسعى، فتجب متابعتة والافتداء به، وهذا الحكم الذي قاله ابن عمر؛ هو مذهب العلماء كافة، وهو أن المعتبر لا يتحلل إلا بالطواف والسعي والحلق، إلا ما حكاه القاضي عياض عن ابن عباس وإسحاق بن راهويه : أنه يتحلل بعد الطواف وإن لم يسع، وهذا ضعيف مخالف للسنة»^(٥) .

* عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه رآهم يطوفون بين الصفا والمروة فقال : هذا مما أورتكم أم إسماعيل^(٦) .

* عن عائشة رضي الله عنها قالت : قدمت مكة وأنا حائض، ولم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، قالت : فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال : افعلي كما يفعل الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري^(٧) .

(١) زاد المعاد (٢/ ٢٢٨) .

(٢) أحمد (٢/ ١٥) البخاري (٣/ ٦٤٠/ ١٦٤٥) ومسلم (٢/ ٩٠٦/ ١٢٣٤) والنسائي (٥/ ٢٤٧-٢٤٨/ ٢٩٣٠)

وابن ماجه (٢/ ٩٨٦/ ٢٩٥٩) مختصراً . (٤) البخاري (٣/ ٦٤٠/ ١٦٤٦) .

(٥) شرح مسلم (٨/ ١٧٨) .

(٦) أخرجه : الحاكم (٢/ ٢٧١) وصححه وأقره الذهبي . قال الحافظ رواء الفاكهي بإسناد حسن (٣/ ٦٤١) .

(٧) البخاري (٣/ ٦٤٢/ ١٦٥٠) ومسلم (٢/ ٨٧٠/ ١٢١١) وأبو داود (٢/ ٣٨١-٣٨٢/ ١٧٨١) والنسائي (٥/ ١٨٠-١٨١/ ٢٧٦٣) وابن ماجه (٢/ ٩٩٨/ ٣٠٠٠) .

★ فوائد الحديثين:

قوله: «غير أن لا تطوفي بالبيت» وفي رواية يحيى عن مالك في الموطأ بزيادة «ولا بين الصفا والمروة حتى تطهري»

قال أبو عمر: «رواية يحيى هذه - إن صحت - فتشبه مذهب ابن عمر: ذكر مالك في الموطأ عن نافع، عن عبد الله بن عمر، أنه كان يقول في المرأة الحائض التي تهل بحج أو عمرة: إنها تهل بحجها أو عمرتها إذا أرادت، ولكن لا تطوف بالبيت، ولا بين الصفا والمروة، ولا تقرب المسجد حتى تطهر. وهي لا تحل حتى تطوف بالبيت وبين الصفا والمروة. فقول ابن عمر هذا على نحو رواية يحيى، إلا أن ذلك غير محفوظ في حديث عبد الرحمن بن القاسم هذا عن أبيه، عن عائشة، عن النبي ﷺ، وفقهاء الأمصار بالحجاز والعراق والشام لا يرون بأساً بالسعي بين الصفا والمروة على غير طهارة، وما جاز عندهم لغير الطاهر أن يفعله؛ جاز للحائض أن تفعله، وهذا مذهب مالك، والشافعي، وأبي حنيفة وأصحابهم، وهو قول عطاء، وبه قال أحمد، وأبو ثور، وغيرهم، وحجتهم قول رسول الله ﷺ لعائشة في هذا الحديث: «افعلي ما يفعل الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت...» وأجمعوا أنه لا يجوز لأحد الطواف بالبيت إلا على طهارة^(١).

(١) فتح البر (٨/ ٤٨٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ۖ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۖ﴾

★ غريب الآية:

تابوا: رجعوا، والتوبة: الرجوع من المعصية إلى الطاعة، والندم على فعلها مع العزم على عدم المعاودة، وتدارك ما يمكن تداركه.
أصلحوا: الإصلاح: ضد الإفساد: والمراد: بدلوا عملهم الفاسد بآخر صالح مخلص من قبيح ما يشوبه.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ لم يبين هنا ما اللاعنون، ولكنه أشار إلى ذلك في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(١)»^(٢).

وقال ابن القيم: «فلعنة الله لهم تتضمن ذمه وإبعاده وبغضه لهم، ولعنة العبد تتضمن سؤال الله أن يفعل ذلك بمن هو أهل اللعنة»^(٣).

وقال الشوكاني: «قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ إلى آخر الآية، فيه الإخبار بأن الذي يكتُم ذلك ملعون -واختلفوا من المراد بذلك؟ فقيل: أحبار اليهود ورهبان النصراني الذين كتموا أمر محمد ﷺ؛ وقيل كل من كتم الحق وترك بيان ما أوجب الله بيانه، وهو الراجح لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر في الأصول، فعلى فرض أن سبب النزول ما وقع من اليهود والنصارى من الكتم فلا ينافي ذلك تناول هذه الآية كل من كتم الحق. وفي هذه الآية من الوعيد الشديد

(٢) أضواء البيان (١/ ٨٨).

(١) البقرة: الآية (١٦١).

(٣) جلاء الأفهام (ص ٢٦٣).

ما لا يقادر قدره، فإن من لعنه الله ولعنه كل من يتأتى منه اللعن من عباده قد بلغ من الشقاوة والخسران إلى الغاية التي لا تلحق ولا يدرك كنهها»^(١).

وقال ابن كثير: «هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب، من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله. قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب كتموا صفة محمد ﷺ. ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء، والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون... وقال أبو العالية والربيع بن أنس و قتادة: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ يعني: تلعنهم ملائكة الله والمؤمنون. ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا﴾ أي: رجعوا عما كانوا فيه، وأصلحوا أعمالهم وأحوالهم، وبيّنوا للناس ما كانوا كتموه ﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله؛ تاب الله عليه. وقد ورد أن الأمم السالفة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم ولكن هذا من شريعة نبي التوبة، ونبي الرحمة - صلوات الله وسلامه عليه -»^(٢).

قال القاسمي: «وقد دلت الآية على أن هذا الكتمان من الكبائر؛ لأنه تعالى أوجب فيه اللعن؛ لأن ما يتصل بالدين، ويحتاج إليه المكلف؛ لا يجوز أن يكتم، ومن كتمه فقد عظمت خطيئته، وبلغ للعن من الشقاوة والخسران الغاية التي لا يدرك كنهها... وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن كتمان العلم»^(٣).

وقال شيخ الإسلام: «إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾^(٤) الآية. ويقول في كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾^(٦) الآية. فمن أمر بكتم

(١) فتح القدير (١/ ٢٣٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٢-٣٥٣).

(٣) محاسن التأويل (٣/ ١٢).

(٤) البقرة (١٥٩).

(٥) آل عمران (١٨٧).

(٦) البقرة (١٧٤).

ما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله ؛ فقد كتم ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب ، وهذا مما ذم الله به علماء اليهود ، وهو من صفات الزائغين من المنتسبين إلى العلم من هذه الأمة ، وقال النبي ﷺ : « من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »^(١) وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ ﴾^(٢) . إن من أمر بكتمان ما بعث الله به رسوله من القرآن والحديث ؛ كالأيات والأحاديث التي وصف الله بها نفسه ، ووصفه بها رسوله ، وأمر مع ذلك بوصف الله بصفات أحدثها المبتدعون تحتل الحق والباطل ، أو تجمع حقاً وباطلاً ، وزعم أن ذلك هو الحق الذي يجب اعتقاده ، وهو أصل الدين وهو الإيمان الذي أمر الله به رسوله ؛ فهذا مضاهاة لما ذم الله به من حال أهل الكتاب حيث قال : ﴿ قَبَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾^(٣) وقال : ﴿ أَفَنُظْمِعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾^(٤) فإن هؤلاء كتبوا هذه المقالات التي ابتدعوها ، وقالوا للعامة : هذا أمر الله الذي أمركم به ، وهذا كذب وافتراء على الله ، فإذا جمعوا إلى ذلك كتمان ما أنزل الله من الكتاب والحكمة ؛ فقد ضاهوا أهل الكتاب في لبس الحق بالباطل وكتمان الحق^(٥) .

وقال رحمه الله : « ويسع الإنسان السكوت عن النقيضين في أقوال كثيرة ، إذا لم يقيم دليل شرعي بوجوب قول أحدهما ، أما إذا كان أحد القولين هو الذي قاله الرسول دون الآخر ؛ فهنا يكون السكوت عن ذلك وكتمان من باب كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب ، ومن باب كتمان شهادة العبد من الله ، وفي كتمان العلم النبوي من الذم واللعة لكاتمته ما يضيق عنه هذا الموضع »^(٦) .

قال محمد رشيد رضا : « ثم إن العبرة في الآية هي أن حكمها عام ، وإن كان سببها خاصا ، فكل من يكتُم آيات الله وهدايته عن الناس ؛ فهو مستحق لهذه اللعة . ولما كان هذا الوعيد وأشباهه حجة على الذين لبسوا لباس الدين وانتحلوا الرئاسة لأنفسهم بعلمه حاولوا التفصي منه ، فقال بعضهم : إن الكتمان لا يتحقق إلا إذا

(١) يأتي تخريجه ضمن أحاديث الباب .

(٢) البقرة: الآية (١٤٠) .

(٣) البقرة: الآية (٥٩) .

(٤) البقرة: الآيات (٧٥-٧٩) .

(٥) الفتاوى الكبرى (١٢/٥-١٣) .

(٦) المصدر السابق (٣٠/٥) .

سئل العالم عن حكم الله تعالى فكتمه، وأخذوا من هذا التأويل قاعدة: هي أن العلماء لا يجب عليهم نشر ما أنزل الله تعالى ودعوة الناس إليه وبيانهم لهم، وإنما يجب على العالم أن يجيب إذا سئل عما يعلمه، وزاد بعضهم: إذا لم يكن هناك عالم غيره، وإلا كان له أن يحيل على غيره. وهذه القاعدة مسلمة عند أكثر المنتسبين للعلم اليوم وقبل اليوم بقرون، وقد ردّها أهل العلم الصحيح، فقالوا: إن القرآن الكريم لم يكتف بالوعيد على الكتمان، بل أمر ببيانهم للناس، وبالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأوعد من يترك هذه الفريضة، وذكر لهم العبر فيما حكاها عن الذين قصرُوا فيها من قبل كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾^(١) الخ وقوله: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ - إلى قوله في المتفرقين عن الحق - ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) وقوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله في عصيانهم الذي هو سبب لعنتهم: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾^(٣) فأخبر تعالى أنه لعن الأمة كلها لتركهم التناهي عن المنكر. نعم، إن هذا فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقيين ولكن لا يكفي في كل قطر واحد، كما قال بعض الفقهاء، بل لابد أن تقوم به أمة من الناس، كما قال الله تعالى؛ لتكون لهم قوة ولنهيهم وأمرهم تأثير. وذهب بعض المؤولين مذهباً آخر فقال: إن هذا الوعيد مخصوص بالكافرين، فترك المؤمن فريضة من الفرائض؛ كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يستحق به وعيد الكافرين، فيلحقه بالكفار! وهذا كلام قد ألفتة الأسماع، وأخذ بالتسليم، واستعمل في الإفحام والإقناع، فإن الذي يسمعه على علّاته يرى نفسه ملزماً برمي تاركي الأمر بالمعروف والدعوة إلى الخير والنهي عن المنكر بالكفر. وذلك مخالف للقواعد التي وضعوها للعقائد، فلا يستطيع أن يقول ذلك، ولكنه إذا عرض على الله في الآخرة، وعلى كتابه في الدنيا، يظهر أنه لا قيمة له، وإذا بحث فيه، يظهر لك أن الذي يرى حرّماً لله تتهك أمام عينيه، ودين الله يداس جهاراً بين يديه، ويرى البدع تمحو السنن، والضلال يغشى الهدى،

(١) آل عمران (١٨٧).

(٢) الآيةان (١٠٤ و ١٠٥) من سورة آل عمران.

(٣) الآيةان (٧٨ و ٧٩) من سورة المائدة.

ولا ينبض له عرق، ولا يفعل له وجدان، ولا يندفع لنصرته بيد ولا بلسان، هو هذا الذي إذا قيل له: إن فلاناً يريد أن يصادرك في شيء من رزقك (كالجراية مثلاً) أو يحاول أن يتقدم عليك عند الأمراء والحكام تجيش في صدره المراحل، ويضطرب باله، ويتألم قلبه، وربما تجافى جنبه عن مضجعه، وهجر الرقاد عينيه، ثم إن يجذّ ويجتهد ويعمل الفكر في استنباط الحيل وإحكام التدبير لمداغة ذلك الخصم أو الإيقاع به، فهل يكون لدين الله تعالى في قلب مثل هذا قيمته، وهل يصدق أن الإيمان قد تمكن من قلبه، والبرهان عليه قد حكم عقله، والإذعان إليه قد نلج صدره، يسهل على من نظر في بعض كتب العقائد التي بنيت على أساس الجدل أن يجادل نفسه، ويغشها بما يسليها به من الأمانى التي يسميها إيماناً، ولكنه لو حاسبها فناقشها الحساب ورجع إلى عقله ووجدانه، لعلم أنه قد اتخذ إلهه هواه، وأنه يعبد شهوته من دون الله، وأن صفات المؤمنين التي سردها الكتاب سرداً، وأحصاها عدداً - وأظهرها بذل المال والنفس في سبيل الله، ونشر الدعوة، وتأيد الحق - كلها بريئة منه، وأن صفات المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم كلها راسخة فيه، فليحاسب امرؤ نفسه قبل أن يحاسب، وليتب إلى الله قبل حلول الأجل، لعله يتوب عليه، وهو التواب الرحيم»^(١).

قلت: وهذا الذي توارد ذكره في أقوال أهل العلم، في النهي عن كتمان العلم كما صوره الشيخ محمد رشيد رضا بالواقع العملي؛ هو أمر واقع، وبتقدم الزمان ينتشر أكثر ويعظم خطره، فقد أسست الجامعات وصارت مراحل الدراسة يقضي فيها الطلبة سنين كثيرة، وقد يمر الطالب على كل العلوم الشرعية من قرآن وسنة وأصول فقه وعقيدة، ويتخرج من هذه الجامعات الأعداد الكثيرة، ومع ذلك تجيء إلى القطر الكبير الذي يبلغ أعداده الملايين من المسلمين وقد لا تجد من يفتيك في مسألة بالدليل، وإن وجدت فمرتزقاً يتعامل مع المستفتي حسب هواه وما يرضيه في نظره، ويرون أن الخروج عن العادات وعمل البلد من أكبر الذنوب، وحتى إنك لتجد هذا العمل المستدل به لم يسبق إليه علماء، ولا طبقات علمية يمكن الاتكاء عليها والاستناد إليها، ولو قيل: سموا رجالكم؛ لسموا شيوخ الطرق الصوفية

الذين لا يعرفون لعلوم الحديث والقرآن سنامًا ولا خطامًا، وهكذا يكثر الجهل ويقل العلم، وأصبح المتخرجون من الجامعات -إلا من رحم الله- لا هم لهم إلا مناصب يحصلون عليها، رجاء مرتب شهري يدبرون به أمور معيشتهم، والأمة ضائعة لا تجد لها وجهًا ولا داعيًا ولا معلمًا إلا من شاء الله ممن وفقهم واستناروا بنور الكتاب والمنهاج الصحيح وحسن المعتقد، فهؤلاء قلة قليلة، فإلى الله المشتكى والله المستعان، وحسبي الله ونعم الوكيل على واقع هذا حاله، فأين الغيرون على هذا الدين والذي يحملون رسالة العلم بإخلاص وصدق، تستنير بهم الأمة وتهتدي بهم؟! فاللهم هيئهم وأكثر عددهم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة من أن كتمان الحق منهج يهودي، فمن شاء استقل، ومن شاء استكثر

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: يقولون: إن أبا هريرة يكثر الحديث، والله الموعِد، ويقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يحدثون مثل أحاديثه؟ وإن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم، وكنت امرأ مسكينًا ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني، فأحضر حين يغيبون، وأعي حين ينسون، وقال النبي ﷺ يوما: «لن يبسط أحد منكم ثوبه -حتى أقضي مقالتي هذه- ثم يجمعه إلى صدره فينسى من مقالتي شيئًا أبدًا» فبسطت نمرة ليس علي ثوب غيرها، حتى قضى النبي ﷺ مقالته، ثم جمعتها إلى صدري، فوالذي بعثه بالحق ما نسيت من مقالته تلك إلى يومي هذا، والله لولا آيتان في كتاب الله ما حدثتكم شيئًا أبدًا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ إلى: ﴿الرَّحِيمِ﴾^(١).

★ غريب الحديث:

والله الموعِد: بفتح الميم، وفيه حذف تقديره: وعند الله الموعِد. . ومراده:

(١) أحمد (٢/٢٤٠) والبخاري (٥/٣٥٠) ومسلم (٤/١٩٣٩/٢٤٩٢) والترمذي (٥/٦٤٢/٣٨٣٤) - (٣٨٣٥) والنسائي في الكبرى (٣/٤٣٩-٥٨٦٨/٤٤٠) وابن ماجه (١/٩٧/٢٦٢).

أن الله تعالى يحاسبني إن تعمدت كذبا ويحاسب من ظن بي ظن السوء .
الصفق بالأسواق: بإسكان الفاء، هو ضرب اليد على اليد، وجرت به عادتهم
عند عقد البيع، والمقصود: التبايع .

★ فوائد الحديث:

قوله: (لولا آيتان)

قال الحافظ: «معناه: لولا أن الله ذم الكاتمين للعلم ما حدث أصلاً، لكن لما
كان الکتمان حراماً وجب الإظهار، فلهذا حصلت الكثرة لكثرة ما عنده»^(١).
قال القرطبي: «وهؤلاء أنكروا على أبي هريرة أن يكون أكثر الصحابة حديثاً،
وهذا إنكار استبعاد وتعجب، لا إنكار تهمة، ولا تكذيب؛ لما يعلم من حفظه
وعلمه وفضله، ولما يعلم أيضاً من فضلهم ومعرفتهم بحاله، ولذلك بين لهم
الموجب لكثرة حديثه وبين أنه شيطان:

أحدهما: أنه لازم النبي ﷺ ما لم يلازموا، فحضر ما لم يحضروا .

والثاني: بركة امتثال ما أرشد إليه رسول الله ﷺ من بسط ثوبه، وضمه إلى
صدره، فكان ذلك سبب حفظه، وعدم نسيانه، فقد حصلت لأبي هريرة ولأمة من
بركات رسول الله ﷺ، وخصائص دعواته، ما لم يحصل لغيره، ثم إن أبا هريرة
ﷺ لما حفظ علماً كثيراً عن رسول الله ﷺ، وتحقق أنه وجب عليه أن يبلغه غيره،
ووجد من يقبل عنه، ومن له رغبة في ذلك، تفرغ لذلك مخافة الفتور، ومعالجة
القواطع أو الموت، ثم إنه لما ألمه الإنكار همّ بترك ذلك والفرار . لكنه خاف من
عقوبة الکتمان المنبه عليها في القرآن، ولذلك قال: لولا آيتان في كتاب الله ما
حدثت حديثاً»^(٢).

قال شيخ الإسلام: «وأبو هريرة كان من أحفظ الأمة، وقد دعا له النبي ﷺ
بالحفظ، قال: (فلم أنس شيئاً سمعته بعد) . . . قال: إن أحداً من الصحابة لم يطعن
في شيء رواه أبو هريرة، بحيث قال: إنه أخطأ في هذا الحديث؛ لا عمر ولا غيره،
بل كان لأبي هريرة مجلس إلى حجرة عائشة، فيحدث ويقول: يا صاحبة الحجرة!

(١) الفتح (١/ ٢٨٥).

(٢) المفهم (٦/ ٤٣٧-٤٣٨).

هل تنكرين مما أقول شيئاً؟ فلما قضت عائشة صلاتها لم تنكر مما رواه، لكن قالت : إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث سرديكم ، ولكن كان يحدث حديثاً لو عدّه العاذ لحفظه . فأنكرت صفة الأداء لا ما أداه . وكذلك ابن عمر قيل له : هل تنكر مما يحدث أبو هريرة شيئاً؟ فقال : لا ، ولكن أخبر وجبناً . فقال أبو هريرة : ما ذنبي إن كنت حفظت ونسوا . وكانوا يستعظمون كثرة روايته حتى يقول بعضهم : أكثر أبو هريرة! حتى قال أبو هريرة : الناس يقولون : أكثر أبو هريرة ، والله الموعِد؛ أما إخواني من المهاجرين فكان يشغلهم الصنف بالأسواق ، وأما إخواني من الأنصار فكان يشغلهم عمل أموالهم ، وكنت امرأة مسكينة ألزم رسول الله ﷺ فكنت أشهد إذا غابوا ، وأحفظ إذا نسوا ، ولقد حدثنا رسول الله ﷺ حديثاً ثم قال : أيكم يبسط ثوبه؟ فبسطت ثوبي ، فدعا لي ، فلم أنسَ بعد شيئاً سمعته منه ﷺ . . . فقد بين أن سبب حفظه ملازمة النبي ﷺ وقطع العلائق ، ودعاؤه له ، وكان عمر بن الخطاب يستدعي الحديث من أبي هريرة ويسأله عنه ولم ينهه عن رواية ما يحتاج إليه من العلم الذي سمعه من النبي ولا توعدّه على ذلك ، ولكن كان عمر يحب التثبت في الرواية ، حتى لا يجترئ الناس فيزاد في الحديث ، ولهذا طلب من أبي موسى الأشعري من يوافقه على حديث الاستئذان ، مع أن أبا موسى من أكابر الصحابة وثقاتهم باتفاق الأئمة^(١) .

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»^(٢) .

* عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من كتم علماً ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»^(٣) .

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٣٤-٥٣٦) .

(٢) أخرجه : أحمد (٢/ ٢٦٣) وأبو داود (٤/ ٦٧-٦٨/ ٣٦٥٨) والترمذي (٥/ ٢٩/ ٢٦٤٩) وقال : حديث حسن ، وابن ماجه (١/ ٩٦/ ٢٦١) . وصححه ابن حبان (الاحسان ١/ ٢٩٧/ ٩٥) والحاكم (١/ ١٠١) ووافقه الذهبي .

(٣) أخرجه : الطبراني في الكبير (١٣/ ٢٠/ ٣٣) [ملحق] وفي الأوسط (٦/ ١٥/ ٥٠٢٣) . وصححه ابن حبان (الاحسان ١/ ٢٩٨/ ٩٦) والحاكم (١/ ١٠٢) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي . وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ١٦٣) وقال : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله موثقون .

★ فوائد الحديثين:

قال الخطابي: «والمعنى: أن الملجم لسانه عن قول الحق، والإخبار عن العلم، والإظهار له؛ يعاقب في الآخرة بلجام من نار.

وخرج هذا على معنى مشاكلة العقوبة الذنب؛ كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^(١).

قال: وهذا في العلم الذي يلزمه تعليمه إياه، ويتعين عليه فرضه، كمن رأى كافرا يريد الإسلام يقول: علموني ما الإسلام وما الدين. وكمن يرى رجلاً حديث العهد بالإسلام لا يحسن الصلاة وقد حضر وقتها يقول: علموني كيف أصلي. وكمن جاء مستفتياً في حلال أو حرام يقول: أفتوني وأرشدوني، فإنه يلزم في مثل هذه الأمور أن لا يمنعوا الجواب عما سألوا عنه من العلم، فمن فعل ذلك كان أثماً مستحقاً للعقوبة، وليس كذلك الأمر في نوافل العلم التي لا ضرورة بالناس إلى معرفتها»^(٢).

قال شيخ الإسلام: «وهذا (يعني: كتمان العلم) قد يبتلى به طوائف من المنتسبين للعلم، فإنهم تارة يكتمون العلم بخلاً به وكراهة أن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه، وتارة اعتياضاً عنه برياسة أو مال، فيخاف من إظهاره انتقاص رياسته أو نقص ماله، وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة، أو اعتزى إلى طائفة قد خولفت في مسألة، فيكتُم من العلم ما فيه حجة لمخالفه؛ وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطل، ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي وغيره: أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم»^(٣).

وقال: «فالمرصدون للعلم عليهم للأمة حفظ علم الدين وتبليغه، فإذا لم يبلغوهم علم الدين أو ضيعوا حفظه؛ كان ذلك من أعظم الظلم للمسلمين، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾»، فإن ضرر كتمانهم تعدى إلى البهائم وغيرها، فلعنهم اللاعنون حتى البهائم، كما أن معلم الخير يصلي عليه الله

(٢) معالم السنن (٤/١٧١).

(١) البقرة: الآية (٢٧٥).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/٧٢-٧٣).

وملائكته ويستغفر له كل شيء حتى الحيتان في جوف البحر، والطير في جو السماء»^(١).

* قال أبو ذر: لو وضعت الصمصامة على هذه - وأشار إلى قفاه - ثم ظننت أنني أنفذ كلمة سمعتها من النبي ﷺ قبل أن تجيزوا علي لأنفذتها^(٢).

★ غريب الحديث:

الصمصامة: بمهملتين، هو السيف الصارم الذي لا ينثني، وقيل: الذي له حدٌ واحد.

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «فيه الحث على تعليم العلم، واحتمال المشقة فيه، والصبر على الأذى؛ طلباً للثواب»^(٣).

وقال ابن بطلال: «وقول أبي ذر: (لو وضعت الصمصامة على هذه، ثم ظننت أنني أنفذ كلمة سمعتها من النبي ﷺ) فإنه يعني: ما سمع من رسول الله من الفرائض، والسنن، وما ينتفع الناس به في دينهم مما أخذ الله به الميثاق على العلماء ليبينه للناس ولا يكتُمونه، وإنما أراد أبو ذر بقوله هذا الحض على العلم والاغتراب بفضله، حين سهل عليه قتل نفسه في جنب ما يرجو من ثواب نشره وتبليغه.

ففي هذا من الفقه أنه يجوز للعالم أن يأخذ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالشدة، والعزيمة مع الناس، ويحتسب ما يصيبه في ذلك على الله تعالى. ومباح له أن يأخذ بالرخصة في ذلك. ويسكت إذا لم يطق على حمل الأذى في الله، كما قال أبو هريرة: لو حدثتكم بكل ما سمعت من رسول الله لقطع هذا البلعوم»^(٤).

وقال أبو حيان -نقلاً عن ابن حزم-: «الحظ لمن آثر العلم وعرف فضله أن

(١) مجموع الفتاوى (١٨٧/٢٨).

(٢) علقه البخاري (٢١٢/١) بصيغة الجزم. ووصله الدارمي (١٣٦/١-١٣٧).

(٣) الفتح (٢١٤/١).

(٤) ابن بطلال (١٥٢/١).

يستعمله جهده، ويقرئه بقدر طاقته، ويحققه ما أمكنه، بل لو أمكنه أن يهتف به على قوارع طرق المارة، ويدعو إليه في شوارع السابلة، وينادي عليه في مجامع السيارة، بل لو تيسر له أن يهب المال لطلابيه، ويجري الأجور لمقتبسيه، ويعظم الأجعال للباحثين عنه، ويستني مراتب أهله، صابراً في ذلك على المشقة والأذى؛ لكان ذلك حظاً جزيلاً، وعملاً جيداً، وسعداً كريماً، وإحياء للعلم، وإلا فقد درس وطمس ولم يبق منه إلا آثار لطيفة، وأعلام دائرة^(١).

قلت: هذه الكلمة من الإمام ابن حزم - التي نقلها الإمام المفسر الكبير أبو حيان في البحر - هي من إمام تذوق العلم، وتمتع بحلواته واختلط بلحمه ودمه، وعلم ما له من أثر طيب مبارك على الأمة؛ فإنها بالعلم يصلح حالها، وتقل نكايتها، ويضعف خلافها، وتجتمع كلمتها، والخير الذي يأتي من بذل العلم والتضحية في نشره؛ لا يعلم قدره إلا الله تعالى. فترجو الله أن يوفق العلماء وطلبة العلم للاجتهاد في طلبه، ويوفق ولاية الأمر لتبني المراكز العلمية النافعة ذات البحث المجدي، ويوفق أرباب الأموال لبذل أموالهم في هذا السبيل المبارك، ويوفق الأجيال للإقبال على العلم النافع من قرآن وسنة وعقيدة سلفية مستقاة من الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة، وأن يجعلنا مع هؤلاء جميعاً فنطلب العلم وننشره ونبذل المال في سبيله، فهو نعم المولى ونعم النصير.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين: فأما أحدهما فبشته، وأما الآخر فلو بشته قطع هذا البلعوم^(٢).

★ غريب الحديث:

بشته: أي: أذعته ونشرته.

البلعوم: مجرى الطعام، كنى به عن القتل.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «وحمل العلماء الوعاء الذي لم يشته على الأحاديث التي فيها تبين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم، وقد كان أبو هريرة يكتني عن بعضه،

(١) البحر المحيط (١/٦٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (١/٢٨٨/١٢٠).

ولا يصرح به خوفاً على نفسه منهم، كقوله: (أعوذ باللّٰه من رأس الستين، وإمارة الصبيان) يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية؛ لأنها كانت سنة ستين من الهجرة واستجاب اللّٰه دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة... قال ابن المنير: جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم، حيث اعتقدوا أن للشرعية ظاهراً وباطناً، وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين. قال: وإنما أراد أبو هريرة بقوله: (قُطِع) أي: قُطِعَ أهل الجور رأسه، إذا سمعوا عيبه لفعلهم، وتضليله لسعيهم، ويؤيد ذلك أن الأحاديث المكتومة لو كانت من الأحكام الشرعية ما وسعه كتمانها لما ذكره في الحديث الأول من الآية الدالة على ذم من كتم العلم، وقال غيره يحتمل أن يكون أراد مع الصنف المذكور ما يتعلق بأشراط الساعة وتغير الأحوال والملاحم في آخر الزمان، فينكر ذلك من لم يألفه ويعترض عليه من لا شعور له به^(١).

قال الذهبي: «لو بث أبو هريرة ذلك الوعاء لأوذي، بل لقتل، ولكن العالم قد يؤديه اجتهاده إلى أن ينشر الحديث الفلاني إحياءاً للسنّة، فله ما نوى، وله أجر وإن غلط في اجتهاده»^(٢).

وقال ابن كثير: «وهذا الوعاء الذي كان لا يتظاهر به هو الفتن والملاحم، وما وقع بين الناس من الحروب والقتال وما سيقع، التي لو أخبر بها قبل كونها لبادر كثير من الناس إلى تكذيبه، وردوا ما أخبر به من الحق، كما قال: (لو أخبرتكم أنكم تقتلون إمامكم وتقتلون فيما بينكم بالسيوف لما صدقتموني) وقد يتمسك بهذا الحديث طوائف من أهل الأهواء والبدع الباطلة والأعمال الفاسدة، ويسندون ذلك إلى هذا الجراب الذي لم يقله أبو هريرة، ويعتقدون أن ما هم عليه كان في هذا الجراب الذي لم يخبر به أبو هريرة، وما من مبطل -مع تضاد أقوالهم- إلا وهو يدعي هذا، وكلهم يكذبون. فإذا لم يكن أبو هريرة قد أخبر به فمَن علمه بعده؟ وإنما كان الذي فيه؛ شيء من الفتن والملاحم، كما أخبر بها هو وغيره من الصحابة»^(٣).

(١) الفتح (١/٢٨٨-٢٨٩).

(٢) السير (٢/٢٩٧-٢٩٨).

(٣) البداية والنهاية (٨/١٠٩).

قال شيخ الإسلام: «وأما حديث أبي هريرة فهو حديث صحيح . . . ولكن ليس في هذا من الباطن الذي يخالف الظاهر شيء، بل ولا فيه من حقائق الدين، وإنما كان في ذلك الجراب الخبر عما سيكون من الملاحم والفتن، فالملاحم الحروب التي بين المسلمين والكفار، والفتن ما يكون بين المسلمين، ولهذا قال عبدالله بن عمر: (لو أخبركم أبو هريرة أنكم تقتلون خليفتمكم وتفعلون كذا وكذا؛ لقلتم كذب أبو هريرة) وإظهار مثل هذا مما تكرهه الملوك وأعوانهم؛ لما فيه من الإخبار بتغير دولهم . . . ولم ينقل أحد قط عن أبي هريرة حديثاً يوافق الباطنية، ولا حديثاً يخالف الظاهر المعلوم من الدين. ومن المعلوم أنه لو كان عنده شيء من هذا؛ لم يكن بد أن ينقل عنه أحد شيئاً منه، بل النقول المتواترة عنه كلها تصدق ما ظهر من الدين، وقد روى من أحاديث صفات الله وصفات اليوم الآخر وتحقيق العبادات ما يوافق أصول أهل الإيمان ويخالف قول أهل البهتان»^(١).

* قال علي عليه السلام: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟»^(٢)

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة. ومثله قول ابن مسعود: (ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) رواه مسلم^(٣). وممن كره التحديث ببعض دون بعض: أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرائب، وأن المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة، وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العُرَيْنَيْنِ؛ لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمد منه من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي!! وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب. والله أعلم»^(٤).

قلت: قول الحافظ: «ومالك في أحاديث الصفات» فيه نظر؛ فمالك رحمته الله

(٢) البخاري (١/٣٠٠/١٢٧).

(٤) الفتح (١/٣٠٠).

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٢٥٥-٢٥٦).

(٣) مسلم في المقدمة (١/١١).

روى في موطنه من أحاديث الصفات الكثير، كحديث النزول وكحديث الاستعاذة بكلام الله وأسمائه وصفاته وغيرها، ولما سأله السائل عن الاستواء أجابه بقاعدة جليلة، أصبحت حجة لكل مثبت للصفات كالوجه واليد والقدم وغيرها، فإن ورد عن الإمام مالك ما يقيد ذلك فهو في الكيفية فقط، فالكيفية مجمع على عدم البحث فيها، فرحمة الله على الإمام مالك وعلى الحافظ ابن حجر.

* عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ - ومعاذ رديفه على الرحل - قال: يا معاذ بن جبل. قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: يا معاذ. قال: لبيك يا رسول الله وسعديك (ثلاثاً). قال: ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقا من قلبه؛ إلا حرمه الله على النار. قال: يا رسول الله! أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: إذن يتكلموا. وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً^(١).

* عن أنس قال: ذكر لي أن النبي ﷺ قال لمعاذ: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة». قال: ألا أبشر الناس؟ قال: «لا إني أخاف أن يتكلموا»^(٢).

★ فوائد الحديثين:

قوله ﷺ: «إذن يتكلموا»

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «أي: يعتمدوا على ذلك، فيتركوا التنافس في الأعمال، وفي رواية (فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً) أي: تحرجاً من الإثم. قال الوزير أبو المظفر: لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة، فأما الأكياس الذين إذا سمعوا بمثل هذا زادوا في الطاعة، ورأوا أن زيادة النعم تستدعي زيادة الطاعة، فلا وجه لكتمانها عنهم»^(٣).

قوله: (فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً)

قال ابن حجر: «معنى التأثم التحرج من الوقوع في الإثم وهو كالتحنت، وإنما

(١) أحمد (٢٢٨/٥) والبخاري (١٢٨/٣٠٠/١) ومسلم (٣٢/٦١/١) والترمذي (٢٦٠٥-٢٦/٢٧-٢٦٤٣).

(٢) أحمد (١٥٧/٣) والبخاري (١٢٩/٣٠٣/١) ومسلم (٣٢/٦١/١) والنسائي في الكبرى (٢٧٨/٦).

(٣) فتح المجيد (ص: ٤٣).

خشي معاذ من الإثم المرتب على كتمان العلم، وكأنه فهم من منع النبي ﷺ أن يخبر بها إخباراً عاماً لقوله: (أفلا أبشر الناس) فأخذ هو أولاً بعموم المنع فلم يخبر بها أحداً، ثم ظهر له أن المنع إنما هو من الإخبار عموماً، فبادر قبل موته فأخبر بها خاصاً من الناس فجمع بين الحكيمين. ويقوي ذلك أن المنع لو كان على عمومته في الأشخاص لما أخبر هو بذلك، وأخذ منه أن من كان في مثل مقامه في الفهم أنه لم يمنع من إخباره^(١).

قال القسطلاني: «أي تجنبنا عن الإثم إن كتم ما أمر الله بتبليغه حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لُبِّيْنْتُمْ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾»^(٢)»^(٣).

وقال: «وقد تضمن هذا الحديث أن يُخص بالعلم قوم فيهم الضبط وصحة الفهم، ولا يبذل المعنى اللطيف لمن لا يستأهله، ومن يخاف عليه الترخيص والاتكال لتقصير فهمه»^(٤).

* * *

(١) الفتح (٣٠٣/١-٣٠٤).

(٢) آل عمران: (١٨٧).

(٣) إرشاد الساري (٣٩٠/١).

(٤) إرشاد الساري (٣٩٠-٣٩١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، خالدين فيها أي: في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم، التي لا يخفف عنهم العذاب فيها؛ أي: لا ينقص عما هم فيه ولا هم ينظرون؛ أي: لا يغير عنهم ساعة واحدة ولا يفتر، بل هو متواصل دائم، فنعوذ بالله من ذلك. قال أبو العالية وقتادة: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون.

فصل: لا خلاف في جواز لعن الكفار، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الأئمة؛ يلعنون الكفرة في القنوت وغيره، فأما الكافر المعين؛ فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يُلعن؛ لأننا لا ندري بما يخيتم الله له، واستدل بعضهم بالآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعين، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي، ولكنه احتج بحديث فيه ضعف. واستدل غيره بقوله عليه السلام في قصة الذي كان يؤتى به سكران فيحدّه؛ فقال رجل: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»^(١) فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن والله أعلم»^(٢).

وقال السعدي: «وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه،

(١) سيأتي تخريجه في تفسير الآية نفسها.

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٣٥٣).

ولم ينب إليه ، ولم يتب عن قريب ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(١) لأنه لما صار كفرهم وصفا ثابتا ، صارت اللعنة عليهم وصفا ثابتا لا تزول ؛ لأن الحكم يدور مع علته ، وجودا وعدما .

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي : في اللعنة ، أو في العذاب والمعنيان متلازمان .
﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي : يمهلون ؛ لأن وقت الإمهال وهو الدنيا قد مضى ، ولم يبق لهم عذر فيعتذرون^(٢) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن من مات على الكفر فعليه لعنة الله
والملائكة والناس أجمعين

* عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تلاعنوا بلعنة الله ، ولا بغضبه ، ولا بالنار »^(٣) .

★ فوائد الحديث :

قال الطيبي : « قوله : « لا تلاعنوا » أي : لا تدعوا الناس بما يبعدهم من الله تعالى ومن رحمته ، إما صريحا كما تقولون : لعنة الله عليه ، أو كناية كما تقولون : عليه غضب الله ، أو أدخله الله النار . فقوله : « لا تلاعنوا » من باب عموم المجاز ؛ لأنه في بعض أفراد حقيقته وفي بعضه مجاز . وهذا مختص بمعين ؛ لأنه يجوز اللعن بالوصف الأعم كقوله : لعنة الله على الكافرين ، أو بالأخص كقوله : لعنة الله على اليهود ، أو على كافر معين مات على الكفر ، كفرعون وأبي جهل »^(٤) .

قال المناوي : « قد لعن رسول الله ﷺ أصنافا كثيرة تزيد على عشرين . . وفي جواز لعن أهل المعاصي من أهل القبلة خلف ، محصوله : أن اللعن إما أن يتعلق بمعين ، أو بالجنس ؛ فلعن الجنس يجوز ، والمعين موقوف على السماع من الشارع ، ولا قياس »^(٥) .

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٨٧-١٨٨) .

(٢) أخرجه : أحمد (١٥/٥) وأبو داود (٤٩٠٦/٥) والترمذي (١٩٧٦/٤) وقال : « حديث حسن صحيح » والبخاري في الأدب المفرد (٣٢٠) . وصححه الحاكم (٤٨/١) ووافقه الذهبي .

(٣) شرح الطيبي (٣١٢٧-٣١٢٨) .

(٤) الفيض (٢٦٧/٥) .

قال ابن العربي: «قال لي كثير من أشياخي: إن الكافر المعين لا يجوز لعنه؛ لأن حاله عند الموافاة لا تُعلم، وقد شرط الله تعالى في هذه الآية في إطلاق اللعنة الموافاة على الكفر، وقد روي عن النبي ﷺ لعن أقوام بأعيانهم من الكفار. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها: دخل على النبي ﷺ رجلاً، فكلّمه بشيء فأغضباه، فلعنهما^(١)؛ وإنما كان ذلك لعلمه بمآلهما. والصحيح عندي جواز لعنه لظاهر حاله، كجواز قتاله وقتله»^(٢).

قال القرطبي: «أما لعن الكفار جملة من غير تعيين؛ فلا خلاف في ذلك، لما رواه مالك عن داود بن الحصين: أنه سمع الأعرج يقول: ما أدركت الناس إلا وهم يلعنون الكفرة في رمضان^(٣). قال علماؤنا: وسواء كانت لهم ذمة أم لم تكن، وليس ذلك بواجب، ولكنه مباح لمن فعله؛ لجحدهم الحق وعداوتهم للدين وأهله. وكذلك كل من جاهر بالمعاصي؛ كشرب الخمر، وأكل الربا، ومن تشبه من النساء بالرجال ومن الرجال بالنساء، إلى غير ذلك مما ورد في الأحاديث لعنه.

قال: ليس لعن الكافر بطريق الزجر له عن الكفر؛ بل هو جزاء على الكفر، وإظهار قبح كفره، كان الكافر ميتاً أو مجنوناً. وقال قوم من السلف: إنه لا فائدة في لعن من جن أو مات منهم، لا بطريق الجزاء، ولا بطريق الزجر، فإنه لا يتأثر به. والمراد بالآية على هذا المعنى: أن الناس يلعنونه يوم القيامة؛ ليتأثر بذلك، ويتضرر، ويتألم قلبه، فيكون ذلك جزاء على كفره؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾^(٤) ويدل على هذا القول أن الآية دالة على الإخبار عن الله تعالى بلعنهم، لا على الأمر. وذكر ابن العربي أن لعن العاصي المعين لا يجوز اتفاقاً؛ لما روي عن النبي ﷺ: أنه أتى بشارب خمر مراراً، فقال بعض من حضره: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: «لا تكونوا عون الشيطان على أخيك»^(٥)، فجعل له حرمة الأخوة وهذا يوجب الشفقة. . وقد ذكر بعض العلماء خلافاً في لعن العاصي المعين، قال (ابن

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٠٠٧/٢٦٠٠).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١/١١٥/٦).

(٣) أحكام القرآن (١/٥٠).

(٤) العنكبوت: الآية (٢٥).

(٥) أخرجه البخاري (١٢/٨٩/٦٧٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

العربي): وإنما قال ﷺ: «لا تكونوا عون الشيطان على أخيك» في حق نعيمان بعد إقامة الحد عليه، ومن أقيم عليه حد الله تعالى فلا ينبغي لعنه، ومن لم يقم عليه الحد فلعنته جائزة؛ سواء سمي أو عُين أم لا؛ لأن النبي ﷺ لا يلعن إلا من تجب عليه اللعنة ما دام على تلك الحالة الموجبة لللعن، فإذا تاب منها وأقلع وطهره الحد؛ فلا لعنة تتوجه عليه. وبين هذا قوله ﷺ: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرّب»^(١) فدل هذا الحديث -مع صحته- على أن التثريب واللعن إنما يكون قبل أخذ الحد وقبل التوبة. والله تعالى أعلم^(٢).

قال ابن العربي: «وأما لعن العاصي مطلقاً؛ فيجوز إجماعاً، لما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده»^(٣)»^(٤).

وقال النووي: «هذا دليل لجواز لعن غير المعين من العصاة؛ لأنه لعن للجنس لا لمعين، ولعن الجنس جائز كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾»^(٥) وأما المعين فلا يجوز لعنه^(٦).

قلت: مما تقدم يتبين أن اللعن بالوصف جائز مطلقاً، كلعن الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة، والسارق والسارقة وغيرها، ممن ورد اللعن فيه بالصفة بالكتاب أو بالسنة.

وأما لعن المعين إن كان كافراً فالمختار عدم لعنه إلا إذا مات على الكفر أو الشرك، وأما لعن العاصي المسلم فلا يجوز لعنه اتفاقاً.

وأما لعن المسلم البريء الذي لا ذنب له؛ فهو موبقة من الموبقات، واللعن يرجع على صاحبه والعياذ بالله، فهذا هو التفصيل الذي ينبغي أن يعتمد في هذا

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٤٩) والبخاري (٤/٤٦٤/٢١٥٢) ومسلم (٣/١٣٢٨/١٧٠٣) وأبو داود (٤/٦١٤-٦١٥/٤٤٧١) والترمذي (٤/٣٧/١٤٤٠) والنسائي في الكبرى (٤/٢٩٩/٧٢٤٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/١٨٨-١٩٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢/٢٥٣) والبخاري (١٢/٩٦/٦٧٨٣) ومسلم (٣/١٣١٤/١٦٨٧) والنسائي (٨/٤٣٦-٤٣٧/٤٨٨٨) وابن ماجه (٢/٨٦٢/٢٥٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أحكام القرآن (١/٥٠).

(٥) هود: الآية (١٨).

(٦) شرح مسلم (١١/١٥٤).

الباب، والذي هو نتيجة تتبع النصوص نصًا نصًا وقد أفرد هذا الباب بالتأليف ولله الحمد والمنة.

* عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: «خطبنا علي عليه السلام على منبر من آجر، وعليه سيف فيه صحيفة معلقة، فقال: واللّه ما عندنا من كتاب يُقرأ إلا كتاب الله، وما في هذه الصحيفة، فنشرها؛ فإذا فيها أسنان الإبل، وإذا فيها: المدينة حرم من غير إلى كذا، فمن أحدث فيها حدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً. وإذا فيه: ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلمًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً. وإذا فيها: من والى قوما بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «ودل الحديث على أنه من آوى أهل المعاصي والبدع أنه شريك في الإثم، وليس يدل الحديث على أن من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا في غير المدينة؛ أنه غير متوعد ولا مَلُوم على ذلك؛ لتقدم العلم بأن من رضي فعل قوم وعملهم أنه منهم، وإن كان بعيدا عنهم.

فهذا الحديث نص في تحذير فعل شيء من المنكر في المدينة، وهو دليل في التحذير من إحداث مثل ذلك في غيرها، وإنما خصت المدينة بالذكر في هذا الحديث؛ لأن اللعنة على من أحدث فيها حدثًا أشد والوعيد له أكد؛ لانتهاكه ما حذر عنه، وإقدامه على مخالفة رسول الله ﷺ فيما كان يلزمه من تعظيم شأن المدينة التي شرفها الله، بأنها منزل وحيه، وموطن نبيه ﷺ، ومنها انتشر الدين في أقطار الأرض، فكان لها بذلك فضل مزية على سائر البلاد»^(٢).

وقال الشاطبي: «وأما أن صاحبها (البدعة) ملعون على لسان الشريعة؛ فلقوله -عليه الصلاة والسلام-: «من أحدث حدثًا، أو آوى محدثًا؛ فعليه لعنة الله

(١) أحمد (٨١/١) والبخاري (٣٤١-٣٤٢/٣) ومسلم (٩٩٤-٩٩٨/٢) وأبو داود (٥٢٩/٢) -

(٢٠٣٤/٥٣١) والترمذي (٣٨١-٣٨٢/٤) والنسائي في الكبرى (٤٨٦/٢) (٤٢٧٨).

(٢) ابن بطال (٣٥٠/١٠).

والملائكة والناس أجمعين». وعد من الإحداث الاستئان بسنة سوء لم تكن. وهذه اللعنة قد اشترك فيها صاحب البدعة مع من كفر بعد إيمانه، وقد شهد أن بعثة النبي ﷺ حق لا شك فيها، وجاءه الهدى من الله والبيان الشافي، وذلك قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾. . إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(١) إلى آخرها.

واشترك أيضًا مع من كتم ما أنزل الله وبينه في كتابه، وذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾^(٢) إلى آخرها.

فتأملوا المعنى الذي اشترك المبتدع فيه مع هاتين الفرقتين، وذلك مضادة الشارع فيما شرع؛ لأن الله تعالى أنزل الكتاب، وشرع الشرائع، وبين الطريق للسالكين على غاية ما يمكن من البيان، فضاهاها الكافر بأن جحدها جحدًا، وضادها كاتمها بنفس الكتمان؛ لأن الشارع يبين ويظهر، وهذا يكتم ويخفي، وضادها المبتدع بأن وضع الوسيلة لترك ما بين وإخفاء ما أظهر؛ لأن من شأنه أن يدخل الإشكال في الواضحات من أجل اتباع المتشابهات؛ لأن الواضحات تهدم له ما بنى عليه في المتشابهات، فهو أخذ في إدخال الإشكال على الواضح، حتى يترك، فيحق ما جاءت اللعنة في الابتداء من الله والملائكة والناس أجمعين»^(٣).

قال القاضي: «وقوله ﷺ: «فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين». .» وعيد شديد لمن فعل ذلك، لمن استحل حرمتها، أو أحدث فيها، وقد استدلوا لما جاءت به اللعنة أنه من الكبائر. . وقيل: معنى لعنة الله هنا؛ يحتمل أن يراد به العذاب الذي يستوجبه على ذنبه، والطرده عن الجنان أو لآ، ودخول النار حتى يخرج الله منها، واللعنة معناها الإبعاد، ولا يكون هذا كلجنة الكفار الذين يبعدون عن رحمة الله رأسًا، ولعنة الملائكة والناس هنا: الدعاء عليهم بمثل هذا. وقد

(١) آل عمران: الآيتان (٨٦ و ٨٧).

(٢) البقرة: الآية (١٥٩).

(٣) الاعتصام (٢٠٢/١-٢٠٣).

يكون لعنة الملائكة هنا ترك الدعاء لهم والاستغفار، وإبعادهم عنه، وإخراجهم من جملة المؤمنين الذين يستغفرون لهم كما حكى الله تعالى عنهم^(١).

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ، كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يوماً فأمر به فجلده، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ : «لا تلعنوه، فوالله ما علمت؛ إنه يحب الله ورسوله»^(٢).

★ فوائد الحديث:

بؤب عليه البخاري: «باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة».

قال ابن حجر: «يشير إلى طريق الجمع بين ما تضمنه حديث الباب من النهي عن لعنه، وما تضمنه حديث الباب الأول «لا يشرب الخمر وهو مؤمن» وأن المراد به نفي كمال الإيمان، لا أنه يخرج عن الإيمان جملة، وعبر بالكراهة هنا إشارة إلى أن النهي للتنزيه في حق من يستحق اللعن إذا قصد به اللاعن محض السب، لا إذا قصد معناه الأصلي، وهو الإبعاد عن رحمة الله، فأما إذا قصد به فيحرم، ولا سيما في حق من لا يستحق اللعن؛ كهذا الذي يحب الله ورسوله، ولا سيما مع إقامة الحد عليه، بل يندب الدعاء له بالتوبة والمغفرة»^(٣).

قال ابن تيمية: «وقد تنازع الناس في لعنة الفاسق المعين؛ فقليل: إنه جائز، كما قال ذلك طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم، كأبي الفرج بن الجوزي وغيره. وقيل: إنه لا يجوز، كما قال ذلك طائفة أخرى من أصحاب أحمد وغيرهم كأبي بكر عبد العزيز وغيره. والمعروف عن أحمد كراهة لعن المعين، كالحجاج بن يوسف وأمثاله، وأن يقول كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾»^(٤). وقد ثبت في صحيح البخاري: أن رجلاً كان يدعى حماراً...

فقد نهى النبي ﷺ عن لعنة هذا المعين الذي كان يكثر شرب الخمر؛ معللاً ذلك

(٢) أخرجه: البخاري (١٢/٨٩/٦٧٨٠).

(٤) هود: الآية (١٨).

(١) الإكمال (٤/٤٨٦-٤٨٨).

(٣) الفتح (١٢/٨٩).

بأنه يحب الله ورسوله، مع أنه ﷺ لعن شارب الخمر مطلقاً، فدل ذلك على أنه يجوز أن يلعن المطلق، ولا تجوز لعنة المعين الذي يحب الله ورسوله^(١).

وقال: «فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب؛ لكونه يحب الله ورسوله، مع أنه ﷺ لعن في الخمر عشرة؛ لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وساقها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وأكل ثمنها. ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين الذي قام به ما يمنع لحوق اللعنة له، وكذلك التكفير المطلق، والوعيد المطلق، ولهذا كان الوعيد المطلق في الكتاب والسنة مشروطاً بثبوت شروط وانتفاء موانع، فلا يلحق التائب من الذنب باتفاق المسلمين، ولا يلحق من له حسنات تمحو سيئاته، ولا يلحق المشفوع له، والمغفور له، فإن الذنوب تزول عقوبتها التي هي جهنم؛ بأسباب التوبة، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، لكنها من عقوبات الدنيا، وكذلك ما يحصل في البرزخ من الشدة، وكذلك ما يحصل في عرصات القيامة، وتزول أيضاً بدعاء المؤمنين؛ كالصلاة عليه وشفاعة الشفيع المطاع، كمن يشفع فيه سيد الشفعاء محمد ﷺ تسليماً»^(٢).

* عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله من لعن والده، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من غير منار الأرض»^(٣).

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وإنما استحق لآئنه أبويه لعنة الله؛ لمقابلته نعمة الأبوين بالكفران، وانتهائه إلى غاية العقوق والعصيان، كيف لا؛ وقد قرن الله برهما بعبادته، وإن كانا كافرين بتوحيده وشريعته؟! وأما لعن من ذبح لغير الله، فإن كان كافراً يذبح للأصنام؛ فلا خفاء بحاله،

(١) منهاج السنة (٤/٥٦٩-٥٧٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٣٢٩-٣٣٠).

(٣) أخرجه: أحمد (١/١٠٨)، ومسلم (٣/١٥٦٧/١٩٧٨)، والنسائي (٧/٢٦٦/٤٤٣٤).

وهي التي أهل بها لغير الله، والتي قال الله تعالى فيها: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾^(١). . وأما إن كان مسلمًا فيتناوله عموم هذا اللعن، ثم لا تحل ذبيحته؛ لأنه لم يقصد بها الإباحة الشرعية^(٢).

* * *

(١) الأنعام: الآية (١٢١).

(٢) المفهم (٥/٢٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَالنَّهْكَزُ لِلَّهِ﴾ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال القرطبي: «قوله: ﴿وَالنَّهْكَزُ لِلَّهِ﴾ وَاحِدٌ لما حذر تعالى من كتمان الحق بين أن أول ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمان أمر التوحيد، ووصل ذلك بذكر البرهان، وعلم طريق النظر، وهو الفكر في عجائب الصنع ليعلم أنه لا بد له من فاعل لا يشبهه شيء، قال ابن عباس رضي الله عنه: قالت كفار قريش: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى الإخلاص وهذه الآية، وكان للمشركين ثلاثمائة وستون صنماً فيبين الله أنه واحد.

قوله تعالى: ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفى وإثبات، أولها كفر وآخرها إيمان، ومعناه لا معبود إلا الله»^(١).

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عديل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا إله إلا هو، وأنه الرحمن الرحيم»^(٢).

قال أبو حيان: «﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾» تأكيد لمعنى الوحدانية، ونفى الإلهية عن غيره. وهي جملة جاءت لنفي كل فردٍ فردٍ من الآلهة، ثم حصر ذلك المعنى فيه -تبارك وتعالى-، فدللت الآية الأولى على نسبة الواحدية إليه تعالى، ودلت الثانية على حصر الإلهية فيه من اللفظ الناص على ذلك، وإن كانت الآية الأولى تستلزم ذلك؛ لأن من ثبتت له الواحدية ثبتت له الإلهية»^(٣).

قال شيخ الإسلام: «وأما التوحيد الذي ذكره الله في كتابه، وأنزل به كتبه، وبعث به رسله، واتفق عليه المسلمون من كل ملة؛ فهو كما قال الأئمة: شهادة أن

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٩٠-١٩١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٤).

(٣) البحر (١/ ٦٣٧).

لا إله إلا الله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له؛ كما بين ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُكَ إِلَهٌ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ فأخبر أن الإله إله واحد، لا يجوز أن يتخذ إله غيره، فلا يعبد إلا إياه، كما قال في السورة الأخرى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾^(١) وكما قال: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ إلى قوله: ﴿فَنُلْقِي فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾^(٢) وكما قال: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿الَّذِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَافِظُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٤) وكما قال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾^(٥).

وقال أيضًا: «والمسلمون يقولون كما قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُكَ إِلَهٌ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، والتوحيد الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب؛ هو توحيد الإلهية، وهو أن يعبد الله وحده لا شريك له، وهو متضمن لشيئين: أحدهما القول العملي، وهو إثبات صفات الكمال له، وتنزيهه عن النقائص، وتنزيهه عن أن يماثله أحد في شيء من صفاته، فلا يوصف بنقص بحال، ولا يماثله أحد في شيء من الكمال، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١) اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٢) فالصمدية تثبت له الكمال، والأحدية تنفي مماثلة شيء له في ذلك، كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع. والتوحيد العملي الإرادي: أن لا يعبد إلا إياه، فلا يدعو إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يخاف إلا إياه، ولا يرجو إلا إياه، ويكون الدين كله لله، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَايَأُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(٦) وهذا التوحيد يتضمن أن الله خالق كل شيء، وربّه، ومليكه، لا شريك له في الملك»^(٧).

قلت: ومما تقدم من كلام أهل العلم في بيان التوحيد، وأن الله -تبارك وتعالى- جعل هذا الأصل هو الغاية التي من أجلها أنزل الكتب، وبعث الرسل،

(١) النحل (٥١).

(٢) الإسراء من الآية (٢٢) إلى (٣٩).

(٣) الزمر: الآيات: (١-٣).

(٤) الفرقان: الآية (٦٨).

(٥) الفتاوى الكبرى (٢٤٨/٥).

(٦) سورة الإخلاص.

(٧) الصفية (٢/٢٢٨).

(٧) سورة الكافرون.

وعليها يقاتل من امتنع عنه ودفعه، كما قال الله تعالى: ﴿فَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(١) الآية، وقال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله»^(٢)، فالله تعالى هو المنفرد في ألوهيته، فلا يعبد غيره معه، فهو المعبود بحق، وإن عبد غيره فباطل، فلهذا - كما أشار بعض العلماء الفضلاء في تفسير شهادة أن لا إله إلا الله أنه لا معبود بحق إلا الله - فمن أطلق التفسير فلم يصب، وأما من فسر الألوهية بالربوبية فجعل يجب أن يعالج بالتعلم، كما هو الحال في كتب الأشاعرة الذين أفسدهم علم الكلام، وفصلهم عن الكتاب والسنة، واشتغلوا بقضايا كلامية هي تكرار لما أصله الجهمية والمعتزلة، فلا للنقل اتبعوا، ولا للعقل نصروا.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان اسم الله الأعظم

* عن أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَالْهُكُّزُ إِلَهٌ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ و﴿وَالْمَلِكُ﴾»^(٣) (٤).

* فوائد الحديث:

قال الشيخ أحمد البنا: «يستفاد منه أن اسم الله الأعظم هو: الله لا إله إلا هو الحي القيوم، والله أعلم»^(٥).

* تنبيه: سيأتي المزيد من فوائد الحديث في فاتحة آل عمران، إن شاء الله تعالى.

* * *

(١) التوبة: الآية (٢٩).

(٢) أخرجه: البخاري (١٠٢/٢٥)، ومسلم (١/٥٣/٢٢).

(٣) آل عمران: الآيتان (٢١ و٢٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/٤٦١) وأبو داود (٢/١٦٨/١٤٩٦) والترمذي (٥/٤٨٣/٣٤٧٨) وقال: هذا حديث حسن

صحيح، وابن ماجه (٢/١٢٦٧/٣٨٥٥). (٥) الفتح الرباني (١٨/٩٢).

قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾^(١)

★ غريب الآية:

خلق: الخلق: إبداع الشيء على تقدير من غير أصل ولا احتذاء.
السموات: واحدها سماء، وهي كل ما علاك فأظلك من سقف ونحوه، لكن إذا أطلق لم يفهم منه غير السموات السبع.
اختلاف: الاختلاف نقيض الاتفاق. والمراد: أن كل واحد من الليل والنهار يخلف الآخر على وجه المعاقبة، وقيل: من اختلاف الجنس.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. لم يبين هنا وجه كونهما آية، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر كقوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾^(١) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ^(٢) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ^(٣) وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾^(٤) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ^(٥) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ^(٦) وقوله في الأرض: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾^(٧).

قوله تعالى: ﴿وَاخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ لم يبين هنا وجه كون اختلافهما آية، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر كقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يُأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَا تَسْمَعُونَ﴾^(٨) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يُأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَا

(٢) سورة ق: الآيات: (٦-٨).

(١) البقرة: الآية (١٦٤).

(٤) الملك: الآية (١٥).

(٣) الملك: الآيات: (٣-٥).

تُبْصِرُونَ ﴿٧١﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٢﴾ (١) إلى غير ذلك من الآيات» (٢).

قال ابن كثير: «ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. يقول تعالى: إن في خلق السموات والأرض؛ تلك في ارتفاعها، ولطافتها، واتساعها، وكواكبها السيارة والثوابت، ودوران فللكها، وهذه الأرض في كثافتها، وانخفاضها، وجبالها، وبحارها، وقفارها، ووهادها، وعمرانها، وما فيها من المنافع. ﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾: هذا يجيء ثم يذهب، ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣) وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ (٤) أي يزيد في هذا ومن هذا في هذا» (٥).

قال القرطبي: «فآية السموات: ارتفاعها بغير عمد من تحتها ولا علائق من فوقها؛ ودل ذلك على القدرة وخرق العادة. ولو جاء نبي فتحدى بوقوف جبل في الهواء دون علاقة كان معجزا. ثم ما فيها من الشمس والقمر والنجوم السائرة والكواكب الزاهرة شارقة وغاربة نيرة وممحوة آية ثانية. وآية الأرض: بحارها وأنهارها ومعادنها وشجرها وسهلها ووعرها» (٦).

* * *

(١) القصص: الآيات: (٧١-٧٣).

(٣) يس: الآية (٤٠).

(٥) تفسير القرآن العظيم (١/٣٥٤).

(٢) أضواء البيان (١/٨٨-٨٩).

(٤) الحديد: الآية (٦).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٢/١٩٢).

قوله: ﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾^(١)

★ غريب الآية:

الفلک: السفن، تقع على الواحد والجمع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾؛ أي: في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ونقل هذا إلى هؤلاء، وما عند أولئك إلى هؤلاء»^(٢).

قال القرطبي: «ووجه الآية في الفلك؛ تسخير الله إياها حتى تجري على وجه الماء، ووقوفها فوقه مع ثقلها»^(٣).

وقال: «هذه الآية وما كان مثلها دليل على جواز ركوب البحر مطلقاً؛ لتجارة كان أو عبادة كالحج والجهاد»^(٤).

قلت: آيات الله الكونية والفعلية لا نهاية لها، ولا يستطيع أحد أن يعدها ويحصيها، والله -تبارك وتعالى- ذكر في كتابه المعلوم منها والمشاهد، فالأرض بساط، والسماء غطاء، والشمس ضياء، والقمر نور، والنجوم مصابيح . . . وفي كل ذلك له آية تدل على ربوبيته، وأنه المتفرد بكل كمال، وقد من الله على البشرية بتطورات كثيرة في كل مجالات الحياة، ومن أعظم ذلك المواصلات البرية والبحرية، والطائرات التي تخترق الأجواء في أقل اللحظات، فما كان يستغرق فيه الإنسان شهوراً عديدة أصبح يقطعه في ساعات معدودة، وأصبحت الأمكنة التي كانت منفصلة عن بعضها بسبب البحار والجبال وطول القفار أصبحت متصلة ببعضها، وتفاصيل هذا الأمر يطول، ومن تفكر قليلاً وجد نفسه في وسط آيات لا يملك إلا أن يعترف لله تعالى فيها بالفضل والمنة، فله الحمد وله الشكر، وله

(١) البقرة: الآية (١٦٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٣٥٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/١٩٤).

(٤) المصدر السابق (٢/١٩٥).

المنة الكاملة، ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في جواز ركوب البحر وما في ذلك من المنافع

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سأل رجل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته»^(٢).

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته وجعلت تغلي رأسه، فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك. قالت: فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر مملوكًا على الأسرة» -أو: مثل المملوك على الأسرة- «شك إسحاق» -قالت: فقلت: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول الله ﷺ. ثم وضع رأسه، ثم استيقظ وهو يضحك. فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله»؛ كما قال في الأول. قالت: فقلت: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «أنت من الأولين». فركبت البحر في زمن معاوية بن أبي سفيان، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت»^(٣).

* غريب الحديث:

ثبج: الشج وسط الشيء إذا تجمّع وبرز، ومنه ثبج البحر، وثبج الصدر، وثبج الأكمة، والجمع أثباج وثبوج.

(١) النحل: الآية (١٨).

(٢) أحمد (٢٣٧/٢)، وأبو داود (٨٣/٦٤/١)، والترمذي (٦٩/١٠١/١) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٥٩/٥٣/١)، وابن ماجه (٣٨٦/١٣٦/١).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٠/٣) والبخاري (٢٧٨٨-٢٧٨٩/١٢/٦) ومسلم (١٥١٨-١٥١٩/٣) وأبو داود (٣١٧١/٣٤٨-٣٤٧/٦) والنسائي (١٦٤٥/١٥٣-١٥٢/٤) والترمذي (٢٤٩٠-٢٤٩١/١٤/٣) وابن ماجه (٢٧٧٦/٩٢٧/٢).

★ فوائد الحديثين:

قال أبو عمر: «وفي حديث هذا الباب من الفقه؛ إباحة ركوب البحر؛ لأن رسول الله ﷺ لو كره ركوبه لنهى عنه الذين قالوا: إنا نركب البحر، وقولهم هذا يدل على أن ذلك كان كثيراً ما يركبونه لطلب الرزق من أنواع التجارة وغيرها، وللجهاد وسائر ما فيه إباحة أو فضيلة والله أعلم. فلم ينههم عن ركوبه؛ وهذا -عندي- إنما يكون لمن سهل ذلك عليه ولم يشق عليه ويصعب به؛ كالمائد المفرط الميّد، أو من لا يقدر معه على أداء فروض الصلاة ونحوها من الفرائض، ولا يجوز عند أهل العلم ركوب البحر في حين ارتجاعه، ولا في الزمن الذي الأغلب منه عدم السلامة فيه والعطب والهلاك، وإنما يجوز -عندهم- ركوبه في زمان تكون السلامة فيه الأغلب والله أعلم.

وفي قول الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾^(٢)؛ ما فيه كفاية ودلالة واضحة في إباحة ركوب البحر -إذا كان كما وصفنا، وبالله توفيقنا»^(٣)

وقال القرطبي: «ففيه دليل واضح على ركوب البحر في الجهاد للرجال والنساء، وإذا جاز ركوبه للجهاد؛ فركوبه للحج المفترض أولى وأوجب. وروي عن عمر ابن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنهما المنع من ركوبه. والقرآن والسنة يرد هذا القول. ولو كان ركوبه يكره أو لا يجوز لنهى عنه النبي ﷺ الذين قالوا له: إنا نركب البحر، وهذه الآية وما كان مثلها نص في الغرض، وإليها المفزع، وقد تؤول ما روي عن العمرين في ذلك؛ بأن ذلك محمول على الاحتياط، وترك التغيرير بالمهج في طلب الدنيا والاستكثار منها، وأما في أداء الفرائض فلا. ومما يدل على جواز ركوبه من جهة المعنى؛ أن الله تعالى ضرب البحر وسط الأرض، وجعل الخلق في العدوتين، وقسم المنافع بين الجهتين، فلا يوصل إلى جلبها إلا بشق البحر لها، فسهل الله سبيله بالفلك. قاله ابن العربي»^(٤).

(١) يونس: الآية (٢٢).

(٢) البقرة: الآية (١٦٤).

(٣) فتح البر (١٢/٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩٥/٢).

قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾^(١)

★ غريب الآية:

بث: البث: التفريق والنشر، والمراد: نشر وفرق فيها أنواع الدواب.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَاءٍ لَهُمْ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾^(٢)، إلى قوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣)،^(٤).

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ يعني بها: الأمطار التي بها إنعاش العالم، وإخراج النبات والأرزاق، وجعل منه المخزون عدة للانتفاع في غير وقت نزوله، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْكَنْتَهُ فِي الْأَرْضِ﴾^(٥)»^(٦).

وقال ابن عاشور: «وجه العبرة فيه؛ أن شأن الماء الذي يسقي الأرض أن ينبع منها، فجعل الماء نازلاً عليها من ضدها وهو السماء عبرة عجيبة»^(٧).

قال ابن كثير: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٨)،^(٩).

قال أبو حيان: «التقدير: وما بث فيها من كل دابة، فيكون ذلك أعظم في

(١) البقرة: الآية (١٦٤).

(٢) يس: الآية (٣٣).

(٣) يس: الآية (٣٦).

(٤) تفسير القرآن العظيم (١/٣٥٤).

(٥) المؤمنون: الآية (١٨).

(٦) المصدر السابق (٢/١٩٦).

(٧) التحرير والتنوير (٢/٨٣).

(٨) هود: الآية (٦).

(٩) تفسير القرآن العظيم (١/٣٥٤).

الآيات ؛ لأن ما بث تعالى في الأرض من كل دابة فيه آيات عظيمة في أشكالها ، وصفاتها ، وأحوالها ، وانتقالاتها ، ومضارها ، ومنافعها ، وعجائبها ، وما أودع في كل شكل شكل منها من الأسرار العجيبة ، ولطائف الصنعة الغريبة ، وذلك من الفيل إلى الذرة ، وما أوجد تعالى في البحر من عجائب المخلوقات المباينة لأشكال البر»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قتل الحيات

* عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه سمع النبي ﷺ يخطب على المنبر يقول : «اقتلوا الحيات ، واقتلوا ذا الطفيتين والأبتر ، فإنهما يطمسان البصر ، ويستسقطان الحبل»^(٢).

قال عبد الله : فيينا أنا أطارد حية لأقتلها ، فناداني أبو لبابة : لا تقتلها . فقلت : إن رسول الله ﷺ قد أمر بقتل الحيات . فقال : إنه نهى بعد ذلك عن ذوات البيوت ، وهي العوامر^(٣).

* غريب الحديث:

الحيات : جمع حية ويقال على الذكر والأنثى . والثعبان : الذكر .
 ذو الطفيتين : ضرب من الحيات في ظهره خطان أبيضان ، وعنهما عبر بالطفيتين . وقال الخليل : هي حية لينة خبيثة .
 الأبتر : الأفعى سميت بذلك لقصر ذنبها . قال النضر بن شميل : إنه صنف من الحيات أزرق مقطوع الذنب . والذكر الأفعوان .
 يطمسان البصر : أي : يمحوان نوره .
 يستسقطان الحبل : معناه أن المرأة إذا نظرت إليهما وخافت أسقطت الحمل غالباً .

(١) البحر المحيط (١/٦٤٠).

(٢) أحمد (٣/٤٥٢) والبخاري (٦/٤٢٧/٣٢٩٧) ومسلم (٤/١٧٥٢/٢٢٣٣) وأبو داود (٥/٤١١/٥٢٥٢) والترمذي (٤/٦٤-٦٥/١٤٨٣) وابن ماجه (٢/١١٦٩/٣٥٣٥).

(٣) أحمد (٣/٤٥٢) والبخاري (٦/٤٢٧/٣٢٩٨) ومسلم (٤/١٧٥٢/٢٢٣٣) وأبو داود (٥/٤١٢/٥٢٥٣).

★ فوائد الحديث:

قال العيني: «مطابقته للترجمة من حيث إن ذا الطفتين من جملة ما يطلق عليه اسم الدابة»^(١).

قال ابن عبد البر: «ترتيب هذه الأحاديث كلها المذكورة في هذا الباب وتهذيبها؛ استعمال حديث أبي لبابة، والاعتماد عليه، فإن فيه بياناً لنسخ قتل حيات البيوت؛ لأن ذلك كان بعد الأمر بقتلها جملة. وفيه استثناء ذي الطفتين والأبتر، فهو حديث مفسر، لا إشكال فيه لمن فهم وعلم، وبالله التوفيق»^(٢).

* عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أقلوا الخروج إذا هدأت الرجل، إن الله يبث من خلقه بالليل ما شاء»^(٣).

★ فوائد الحديث:

قوله: «إذا هدأت الرجل» قال المناوي: «أي بعد سكون الناس عن المشي في الطريق ليلاً. والهدوء: السكون.

قوله: «إن الله يبث من خلقه بالليل ما شاء» قال: أي يفرقهن وينشرهن في الأرض في تلك الساعة؛ أي: بالليل، فإذا خرجتم تلك الساعة فإما أن تؤذوهم أو يؤذوكم: أي يؤذي بعضكم بعضهم وبعضهم بعضكم، فالأحوط الأسلم الكف عن الانتشار ساعتئذ. وعبر بقوله: «أقل» دون لا تخرج؛ إشارة إلى أن الخروج لما لا بد منه مأذون فيه، فالمأمور بالكف عنه ما عنه بدّ فحسب»^(٤).

* * *

(٢) فتح البر (٨/ ٤٠١).

(١) عمدة القاري (١٠/ ٦٥١).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٦) وأبو داود (٥/ ٣٣٢/ ٥١٠٤) والبخاري في الأدب المفرد (١٢٣٣) وصححه ابن خزيمة (٤/ ١٤٨/ ٢٥٥٩) وابن حبان (١٢/ ٣٢٦/ ٥٥١٨-٥٥١٧) والحاكم (١/ ٤٤٥) على شرط مسلم وأقره الذهبي. والبيهقي في شرح السنة (١١/ ٣٩١-٣٩٢/ ٣٠٦) وقال: «حسن صحيح».

(٤) فيض القدير (٢/ ٧٢-٧٣).

قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾^(١)

★ غريب الآية:

تصريف: أي تقلب، والمراد: تقلب الرياح من جهة إلى أخرى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ أي: فتارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعها، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صبا وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة دبوراً وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة، وقد صنف الناس في الرياح والمطر والأنواء كتباً كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك المطلوب يطول ههنا واللّه أعلم»^(٢).

قال أبو حيان: «والريح جسم لطيف شفاف غير مرئي، ومن آياته ما جعل الله فيه من القوة التي تطلع الأشجار، وتعفي الآثار، وتهدم الديار، وتهلك الكفار، وتربيّة الزرع وتنميته واشتداده بها، وسوقُ السحاب إلى البلد الماحل»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الرياح مخلوقة مأمورة

وما صح عن النبي ﷺ فيها من أدعية وآداب

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذت الناس الرياح بطريق مكة فاشتدت عليهم. فقال عمر لمن حوله: ما الريح؟ فلم يرجعوا إليه شيئاً، فبلغني الذي سأل عنه، فاستحثثت راحلتي حتى أدركته فقلت: يا أمير المؤمنين! أخبرتك أنك سألت عن

(١) الآية (١٦٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٤-٣٥٥).

(٣) البحر المحيط (١/ ٦٤١).

الريح، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح من روح الله ﷻ، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فلا تسبوا وسلاوا الله من خيرها، وعودوا به من شرها»^(١).

* عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الريح فإنها من روح الله، وسلاوا الله خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وتعودوا بالله من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به»^(٢).

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به»^(٣).

* فوائد الأحاديث:

قال ابن علان: «قوله: «من روح الله» بفتح الراء؛ أي: من رحمته تعالى يريح بها عباده، ومنها قوله تعالى: ﴿فَرْوَجٌ وَرَيْحَانٌ﴾^(٤) وإتيانها بالعذاب للكافر رحمة للأبرار، حيث يخلصوا من أيدي الفجار. وقال أبو عبيد: من روح الله لأنها تنفس الكروب، وتسير بالغيث، وتنشئ السحاب، وتذهب الحزن، فهي مما يروح الله بها على المكروبين»^(٥).

وقال العيني: «اعلم أن هاهنا المسؤول ثلاث خيرات: الأول: خير نفس الريح. والثاني: خير ما فيها. والثالث: خير ما أرسلت به. أما خير نفس الريح مثل تلذذ بني آدم ببرودتها في الحر، وإعطائها الطراوة، والبداية للنباتات، وذهابها بالروائح الكريهة ونحو ذلك، وأما خير ما فيها مثل نزول المطر النافع؛ لأن المطر لا يجيء إلا ويسبقها الريح، وأما خير ما أرسلت به مثل السحاب لأنه يجيء

(١) أخرجه: أحمد (٥١٨/٢) والبخاري في الأدب المفرد (ح ٧٢٠) وأبو داود (٣٢٨/٥-٣٢٩/٥) وابن ماجه (٣٧٢٧/٢).

(٢) أخرجه: عبد الله بن أحمد زوائد المسند (١٢٣/٥)، والترمذي (٤٥١-٤٥٢/٤). وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (١٠٧٦٩/٢٣١/٦). انظر الصحيحة (٢٧٥٦).

(٣) أخرجه مسلم (٨٩٩/٦١٦/٢) [١٥] والترمذي (٣٤٤٩/٤٦٩/٥) وقال: حسن.

وأخرجه أحمد (٢٤١/٦) والبخاري (٣٦٩/٦-٣٢٠٦) والنسائي في الكبرى (١٨٣١/٥٦٢/١) وابن ماجه (٢/١٢٨٠-١٢٨١/٣٨٩١) دون ذكر الدعاء.

(٤) الواقعة: الآية (٨٩).

(٥) الفتوحات الربانية (٢٧٢-٢٧٣).

بالريح، وله خير وشر، خيره مثل المطر النافع، وشره مثل المطر الضار، فافهم»^(١).
 * عن ابن عباس رضي الله عنه: أن رجلاً لعن الريح. فقال له النبي ﷺ: «لا تلعن الريح فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئاً ليس له بأهل؛ رجعت اللعنة عليه»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال خليل أحمد السهارنفوري: «فإنها مأمورة»؛ يعني: أنها تذهب بأمر الله ﷻ، فهي ليست أهلاً للعن «وإنه» أي الشأن «من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه» أي على اللاعن»^(٣).

* عن ابن عباس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالذبور»^(٤).

★ غريب الحديث:

الصبا: الريح الشرقية.

الذبور: الريح الغربية.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وهذا معنى ما جاء في الخبر أن الله ﷻ فرّج عن نبيه ﷺ بالريح يوم الأحزاب؛ فقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَخُوفًا لِّمَن تَرَوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾»^(٥)^(٦).

قال الحافظ: «فالصبا تؤلف السحاب وتجمعه، فالمطر في الغالب يقع حينئذ، وقد وقع في الخبر الماضي: أنه كان إذا أمطرت سري عنه، وذلك يقتضي أن تكون الصبا أيضاً؛ مما يقع التخوف عند هبوبها... يقال لها - (يعني الصبا) -: القبول

(١) العلم الهيب (ص: ٤١١).

(٢) أخرجه: أبو داود (٢١٢/٥) والترمذي (٣٠٩/٤). وقال: حسن غريب. وصححه ابن حبان (الإحسان ١٣/٥٥-٥٦/٥٧٤٥) (١٩/١٥٠-١٥١).

(٣) بدل المجهود (١٩/١٥٠-١٥١).

(٤) أخرجه: أحمد (٢٢٨/١) والبخاري (٢/٦٦١) ومسلم (٢/٦١٧) والنسائي في الكبرى (٦/٤٩٧).

(٦) الجامع (٢/١٩٧-١٩٨).

(٥) الأحزاب: الآية (٩).

بفتح القاف لأنها تقابل باب الكعبة؛ إذ مهبّها من مشرق الشمس، وضدها الدّبور، وهي التي أهلكت بها قوم عاد. ومن لطيف المناسبة؛ كون القَبول نصرت أهل القَبول، وكون الدّبور أهلكت أهل الإِدبار. وأن الدبور أشد من الصبا، لما سنذكره في قصة عاد: أنها لم يخرج منها إلا قدر يسير، ومع ذلك استأصلتهم، قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقٍ كَثَرٌ﴾^(١) «(٢)».

* * *

(٢) الفتح (٢/٦٦٢).

(١) الحاقة: الآية (٨).

قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(١)

★ غريب الآية:

السحاب: الغيم، سمي بذلك لانجراره في السماء.
المسخر: المذل والممهد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي سائر بين السماء والأرض مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن كما يصرفه تعالى^(٢).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لم يبين هنا كيفية تسخيرها، ولكنه بين ذلك في مواضع أخرى، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ تُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٣) وقوله: ﴿وَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾^(٤)»^(٥).

قال القرطبي: «وتسخيره بعثه من مكان إلى آخر. وقيل: تسخيره ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولا علائق، والأول أظهر. وقد يكون بماء وبعذاب.. وفي التنزيل: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾^(٦) وقال: ﴿حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾^(٧)»^(٨).

قال القنوجي: «والآية في ذلك: أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية العظيمة؛ يبقى معلقًا بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه،

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٥).

(٤) النور: الآية (٤٣).

(٦) فاطر: الآية (٩).

(٨) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٠٠).

(١) البقرة: الآية (١٦٤).

(٣) الأعراف: الآية (٥٧).

(٥) أضواء البيان (١/ ٨٩).

(٧) الأعراف: الآية (٥٧).

ولا دعامة تسنده، وفيه آيات أخر^(١).

قال محمد رشيد رضا: «ذكر السحاب هنا بعد ذكر تصريف الرياح لأنها هي التي تثيره، وتجمعه وهي التي تسوقه إلى حيث يمطر، وتفرق شمله أحياناً فيمتنع المطر. ولم يذكره عند ذكر الماء مع أنه سببه المباشر ليرشدنا إلى أنه في نفسه آية، فإنه يتكون بنظام، ويعترض بين السماء والأرض بنظام، فهو في ظاهره آية تدهش الناظر الجاهل بالسبب لو لم يألف ذلك، ويأنس به، وإنما يعرفها حق معرفتها؛ من وقف على السنن الإلهية في اجتماع الأجسام اللطيفة وافتراقها، وعلوها وتسفلها، وهو ما يعبر عنه علماء هذا الشأن بالجاذبية، وهي أنواع، منها جاذبية الثقل، والجاذبية العامة، وجاذبية الملاصقة، ومن لا يعرف أسرار هذه الكائنات، وإنما ينظر إلى ظواهرها فيراها كما تراها العجماء، فهو لا يفهم معنى كونها آيات؛ لأنه أهمل آلة الفهم التي امتاز بها، وهي العقل ولذلك قال الله تعالى: إن في هذه الأشياء ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إرشاد المسلم

إلى ما يكون عليه من الآداب حال رؤية السحاب

* عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى سحاباً مقبلاً من أفق من الآفاق؛ ترك ما هو فيه، وإن كان في صلاة حتى يستقبله، فيقول: «اللهم إنا نعوذ بك من شر ما أرسل به». فإن أمطر قال: «اللهم سيِّباً نافعاً»؛ مرتين أو ثلاثاً، وإن كشفه الله ﻻ لم يمطر؛ حمد الله على ذلك^(٣).

* غريب الحديث:

سيِّباً: أي مضرّاً جارياً على وجه الأرض من كثرتِه. وفي رواية: سيِّباً: وهو ما سال من المطر.

(١) فتح البيان (١/ ٣٣٠).

(٢) تفسير المنار (٢/ ٦٦-٦٧).

(٣) أخرجه: أبو داود (٥/ ٣٣٠/ ٥٠٩٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٢٧/ ١٠٧٥٠) وابن ماجه (٢/ ١٢٨٠/ ٣٨٨٩) واللفظ له.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه : عن النبي ﷺ قال : «بينما رجل بفلاة من الأرض ؛ فسمع صوتاً في سحابة : اسق حديقة فلان . ففتح ذلك السحاب ، فأفرغ ماء في حرة ، فإذا شرجة من تلك الشُّراج ؛ قد استوعبت ذلك الماء كله ، فتبع الماء ؛ فإذا رجل قائم في حديقته يحوّل الماء بمسحاته ، فقال له : يا عبد الله ! ما اسمك ؟ قال : فلان . للاسم الذي سمع في السحابة . فقال له : يا عبد الله ! لم تسألني عن اسمي ؟ فقال : إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول : اسق حديقة فلان لاسمك ، فما تصنع فيها ؟ قال : أما إذ قلت هذا ، فإني أنظر إلى ما يخرج منها ، فأصدق بثلثه ، وأكل أنا وعيالي ثلثاً ، وأردّ فيها ثلثه»^(١) .

★ غريب الحديث:

الحديقة : البستان الذي يدور عليه الحائط .

الحرة : أرض ذات حجارة سود .

الشرجة : واحدة الشراج ، والشرح : مسيل الماء من الحرة إلى السهل .

المسحاة : المجرفة من الحديد .

★ فوائد الحديثين:

قال القرطبي : «فهذه الأحاديث والآي تدل على صحة القول الأول وأن تسخيرها ليس بثبتها ؛ واللّه تعالى أعلم ، فإن الثبوت يدل على عدم الانتقال ؛ فإن أريد بالثبوت كونها في الهواء ليست في السماء ولا في الأرض فصحيح ، لقوله (بين) وهي مع ذلك مسخرة محمولة ، وذلك أعظم في القدرة ، كالطير في الهواء»^(٢) .

قال العيني : «وجه الاستعاذة أنه كان يخاف أن يكون فيها عذاب كما كان على من قبلنا من الكفار»^(٣) .

وقال ابن حجر : «وفيه الاستعداد بالمراقبة لله ، والالتجاء إليه عند اختلاف الأحوال وحدث ما يخاف بسببه»^(٤) .

(١) أخرجه : أبو داود (٥/٢١٢/٤٩٠٨) والترمذي (٤/٣٠٩/١٩٧٨) وقال : حسن غريب . وصححه ابن حبان

(الإحسان ١٣/٥٥-٥٦/٥٧٤٥) . (٢) تفسير القرطبي (٢/٢٠١) .

(٣) العلم الهيب (ص : ٤١٢) . (٤) فتح الباري (٢/٦٦١) .

قوله: ﴿لَا يَنْتَ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١)»^(٢).

قال الشوكاني: «لما ذكر سبحانه التوحيد بقوله: ﴿وَاللَّهُكُمُّ إِلَهٌ وَحْدٌ﴾ عقب ذلك بالدليل الدال عليه، وهو هذه الأمور التي هي من أعظم صنعة الصانع الحكيم، مع علم كل عاقل بأنه لا يتهياً من أحد من الآلهة التي أثبتها الكفار؛ أن يأتي بشيء منها، أو يقتدر عليه أو على بعضه، وهي خلق السموات، وخلق الأرض، وتعاقب الليل والنهار، وجري الفلك في البحر، وإنزال المطر من السماء، وإحياء الأرض به، وبث الدواب منها بسببه، وتصريف الرياح، فإن من أمعن نظره وأعمل فكره في واحد منها انبهر له، وضاق ذهنه عن تصور حقيقته، وتحتم عليه التصديق بأن صانعه هو الله سبحانه»^(٣).

قال القنوجي: «﴿لَا يَنْتَ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: دلالات على وحدانيته سبحانه، لمن ينظر ببصره، ويتفكر بعقله، وإنما جمع آيات؛ لأن في كل واحد مما ذكر من هذه الأنواع؛ آيات كثيرة تدل على أن لها خالقاً، مدبراً، مختاراً. ففي هذه الأنواع الثمانية دلالة عظيمة على وجود الصانع القادر المختار، وأنه الواحد في ملكه، فلا شريك له ولا نظير، وهو المراد بقوله: ﴿وَاللَّهُكُمُّ إِلَهٌ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾»^(٤).

وقال ابن عاشور: «والمقصود من هاته الآية إثبات دلائل وجود الله تعالى

(١) آل عمران: الآيتان (١٩٠ و ١٩١).

(٢) فتح القدير (١/ ٢٤١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٥).

(٤) فتح البيان (١/ ٣٣٠).

ووجدانيته، ولذلك ذكرت إثر ذكر الوجدانية؛ لأنها إذا أثبتت بها الوجدانية ثبت الوجود بالضرورة.

فالآية صالحة للرد على كفار قريش دهريهم ومشركهم، والمشركون هم المقصود ابتداءً، وقد قرر الله في هاته الآية دلائل كلها واضحة من أصناف المخلوقات، وهي مع وضوحها تشتمل على أسرار يتفاوت الناس في دركها، حتى يتناول كل صنف من العقلاء مقدار الأدلة منها على قدر قرائحهم وعلومهم^(١).

قال البقاعي: «وسبب تكثير الأدلة أن عقول الناس متفاوتة، فجعل ﷻ العالم -وهو الممكنات الموجودة، وهي جملة ما سواه الدالة على فعله ووجوده بالاختيار- على قسمين: قسم من شأنه أن يدرك بالحواس الظاهرة، ويسمى في عرف أهل الشرع: الشهادة، والخلق، والملك. وقسم لا يدرك بالحواس الظاهرة، ويسمى الغيب، والأمر، والملكوت. والأول يدركه عامة الناس، والثاني يدركه أولوا الأبواب الذين عقولهم خالصة عن الوهم والوساوس. فالله ﷻ -بكمال عنايته ورأفته ورحمته- جعل العالم بقسميه محتويًا على جمل وتفصيل من وجوه متعددة، وطرق متكثرة، تعجز القوى البشرية عن ضبطها، يستدل بها على وجدانيته، بعضها أوضح من بعض، ليشارك الكل في المعرفة، فيحصل لكل بقدر ما هيئ له، اللهم إلا أن يكون ممن طبع على قلبه، فذلك -والعياذ بالله سبحانه- هو الشقي^(٢).

قال أبو حيان: «لأنه لا يتفكر في هذه الآيات العظيمة إلا من كان عاقلًا؛ فإنه يشاهد من هذه الآية ما يستدل به على وجدانية الله تعالى، وانفراده بالإلهية، وعظيم قدرته، وباهر حكمته. وقد أثر في الأثر: ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها؛ أي: لم يتفكر فيها ولم يعتبر بها. ومناسبة هذه الآية لما قبلها؛ هو أنه لما ذكر تعالى أنه واحد، وأنه منفرد بالإلهية، لم يكتف بالإخبار حتى أورد دلائل الاعتبار. ثم مع كونها دلائل، بل هي نعم من الله على عباده، فكانت أوضح لمن يتأمل، وأبهر لمن يعقل، إذ التنبيه على ما فيه النفع باعث على الفكر. لكن لا تنفع هذه

(١) التحرير والتنوير (٧٧/٢).

(٢) نظم الدرر (٢/٣٠٠-٣٠١).

الدلائل إلا عند من كان متمكنًا من النظر والاستدلال بالعقل الموهوب من عند الملك الوهاب»^(١).

قال ابن جرير: «فأما معنى قوله: ﴿لَا يَنْتَفِعُونَ﴾؛ فإنه علامات ودلالات، على أن خالق ذلك كله ومنشئه إله واحد، ﴿لَقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ لمن عقل مواضع الحجج، وفهم عن الله أدلته على وحدانيته. فأعلم -تعالى ذكره- عباده بأن الأدلة والحجج إنما وضعت معتبرًا لذوي العقول والتمييز دون غيرهم من الخلق، إذ كانوا هم المخصوصين بالأمر والنهي، والمكلفين بالطاعة والعبادة، ولهم الثواب، وعليهم العقاب»^(٢).

قال الرازي: «قال القاضي عبد الجبار: الآية تدل على أمور: أحدها: أنه لو كان الحق يدرك بالتقليد واتباع الآباء والجري على الألف والعادة؛ لما صحَّ ذلك. وثانيها: لو كانت المعارف ضرورية وحاصلة بالإلهام لما صح وصف هذه الأمور بأنها آيات؛ لأن المعلوم بالضرورة لا يحتاج في معرفته إلى الآيات. وثالثها: أن سائر الأجسام والأعراض وإن كانت تدل على الصانع؛ فهو تعالى خص هذه الثمانية بالذكر لأنها جامعة بين كونها دلائل وبين كونها نعمًا على المكلفين، على أوفر حظ ونصيب، ومتى كانت الدلائل كذلك؛ كانت أنجع في القلوب وأشد تأثيرًا في الخواطر»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في ذكر بعض المخلوقات الكونية وأيام خلقها

* عن أبي هريرة، قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله ﷻ التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم ﷺ بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»^(٤).

(٢) جامع البيان (٢/٦٥).

(١) البحر (١/٦٤٢).

(٣) تفسير الفخر الرازي (٤/٢٢٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/٣٢٧) ومسلم (٤/٢١٤٩-٢١٥٠/٢٧٨٩) والنسائي في الكبرى (٦/٢٩٣/١١٠١٠)، انتقد بعض العلماء هذا الحديث على مسلم وانظر ردّ هذا الانتقاد وبيانه في الصحيحة (١٨٣٣).

* فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وقوله: «والنور يوم الأربعاء» ويعني به الأجسام النيرة كالشمس والقمر والكواكب، ويتضمن هذا؛ أنه تعالى خلق السموات يوم الأربعاء؛ لأن هذه الكواكب في السموات، ونورها: ضوءها الذي بين السماء والأرض، والله تعالى أعلم. وتحقيق هذا أنه لم يذكر في هذا الحديث نصاً على خلق السموات، مع أنه ذكر فيه أيام الأسبوع كلها، وذكر ما خلق الله تعالى فيها، فلو خلق السموات في يوم زائد على أيام الأسبوع، لكان خلق السموات والأرض في ثمانية أيام، وذلك خلاف المنصوص عليه في القرآن، ولا صائر إليه»^(١).

وقال البخاري: «ما جاء في تخليق السموات والأرض وغيرها من الخلائق، وهو فعل الرب -تبارك وتعالى- وأمره، فالرب بصفاته وفعله وأمره هو الخالق المكون غير مخلوق، وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه فهو مفعول مخلوق مكون»^(٢).

ثم ذكر فيه حديث ابن عباس، وسيأتي -إن شاء الله- عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٣).

* * *

(٢) الفتح (١٣/٥٣٨).

(١) المفهم (٧/٣٤٣).

(٣) آل عمران: الآية (١٩٠).

قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(١)

★ غريب الآية:

أندادا: واحدها ند، وهو المثل المناوي، قال جرير:
أَتَيْمٌ تَجْعَلُونَ إِلَيَّ نَدَاً وهل تَيْمٌ لَدَيَّ حَسْبُ نَدِيدٍ؟
الحب: نقيض البغض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا، ومالهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أندادا أي أمثالا ونظراء، يعبدونهم معه، ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو ولا ضد له، ولا ند له، ولا شريك معه، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله! أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك»^(٢) وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ ولحبهم لله وتماهم معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له؛ لا يشركون به شيئا، بل يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجأون في جميع أمورهم إليه»^(٣).

قال شيخ الإسلام: «والذي جاء به الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة، وعليه مشايخ المعرفة وعموم المسلمين؛ أن الله يُحِبُّ ويَحِبُّ، كما نطق بذلك الكتاب والسنة في مثل قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(٤) ومثل قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(٥) بل لا شيء يستحق أن يحب لذاته محبة مطلقة إلا الله وحده، وهذا من معنى كونه معبودا، فحيث جاء

(٢) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.

(٤) المائدة: الآية (٥٤).

(١) سورة البقرة (١٦٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/٣٥٦).

(٥) آل عمران: الآية (٣١).

القرآن بالأمر بالعبادة والثناء على أهلها، أو على المنيين إلى الله والتواين إليه أو الأوابين أو المطمئنين بذكره، أو المحبين له ونحو ذلك؛ فهذا كله يتضمن محبته، وما لا يحب يمتنع كونه معبودًا ومألوفًا ومطمأنًا بذكره، ومن أطيع لعوض يؤخذ منه، أو لدفع ضرره؛ فهذا ليس بمعبود ولا إله، بل قد يكون الشخص كافرًا وظالمًا يبغض ويلعن؛ ومع هذا يعمل معه عامل بعوض، فمن جعل العمل لله لا يكون إلا لذلك؛ فلم يثبت الرب إلها معبودًا، ولا ربًا محمودًا، وهو حقيقة قول النفاة من الجهمية والقدرية النافية والمثبتة، والله ﷻ رغب في عبادته، والعمل له بما ذكره من الوعد، ورهب من الكفر به والشرك بما ذكره من الوعيد، وهو حق؛ لكنه لم يقل: إن العابد لله والعامل له لا يحصل له إلا ما ذكر، بل وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(١) وفي الحديث الصحيح: يقول الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرًا، بله ما أطلعهم عليه، اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»^(٢) وقد ثبت في الحديث الصحيح عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «يقول الله يا أهل الجنة! إن لكم عندي موعدًا أريد أن أنجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم تبيض وجوهنا، وتثقل موازيننا، وتدخلنا الجنة، وتجرتنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه»^(٣) وهي الزيادة»^(٤).

قال ابن القيم: «فأخبر أن من أحب من دون الله شيئًا، كما يحب الله تعالى: فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا، فهذا ند في المحبة، لا في الخلق والربوبية. فإن أحدًا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية، بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم. ثم قال ﴿وَالَّذِينَ

(١) السجدة: الآية (١٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣١٣/٢) والبخاري (٣٢٤٤/٦/٣٩١) ومسلم (٢٨٢٤/٢١٧٤/٤) والترمذي (٣٢٣/٥/٣١٩٧) وابن ماجه (٤٣٢٨/١٤٤٧/٢) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٣) أخرجه أحمد (٣٣٣-٣٣٢/٤) ومسلم (١٨١/١٦٣/١) والترمذي (٢٥٥٢/٥٩٣/٤) والنسائي في الكبرى (٧٧٦٦/٤٢٠/٤) وابن ماجه (١٨٧/٦٧/١) من حديث صهيب بن سنان ؓ.

(٤) النبوات (٣٤٠-٣٣٨/١).

ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴿١٦٥﴾ وفي تقدير الآية قولان :

أحدهما : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من أصحاب الأنداد لأنادهم وآلهتهم التي يحبونها ، ويعظمونها من دون الله .

والثاني : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من محبة المشركين بالأنداد لله . فإن محبة المؤمنين خالصة ، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أنادهم بقسط منها . والمحبة الخالصة : أشد من المشتركة . والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى : ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فإن فيها قولين :

أحدهما : يحبونهم كما يحبون الله . فيكون قد أثبت لهم محبة الله . ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أندادًا .

والثاني : أن المعنى يحبون أنادهم كما يحب المؤمنون الله . ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأنادهم .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يرجح القول الأول ، ويقول : إنما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أنادهم في المحبة . ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له .

وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم . وهم في النار يقولون لآلهتهم وأنادهم - وهي محضرة معهم في العذاب - ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٧) إِذْ تُسَوِّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ ومعلوم أنهم لم يسووههم برب العالمين في الخلق والربوبية . وإنما سووههم به في المحبة والتعظيم . وهذا أيضًا هو العدل المذكور في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (٢) أي : يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم . وهذا أصح القولين (٣) .

وقال المقريزي : «فالشرك في الإلهية والعبادة هو الغالب على الإشراك ، وهو شرك عباد الأصنام ، وعباد الملائكة ، وعباد الجن ، وعباد المشايخ والصالحين : الأحياء والأموات ، الذين قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، ويشفعوا لنا عنده ، وينالنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم قرب وكرامة ، كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة والزلفى ، لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته !!

(٢) الأنعام : الآية (١) .

(١) الشعراء : الآيتان (٩٧ و ٩٨) .

(٣) المدارج (٣/ ٢٠-٢١) .

والكتب الإلهية كلها من أولها إلى آخرها تبطل هذا المذهب، وتردّه وتقبح أهله، وتنصّ على أنهم أعداء الله تعالى، وجميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم متفقون على ذلك من أولهم إلى آخرهم وما أهلك الله تعالى من الأمم إلا بسبب هذا الشرك ومن أجله. وأصله الشرك في محبة الله تعالى، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ فأخبر ﷺ: أنه من أحب مع الله شيئاً غيره كما يحبه فقد اتخذ نداءً من دونه، وهذا على أصح القولين في الآية؛ أنهم يحبونهم كما يحبون الله، وهذا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ والمعنى على أصح القولين أنهم يعدلون به غيره في العبادة، فيسوّون بينه وبين غيره في الحب والعبادة. وكذلك قول المشركين في النار لأصنامهم: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٧) إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّي أَلْمَلَكِينَ ﴿١٨﴾. ومعلوم قطعاً أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله في كونه ربهم وخالقهم، فإنهم كانوا كما أخبر الله عنهم مقرّين بأن الله تعالى وحده هو ربهم وخالقهم، وأن الأرض ومن فيها لله وحده، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم، وأنه ﷻ هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله تعالى في المحبة والعبادة، فمن أحب غير الله تعالى وخافه ورجاه وذلّ له كما يحب الله تعالى ويخافه ويرجوه؛ فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، فكيف بمن غير الله أثر عنده وأحب إليه، وأخوف عنده، وهو في مرضاته أشدّ سعياً منه في مرضاة الله؟! فإذا كان المسوي بين الله وبين غيره في ذلك مشركاً؛ فما الظن بهذا؟ فعياذا بالله من أن ينسلخ القلب من التوحيد والإسلام كانسلاخ الحية من قشرها وهو يظن أنه مسلم موحد. فهذا أحد أنواع الشرك، والأدلة الدالة على أنه تعالى يجب أن يكون وحده هو المألوه؛ يبطل هذا الشرك، ويدحض حجج أهله، وهو أكثر من أن يحيط بها إلا الله، بل كل ما خلقه الله تعالى فهو آية شاهدة بتوحيده، وكذلك كل ما أمره به فخلقه وأمره، وما فطر عليه عباده وركبه فيهم، من القوى شاهد بأن الله الذي لا إله إلا هو، وأن كل معبود سواه باطل، وأنه هو الحق المبين، تقدس وتعالى ﴿٢﴾.

(١) الشعراء: الآيتان: (٩٧ و ٩٨).

(٢) تجريد التوحيد المفيد (ص: ٢٥-٢٨).

قلت: وفي هذا الكلام الطيب ما يدل على أن الحق واحد لا يتجزأ ولا يتنوع، فالذي يقرأ هذا المقطع من كتاب تجريد التوحيد؛ يجزم جزماً قاطعاً أنه هو وما يقرره شيخ الإسلام ابن تيمية كأنه يخرج من مشكاة واحدة، فالسياق هو السياق، والاحتجاج بالحجج هو هو، وهكذا لو تتبعنا كلام السلف لوجدته يشبه بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً، وفي المقابل كلام المحرفين والضالين تجده يخرج من مشكاة إبليس، فلا فرق بين أولهم وآخرهم، فالكذب هو الكذب، والتأويل المستقبح هو التأويل، والاستدلال بالضعيف والموضوع هو الاستدلال، فلا تجد لهم قوامة علمية، ولا فهماً صحيحاً، ولا صدقاً فيما يدعون ويُنظرون له، فهم كالأنعام؛ بل هم أضل، نعوذ بالله من شرهم.

قال شيخ الإسلام: «والمحبة جنس تحته أنواع كثيرة، فكل عابد محب لمعبوده، فالمشركون يحبون آلهتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: يحبونهم كحب المؤمنين لله. والثاني: يحبونهم كما يحبون الله؛ لأنه قد قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ فلم يمكن أن يقال: إن المشركين يعبدون آلهتهم كما يعبد الموحدون الله، بل كما يحبونهم -هم- الله، فإنهم يعدلون آلهتهم برب العالمين، كما قال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ وقال: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝١٧ إِذْ سَأَلْتُم مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد قال بعض من نصر القول الأول في الجواب عن حجة القول الثاني: قال المفسرون: قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أي: أشد حباً لله من المشركين لآلهتهم. فيقال له: ما قاله هؤلاء المفسرون مناقض لقولك، فإنك تقول: إنهم يحبون الأنداد كحب المؤمنين لله، وهذا يناقض أن يكون المؤمنون أشد حباً لله من المشركين لأربابهم، فتبين ضعف هذا القول، وثبت أن المؤمنين يحبون الله أكثر من محبة المشركين لله ولآلهتهم؛ لأن أولئك أشركوا في المحبة، والمؤمنون أخلصوها كلها لله. وأيضاً: فقوله: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أضيف فيه المصدر إلى المحبوب المفعول، وحذف فاعل الحب، فإما أن يراد: كما يُحب الله -من غير تعيين فاعل- فيبقى عاماً في حق الطائفتين، وهذا يناقض قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ وإما أن يراد: كحبهم لله، ولا يجوز أن يراد: كما يحب غيرهم لله، إذ ليس في الكلام ما يدل على هذا، بخلاف حبهم؛

فإنه قد دل عليه قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فأضاف الحب المشبه إليهم، فكذلك الحب المشبه لهم، إذ كان سياق الكلام يدل عليه، إذا قال: يحب زيدًا كحب عمرو، أو يحب عليا كحب أبي بكر، أو يحب الصالحين من غير أهله كحب الصالحين من أهله، أو قيل: يحب الباطل كحب الحق، أو يحب سماع المكاء و التصدية كحب سماع القرآن، وأمثال ذلك. لم يكن المفهوم إلا أنه هو المحب للمشبه والمشبه به، وأنه يحب هذا كما يحب، هذا لا يفهم منه أنه يحب هذا كما يحب غيره هذا، إذ ليس في الكلام ما يدل على محبة غيره أصلاً.

والمقصود أن المحبة تكون لما يتخذ إلها من دون الله، وقد قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾^(١) فمن كان يعبد ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه، فما هويه هويه إلهه، فهو لا يتأله من يستحق التأله، بل يتأله ما يهواه، وهذا المتخذ إلهه هواه له محبة كمحبة المشركين لآلهتهم، ومحبة عبَاد العجل له، وهذه محبة مع الله لا محبة لله، وهذه محبة أهل الشرك. والنفوس قد تدعي محبة الله، وتكون في نفس الأمر محبة شرك، تحب ما تهواه، وقد أشركته في الحب مع الله، وقد يخفي الهوى على النفس، فإن حبك الشيء يعمي ويصم»^(٢).

وقال **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «فمن أحب مخلوقاً مثل ما يحب الخالق فهو مشرك، ويجب الفرق بين الحب في الله، والحب مع الله، فالأول من تمام محبة الله وتوحيده، والثاني: شرك. فالأول يكون الله هو المحبوب له لذاته، ويحب ما يحبه الرب تعالى، تبعاً لمحبته، فيحب رسوله وكتابه وعباده المؤمنين كما في الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»^(٣) وأما الحب مع الله فهو الذي يحب محبوباً في قلبه لذاته لا لأجل الله، كحب المشركين أندادهم.

وهؤلاء الذين اتخذوا القبور أوثاناً تجدهم يستهزئون بما هو من توحيد الله

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٥٧-٣٥٩).

(١) الجاثية: الآية (٢٣).

(٣) سيأتي تخريجه.

وعبادته، ويعظمون ما اتخذوه من دون الله شفعاء، حتى إن طوائف منهم يستخفون بحج البيت وبمن يحج البيت، ويرون أن زيارة أئمتهم وشيوخهم أفضل من حج البيت، وهذا موجود في الشيعة وفي المنتسبين إلى السنة، وآخرون يستخفون بالمساجد وبالصلوات الخمس فيها، ويرون أن دعاء شيخهم أفضل من هذا، وهذا موجود في الشيعة المنتسبين إلى يونس القيني^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من الشرك لا سيما في المحبة

* عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال النبي ﷺ كلمة وقلت أخرى: قال النبي ﷺ: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار». وقلت أنا: (من مات وهو لا يدعو لله نداً دخل الجنة)^(٢).

* عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»^(٣).

★ فوائد الحديثين:

قال النووي: «وأما حكمه ﷺ على من مات يشرك بدخول النار، ومن مات غير مشرك بدخوله الجنة؛ فقد أجمع عليه المسلمون.

فأما دخول المشرك النار فهو على عمومته، فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادا وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام، وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحدته ما يكفر بجحدته وغير ذلك.

وأما دخول من مات غير مشرك الجنة؛ فهو مقطوع له به، لكن إن لم يكن

(١) الاستغاثة في الرد على البكري (٢/ ٥٧٩-٥٨٠).

(٢) أحمد (١/ ٣٧٤) والبخاري (٨/ ٢٢٣/ ٤٤٩٧) ومسلم (١/ ٩٤/ ٩٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٩٣-٢٩٤/ ١١٠١١).

(٣) أحمد (١/ ٣٨١) والبخاري (٨/ ٢٠٧/ ٤٤٧٧) ومسلم (١/ ٩٠-٩١/ ٨٦) وأبو داود (٢/ ٧٣٢/ ٢٣١٠) والترمذي (٥/ ٣١٤-٣١٥/ ٣١٨٢-٣١٨٣) والنسائي (٧/ ١٠٣-١٠٤/ ٤٠٢٤).

صاحب كبيرة مات مصرًا عليها ؛ دخل الجنة أولاً ، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرًا عليها ؛ فهو تحت المشيئة ، فإن عفي عنه دخل أولاً ، وإلا عذب ، ثم أخرج من النار ، وخلد في الجنة ، والله أعلم^(١).

قال عبد الرحمن بن حسن : « وهذا الحديث فيه التحذير من الشرك أيضاً والتخويف منه ، والند : المثل والشبيه ، فمن دعا ميتاً أو غائباً وأقبل إليه بوجهه وقلبه رغبة إليه ورهبة منه سواء سأل أو لم يسأل ؛ فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله ، ولهذا حرم الله تعالى اتخاذ الشفعاء وأنكره على من فعل ذلك أشد الإنكار ؛ لكونه ينافي الإخلاص الذي هو إقبال القلب والوجه على الله في كل ما يخافه العبد ويرجوه ، ويتقرب به ويدين به . ومن المعلوم أنه إذا التفت للشفيع يسأله فقد أعرض بوجهه وقلبه عن الله تعالى إلى غيره وذلك ينافي الإخلاص^(٢) » .

* عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار^(٣) » .

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر : « قال البيضاوي : المراد بالحب هنا الحب العقلي الذي هو إثارة ما يقتضي العقل السليم رجحانه ، وإن كان على خلاف هوى النفس ، كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه ، ويميل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله ، فإذا تأمل المرء أن الشارع لا يأمر ولا ينهى إلا بما فيه صلاح عاجل أو خلاص آجل - والعقل يقتضي رجحان جانب ذلك - ؛ تمرن على الائتمار بأمره بحيث يصير هواه تبعاً له ، ويلتذ بذلك التذاذ عقلياً ؛ إذ الالتذاذ العقلي إدراك ما هو كمال وخير من حيث هو كذلك . وعبر الشارع عن هذه الحالة بالحلاوة ؛ لأنها أظهر اللذائذ المحسوسة . قال : وإنما جعل هذه الأمور الثلاثة عنواناً لكمال الإيمان ؛ لأن المرء إذا تأمل أن

(١) شرح مسلم (٢/٨٤) .

(٢) قرة العيون (ص: ٤٦) .

(٣) أحمد (٣/١٠٣) والبخاري (١/٨٢/١٦) ومسلم (١/٦٦/٤٣) والترمذي (٥/١٦/٢٦٢٤) والنسائي (٨/

المنعم بالذات هو الله تعالى، وأن لا مانع ولا مانع في الحقيقة سواء، وأن ما عداه وسائط، وأن الرسول هو الذي يبين له مرادربه؛ اقتضى ذلك أن يتوجه بكليته نحوه، فلا يحب إلا ما يحب، ولا يحب من يحب إلا من أجله. وأن يتيقن أن جملة ما وعد وأوعد حق يقينا. ويخيل إليه الموعود كالواقع، فيحسب أن مجال الذكر رياض الجنة، وأن العود إلى الكفر إلقاء في النار. انتهى ملخصاً^(١).

وقال: «فيه إشارة إلى التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، فالأول من الأول والأخير من الثاني. وقال غيره: محبة الله على قسمين: فرض وندب، فالفرض المحبة التي تبعث على امتثال أوامره، والانتفاء عن معاصيه، والرضا بما يقدره، فمن وقع في معصية من فعل محرم أو ترك واجب؛ فلتقصيره في محبة الله حيث قدم هوى نفسه. والتقصير تارة يكون مع الاسترسال في المباحات والاستكثار منها، فيورث الغفلة المقتضية للتوسع في الرجاء فيقدم على المعصية، أو تستمر الغفلة فيقع. وهذا الثاني يسرع إلى الإقلاع مع الندم»^(٢).

قال شيخ الإسلام: «أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ لأن وجد الحلاوة بالشيء يتبع المحبة له، فمن أحب شيئاً أو اشتهاه إذا حصل له مراده؛ فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك. واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى. ومن قال: إن اللذة إدراك الملائم كما يقوله من يقوله من المتفلسفة والأطباء؛ فقد غلط في ذلك غلطاً بيناً، فإن الإدراك يتوسط بين المحبة واللذة، فإن الإنسان مثلاً يشتهي الطعام، فإذا أكله حصل له عقيب ذلك اللذة. فاللذة تتبع النظر إلى الشيء، فإذا نظر إليه التذ، فاللذة تتبع النظر، ليست نفس النظر، وليست هي رؤية الشيء، بل تحصل عقيب رؤيته. وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾^(٣)، وهكذا جميع ما يحصل للنفس من اللذات والآلام؛ من فرح وحزن ونحو ذلك؛ يحصل بالشعور بالمحبوب، أو الشعور بالمكروه، وليس نفس الشعور هو الفرح ولا الحزن، فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به والفرح؛ ما يجده المؤمن الواجد من حلاوة

(١) الفتح (٨٣/١).

(٢) الفتح (٨٣/١-٨٤).

(٣) الزخرف: الآية (٧١).

الإيمان، تتبع كمال محبة العبد لله وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة، وتفريعها، ودفع ضدها. فتكميلها: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما كما تقدم. وتفريعها: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله. ودفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار. فإذا كانت محبة الرسول والمؤمنين من محبة الله، وكان رسول الله ﷺ يحب المؤمنين الذين يحبهم الله؛ لأنه أكمل الناس محبة لله، وأحقهم بأن يحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله^(١).

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٢٠٥-٢٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ المراد بالذين ظلموا الكفار، وقد بين ذلك بقوله في آخر الآية: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾^(٢)، ويدل لذلك قوله تعالى عن لقمان مقررًا له: ﴿يَبْتَغِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٣)، وقوله جلّ وعلا: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٤) وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٥)»^(٦).

قال ابن كثير: «ثم توعّد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ قال بعضهم: تقدير الكلام: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ أي: أن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾؛ كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ ۖ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ﴾^(٧) يقول: لو يعلمون ما يعاينونه هنالك، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم؛ لانتهوا عما هم فيه من الضلال»^(٨).

قال القاسمي: «﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: باتخاذ الأنداد ووضعها موضع المعبود ﴿إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ﴾ المعدّ لهم يوم القيامة ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: القدرة كلها لله، على كل شيء، من العقاب والثواب، دون أندادهم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

(١) البقرة: جزء من الآية (١٦٥).

(٢) البقرة: الآية (١٦٧).

(٣) لقمان: الآية (١٣).

(٤) البقرة: الآية (٢٥٤).

(٥) يونس: الآية (١٠٦).

(٦) أضواء البيان (١/ ٨٩).

(٧) الفجر: الآيتان (٢٥-٢٦).

(٨) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٦).

الْعَذَابِ ﴿١﴾ أي: العقاب للظالمين. وفائدة عطفها على ما قبلها: المبالغة في تهويل الخطب، وتفضيع الأمر. فإن اختصاص القوة به تعالى لا يوجب شدة العذاب، لجواز تركه عفواً مع القدرة عليه. وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف للإيذان بخروجه عن دائرة البيان؛ إما لعدم الإحاطة بكنهه، وإما لضيق العبارة عنه، وإما لإيجاب ذكره ما لا يستطيعه المعبر أو المستمع من الضجر والتفجع عليه؛ أي: لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم. ونظيره -في حذف الجواب- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُقْفَوْنَ﴾^(١) وقولهم: لو رأيت فلاناً والسياط تأخذه^(٢).

وقال ابن القيم: «وقد اختلف في تعلق قوله: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ بماذا؟ فقالت طائفة: هو مفعول ﴿يَرَى﴾ أي: ولو يرون أن القوة لله جميعاً؛ لما عصوه ولما كذبوا رسله وقدموا عقولهم على وحيه. وقالت طائفة: بل المعنى: لأن القوة لله جميعاً، وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف على التقديرين؛ أي: لو يرى هؤلاء حالهم، وما أعد الله لهم إذ يرون العذاب؛ لرأوا أمراً عظيماً. ثم قال: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وهو متضمن للتهديد الشديد والوعيد، وقال تعالى: ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾^(٣) وقال: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾^(٤) وقال النبي ﷺ في دعاء الاستفتاح: «البيك وسعديك، والخير كله بيدك»^(٥) وفي الأثر الآخر: «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله»^(٦) فله سبحانه كل صفة كمال، وهو موصوف بتلك الصفات كلها، ونذكر من ذلك صفة واحدة تعتبر بها سائر الصفات، وهو أنك لو فرضت جمال الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم اجتمع لشخص واحد منهم ثم كان الخلق كلهم على جمال ذلك الشخص؛ لكان نسبته إلى جمال الرب -تبارك وتعالى- دون نسبة سراج ضعيف إلى جرم الشمس، وكذلك

(١) الأنعام: الآية (٢٧) وأيضاً في الآية (٣٠). (٢) محاسن التأويل (٢٣/٣).

(٣) سورة الرعد: الآية (٣١). (٤) سورة آل عمران: الآية (١٥٤).

(٥) أخرجه أحمد (١٠٢/١) ومسلم (٥٣٤-٥٣٥/١) وأبو داود (٤٨٤-٤٨٥/١) والترمذي (٧٦١/٥).

(٦) أخرجه أحمد (٤٥٥-٤٥٦/٥) والنسائي (٤٦٧-٤٦٨/٢) وابن ماجه (٣٣٥/١) من حديث علي عليه السلام.

(٦) أخرجه أحمد (٣٩٦/٥) من حديث حذيفة عليه السلام. قال في المجمع (٩٦/١٠): «رواه أحمد، وفيه راول لم يسم،

وبقية رجاله ثقات» انظر ضعيف الترغيب (٤٧٨/١) الهامش.

قوته سبحانه، وعلمه، وسمعه، وبصره، وكلامه، وقدرته، ورحمته، وحكمته،
ووجوده، وسائر صفاته، وهذا مما دلت عليه آياته الكونية السمعية، وأخبرت به
رسله عنه^(١).

* * *

(١) الصواعق المرسله (٣/١٠٨١-١٠٨٢).

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

★ غريب الآية:

تبرأ: أصل التبري: التولي والتباعد على سبيل العداوة والكراهة.
 اتبعوا: الاتباع اقتفاء الأثر، والمراد: اتفقوا معهم في قول أو فعل.
 كرة: الكر: نقيض الفرّ، والمراد بالكرة هنا: الرجعة والعود. وأصل الكر: العطف على الشيء والعود إليه.
 حسرات: واحداها حسرة، وهي أشد الندامة.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم، وتبري المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا، فتقول الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾^(١) ويقولون: ﴿سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِئِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾^(٢) والجن أيضاً تبرأ منهم، ويتنصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾^(٣) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ^(٤) وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾^(٥) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا^(٦) وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ

(١) الفصص: الآية (٦٣).

(٢) سبأ: الآية (٤١).

(٣) الأحقاف: الآيات (٦٥).

(٤) مريم: الآيات (٨١ و٨٢).

يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿١﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَتَخُشِعُونَ صَدَدَنَّا عَنْ أَلْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تَجْرِمِينَ ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْطَالَ فِيْ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّكَ اللَّهُ وَعْدَكُمْ وَوَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

وقوله: ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أي عاينوا عذاب الله، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص، ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مصرفاً، قال عطاء عن ابن عباس: وتقطعت بهم الأسباب؛ قال: المودة. وكذا قال مجاهد في رواية ابن أبي نجيح.

وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكُنَّا كَرَّةً فَتَنْبَرَأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ أي: لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى تنبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نوحده الله وحده بالعبادة، وهم كاذبون في هذا، بل لو ردوا ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤) كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ أَعْمَلُهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي تذهب وتضمحل؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ (٦) الآية. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَرَابٍ يَقْبِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً﴾ (٧) الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (٨).

(١) العنكبوت: الآية (٢٥).

(٣) إبراهيم: الآية (٢٢).

(٥) الفرقان: الآية (٢٣).

(٧) النور: الآية (٣٩).

(٢) سبأ: الآيات (٣١-٣٣).

(٤) الأنعام: الآية (٢٨).

(٦) إبراهيم: الآية (١٨).

(٨) تفسير القرآن العظيم (١/٣٥٧-٣٥٦).

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ دليل على خلود الكفار فيها، وأنهم لا يخرجون منها. وهذا قول جماعة أهل السنة لهذه الآية، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سِتْرِ اللَّيْلِ﴾^(١)»^(٢).

قال ابن القيم: «فهذا حكم الأتباع والمتبوعين المشتركين في الضلالة، وأما الأتباع المخالفون لمتبوعيههم، العادلون عن طريقتهم الذين يزعمون أنهم تبع لهم، وليسوا متبعين لطريقهم، فهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكُذَّابَ وَنَقَطَتْ بِهُمْ الْأَسْبَابُ﴾^(٣) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ».

فهؤلاء المتبوعون كانوا على هدى، وأتباعهم ادعوا أنهم كانوا على طريقتهم ومنهاجهم، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقتهم، يزعمون أنهم يحبونهم، وأن محبتهم تنفعهم مع مخالفتهم لهم، فيتبرءون منهم يوم القيامة، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله، وظنوا أن هذا الاتخاذ ينفعهم.

وهذه حال كل من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء، يوالي لهم ويعادي لهم، ويرضى لهم ويغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبها ونصبه، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته، ومحبته وبغضه، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله، فأبطل الله ^(٤) ذلك العمل كله، وقطع تلك الأسباب، وهي الوصول والموالات التي كانت بينهم في الدنيا لغيره كما قال: ﴿وَنَقَطَتْ بِهُمْ الْأَسْبَابُ﴾ فينقطع يوم القيامة كل وصلة، ووسيلة، ومودة، وموالات كانت لغير الله تعالى، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وبين ربه، وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله، وتجريد عبادته له وحده، ولو أزمها من الحب والبغض، والعطاء والمنع، والموالات والمعادات، والتقريب والإبعاد، وتجريد متابعة رسوله وترك أقوال غيره لقوله، وترك كل ما خالف ما جاء به، والإعراض عنه، وعدم الاعتداد به، وتجريد متابعتة تجريدًا محضًا بريئًا من شوائب الالتفات

(١) الأعراف: الآية (٤٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٠٧).

إلى غيره، فضلاً عن الشركة بينه وبين غيره، فضلاً عن تقديم قول غيره عليه.

فهذا السبب هو الذي لا ينقطع بصاحبه، وهذه هي النسبة التي بين العبد وبين ربه، وهي نسبة العبودية المحضة، وهي آخيته التي يجول ما يجول، ثم إليها مرجعه . . .

وهذه النسبة هي التي تنفع العبد، فلا ينفعه غيرها في الدور الثلاثة؛ أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار؛ فلا قوام له، ولا عيش ولا نعيم، ولا فرح إلا بهذه النسبة، وهي السبب الواصل بين العبد وبين الله . . .

والمقصود: أن الله سبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب، والعُلق، والوصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها، ولا يبقى إلا السبب والوصلة التي بين العبد وبين الله فقط، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقق إلا بتجريد متابعة الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم -، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم، وما عرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم، وقد قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾.

فهذه الأعمال التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم، ولغير وجهه، يجعلها الله هباءً منثوراً ولا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلاً؛ وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة: أن يرى سعيه كله ضائعاً لم ينتفع منه بشيء، وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم^(١).

وقال محمد رشيد رضا: «﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾ متعلق بـ﴿يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ في الآية السابقة والكلام متصل لاحقه بسابقه في موضوع اتخاذ الأنداد. وقد نطقت الآية السابقة أن عذاب الله تعالى سيحل بمتخذي الأنداد من دونه وهو عام في التابع في اتخاذ والمتبوع فيه. وبين في هاتين الآيتين تفصيل حال التابعين والمتبوعين في ذلك، وأورده بصيغة الماضي تمثيلاً لحال الفريقين في ذلك اليوم الذي ينكشف فيه الغطاء ويرى الناس فيه العذاب بأعينهم، ويعرفون أسبابه من تأثير العقائد الباطلة والأعمال السيئة في أنفسهم، كأن الأمر قد وقع، والبلاء قد نزل، ورأى الرؤساء المضلون الذين اتَّبَعُوا أن إغواءهم للناس الذين اتَّبَعُوا رأيهم وقلدوهم دينهم قد

(١) التبوكية (ص: ١٥١-١٥٤).

ضاعف عذابهم، وحملهم مثل أوزار الذين أضلوهم فوق أوزارهم، فتبرءوا منهم، وتنصلوا من ضلالتهم، ﴿وَقَدْ رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ فأنى ينفعهم التبرؤ ﴿وَنَقَطَتْ بِهْمُ الْأَسْبَابُ﴾ فلم تبق من صلة بينهم وبين التابعين، فيقال: إنهم آثروا بتبرؤهم الحق على الرياسة والجاه والمنافع التي يستفيدونها الرئيس باستهواء المرؤوس، وإخضاعه له، وحمله على اتباعه في كل ما يذهب إليه. فعلم أن جملة: ﴿رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ وما عطف عليها في محل الحال المبينة عدم فائدة التبرؤ لأنه لم يصدر عن إيثار الحق على الخلق، بل صدر عن نفوس ترتعد من رؤية العذاب الذي أشرفت عليه بما جنت واقترفت، بعدما تقطعت الروابط والصلات بينها وبين المتبوعين، واصطلمت، فلا منفعة للمُتبرئ تركت فيحمد تركها، ولا هداية للمُتبرئ منه ترجى فيحمد أثرها، لولا أن حيل بين المقلدين وهداية القرآن؛ لكان لهم في هذه الآية أشد زلزال لجمودهم، على أقوال الناس وآرائهم في الدين، سواء كانوا من الأحياء أم الميتين، وسواء كان التقليد في العقائد والعبادات أم في أحكام الحلال والحرام؛ إذ كل هذا مما يؤخذ عن الله ورسوله، ليس لأحد فيه رأي ولا قول، إلا ما كان من الأحكام متعلقاً بالقضاء، وما يتنازع فيه الناس فلائلي الأمر فيه الاجتهاد بشرطه، إقامة للعدل وحفظاً للمصالح العامة والخاصة، وإنما العلماء نقلة وأدلاء لا أنداد ولا أنبياء، فلا عصمة تحوط أحدهم فيعتمد على فهمه، وقصارى العدالة أن يوثق بنقله، ويستعان بعلمه، وما تنازعوا فيه يرد إلى كتاب الله وسنة رسوله فهناك القول الفصل والحكم العدل، والله يحكم لا معقب لحكمه ولا مرد لأمره، في مثل هؤلاء المتبوعين والتابعين نزل قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَحُوا مِنْ قُلُوبِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَتْ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُخْرَيْنَاهُ لِأَخْرَيْنَاهُ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ فكل يؤاخذ بعمله، فإذا حمل الأول الآخر على رأيه ودعاه إلى اتباعه فيه أو في رأيه الذي يقلده هو فيه؛ فهو من الأئمة المضلين، وعليه إثمهم ومثل إثم من أضلهم من غير أن ينقص من إثمهم شيء؛ إذ حرم الله عليهم اتخاذ الأنداد من دون الله

فاتخذوهم . وأما من يبدي في الدين فهمًا ويقرر بحسب ما ظهر له من الدليل له حكمًا يريد أن يفتح للناس أبواب الفقه، ويسهل لهم طريق العلم، ثم هو يأمر الناس بأن يعرضوا قوله على كتاب الله وسنة رسوله، وينهاهم أن يأخذوا به إلا أن يقتنعوا بدليله؛ فهو من أئمة الهدى، وأعلام التقى، وليس يضيره أن يقلد فيه بغير علمه، ويجعل ندا لله من بعد موته، فإنه إذا كان مخطئًا وجاء ذلك المقلد له على غير بصيرة يوم القيامة ينسب ضلاله إليه؛ فإنه يتبرأ منه بحق، ويقول: ما أمرتك أن تأخذ بقولي على علاته، ولا أعرفك، فالذين يتخذون أندادًا كلهم يتبرؤون يوم القيامة ممن اتخذوهم ولكنهم يكونون على قسمين: قسم عبدتهم الناس كال مسيح وبعض الصالحين من هذه الأمة ومن الأمم قبلها، أو قلدوهم وأخذوا بأقوالهم في الدين من غير دليل شرعي؛ ك بعض الأئمة المهتدين، من غير أن يأمرهم هؤلاء بعبادتهم أو تقليدهم، بل مع نهيمهم إياهم عن عبادة غير الله تعالى، وعن الاعتماد على غير وحيه في الدين، فهذا القسم غير مراد هنا؛ لأن الذين عبدوا أولئك الأخيار أو قلدوهم دينهم؛ لم يتبعوهم في الحقيقة، إذ اتباعهم هو اتباع طريقتهم في الدين؛ وما كانوا يشركون بالله أحدًا ولا شيئًا، ولا يقلدون في دينه أحدًا، وإنما كانوا يأخذون دينه عن وحيه فقط . وقسم أضلوا الناس بأحوالهم وأقوالهم، فاتبعوهم على غير بصيرة ولا هدى؛ فهؤلاء هم الذين يتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضًا إذ تنقطع بهم أسباب الأهواء والمنافع الدنيوية التي تربط هنا بعضهم ببعض قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنتَ لَنَّا كَرِهَ فَنَتَّبِعَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ أي: لو أن لنا رجعة إلى الدنيا لتتبرأ من اتباع هؤلاء المضلين، وتنصل من رياستهم، أو لتتبع سبيل الحق ونأخذ بالتوحيد الخالص، ونهتدي بكتاب الله وسنة رسوله، ثم نعود إلى هنا - الآخرة - فنتبرأ من هؤلاء الضالين، كما تبرؤوا منا؛ إذ نسعد بعملنا من حيث هم أشقياء بأعمالهم ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أن الله تعالى يظهر لهم كيف أن أعمالهم قد كان لها أسوأ الأثر في نفوسهم، إذ جعلتها مستذلة مستعبدة لغير الله تعالى، فأورثها ذلك من الظلمة والصغار ما كان حسرة وشقاء عليها، فالأعمال هي التي كونت هذه الحسرات في النفس، ولكن لم يظهر ذلك إلا في الدار التي تسعد فيها كل نفس بارتقائها وتشقى بانحطاطها ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ إلى الدنيا فيشفوا غيظهم من رؤسائهم وأندادهم؛ لأن علة

دخولهم فيها هي ذواتهم بما طبعتها عليه أعمال الشرك وحب الأنداد.

(الأستاذ الإمام): يقول المفسرون في مثل هذه الآيات: إن هذا الكلام خاص بالكفار. نعم إنه خاص بالكفار كما قالوا، ولكن؛ من الخطأ أن يفهم من هذا الكلام ما يفصل بين المسلمين والقرآن، إذ يصرفون كل وعيد فيه إلى المشركين واليهود والنصارى، فينصرفون عن الاعتبار المقصود، لهذا ترى المسلمين لا يتعظون بالقرآن، ويحسبون أن كلمة (لا إله إلا الله) - يتحرك بها اللسان من غير قيام بحقوقها - كافية للنجاة في الآخرة، على أن كثيرا من الكافرين يقولها، ومنهم من يهز جسده عند ذكر الله كما يهزه جماهيرهم، فهل هذا كل ما أَرَادَهُ الله من إنزال القرآن، وبعثة محمد - عليه الصلاة والسلام -؟ ليس هذا الذي يتوهمه الجاهلون من مراد المفسرين، فما بين الله تعالى ضروب الشرك وصفات الكافرين وأحوالهم؛ إلا عبرة لمن يؤمن بكتابه حتى لا يقع فيما وقعوا فيه؛ فيكون من الهالكين. ولكن رؤساء التقليد حالوا بين المسلمين وبين كتاب ربهم، بزعمهم أن المستعدين للاهتداء به قد انقروا ولا يمكن أن يخلفهم الزمان، لما يشترط فيهم من الصفات والنوع التي لا تتيسر لغيرهم كمعرفة كذا وكذا من الفنون الصناعية، والإحاطة بخلاف العلماء في الأحكام، والذي يعرفه كل واقف على تاريخ الصدر الأول من المسلمين؛ هو أن أهل القرنين: الأول والثاني؛ لم يكونوا يقلدون أحدا؛ أي: لم يكونوا يأخذون بآراء الناس وأقوال العلماء، بل كان العامي منهم على بينة من دينه، يعرف من أين جاءت كل مسألة يعمل بها من مسائله، إذ كان علماء الصدر الأول رضي الله تعالى عنهم، يلقنون الناس الدين ببيان كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وكان الجاهل بالشئ يسأل عن حكم الله فيه، فيجيب بأن الله تعالى قال: كذا، أو جرت سنة نبيه على كذا، فإن لم يكن عند المسؤول فيه هدي من كتاب أو سنة؛ ذكر ما جرى عليه الصالحون وما يراه أشبه بما جاء في هذا الهدي، أو أحال على غيره، ولما تصدى بعض العلماء في القرن الثاني والثالث لاستنباط الأحكام واستخراج الفروع من أصولها - ومنهم الأئمة الأربعة - كانوا يذكرون الحكم بدليله على هذا النمط، فهم متفقون مع الصحابة والتابعين عليهم الرضوان، على أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ بقول أحد في الدين ما لم يعرف دليله ويقتنع به، ثم جاء من العلماء المقلدين في القرون الوسطى من جعل قول المفتي للعامي بمنزلة الدليل مع

قولهم: بأنه لو بلغه الحديث فعمل به كان كذلك أو أولى، ثم خلف خلف أغرق في التقليد، فمنعوا كل الناس أخذ أي حكم من الكتاب أو السنة وعدوا من يحاول فهمهما والعمل بهما زائغًا، وهذا غاية الخذلان وعداوة الدين، وقد تبعهم الناس في ذلك فكانوا لهم أندادًا من دون الله، وسيتبرأ بعضهم من بعض كما أخبر الله... فتبين مما شرحناه أن لا عذر لأحد في التقليد المحض، وأن حكم الآية يستغرق جميع المقلدين فهم اتخذوا مقلديهم أندادًا، وسيتبرأ التابع من المتبوع؛ إذ يرون العذاب وتتقطع بهم الأسباب^(١).

قلت: فحمد الله أن وفقنا للاطلاع على هذه البحوث الطيبة النيرة التي تبعث الأمل وتفتح الآفاق، وضممنها في تفسيرنا هذا للأجيال تقرأها، وتستفيد منها، فلله در هؤلاء الأئمة في بيانهم للحق وإيضاحهم له، فأين هذا الكلام المتين الطيب من نوابت تبنت ههنا وههنا، ترجع بالأمة إلى عهود الظلام والجهل، والتخبط في كل قضايا الأمة الأصولية والفرعية، وجاء الغزاة وأكملوا للأمة ما نقصها من انحراف وضلال، فأبعدوا الكتاب والسنة بالكلية، وفرضوا على الأمة المغزوة القوانين الوضعية التي هي لا شك من وضع اليهود والنصارى، والملاحدة الشيوعيين والاشتراكيين، الذين ينادون الأديان كلها، ولا يسمحون لأحد أن يبين أن الدين علم وعمل، وفرد وجماعة وأمة ودولة، ففي أحسن أحوالهم لو سمحوا لأحد بالتدين لقالوا بأن هذا الأمر شخصي فلا يجوز أن ينقل إلى الغير؛ فإن ذلك جريمة كبرى ومصيبة عظمى، فدعاة الضلال ونابذة السوء يرجعون بالأمة إلى ما يجعلها أمة متخلفة، تعيش على فتات أسيادها، وتسارع إلى تقليدهم في كل سيئة يفعلونها، فالحذر الحذر من هؤلاء النوابت؛ فإنما هم مرتزقة أسيادهم، وقانا الله وإياكم شرهم.

* * *

(١) تفسير المنار (٢/ ٨٥-٩٣).

قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

★ غريب الآية:

كلوا: الأكل بالفتح: المصدر، وبالضم الشيء المأكول، قال تعالى: ﴿أَكُلْهَا ذَائِبٌ﴾^(١) أي مأكولها.

حلالا: الحلال: المباح، وأصله من حل العقدة أحلها إذا أزالها.

خطوات: جمع خطوة، وهي بعد ما بين القدمين حال المشي، وخطوات الشيطان مسالكه وآثاره.

عدو: العدو: ضد الولي، وهو الذي يعاديك ويحاربك.

يأمركم: الأمر من الشيطان هو دعاؤه إلى الفعل القبيح.

السوء: كل ما يقبح شرعا وسمي بذلك لسوء عاقبته.

الفحشاء: ما تزايد قبحه واشتد نكره، وكل ما خالف الحق فهو فاحش.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ لم يذكر هنا ما يترتب على اتباع خطواته من الضرر، ولكنه أشار إلى ذلك في سورة «النور»، بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٢) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ لم يبين هنا هذا الذي يقولونه عليه بغير علم، ولكنه فصله في مواضع أخر؛ فذكر أن ذلك الذي يقولونه بغير علم هو: أن الله حرم البحائر، والسوائب، ونحوها، وأن له أولادًا، وأن له شركاء، ﴿يَعْلَمُ﴾ عن ذلك علوًا

(٢) النور: الآية (٢١).

(١) الرعد: الآية (٣٥).

كبيراً. فصرح بأنه لم يحرم ذلك بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾^(٢) الآية. وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾^(٣) الآية. وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾^(٤)، إلى غير ذلك من الآيات. ونزه نفسه عن الشركاء المزعومة بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ وَقَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٥)، ونحوها من الآيات. ونزه نفسه عن الأولاد المزعومة بقوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾^(٦) الآية، ونحوها من الآيات.

فظهر من هذه الآيات تفصيل ما أجمل في اسم الموصول الذي هو ﴿مَا﴾، من قوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٧).

قال ابن كثير: «لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق؛ شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيباً؛ أي: مستطاباً في نفسه غير ضار للأبدان، ولا للعقول. ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه؛ من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها؛ مما كان زينه لهم في جاهليتهم؛ كما في حديث عياض بن حمار الذي في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: إن كل مال نحلت عبادي فهو لهم حلال» وفيه: «وإني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم»^(٨)»^(٩).

قال القرطبي: «وسمي الحلال حلالاً لانحلال عقدة الحظر عنه. قال سهل بن عبد الله: (النجاة في ثلاثة: أكل الحلال، وأداء الفرائض، والاقتداء بالنبي ﷺ). وقال أبو عبد الله الساجي - واسمه سعيد بن يزيد -: (خمس خصال بها تمام العلم،

(١) المائدة: الآية (١٠٣).

(٢) الأنعام: الآية (١٤٠).

(٣) يونس: الآية (٥٩).

(٤) النحل: الآية (١١٦).

(٥) يونس: الآية (١٨).

(٦) يونس: الآية (٦٨).

(٧) الأضواء (١/ ٨٩-٩٠).

(٨) أخرجه أحمد (٤/ ١٦٢) ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦-٢٧/ ٨٠٧٠-).

(٩) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٨).

(٨٠٧١).

وهي معرفة الله ﷻ، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل الحلال، فإن فُقدت واحدة لم يرفع العمل). قال سهل: (ولا يصح أكل الحلال إلا بالعلم، ولا يكون المال حلالاً حتى يصفو من ست خصال: الربا والحرام والسحت - وهو اسم مجمل - والغلول والمكروه والشبهة»^(١)).

وقال ابن عاشور: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ . . . الآيتين. استئناف ابتدائي، هو كالمخاتمة لتشويه أحوال أهل الشرك من أصول دينهم وفروعه، التي ابتدأ الكلام فيها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ﴾^(٢) الآية. إذ ذكر كفرهم إجمالاً ثم أبطله بقوله: ﴿وَاللَّهُ كَزَّ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ واستدل على إبطاله بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) الآيات. ثم وصف كفرهم بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾^(٤)، ووصف حالهم وحسراتهم يوم القيامة، فوصف هنا بعض مساوئ دين أهل الشرك فيما حرموا على أنفسهم مما أخرج الله لهم من الأرض، وناسب ذكره هنا أنه وقع بعدما تضمنه الاستدلال على وحدانية الله والامتنان عليهم بنعمته بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَرْزَلَهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَيَّنَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾^(٥) الآية. وهو تمهيد وتلخيص لما يعقبه من ذكر شرائع الإسلام في الأطعمة وغيرها التي ستأتي من قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾^(٦).

فالخطاب بـ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ موجه إلى المشركين كما هو شأن خطاب القرآن بـ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾.

والأمر في قوله: ﴿كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ مستعمل في التوبيخ على ترك ذلك وليس للوجوب ولا للإباحة، إذ ليس الكفار بأهل للخطاب بفروع الشريعة فقوله: ﴿كُلُّوْا﴾ تمهيد لقوله بعده: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

وقوله: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ تعريض بتحقيقهم فيما أعتوا به أنفسهم فحرموها من نعم

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠٨/٢).

(٢) البقرة: الآية (١٦١).

(٣) البقرة: الآية (١٦٤).

(٤) البقرة: الآية (١٦٥).

(٥) البقرة: الآية (١٦٤).

(٦) البقرة: الآية (١٧٢).

طيبة افتراء على الله، وفيه إيماء إلى علة إباحته في الإسلام وتعليم للمسلمين بأوصاف الأفعال التي هي مناط الحل والتحريم.

والمقصود: إبطال ما اختلقوه من منع أكل البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي، وما حكى الله عنهم في سورة الأنعام من قوله: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَرَعِيهِمْ﴾^(١) «(٢)».

وقال: «وقوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ﴾ الضمير للناس لا محالة، وهم المشركون المتلبسون بالمنهي عنه دوماً، وأما المؤمنون فحظهم منه التحذير والموعظة.

واتباع الخطوات تمثيلية، أصلها أن السائر إذا رأى آثار خطوات السائرين؛ تبع ذلك المسلك علماً منه بأنه ما سار فيه السائر قبله إلا لأنه موصل للمطلوب، فشبّه المقتدي الذي لا دليل له سوى المقتدى به، وهو يظن مسلكه موصلاً بالذي يتبع خطوات السائرين، وشاعت هاته التمثيلية حتى صاروا يقولون: هو يتبع خطا فلان، بمعنى يقتدي به ويمثل له . . .

والاقتداء بالشیطان إرسال النفس على العمل بما يوسوسه لها من الخواطر البشرية، فإن الشياطين موجودات مدركة، لها اتصال بالنفوس البشرية، لعلّه كاتصال الجاذبية بالأفلاك، والمغناطيس بالحديد، فإذا حصل التوجه من أحدهما إلى الآخر بأسباب غير معلومة؛ حدثت في النفس خواطر سيئة، فإن أرسل المكلف نفسه لاتباعها، ولم يردعها بما له من الإرادة والعزيمة؛ حققها في فعله، وإن كبّحها وصدّها عن ذلك غلبها. ولذلك أودع الله فينا العقل والإرادة والقدرة، وكمل لنا ذلك بالهدى الديني؛ عوناً وعصمة عن تليتها؛ لئلا تضلنا الخواطر الشيطانية، حتى نرى حسناً ما ليس بالحسن، ولهذا جاء في الحديث: «من هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة»^(٣) لأنه لما هم بها؛ فذلك حين تسلطت عليه القوة الشيطانية، ولما عدل عنها فذلك حين غلب الإرادة الخيرية عليها، ومثل هذا يقال في الخواطر الخيرية، وهي الناشئة عن التوجهات الملكية، فإذا تنازع الداعيان في

(١) الأنعام: الآية (١٣٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٠١/٢-١٠٢).

(٣) أخرجه أحمد (٣١٠/١) والبخاري (١١/٣٩٢/٦٤٩١) ومسلم (١/١١٨/١٣١) من حديث ابن عباس ؓ.

نفوسنا؛ احتجنا في التغلب إلى الاستعانة بعقولنا، وآرائنا، وقدرتنا، وهدى الله تعالى إيانا»^(١).

قال القرطبي: «ولا تقفوا أثر الشيطان وعمله. وما لم يرد به الشرع فهو منسوب إلى الشيطان، قال ابن عباس: خطوات الشيطان: أعماله. مجاهد: خطاياه. السدي: طاعته. أبو مجلز: هي النذور في المعاصي. قلت: والصحيح أن اللفظ عام في كل ما عدا السنن والشرائع من البدع والمعاصي»^(٢).

وقال: «قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أخبر تعالى بأن الشيطان عدو وخبره حق وصدق، فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عدواته من زمن آدم، وبذل نفسه وعمره في إفساد أحوال بني آدم، وقد أمر الله تعالى بالحذر منه فقال -جل من قائل-: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٣) إنما يأمركم بالسوء والفحشاء. وقال: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾^(٤) وقال: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٥) وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَيْرِ وَالْئِسَرِ وَصَدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾^(٦) وقال: ﴿إِنَّكُمْ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾^(٧) وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٨) وهذا غاية في التحذير»^(٩).

قال ابن عاشور: «وإنما كان عدوًّا؛ لأن عنصر خلقته مخالف لعنصر خلقه الإنسان، فاتصاله بالإنسان يؤثر خلاف ما يلائمه، وقد كثر في القرآن تمثيل الشيطان في صورة العدو المتربص بنا الدوائر؛ لإثارة داعية مخالفته في نفوسنا؛ كي لا نغتر حين نجد الخواطر الشريرة في أنفسنا، فنظنها ما نشأت فينا إلا وهي نافعة لنا؛ لأنها تولدت من نفوسنا، ولأجل هذا أيضًا صورت لنا النفس في صورة العدو في مثل هاته الأحوال.

ومعنى المبين: الظاهر العداوة، من أبان الذي هو بمعنى بان، وليس من أبان

(١) التحرير والتنوير (١٠٢/٢-١٠٣) باختصار يسير. (٢) الجامع (٢٠٨/٢-٢٠٩).

(٣) البقرة: الآية (٢٦٨). (٤) النساء: الآية (٦٠).

(٥) المائدة: الآية (٩١). (٦) القصص: الآية (١٥).

(٧) فاطر: الآية (٦). (٨) الجامع لأحكام القرآن (٢٠٩/٢).

الذي همزته للتعدية بمعنى أظهر؛ لأن الشيطان لا يظهر لنا العداوة، بل يلبس لنا وسوسته في لباس النصيحة أو جلب الملائم، ولذلك سماه الله وليا فقال: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾^(١)، إلا أن الله فضحه، فلم يبق مسلم تروج عليه تلبيساته حتى في حال اتباعه لخطواته، فهو يعلم أنها وساوسه المضرة، إلا أنه تغلبه شهوته، وضعف عزمته، ورقة ديانته.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ استئناف بياني لقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، فيثول إلى كونه علة للعلة؛ إذ يسأل السامع عن ثبوت العداوة مع عدم سبق المعرفة، ومع بُعد ما بيننا وبينه، فقول: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾ أي: لأنه لا يأمركم إلا بالسوء الخ؛ أي: يحسن لكم ما فيه مضرته، لأن عداوته أمر خفي، عرفناه من آثار أفعاله.

والأمر في الآية مجاز عن الوسوسة والتزيين، إذ لا يسمع أحد صيغ أمر من الشيطان. ولك أن تجعل جملة: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾ تمثيلية بتشبيه حاله وحالهم في التسويل والوسوسة، وفي تلقينهم ما يوسوس لهم بحال الأمر والمأمور، ويكون لفظ (يأمر) مستعملا في حقيقته، مفيدا مع ذكر الرمز إلى أنهم لا إرادة لهم، ولا يملكون أمر أنفسهم، وفي هذا زيادة تشنيع لحالهم، وإثارة للعداوة بين الشيطان وبينهم^(٢).

وقال: «وقوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يشير إلى ما اختلقه المشركون وأهل الضلال من رسوم العبادات، ونسبة أشياء لدين الله ما أمر الله بها. وخصه بالعطف مع أنه بعض السوء والفحشاء؛ لاشتماله على أكبر الكبائر، وهو الشرك والافتراء على الله...»

ومعنى ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: لا تعلمون أنه من عند الله، بقرينة قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تعلمون أنه يرضيه ويأمر به، وطريق معرفة رضا الله وأمره هو الرجوع إلى الوحي وإلى ما يتفرع عنه من القياس وأدلة الشريعة المستقراة من أدلتها. ولذلك قال الأصوليون: يجوز للمجتهد أن يقول فيما أداه إليه اجتهاده بطريق القياس: إنه دين الله، ولا يجوز أن يقول قاله الله؛ لأن المجتهد قد حصلت له مقدمة قطعية

(١) النساء: الآية (١١٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ١٠٤-١٠٥).

مستقرة من الشريعة انعقد الإجماع عليها ، وهي : وجوب عمله بما أداه إليه اجتهاده ؛ بأن يعمل به في الفتوى والقضاء وخاصة نفسه ، فهو إذا أفتى به وأخبر فقد قال على الله ما يعلم أنه يرضي الله تعالى بحسب ما كلف به من الظن^(١) .

قال السعدي : « هذا خطاب للناس كلهم ، مؤمنهم وكافرهم ، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض ، من حبوب ، وثمار ، وفواكه ، وحيوانات ، حالة كونها ﴿ حَلَالًا ﴾ أي : محللا لكم تناوله ، ليس بغصب ولا سرقة ، ولا محصّلا بمعاملة محرمة ، أو على وجه محرم ، أو معينا على محرم .

﴿ طَيِّبًا ﴾ أي : ليس بخبيث ، كالميتة والدم ، ولحم الخنزير ، والخبائث كلها . ففي هذه الآية ، دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة ؛ أكلاً وانتفاعاً ، وأن المحرم نوعان : إما محرم لذاته ؛ وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب ، وإما محرم لما عرض له ؛ وهو المحرم لتعلق حق الله ، أو حق عباده به ، وهو ضد الحلال .

وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب ، يأثم تاركه لظاهر الأمر ، ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به - إذ هو عين صلاحهم - نهاهم عن اتباع ﴿ خُطُوبِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي : طرقة التي يأمر بها ، وهي جميع المعاصي من كفر ، وفسوق ، وظلم ، ويدخل في ذلك تحريم السوائب ، والحام ، ونحو ذلك ، ويدخل فيه أيضاً تناول المأكولات المحرمة . ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ أي : ظاهر العداوة ، فلا يريد بأمركم إلا غشكم ، وأن تكونوا من أصحاب السعير ، فلم يكتف ربنا بنهيها عن اتباع خطواته حتى أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوته الداعية للحذر منه ، ثم لم يكتف بذلك ، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به ، وأنه أقبح الأشياء ، وأعظمها مفسدة فقال :

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ أي : الشر الذي يسوء صاحبه ، فيدخل في ذلك ، جميع المعاصي ، فيكون قوله : ﴿ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ من باب عطف الخاص على العام ؛ لأن الفحشاء من المعاصي ، ما تنهاى قبحه ، كالزنا ، وشرب الخمر ، والقتل ، والقذف ، والبخل ونحو ذلك ، مما يستفحشه من له عقل .

(١) التحرير (٢/ ١٠٥) .

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيدخل في ذلك القول على الله بلا علم، في شرعه، وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبتته لنفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه؛ فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن لله ندًا وأوثانًا تقرب من عبدها من الله؛ فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله أحل كذا، أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة؛ فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: الله خلق هذا الصنف من المخلوقات للعلة الفلانية بلا برهان له بذلك؛ فقد قال على الله بلا علم. ومن أعظم القول على الله بلا علم؛ أن يتأول المتأول كلامه، أو كلام رسوله، على معاني اصطلاح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها. فالقول على الله بلا علم، من أكبر المحرمات، وأشملها، وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها. فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويبذلون مكرهم وخداعهم، على إغواء الخلق بما يقدرون عليه.

وأما الله تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، فلينظر العبد نفسه، مع أي الداعيين ومن أي الحزبين؟ أتتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية والأخروية، الذي كل الفلاح بطاعته، وكل الفوز في خدمته، وجميع الأرباح في معاملة المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر؟ أم تتبع داعي الشيطان، الذي هو عدو الإنسان، الذي يريد لك الشر، ويسعى بجهدته على إهلاكك في الدنيا والآخرة، الذي كل الشرف في طاعته، وكل الخسران في ولايته، والذي لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير؟^(١).

قلت: مما تقدم من تفاسير أهل العلم في هذه الآية، التي جاء فيها التحذير من إبليس وخطواته وأوامره، وأن ما كان عليه كفار قريش وأمثالهم ممن سلك طريقهم في التحليل والتحريم والابتداع، وعبادة من لا يستحق العبادة، كل هذا وأمثاله مما ذكره الله -تبارك وتعالى- ليحذرننا من الوقوع فيه، ومع هذه الآيات الواضحات

(١) التيسير (١/١٩٩-٢٠٢).

فقد وقع فئام من الناس فيما حُذِّروا منه؛ فحرموا أمورًا لا يجوز تحريمها، وحلّلوا أمورًا لا يجوز إباحتها، وابتدعوا في دين الله ما لم يأذن الله به، وعبدوا من لا يستحق العبادة، ووضعوا لأنفسهم أوراذاً، وزعموا لتلك الأوراد القدسية، وألزموا الناس بها ليلاً ونهاراً، ونصبوا لأنفسهم شيوخاً، وزعموا لهم العصمة، وابتدعوا أموراً كثيرة سموها بالعمل الفلاني، ونسبوا تلك الأعمال إلى أهل ذلك البلد السابقين، وإلى شيوخ تلك الطرق الصوفية الضالة، وبنوا الأضرحة وزخرفوها، ووضعوا فيها من خيرة الأثاث، وأنفقوا عليها الأموال الطائلة التي تكون عليهم حسرة إلى يوم القيامة، وابتدعوا في المساجد بدعاً يومية وموسمية من أورااد وقراءة جماعية، وأدعية مختلفة لم يأمر الله تعالى بها ولا صحت عن نبيه ﷺ. وهكذا تجدهم يَسْبِحُونَ في كل ضلالة، ويزعمون لأنفسهم العلم، وأنهم متعلمون وهم في حقيقة أمرهم مرتزقون، يلهثون وراء الدينار والدرهم، لا يشبعهم قليله ولا كثيره، وهم كما قال الذهبي في ترجمة ابن عربي الحاتمي في نعيه عليه في العلم الذي ادعاه وزعم أنه له: لو كان المسلم له عصا يرعى بها البقر لكان خيراً له من هذه الحال اهـ. ونحن نقول: لو كان هؤلاء المنسوبون للعلم والإصلاح ممن يتسولون في الطرقات وفي مجامع الناس؛ لكان خيراً لهم من حرب كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والسعي وراء كل ما يحاربهما من إقامة البدع والمواسم، والدعوة إلى كتب وأراجيز تباين الكتاب والسنة وتحاربهما بمضمونها، والله المستعان.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الحلال ما حلله الله

والحرام ما حرمه، وما سوى ذلك فهو غلو وتنطع

* عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ أنه أتى بضرع وملح فجعل يأكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم. فقال: لا أريد. فقال: أصائم أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حرمت أن أكل ضرعاً أبداً! فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فاطعم وكفر عن يمينك^(١).

(١) أخرجه: عبد الرزاق في التفسير (١٩٨-١٩٩) وسعيد بن منصور في سننه (٧٧٢/١٥١٩/٤) والطبراني في الكبير (٨٩٠٧-٨٩٠٨/١٨٤/٩). قال الهيثمي في المجمع (١٩٠/٤): رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح، والحاكم (٣١٣-٣١٤/٢) وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي.

* غريب الحديث:

الضرع: ضرع الناقة والشاة وغيرهما، وأضرعت الشاة نزل اللبن في ضرعها لقرب نتاجها، وشاة ضريع: عظيمة الضرع.

* عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا؛ كل مال نحلته عبدًا حلال، وإنني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم؛ إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان. وإن الله أمرني أن أحرق قريشا. فقلت: رب إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة. قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُفْرَكًا، وأنفق فسننق عليك، وابعث جيشا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك. قال: وأهل الجنة ثلاثة؛ ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال. قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر له، الذين هم فيكم تبعًا لا يبتغون أهلًا ولا مألًا، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانته، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكر البخل أو الكذب، والشنظير الفحاش»^(١).

* غريب الحديث:

نحلته: أي أعطيته.

حنفاء: أي مسلمين طاهرين من المعاصي.

فاجتالتهم: اجتال الرجل الشيء ذهب له، واجتال أموالهم ساقها.

فمقتهم: المقت أشد البغض.

(١) أخرجه: أحمد (٤/١٦٢) ومسلم (٤/٢١٩٧-٢١٩٨/٢٨٦٥) والنسائي في الكبرى (٥/٢٦-٢٧/٨٠٧٠-

إلا بقايا : أي : الباقون على ما بقي من حق في دينهم .
 يثلغوا : أي : يشدخوه كما يشدخ الخبز ، أي يكسر .
 لا زبر له : أي : لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا ينبغي .
 وإن دق : أي : صغر .
 والشنظير : فسره بالفحاش وهو السيء الخلق .

★ فوائد الحديثين:

قال القرطبي : «وقوله تعالى : (كل مال نحلته عبداً حلال) معنى نحلته : أعطيته . . ويعني بها هنا العطية بطريق شرعي ، فكأنه قال : كل من ملكته شيئاً بطريق شرعي ، قليلاً كان أو كثيراً ، خطيراً كان أو حقيراً ؛ فالانتفاع له به مباح مطلقاً ، لا يمنع من شيء منه ، ولا يزاحم عليه . والمال هنا : كل ما يتمول ويتملك من سائر الأشياء ، وفائدة هذه القضية الكلية ؛ رفع توهم من يتوهم أن ما يستلذ ويستطاب من رفيع الأطعمة والملابس والمناكح والمساكن ؛ محرم أو مكروه ، وإن كان ذلك من الكسب الجائز ، كما قد ذهب إليه بعض غلاة المتزهدة . .

وقوله : «وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم» يعني : شياطين الإنس من الآباء والمعلمين بتعليمهم وتدريبهم ، وشياطين الجن بوساوسهم . ومعنى «اجتالهم» : أجالتهم ؛ أي : صرفتهم عن مقتضى الفطرة الأصلية ، كما قال : «حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(١) وفي الرواية الأخرى : «حتى يعبر عنه لسانه» يعني : بما يلقي إليه الشيطان من الباطل والفساد المناقض لفطرة الإسلام»^(٢) .

قال النووي : «والمراد إنكار ما حرموا على أنفسهم من السائبة والوصيلة والبحيرة والحامي وغير ذلك ، وأنها لم تصر حراماً بتحريمهم ، وكل مال ملكه العبد فهو له حلال حتى يتعلق به حق»^(٣) .

(١) أخرجه أحمد (٢٣٣/٢) والبخاري (١٣٥٨/٢٨١/٣) ومسلم (٢٦٥٨/٢٠٤٧/٤) والترمذي (٣٨٩/٤) -

(٢) المفهم (٧١١-٧١٢) .

(٣) من حديث أبي هريرة .

(٣) شرح مسلم (١٦٢/١٧) .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ
ءَابَاءَنَا أُولُو كَاكٍ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى وإذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل؛ قالوا في جواب ذلك: بل نتبع ما ألفتنا؛ أي: وجدنا عليه آباءنا؛ أي: من عبادة الأصنام والأنداد، قال الله تعالى منكرًا عليهم: ﴿أُولُو كَاكٍ ءَابَاؤُهُمْ﴾ أي: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ليس لهم فهم ولا هداية»^(١).

قال القرطبي: «قال علماؤنا: وقوة ألفاظ هذه الآية تعطي إبطال التقليد ونظيرها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾^(٢) الآية. وهذه الآية والتي قبلها مرتبطة بما قبلهما، وذلك أن الله سبحانه أخبر عن جهالة العرب فيما تحكمت فيه بآرائها السفهية في البحيرة والسائبة والوصيلة، فاحتجوا بأنه أمر وجدوا عليه آباءهم فاتبعوهم في ذلك، وتركوا ما أنزل الله على رسوله، وأمر به في دينه، فالضمير في ﴿لَهُمْ﴾ عائد عليهم في الآيتين جميعًا»^(٣).

قال أبو حيان: «أبرزوا في صورة الغائب الذي يُتعجب من فعله، حيث دعي إلى اتباع شريعة الله التي هي الهدى والنور. فأجاب باتباع شريعة أبيه، وكأنه يقال: هل رأيتم أسخف رأيًا، وأعمى بصيرة؛ ممن دعي إلى اتباع القرآن المنزل من عند الله، فرد ذلك وأضرب عنه؟ وأثبت أنه يتبع ما وجد عليه آباءه؟ وفي هذا دلالة على ذم التقليد، وهو قبول الشيء بلا دليل ولا حجة. وحكى ابن عطية أن الإجماع منعقد على إبطاله في العقائد. وفي الآية دليل على أن ما كان عليه آباؤهم هو مخالف لما

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٣٥٩).

(٢) المائدة: الآية (١٠٤).

(٣) الجامع (٢/٢١١).

أنزل الله ، فاتباع أبنائهم لأبائهم تقليد في ضلال . وفي هذا دليل على أن دين الله هو اتباع ما أنزل الله ؛ لأنهم لم يؤمروا إلا به»^(١).

قلت : ما ذكره المفسر أبو حيان نقلاً عن ابن عطية في أن الإجماع منعقد على إبطال التقليد في العقائد فيه نظر ، فالتقليد باطل في العقائد وفي غيرها ، فإن الإسلام هو الكتاب والسنة ، ومن بلغه الكتاب والسنة فيجب عليه أن يذكرهما لمن لم يبلغه الإسلام ، فلا فرق بين عقيدة ولا حلال ولا حرام ولا مستحب ولا مكروه ، فكل الأحكام الخمسة يجب على الداعية إذا دل الناس عليها أن يبين حكمها من الكتاب والسنة ، ولهذا قال أبو عمر بن عبد البر : «أجمع العلماء على أن المقلد ليس من أهل العلم» . والذي ليس من أهل العلم لا يجوز أن يتكلم في العلم ، فالكلام في دين الله يحتاج فيه إلى الدليل ، فالتقليد كله مذموم وباطل . ولقد فصلت القول في التقليد بما لا يدع شكاً في ذمه في كتابي (أهل الأهواء والبدع والفتن والاختلاف) .

قال ابن عاشور : «وفي هذه الآية المعطوفة زيادة تفضيع لحال أهل الشرك ، فبعد أن أثبت لهم اتباعهم خطوات الشيطان فيما حرموا على أنفسهم من الطيبات ؛ أعقب ذلك بذكر إعراضهم عن يدعوهم إلى اتباع ما أنزل الله ، وتشبثوا بعدم مخالفتهم ما ألفوا عليه آبائهم ، وأعرضوا عن الدعوة إلى غير ذلك دون تأمل ولا تدبر»^(٢).

قال ابن القيم : «فهذه مناظرة حكاها الله بين المسلمين والكفار ؛ فإن الكفار لجأوا إلى تقليد الآباء ، وظنوا أنه منجيهم لإحسانهم ظنهم بهم ، فحكم الله بينهم بقوله : ﴿أُولَئِكَ كَانُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَقُولُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وفي موضع آخر : ﴿أُولَئِكَ كَانُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَقُولُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وفي موضع آخر : ﴿قُلْ أُولَئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾^(٣) فأخبر عن بطلان هذه الحجة ، وأنها لا تنجي من عذاب الله ؛ لأن تقليد من ليس عنده علم ولا هدى من الله ضلالة وسفه ، والمعنى : ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير يقلدونهم ؟ ولو كانوا لا علم عندهم ولا هدى يقلدونهم أيضاً ؟ وهذا شأن من لا غرض له في الهدى ولا في اتباع الحق ، إن غرضه بالتقليد إلا دفع الحق والحجة إذا لزمته ؛ لأنه لو كان مقصوده الحق لاتبعه إذا ظهر له ، وقد

(١) التحرير (٢/ ١٠٦).

(١) البحر (١/ ٦٥٥).

(٤) الزخرف : الآية (٢٤).

(٣) لقمان : الآية (٢١).

جئتم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، فلو كنتم ممن يتبع الحق لا تبعتم ما جئتم به، فأنتم لم تقلدوا الآباء لكونهم على حق، فقد جئتم بأهدى مما وجدتموهم عليه، وإنما جعلتم تقليدهم جنة لكم تدفعون بها الحق الذي جئتم به»^(١).

قال شيخ الإسلام: «وأكثر الناس إنما التزموا المذاهب بل الأديان بحكم ما تبين لهم، فإن الإنسان ينشأ على دين أبيه أو سيده أو أهل بلده؛ كما يتبع الطفل في الدين أبويه وسابيه وأهل بلده، ثم إذا بلغ الرجل فعلية أن يقصد طاعة الله ورسوله حيث كانت، ولا يكون ممن إذا قيل لهم: اتبعوا ما أنزل الله قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. فكل من عدل عن اتباع الكتاب والسنة وطاعة الله والرسول إلى عادته وعادة أبيه وقومه؛ فهو من أهل الجاهلية المستحقين للععيد. وكذلك من تبين له في مسألة من مسائل الحق الذي بعث الله به رسوله، ثم عدل عنه إلى عادته؛ فهو من أهل الذم والعقاب. وأما من كان عاجزاً عن معرفة حكم الله ورسوله، وقد اتبع فيها من هو من أهل العلم والدين، ولم يتبين له أن قول غيره أرجح من قوله؛ فهو محمود يثاب لا يذم على ذلك ولا يعاقب، وإن كان قادراً على الاستدلال ومعرفة ما هو الراجح، وتوقي بعض المسائل فعدل عن ذلك إلى التقليد؛ فهو قد اختلف في مذهب أحمد المنصوص عنه، والذي عليه أصحابه أن هذا أثم أيضاً، وهو مذهب الشافعي وأصحابه وحكي عن محمد بن الحسن وغيره أنه يجوز له التقليد مطلقاً، وقيل: يجوز تقليد الأعمى»^(٢).

وقال: «وأنا وغيري كنا على مذهب الآباء في ذلك! نقول في الأصلين بقول أهل البدع، فلما تبين لنا ما جاء به الرسول دار الأمر بين أن نتبع ما أنزل الله، أو نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فكان الواجب هو اتباع الرسول، وأن لا نكون ممن قيل فيه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾^(٣) وقد قال تعالى: ﴿قُلْ أُولُوا جِئْتُمْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾^(٤) وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ^(٥) فالواجب اتباع الكتاب المنزل، والنبي

(١) بدائع الفوائد (٤/١٧٣-١٧٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/٢٢٤-٢٢٥).

(٣) لقمان: الآية (٢١).

(٤) لقمان: الآيتان (١٤-١٥).

المرسل، وسبيل من أناب إلى الله، فاتبعنا الكتاب والسنة كالمهاجرين والأنصار، دون ما خالف ذلك من دين الآباء وغير الآباء، والله يهدينا وسائر إخواننا إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، والله سبحانه أنزل القرآن وهدى به الخلق وأخرجهم به من الظلمات إلى النور»^(١).

وقال أيضًا: «أما التقليد الباطل المذموم فهو قبول قول الغير بلا حجة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَقُولُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ في البقرة وفي المائدة، وفي لقمان: ﴿أَوَلَوْ كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ وفي الزخرف: ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِآهْدًى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ وفي الصافات: ﴿إِنَّهُمْ أَلَفُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿١٦١﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾^(٢) وقال: ﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿١٦٢﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾^(٣) الآية. وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾^(٤) وقال: ﴿فَيَقُولُ أَلْضَعَفْتُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾^(٥) وفي الآية الأخرى: ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٦) وقال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(٧) فهذا الاتباع والتقليد الذي ذمه الله هو اتباع الهوى، إما للعادة والنسب كاتباع الآباء، وإما للرئاسة كاتباع الأكابر والسادة والمتكبرين، فهذا مثل تقليد الرجل لأبيه أو سيده أو ذي سلطانه، وهذا يكون لمن لم يستقل بنفسه وهو الصغير، فإن دينه دين أمه، فإن فقدت فدين ملكه وأبيه، فإن فقد كاللقيط فدين المتولي عليه، وهو أهل البلد الذي هو فيه، فأما إذا بلغ وأعرب لسانه؛ فإما شاكراً وإما كفوراً، وقد بين الله أن الواجب الإعراض عن هذا التقليد إلى اتباع ما أنزل الله على رسله، فإنهم حجة الله التي أعذر بها إلى خلقه. والكلام في التقليد في شيئين: في كونه حقاً أو باطلاً من جهة الدلالة، وفي كونه

(١) مجموع الفتاوى ٦/ ٢٥٨.

(٢) الأحزاب: الآيات ٦٦-٦٧.

(٣) غافر: الآية (٤٧).

(٤) النحل: الآية (٢٥).

(٥) الصافات: الآيات ٦٩-٧٠.

(٦) البقرة: الآية (١٦٦).

(٧) إبراهيم: الآية (٢١).

مشروعاً أو غير مشروع من جهة الحكم . أما الأول فإن التقليد المذكور لا يفيد علماً ، فإن المقلد يجوز أن يكون مقلده مصيباً ويجوز أن يكون مخطئاً ، وهو لا يعلم أمصيب هو أم مخطئ؟ فلا تحصل له ثقة ولا طمأنينة ، فإن علم أن مقلده مصيب ، كتقليد الرسول أو أهل الإجماع فقد قلده بحجة ، وهو العلم بأنه عالم وليس هو التقليد المذكور ، وهذا التقليد واجب للعلم بأن الرسول معصوم ، وأهل الإجماع معصومون . وأما تقليد العالم حيث يجوز فهو بمنزلة اتباع الأدلة المتغلبة على الظن ، كخبر الواحد والقياس ؛ لأن المقلد يغلب على ظنه إصابة العالم المجتهد ، كما يغلب على ظنه صدق المخبر ، لكن بين اتباع الراوي والرأي فرق يذكر إن شاء الله في موضوع آخر . فإن اتباع الراوي واجب ؛ لأنه انفرد بعلم ما أخبر به ، بخلاف الرأي فإنه يمكن أن يعلم من حيث علم ، ولأن غلط الرواية بعيد فإن ضبطها سهل ، ولهذا نقل عن النساء والعامة ، بخلاف غلط الرأي فإنه كثير لدقة طريقة وكثرتها . وهذا هو العرف لمن يجوز قبول الخبر مع إمكان مراجعة المخبر عنه ، ولا يجوز قبول المعنى مع إمكان معرفة الدليل . وأما العرف الأول فمتفق عليه بين أهل العلم ، ولهذا يوجبون اتباع الخبر ، ولا يوجب أحد تقليد العالم على من أمكنه الاستدلال ، وإنما يختلفون في جوازه ؛ لأنه يمكنه أن يعلم من حيث علم فهذه جملة . وأما تفصيلها فنقول : الناس في الاستدلال والتقليد على طرفي نقيض : منهم من يوجب الاستدلال حتى في المسائل الدقيقة : أصولها وفروعها على كل أحد ، ومنهم من يحرم الاستدلال في الدقيق على كل أحد ، وهذا في الأصول والفروع ، وخيار الأمور أوساطها^(١) .

وقال ابن القيم متحدثاً عن التقليد المذموم : «فأما النوع الأول فهو ثلاثة أنواع : أحدها الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء . الثاني : تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله . الثالث : التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد . والفرق بين هذا وبين النوع الأول ؛ أن الأول قلد قبل تمكنه من العلم والحجة ، وهذا قلد بعد ظهور الحجة له ، فهو أولى بالذم ومعصية الله ورسوله . وقد ذم الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التقليد في غير

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/١٥-١٨) .

موضع من كتابه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْبَغُ مَا أَفْنَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَآثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاؤُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ (٢٥) وهذا في القرآن كثير يذم فيه من أعرض عما أنزله وقنع بتقليد الآباء. فإن قيل: إنما ذم من قلد الكفار وآباءه الذين لا يعقلون شيئا ولا يهتدون، ولم يذم من قلد العلماء المهتدين، بل قد أمر بسؤال أهل الذكر وهم أهل العلم وذلك تقليد لهم فقال تعالى: ﴿فَتَسْلُتُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) وهذا أمر لمن لا يعلم بتقليد من يعلم؛ فالجواب أنه سبحانه ذم من أعرض عما أنزله إلى تقليد الآباء، وهذا القدر من التقليد هو مما اتفق السلف والأئمة الأربعة على ذمه وتحريمه، وأما تقليد من بذل جهده في اتباع ما أنزل الله وخفي عليه بعضه فقلد فيه من هو أعلم منه؛ فهذا محمود غير مذموم ومأجور غير مأزور (٢٧).

وقال القرطبي: «قال ابن درباس: وقد أكثر أهل الزيغ القول على من تمسك بالكتاب والسنة أنهم مقلدون، وهذا خطأ منهم، بل هو بهم أليق، وبمذاهبيهم أخلق؛ إذ قبلوا قول ساداتهم وكبرائهم فيما خالفوا فيه كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة رضي الله عنهم، فكانوا داخلين فيمن ذمهم الله بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا﴾ إلى قوله: ﴿كَبِيرًا﴾ (٢٨) وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَآثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ ثم قال لنبيه: ﴿قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاؤُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿فَاتَّبَعْنَا مِنْهُمُ﴾ (٢٩) الآية. فبين تعالى أن الهدى فيما جاءت به رسله ﷺ، وليس قول أهل الأثر في عقائدهم: إنا وجدنا أئمتنا وآباءنا والناس على الأخذ بالكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح من الأمة من قولهم: إنا وجدنا آباءنا وأطعنا ساداتنا وكبراءنا بسبيل؛ لأن هؤلاء نسبوا ذلك إلى التنزيل، وإلى متابعة الرسول، وأولئك نسبوا إفكهم إلى أهل الأباطيل،

(٢) المائدة: الآية (١٠٤).

(٤) إعلام الموقعين (٢/ ١٨٧-١٨٨).

(٦) الزخرف: الآيات (٢٣-٢٥).

(١) الزخرف: الآيات (٢٣ و ٢٤).

(٣) النحل: الآية (٤٣).

(٥) الأحزاب: الآيات (٦٧ و ٦٨).

فازدادوا بذلك في التضليل . ألا ترى أن الله سبحانه أثنى على يوسف عليه السلام في القرآن حيث قال : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١٧) وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ (١) فلما كان آباؤه - عليه وعليهم السلام - أنبياء متبعين للوحي وهو الدين الخالص الذي ارتضاه الله - كان اتباعه آباءه من صفات المدح ، ولم يجرى فيما جاءوا به ذكر الأعراض وتعلقها بالجواهر وانقلابها فيها ، فدل على أن لا هدى فيها ، ولا رشد في واضعيها (٢) .

* * *

(١) يوسف : الآيتان (٣٧-٣٨) .

(٢) الجامع (٢/ ٢١٣) .

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكُمْ عَمًى فَهُمْ لَا يَهْتَفُونَ﴾ ﴿٧٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ثم ضرب لهم تعالى مثلاً كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾^(١) فقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: فيما هم فيه من الغي، والضلال، والجهل؛ كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعى بها راعبها أي: دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط، هكذا روي عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والربيع بن أنس نحو هذا. وقيل: إنما هذا مثل ضرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً. اختاره ابن جرير. والأول أولى لأن الأصنام لا تسمع شيئاً ولا تعقله ولا تبصره ولا بطش لها ولا حياة فيها. وقوله: ﴿صُمُّ بَكُمْ عَمًى﴾ أي: صم عن سماع الحق، بكم لا يفقهون به، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَفُونَ﴾ أي لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾.

قال القرطبي: «شبه تعالى واعظ الكفار وداعبهم - وهو محمد ﷺ - بالراعي الذي ينعى بالغنم والإبل فلا تسمع إلا دعاءً ونداءً، ولا تفهم ما يقول، هكذا فسر ابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي والزجاج والفراء وسيبويه؛ وهذه نهاية الإيجاز. قال سيبويه: لم يشبهوا بالناعق، إنما شبهوا بالمنعوق به، والمعنى: ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا؛ كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم فحذف للدلالة المعنى. وقال ابن زيد: المعنى مثل الذين كفروا في دعائهم

(١) النحل: الآية (٦٠).

(٣) تفسير القرآن (١/٣٥٩-٣٦٠).

(٢) الأنعام: الآية (٣٩).

الآلهة الجماد؛ كمثل الصائح في جوف الليل فيجيبه الصدى، فهو يصيح بما لا يسمع ويجيبه ما لا حقيقة فيه ولا منتفع. وقال قطرب: المعنى مثل الذين كفروا في دعائهم ما لا يفهم يعني الأصنام؛ كمثل الراعي إذا نعى بغنمه وهو لا يدري أين هي. قال الطبري: المراد مثل الكافرين في دعائهم ألتهتهم؛ كمثل الذي ينق بشيء بعيد، فهو لا يسمع من أجل البعد فليس للناقص من ذلك إلا النداء الذي يتعبه وينصبه. ففي هذه التأويلات الثلاثة يشبه الكفار بالناقص الصائح، والأصنام بالمنعوق به، والنعيق: زجر الغنم والصياح بها^(١).

قال ابن القيم: «تضمن هذا المثل ناعقاً أي مصوّتاً بالغنم وغيرها، ومنعوقاً به وهو الدواب، فليل: الناقع العابد وهو الداعي للصنم، والصنم هو المنعوق به المدعو، وإن حال الكافر في دعائه كحال من ينق بما لا يسمعه. هذا قول طائفة منهم عبد الرحمن بن زيد وغيره... وقيل: المعنى ومثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه مما يقول الراعي أكثر من الصوت، فالراعي هو داعي الكفار، والكفار هم البهائم المنعوق بها. قال سيبويه: المعنى ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا؛ كمثل الناقع والمنعوق به، وعلى قوله فيكون المعنى: ومثل الذين كفروا وداعيههم كمثل الغنم والناقص بها. ولك أن تجعل هذا من التشبيه المركب، وأن تجعله من التشبيه المفرق، فإن جعلته من المركب؛ كان تشبيهاً للكفار - في عدم فقههم وانتفاعهم - بالغنم التي ينق بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئاً غير الصوت المجرد الذي هو الدعاء والنداء. وإن جعلته من التشبيه المفرق فالذين كفروا بمنزلة البهائم، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى؛ بمنزلة الذي ينق بها، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعيق، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء؛ كإدراك البهائم مجرد صوت الناقع. والله أعلم^(٢).

وقال أيضاً: «وسواء كان المعنى: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتا مجردة، أو كان المعنى: ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذي ينق بها فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء؛ فالقولان متلازمان، بل هما واحد، وإن كان التقدير الثاني أقرب إلى اللفظ وأبلغ في

(١) الجامع (٢/ ٢١٤-٢١٥).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨٢-١٨٣).

المعنى . فعلى التقديرين : لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام ، فهو لاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يُميّز بها صاحبها عن سائر الحيوان»^(١) .

وقال شيخ الإسلام : «والقلب الحي المنور فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل . والقلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر ، قال تعالى : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمِيَ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢) وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا إِلَيْهِ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٤) الآيات . فأخبر أنهم لا يفقهون بقلوبهم ، ولا يسمعون بأذانهم ، ولا يؤمنون بما رأوه من النار ، كما أخبر عنهم حيث قالوا : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾^(٥) فذكروا الموانع على القلوب والسمع والأبصار ، وأبدانهم حية تسمع الأصوات وترى الأشخاص ؛ لكن حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم ، لها سمع وبصر ، وهي تأكل وتشرب وتنكح ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ فشبهم بالغنم الذي ينطق بها الراعي وهي لا تسمع إلا نداء ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٦) وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾^(٧) .

* * *

(٢) يونس : الآيتان (٤٢-٤٣) .

(٤) فصلت : الآية (٥) .

(٦) الأعراف : الآية (١٧٩) .

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٩٤-٢٩٥) .

(٣) الأنعام : الآية (٢٥) .

(٥) الفرقان : الآية (٤٤) .

(٧) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٠٣-١٠٤) .

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٢)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة كما جاء في الحديث»^(١).

وقال القنوجي: «هذا تأكيد للأمر الأول أعني قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي
الْأَرْضِ حَلْالًا طَيِّبًا﴾»^(٢) وإنما خص المؤمنين هنا؛ لكونهم أفضل أنواع الناس، قيل:
والمراد بالأكل الانتفاع. وقيل: المراد به الأكل المعتاد، وهو الظاهر. وقيل: إن
الأمر في ﴿كُلُوا﴾ قد يكون للوجوب، كالأكل لحفظ النفس ودفع الضر عنها، وقد
يكون للندب؛ كالأكل مع الضيف، وقد يكون للإباحة؛ إذا خلا من هذه
العوارض، وعن عمر بن عبد العزيز: أن المراد بما في الآية طيب الكسب، لا طيب
الطعام. وقال الضحاك: إنها حلال الرزق»^(٣).

قال السعدي: «هذا أمر للمؤمنين خاصة، بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم
المنتفعون -على الحقيقة- بالأوامر والنواهي، بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل
الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه، باستعمالها بطاعته، والتقوي بها على
ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾»^(٤).

فالشكر في هذه الآية، هو العمل الصالح، وهنا لم يقل: ﴿حَلْالًا﴾؛ لأن

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٦٠).

(٢) البقرة: الآية (١٦٨).

(٣) فتح البيان (١/ ٣٤٠).

(٤) المؤمنون: الآية (٥١).

المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَقْبُورُونَ﴾ أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله، لم يعبد وحده، كما أن من شكره فقد عبده، وأتى بما أمر به. ويدل أيضًا على أن أكل الطيب، سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر، عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة كما أن الكفر، ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة»^(١).

قال ابن القيم: «الذي حسن مجيء ﴿إِنْ﴾ ههنا الاحتجاج والإلزام، فإن المعنى: إن عبادتكم لله تستلزم شكركم له، بل هي الشكر نفسه، فإن كنتم ملتزمين لعبادته داخلين في جملتها؛ فكلوا من رزقه، واشكروه على نعمه. وهذا كثيرًا ما يورد في الحجاج، كما تقول للرجل: إن كان الله ربك وخالقك؛ فلا تعصه، وإن كان لقاء الله حقًا؛ فتأهب له، وإن كانت الجنة حقًا؛ فتزود إليها. وهذا أحسن من جواب من أجاب بأن ﴿إِنْ﴾ هنا قامت مقام إذا، وكذا قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِتَايَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) وكذا قولهم: إن كنت ابني فأطعني، ونظائر ذلك»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على الأكل من الطيبات

وأنه سبب لاستجابة الدعاء

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس! إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾»^(٤) وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب؛ ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟!»^(٥).

(١) التيسير (١/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٢) الأنعام: الآية (١١٨).

(٣) بدائع الفوائد (١/ ٤٨).

(٤) المؤمنون: الآية (٥١).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٨) ومسلم (٢/ ٧٠٣/ ١٠١٥) والترمذي (٥/ ٢٠٥/ ٢٩٨٩).

★ فوائد الحديث:

هذا الحديث أورده النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي أَرْبَعِينَئِهِ وَشَرَحَهُ الْإِمَامُ ابْنُ رَجَبٍ شَرْحًا مَاتَعًا أَخْصَ مَقَاصِدَهُ كَالَّتِي مَعَ إِضَافَاتٍ يَسِيرَةٍ.

قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ طِيبٌ»

قال ابن رجب: «والطيب هنا معناه الطاهر، والمعنى أنه تعالى مقدس منزّه عن النقائص والعيوب كلها، وهذا كما في قوله: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾^(١) والمراد: المنزهون من أدناس الفواحش وأوضارها»^(٢).

وقال القاضي عياض: «ومعنى تسمية الله بالطيب هنا أي: المنزه عن النقائص، بمعنى القدوس، وأصل الطيب الزكاة والطهارة والسلامة من الخبث»^(٣).

قوله: «لا يقبل إلا طيبًا»

اختلف في المراد من ذلك على أقوال:

أ - أن المراد أنه تعالى لا يقبل من الصدقات إلا ما كان طيبًا حلالًا، وقد ورد معناه في حديث الصدقة ولفظه: «لا يتصدق أحد بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبًا»^(٤).

ب - أن المراد أعم من ذلك، وهو أنه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان طيبًا طاهرًا من المفسدات كلها؛ كالرياء والعجب، ولا من الأموال إلا ما كان طيبًا حلالًا.

ج - أن المراد، أنه يدخل في ذلك الأقوال والأعمال والاعتقادات أيضًا، ووصف الله تعالى المؤمنين بالطيب بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ نُؤْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ﴾^(٥) وإن الملائكة تقول عند الموت: اخرجي أيتها النفس الطيبة التي كانت في الجسد

(١) النور: الآية (٢٦).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/٢٥٨-٢٥٩).

(٣) إكمال المعلم (٣/٥٣٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٤١٨/٢) والبخاري (٣/٣٥٤) ومسلم (٢/٧٠٢/١٠١٤) والترمذي (٣/٤٩/٦٦١)

والنسائي (٥/٦٠-٢٥٢٤) وابن ماجه (١/٥٩٠/١٨٤٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) النحل: الآية (٣٢).

الطيب^(١)، وإن الملائكة تسلم عليهم عند دخولهم الجنة، ويقولون: سلام عليكم طبتم...

فالمؤمن كله طيب: قلبه ولسانه وجسده، بما يسكن في قلبه من الإيمان، وظهر على لسانه من الذكر، وعلى جوارحه من الأعمال الصالحة التي هي ثمرة الإيمان، وداخلة في اسمه، فهذه الطيبات كلها يتقبلها الله ﷻ^(٢).

وقال ابن رجب: «وفي هذا الحديث إشارة إلى أنه لا يقبل العمل ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وأن أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قبوله، فإنه قال بعد تقريره: (إن الله لا يقبل إلا طيباً) إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

والمراد بهذا أن الرسل وأمهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالععمل الصالح، فما دام الأكل حلالاً، فالعمل صالح مقبول، فإذا كان الأكل غير حلال، فكيف يكون العمل مقبولاً؟

وما ذكره بعد ذلك من الدعاء، وأنه كيف يتقبل مع الحرام، فهو مثال لاستبعاد قبول الأعمال مع التغذية بالحرام^(٣).

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»^(٤).

★ غريب الحديث:

الأكلة: بالفتح المرة من الأكل وبالضم اللقمة.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وفيه دلالة على أن شكر النعمة - وإن قلت - سبب نيل رضا الله

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه: أحمد (٣٦٤/٢) والنسائي في الكبرى (١١٤٤٢/٤٤٣/٦) وابن ماجه (٢/١٤٢٣-١٤٢٤/٤٢٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢٥٩/١) بتصريف. (٣) جامع العلوم والحكم (١/٢٦٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/١١٧-١٠٠) ومسلم (٤/٢٠٩٥/٢٧٣٤) والترمذي (٤/٢٣٣/١٨١٦) وقال: «حديث حسن». والنسائي في الكبرى (٤/٢٠٢/٦٨٩٩).

تعالى؛ الذي هو أشرف أحوال أهل الجنة، وسيأتي قول الله ﷻ لأهل الجنة حين يقولون: أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: ما هو؟ ألم تبيض وجوهنا، وتدخلنا الجنة، وتزحزحنا عن النار؟، فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(١). وإنما كان الشكر سبباً لذلك الإكرام العظيم؛ لأنه يتضمن معرفة المنعم، وانفراده بخلق تلك النعمة، وبإيصالها إلى المنعم عليه، تفضلاً من المنعم، وكرماً، ومنة، وإن المنعم عليه فقير محتاج إلى تلك النعم، ولا غنى به عنها، فقد تضمن ذلك معرفة حق الله وفضله، وحق العبد وفاقته، وفقره، فجعل الله تعالى جزاء تلك المعرفة تلك الكرامة الشريفة^(٢).

وقال النووي: «وفيه استحباب حمد الله تعالى عقب الأكل والشرب، وقد جاء في البخاري صفة التحميد: «الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا»^(٣) وجاء غير ذلك، ولو اقتصر على الحمد لله؛ حصل أصل السنة»^(٤).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما شبع آل محمد ﷺ من طعام ثلاثة أيام حتى قبض^(٥).

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وأحاديث هذا الباب كلها، وإن اختلفت ألفاظها تدل على أن النبي ﷺ لم يكن يديم الشبع، ولا الترفه في العيش، لا هو ولا من حوَّته بيوته، ولا آله. بل: كانوا يأكلون ما حَسُنَ من المأكَل العلق، ويقتصرون منه على ما يسد الرمق، معرضين عن متاع الدنيا، مؤثرين ما يبقى على ما يفنى، ثم لم يزل كذلك حالهم مع إقبال الدنيا عليهم، واجتماعها بحذافيرها لديهم؛ إلى أن وصلوا إلى ما

(١) أخرجه أحمد (٨٨/٣) والبخاري (٥٠٦-٥٠٧/٥٥٤٩) ومسلم (٢١٧٦/٤/٢٨٢٩) والترمذي (٤/٥٩٥/٢٥٥٥) والنسائي في الكبرى (٤/٤١٦/٧٧٤٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) المفهم (٦١/٧).

(٣) أخرجه البخاري (٩/٧٢٣/٥٤٥٨) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٤) شرح مسلم (٤٢/١٧).

(٥) أحمد (٢/٤٣٤) والبخاري (٩/٦٤٦/٥٣٧٤) ومسلم (٤/٢٢٨٤/٢٩٧٦) والترمذي (٤/٥٠٠/٢٣٥٨).

طلبوا، وظفروا بما رغبوا فيه»^(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أصابني جهد شديد، فلقيت عمر بن الخطاب، فاستقرأته آية من كتاب الله، فدخل داره وفتحها علي، فمشيت غير بعيد فخررت لوجهي من الجهد والجوع، فإذا رسول الله ﷺ قائم على رأسي فقال: يا أبا هريرة! فقلت: لبيك رسول الله وسعديك، فأخذ بيدي فأقامني وعرف الذي بي، فانطلق بي إلى رحله فأمر لي بعس من لبن فشربت منه، ثم قال: عد فاشرب يا أبا هريرة! فعدت فشربت، ثم قال: عد، فعدت فشربت، حتى استوى بطني فصار كالقدح، قال فلقيت عمر وذكرت له الذي كان من أمري وقلت له: تولى ذلك من كان أحق به منك يا عمر، والله لقد استقرأتك الآية ولأنا أقرأ لها منك، قال عمر: والله لأن أكون أدخلتك أحب إلي من أن يكون لي مثل حمر النعم^(٢). وفي رواية للبخاري: «فما زال يقول: اشرب، حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق، ما أجد له مسلكًا»^(٣).

* غريب الحديث:

أصابني جهد: «وهو بالضم: الوسع والطاقة، وبالفتح: المشقة وقيل المبالغة والغاية، وهما لغتان في الوسع والطاقة، فأما في المشقة والغاية؛ فالفتح لا غير». وفتحها علي: أي قرأها علي وأفهمني إياها.

فأمر لي بعس: العسّ: القدح الكبير، وجمعه عساس وأعساس. فصار كالقدح: «أي انتصب بما حصل فيه من اللبن وصار كالسهم الذي لا ريش له، بعد أن كان لصق بظهره من الخلو».

حمر النعم: ساكن الميم كرائمها، وهو مثل في كل نفيس.

* فوائد الحديث:

قوله: (أصابني جهد شديد) أي من الجوع، «وفيه ما كان بعض الصحابة عليه في زمن النبي ﷺ من ضيق الحال»^(٤).

(٢) البخاري (٩/٦٤٦/٥٣٧٥).

(٤) الفتح (١١/٣٤٨).

(١) المفهم (٧/١٢٨-١٢٩).

(٣) البخاري (١١/٣٣٩/٦٤٥٢).

قال الحافظ : « وفيه جواز الشبع ولو بلغ أقصى غايته ؛ أخذنا من قول أبي هريرة (لا أجد له مسلکًا) ، وتقرير النبي ﷺ على ذلك ، خلافًا لمن قال بتحريمه ، وإذا كان ذلك في اللبن مع رفته ونفوذه فكيف بما فوقه من الأغذية الكثيفة ، لكن يحتمل أن يكون ذلك خاصًا بما وقع في تلك الحال فلا يقاس عليه . وقد أورد الترمذي عقب حديث أبي هريرة هذا حديث ابن عمر رفعه « أكثرهم في الدنيا شبعًا أطولهم جوعًا يوم القيامة »^(١) وقال : حسن . .

وفي الباب أيضًا حديث المقدام بن معد يكرب رفعه : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه »^(٢) الحديث أخرجه الترمذي أيضًا وقال حسن صحيح . ويمكن الجمع بأن يحمل الزجر على من يتخذ الشبع عادة لما يترتب على ذلك من الكسل عن العبادة وغيرها ، ويحمل الجواز على من وقع له ذلك نادرا ، ولا سيما بعد شدة جوع واستبعاد حصول شيء بعده عن قرب »^(٣) .

* * *

(١) الترمذي (٤/ ٥٦٠ / ٢٤٧٨) وابن ماجه (٢/ ١١١١-١١١٢ / ٣٣٥٠) وانظر الصحيحة (٣٤٣) .

(٢) أخرجه : أحمد (٤/ ١٣٢) والترمذي (٤/ ٥٠٩-٥١٠ / ٢٣٨٠) والنسائي في الكبرى (٤/ ١٧٧ / ٦٧٦٩) وابن ماجه (٢/ ١١١١ / ٣٣٤٩) .

(٣) الفتح (١١/ ٣٤٨) .

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

★ غريب الآية:

أهل: الإهلال في الذبيحة رفع الصوت بالتسمية، ومنه الإهلال بالحج: وهو رفع الصوت بالتلبية به.

اضطر: أكره. والاضطرار الإلجاء على غير رضا.

غير باغ: أي: غير متجاوز ما حد له. والبغي: تجاوز حد الاعتدال.

ولا عاد: أي: غير متجاوز ما يسد رمقه أو شبعه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾ الآية. ظاهر هذه الآية أن جميع أنواع الميتة والدم حرام، ولكنه بين في موضع آخر أن ميتة البحر خارجة عن ذلك التحريم وهو قوله: ﴿أَحْلَلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ﴾^(١) الآية. إذ ليس للبحر طعام غير الصيد إلا ميتته. وما ذكره بعض العلماء من أن المراد بطعامه قديده المجفف بالملح مثلاً، وأن المراد بصيده الطري منه؛ فهو خلاف الظاهر؛ لأن القديد من صيده، فهو صيد جعل قديداً. وجمهور العلماء على أن المراد بطعامه ميتته؛ منهم: أبو بكر الصديق، وزيد بن ثابت، وعبد الله ابن عمر، وأبو أيوب الأنصاري -رضي الله عنهم أجمعين- وعكرمة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري وغيرهم. كما نقله عنهم ابن كثير. وأشار في موضع آخر إلى أن غير المسفوح من الدماء ليس بحرام وهو قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾^(٢)، فيفهم منه أن غير المسفوح

(٢) الأنعام: الآية (١٤٥).

(١) المائدة: الآية (٩٦).

كالحمرة التي تعلقو القدر من أثر تقطيع اللحم ليس بحرام؛ إذ لو كان كالمسفوح لما كان في التقييد بقوله: ﴿مَسْفُوحًا﴾ فائدة.

وقد جاء عن النبي ﷺ: أن الله أحل له ولأمته ميتتين ودمين، أما الميتتان: فالسمك والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال..

وعنه ﷺ في البحر: «هو الحل ميتته».. وظاهر عموم هذا الحديث وعموم قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُهُمْ﴾؛ يدل على إباحة ميتة البحر مطلقاً. وقد ثبت عنه ﷺ في الحديث المتفق عليه «أنه أكل من العنبر»^(١)، وهو حوت ألقاه البحر ميتاً وقصته مشهورة^(٢).

قال ابن كثير: «ولما امتن تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيبه؛ ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حتف أنفها، من غير تذكية، وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة أو عدا عليها السبع، وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر، لقوله تعالى: ﴿أَحْلَلْ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ على ما سيأتي إن شاء الله. وحديث العنبر في الصحيح، وفي المسند والموطأ والسنن قوله ﷺ في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»^(٣) وروى الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني حديث بن عمر مرفوعاً: «أحل لنا ميتتان ودمان السمك والجراد، والكبد والطحال»^(٤)...

* مسألة: ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره؛ لأنه جزء منها. وقال مالك في رواية: هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة، وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف، والمشهور عندهم أنها نجسة، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس. فقال القرطبي في التفسير: ههنا يخالط اللبن منها يسير، ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع... وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير، سواء ذكي أم مات حتف أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه؛ إما تغليباً أو أن اللحم يشمل ذلك، أو بطريق القياس على رأي. وكذلك حرم عليهم ما أهل به لغير

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٠٩-٣١٠) والبخاري (٩/٧٦٧/٥٤٩٤) ومسلم (٣/١٥٣٥/١٩٣٥) والنسائي (٧/

٢٣٧/٤٣٦٣) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) سيأتي تخريجه في الباب نفسه.

(٤) سيأتي تخريجه في الباب نفسه.

(٢) أضواء البيان (١/٩٠-٩١).

الله، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك، مما كانت الجاهلية ينحرون له. وذكر القرطبي عن ابن عطية: أنه نقل عن الحسن البصري أنه سئل عن امرأة عملت عرساً للعبها، فنحرت فيه جزوراً، فقال: لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم. وأورد القرطبي عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين؟ فقالت: ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه وكلوا من أشجارهم. ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: في غير بغى ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد ﴿فَلَا إِنَّمْ عَلَيْهِ﴾ أي: في أكل ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقال مجاهد: فمن اضطر غير باغ ولا عاد قاطعاً للسبيل أو مفارقاً للأئمة أو خارجاً في معصية الله؛ فله الرخصة، ومن خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله؛ فلا رخصة له وإن اضطر إليه، وكذا روي عن سعيد بن جبير. وقال سعيد في رواية عنه ومقاتل ابن حيان: غير باغ يعني: غير مستحله. وقال السدي: غير باغ يبتغي فيه شهوته. وقال آدم بن أبي إياس: حدثنا ضمرة عن عثمان بن عطاء وهو الخراساني عن أبيه قال: لا يشوي من الميتة ليشتهيها ولا يطبخه ولا يأكل إلا العلقه، ويحمل معه ما يبلغه الحلال فإذا بلغه ألقاه. وهو قوله: ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ويقول: لا يعدو به الحلال. وعن ابن عباس: لا يشبع منها. وفسره السدي بالعدوان. وعن ابن عباس: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: غير باغ في الميتة ولا عاد في أكله. وقال قتادة: فمن اضطر غير باغ ولا عاد؛ غير باغ في الميتة أي: في أكله أن يتعدى حلالاً إلى حرام وهو يجد عنه مندوحة. وحكى القرطبي عن مجاهد في قوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ أي: أكره على ذلك بغير اختياره^(١).

قال ابن عاشور: «ذلك أن الإذن بأكل الطيبات؛ يثير سؤال من يسأل ما هي الطيبات؟ فجاء هذا الاستئناف مبيناً المحرمات، وهي أضداد الطيبات، لتعرف الطيبات بطريق المضادة المستفادة من صيغة الحصر، وإنما سلك طريق بيان ضد الطيبات للاختصار؛ فإن المحرمات قليلة، ولأن في هذا الحصر تعريضاً بالمشركين الذين حرموا على أنفسهم كثيراً من الطيبات وأحلوا الميتة والدم، ولما

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٠-٣٦٢).

كان القصر هنا حقيقياً لأن المخاطب به هم المؤمنون وهم لا يعتقدون خلاف ما يشرع لهم؛ لم يكن في هذا القصر قلب اعتقاد أحد، وإنما حصل الرد به على المشركين بطريقة التعريض^(١).

قال القرطبي: «هذه الآية عامة دخلها التخصيص بقوله ﷺ: «أحلت لنا ميتتان: الحوت والجراد، ودمان: الكبد والطحال». أخرجه الدارقطني، وكذلك حديث جابر في العنبر، يخصص عموم القرآن بصحة سنده. أخرجه البخاري ومسلم مع قوله تعالى: ﴿أَحْلَلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ﴾^(٢). . . وأكثر أهل العلم: على جواز أكل جميع دواب البحر حيها وميتها، وهو مذهب مالك. وتوقف أن يجيب في خنزير الماء، وقال: أنتم تقولون خنزيراً! قال ابن القاسم: وأنا أتقيه ولا أراه حراماً. . . وقد يستدل على تخصيص هذه الآية أيضاً بما في صحيح مسلم من حديث عبد الله ابن أبي أوفى قال: (غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، كنا نأكل الجراد معه)^(٣). وظاهره: أكله كيف ما مات بعلاج أو حتف أنفه، وبهذا قال ابن نافع وابن عبدالحكم وأكثر العلماء، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما. ومنع مالك وجمهور أصحابه من أكله إن مات حتف أنفه؛ لأنه من صيد البر، ألا ترى أن المحرم يجزئه إذا قتله، فأشبه الغزال. وقال أشهب: إن مات من قطع رجل أو جناح لم يؤكل؛ لأنها حالة قد يعيش بها وينسل. . .

واختلف العلماء: هل يجوز أن ينتفع بالميتة أو بشيء من النجاسات؟ واختلف عن مالك في ذلك أيضاً، فقال مرة: يجوز الانتفاع بها؛ لأن النبي ﷺ مر على شاة ميمونة فقال: «هلا أخذتم إهابها»^(٤) الحديث. وقال مرة: جملتها محرم، فلا يجوز الانتفاع بشيء منها، ولا بشيء من النجاسات على وجه من وجوه الانتفاع، حتى لا يجوز أن يسقى الزرع ولا الحيوان الماء النجس، ولا تعلق البهائم النجاسات، ولا تطعم الميتة الكلاب والسباع، وإن أكلتها لم تمنع. ووجه

(١) التحرير (٢/ ١١٥).

(٢) المائدة: الآية (٩٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٣) والبخاري (٩/ ٧٧٤/ ٥٤٩٥) ومسلم (٣/ ١٥٤٦/ ١٩٥٢) وأبو داود (٤/ ١٦٤/ ٣٨١٢) والترمذي (٤/ ٢٣٦/ ١٨٢١-١٨٢٢) والنسائي (٧/ ٢٣٩/ ٤٣٦٧) من حديث عبد الله بن أبي أوفى.

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ٤٥٣/ ١٤٩٢) ومسلم (١/ ٢٧٧/ ٣٦٥) وأبو داود (٤/ ٣٦٦/ ٤١٢١) والنسائي (٧/ ١٩٣-٤٢٤٦/ ١٩٤) وابن ماجه (٢/ ١١٩٣/ ٣٦١٠) من طرق عن ابن عباس.

هذا القول ظاهر قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ﴾^(١) ولم يخص وجهًا من وجهه، ولا يجوز أن يقال: هذا الخطاب مجمل؛ لأن المجمل ما لا يفهم المراد من ظاهره، وقد فهمت العرب المراد من قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾، وأيضًا فإن النبي ﷺ قال: «لا تنتفعوا من الميتة بشيء». وفي حديث عبد الله بن عكيم: «لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب»^(٢).

فأما الناقة إذا نحرت، أو البقرة أو الشاة إذا ذبحت، وكان في بطنها جنين ميت فجائز أكله من غير تذكية له في نفسه، إلا أن يخرج حيًّا فيذكي، ويكون له حكم نفسه، وذلك أن الجنين إذا خرج منها بعد الذبح ميتا جرى مجرى العضو من أعضائها. ومما يبين ذلك أنه لو باع الشاة واستثنى ما في بطنها لم يجز، كما لو استثنى عضوا منها، وكان ما في بطنها تابعًا لها كسائر أعضائها. وكذلك لو أعتقها من غير أن يوقع على ما في بطنها عتقا مبتدأ، ولو كان منفصلًا عنها لم يتبعها في بيع ولا عتق. وقد روى جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن البقرة والشاة تذبح، والناقة تنحر فيكون في بطنها جنين ميت، فقال: «إن شئتم فكلوه لأن ذكاته ذكاة أمه»^(٣)^(٤).

وقال: «قوله تعالى: ﴿وَلَحِمَ الْخَنزِيرِ﴾ خص الله تعالى ذكر اللحم من الخنزير؛ ليدل على تحريم عينه ذكي أو لم يذك، وليعم الشحم وما هنالك من الغضاريف وغيرها.

أجمعت الأمة على تحريم شحم الخنزير. وقد استدل مالك وأصحابه على أن من حلف ألا يأكل شحما فأكل لحما لم يحنث بأكل اللحم. فإن حلف ألا يأكل لحما فأكل شحما حنث لأن اللحم مع الشحم يقع عليه اسم اللحم، فقد دخل

(١) المائدة: الآية (٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣١٠/٤) وأبو داود (٣٧٠-٣٧١/٤) والترمذي (١٧٢٩/٤) وقال: «حديث حسن». والنسائي (١٩٧-١٩٨/٧) وابن ماجه (٤٢٦٠-٤٢٦٢/٢) وصححه ابن حبان (١٢٧٩-١٢٧٧/٩٥-٩٣/٤).

(٣) أخرجه أحمد (٣١/٣) وأبو داود (٢٥٢-٢٥٣/٣) والترمذي (١٤٧٦/٦٠/٤) وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه (٣١٤٩/١٠٦٧/٢) وصححه ابن حبان (٥٨٨٩/٢٠٧-٢٠٦/١٣) من حديث أبي سعيد.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢١٧-٢١٨/٢).

الشحم في اسم اللحم ولا يدخل اللحم في اسم الشحم . وقد حرم الله تعالى لحم الخنزير فناب ذكر لحمه عن شحمه ؛ لأنه دخل تحت اسم اللحم»^(١).

وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَضْطَرُّ﴾ الاضطرار لا يخلو أن يكون بإكراه من ظالم أو بجوع في مخمصة . والذي عليه الجمهور من الفقهاء والعلماء في معنى الآية هو من صيره العدم والغرث وهو الجوع إلى ذلك ، وهو الصحيح . وقيل : معناه أكره وغلب على أكل هذه المحرمات . قال مجاهد : يعني أكره عليه كالرجل يأخذه العدو فيكرهونه على أكل لحم الخنزير وغيره من معصية الله تعالى ، إلا أن الإكراه يبيح ذلك إلى آخر الإكراه .

وأما المخمصة فلا يخلو أن تكون دائمة أو لا ، فإن كانت دائمة فلا خلاف في جواز الشبع من الميتة ، إلا أنه لا يحل له أكلها وهو يجد مال مسلم لا يخاف فيه قطعاً ، كالتمر المعلق وحريسة الجبل ، ونحو ذلك مما لا قطع فيه ولا أذى . وهذا مما لا اختلاف فيه . .

قال أبو عمر : وجملته القول في ذلك : أن المسلم إذا تعين عليه ردّ رمق مهجة المسلم ، وتوجه الفرض في ذلك بألا يكون هناك غيره قضى عليه بترميم تلك المهجة الآدمية . وكان للممنوع منه ما له من ذلك محاربة من منعه ومقاتلته ، وإن أتى ذلك على نفسه ، وذلك عند أهل العلم إذا لم يكن هناك إلا واحد لا غير ، فحينئذ يتعين عليه الفرض . فإن كانوا كثيراً أو جماعة وعدداً كان ذلك عليهم فرضاً على الكفاية . والماء في ذلك وغيره مما يرد نفس المسلم ويمسكها سواء . إلا أنهم اختلفوا في وجوب قيمة ذلك الشيء على الذي ردت به مهجته ورمق به نفسه ، فأوجبها موجبون ، وأبأها آخرون ، وفي مذهبنا القولان جميعاً . ولا خلاف بين أهل العلم متأخريهم ومتقدميهم في وجوب رد مهجة المسلم عند خوف الذهاب والتلف بالشيء اليسير الذي لا مضرة فيه على صاحبه وفيه البلغة»^(٢).

قوله : ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ﴾ يَعْنِي اللَّهَ قال الشوكاني : «والمراد هنا : ما ذكر عليه اسم غير الله كاللات والعزى ، إذا كان الذابح وثنيّاً ، والنار إذا كان الذابح مجوسياً . ولا خلاف في تحريم هذا وأمثاله ، ومثله ما يقع من المعتقدين للأموات من الذبح

(١) الجامع (٢/ ٢٢٢).

(٢) الجامع (٢/ ٢٢٥-٢٢٦).

على قبورهم، فإنه مما أهل به لغير الله، ولا فرق بينه وبين الذبح للوثن»^(١).

قال ابن القيم: «ومن أمثلة العدوان: تجاوز ما أبيح من الميتة للضرورة إلى ما لم يباح منها، إما بأن يشبع، وإنما أبيح له سد الرمق، على أحد القولين في مذهب أحمد والشافعي وأبي حنيفة، وأباح مالك له الشبع والتزود إذا احتاج إليه، فإذا استغنى عنها وأكلها واقياً لماله، وبخلا عن شراء المذكي ونحوه؛ كان تناولها عدواناً، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال قتادة والحسن: لا يأكلها من غير اضطرار، ولا يعدو شبعه. وقيل: غير باغ؛ غير طالبها وهو يجد غيرها، ولا عاد؛ أي: لا يتعدى ما حد له منها فيأكل حتى يشبع، ولكن سد الرمق. وقال مقاتل: غير مستحل لها ولا متزود منها. وقيل: لا ينبغي بتجاوز الحد الذي حد له منها، ولا يتعدى بتقصيره عن تناوله حتى يهلك، فيكون قد تعدى حد الله بمجاوزته أو التقصير عنه فهذا آثم وهذا آثم. وقال مسروق: من اضطر إلى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل ولم يشرب حتى مات دخل النار، وهذا أصح القولين في الآية»^(٢).

قال السعدي: «ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات؛ ذكر تحريم الخبائث فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ وهي: ما مات بغير تذكية شرعية؛ لأن الميتة خبيثة مضرة، لردائها في نفسها، ولأن الأغلب، أن تكون عن مرض، فيكون زيادة مرض، واستثنى الشارع من هذا العموم ميتة الجراد، وسماك البحر؛ فإنه حلال طيب.

﴿وَالْدَّمَ﴾ أي: المسفوح كما قيد في الآية الأخرى. ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: ذبح لغير الله، كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار، والقبور ونحوها، وهذا المذكور غير خاص للمحرمات، جيء به لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله: ﴿طَيِّبَاتٍ﴾ فعموم المحرمات، تستفاد من الآية السابقة، من قوله: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ كما تقدم.

وإنما حرم علينا هذه الخبائث ونحوها، لطفاً بنا، وتنزيهاً عن المضر، ومع هذا ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ أي: ألجئ إلى المحرم، بجوع وعدم، أو إكراه، ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي:

(١) فتح القدير (١/ ٢٥١).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٦٩-٣٧٠).

غير طالب للمحرم، مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيح له اضطرارًا، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها، ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: جناح عليه، وإذا ارتفع الجناح الإثم رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة، مأمور بالأكل، بل منهى أن يلقي بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه. فيجب، إذاً عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلاً لنفسه.

وهذه الإباحة والتوسعة، من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. ولما كان الحل مشروطًا بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة، ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها؛ أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصاً وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة. وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: «الضرورات تبيح المحظورات» فكل محظور، اضطر إليه الإنسان، فقد أباحه له، الملك الرحمن. فله الحمد والشكر، أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة من تقييد مطلق القرآن،

وتخصيص عمومه، وتفسير مجمله

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قوله: «أحلت لنا»

قال الصنعاني: «يدل على حل ميتة الجراد على أي حال وجدت، فلا يعتبر في

(١) التيسير (١/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٩٧/٢) وابن ماجه (١١٠١-١١٠٢/٢) وأخرجه البيهقي (٢٥٤/١) موقوفاً وقال: «هذا إسناد صحيح، وهو في معنى المسند...». ومرفوعاً أيضاً وقال: «... إلا أن الصحيح من هذا الحديث هو الأول» يعني الموقوف.

الجراد شيء، سواء مات حتف أنفه أو بسبب .

والحديث حجة على من اشترط موتها بسبب آدمي، أو بقطع رأسها، وإلا حرمت . وكذلك يدل على حل ميتة الحوت على أي صفة وجد، طافيا كان أو غيره لهذا الحديث، وحديث «الحل ميتته»^(١) .

* عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال : قدم النبي ﷺ المدينة وهم يجبون أسنمة الإبل ويقطعون أليات الغنم، فقال : «ما قطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة»^(٢) .

★ غريب الحديث:

يجبون : الجَبَّ بفتح الجيم : القطع .

أسنمة : جمع سنام بفتح السين ، وسنام كل شيء أعلاه .

أليات : جمع ألية كسجدة وسجدات ، وهي : العجيزة ، أو ما ركب العجز من شحم ولحم .

★ فوائد الحديث:

قال ابن حزم : «وما قطع من البهيمة وهي حية أو قبل تمام تذكيته فبان عنها ؛ فهو ميتة لا يحل أكله ، فإن تمت الذكاة بعد قطع ذلك الشيء أكلت البهيمة ، ولم تؤكل تلك القطعة ، وهذا ما لا خلاف فيه : لأنها زالمت البهيمة وهي حرام أكلها ، فلا تقع عليها ذكاة كانت بعد مفارقتها لما قطعت منه»^(٣) .

وقال الخطابي رحمته الله : «هذا في لحم البهيمة وأعضائها المتصلة ببدنها ، دون الصوف المستخلف والشعر ونحوه . وكذلك هذا في الكلب يرسله فينتف من الصيد نتفة قبل أن يزهرق نفسه ، أو تصيبه الرمية فيكسر عنه عضواً وهو حي ؛ فإن ذلك كله محرم ؛ لأنه بان من البهيمة وهي حية فصار ميتة ، فأما إذا فصده نصفين ، فإنه بمنزلة الذكاة له ويؤكلان جميعاً»^(٤) .

(١) سبل السلام (١/١٦٤) .

(٢) أخرجه : أحمد (٢١٨/٥) وأبو داود (٢٧٧/٣) والترمذي (١٤٨٠/٤/٦٢) . وقال : «حسن غريب» .

وصححه الحاكم (٢٣٩/٤) ووافقه الذهبي .

(٣) المعالم (٤/٢٧٢) .

(٤) المحلى (٧/٤٤٩) .

وقال شيخ الاسلام رحمه الله: «فلو كان الشعر جزءاً من الحيوان؛ لما أبيع أخذه في حال الحياة، فإن النبي ﷺ سئل عن قوم يجبون أسنمة الإبل وأليات الغنم؟ فقال: «ما أبين من البهيمة وهي حية فهو ميت» رواه أبو داود وغيره. وهذا متفق عليه بين العلماء، فلو كان حكم الشعر حكم السنام والألية لما جاز قطعه في حال الحياة، ولا كان طاهراً حلالاً، فلما اتفق العلماء على أن الشعر والصوف إذا جز من الحيوان كان طاهراً حلالاً؛ علم أنه ليس مثل اللحم»^(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سأل رجل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قوله ﷺ: «الحل ميتته»

قال الخطابي: «وفيه دليل على أن السمك الطافي حلال، وأنه لا فرق بين ما كان موته في الماء، وبين ما كان موته خارج الماء من حيوانه.

وفيه مستدل لمن ذهب إلى أن حكم جميع أنواع الحيوان التي تسكن البحر -إذا ماتت فيه-؛ الطهارة، وذلك بقضية العموم، إذ لم يستثن نوعاً منها دون نوع»^(٣).

قال الشوكاني: «فيه دليل على حل جميع حيوانات البحر حتى كلبه وخنزيره وثعبانه، وهو المصحح عند الشافعية»^(٤).

* * *

(١) الفتاوى (٩٨/٢١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢٣٧/٢) وأبو داود (٨٣/٦٤/١) والترمذي (٦٩/١٠١/١) وقال: «حسن صحيح».

والنسائي (٥٩/٥٣/١) وابن ماجه (٣٨٦/١٣٦/١).

(٣) المعالم (٣٨/١).

(٤) النيل (١٦/١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٦)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ﴾ يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة؛ فكتموا ذلك لثلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم؛ فخشوا -لعنهم الله- إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم؛ فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل من ذلك، وهو نزر يسير، فباعوا أنفسهم بذلك، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات، والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، وباءوا بغضب على غضب، وذمهم الله في كتابه في غير موضع، فمن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ﴾ وهو عرض الحياة الدنيا ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أي: إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق؛ نارا تأجج في بطونهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَتَتْنِ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(١) وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم»^(٢) وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ

(١) النساء: الآية (١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣٠١/٦) والبخاري (٥٦٣٤/١١٨/١٠) ومسلم (٢٠٦٥/١٦٣٤/٣) والنسائي في الكبرى (٤/

٦٨٧٣/١٩٦) وابن ماجه (٣٤١٣/١١٣٠/٢) من حديث أم سلمة ؓ.

الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم ؛ لأنهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب ، فلا ينظر إليهم ولا يزكيهم ؛ أي : يشني عليهم ويمدحهم ، بل يعذبهم عذاباً أليماً^(١) .

قال ابن جرير : « يعني - تعالى ذكره - بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ هؤلاء الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب في شأن محمد ﷺ بالخسيس من الرشوة يعطونها ، فيحرفون لذلك آيات الله ويغيرون معانيها ، ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ بأكلهم ما أكلوا من الرشا على ذلك والجمالة وما أخذوا عليه من الأجر ﴿إِلَّا النَّارَ﴾ ، يعني إلا ما يوردهم النار ويصلبهموها ، كما قال - تعالى ذكره - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ معناه : ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوردهم النار بأكلهم . فاستغنى بذكر النار . وفهم السامعين معنى الكلام عن ذكر ما يوردهم أو يدخلهم . .

وأما قوله : ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يقول : ولا يكلمهم بما يحبون وما يشتهون ، فأما بما يسوؤهم ويكرهون ؛ فإنه سيكلمهم ؛ لأنه قد أخبر - تعالى ذكره - أنه يقول لهم إذا قالوا : ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿٢﴾ قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾^(٢) الآيتين .

وأما قوله : ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ فإنه يعني : ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم وكفرهم ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني موجع^(٣) .

قال القاسمي : « ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي من حدوده وأحكامه ، وغير ذلك مما أشارت إليه الآية الأولى : بالبينات والهدى ، ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ﴾ أي : يأخذون بدله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي : مما يتمتعون به من لذات العاجلة ، وقلة لحقارته في نفسه ، ففيه إشعار بدناءة نفوسهم ، حيث رضيت بالقليل ، أو بالنسبة لما فوّتوه على أنفسهم من نعيم الآخرة ، الذي لا يحاط بوصفه ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أي : ما يستتبع النار ويستلزمها ، فكأنه عين النار ، وأكله أكلها ، و﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ في بطونهم متعلق ب﴿يَأْكُلُونَ﴾ يأكلون وفائدته : تأكيد الأكل وتقديره

(١) تفسير ابن كثير (١/٣٦٣) .

(٢) المؤمنون : الآيتان (١٠٧-١٠٨) .

(٣) جامع البيان (٢/٨٩-٩٠) .

بيان مقرّ المأكول . قال الراغب : أكل النار تناول ما يؤدي إليها ، وذكر الأكل لكونه المقصود الأول بتحصيل المال ، وذكر في بطونهم تنبيها على شرهم ، وتقبيحا لتضييع أعظم النعم لأجل الطعم الذي هو أحسن تناول من الدنيا ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ قال الراغب : لم يعن نفي الكلام رأسا ، فقد قال : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١) وقال : ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ﴾^(٢) وإنما أراد كلاما يقتضي جدوى ، ولهذا قال الحسن : معناه يغضب عليهم تنبيها أنهم بخلاف من قال فيهم : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾^(٣) . وقيل : حقيقة كلمته حملته على الكلام ، نحو حرّته ؛ لأن من كلمته فقد استدعيت كلامه ، فكأنه قيل : لا يستدعي كلامهم ، نحو قوله : ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ﴾^(٤) . ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي : يطهرهم من دنس الذنوب لغضبه عليهم ؛ لأنهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي : مؤلم^(٥) .

قال شيخ الإسلام : «وقد ذم الله في كتابه الذين يكتُمون ما أنزل الله من البينات والهدى ، وهؤلاء يختارون كتمان ما أنزله الله ؛ لأنه معارض لما يقولونه ، وفيهم جاء الأثر المعروف عن عمر قال : (إياكم وأصحاب الرأي ؛ فإنهم أعداء السنن ، أعتيهم السنن أن يحفظوها ، وتفلت منهم أن يعوها ، وسئلوا فقالوا في الدين برأيهم) فذكر أنهم أعداء السنن . وبالجمله فكل من أبغض شيئا من الكتاب والسنة ففيه من عداوة النبي ﷺ بحسب ذلك ، وكذلك من أحب ذلك ففيه من الولاية بحسب ذلك»^(٦) .

قال السعدي : «هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله ، من العلم الذي أخذ الله الميثاق على أهله أن يبينوه للناس ولا يكتُموه ، فمن تعوض عنه بالحطام الدنيوي ، ونبذ أمر الله ، ف﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه ، إنما حصل لهم بأقبح المكاسب ، وأعظم المحرمات ، فكان جزاؤهم من جنس عملهم ، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم ، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار ، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي :

(١) الأعراف : الآية (٦) .

(٢) الكهف : الآية (٥٢) .

(٣) الأحزاب : الآية (٤٤) .

(٤) المرسلات : الآية (٣٦) .

(٥) محاسن التأويل (٣/ ٤٤-٤٥) .

(٦) درء التعارض (٥/ ٢١٩) .

لا يظهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله، والاهتداء به، والدعوة إليه»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان بعض الذين لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم (قال أبو معاوية: ولا ينظر إليهم) ولهم عذاب أليم: شيخ زان، ومملك كذاب، وعائل مستكبر»^(٢).

* عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم» قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار. قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»^(٣).

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالفلاة يمنع من ابن السبيل، ورجل بايع رجلاً بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه، وهو على غير ذلك. ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وفى، وإن لم يعطه منها لم يف»^(٤).

★ غريب الحديث:

المسبل: هو المرخي إزاره، الجار طرفه خيلاء.

عائل: هو الفقير.

(١) التيسير (١/٢٠٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٤٨٠) ومسلم (١/١٠٢-١٠٣/١٠٧) والنسائي (٥/٩١/٢٥٧٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/١٤٨) ومسلم (١/١٠٢/١٠٦) وأبو داود (٤/٣٤٦-٣٤٧/٤٠٨٧) والترمذي (٣/٥١٦/١٢١١) والنسائي (٥/٨٥/٢٥٦٢) وابن ماجه (٢/٧٤٤-٧٤٥/٢٢٠٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/٢٥٣) والبخاري (٥/٥٥/٢٣٦٩) ومسلم (١/١٠٣/١٠٨) والنسائي (٧/٢٨٣/٤٤٧٤) وابن ماجه (٢/٧٤٤/٢٢٠٧).

* فوائد الأحاديث:

قال القاضي عياض: «خص هؤلاء الثلاثة باليم العذاب وعقوبة الإبعاد؛ للالتزام كل واحد منهم المعصية التي ذكر على بعدها منه، وعدم ضرورته إليها، وضعف دواعيها عنده، وإن كان لا يعذر أحد بذنب، ولا في معصيته الله تعالى، لكن لما لم تدعهم إلى هذه المعاصي ضرائر مزعجة، ولا دواع معتادة، ولا حملتهم عليها لأسباب لازمة؛ أشبه إقدامهم عليها المعاندة، والاستخفاف بحق المعبود، محضاً، وقصد معصيته لا لغير معصيته، فإن الشيخ مع كمال عقله، وإعذار الله له في عمره، وكثرة معرفته بطول ما مر عليه من زمنه، وضعف أسباب الجماع، والشهوة للنساء، واختلال دواعيه لذلك، وبرد مزاجه، وإخلاق جديده، وعنده من ذلك ما يريحه من دواعي الحلال في هذا الباب من ذاته، ويخلي سره منه بطبيعته، فكيف بالزنا الحرام؟! إذ دواعي ذلك الكبرى الشباب، وحرارة الغريزة، وقلة المعرفة، وغلبة الشهوة بضعف العقل، وصغر السن.

وكذلك الإمام لا يخشى من أحد من رعيته، ولا يحتاج إلى مDAHنته ومصانعته، إذ إنما يداهن الإنسان ويصانع بالكذب وشبهه من يحذره ويخشى معاقبته أو أذاه ومعاتبته أو يطلب عنده بذلك منزلة أو منفعة، فهو غني عن الكذب جملة.

وكذلك العائل الفقير، قد عدم بعدمه المال ولعاعة الدنيا سبب الفخر، والخيلاء، والاستكبار على القرناء، إذ إنما يكون ذلك بأسباب الدنيا، والظهور فيها وحاجات أهلها إليه، فإذا لم يكن عنده أسبابها فلماذا يستكبر ويستحقر غيره؟ فلم يبق إلا أن في استكبار هذا، وكذب الثاني وزنا الثالث، ضرباً من الاستخفاف بحق الله تعالى، ومعاندة نواهيه، وأوامره، وقلة الخوف من وعيده؛ إذ لم يبق ثم حامل لهم على هذا سواه، مع سبق القدر لهم بالشقاء»^(١).

قال الطيبي: «والحاصل من المجموع عدم المبالاة بالغير وإيثار نفسه عليه، ولذلك يجازيه الله تعالى بعدم المبالاة والالتفات إليه، كما لوح ﷺ بقوله: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة» إلى آخره. فإن قلت: مرتبة الجزاء أن يؤخر عن الفعل، فلم قدم ذكره في الحديث؟ قلت: ليفخم شأنه ويهول أمر مرتكبيه في خلد السامع، فيذهب بنفسه كل مذهب، ومن ثم قال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم؟»^(٢).

(١) إكمال المعلم (١/ ٣٨٣-٣٨٤).

(٢) شرح الطيبي (٧/ ٢١١٧).

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أي: اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم. ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أي اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة. وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ يخبر تعالى أنهم في عذاب شديد عظيم هائل، يتعجب من رأيهم فيها من صبرهم على ذلك مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال؛ عيادًا بالله من ذلك. وقيل: معنى قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أي فما أدومهم لعمل المعاصي التي تفضي بهم إلى النار. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي إنما استحقوا هذا العذاب الشديد؛ لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوا، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفته، فاستهزؤوا بآيات الله المنزلة على رسله، فلهذا استحقوا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (١).

قال البقاعي: «لما جعل ﷺ أول ما كلهم نارًا، وآخر أمرهم عذابًا، وترجمة

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٣٦٤).

حالهم عدم المغفرة؛ فكان بذلك أيضًا أوسط حالهم نازًا، سبب عنه التعجب من أمرهم بحبسهم أنفسهم في ذلك الذي هو معنى الصبر، لالتباسهم بالنار حقيقة، أو بموجباتها من غير مبالاة فقال: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ﴾ أي: ما أشدّ حبسهم أنفسهم، أو ما أجراًهم على النار التي أكلوها في الدنيا، فأحسوا بها في الأخرى^(١).

قال ابن عاشور: «ومعنى اشتراء الضلالة بالهدى في كتمان الكتاب؛ أن كل آية أخفوها أو أفسدوها بالتأويل فقد ارتفع مدلولها المقصود منها، وإذا ارتفع مدلولها نسي العمل بها، فأقدم الناس على ما حذرتهم منه، ففي كتمانهم حقّ رفع، وباطل وضع.

ومعنى اشتراء العذاب بالمغفرة؛ أنهم فعلوا ذلك الكتمان عن عمد وعلم بسوء عاقبته، فهم قد رضوا بالعذاب، وإضاعة المغفرة فكأنهم استبدلوا بالمغفرة العذاب..

وقوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ تعجب من شدة صبرهم على عذاب النار، ولما كان شأن التعجب أن يكون ناشئاً عن مشاهدة صبرهم على العذاب، وهذا الصبر غير حاصل في وقت نزول هاتِهِ الآية؛ بنى التعجب على تنزيل غير الواقع منزلة الواقع لشدة استحضار السامع إياه بما وصف به من الصفات الماضية، وهذا من طرق جعل المحقق الحصول في المستقبل بمنزلة الحاصل، ومنه التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، وتنزيل المتخيل منزلة الشاهد^(٢).

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما وصف علماء اليهود بكتمان الحق، وعظم في الوعيد عليه؛ وصف ذلك الجرم ليعلم أن ذلك العقاب إنما عظم لهذا الجرم العظيم، واعلم أن الفعل إما أن يعتبر حاله في الدنيا أو في الآخرة، أما في الدنيا فأحسن الأشياء الاهتداء والعلم، وأقبح الأشياء الضلال والجهل، فلما تركوا الهدى والعلم في الدنيا، ورضوا بالضلال والجهل؛ فلا شك أنهم في نهاية الخيانة في الدنيا. وأما في الآخرة فأحسن الأشياء المغفرة، وأخسرها العذاب، فلما تركوا المغفرة ورضوا بالعذاب فلا شك أنهم في نهاية الخسارة في الآخرة، وإذا كانت صفتهم على ما ذكرناها؛ كانوا لا محالة أعظم الناس خساراً في الدنيا وفي الآخرة،

(١) نظم الدرر (٢/٣٥٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢/١٢٥).

وإنما حكم تعالى عليهم بأنهم اشتروا العذاب بالمغفرة؛ لأنهم لما كانوا عالمين بما هو الحق، وكانوا عالمين بأن في إظهار وإزالة الشبهة عنه أعظم الثواب، وفي إخفائه وإلقاء الشبهة فيه أعظم العقاب، فلما أقدموا على إخفاء ذلك الحق؛ كانوا بائعين للمغفرة بالعذاب لا محالة^(١).

قال السعدي: «فهؤلاء نبذوا كتاب الله، وأعرضوا عنه، واختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة، فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها، وأنى لهم الجلد عليها؟!

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور، وهو مجازاته بالعدل، ومنعه أسباب الهداية، ممن أباهما واختار سواها. ﴿يَأْنِ اللَّهُ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ومن الحق، مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. وأيضاً ففي قوله: ﴿نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ما يدل على أن الله أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده، فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه، والذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ أي: محادة، ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به، وحكموه في كل شيء، فإنهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه.

وقد تضمنت هذه الآيات، الوعيد للكافرين لما أنزل الله، المؤثرين عليه، عرض الدنيا بالعذاب والسخط، وأن الله لا يطهرهم بالتوفيق، ولا بالمغفرة، وذكر السبب في ذلك وهو إيثارهم الضلالة على الهدى، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة، ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار، لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة إليها، وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه، وعدم الافتراق، وأن كل من خالفه، فهو في غاية البعد عن الحق، والمنازعة والمخاصمة، والله أعلم^(٢).

(١) تفسير الفخر الرازي (٣١-٣٢).

(٢) التيسير (١/٢٠٧-٢٠٩).

فهرس الموضوعات

سورة البقرة

- قوله تعالى: ﴿ أَنْظِمُوْنَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥) ٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥
- قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُواهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٧٦) ١١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١١
- قوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٧٧) ١٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٤
- قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٧٨) ١٥
- ﴿ (٧٨) ١٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٥
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية ١٧
- قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (٧٩) ١٩
- ﴿ (٧٩) ١٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٩
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عدم الثقة في الأعداء ٢١

- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ٢٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٣
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرد على المخالف وبيان كذبه واقترائه ٢٤
- قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ ٢٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٦
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من محقرات الذنوب ٢٨
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ٢٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٩
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ ٣٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٠
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب بر الوالدين ٣١
- قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ٣٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٤
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مدح مكارم الأخلاق ٣٤
- قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ٣٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٧

- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ٣٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٨
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ٤١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤١
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَىٰ تَعْدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٤٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٥
- قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ٤٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٨
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ٥٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٠
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الدفاع عن النبوة وتفسير روح القدس ٥٢
- قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ٥٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٤

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ ٥٦

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٦

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى

الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ ٥٩

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٩

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عناد اليهود ٦١

قوله تعالى: ﴿يَنسَكُمَا أَشْرَرُوا بِوَيْهٍ أَنفُسُهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِعَصَابٍ عَلَى عَصَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ

عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿٩٠﴾ ٦٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٣

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَزْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ

قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩١﴾ ٦٦

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٦

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿٩٢﴾ ٦٩

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٩

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ

يَنسَكُمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٣﴾ ٧١

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧١

- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ
- أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ ٧٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٤
- باب: ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الله تعالى يكذب أعداءه بحججه وأدلته ٧٨
- قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَهْرَاصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَّجٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
- بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) ٧٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٩
- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ
- وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ ٨٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٨٢
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن حب أولياء الله من الجن والإنس والملائكة من الإيمان ٨٤
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ
- ﴾ (٩٩) ٩٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٩٠
- قوله تعالى: ﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَنْهُمْ لَا يَكْفُرُ لَكُمْ بِهِمَا لَوْلَا كَلِمَاتُ اللَّهِ لَكُنْتُمْ لِخِلْقَانٍ يَبْعَثُ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا لِيُظْهِرَهُمْ فِي آيَاتِهِ وَلَقَدْ كُنْتُمْ مِنْ أَفْوَاجٍ
- يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٠) ٩٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٩٢

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ وَرَيْقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢١﴾﴾ ٩٤
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٩٤

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنٌ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِإِذِلْ هَرُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَئِنَّ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ ٩٧

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٩٨

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن السحر من الكفر الأكبر ١٠٣
 قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَآتَوْا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ ١٢١

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٢١
 قوله تعالى: ﴿بِقَائِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢٤﴾﴾ ١٢٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٢٣

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب سد الذرائع والنهي عن التشبه بالكفار في الكليات والجزئيات ١٢٦

قوله تعالى: ﴿مَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ خَيْرِ مَّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو

- ١٢٨ الْقَفْضِلِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾
- ١٢٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١١٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٧﴾
- ١٣١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ١٣٢
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجود النسخ في كتاب الله
- ١٣٦ قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿١٣٨﴾
- ١٤٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ١٤٢
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة من النهي عن السؤال فيما لا يعنيه في أمر ديني أو دنيوي
- ١٤٤ قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٤٦﴾
- ١٥٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ١٥٠
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مدح العفو والصفح والصبر
- على الأذى
- ١٥٤ قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿١٥٠﴾
- ١٥٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ١٥٧
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن ما قدم الإنسان من ماله

- فهو له ١٥٨
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٦٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٠
- قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ١٦٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٤
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في شروط قبول الأعمال ١٦٧
- قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ ١٧١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧١
- قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ١٧٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧٣
- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ ١٧٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧٦
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب صيانة المساجد عن الأقدار الحسية والمعنوية ١٨٠
- قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ١٨١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٨١
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاستعاذة بالله من الخزي

- والعذاب ١٨١
- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلَيْهِ﴾ ١٨٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٨٣
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن النافلة يتسامح فيها ما لا يتسامح في الفريضة ١٨٥
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَدِئُونَ ﴿١١٧﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٨﴾﴾ ١٨٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٨٧
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب تنزيه الله عما لا يليق به ١٩٣
- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةً﴾ ١٩٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٩٦
- قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ١٩٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٩٨
- قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُشْغَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ ٢٠١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٠١
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان بعض صفات الرسول ﷺ ٢٠٣

- قوله تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ ٢٠٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٠٥
- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ ٢٠٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٠٨
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة اتباع الحق ٢٠٨
- قوله تعالى: ﴿وَلِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ٢١١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢١١
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ٢١٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢١٣
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عموم رسالة النبي ﷺ للإنس والجن ٢١٥
- قوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ ٢١٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢١٧
- قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ٢١٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢١٨
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الإنسان يرفعه عمله الصالح لا نسبه ٢١٩
- قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ

- ٢٢٢ وَمِنْ دُرِّيَّتِي ﴿٣٣﴾
- ٢٢٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن إبراهيم ابتلي بتحقيق
- المعتقد وإصلاح الظاهر فوق لذلك ٢٢٦
- ٢٣٧ قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾
- ٢٣٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب طاعة ولاية الأمر ما
- لم يأمروا بمعصية ٢٣٨
- ٢٤٠ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾
- ٢٤٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٤٣ قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾
- ٢٤٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تعظيم شعائر الله بالتعبد
- فيها له تعالى خالصا ٢٤٥
- ٢٤٩ قوله تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ
- وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ٢٤٩
- ٢٤٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الأمر بتطهير المساجد
- وتنظيفها ٢٥١
- ٢٥٤ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ
- ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ
- وَيُتْلَىٰ مَصْرُفٌ ﴿٣٤﴾ ٢٥٤

- ٢٥٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٥٦ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحريم مكة والمدينة
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٢٦٧
- ٢٦٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تاريخ بناء الكعبة وما حصل فيها من الآيات ٢٦٩
- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ٢٧٧
- ٢٧٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أحسن الدعاء ٢٨٠
- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٢٨٢
- ٢٨٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن النبي ﷺ دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام ٢٨٣
- مسألة: ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة العزة لله ﷻ ٢٨٤
- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ ٢٨٨
- ٢٨٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ٢٩٢
- ٢٩٢ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩٣﴾

- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٩٢
- قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾ ٢٩٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٩٤
- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ٢٩٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٩٥
- باب: ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن العاقل يسأل حسن الخاتمة، ولا يغتر بظواهر كبر الآمال ٢٩٦
- قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالِلّٰهَ ءَابَاؤُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَحِدًا وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ٢٩٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٩٨
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان وحدة العقيدة ٣٠٠
- قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ٣٠٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٠٢
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه ٣٠٤
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ٣٠٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٠٥
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن الحنفية دين الأنبياء ٣٠٧
- كلهم ٣٠٧

- قوله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا نَسْتَعِيلُ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٢٨﴾﴾ ٣٠٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٠٨
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عناية النبي ﷺ بالآية وعدم تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم ٣١٢
- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ لَوْلَا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ نَسَبْنَا إِلَهُهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٩﴾﴾ ٣١٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣١٥
- قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ ٣١٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣١٨
- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ خُضَعُونَ ﴿٢٣١﴾﴾ ٣٢١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٢١
- قوله تعالى: ﴿أَمْرٌ نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ ٣٢٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٢٥
- قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ حَلَّتْ لَهُمَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣٣﴾﴾ ٣٣١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٣١

- قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ اتَّى كَاوُوا عَلَيْهَا
 ٣٣٣ ﴿١٤٧﴾
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٣٣
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحويل القبلة ٣٣٨
 قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ
 ٣٤١ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٤١
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الشهادة يشترط فيها
 الصلاح والعدالة ٣٤٥
 قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ
 ٣٥٦ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٥٦
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة من مبادرة الصحابة لأمر الله
 ورسوله فور وصوله إليهم ٣٦٠
 قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ ٣٦٢
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٦٢
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الأعمال من الإيمان ٣٦٣
 قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ٣٦٧
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٦٧
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفتي الرأفة والرحمة ٣٦٧
 قوله تعالى: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ
 ٣٦٩ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾
 ٣٦٩

- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٦٩
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن استقبال القبلة شرط في
 الصلاة بالإجماع ٣٧١
 قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لْيَعْلَمُوا أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ
 عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ٣٧٥
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٧٥
 قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ
 بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا
 جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ٣٧٨
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٧٨
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عناد اليهود وتنكبهم عن
 الحق ٣٨٢
 قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ
 لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ٣٨٤
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٨٤
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن كتمان الحق منهاج
 يهودي قديم ومن تشبه بقوم فهو منهم ٣٨٨
 قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ٣٩٠
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٩٠
 قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٌ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ
 اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٣٩٢

- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٩٢
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من أظهر شعار الدين
 أجريت عليه أحكام أهله ما لم يظهر منه خلاف ذلك ٣٩٥
 قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ
 لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ
 حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
 تَهْتَدُونَ ﴿١٣٠﴾ ٣٩٨
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٩٨
 قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا
 وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥٦) ... ٤٠٥
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٠٥
 قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ ٤٠٩
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٠٩
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الذكر الصحيح من كمال
 التوحيد ٤١٢
 قوله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (١٥٦) يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا
 بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٦﴾ ٤٢٦
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٢٦
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن شكر النعم والصبر على
 المصائب من كمال العبودية لله ٤٢٩
 قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا

٤٣٣

تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

٤٣٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الشهادة وعظم أجر

٤٣٥

الشهداء

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ
وَالْعَمَلِ وَبَشِيرِ الْفِتْنَةِ﴾ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ

٤٤٠

﴿١٥٧﴾

٤٤٠

أقوال المفسرين في تأويل الآية

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الصبر على المصائب

٤٤٤

واستحباب الاسترجاع عند وقوعها

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ الصَّافُّوْنَ أَلْمَرَّةَ مِنَ شَعَابِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٥٨﴾ ...

٤٦١

أقوال المفسرين في تأويل الآية

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن السعي بين الصفا والمروة

٤٦٤

فرض من فرائض الحج

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ
لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ ﴿١٦٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا
وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٦١﴾

٤٧١

أقوال المفسرين في تأويل الآية

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة من أن كتمان الحق منهج

٤٧٦

يهودي، فمن شاء استقل، ومن شاء استكثر

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٦٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٧﴾ ٤٨٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٨٦
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن من مات على الكفر فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ٤٨٧
- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٦٦﴾ ٤٩٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٩٥
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان اسم الله الأعظم ٤٩٧
- قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ٤٩٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٩٨
- قوله: ﴿وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ ٥٠٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٠٠
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جواز ركوب البحروما في ذلك من المنافع ٥٠١
- قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ ٥٠٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٠٣
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قتل الحيات ٥٠٤
- قوله تعالى: ﴿وَنَصْرَفِ الرِّيحَ﴾ ٥٠٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٠٦
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الريح مخلوقة مأمورة وما صح عن النبي ﷺ فيها من أدعية وآداب ٥٠٦

- ٥١٠ قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَحَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾
- ٥١٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إرشاد المسلم إلى ما يكون عليه من الآداب حال رؤية السحاب
- ٥١١
- ٥١٣ قوله: ﴿لَا يَكْتِبُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾
- ٥١٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر بعض المخلوقات الكونية وأيام خلقها
- ٥١٥
- قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾
- ٥١٧
- ٥١٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من الشرك لا سيما في المحبة
- ٥٢٣
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾
- ٥٢٧
- ٥٢٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (١٢٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهَ فَنَتَّبِعَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٢٧) ﴿
- ٥٣٠
- ٥٣٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنَّ

- ٥٣٨ ﴿تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٦)
 ٥٣٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الحلال ما حلله الله والحرام
 ما حرمه ، وما سوى ذلك فهو غلو وتنطع ٥٤٦
 قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا
 أَوَّلُو كَات ءَابَاؤُهُمْ لَا يَفْقَلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (٦٧) ٥٤٩
 ٥٤٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً
 صُمُّ بَكْمٌ عَمَىٰ فَهْمٌ لَا يَقْلُونَ﴾ (٦٨) ٥٥٦
 ٥٥٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن
 كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٦٩) ٥٥٩
 ٥٥٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على الأكل من
 الطيبات وأنه سبب لاستجابة الدعاء ٥٦٠
 قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ
 لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٧٠) ٥٦٦
 ٥٦٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة من تقييد مطلق القرآن ،
 وتخصيص عمومه ، وتفسير مجمله ٥٧٢
 قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا
 قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا

- ٥٧٦ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ «
- ٥٧٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان بعض الذين لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم
- ٥٧٩ قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ ﴿٧٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا
- ٥٨١ فِي الْكِتَابِ لَنِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٧٨﴾ «
- ٥٨١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٥٨٥ فهرس الموضوعات